

تأليف

د. محمد بن حسن عقيل موسى الشريف

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

دار الأندلس الخضراء

المملكة العربية السعودية - جدة
الإدارة: ص.ب ٤٢٣٤٠ جدة ٢١٥٤١
هاتف: ٦٨١٠٥٧٧ - فاكس ٦٨١٠٥٧٨

المكتبات • حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز السلامة التجاري
هاتف . فاكس ٦٨٢٥٢٠٩

• حي الثغر - شارع بلخشب - سوق الجامعة التجاري
هاتف: ٦٨١٥٠٢٧ - فاكس: ٦٨١٠٥٧٨

• فرع الرياض: حي السويدي الغربي - بجوار أسواق اليمامة
هاتف: ٢٤٣٤٩٣٠ ـ فاكس ٤٣٣٣٦٥٧

http: //www. al-andalus-kh.com

E-MAIL : info @ al-andalus-kh. com

مقالات الإسلاميين

في شهر رمضان الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾.



قال أحمد شوقي:

«الصوم حِرمانٌ مشروع، وتأديبٌ بالجوع، وخشوعٌ لله وخضوع. لكلِّ فريضةٍ حِكمة، وهذا الحكمُ ظاهرُه العذابُ وباطنه الرحمة، يستثير الشفقة، ويحضُّ على الصَّدقة، يكسِر الكِبْر، ويعلِّم الصَّبْر، ويَسُنُّ خِلال البِرّ؛ حتى إذا جاع مَنْ أَلِفَ الشَّبَع، وحُرِمَ المُتْرَفُ أسبابَ المُتَع، عرف الحِرمانَ كيف يقع، والجوعَ كيف ألمُه إذا لَذَع»[1].

(١) «أسواق الذهب»: ٨٩.

المقـــدِّمَة

الحمد لله الذي كتب علينا الصيام، ووعدنا عليه جزيل الأجر والإنعام، ورغبنا في لياليه بالقيام، وشرَّف شهر رمضان بنزول القرآن، وجمَّل لياليه بالعشر الأواخر العظام، وبليلة القدر التي هي خير من سائر ليالي العام.

وصلِّ اللَّهُمَّ وسلِّم على خير من صام وقام، سيِّد الأنام، أفضل الرسل الكرام والأنبياء العظام، رزقنا الله اتِّباع سنَّته، والأخذ بكامل شريعته، وحشرنا تحت لوائه، وسقانا من حوضه، آمين.

أما بعد:

فإنَّ شهر الصيام يعاودنا كل عام ليملأنا إيماناً ويقيناً، ويرجعنا إلى تلاوة القرآن وصلاة القيام التي يفتقدها أكثر المسلمين إلاَّ في رمضان حيث تمتلىء المساجد بالمصلين، ويعود كثير من الناس إلى دينهم ويراجعون أحوالهم، ويقبلون على الخيرات وقراءة القرآن في جو إيماني فريد مؤثِّر.

وإنها لفرصة كبيرة أن يقوم الخطباء والوعَّاظ والأئمة في الناس مذكِّرين وناصحين، ومعلِّمين ومرشدين، ومفقهين ومؤدبين، ويقرأوا لهم ما يثبت إيمانهم ويعظم يقينهم من حِكَم رمضان وأحداثه،.وذلك لأنَّ

جمهرة المصلين الحاشدة لن توجد في أي شهر آخر، ومن المخالف للسنن المطالبة بأن يكون الناس بعد رمضان مقبلين على المساجد والخير إقبالهم في رمضان، فلرمضان خصيصة ليست لغيره من الشهور.

وبسبب هذا الأمر الذي وصفته آنفاً فإنَّ حاجة الخطباء والمتحدِّثين والوعَّاظ في مختلف وسائل الإعلام وفي المساجد تشتد إلى الاستعانة بكتابات جادة رصينة فريدة، فيها حِكَم وعِبَر مسرودة على وجه جديد مشوق؛ وذلك لأنَّ أغلب ما يقال ويلقى على المسامع مكرور رتيب، لا يتحمَّس له أكثر سامعيه.

هذا وقد تبيَّن لي أنَّ للقدماء والمعاصرين من العلماء والمفكِّرين كتابات رصينة جادة مهمة تخفى في بطون الكتب والمجلَّات لا يكاد يعرفها أحد، وهي ـ في أكثرها ـ على غاية من الأهمية والقوة والحكمة، فرأيت أن أجمع تلك المقالات في سِفْر واحد لتكون قريبة التناول من كل متحدث وواعظ وخطيب؛ وذلك حتى تتَّصل حكمة القدماء بحماسة المعاصرين فيكون لما يُلقى على الأسماع الأثرُ الإيماني المطلوب.

هذا وقد جريت في جمع تلك المقالات على المنهج التالي:

١ ـ استخرجت المقالات من كتب قديمة وحديثة، ومن بطون المجلات القديمة والحديثة أيضاً.

٢ ـ تخيرت مما أخرجت كلَّ مقالة فيها معان جديدة، أو معان معروفة لكنها عرضت على وجه جديد مشوق مظهر للعبر والحكم، أو أبدع أصحابها في سَوْق الكلام على وجه مؤثر.

٣ ـ في اختياري تلك المقالات صرفت النظر عن التعلق بالأسماء، والتفتُّ إلى جودة السرد والعرض والمعاني لا إلى كاتبها.

٤ ـ حذفت المكرر من المقالات؛ إذ التكرار صفة ملازمة لكثير من مقالات رمضان.

٥ ـ اختصرت بعض المقالات المختارة إن كانت طويلة، أو فيها شيء من الإملال أو التكرار.

٦ ـ هذَّبت من المقالات ما يحتاج إلى تهذيب إما لأفكار فيها غير مناسبة، أو فيها مخالفة شرعية أو فكرية.

٧ ـ حذفت من الأحاديث والآثار ما لا يدخل في دائرة الاحتجاج.

٨ ـ ترجمت لأصحاب المقالات، لمن وجدت له ترجمة، أما الأحياء فقد أغفلت ترجمتهم، وخرَّجت الآيات، وشرحت الغريب الذي قد لا يتبيَّن لكثير من القرَّاء معناه.

٩ ـ قسَّمت المقالات المختارة بحسب مواضيعها التي تناولتها، ووضعت كلاًّ منها في قسم منفرد حتى يسهل الرجوع إليه والاستفادة منه.

هذا وقد رسخ ـ عندي ـ أهمية أن يُعنى بتراثنا على وجه الجمع والاستقصاء ثم الاختيار وإعادة العرض بما يناسب العصر، فالهمم قد كَلَّت عن التتبع والتنقيب، والوقت لم يعد يُسعف الباحثين، وقد كررت في بعض كتبي الدعوة إلى أن يفرغ بعض الباحثين أنفسهم لهذه المهمة السامية لأنني لا أرى اعتناءً كافياً بما ذكرت، وأرى أنَّ الباحثين ـ عند بحثهم وكتابتهم ـ لا يعتنون بإبراز أثر الأجداد ولا يصلونه بما يفكِّرون ويكتبون، فعلى سبيل المثال فإنَّ هذه المقالات ـ أكثرها ـ درر مكنونة في أصدافها لا يكاد يعرفها أكثر أهل العصر، ثم إنَّ الباحثين والخطباء

والواعظين يقدِّمون على استخراج حكم رمضان وأسراره كأنه لم يسبقهم إلى ذلك أحد من العلماء والمفكِّرين الكبار في العصور السوالف الغوابر، وفي عصرنا الحاضر.

فالالتفات إلى تراثنا ـ إذاً ـ واستخراج كنوزه ودرره على وجه منظَّم مختصر مفيد ومشوّق أمرٌ تمسّ الحاجة إليه في هذا العصر المتميز بالسرعة والانتقال السريع للمعلومات، المعلومات التي هي في غالبها الأعظم حديثة غير موصولة بالماضي وتراثه وعظمته.

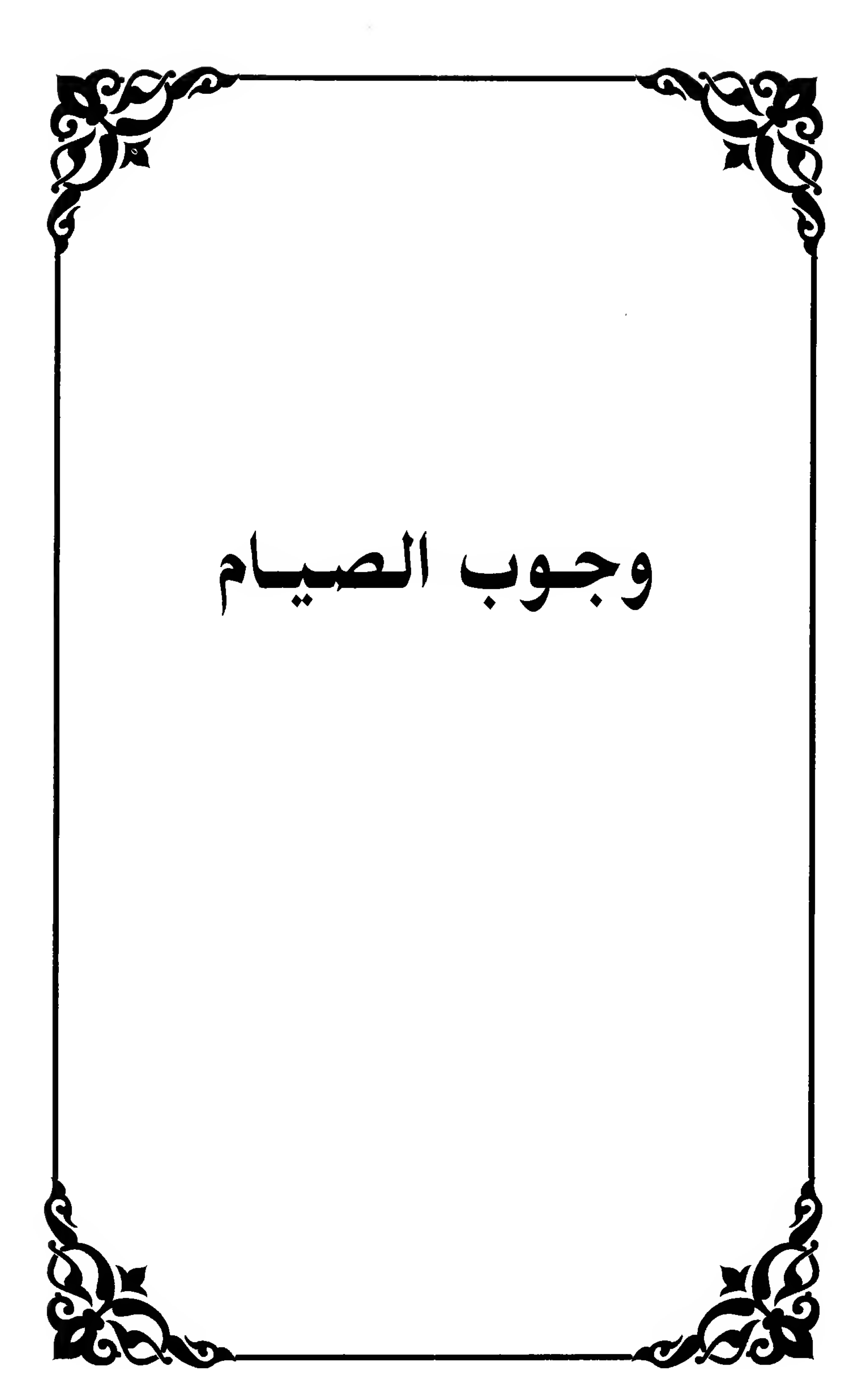
هذا والله تعالى أسأل أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله مسطوراً في صحائف القَبول، وأن يجزيني عليه من فضله ما هو مأمول، في يوم العرض المهول، والله المستعان، وعليه التكلان، والحمد لله أوَّلاً وآخراً، والصَّلاة والسَّلام على المبعوث آخِراً فاخِراً، وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه

د. محمد موسى الشريف

ص.ب ٤٢٣٤٠ ـ جدة ٢١٤٥١

Mohammad - Musa@Hotmail.Com



وجوب الصيام



وجوب الصيام وفضله

للإمام النووي[١]

قال الإمام:

باب وجوب صوم رمضان وبيان فضل الصيام وما يتعلق به:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ ﴾[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله عز وجل: **«كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنة[٣] فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يَرْفُثْ[٤] ولا يصخب، فإن سابّه أحد**

---

(١) يحيى بن شرف بن مُرِّي، مفتي الأمة، شيخ الإسلام، محيـي الدين، أبو زكريا النووي، الحافظ الفقيه الشافعي الزاهد أحد الأعلام. ولد سنة ٦٣١ بـ «نوى» إحدى قرى حوران شمال الشام. قدم إلى دمشق فاجتهد في الاشتغال بالعلم، وألف مصنفات نفع الله تعالى بها المسلمين واشتهرت وجلبت إلى الأمصار. توفي بـ«نوى» سنة ٦٧٦ رحمه الله تعالى. انظر «فوات الوفيات»: ٤/ ٢٦٤ ـ ٢٦٨، و«الأعلام»: ٨/ ١٤٩ ـ ١٥٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

(٣) أي وقاية وستر.

(٤) أي لا يتكلم بمقدمات الجماع ولا دواعيه.

أو قاتله فليقل: إني صائم، والذي نفس محمد بيده لَخَلُوف فم الصائم[١] أطيب عند الله من ريح المسك، للصائم فرحتان يفرحهما إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه» متفق عليه، وهذا لفظ رواية البخاري.

وفي رواية له: «يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، الصيام لي وأنا أجزي به، والحسنة بعشر أمثالها».

وفي رواية لمسلم: «كل عمل ابن آدم يضاعَف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. قال الله تعالى: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي، للصائم فرحتان: فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه، ولَخَلوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك».

وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أنفق زوجين[٢] في سبيل الله نودي من أبواب الجنة: يا عبدالله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة»، قال أبوبكر رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي يارسول الله، ما على من دعي من تلك الأبواب من ضرورة[٣]، فهل يُدعى أحد من تلك

---

(١) أي تغير رائحة فم الصائم.

(٢) أي أنفق شيئين من أي صنف من أصناف المال من نوع واحد: انظر «فتح الباري»: ٨/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

(٣) قال الإمام العيني: قوله «من ضرورة» أي من ضرر، أي ليس على المدعو من كل الأبواب مضرة، أي قد سعد من دعي من أبوابها جميعاً، ويقال معناه: ما على من دعي من تلك الأبواب من لم يكن إلا من أهل خصلة واحدة ودعي من بابها لا ضرر عليه لأن الغاية المطلوبة دخول الجنة من أيها أراد لاستحالة الدخول من الكل معاً» «عمدة القاري»: ٩/ ١٥ ـ ١٦.

الأبواب كلّها؟ فقال: «**نعم وأرجو أن تكون منهم**» متفق عليه.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن في الجنة باباً يقال له الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم**» متفق عليه.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد يصوم يوماً في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفاً**» متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**» متفق عليه.

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصُفِّدت الشياطين**» متفق عليه.

وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «**صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته؛ فإن غُبي**[١] **عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين**» متفق عليه، وهذا لفظ البخاري، وفي رواية مسلم: «**فإن غُمّ عليكم فصوموا ثلاثين يوماً**».

باب الجود وفعل المعروف والإكثار من الخير في شهر رمضان والزيادة من ذلك في العشر الأواخر منه:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**كان رسول الله ﷺ أجودَ الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلَرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة**» متفق عليه.

---

(١) أي غُمّ عليكم.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «**كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر أحيا الليل، وأيقظ أهله، وشد المِئْزر**» متفق عليه.

باب النهي عن تقدم رمضان بصوم بعد نصف شعبان إلا من وصله بما قبله أو وافق عادة له بأن كان عادته صوم الاثنين والخميس فوافقه:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يتقدمن أحدكم رمضان بصوم يوم أو يومين إلا أن يكون رجل كان يصوم صومه فليصم ذلك اليوم**» متفق عليه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تصوموا قبل رمضان، صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن حالت دونه غَياية فأكملوا ثلاثين يوماً**»، رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

الغياية بالغين المعجمة وبالياء المثناة من تحت المكرر، وهي السحابة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا بقي نصفٌ من شعبان فلا تصوموا**». رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

وعن أبي اليقظان عمار بن ياسر رضي الله عنهما قال: «**من صام اليوم الذي يشك فيه فقد عصى أبا القاسم ﷺ**». رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح.

باب ما يقال عند رؤية الهلال:

عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ كان إذا رأى الهلال قال: «**اللهم أهِلَّه علينا بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام، ربي وربك الله، هلال رشد وخير**». رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

باب فضل السحور وتأخيره ما لم يخش طلوع الفجر:

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تسحروا فإن في السحور بركة**» متفق عليه.

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «تسحرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا إلى الصلاة قيل: كم كان بينهما؟ قال: خمسون آية»(١). متفق عليه.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان لرسول الله ﷺ مؤذنان بلال وابن أم مكتوم فقال رسول الله ﷺ: «**إن بلالاً يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم**» قال: ولم يكن بينهما إلا أن ينزل هذا، ويَرْقى هذا(٢)، متفق عليه.

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**فَصْلُ ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أَكْلة السَحَر**» رواه مسلم.

باب فضل تعجيل الفطر وما يفطر عليه وما يقوله بعد إفطاره:

عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزال

---

(١) قال ابن حجر: «أي متوسطة لا طويلة ولا قصيرة ولا سريعة ولا بطيئة». انظر «فتح الباري»: ٨/ ٢٧٨.

(٢) قال الإمام النووي: «قال العلماء: معناه أن بلالاً كان يؤذن قبل الفجر، ويتربص بعد أذانه للدعاء ونحوه ثم يرقب الفجر، فإذا قارب طلوعه نزل فأخبر ابن أم مكتوم فيتأهب ابن أم مكتوم بالطهارة وغيرها ثم يرقى ويشرع في الأذان مع أول طلوع الفجر، والله أعلم»: «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٧/ ١٦٦ ـ ١٦٧.

الناس بخير ما عجلوا الفطر» متفق عليه.

وعن أبي عطية قال: دخلت أنا ومسروق على عائشة رضي الله عنها فقال لها مسروق: رجلان من أصحاب محمد ﷺ كلاهما لا يألو عن الخير، أحدهما يعجل المغرب والإفطار، والآخر يؤخر المغرب والإفطار، فقالت: من يعجل المغرب والإفطار؟ قال عبدالله: يعني ابن مسعود، فقالت: هكذا كان رسول الله ﷺ يصنع. رواه مسلم. قوله: لا يألو: أي لا يقصر في الخير.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله عزوجل: «**أحب عبادي إليّ أعجلهم فطراً**» رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أقبل الليل من ههنا، وأدبر النهار من ههنا، وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم**» متفق عليه.

وعن أبي إبراهيم عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنهما قال: سرنا مع رسول الله ﷺ وهو صائم، فلما غربت الشمس قال لبعض القوم: «**يا فلان، انزل فاجْدَحْ لنا**»، فقال: يا رسول الله لو أمسيت، قال: «**انزل فاجدح لنا**»، قال: إن عليك نهاراً، قال: «**انزل فاجدح لنا**»، قال: فنزل فجدح لهم، فشرب رسول الله ﷺ ثم قال: «**إذا رأيتم الليل قد أقبل من ههنا فقد أفطر الصائم**»، وأشار بيده قِبَل المشرق، متفق عليه. قوله: «اجدح» بجيم ثم دال ثم حاء مهملتين أي: اخلط السويق بالماء.

وعن سلمان بن عامر الضبي الصحابي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر، فإن لم يجد فليفطر على ماء فإنه طهور**» رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وعن أنس رضي الله عنه قال: «**كان رسول الله ﷺ يفطر قبل أن يصلي على رُطَبات، فإن لم تكن رطبات فتمرات، فإن لم تكن تمرات حسا حَسَوات من ماء**» رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن.

باب أمر الصائم بحفظ لسانه وجوارحه من المخالفة والمشاتمة ونحوها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني صائم**» متفق عليه.

وعنه قال: قال النبي ﷺ: «**من لم يَدَع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**» رواه البخاري.

باب في مسائل من الصوم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إذا نسي أحدكم فأكل أو شرب فليتم صومه، فإنما أطعمه الله وسقاه**» متفق عليه.

وعن لقيط بن صبرة رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، أخبرني عن الوضوء قال: «**أسبغ الوضوء، وخَلِّل بين الأصابع، وبالغ في الاستنشاق إلا أن تكون صائماً**» رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «**كان رسول الله ﷺ يدركه الفجر وهو جنب من أهله ثم يغتسل ويصوم**» متفق عليه.

وعن عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما قالتا: «**كان رسول الله ﷺ يصبح جنباً من غير حلم ثم يصوم**» متفق عليه . . .

استحباب صوم ستة أيام من شوال:

عن أبي أيوب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر**» رواه مسلم . . .

باب فضل قيام ليلة القدر وبيان أرجى لياليها:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ إلى آخر السورة(١). وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ الآيات(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه**» متفق عليه.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر، فقال رسول الله ﷺ: «**أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر، فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر**» متفق عليه.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «**كان رسول الله ﷺ يجاور في العشر الأواخر من رمضان ويقول: تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان**» متفق عليه.

وعنها رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان**» رواه البخاري.

---

(١) سورة القدر: الآية ١.
(٢) سورة الدخان: الآية ٣.

وعنها رضي الله عنها قالت: «**كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا الليل كله، وأيقظ أهله، وجدّ وشدّ المئزر**» متفق عليه.

وعنها قالت: «**كان رسول الله ﷺ يجتهد في رمضان ما لا يجتهد في غيره، وفي العشر الأواخر منه ما لا يجتهد في غيره**» رواه مسلم.

وعنها قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن علمت أي ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: «**قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني**» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح[1].

(١) «رياض الصالحين».

هديه ﷺ في الصيام
للإمام ابن القيم[١]

قال الإمام:

لما كان المقصودُ من الصيام حبسَ النفسِ عن الشهوات، وفِطامَها عن المألوفات، وتعديل قوتها الشهوانية، لَتستعِد لطلب ما فيه غايةُ سعادتها ونعيمها، وقبول ما تزكو به مما فيه حياتُها الأبدية، ويكسِر الجوعُ والظمأ مِن حِدَّتها وسَوْرتِها، ويُذكِّرها بحال الأكباد الجائعةِ من المساكين، وتضيق مجاري الشيطانِ من العبد بتضييق مجاري الطعام والشراب، وتحبس قُوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرُّها في معاشها ومعادها، ويُسكِّنُ كُلَّ عضوٍ منها وكل قوةٍ عن جماحه، وتُلجَمُ بلجامه، فهو لجامُ المتقين، وجُنَّةُ المحاربين، ورياضة الأبرار والمقرَّبين، وهو لربِّ العالمين مِن بين سائر الأعمال؛ فإن الصائم لا يفعلُ شيئاً، وإنما يتركُ شهوتَه وطعامَه وشرابَه من أجل معبوده، فهو

(١) الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرَعي الدمشقي شمس الدين ابن قيم الجوزية الحنبلي. ولد سنة ٦٩١. وكان جريء الجَنان واسعَ العلم، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف. غلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله بل ينتصر له في جميع ذلك. وكان كثير الصلاة والتلاوة، حسنَ الخلق، كثير التودد. توفي سنة ٧٥١ بدمشق رحمه الله تعالى.

تركُ محبوبات النفس وتلذُّذاتها إيثاراً لمحبة الله ومرضاته، وهو سِرٌّ بين العبد وربه لا يطَّلِع عليه سواه، والعبادُ قد يَطَّلِعُون منه على تركِ المفطرات الظاهرة، وأما كونه ترك طعامَه وشرابه من أجل معبوده، فهو أمرٌ لا يطَّلع عليه بشرٌ، وذلك حقيقةُ الصوم.

وللصوم تأثيرٌ عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة، والقوى الباطنة، وحِميتِها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التي إذا استولت عليها أفسدتها، واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحتها، فالصومُ يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويُعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات، فهو من أكبر العونِ على التقوى كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[1].

وقال النبي ﷺ: «الصوم جُنَّة»، وأمر من اشتدت عليه شهوة النكاح، ولا قدرة له عليه بالصيام، وجعله وجاءَ هذه الشهوة[2].

والمقصود أن مصالحَ الصومِ لمَّا كانت مشهودةً بالعقول السليمة، والفِطر المستقيمة شرعه الله لعباده رحمة بهم، وإحساناً إليهم، وحِميةً لهم وجُنَّةً.

وكان هدي رسول الله ﷺ فيه أكمل الهدي، وأعظم تحصيل للمقصود، وأسهله على النفوس.

ولما كان فَطْمُ النفوسِ عن مألوفاتها وشهواتها من أشق الأمور

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٣.

(٢) أي قاطع هذه الشهوة.

وأصعبها تأخَّر فرضُه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة، لما توطنتِ النفوس على التوحيد والصلاة، وألِفَت أوامِرَ القرآن، فنُقِلت إليه بالتدريج.

وكان فرضه في السنة الثانية من الهجرة، فتوفي رسول الله ﷺ وقد صامَ تِسع رمضانات، وفُرِضَ أولاً على وجه التخيير بينه وبين أن يُطعِم عن كُلِّ يوم مسكيناً، ثم نُقِلَ مِن ذلك التخيير إلى تحتُّم الصوم، وجعل الإطعام للشيخ الكبير والمرأة إذا لم يُطيقا الصيام، فإنهما يُفطران ويطعمان عن كل يوم مسكيناً، ورخص للمريض والمسافر أن يفطرا ويقضيا، ولِلحامل والمُرضِع إذا خافتا على أنفسهما كذلك، فإن خافتا على ولديهما زادتا مع القضاء إطعام مِسكين لكل يوم، فإن فِطرهما لم يكن لِخوف مرض، وإنما كان مع الصحة، فجبر بإطعام المسكين كفطر الصحيح في أول الإسلام.

وكان للصوم رُتبٌ ثلاث، إحداها: إيجابُه بوصف التخيير.

والثانية: تحتُّمه، لكن كان الصائم إذا نام قبل أن يَطْعَم حَرُمَ عليه الطعام والشراب إلى الليلة القابلة، فنسخ ذلك بالرتبة الثالثة، وهي التي استقر عليها الشرعُ إلى يوم القيامة.

وكان من هديه ﷺ في شهر رمضان الإكثارُ من أنواع العبادات، فكان جبريل عليه الصلاة والسلام يُدارسه القرآن في رمضان، وكان إذا لقيه جبريل أجودَ بالخير من الريح المرسلة، وكان أجودَ الناس، وأجود ما يكون في رمضان، يُكثر فيه من الصدقة والإحسان وتلاوة القرآن، والصلاة، والذكر، والاعتكاف.

وكان يَخُصُّ رمضان من العبادة بما لا يخص غيره به من الشهور، حتى إنه كان ليوصل فيه أحياناً لِيُوفِّر ساعات ليله ونهاره على العبادة،

وكان ينهى أصحابه عن الوِصال، فيقولون له: إنك تُواصل، فيقول: **«لست كهيئتكم إني أبيتُ ـ وفي رواية: إني أظَلُّ ـ عند ربي يُطعمُني ويَسقِيني»**.

وقد اختلف الناسُ في هذا الطعام والشراب المذكورين على قولين.

أحدهما: أنه طعامٌ وشراب حِسيٌّ للفم، قالوا: وهذه حقيقةُ اللفظ، ولا موجب للعُدول عنها.

الثاني: أن المرادَ به ما يُغذِّيه الله به من معارفه، وما يفيضُ على قلبه من لذة مناجاته، وقُرةِ عينه بقربه، وتنعُّمِه بحبه، والشوقِ إليه، وتوابع ذلك من الأحوال التي هي غذاءُ القلوب، ونعيمُ الأرواح، وقرةُ العين، وبهجةُ النفوسِ والرُّوح والقلب بما هو أعظمُ غذاء وأجودُه وأنفعه، وقد يقوى هذا الغذاء حتى يُغني عن غِذاء الأجسام مدةً من الزمان، كما قيل:

لها أحاديث من ذكراك تشغلُها ... عن الشرابِ وتلهِيها عنِ الزاد
لها بوجهك نورٌ تستضيءُ به ... ومن حديثك في أعقابها حادي
إذا شكَتْ من كَلالِ السيرِ أوْعدَها ... رُوْحُ القُدومِ فتحيا عند ميعادِ

ومن له أدنى تجربة وشوق يعلم استغناء الجسم بغذاء القلب والروح عن كثير من الغِذاء الحيواني، ولا سيما المسرورَ الفرحانَ الظافرَ بمطلوبه الذي قد قرَّت عينُه بمحبوبه، وتنعَّم بقربه، والرضى عنه، وألطاف محبوبه وهداياه وتحفه تصل إليه كل وقت، ومحبوبه حفي به، معتنٍ بأمره، مكرِمٌ له غاية الإكرام مع المحبة التامة له، أفليس في هذا أعظم غِذاء لهذا المحب؟ فكيف بالحبيب الذي لا شيء أجلُّ منه، ولا أعظم، ولا أجمل، ولا أكمل، ولا أعظم إحساناً إذا امتلأ قلب المحب بحبه، وملك حبُّه جميع أجزاء قلبه وجوارحه، وتمكن حبه منه أعظم تمكن،

وهذا حاله مع حبيبه، أفليس هذا المحب عند حبيبه يُطعمه ويسقيه ليلاً ونهاراً؟ ولهذا قال: «**إني أظلُّ عند ربي يُطعمني ويسقيني**»، ولو كان ذلك طعاماً وشراباً للفم لما كان صائماً فضلاً عن كونه مواصلاً، وأيضاً فلو كان ذلك في الليل لم يكن مواصلاً، ولقال لأصحابه إذا قالوا له: إنك تواصل: «**لستُ أواصل**»، ولم يقل: «**لست كهيئتكم**»، بل أقرَّهم على نسبة الوِصال إليه، وقطع الإلحاق بينه وبينهم في ذلك بما بيَّنه من الفاروق ـ كما في صحيح مسلم ـ من حديث عبدالله بن عمر، أن رسول الله ﷺ واصل في رمضان، فواصل الناسُ، فنهاهم، فقيل له: أنت تواصل. فقال: «**إني لست مِثلكم، إني أُطعَمُ وأُسقى**»[1].

(١) «زاد المعاد»: ٢/ ٢٨ ـ ٣٣.

فضل الصيام
للإمام ابن رجب الحنبلي(١)

قال الإمام:

ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«كل عمل ابن آدم له، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله عز وجل: إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي، للصائم فرحتان: فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه، ولَخَلُوف(٢) فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»**.

وفي رواية: **«كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي»**.

وفي رواية للبخاري: **«لكل عمل كفارة والصوم لي وأنا أجزي به»**.

وخرجه الإمام أحمد من هذا الوجه ولفظه: **«كل عمل ابن آدم له كفارة إلا الصوم والصوم لي وأنا أجزي به»** فعلى الرواية الأولى يكون

---

(١) عبدالرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي الشهير بابن رجب. الشيخ الإمام العلامة، الزاهد القدوة البركة، الحافظ العمدة الثقة. قدم من بغداد مع والده إلى دمشق وهو صغير سنة ٧٤٤، وسمع بدمشق وبمكة وبمصر الحديث. وكانت مجالس تذكيره ووعظه مؤثرة نافعة، واجتمعت الفرق على حبه، وله مصنفات مفيدة، وكان منعزلاً عن الناس. توفي سنة ٧٩٥ رحمه الله تعالى. انظر «شذرات الذهب»: ٦/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠.

(٢) الخَلُوف: تغير رائحة الفم.

استثناء الصوم من الأعمال المضاعفة فتكون الأعمال كلها تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام فإنه لا ينحصر تضعيفه في هذا العدد بل يضاعفه الله عزوجل أضعافاً كثيرة بغير حصر عدد؛ فإن الصيام من الصبر، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١) ولهذا ورد عن النبي ﷺ أنه سمى شهر رمضان شهر الصبر، وفي حديث آخر عنه ﷺ قال: «**الصوم نصف الصبر**» خرجه الترمذي.

والصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن محارم الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، وتجتمع الثلاثة في الصوم فإن فيه صبراً على طاعة الله، وصبراً عما حرم الله على الصائم من الشهوات، وصبراً على ما يحصل للصائم فيه من ألم الجوع والعطش وضعف النفس والبدن، وهذا الألم الناشىء من أعمال الطاعات يثاب عليه صاحبه كما قال الله تعالى في المجاهدين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٢).

وفي حديث سلمان المرفوع الذي أخرجه ابن خزيمة في صحيحه في فضل شهر رمضان: «**وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة**».

وفي الطبراني عن ابن عمر مرفوعاً: «**الصيام لله لا يعلم ثواب عمله إلا الله عزوجل**» ورُوي مرسلاً وهو أصح.

---

(١) سورة الزمر: الآية ١٠.
(٢) سورة التوبة: الآية ١٢٠.

واعلم أن مضاعفة الأجر للأعمال تكون بأسباب: منها شرف المكان المعمول فيه ذلك العمل كالحرم، ولذلك تضاعف الصلاة في مسجدي مكة والمدينة كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «**صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام**» وفي رواية: «**فإنه أفضل**»، وكذلك روي أن الصيام يضاعف بالحرم.

ومنها شرف الزمان كشهر رمضان وعشر ذي الحجة، وفي حديث سلمان الفارسي المرفوع الذي أشرنا إليه في فضل شهر رمضان: «**من تطوع فيه بخصلة من خصال الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدّى فيه فريضة كان كمن أدّى سبعين فريضة فيما سواه**».

وفي الترمذي عن أنس: سئل النبي ﷺ: أي الصدقة أفضل؟ قال: «**صدقة في رمضان**».

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «**عمرة في رمضان تعدل بحجة**» أو قال: «**حجة معي**».

قال النَخَعي: «صوم يوم من رمضان أفضل من ألف يوم، وتسبيحة فيه أفضل من ألف تسبيحة، وركعة فيه أفضل من ألف ركعة». فلما كان الصيام في نفسه مضاعفاً أجره بالنسبة إلى سائر الأعمال كان صيام شهر رمضان مضاعفاً على سائر الصيام لشرف زمانه وكونه هو الصوم الذي فرضه الله على عباده وجعل صيامه أحد أركان الإسلام التي بُني الإسلام عليها.

وقد يضاعف الثواب بأسباب أُخَر منها:

شرف العامل عند الله وقربه منه وكثرة تقواه كما ضوعف أجر هذه

الأمة على أجور مَن قبلهم من الأمم وأُعطوا كفلين من الأجر، وأما على الرواية الثانية فاستثناء الصيام من بين الأعمال يرجع إلى أن سائر الأعمال للعباد والصيام اختصه الله تعالى لنفسه من بين أعمال عباده وأضافه إليه، وسيأتي ذكر توجيه هذا الاختصاص إن شاء الله تعالى.

وأما على الرواية الثالثة فالاستثناء يعود إلى التكفير بالأعمال. ومن أحسن ما قيل في ذلك ما قاله سفيان بن عيينة رحمه الله قال: هذا من أجود الأحاديث وأحكمها: «**إذا كان يوم القيامة يحاسب الله عبده ويؤدي ما عليه من المظالم من سائر عمله حتى لا يبقى إلا الصوم فيتحمل الله عز وجل ما بقي عليه من المظالم ويدخله بالصوم الجنة**» خرجه البيهقي في «شعب الإيمان» وغيره، وعلى هذا فيكون المعنى إن الصيام لله عزوجل فلا سبيل لأحد إلى أخذ أجره من الصيام بل أجره مدخر لصاحبه عند الله عزوجل وحينئذ فقد يقال: إن سائر الأعمال قد يكفر بها ذنوب صاحبها فلا يبقى لها أجر فإنه روي أنه يوازن يوم القيامة بين الحسنات والسيئات ويقص بعضها من بعض فإن بقي من الحسنات حسنة دخل بها صاحبها الجنة. قاله سعيد بن جبير وغيره. وفيه حديث مرفوع خرجه الحاكم من حديث ابن عباس مرفوعاً فيحتمل أن يقال في الصوم إنه لا يسقط ثوابه بمقاصة ولا غيرها بل يوفر أجره لصاحبه حتى يدخل الجنة فيوفى أجره فيها.

وأما قوله: «فإنه لي» فإن الله خص الصيام بإضافته إلى نفسه دون سائر الأعمال، وقد كثر القول في معنى ذلك من الفقهاء والصوفية وغيرهم وذكروا فيه وجوهاً كثيرة ومن أحسن ما ذكر فيه وجهان:

أحدهما: أن الصيام هو مجرد ترك حظوظ النفس وشهواتها الأصلية

التي جبلت على الميل إليها لله عز وجل، ولا يوجد ذلك في عبادة أخرى غير الصيام؛ لأن الإحرام إنما يترك فيه الجماع ودواعيه من الطيب دون سائر الشهوات من الأكل والشرب، وكذلك الاعتكاف مع أنه تابع للصيام، وأما الصلاة فإنه وإن ترك المصلي فيها جميع الشهوات إلا أن مدتها لا تطول فلا يجد المصلي فقد الطعام والشراب في صلاته بل قد نُهي أن يصلي ونفسه تشوق إلى طعام بحضرته حتى يتناول منه ما يسكن نفسه، ولهذا أمر بتقديم العشاء على الصلاة، وذهبت طائفة من العلماء إلى إباحة شرب الماء في صلاة التطوع، وكان ابن الزبير يفعله في صلاته، وهو رواية عن الإمام أحمد، وهذا بخلاف الصيام فإنه يستوعب النهار كله فيجد الصائم فَقْدَ هذه الشهوات وتشوق نفسه إليها خصوصاً في نهار الصيف لشدة حره وطوله، ولهذا روي أن من خصال الإيمان الصوم في الصيف، وقد كان رسول الله ﷺ يصوم رمضان في السفر في شدة الحر دون أصحابه كما قاله أبو الدرداء: كنا مع النبي ﷺ في سفر وأحدنا يضع يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبدالله بن رواحة.

وفي الموطأ إنه ﷺ كان بالعرج[1]: يصب الماء على رأسه وهو صائم من العطش أو الحر.

فإذا اشتد تَوَقان النفس إلى ما تشتهيه مع قدرتها عليه ثم تركته لله عزوجل في موضع لا يطلع عليه إلا الله كان ذلك دليلاً على صحة الإيمان؛ فإن الصائم يعلم أن له رباً يطلع عليه في خلوته، وقد حرم عليه

(١) عقبة بين مكة والمدينة على طريق الحاج. انظر «معجم البلدان»: ٤/ ٩٩.

أن يتناول شهواته المجبول على الميل إليها في الخلوة فأطاع ربه وامتثل أمره واجتنب نهيه خوفاً من عقابه ورغبة في ثوابه، فشكر الله تعالى له ذلك واختص لنفسه عمله هذا بين سائر أعماله، ولهذا قال بعد ذلك: إنه إنما ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي، قال بعض السلف: طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعد غيب لم يره.

لما علم المؤمن الصائم أن رضا مولاه في ترك شهواته قدم رضا مولاه على هواه فصارت لذته في ترك شهوته لله لا لإيمانه باطِّلاع الله وثوابه وعقابه أعظم من لذته في تناولها في الخلوة إيثاراً لرضا ربه على هوى نفسه بل المؤمن يكره ذلك في خلوته أشد من كراهته لألم الضرب، ولهذا كثير من المؤمنين لو ضرب على أن يفطر في شهر رمضان لغير عذر لم يفعل لعلمه لكراهة الله لفطره في هذا الشهر، وهذا من علامات الإيمان أن يكره المؤمن ما يلائمه من شهواته إذا علم أن الله يكرهه فتصير لذته فيما يرضي مولاه وإن كان مخالفاً لهواه، ويكون ألمه فيما يكرهه مولاه وإن كان موافقاً لهواه، وإذا كان هذا فيما حُرِّم لعارض الصوم من الطعام والشراب ومباشرة النساء فينبغي أن يتأكد ذلك فيما حُرِّم على الإطلاق كالزنا وشرب الخمر وأخذ الأموال أو الأعراض بغير حق وسفك الدماء المحرمة فإن هذا يسخطه الله على كل حال وفي كل زمان ومكان فإذا كمل إيمان المؤمن كره ذلك كله أعظم من كراهته للقتل والضرب، ولهذا جعل النبي ﷺ من علامات وجود حلاوة الإيمان أن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله كما يكره أن يلقى في النار، وقال يوسف عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ

أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(١) .

سئل ذو النون المصري: متى أحب ربي، قال: إذا كان ما يكرهه أَمَرَّ عندك من الصبر.

وقال غيره: ليس من أعلام المحبة أن تحب ما يكرهه حبيبك.

وكثير من الناس يمشي على العوائد دون ما يوجبه الإيمان ويقتضيه، فلهذا كثير منهم لو ضرب ما أفطر في رمضان لغير عذُر، ومن جهالهم من لا يفطر لعذر ولو تضرر بالصوم مع أن الله يحب منه أن يقبل رخصته جرياً على العادة، وقد اعتاد مع ذلك ما حرم الله من الزنا وشرب الخمر وأخذ الأموال والأعراض أو الدماء بغير حق فهذا يجري على عوائده في ذلك كله لا على مقتضى الإيمان، ومن عمل بمقتضى الإيمان صارت لذته في مصابرة نفسه عما تميل نفسه إليه إذا كان فيه سخط الله، وربما يرتقي إلى أن يكره جميع ما يكرهه الله منه وينفر منه وإن كان ملائماً للنفوس كما قيل:

إن كان رضاكم في سهري فسلام الله على وَسَني(٢)

وقال آخر:

عذابه فيك عَذْب وبعده فيك قرب
وأنت عندي كروحي بل أنت منها أحب
حسبي من الحب أني لِما تحب أحب

الوجه الثاني: إن الصيام سر بين العبد وربه لا يطلع عليه غيره لأنه مركب من نية باطنة لا يطلع عليها إلا الله وترك لتناول الشهوات التي

(١) سورة يوسف: الآية ٣٣.
(٢) أي نومي.

يُستخفى بتناولها في العادة، ولذلك قيل: لا تكتبه الحفظة، وقيل إنه ليس فيه رياء، كذا قاله الإمام أحمد وغيره، وفيه حديث مرفوع مرسل. وهذا الوجه اختيار أبي عبيد وغيره، وقد يرجع إلى الأول؛ فإن من ترك ما تدعوه نفسه إليه لله عزوجل حيث لا يطلع عليه غير من أمره أو نهاه دل على صحة إيمانه، والله تعالى يحب من عباده أن يعاملوه سراً بينهم وبينه، وأهل محبته يحبون أن يعاملوه سراً بينهم وبينه بحيث لا يطلع على معاملتهم إياه سواه حتى كان بعضهم يود لو تمكن من عبادة لا تشعر بها الملائكة الحفظة، وقال بعضهم لما اطُّلع على بعض سرائره: إنما كانت تطيب الحياة لما كانت المعاملة بيني وبينه سراً، ثم دعا لنفسه بالموت فمات، المحبون يغارون من اطِّلاع الأغيار[1] على الأسرار التي بينهم وبين من يحبهم ويحبونه، شعر:

نسيم صبا نجد متى جئت حاملاً تحيتهم فاطو الحديث عن الركب

ولا تذع السر المصون فإنني أغار على ذكر الأحبة من صحبي

وقوله: «**ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي**» فيه إشارة إلى المعنى الذي ذكرناه وإن الصائم يقرب إلى الله بترك ما تشتهيه نفسه من الطعام والشراب والنكاح، وهذه أعظم شهوات النفس وفي التقرب بترك هذه الشهوات بالصيام فوائد منها: كسر النفس؛ فإن الشِبَع والرِيّ ومباشرة النساء تحمل النفس على الأشر والبطر والغفلة.

ومنها تخلي القلب للفكر والذكر؛ فإن تناول هذه الشهوات قد تقسي القلب وتعميه وتحول بين العبد وبين الذكر والفكر وتستدعي

---

(١) الأغيار أي ما سوى الله تعالى.

الغفلة، وخلو الباطن من الطعام والشراب ينور القلب ويوجب رقته ويزيل قسوته ويخليه للذكر والفكر.

ومنها أن الغني يعرف قدر نعمة الله عليه بإقداره له على ما منعه كثيراً من الفقراء من فضول الطعام والشراب والنكاح، فإنه بامتناعه من ذلك في وقت مخصوص وحصول المشقة له بذلك يتذكر به مَن منع من ذلك على الإطلاق، فيوجب له ذلك شكر نعمة الله بالغنى ويدعوه إلى رحمة أخيه المحتاج ومواساته بما يمكن من ذلك.

ومنها أن الصيام يضيق مجاري الدم التي هي مجاري الشيطان من ابن آدم؛ فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فتسكن بالصيام وساوس الشيطان وتنكسر سَوْرة[١] الشهوة والغضب، ولهذا جعل النبي ﷺ الصوم وِجاءً لقطعه عن شهوة النكاح.

واعلم أنه لا يتم التقرب إلى الله تعالى بترك هذه الشهوات المباحة في غير حالة الصيام إلا بعد التقرب إليه بترك ما حرم الله في كل حال من الكذب والظلم والعدوان على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ولهذا قال النبي ﷺ: «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**» خرجه البخاري، وفي حديث آخر: «**ليس الصيام من الطعام والشراب، إنما الصيام من اللغو والرفث**» وقال الحافظ أبو موسى المديني: على شرط مسلم، قال بعض السلف: أهون الصيام ترك الشراب والطعام، وقال جابر: إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم، ودع أذى الجار، وليكن عليك وقار وسكينة يوم

(١) أي حدة.

صومك، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء.

إذا لـم يكـن فـي السمـع منـي تصـاون
وفـي بصـري غَـضٌّ وفـي منطقـي صمـت
فحظـي إذاً مـن صـومـيَ الجـوع والظَمـأ
فـإن قلـت إنـي صمـت يـومـي فمـا صمـت

وقال النبي ﷺ: «**رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، ورب قائم حظه من قيامه السهر**» وسر هذا أن التقرب إلى الله تعالى بترك المباحات لا يكمل إلا بعد التقرب إليه بترك المحرمات، فمن ارتكب المحرمات ثم تقرب إلى الله تعالى بترك المباحات كان بمثابة من يترك الفرائض ويتقرب بالنوافل وإن كان صومه مجزئاً عند الجمهور بحيث لا يؤمر بإعادته لأن العمل إنما يبطل بارتكاب ما نهي عنه فيه لخصوصه دون ارتكاب ما نهى عنه لغير معنى يختص به، هذا هو أصل جمهور العلماء[1]، ولهذا المعنى والله أعلم ورد في القرآن بعد ذكر تحريم الطعام والشراب على الصائم بالنهار ذكر تحريم أكل أموال الناس بالباطل فإن تحريم هذا عام في كل زمان ومكان بخلاف الطعام والشراب فكان إشارة إلى أن من امتثل أمر الله في اجتناب الطعام والشراب في نهار صومه فليمتثل أمره في اجتناب أكل الأموال بالباطل فإنه محرم بكل حال لا يباح في وقت من الأوقات، وقوله ﷺ: «**وللصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه**» أما فرحة الصائم عند فطره فإن النفوس مجبولة على الميل إلى ما يلائمها من مطعم ومشرب ومنكح، فإذا منعت من ذلك في

---

(١) قال المحقق: كذا ولعله: هذا قول جمهور.

وقت من الأوقات ثم أبيح لها في وقت آخر فرحت بإباحة ما منعت منه خصوصاً عند اشتداد الحاجة إليه، فإن النفوس تفرح بذلك طبعاً، فإن كان ذلك محبوباً لله كان محبوباً شرعاً، والصائم عند فطره كذلك، فكما أن الله تعالى حرم على الصائم في نهار الصيام تناول هذه الشهوات فقد أذن له فيها في ليل الصيام بل أحب منه المبادرة إلى تناولها في أول الليل وآخره فأحب عباده إليه أعجلهم فطراً، والله وملائكته يصلون على المتسحرين، فالصائم ترك شهواته لله بالنهار تقرباً إلى الله وطاعة له، ويبادر إليها في الليل تقرباً إلى الله وطاعة له، فما تركها إلا بأمر ربه ولا عاد إليها إلا بأمر ربه، فهو مطيع له في الحالين، ولهذا نُهي عن الوصال في الصيام فإذا بادر الصائم إلى الفطر تقرباً إلى مولاه وأكل وشرب وحمد الله فإنه يُرجى له المغفرة أو بلوغ الرضوان بذلك، وفي الحديث «**إن الله ليرضى عن عبده أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها**» وربما استجيب دعاؤه عند ذلك كما جاء في الحديث المرفوع الذي خرجه ابن ماجة: «**إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد**» وإن نوى بأكله وشربه تقوية بدنه على القيام والصيام كان مُثاباً على ذلك، كما أنه إذا نوى بنومه في الليل والنهار التقوي على العلم كان نومه عبادة، وفي حديث مرفوع: «**نوم الصائم عبادة**» قالت حفصة بنت سيرين: قال أبو العالية: الصائم في عبادة ما لم يغتب أحداً وإن كان نائماً على فراشه، فكانت حفصة تقول: «يا حبذا عبادة وأنا نائمة على فراشي» خرجه عبدالرزاق، فالصائم في ليله ونهاره في عبادة، ويستجاب دعاؤه في صيامه وعند فطره، فهو في نهاره صائم صابر وفي ليله طاعم شاكر، وفي الحديث الذي خرجه الترمذي وغيره: «**الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم**

الصابر» ومَن فهم هذا الذي أشرنا إليه لم يتوقف في معنى فرح الصائم عند فطره فإن فطره على الوجه المشار إليه من فضل الله ورحمته فيدخل في قول الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[1] ولكن شرط ذلك أن يكون فطره على حلال، فإن كان فطره على حرام كان ممن صام عما أحل الله وأفطر على ما حرم الله، ولم يستجب له دعاء كما قال النبي ﷺ في الذي يطيل السفر يمد يديه إلى السماء: «**يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك**».

وأما فرحه عند لقاء ربه فبما يجده عند الله من ثواب الصيام مدخراً فيجده أحوج ما كان إليه كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾[2] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾[3] وقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾[4].

وقد تقدم قول ابن عيينة: إن ثواب الصيام لا يأخذه الغرماء في المظالم بل يدخره الله عنده للصائم حتى يدخله به الجنة.

وفي المسند عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «**ليس من عمل يوم إلا يختم عليه**».

وعن عيسى عليه السلام قال: إن هذا الليل والنهار خزانتان فانظروا ما تضعون فيهما، فالأيام خزائن للناس ممتلئة بما خزنوه فيها من خير

(١) سورة يونس: الآية ٥٨.
(٢) سورة المزمل: الآية ٢٠.
(٣) سورة آل عمران: الآية ٣٠.
(٤) سورة الزلزلة: الآية ٧.

وشر، وفي يوم القيامة تفتح هذه الخزائن لأهلها، فالمتقون يجدون في خزائنهم العز والكرامة، والمذنبون يجدون في خزائنهم الحسرة والندامة.

الصائمون على طبقتين إحداهما: من ترك طعامه وشرابه وشهوته لله تعالى يرجو عنده عوض ذلك في الجنة فهذا قد تاجر مع الله وعامله والله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا، ولا يخيب معه من عامله بل يربح عليه أعظم الربح، وقال رسول الله ﷺ لرجل: «**إنك لن تدع شيئاً اتقاء الله إلا آتاك الله خيراً منه**» خرجه الإمام أحمد، فهذا الصائم يُعطى في الجنة ما شاء الله من طعام وشراب ونساء قال الله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾[1] قال مجاهد وغيره: نزلت في الصائمين، قال يعقوب بن يوسف الحنفي: بلغنا أن الله تعالى يقول لأوليائه يوم القيامة: يا أوليائي طالما نظرت إليكم في الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة وغارت أعينكم وجفت بطونكم كونوا اليوم في نعيمكم وتعاطوا الكأس فيما بينكم، ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾.

وقال الحسن: تقول الحوراء لولي الله وهو متكىء معها على نهر العسل تعاطيه الكأس: إن الله نظر إليك في يوم صائف بعيد ما بين الطرفين وأنت في ظَمأ هاجرةٍ من جهد العطش فباهى بك الملائكة وقال: انظروا إلى عبدي ترك زوجته وشهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجلي رغبة فيما عندي، اشهدوا أني قد غفرت له فغفر لك يومئذ وزَوّجَنِيك.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «**إن في الجنة باباً يقال له الريان**

---

(١) سورة الحاقة: الآية ٢٤.

يدخل منه الصائمون لا يدخل منه غيرهم» وفي رواية: «**فإذا دخلوا أُغلق**» وفي رواية: «**من دخل منه شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً**».

وفي حديث عبدالرحمن بن سَمُرة عن النبي ﷺ في منامه الطويل قال: «ورأيت رجلاً من أمتي يلهث عطشاً كلما ورد حوضاً مُنع منه فجاءه صيام رمضان فسقاه وأرواه» خرجه الطبراني وغيره.

وعن بعض السلف قال: بلغنا أنه يوضع للصوام مائدة يأكلون عليها والناس في الحساب فيقولون: يارب نحن نحاسب وهم يأكلون فيقال إنهم طالما صاموا وأفطرتم وقاموا ونمتم.

رأى بعضهم بشر بن الحارث في المنام وبين يديه مائدة وهو يأكل ويقال له: كل يا من لم يأكل، واشرب يا من لم يشرب.

كان بعض الصالحين قد صام حتى انحنى وانقطع صوته فمات فرآه بعض أصحابه الصالحين في المنام فسأله عن حاله فضحك وأنشد:

قد كُسيَ حلة البهاء وطافت ... بأباريق حوله الخدام
ثم حُلِّي وقيل يا قارىء ارقا ... فلعمري لقد براك الصيام[1]

اجتاز بعض الصالحين بمنادٍ ينادي على السحور في رمضان: ياما خبأنا للصوام، فتنبه بهذه الكلمة وأكثر من الصيام.

رأى بعض العارفين في منامه كأنه أدخل الجنة فسمع قائلاً يقول له: هل تذكر أنك صمت لله يوماً قط؟ فقال: نعم، قال: فأخذتني صواني النِثار[2] من الجنة.

(١) أي جعلك هزيلاً.
(٢) الصواني جمع صينية، والنِثار: ما ينثر على الناس في الأفراح من حلوى وغيرها.

من ترك لله في الدنيا طعاماً وشراباً وشهوة مدة يسيرة عوضه الله عنده طعاماً وشراباً لا ينفد، وأزواجاً لا يَمُتْن أبداً. . .

كان بعض الصالحين كثير التهجد والصيام فصلى ليلة في المسجد ودعا فغلبته عيناه فرأى في منامه جماعة علم أنهم ليسوا من الآدميين بأيديهم أطباق عليها أرغفة ببياض الثلج فوق كل رغيف دُر كأمثال الرمان فقالوا: كل، فقال: إني أريد الصوم، قالوا له: يأمرك صاحب هذا البيت أن تأكل، قال: فأكلت وجعلت آخذ ذلك الدر لأحتمله فقالوا له: دعه نغرسه لك شجراً ينبت لك خيراً من هذا، قال: أين؟ قالوا: في دار لا تخرب، وثمر لا يتغير، وملك لا ينقطع، وثياب لا تبلى، فيها رضوى وعينا[1] وقرة أعين، أزواج رضيات مرضيات راضيات لا يَغِرْن ولا يُغَرْن، فعليك بالانكماش فيما أنت فإنما هي غفوة حتى ترحل فتنزل الدار، فما مكث بعد هذه الرؤيا إلا جمعتين حتى توفي، فرآه ليلة وفاته في المنام بعض أصحابه الذين حدثهم برؤياه وهو يقول: لا تعجب من شجر غرس لي في يوم حدثتك وقد حمل، فقال له: ما حمل؟ قال: لا تسأل لا يقدر أحد على صفته لم يُرَ مثل الكريم إذا حل به مطيع.

يا قوم: ألا خاطب في هذا الشهر إلى الرحمن؟ ألا راغب فيما أعده الله للطائعين في الجنان؟ ألا طالب لما أخبر به من النعيم المقيم مع أنه ليس الخبر كالعيان:

مـــن يـــرد ملـــك الجنـــان	فليـــــدع عنـــــه التـــــوانـــي
وليقـــم فـــي ظلمـــة الليـــل	إلـــــى نـــــور القـــــرآن

(١) كذا وردت.

وليَصِلْ صوماً بصوم إن هذا العيش فاني
إنما العيش جوار الله في دار الأمان

الطبقة الثانية من الصائمين: من يصوم في الدنيا عما سوى الله فيحفظ الرأس وما حوى، ويحفظ البطن وما وعى، ويذكر الموت والبِلى، ويريد الآخرة فيترك زينة الدنيا، فهذا عيد فطره يوم لقاء ربه وفرحه برؤيته، شعر:

أهل الخصوص من الصوام صومهم
صون اللسان عن البهتان والكذب
والعارفون وأهل الأنس صومهم
صون القلوب عن الأغيار والحُجُب

العارفون لا يسليهم عن رؤية مولاهم قصر، ولا يرويهم دون مشاهدته نهر، همهم أجلّ من ذلك:

كبرت همة عبد طمعت في أن تراك
من يصم عن مفطرات فصيامي عمن سواك

من صام عن شهواته في الدنيا أدركها غداً في الجنة، ومن صام عما سوى الله فعيده يوم لقائه: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾[1].

وقد صمت عن لذات دهري كلها
ويوم لقاكم ذاك فطر صومي

رؤي بشر في المنام فسُئل عن حاله فقال: علم قلة رغبتي في الطعام فأباحني النظر إليه.

(١) سورة العنكبوت: الآية ٥.

وقيل لبعضهم: أين نطلبك في الآخرة؟ قال: في زمرة الناظرين إلى الله. قيل له: كيف علمت ذلك؟ قال: بغض طرفي له عن كل محرم، وباجتنابي فيه كل منكر ومأثم، وقد سألته أن يجعل جنتي النظر إليه، شعر:

يا حبيبَ القلوب مالي سواكا ارحم اليوم مذنباً قد أتاكا
ليس لي في الجنان مولاي رأيٌ غير أني أريدها لأراكا

يا معشر التائبين: صوموا اليوم عن شهوات الهوى لتدركوا عيد الفطر يوم اللقاء، لا يطولن عليكم الأمل باستبطاء الأجل فإن معظم نهار الصيام قد ذهب وعيد اللقاء قد اقترب:

إن يوماً جامعاً شملي بهم ذاك عيدي ليس لي عيد سواه

وقوله: «**ولَخَلُوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**»:
خلوف الفم رائحة ما يتصاعد منه من الأبخرة لخلو المعدة من الطعام بالصيام وهي رائحة مستكرهة في مشام الناس في الدنيا لكنها طيبة عند الله، حيث كانت ناشئة عن طاعته وابتغاء مرضاته، كما أن دم الشهيد يجيء يوم القيامة يَثْعب دماً[١]: لونه لون الدم وريحه ريح المسك، وبهذا استدل من كره السواك للصائم أو لم يستحبه من العلماء، وأول من علمناه استدل بذلك عطاء بن أبي رباح، ورُوي عن أبي هريرة أنه استدل به لكن من وجه لا يثبت، وفي المسألة خلاف مشهور بين العلماء، وإنما كرهه من كرهه في آخر نهار الصوم لأنه وقت خلو المعدة وتصاعد الأبخرة، وهل يدخل وقت الكراهة بصلاة العصر أو بزوال الشمس أو

(١) أي يتفجر دماً.

بفعل صلاة الظهر في أول وقتها على أقوال ثلاثة والثالث هو المنصوص عن أحمد.

وفي طيب ريح خلوف الصائم عند الله عزوجل معنيان أحدهما: أن الصيام لما كان سراً بين العبد وبين ربه في الدنيا أظهره الله في الآخرة علانية للخلق ليشتهر بذلك أهل الصيام ويعرفون بصيامهم بين الناس جزاء لإخفائهم صيامهم في الدنيا...

قال مكحول: يروح أهل الجنة برائحة فيقولون: ربنا ما وجدنا ريحاً منذ دخلنا الجنة أطيب من هذه الريح فيقال: هذه رائحة أفواه الصوام.

وقد تفوح رائحة الصيام في الدنيا وتُستنشق قبل الآخرة وهو نوعان: أحدهما ما يدرك بالحواس الظاهرة: كان عبدالله بن غالب من العباد المجتهدين في الصلاة والصيام، فلما دفن كان يفوح من تراب قبره رائحة المسك فرؤي في المنام فسئل عن تلك الرائحة التي توجد من قبره فقال: تلك رائحة التلاوة والظمأ.

والنوع الثاني: ما تستنشقه الأرواح والقلوب فيوجب ذلك للصائمين المخلصين المودة والمحبة في قلوب المؤمنين، وفي حديث الحارث الأشعري عن النبي ﷺ أن زكريا عليه السلام قال لبني إسرائيل: «آمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك فكلهم تعجبه ريحه، وإن ريح الصيام أطيب عند الله من ريح المسك» خرجه الترمذي وغيره.

لما كان معاملة المخلصين بصيامهم لمولاهم سراً بينه وبينهم أظهر الله سرهم لعباده فصار علانية، فصار هذا التجلي والإظهار جزاء لذلك الصون والإسرار، في الحديث: «ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها علانية» قال يوسف بن أسباط: أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء: قل لقومك يخفون لي أعمالهم وعلي إظهارها لهم.

تذلُّلُ أرباب الهوى في الهوى عزّ
وفقرهم نحو الحبيب هو الكنز
وسترهم فيه السرائر شهرة
وغير تلاف النفس فيه هو العجز

والمعنى الثاني: أن من عبد الله وأطاعه وطلب رضاه في الدنيا بعمل فنشأ من عمله آثار مكروهة للنفوس في الدنيا فإن تلك الآثار غير مكروهة عند الله؛ بل هي محبوبة له وطيبة عنده لكونها نشأت عن طاعته واتباع مرضاته، فإخباره بذلك للعاملين في الدنيا فيه تطبيب لقلوبهم لئلا يكره منهم ما وجد في الدنيا، قال بعض السلف: وعد الله موسى ثلاثين ليلة أن يكلمه على رأسها فصام ثلاثين يوماً ثم وجد مِن فِيه خَلُوفاً فكره أن يناجي ربه على تلك الحال فأخذ سواكاً فاستاك به فلما أتى لموعد الله إياه، قال له: يا موسى: أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندنا من ريح المسك؟ ارجع فصم عشرة أخرى، ولهذا المعنى كان دم الشهيد ريحه يوم القيامة كريح المسك.

كل شيء ناقص في عرف الناس في الدنيا حتى إذا انتسبت إلى طاعته

فهو الكامل في الحقيقة، خَلُوف أفواه الصائمين له أطيب من ريح المسك، عُرْي المحرمين لزيارة بيته أجمل من لباس الحلل، نَوح المذنبين على أنفسهم من خشيته أفضل من التسبيح، انكسار المخبتين لعظمته هو الجبر، ذل الخائفين من سطوته هو العز، تهتك المحبين في محبته أحسن من الستر، بذل النفوس للقتل في سبيله هو الحياة، جوع الصائمين لأجله هو الشِبَع، عطشهم في طلب مرضاته هو الرِي، نصب[1] المجتهدين في خدمته هو الراحة:

ذل الفتى في الحب مكرمة وخضوعه لحبيبه شرف

هبت اليوم على القلوب نفحة من نفحات نسيم القرب، سعى سمسار المواعظ للمهجورين في الصلح، وصلت البشارة للمنقطعين بالوصل، وللمذنبين بالعفو، والمستوجبين النار بالعتق. لما سُلسل الشيطان في شهر رمضان، وخمدت نيران الشهوات بالصيام انعزل سلطان الهوى وصارت الدولة لحاكم العقل بالعدل فلم يبق للعاصي عذر، يا غيوم الغفلة عن القلوب تقشعي، يا شموس التقوى والإيمان اطلعي، يا صحائف أعمال الصائمين ارتفعي، يا قلوب الصائمين اخشعي، يا أقدام المتهجدين اسجدي لربك واركعي، يا عيون المجتهدين لا تهجعي، يا ذنوب التائبين لا ترجعي، يا أرض الهوى ابلعي ماءك، ويا سماء النفوس أقلعي، يا بروق العشاق للعشاق المعي، يا خواطر العارفين ارتعي، يا همم المحبين بغير الله لا تقنعي، يا جنيد اطرب، ياشبلي احضر، يا رابعة اسمعي.

---

(١) أي تعب.

قد مدت في هذه الأيام موائد الإنعام للصوام فما منكم إلا من دُعي: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ ﴾[1] ويا همم المؤمنين اسرعي، فطوبى لمن أجاب فأصاب، وويل لمن طرد عن الباب وما دُعي:

ليت شعري إن جئتهم يقبلوني	أم تراهم عن بابهم يصرفوني
أم تـراني إذا وقـفـت لـديـهـم	يأذنوا بالدخول أم يطردوني[2]

(١) سورة الأحقاف: الآية ٣١.

(٢) «لطائف المعارف»: ٥٨ ـ ١٧٢ بتصرف يسير.

الصيام والتمدن

للأستاذ محمد رشيد رضا[١]

قال الأستاذ:

(١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[٢].

أكتب هذه المقالة لطائفتين من المسلمين:

طائفة تصوم ذاهلة عن معنى الصوم محرومة من فوائده ومزاياه، فصومها أقرب إلى العادة منه إلى العبادة، وطائفة أفرطت في الترف والتنعم واسترسلت في الشهوات استرسالاً فشق عليها الصوم فتركته غير

---

(١) هو محمد رشيد بن علي رضا بن محمد القلموني، البغدادي الأصل، والحسيني، صاحب مجلة المنار وأحد رجال الإصلاح الإسلامي، ولد في القلمون ـ من أعمال طرابلس الشام ـ سنة ١٢٨٢، ونشأ بها، وتعلم فيها في طرابلس وتنسك بها ونظم الشعر في صباه، وكتب في بعض الصحف ثم رحل إلى مصر سنة ١٣١٥ فلازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ له، وكان قد اتصل به قبل ذلك في بيروت، ثم أصدر مجلة «المنار» وصار مرجع الفتيا في التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة، ارتحل مراراً، وله مصنفات كثيرة، وجرت عليه أحداث كثيرة، توفي سنة ١٣٥٤ رحمه الله تعالى بمصر، انظر «الأعلام»: ٦/ ١٢٦.

(٢) سورة البقرة: آية ١٨٣.

مبالية بالأمر الإلهي ولا ملتفتة إلى ما في هذه العبادة من المنافع الروحية والجسدية، هذه الطائفة هي التي نشأت في مهد التمدن العصري الشرقي، وأعني بهذا التمدن ما ضم ذووه إلى مفاسد التربية الشرقية كثيراً من مفاسد التربية الغربية، فنسوا حظاً مما ذكروا به على لسان الشرع ولم يستبدلوا بما تركوه من أعمال الدين وآدابه وفضائله ما يقوم مقامه في قوام السعادة الدنيوية مما أفادهم العلم والاختبار فضلاً عن السعادة الأخروية؛ فإنه ليس لها في التربية الغربية ـ على ما نعتقد ـ نصيب.

ولا نشرك مع هؤلاء من يترك الصوم من الغوغاء والتُحوت[1] فإنهم لا يقرأون، وإذا قرأوا أو قرىء عليهم لا يفهمون، وإذا فهموا لا يبالون أنهم مخطئون أو فاسقون لأنهم مستهترون ومستولغون ـ لا يبالون ذماً ولا عاراً ـ أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون.

أيها المتمدن الشرقي أقسم عليك بشرفك[2] الذي تقسم به وترعاه ـ وهو عوني عليك من تمدنك دون سواه، ولولاه لكنت مستولغاً لا تبالي بالعار ولا ينجع فيك الإنذار ـ أن تقرأ مقالتي هذه وتتدبرها حق التدبر لعلها تذكرك بأمر هو مركوز في فطرتك الزكية ولكن أذهلتك عنه النشأة العصرية، وهو أن الصوم ركن من أركان الشرف الذي تحرص على الاتصاف به، لا يثبت لك الشرف الصحيح إن كنت موقناً بالدين الذي تنتسب إليه بدونه، ولا يتم لك الشرف العرفي إن كنت غير مؤمن إلا به أو بمثله، أكشف حجاب حال بينك وبين الشعور بفقد الشرف بفقد الصوم ونحوه هو وجود كثير ممن على شاكلتك من خلطائك وخلصانك

---

(١) أي الأسافل.

(٢) وكأنما قسم عليه بغير الله لأن المتحدث إليه لا يأبه به ولا يرى له ذمة، والعياذ بالله.

الذين تعيش معهم وهم من أهل المال والسلطة مع ملاحظة أن الشرف هو ما يعده جمهور الناس شرفاً ويحترمون صاحبه ويجلونه ولو في الظاهر دون الباطن، وهذا هو معنى الشرف عند عامة الناس وَدْهمائهم في جميع الأمم، وهو يقتضي أن يكون الشرف أمراً اعتبارياً لا حقيقة له في نفسه، فقد يعتبر قوم شيئاً من الأشياء شرفاً يتباهون به ويتنافسون فيه وهو عند غيرهم ضِعة وخسة يتقذر منه ويتباعد عنه، وما من طائفة من الطوائف تقيم على عمل من الأعمال إلا وهو في عرفها شرف وله أسماء ونعوت يُتمدح بها؛ فأصحاب السلب والنهب يرون أن عملهم من آثار الشجاعة والشهامة وأنه أفضل أنواع الكسب وأشرفها وعلى هذا فقس.

وأما الحكماء المحققون والعلماء الراسخون من جميع الأمم فإنهم يرون أن الشرف أمر حقيقي، وأنه هو الكمال الإنساني، ويمكنني أن أعرِّفه بكل عمل يجل صاحبه ظاهراً وباطناً، ويحترم بحق من العقلاء والفضلاء فمن دونهم، وهؤلاء لا يجلون أحداً ويحترمونه على عمل إلا إذا كان له أثر في نفع أمته وحفظ مصالحها والذود عن حقوقها؛ فقيام الإنسان بالواجب عليه لتهذيب نفسه ومصلحتها لا يسمى بنفسه شرفاً وإنما هو من الوسائل المعدة والمهيأة له لنوال الشرف، والصيام من جملة هذه الوسائل ولذلك قال تعالى في بيان حكمة إيجابه علينا ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فإن معنى لعل في القرآن الإعداد والتهيئة لما تدخل عليه على ما اختاره أستاذنا مفتي الديار المصرية لهذا العهد(١)، وإليك بيان هذا في شأن الصيام:

(١) أي الأستاذ محمد عبده رحمه الله تعالى.

لا خلاف بين علماء الاجتماع في أن سعادة الأمة منوطة بحسن تربية أفرادها، فالسابقات إلى السعادة في هذه الحياة الدنيا من الأمم هن السابقات في العناية بالتربية كإنكلترا والولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا، رأت هذه الأمم العزيزة أن الأمة الإنكليزية قد سبقتهن جمعاء في ميدان السيادة والسعادة حتى أنها استولت على قريب من ثلثي العالم الإنساني (٤٠٠مليون) وأخذت أهم مغالق البحار، وقبضت على أكثر الأعصاب المعنوية للعالم المتمدن وهي الأسلاك البرقية، وامتلكت معظم ينابيع الثروة، وأنها نالت هذا بسلاح الحكمة والتدبير لا بسلاح الإبادة والتدمير لأنها أقلهن حرباً وأبعدهن عن الاستعداد له بالنسبة لما استعمرته من الأرض، رأين هذا فحار الأكثرون في تعليله غفلة منهم عن الاستدلال بالأثر على المؤثر وبالمعلول على العلة، واهتدى إليه بعض المحققين في علم الاجتماع وطبائع الأمم فقالوا: إن هذا السبق معلول لحسن التربية ثم بحثوا في طرق التربية الإنكليزية وقارنوها بالطرق المعروفة عند سائر الأمم المتمدنة فظهر لهم صحة استدلالهم وفصل المجمل تفصيلاً، وفي هذه التربية ألف المواسيو أدمون ديمولان كتابة «سر تقدم الإنكليز السكسونيين» ومنه علم أن مدار هذه التربية على أن يكون المربي مستقلاً بنفسه في أمر معيشته، قادراً على أن يعيش في كل أرض ويزاحم في شؤون الحياة كل شعب، ويقاوي من فواعل الطبيعة كل عارض، ويصابر من حوادث الزمان كل طارىء ليتمكن من بسط جناح سلطة أمته على كل أمة، ومن إعلاء مجد قومه على جميع الأقوام.

هذه هي التربية المثلى التي سبق الشعب السكسوني بها سائر الشعوب ولا شك أنها لم تبلغ كمالها ولم تعم الشعب كله، وهي على

أحسنها في الطبقات العليا من الأمة، ألم تقرأ ما نقلناه في «المنار» ٤١ الأسبق عن السياسي الإنكليزي من قوله:

«هذا الجلد والصبر لا يوجد عندنا إلا في الضابط فإنهم تربوا أحسن تربية وباقي الجيش من غوغاء الناس إذا مشى بضع ساعات يعييه الوجى والكلال[1] ولا يصبر عن اللحم والخمر إلا قليلاً» وهذا لا يكون إلا بتعويد المرء نفسه على الجوع وترك الشهوات أحياناً لكيلا يتألم إذا أصابته مجاعة ويخور عزمه، وهذا هو معنى الصوم وإحدى فوائده المهمة.

يقول المتمدنون: إن هذا النوع من ترويض الجسم وتأديب الشهوة لا ننكر فائدته ولكنه يمكن أن يحصل بغير الصوم المشروع في الإسلام، ولا ريب أن هؤلاء الإنكليز ومن على شاكلتهم في التربية لا يصومون هذا الصوم، ونقول في جوابهم: إذا فرضنا أن هذا الغرض يحصل بالصوم وبطريق آخر من الرياضة فحسبنا في ترجيح الصوم أن فيه مرضاة الله تعالى والمثوبة الحسنة في الآخرة مع الفائدة في الدنيا، على أن حكمة الخالق لا تقاس بحكمة المخلوقين، ووضع البشر لا يداني وضع أحكم الحاكمين.

وها أنا ذا أسرد ما أستحضره من فوائد الصوم ليتبين للقارىء أنه لا يرغب عنه إلا من سفه نفسه، وقد ذكرت فائدتين منها في مطاوي الكلام وأعيدهما مع أخواتهما بلون آخر من البيان:

الفائدة الأولى: الصحة؛ لأنه رياضة تجفف الرطوبات البدنية،

---

(١) أي التعب.

وتفني المواد الرسوبية، فقد قال ابن سينا الحكيم الإسلامي: إن هذه المواد تتولد من الطعام وتكثر حتى تتولد منها أمراض يخفى سببها، وقد اكتشف بعض علماء أوروبا هذه المواد من سنين قليلة، وقد كان سبقهم حكيمنا إليها ببضعة قرون.

يقول الآخذون بالظواهر: إننا نعرف من أنفسنا الضعف والذبول بالصوم فكيف نسمي الضعف صحة ومن لوازم الصحة القوة، ونجيبهم بأن عاقبة هذا الضعف والذبول القوة والنمو، ألم تروا كيف يُمنع النبات الماء زماناً حتى يذبل ويذوى ثم يفاض عليه فيكون أسرع نمواً مما لو عوهد بالسقي دائماً، بل هو في هذه الحال معرض لليبس لأنه يرد عليه من الغذاء أكثر مما تطلبه طبيعته، ويندرج هذا تحت قاعدة «رد الفعل» المعروفة، الشجرة البرية ـ كما قال الإمام علي ـ أصلب عوداً وأبطأ خموداً، والأجسام الحية يشبه بعضها بعضاً في الشؤون الحيوية، وقد ثبت في الطب أن السنين[١] إذا أخذت قوماً فإن فعل الجدب والقحط يكون على أشده في المترفين المنعمين الذين اعتادت معدهم أن لا تخلو من المآكل الرطبة الدسمة فيكثر فيهم الموتان ويسرع فيهم الفناء، وتكون السلامة أغلب في أهل الشظف والقشف، فما أحوج هؤلاء المنغمسين في النعيم إلى رياضة الصوم لتقوية أبدانهم!!

الفائدة الثانية: كسر سَوْرة الشهوة[٢] وجَزْرُ مَدِّها؛ فإن طغيان الشهوة يفضي بصاحبها إلى الإفراط في تناولها فينطفىء في نفسه نور

---

(١) أي المجاعات.
(٢) أي شدقها.

العفة، وهي إحدى أركان الفضائل الأربع، ومتى تقوض هذا الركن ينهدم معه ما بني عليه من الفضائل كالحياء والدَّعة والصبر والسخاء والحرية الحقة والقناعة والدماثة والانتظام والمسالمة والوقار والورع، واختل مزاج النفس، وتبعه اختلال مزاج البدن؛ لأن الإفراط في الشهوات منبع الأمراض والأدواء بإجماع من الأطباء، ولهذا المعنى قال النبي ﷺ فيما رواه الشيخان:

«**إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين**»، زاد الترمذي وابن ماجه والحاكم: «**ونادى مناد: يا باغيَ الخير هلم، ويا باغي الشر أقصر**»، فأبواب الجنة الفضائل والطاعات، وأثرها في الصوم أعم وأظهر، وأبواب النار الرذائل والمعاصي، وانطماس أثرها في الصوم الحقيقي لا ينكر...

يقول المعترض: إذا ضعفت الشهوة في وقت الصوم فإنها تثوب بعده[1] كما تثوب الغضاضة والقوة بعد الذبول والضعف بمقتضى قاعدة «رد الفعل» التي ذكرتها في بيان الفائدة الأولى فيكون الصوم مضراً، ونقول في جوابه: إنَّ موت الشهوة أو دوام ضعفها مضر بالإنسان، وإنما شرع الصوم وغيره لمنفعته والمطلوب في الصيام تضمير النفس[2] كما تضمر الخيل حتى يملك صاحبها عليها أمرها ويأمن جماحها إلى ما يحرمه الشرع ويورث صاحبه الهوان والضعة من اتباع الشهوات، وإنما يكون هذا بامتناعه في أوقات مخصوصة عن تناول الشهوات كلها حرامها

---

(١) أي ترجع.
(٢) أي إضعافها.

وحلالها لتنطبع في النفس ملكة القدرة على الترك، وهذا هو التهذيب المفروض على كل مكلف في جميع الشرائع، جعلت العرب مدة تضمير الفرس أربعين يوماً، وجعل الشرع مدة تضمير الإنسان نفسه ثلاثين يوماً في كل سنة، ويستحب الزيادة عليها لا سيما بالنسبة لمن يعرف من نفسه الجموح وعدم السلاسة لحكم الشرع «لها بقية»[١].

(٢)

ذكرنا في المقالة الأولى من فوائد الصيام صحة البدن بترويضه، وصحة النفس بتأديب الشهوة وامتلاك زمامها، بحيث يصير الإنسان حاكماً على شهواته يسيّرها في منهاج الأدب والشرف الذي يحدده الشرع والعقل لا محكوماً بها كالبهم والدواب، بل الإنسان يكون شراً من البهائم إذا هو لم يؤدب شهوته ويملك على نفسه أمرها؛ لأن بارىء الكون قد أودع في فطرة البهائم الوقوف عند حدود الاعتدال في تناول شهواتها فلا تأكل ولا تشرب ولا تُسافد إلا عن داعية الطبيعة، ومتى استوفت طبيعتها حقها من ذلك تنكف عنه من طبعها ولا تحمل أنفسها بالإفراط ما لا تطيق ولا تتخذ الوسائل والحيل لإذكاء نار الشهوة فتتمتع بأكثر مما يقتضيه المزاج المعتدل فيقضي عليها قانون «رد الفعل» بعد ذلك بالضعف أو الخمود.

وخلق الله الإنسان ذا فكر يجاهد به الطبيعة ويقاومها تارة بما ينفعه وتارة بما يضره، تختلف أحواله في هذا بحسب صحة الفكر وسقمه وسعة المعارف وضيقها، ألم تر أن أكثر ما يصيب الإنسان من الأمراض

---

(١) مجلة «المنار» العدد ٤٣، ٥ رمضان، سنة ١٣١٧، ص٦٧٤ ـ ٦٧٨ بتصرف يسير جداً.

والأسقام والأدواء التي تنتهي بالموت قبل بلوغ العمر الطبيعي هو من الإفراط في الطعام أو الشراب أو الوقاع الذي يستعين عليه بما يعطيه الفكر من الوسائل والحيل، بالأمس اختطفت المنية شاباً في ريعان الصبا وعنفوان الشباب فبقر الأطباء بطنه واستلوا أمعاءه فتبين لهم أنه مات مسموماً بالإكثار من علاج تناوله لتقوية الباه، مسلم فعل هذا في شهر الصيام وزمن تأديب الشهوة فإنا لله، والبهائم تستوفي آجالها الطبيعية في الغالب متمتعة بالصحة واعتدال المزاج، وإذا عرض لبعضها المرض أو الموت قبل الأجل الذي خلقها الله تعالى مستعدة لبلوغه فإنما يكون ذلك في الغالب لأمر خارجي كفقد الغذاء أو شدة البرد.

لهذا كانت سعادة الإنسان متوقفة على تربية صحيحة وتعليم قويم ولا يوجد هذان على وجه الكمال إلا في الدين وإلا كان الإنسان أشقى في حياته من جميع أنواع الحيوان.

اقرأ إن شئت قوله تعالى في الجهلاء الذين لا يشكرون الله تعالى باستعمال مواهبه فيما خلقت له من التعلم والتبصر والاعتبار:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[2].

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٧٩.

(٢) سورة الفرقان: آية ٤٣ ـ ٤٤.

صرح القرآن بأن الله تعالى خلق هؤلاء السفهاء الأحلام لجهنم، وهذا من جملة الآيات على ما قلناه ولا نزال نقوله من أن غاية الدين الإسلامي سعادة الدارين، وأن الشقاء في الدنيا مؤذن بالشقاء في الآخرة، ولكن السعادة في الدنيا ليست آية على السعادة في الآخرة لأنها تحصل بدون الأخذ بجميع أركان الإسلام وتعاليمه على الوجه الذي حددته الشريعة.

الفائدة الثالثة: معرفة قيمة النعمة بفقدها ـ ولو اختياراً ـ فإن الأشياء تعرف بأضدادها؛ فمن لم يهذبه الزمان بالحرمان من النعم والحيلولة بينه وبين ما يشتهي ينبغي له أن يتمثل هذا الحرمان بالتعمل والتكلف لتعظم في عينه النعمة فيحفظها، وفي هذا الضرب من التهذيب تزكية النفس من رذيلة البَطَر الممقوت صاحبه من جميع البشر.

الفائدة الرابعة: توطين النفس على الصبر والاحتمال؛ فكم من ذي نعمة فاجأته نقمة فبلبلت باله وأذهبت رشده، وأوقعه الجزع والهلع منها بما هو أشد منها، أعرف رجلاً من المترفين كان عنده طائر من نوع «الكنار» وكان مولعاً به فترك قفصه ذات ليلة بجانب بركة الماء فجاءت الهرة تعالج القفص لاصطياده فوقع في الماء، ولما أصبح المترف ورأى الكنار ميتاً في البركة صفق بيديه على ركبتيه فأصابه من ساعته فيهما مرض عصبي أقعده عدة سنين يشتغل بالمعالجة حتى صار يقدر على المشي متوطأً ولم يَبِلّ إبلالاً[1].

يقول قائل: إننا نرى هذا الجزع والهلع وقلة الاحتمال من الذين

---

(١) أي لم يكتمل شفاؤه وعافيته.

اعتادوا الصيام، وربما كان المترف الذي تحدث عنه ممن يصوم رمضان، وأقول في جوابه: إن فوائد الصيام لا تبلغ درجة الكمال إلا لمن فقه سر الصوم وحكمة الله تعالى فيه المعبر عنها في القرآن بالتقوى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وصام على ذلك فأدرك ما هنالك، والصوم عند المترفين إنما هو تغيير مواقيت الأكل بجعلها في الليل مع زيادة مبالغة في الترف والتطرس[1] والتنوق في النعيم، وسائر الناس يحذون حذو المترفين كلٌّ بحسب استطاعته. والصوم الحقيقي هو ما عرفه النبي ﷺ بقوله: «**الصوم نصف الصبر**» رواه الترمذي وحسنه وغيره وفي رواية البيهقي زيادة «**وعلى كل شيء زكاة، وزكاة الجسد الصيام**»، وإنما كان الصوم نصف الصبر لأن الصبر إما أن يكون عن الشيء الذي يؤلم النفس فقده وإما أن يكون على الشيء وجوده وحصوله، والذي يؤلم فقده هو الشهوات واللذات، ولما كانت شهوتا البطن والفرج أقوى الشهوات، والصبر عنهما أصعب وأشق على النفس منه على غيرهما جعلت الشريعة تركهما والصبر عنهما عزيمة لا بد منها؛ لأن من ربى نفسه عليه فقيهاً بالمقصود منه طالباً لحكمته وفائدته كان الصبر عن غيرهما من سائر الشهوات أسهل عليه، وهو ما جعلت الشريعة الصبر عنه من المندوبات المتأكدة في الصوم، وقالوا إن كمال الصوم في كف جميع الجوارح عن شهواتها: روى البخاري ومسلم وغيرهما أن النبي ﷺ قال: «**إنما الصوم جنة، فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل؛ فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم إني صائم**» فجعل الصبر عن مجاوبة الشاتم والصائل[2]

(١) التطرس: التأنق: الأكل والشرب الفاخران.
(٢) الصائل: المعتدي الضارب الساطي.

من الصوم، وفي حديث البخاري مرفوعاً: «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**» والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، ومن العجيب أن الفقهاء لا يحفلون بهذه المباحث بل لا يكادون يذكرونها ويملأون الصحائف بالدقائق النادرة التي لا علاقة لها بحكمة مشروعية الصيام كالبحث في الغبار الذي يدخل الأنف في الطريق، وفي وضع الخلال في الأذن، وفي الاحتراز وقت الاستنجاء من دخول الرطوبة إلى الجوف مع المقعدة ونحو هذا، فكيف يحصل فائدة الصوم من يجعل همه في هذه المباحث دون البحث في حكمة هذه العبادة وكيفية إيصالها إلى التقوى المقصودة للشارع منها؟؟

الفائدة الخامسة: مساواة الأغنياء للفقراء والمترفين للبائسين في فقد دواعي اللذة وأسباب النعمة، والمساواة من الفضائل المطلوبة في الأمم، وهي من غايات الإنسانية التي يطمع الحكماء أن تعم البشر بعموم التمدن، ويشارك الصوم في هذه الفائدة الصلاةُ والحج بل إن الشريعة الإسلامية تساوي بين جميع المحكومين بها في الحقوق سواء من اتخذها ديناً ومن كان يدين بغيرها، وجعلت في عباداتها ألواناً من المساواة لتكون للغني عبرة وتزكية وللفقير عزاء وتسلية، ولتهيء الأمة للمساواة في عامة الشؤون التي يمكن فيها المساواة.

الفائدة السادسة: رقة القلب والعطف من ذوي الوَجْد واليسار على أهل العدم والإعسار بحيث يحملهم ذلك على مواساتهم والإفاضة عليهم مما رزقهم الله تعالى فإن من يذوق طعم البلاء يكون على أهله أعطف، وبهم أرأف، فمن ذاق عرف، ومن المأثور عن سلف الأمة الصالح كثرة الصدقات والصلاة في شهر الصوم.وقد بقي للخلف من هذه المزية بقية

تشكر وإن كانت لا تشابه ما كان عليه السلف من كل وجه، ووُصف النبي ﷺ بأنه كان في رمضان أجود من الريح المرسلة.

يُحكى أنه وقع قحط في عهد أحد الملوك فذكر أمام زوجه ما يقاسيه الفقراء من البؤس والعناء لقلة القوت، فقالت: ما ضرهم لو استغنوا عن الخبز بالفالوذج واللوزينج، وهما أنفس الحلوى المعروفة عند المترفين لذلك العهد، وما كان الفقراء يطعمونهما في حال الرخاء.

الفائدة السابعة: تعظيم أمر الله تعالى في النفس بأداء هذه العبادة الشريفة على الوجه الذي شرعه الله ابتغاء مرضاته، وهذه الفائدة روحية محضة ودينية خالصة، والصوم هو العبادة التي لا حظ لشهوة النفس فيها ولا يأتي فيها الرياء لأنها تَرْكٌ لا فِعلٌ، ولذلك جاء في الحديث المتفق عليه أن النبي ﷺ قال: «**قال الله عزوجل: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به**» وفي رواية: «**كل عمل ابن آدم تضاعف له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي**» ربما يفهم بعض الناس من الحديث أن الصوم من الأمور التعبدية التي لا يعقل لها معنى ولا تعرف لها فائدة للإنسان في حياته إلا محض الامتثال لأمر الله ابتغاء مثوبته ورضوانه في الآخرة، ونحن نقول: إنه ما من عبادة معقولة المعنى ظاهرة الفائدة للعامل بها إلا وفيها معنى تعبدي يجب أن يتحراه الإنسان ويحافظ عليه لمجرد الامتثال، وأضرب لهذا مثلاً الصلاة فإن فائدتها للمصلين من النهي عن الفحشاء والمنكر والتطهير من الجزع والهلع والبخل والتحلي بأضدادها معقولة المعنى؛ فإن من يقيم الصلاة على الوجه الذي أراده الله تعالى من الخشوع وحضور القلب وإشعاره عظمة الله وكبير سلطانه تمثل لـه ملكة

مراقبة الله تعالى عند كل عمل وتذكر هيمنته وإحاطة علمه بما يعمله فيكون هذا زاجراً له عن الفواحش والمنكرات، ونازعاً من قلبه الهلع والجزع عند حدوث الخطوب، وباسطاً يديه بالإنفاق والبذل مما يمسه من الخير في وجوه البر والخير، ولكن تحديد ركعات الصلاة بما هي عليه ككون الصبح ركعتين والمغرب ثلاثاً والباقيات أربعاً أربعاً ليس معقولاً المعنى وإنما نحافظ عليه للوجه الديني الخالص والاتباع المحض، ونعلم أن لله فيه حِكماً لا يتوقف انتفاعنا بالعبادة على معرفتها.

كما إذا عرفنا العلاج وفائدته في شفاء المرض ولم نعرف الحكمة في مقادير أجزائه ونسبة بعضها إلى بعض، وكون الذي يتناول يجب أن يكون مقداره كذا ووقته كذا، ولو لم يكن هذا المعنى التعبدي في هذه الأعمال النافعة المقومة للسعادة الدنيوية لم تكن عبادة تسعد فاعلها في الآخرة، ولكان العقلاء يعملونها لفائدتها من غير تقيد بما حدده الدين فتبطل منها فائدة المساواة بين أفراد الأمة، والمساواة في العمل من الكمالات الاجتماعية كما علمت، فتباً لقوم يرغبون عن هذه العبادات وما فيها من الفوائد والمنافع:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾[1].

الفائدة الثامنة: صفاء القلب واستنارة الروح واستعدادها بذلك لنفحات الله المعنوية فقد ورد: «**أن لربكم في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لنفحات ربكم**»، ولإدراك شيء من عالم الملكوت في ليلة

(١) سورة البقرة: آية ١٣٠.

القدر. فقد قال الإمام الغزاليّ إنها عبارة عن ليلة ينكشف فيها شيء من الملكوت لذي الاستعداد، وهذه الفائدة للخواص ويحتاج بيانها إلى شرح طويل لا محل له الآن، وكل منا يعلم من نفسه أن قلة الشواغل والبعد عن الشهوات والرياضة المعتدلة تعطي صاحبها قوة في عقله وإدراكه، فإذا كان مستعداً بفطرته لإدراك شيء مما وراء الحس فأي مانع من كون الصيام معيناً عليه؟

هذا ما عنَّ لنا من فوائد الصيام وكونه من أسباب السعادة في الدنيا ومقومات المدنية، كما هو من أسباب السعادة في الآخرة، فعلى المتمدن العاقل أن يعتبر به ويصوم مراعياً هذه الفوائد ومتحرياً لها، وعلى الصائم الذي لا يعرف من الصيام إلا ترك الأكل والشرب والجماع أن يطالب نفسه بسر الصيام وفوائده وحكمته لئلا يتناوله حديث: «**كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش**» رواه النسائي وابن ماجه، وليكون الصوم له جُنة ووقاية كما في الحديث الذي تقدم.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1] [2].

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٦٩.
(٢) مجلة «المنار».

فضل شهر رمضان
للأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين[(١)]

قال الأستاذ:

كان هذا الشهر مظهَر الكتاب الذي هو منار الهداية ومطلع السعادة، كما قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾[(٢)] وإن شهراً ينزل فيه كتاب يملأ العقول حكمة، والقلوب طهارة لذو طلعة مباركة ومقدم كريم.

ومن مزايا هذا الشهر أنه الشهر الذي فتحت فيه مكةُ المكرمة، ذلك الفتح الذي علت به كلمة الإسلام في البلاد العربية، وعلى أساسه قامت الفتوح الإسلامية في الشرق والغرب.

---

(١) محمد الخَضِر بن الحسين بن علي الحسني التونسي. عالم إسلامي، أديب باحث، من أعضاء المجمعين اللغويين في دمشق والقاهرة، وممن تولى مشيخة الأزهر. ولد سنة ١٢٩٣ بنفطة بتونس، وتخرج من جامع الزيتونة ودرس فيه. وأنشأ مجلة «السعادة العظمى» سنة ١٣٢١، وولي قضاء بنزرت سنة ١٣٢٣. ارتحل إلى عدة بلاد واستقر في دمشق، ولما احتل الفرنسيون سورية انتقل إلى القاهرة فحصل على العالمية من الأزهر، وأنشأ جمعية الهداية الإسلامية وتولى رئاستها وتحرير مجلتها، وترأس تحرير مجلة «نور الإسلام» ـ الأزهر سابقاً ـ ومجلة «لواء الإسلام»، ثم كان عضواً في هيئة كبار العلماء. كان هادىء الطبع وقوراً. له عدة تصانيف، وخص قسماً كبيراً من وقته لمحاربة الاستعمار. توفي بالقاهرة سنة ١٣٧٧ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٦/١١٣ ـ ١١٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

فقد جمع هذا الشهر بين مزيتين عظيمتين:

أولاهما: أنه الزمن الذي أنزل فيه القرآن إلى سماء الدنيا جملة، أو ابتدىء فيه نزوله إلى الناس، ثم تواردت آياته على حسب ما تقتضيه الحكمة.

ثانيتهما: أنه مظهر الفتح الذي استوثقت به عرى دولة الإسلام حتى مدت سلطانها العادل، وساست الأمم بشريعة تلائم مصلحة كل زمان ومكان.

واقتضت حكمة الله تعالى أن يكون للناس من بين سائر الشهور شهر يقضون بياض نهاره في عبادة الصوم، واختار أن يكون شهر رمضان هو الشهر الذي تؤدى فيه هذه العبادة ذات الحكمة السامية والثواب الجزيل؛ ولعظم ما يترتب على الصيام من إصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق، جعلت فريضته من القواعد التي يقوم عليها الإسلام، والدليل على أن القصد من الصيام الإصلاح والتهذيب، لا تعذيب النفوس بنحو الجوع والعطش قوله ﷺ: «**من لم يَدَع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**»، وليس معنى هذا الحديث أن من يقول زوراً ويعمل به ليس له من صيام، وإنما القصد منه التنبيه على أن الصيام لا يتقبله الله تعالى بقبول حسن إلا إذا اجتنب صاحبه الزور والعمل به.

أمر الشارع بالإنفاق في وجوه البر، وورد في السنة ما يدل على أن للإنفاق في هذا الشهر فضلاً على الإنفاق في بقية الشهور، يظهر هذا من حديث ابن عباس قال: «**كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان**» وفضيلة التأسي به عليه الصلاة والسلام تدعو إلى بسط اليد بالمعروف في هذا الشهر أكثر من بسطها فيما عداه من الشهور، حتى

يجد الفقراء من إحسان الأسخياء راحة بال، فيقبلوا على الصيام والقيام بنشاط.

أمر الشارع بتلاوة القرآن تمكيناً لحجته، واستضاءة بنور حكمته، وجاء في السنة ما يرشد إلى الاستكثار من تلاوته، يظهر هذا من حديث ابن عباس في لقي جبريل للنبي ﷺ، وفي هذا الحديث «**وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن**» والدراسة: القراءة، وما زال أولو الألباب من الناس يجعلون لشهر رمضان نصيباً من تلاوة القرآن أكثر من نصيب كل شهر.

والتهجد في جزء من الليل قربة يبعث عند الله مقاماً محموداً، ونبّهت السنة على أن من جزاء القيام في ليالي رمضان غفراناً يمحو الذنوب السالفة، قال ﷺ: «**من قام رمضان إيماناً واحتساباً، غُفر له ما تقدم من ذنبه**» وظاهر الحديث أن هذا الغفران المترتب على قيام رمضان يأتي على الذنوب السالفة جميعاً فيسقطها، ولكن أهل العلم قصروه على صغائر الذنوب دون كبائرها، ورأوا أن فضل العمل الصالح لا يبلغ أن يسقط الكبائر من المعاصي وصاحبها لم يتب عنها، أو لم تُقَم عليه العقوبة المقررة على من يرتكبها، يقولون هذا وهم يُسلِّمون أن لمشيئة الله تعالى سلطاناً قد يفعل في كبائر الذنوب ما تفعله التوبة الخالصة، أو إقامة الحدود.

ومما استندوا إليه في تقييد المغفرة في هذا الحديث بصغائر الذنوب أحاديث وردت في فضل أعمال أخرى وقيدت فيها مغفرة الذنوب باجتناب كبائرها.

وكان ﷺ يتهجد في ليالي السنة بأسرها، وورد في الصحيح أنه

خرج في إحدى ليالي رمضان من جوف الليل فصلى في المسجد، وصلى رجال بصلاته، جرى هذا ثلاث ليال، فلما قضى الفجر أقبل على الناس، ثم قال: «**أما بعد: فإنه لم يخف عليّ مكانكم، ولكني خشيت أن تفترض عليكم، فتعجزوا عنها**» والخوف من افتراض هذه الصلاة قد يكون من جهة أن الله تعالى جعلها في حقهم من الأمور المندوب إليها، ولم يأمرهم بفعلها في جماعة على نحو الصلوات المفروضة رفقاً بهم، فإذا تظاهروا بالقوة عليها، وساروا بها سيرة ما افترضه الله عليهم من الصلوات، كانوا قد شددوا على أنفسهم في أمر جعل الله لهم فيه يسراً، فمن المحتمل أن يكون ما أخذوا به أنفسهم من الشدة سبباً لأن ينزل الوحي بفرض هذه الصلاة ابتلاء لهم حتى يظهر عجزهم عن إقامتها، ويدركوا العسر الذي راعاه الشارع في عدم إيجابها والتأكيد في الاجتماع لها، ومتى كان القصد من فرضها تنبيههم لوجه الرفق بهم في عدم فرضها أولاً، لم يلزم استمرار هذا الفرض حتى يقال كيف يأمر الشارع الناس بما يعجزون عن المداومة عليه، وقد رأينا الشارع يسن أحكاماً لمقاصد سامية حتى إذا أحس الناس بما فيها من عسر عاد إلى ما يقتضيه أصل التشريع من الرفق والتيسير، فالنبي ﷺ قصد بعدم خروجه لصلاة التراويح في المسجد قَطْعَ أمرٍ من المحتمل أن يكون وسيلة لتكليف يثقل عليهم القيام به ويظهر عجزهم عنه.

وتوفي رسول الله ﷺ ولم يكن الناس يجتمعون في صلاة القيام برمضان على إمام واحد، وبقوا على هذا الحال إلى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأقام أبي بن كعب إماماً لهذه الصلاة، وجمع الناس على الائتمام به، قال عبدالرحمن القاري: «خرجت مع عمر بن

الخطاب رضي الله عنه ليلة في رمضان إلى المسجد، فإذا الناس أوزاعٌ متفرقون، يصلي الرجل لنفسه، ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط، فقال عمر: إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارىء واحد لكان أمثل، ثم عزم فجمعهم على أبي بن كعب، ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم، قال عمر: نعم البدعة هذه».

فالذي فعله عمر بن الخطاب إنما هو جمع الناس على إمام واحد بعد أن كانوا يصلونها فرادى وجماعات في المسجد متفرقة، فعلَ هذا لأن الأمر الذي ترك من أجله رسولُ الله ﷺ إقامتها بالمسجد في جماعة ـ وهو خوف الافتراض ـ قد انقطع بالوحي، فعمر بن الخطاب استند فيما فعل إلى عمل النبي ﷺ مع تحقيق النظر في الوجه الذي كان النبي ﷺ قد تركها من أجله، وأراد بالبدعة هيئة اجتماع الناس على إمام واحد، وسماها بدعةً تشبيهاً لها ـ بعد أن تركت سنين ـ بما أُحدث على غير مثال سابق.

وتفضل الله تعالى بليلة جعل العمل فيها خيراً من العمل في ألف شهر، وهي ليلة القدر، وجمهور أهل العلم على أنها تكون في رمضان، أخذا بظاهر أحاديث أرشدت إلى التماسها في هذا الشهر؛ ومَن ذهب من السلف إلى أنها تكون في ليلة من السنة غير مقيدة بشهر حمل تلك الأحاديث على التماس ليلة القدر في رمضان من تلك السنة خاصة.

وهذه الأعمال الصالحات التي جعلها الشارع عمارة شهر رمضان من نحو الصيام والقيام، وتلاوة القرآن، وبسط اليد بالمعروف شأنها أن تهذب النفوس، وتحبّب إليها التقوى، وتعوّدها على السماحة واحتمال المكاره، وتهيئها للثبات والمواظبة على صالح الأعمال في سائر أيام

السنة، فمن اتقى في شهر رمضان بعض المحارم، ورأيته يصوم مع الصائمين، ويصلي مع المصلين، حتى إذا انقضى هذا الشهر جعل يتباطأ عن أداء الواجبات، ويبادر إلى ما كان يتقيه من المحرمات، فذلك الذي أقام أعماله على غير إخلاص، ولم يخالط قلبَه بشاشةُ الاستقامة على ما أمر الله.

فضل شهر رمضان بما وصفناه من المزايا، فاستحق اليومُ الذي يلي آخر يوم منه أن يُتَّخذ عيداً؛ لأنه يوم تمتلىء فيه قلوب الناس ابتهاجاً بما عملوا في هذا الشهر من خير، وأي نعمة يصيبها الإنسان في هذه الحياة تساوي نعمة أداء ركن من أركان الإسلام محفوفاً بضروب من أجل الطاعات وأشرف الآداب، وأي ارتياح يساوي في نظر أولي الألباب ارتياح النفس عندما تشعر بأنها اتّقت الله ما استطاعت، وإنما ارتياحها لما ترجوه من رضا الخالق وما يتبعه من عزة في الدنيا، وسعادة في الأخرى[١].

(١) «مجلة الأزهر».

صوم رمضان

لصاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبدالرحمن تاج[(١)]

قال الأستاذ:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال الله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[(٢)].

---

(١) الشيخ عبدالرحمن تاج من شيوخ الأزهر المشهورين، ومن العلماء الكبار. حصل على شهادة العالمية من الأزهر والدكتوراه من فرنسا. وله بعض المصنفات.

(٢) سورة البقرة: آية ١٨٣ ـ ١٨٥.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يحكيه عن الله عز وجل: «**كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف؛ إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به**».

وهذا واضح في أن جزاء الصوم لا يقف عند حد، وثوابه يتجاوز معايير الحساب والتقدير؛ فإنه من أعظم دلائل الإخلاص، وأقوى مظاهر الجلد والصبر؛ وقد قال الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(١).

وأخرج الشيخان ـ أيضاً ـ عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، يقول عزوجل: إنما يذر شهوته وطعامه وشرابه لأجلي، فالصوم لي وأنا أجزي به**» ـ وخلوف فم الصائم هو ما يكون من تغير رائحة الفم من أثر الصوم وترك الأكل ـ وهذا من أقوى الشواهد على فضل الصوم، وما له من الآثار الطيبة، وحميد العاقبة، حتى إن ما يستكره عادة وطبيعة من تغير رائحة الفم هو عند الله أطيب وأفضل وأحسن عاقبة للصائم مما يستطيبه الناس من رائحة المسك.

وروى البخاري عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «**الصوم جُنة، فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل**» ـ أي لا يتكلم بما فيه فحش وقبح، ولا يكن منه ما يكون من الجاهلين من الصخب ومظاهر التجبر والغطرسة ـ «**وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم إني صائم**».

---

(١) سورة الزمر: آية ١٠.

ومعنى كون «**الصيام جُنة**» أنه وقاية وحماية من المعاصي ومن العذاب.

وعن الأحنف بن قيس أنه قيل له: إنك شيخ كبير، وإن الصيام يضعفك، فقال: إني أعده لسفر طويل، والصبر على طاعة الله سبحانه وتعالى أهون من الصبر على عذابه.

مكانة الصوم ومزاياه الدينية والدنيوية:

الصوم شريعة من أهم الشرائع التي جاء بها الإسلام؛ وقد بين الرسول ﷺ أنه أحد الأركان الخمسة التي قام عليها هذا الدين الحنيف: فقال عليه الصلاة والسلام: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً**».

ولأهمية الصوم وسمو مكانته وعظم منافعه الجسمية والروحية، كتبه الله فريضة على الناس في الإسلام، وفي الشرائع السماوية التي سبقت الإسلام، كما قال عزوجل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[1].

فهو تهذيب للنفوس، وسمو بالأرواح، يعلم الناس كيف يترفعون عن مظاهر الحيوانية التي كل همها الأكل والشرب وإشباع البطن؛ يعلمهم كيف يسمون بأنفسهم إلى مستوى الملائكة الذين غذاء أرواحهم مراقبة الله وعبادته وتقواه، ويربي فيهم ملكة الصبر، وقوة قهر النفس، ويعودهم احتمال الشدائد، والجلد أمام العقبات والأحداث ومكاره الحياة.

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٣.

والصوم ينمي في النفوس فضيلة الأمانة والإخلاص في العمل، وألا يراعي في العبادة غير وجه الله، ويقضي على رذائل الدهان والنفاق والمراءاة.

وهو تصفية للنفوس من علائق الدنيا وشهواتها، وتخليص لها من الانهماك في متعها وزخارفها، حتى لا تطغى المادية ويشتد سلطانها على سلوك الناس في هذه الحياة، وحتى يكون السلطان الغالب في الحياة للفضائل الطيبة، والمعنويات السامية، وبذلك يكون الإخاء الإنساني، وتكون المحبة، ويتحقق التعاون بين الأفراد والجماعات، الأمر الذي فقدته الحياة المادية التي تصرخ الأمم الآن من شدة ضغطها على النفوس، وتتلمس الخلاص منها إلى حياة سلم وأمن وتعاون ومحبة.

هذه المعاني السامية، وهذه الحكم الرائعة، التي هي بعض مزايا الصوم وثمراته، قد أشار إليها القرآن في آية الصوم بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وأرشد إليها الرسول ﷺ بقوله: «**الصوم جنة**»؛ فإن الصوم يبعث على تقوى القلوب، وخشيتها لله وحده، ويقضي على ما تحمل النفوس من الضغائن والإحن، والعُجب والفخر والبطر، ويحميها من الميل مع الهوى، ومن حب التجبر والطغيان، ويعصمها من الفحش والفجور ومنكرات الأمور.

نعم الصوم خير مُرب للإنسان على فضائل الصراحة في القول والإخلاص في العمل، وعلى الجد والحزم وقوة العزم، وهذه الفضائل هي مَعْدِن الخير كله، وأصل المحامد جميعها، فإن من يضبط نفسه ويمسكها طوال النهار عما اعتادته من الأكل والشرب، وعما تشتهيه من المتاع الذي أحله الله في غير أوقات الصوم، فلا يتناول شيئاً من الطعام أو

الشراب جهرة ولا خفية، ولا يتمتع بشيء من ذلك المتاع من يضبط نفسه ويمسكها عن الحلال على هذا النحو امتثالاً لأمر الله، ورعاية لأحكام الله، وقصداً إلى نيل رضاه؛ فإنه من غير شك يكون قوياً على منعها عن الحرام، وإمساكها عما فيه غضب الله وسخطه، ويكون في سلوكه في مجتمعه، ومعاملته مع غيره أهلاً للصدق والأمانة، والوفاء بالعهد، وإنجاز الوعد، لا يكذب ولا يماري، ولا يغش ولا يخون؛ بل يترفع بدينه وشرفه عن أن يأتي منكراً، أو يفعل فاحشة، أو يكون منه ما يخدش الشرف والكرامة وعلو الهمة.

هذا إلى ما للصوم من منافع تعود على الناس بصحة أبدانهم وسلامة أجسامهم، فهو حمية لها، ووقاية لقواها، وتنقية لأجهزتها من آثار الأخلاط الضارة التي يشهد الطب بأنه يرجع إليها دائماً مختلف العلل والأمراض.

التدرج في شرع الصيام:

وقد سار الإسلام في شريعة الصيام على طريقته في التدرج بالأحكام، ففرض صوم رمضان في السنة الثانية من الهجرة، في شهر شعبان منها، قبل غزوة بدر، واقتضت حكمة الله ـ تعالى ـ أن تكون فرضيته هكذا متأخرة بعض الشيء عن بدء ظهور الإسلام، وعن شرعية غيره من الصلاة وبعض الأحكام، وذلك لأن فطم النفس، ومنعها عن مألوفاتها ومشتهياتها جهاد فيه مشقة، لا يصبر عليه إلا من تمكنت عقيدة التوحيد في قلبه، ومرن على الصلاة، وحب طاعة الله، وحسن الاستماع لأوامره، وقبول أحكامه، والتأثر الكامل، والانتفاع العظيم بآيات الذكر الحكيم.

وهذا هو أحكم الطرق في التشريع، وأحسن مثل يُحتذى في النصح والهدى والإرشاد: أن يؤخذ الناس بالتدرج في الموعظة: يبدأ معهم بما يخف على نفوسهم، وما يكونون أحسن قبولاً له وطاعة فيه، ثم يستعان بذلك على الانتقال بهم إلى غيره، مما يكون فيه نوع مجاهدة ومشقة، وهكذا تربى فيهم الفضائل والملكات الطيبة، وبهذا تتكون الأمة الصالحة، وبه وحده يمكن أن يجتمع الناس على الخير، وعلى التعاون في البر والعمل النافع.

ولقد كان من التدرج في الصيام الذي أتى به الإسلام أنه فرض على الناس ـ قبل أن يفرض صوم رمضان ـ أن يصوموا يوم عاشوراء، وهو يوم معظم له فضله وشرفه ثبت تعظيمه وصومه في الديانات السابقة على الإسلام، وحفظت آثار هذا التعظيم ومظاهره عند قريش في الجاهلية؛ فقد كانوا يحتفلون بهذا اليوم، ويكسون فيه الكعبة، وقد وجد الرسول ﷺ مظاهر هذا التعظيم باقية في يهود المدينة بعد الهجرة.

ففي الصحيحين من حديث عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها أن قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء في الجاهلية، ثم أمر الرسول ﷺ بصيامه حتى فرض رمضان، وقال: رسول الله ﷺ ـ في شأن يوم عاشوراء ـ «**من شاء فليصمه، ومن شاء أفطر**».

وفي الصحيحين ـ أيضاً ـ عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قدم النبي ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله فيه بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى، قال: «**فأنا أحق بموسى منكم**»، فصامه وأمر بصيامه.

فيوم عاشوراء كان يصام في الجاهلية، وصامه النبي ﷺ ثم فرض

صيامه على الناس قبل أن ينزل القرآن بفرض الصيام، وقد انتهت فرضيته بفرض صيام رمضان، ذلك الشهر العظيم، لكن صوم عاشوراء قد استمر شيئاً مندوباً إليه، ويستحب أن يصام قبله يوم التاسع، كما نبه إلى ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «**لئن عشت إلى قابل لأصومن التاسع**».

حكمة تخصيص شهر رمضان بشريعة الصيام:

بين الله ـ تعالى ـ في صدر الآية الكريمة: ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ**﴾ منزلة هذا الشهر وجلال مكانه بين أشهر السنة من حيث إنه سبحانه قد اختاره من بين هذه الأشهر، فأنزل فيه أول ما أنزل من القرآن، الذي هو في جملته هداية عامة للناس، ومعجزة إلهية، تثبت بنفسها أن هذا القرآن ليس من صنع أحد من البشر، ليس هو من إنشاء محمد وابتكاره، وليس هو من ثمرات عبقريته وذكائه، وإنما هو كلام الله ووحيه، جعله حجة ساطعة لمحمد ﷺ، ودليلاً باقياً على صدقه في دعواه أنه رسول الله إلى الناس لينقذهم من الشرك والضلال والزيغ والانحراف، وليقضي على ما كانوا عليه من قبيح العادات وسوء التعصبات.

ذلك شيء من هداية القرآن في جملته.

وهو في تفصيله آيات بينات، ودلائل واضحات في باب الهدى والإرشاد، والتفرقة بين الحق والباطل، يبين الحق ويوضح دلائله، ويفصل آثاره وثمراته داعياً إليه، آمراً باتباعه والتمسك بأهدابه، ويكشف عن الباطل ومساويه، ناهياً عنه محذراً من مفاسده وأضراره.

وقد أشارت الآية بعد ذلك إلى أن الشهر الذي هو بهذه المنزلة من الفضل والشرف ـ شرف اختياره لتنزل فيه هذه النعمة العظمى على

الإنسانية كلها ـ يجب أن ترعى حرمته، وأن تحيا دائماً ذكراه، ففرض فيه شريعة الصيام، وهي شريعة تناسب حال القرآن ودعوته، وتتفق مع أهدافه وغاياته، والحكمة من إنزاله، فإن القرآن هدى ونور، يحث على التقوى والرحمة وعلى العدل والمساواة، وإحسان المعاملة والمعاشرة، وعلى الصراحة وصدق القول وإخلاص العمل، وتطهير النفس من الخداع والغش والنفاق.

وكذلك الصيام وحكمته: فإنه يبعث على الإحسان والرحمة، وعلى الصدق والإخلاص ومراقبة الله، ويمرن النفس على الجلد والصبر في مكافحة الشدائد والملمات، وعلى جمع الهمة وبذل الجهد، لتذليل الصعاب والتغلب على مختلف العقبات.

وهو أحسن مبصر بحكمة تنزيل القرآن، وخير مساعد على الاهتداء بهديه والانتفاع بتعاليمه وإرشاداته.

فصوم رمضان إذاً هو إحياء سنويّ مجيد لذكرى نزول القرآن الكريم، وهو أعظم آيات الشكر لله على امتنانه بهذه النعمة الجليلة، ولذلك كان الرسول عليه الصلاة والسلام يُعنى بتعظيم هذا الشهر والاحتفال به بكثرة العبادة، وبذل كل جهوده في شكر الله على ما أنعم به عليه وعلى أمته، وكان يكثر فيه من البر والإحسان وتلاوة القرآن، يعرضه على جبريل أمين الوحي عليه السلام، وهذا هو أحسن المثل في إحياء الذكريات وتمجيد الصالحات(١).

---

(١) مجلة «الأزهر» المجلد ٢٨، الجزء ٩، رمضان سنة ١٣٧٦.

تحية من الأستاذ الأكبر
إلى جميع المسلمين في شهر رمضان
للشيخ محمود شلتوت[1]

قال الأستاذ:

إخواني وأبنائي المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها سلام الله عليكم ورحمته وبركاته:

وبالسلام أحييكم أصدق تحية، تحية من عند الله طيبة مباركة، أوجهها إليكم عنواناً على ما بيننا من الأخوة المشتركة، والمحبة الصادقة والإيمان بالله ورسوله: أيها السادة:

إن الله في علمه الخلق والاصطفاء، فهو يخلق ما يشاء لما يشاء، ويصطفي من يشاء لما يشاء، يخلق البشر، ويصطفي منهم للقيادة من شاء، يصطفي الأنبياء والمرسلين، ويصطفي العلماء والفلاسفة، ويصطفي القواد والمصلحين، ويخلق الأمكنة، ويصطفي منها مهابط الوحي، ومنابت الذكريات، ومثابة التقديس والعبادة، يصطفي منها

---

(١) محمود شلتوت. فقيه مفسر مصري. ولد سنة ١٣١٠ في مدينة بني منصور في البحيرة. وتخرج في الأزهر، وتنقل في التدريس إلى أن نقل للقسم العالي بالقاهرة. وكان داعية إصلاح فسعى إلى إصلاح الأزهر فطرد منه ثم أعيد، وكان عضواً في هيئة كبار العلماء ثم صار شيخاً للأزهر. له مصنفات كثيرة. توفي سنة ١٣٨٣ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٧/ ١٧٣.

على سائر الأماكن، ويجعل أفئدة من الناس تهوي إليها، ويخلق الأزمنة ويصطفي منها مواسم لرحمته، وأياماً وليالي لنعمه وأفضاله.

ومصداق الخلق والاصطفاء في القرآن على وجه عام قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾(١).

وفي الاصطفاء الإنساني يقول سبحانه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾(٢).

ويقول: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٣).

ويقول: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾(٤).

ويقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾(٥).

وفي الاصطفاء المكاني يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾(٦).

ويقول: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾(٧).

---

(١) سورة القصص: آية ٦٨.
(٢) سورة الأنعام: آية ١٢٤.
(٣) سورة آل عمران: آية ٣٣.
(٤) سورة الأعراف: آية ١٤٤.
(٥) سورة الأنعام: آية ١٦٥.
(٦) سورة آل عمران: آية ٩٦ ـ ٩٧.
(٧) سورة طه: آية ١١ ـ ١٣.

وفي الاصطفاء الزماني يقول: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[١].

ويقول: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[٢].

على هذه السُنّة ـ سنة الاصطفاء في الزمان والمكان والخلق ـ اصطفى شهر رمضان، وكان هو الشهر الذي تهتز له قلوب المؤمنين، ويذكرون به نعم الله وأفضاله، ويرقبون فيه رحمته ورضوانه، وكان مظهر اصطفاء رمضان جملة أمور:

أولاً: أنه الشهر الوحيد الذي صرح القرآن باسمه.

ثانياً: أنه الشهر الوحيد الذي ظهرت فيه أكبر نعم الله على عباده وهي كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

ثالثاً: أنه فرض صومه وجعل صومه فريضة محكمة من أنكرها فقد خرج عن دائرة الإسلام واستحق اللعنة الأبدية، وحرم جميع خصائص المسلمين، فهو لا يدفن في مقابر المسلمين، ولا يرثهم ولا يرثونه، وتبين منه زوجته، وتنقطع ما بينه وبين أبنائه صلات البنوة والحفادة، وكذلك تنقطع بينه وبين سائر المسلمين صلات المحبة والإخاء والولاية.

وصوم رمضان عبادة تلتقي في هدفها مع أهداف القرآن كلاهما يربي العقول ويسمو بالأرواح.

---

(١) سورة الإسراء: آية ٧٨.

(٢) سورة القدر: ١ ـ ٣.

ولرمضان في صومه مظهر خاص، فهو يوحد بين المسلمين في أوقات الفراغ والعمل، وأوقات الطعام والشراب، ويفرغ عليهم جميعاً صبغة الإنابة والرجوع إلى الله، ويرطب ألسنتهم بالتسبيح والتقديس، ويعفها عن الإيذاء والتجريح، ويسد عليهم منافذ الشر، والتفكير فيه، ويملأ قلوبهم بمحبة الخير والبر لعباد الله، ويغرس في نفوسهم خلق الصبر الذي هو عدة الحياة.

وشهر رمضان بعد هذا كله هو شهر الذكريات الإسلامية الأولى، ففيه يذكر المسلمون نزول القرآن الكريم: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[1].

وفيه يذكر المسلمون تركيز الإسلام بالقوة على أساس من كبح جماح الشرك والوثنية وذلك كما نراه في غزوة بدر الكبرى.

ويذكرنا بعودة المسلمين من المدينة إلى مكة المكرمة، بعد أن أخرجوا منها لا لشيء سوى أنهم قالوا: «ربنا الله» وبذلك تم على أيديهم الفتح المبين، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[2].

أيها السادة:

إن الصوم حرمان من الطعام والشراب وما ألفه الإنسان من شهوات، ويجب أن نتنبه إلى أن هذا الحرمان ليس هو مقصود الله من

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٥.

(٢) سورة الفتح: آية ١ ـ ٣.

الصوم، وإنما مقصوده الذي يريده من عباده هو إعداد نفوسهم بالصوم للخير والتقوى، واذكروا في ذلك قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

عُني القرآن عناية خاصة بفريضة الصيام، وجعل منه مظهر وحدة للمسلمين، لا يؤثر على هذه الوحدة تباين أمكنتهم، ولا اختلاف ألسنتهم، ولا تعدد جنسياتهم؛ فالإسلام وحد بينهم في العقيدة وفي العبادات، وفي المعاملات، وفي الأخلاق وفي المسؤولية، فالكل يؤمنون برب واحد، وإله واحد، ويتجهون إلى قبلة واحدة، ويصومون شهراً واحداً ويرقبون هدفاً واحداً، ويرتبطون بالصالح العام.

أمام هذه الوحدة التي يرسمها الإسلام للمسلمين، ويمد خطوطها شهر رمضان، أمام هذا كله أهنئكم بشهر رمضان وأدعوا الله سبحانه وتعالى أن يوفق المسلمين في جميع الأقطار للتكاتف والتعاون، وسد منافذ الشر التي تفد إليهم من الاستعمار والاستغلال، والإلحادية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2].

وفقنا الله جميعاً، ووفق أولي الأمر منا في أنحاء الأرض إلى خيري الدين والدنيا، والله المستعان، وكل عام وأنتم بخير[3].

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٣.
(٢) سورة الصف: آية ١٠ ـ ١٢.
(٣) مجلة الأزهر، الجزء ٩، المجلد ٣١ رمضان، سنة ١٣٧٩، ص٩١٣ ـ ٩١٥.

المفطرات على نحوين

للشيخ عبد الله القلقيلي

قال الشيخ:

إن المفطرات ـ وهي ما ينافي الصيام ويناقضه، ويخالفه ويعارضه ـ على نحوين، ومنقسمة إلى قسمين، أحدهما مادي واقع في نطاق الحس، والآخر معنوي عائد إلى الروح والنفس، فأما الضرب الأول فأن يصيب الصائم مما يعود إلى البطن والفرج في وقت مخصوص وذلك من طلوع الفجر إلى غروب الشمس وذلك كمثل الأكل والشرب والجماع، وهذا هو صيام العامي الذي لا يفقه من الصوم إلا هذا وأنه لا غاية للصوم وراءه، فإذا ما أصاب الصائم شيئاً من ذلك الذي عددناه آنفاً فقد انتقض صومه وبطل وصار مطالباً بأن يعيد اليوم الذي نقض صومه فيه.

وهذا الصوم إنما هو في الحقيقة وسيلة للضرب الثاني، إذ المقصود منه أن يتدرب الصائم على حكم نفسه وكبح جماحها ليمنعها مما يدسيها، ويدنسها ويرديها، وهذا من الضرب الثاني وهو المعنوي الذي يعود إلى النفس وهو عماد التقوى ولب الصيام الذي هو منه الغاية الأولى، وهو اجتناب خلال تدنس النفس وذلك كمثل الكذب وقول الزور والظلم والعدوان على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وقد

جاء في الحديث الصحيح «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**». . . وفي الحديث ما يدل على أن المقصود من الصوم إنما هو تهذيب النفس ومنعها من مساوىء الخلال، إذ أن الإمساك عن المفطرات وترك الطعام والشراب لم يفرضه الله سبحانه وتعالى لمنفعة وحاجة به سبحانه وتعالى إليه وإنما ذلك لغاية للعبد وهي تهذيب نفسه والابتعاد عما يشينه.

وإن هذا الضرب من المفطرات وهو حفظ اللسان من الغيبة والنميمة وأذى المسلمين أعظم خطراً وأفدح ضرراً من القسم الأول، إذ كان هذا القسم يحبط الصوم ويهدمه ويذهب الغاية منه وهو الثواب عند الله، وهو وإن كان لا ينقض الصوم مادة ولا يوجب الإعادة إلا أن المعول عليه هو حصول التقوى وبلوغ الغاية من النفس، وهو مما لا يدرك ولا يتوصل إليه مع إتيان الصائم الكذب والزور والغيبة والنميمة والطعن في أعراض الناس وما شاكل ذلك من المحرمات، وإذا كان المقصود من الصوم إنما هو تذليل النفس وإخضاعها لحكم الدين والأدب والعقل فإن مما يجري على هذه القاعدة أن يخفض جناحه للمؤمنين وأن يتجاوز عن مسيئهم ولا يقابل السيئة بالسيئة، فإذا اعتدى عليه أخوه المؤمن فلا يقابله على عدوان بعدوان مثله وإذا سبه فلا يسبه وفي هذا جاء الحديث الصحيح «**إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث يومئذ ولا يصخب، فإن شاتمه أحد أو قاتله فليقل: إني صائم**».

ففي هذا الحديث أن على الصائم أن لا يجيب من سبه وشتمه وهذا يتضمن التجاوز والسماح وترك مقابلة الشر بالشر والعدوان بالعدوان إذ أنه إذا سب الإنسان إنساناً آخر فقد اعتدى عليه، وفي هذا الحديث

الوصية بأن لا يرد عليه بالشتم وذلك من حقه، وهذا واضح في ترك مقابلة العدوان بالعدوان، ومعنى: وليقل إني صائم: إنه ليس لي أن أجيب على السب بمثله وأن أقاتل من قاتلني، وهو يتضمن تذكير الصائم المعتدي أنه مخطىء وناقض لصومه بسبه له ومقاتلته إياه.

ومن كلام حكماء الإسلام في هذا المعنى قال جابر: «إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم، ودع أذى الجار، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صومك، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء»، وهذا كما قيل:

إذا لم يكن في السمع مني تصاونٌ
وفي بصري غَضٌّ وفي منطقي صَمتُ

فحظي إذن من صوميَ الجوع والظما
فإن قلت إني صمت يومي فما صمت

وقد قيل في صوم الخواص:

من يصوم في الدنيا عما سوى الله فيحفظ الرأس وما حوى، ويحفظ البطن وما وعى، ويذكر الموت والبلى، ويريد الآخرة فيترك زينة الدنيا، فهذا عيد فطره يوم لقاء ربه وفرحته برؤيته...

والعارفون صومهم أن يحفظوا بالإضافة إلى كل ما تقدم قلوبهم عن كل ما سوى الله وألا يكون فيها حظ لسواه، وهنالك الطبقة التي أشرنا إليها وهي العوام، فهؤلاء لا يعلمون من الصوم إلا الإمساك عن الطعام والشراب، ونحن نرى أن طبقتي العوام والخواص من الصائمين كثيرتان في هذا الزمان، فأما طبقة العارفين فهيهات وقليل إن كان.

فضل العمل الصالح في رمضان:

إن مما قيل: إن لله خواصَّ في الأزمنة والأمكنة والأشخاص، وإن من الأزمنة المفضلة شهر رمضان. . . وذلك لما بيناه أن فضله كان بنزول القرآن فيه، ويكفيه فضلاً أن فيه ليلة خيرٌ من ألف شهر، ولم يزل هذا الشهر على الأمة عظيم البركات كثير الخيرات، ومما كان فيه ما حفظ الله به دينه ونصر عبده وأعز جنده وهزم المشركين وحده وهو غزوة بدر، وهي أول غزوة التقى فيها الإسلام والكفر وكان المسلمون يومئذ قليلاً، وكان ما لديهم من عتاد ضئيلاً، وكانوا على ما فيهم من القلة مستضعفين أذلة كما في قوله عزوجل ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

ورمضان وإن لم يكن من الأشهر الحرم فإنه أفضل من تلك الأشهر لما أوردناه من دلالة القرآن وحَسْب رمضان فضلاً ليلة القدر.

وإن مما هو معلوم أنه إن كان الظرف مفضلاً كان العمل الذي يقع فيه مفضلاً، ويكون فضل العمل على حسب ذلك الظرف، ومما يصح أن يذكر في فضل التطوع مع أداء الفرض أنه قلما يؤدي أحد فرضاً حق أدائه وكما ينبغي أن يؤدى ومن غير أن يقع تقصير أو خلل، نقيصة أو زلل، فيكون ذلك التطوع جبراً للكسر وتكميلاً للنقصان، ومدعاة للعفو والغفران، وهذا هو السر في زيادة السنن الرواتب على الفرائض، والحثِّ على النفل والتطوع في الصلاة.

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٢٣.

وهذه وجوه أخرى لفضل الأعمال الصالحة في رمضان أجملناها فيما يلي:

إن صيام هذا الشهر يذلل النفس ويطبعها على الطاعة حتى تكون طوع اليدين، وحتى لا تكاد تعصي للصائم أمراً، ولا تأبى عليه مراداً، فليغتنم الصائم الفرصة وليكثر من عمل الخير، وليجعل من هذا الشهر موسماً للعبادة، وليتزود فيه من الأعمال الصالحة فإن خير الزاد التقوى.

وإن من حكمة الإكثار من الطاعات في هذا الشهر أنه يخرج الصائم متطبعاً بفعل الخير متعوداً لعمل البر، فإذا ما انقضى رمضان لم ينقطع عن ذلك ولم تعصه نفسه فيما يزكوه به ويتجمل، ويسمو به ويتزين، ويغدو به من الأبرار المتقين الفائزين بجوار رب العالمين في عالم الخلود.

وينبغي أن يعلم أنه إنما جعل الصيام شهراً ليتدرب المؤمن على حكم نفسه وليأخذ بناصية هواه وشهواته فيكون ممن هُيِّئُوا للسعادة، وكان لهم الحسنى وزيادة، ومنه الارتياض على غير الصيام من الطاعات وفعل القربات.

وإن فعل الخير على حال من ذلة النفس وانكسارها وخضوعها لخالقها لما يصفي هذا الفعل ويجعله خالصاً من الشوائب لا يذكر فيه غير وجه الله فيتضاعف فيه الثواب ويزداد به الأجر وتعلو به الدرجة.

وفي هذا وذاك ما يحبب الإكثار من عمل الخير في هذا الشهر، وهو مما جرت به سنة النبي ﷺ فقد ثبت أنه كان يكثر في رمضان من العبادة والأعمال الصالحة، وصح عنه الترغيب في ذلك وبيان ما فيه من الثواب.

وإن من أعمال الخير التي تستحب في رمضان إطعام الصائم وذلك

لأن فيه إعانة له على تلك العبادة، ومما ورد في بيان أجر من يفطر الصائم قوله ﷺ: «**من فطر صائماً كان له مثل أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيء**» وهو حديث أخرجه الترمذي وصححه.

وكثير من الناس يجرون على هذا فيدعون ـ أكثر الأيام ـ عدداً من الصوام.

ومما يحسن من أعمال الخير الصدقة، والصدقة تقع على ما هو فرض وما هو نفل غير أن اسم الصدقة فيما بعد اشتهر فيما يكون تطوعاً واسم الزكاة فيما هو فرض.

وكلا النوعين مستحسن بذله في رمضان، وقد جرى كثير من الموسرين على إخراج الزكاة في هذا الشهر ونعماً يفعلون؛ إذ أن الفقراء يستعينون بما يبذل لهم من المال على أداء هذه العبادة فقد لا يجدون لولا الصدقات ما يقيم أودَهم ويتبلغون به في صومهم.

ثم إنهم يدخرون من الصدقات ليوم عيد الفطر الذي يحبون أن يظهروا فيه كغيرهم بشيء من حسن اللباس والزينة ويجدون فيه سعة في الطعام.

وقد نظر الشارع إلى هذا الغرض بفرض زكاة الفطر وحَتَّم إخراجها قبل صلاة العيد وأوجبها على كل من يملك قوته ليومه وعلى من يمونه من المسلمين صغاراً وكباراً ـ كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة ـ وإنما عم بوجوبها ليجتمع منها ما يكون توسعة على الفقراء والمحتاجين في يوم عيدهم وهذا واضح.

وفي الصدقة ثواب عظيم لم يرد في الحث على شيء من الخير ما ورد في الحث على الصدقة وقد جعل بعضها ركناً من أركان الدين، والحكمة في هذا أن بذل الصدقات يمنع كثيراً من الشرور، ويؤلف بين القلوب، ويجعل الأمة متآلفة متحابة ومتضافرة متعاونة، ومما ورد من سنة النبي ﷺ في اختصاص هذا الشهر بمزيد من البذل حديث صحيح عن ابن عباس وصف فيه جود النبي ﷺ في هذا الشهر وصفاً بليغاً فقال: «**كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان، فلرسول الله أجود بالخير في رمضان من الريح المرسلة**».

ومما كان في رمضان يكثر منه النبي ﷺ قراءة القرآن، وقد ثبت عنه ذلك في الأحاديث، وذلك أن القرآن يُبَصِّر قارئه في الدين ويحثه على مكارم الأخلاق، وقد جرى المسلمون على ذلك حتى اليوم، ولكن كثيراً منهم يتركون تلاوة القرآن بعد انصرام رمضان ولم يكن السلف الصالح كذلك بل كانوا دائماً يقرأون القرآن، وكان كثير منهم يرتبون منه وظيفة كل يوم غير أنهم كانوا يكثرون من ذلك في شهر رمضان.

ومما يحسن الإكثار منه في رمضان الصلاة، وهو ما يسمى بقيام رمضان، وقد كان النبي ﷺ وأصحابه يقومون في الليل يصلون، وكان أكثر ما يكون ذلك في رمضان، ومما ورد في الترغيب فيه قول النبي ﷺ في حديث صحيح: «**من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**»[١].

---

(١) مجلة «هدى الإسلام» ص ٥٧٣٥ ـ ٥٧٣٩.

فضل الصوم والصائمين
للأستاذ الدكتور محمد محمد أبو شهبة[١]

قال الأستاذ:

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما بسنديهما عن أبي صالح الزيات أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: **«قال الله عز وجل: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنَّة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يَرْفُثْ ولا يَصْخَب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل: إني صائم، والذي نفس محمد بيده لَخَلُوف فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك، وللصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه»**.

الشرح والبيان:

«قال رسول الله ﷺ: قال الله عزوجل».

هذا من الأحاديث القدسية التي رواها النبي ﷺ عن الله عزوجل،

---

(١) محمد بن محمد بن أبي شهبة أبو السادات. علاَّمة بالحديث وعلوم القرآن. ولد سنة ١٣٣٢ بقرية منية جناح بمحافظة كفر الشيخ بمصر ونشأ في كنف أبوين من أهل العبادة والصلاح، وتخرج من كلية أصول الدين، ونال العالمية بدرجة أستاذ ثم عين مدرساً في الكلية، وأعير لجامعات عربية كثيرة، وتولى مناصب جامعية مختلفة. توفي سنة ١٤٠٣ رحمه الله تعالى. له عدة مصنفات. انظر «ذيل الأعلام» ١٩٨ ـ ١٩٩.

وهو يدل على أن النبي ﷺ كان يتلقى عن الله تعالى وحي السنة كما يتلقى وحي القرآن الكريم.

وللعلماء المحدثين في رواية الأحاديث القدسية طريقان:

١ ـ أن يقال: قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى ـ كما هنا ـ أو فيما يرويه عن ربه قال.

٢ ـ أو أن يقال قال الله تعالى فيما يرويه عنه رسوله.

وقد تضمن هذا الحديث القدسي بعض فضائل الصوم، والصائمين ومنزلهم عند الله تبارك وتعالى:

«**كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به**».

في رواية البخاري في باب فضل الصوم زيادة «**والحسنة بعشر أمثالها**» وفي بعض روايات الإمام مسلم عن طريق الأعمش، عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ «**كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف**، قال الله عز وجل: **إلا الصوم**، وفي بعض الروايات إلى ما شاء الله، قال الله: **إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**».

وقد اختلف العلماء في المراد من قوله تعالى: «**إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به**» وذلك لأن الأعمال كلها لله، وهو الذي يجزي بها، وقد ذكروا في ذلك ما يزيد عن عشرة أوجه في الجواب، وأحسن ما يقال في هذا أن الله خص الصوم لأنه من العبادات التَرْكية التي لا يدخل فيها الرياء، والمعول فيها على الإخلاص والمراقبة لله، ألا ترى لو أن أحداً أكل أو شرب متخفياً عن أعين الناس ثم ظهر أمام الناس صائماً كغيره

فهل يدرك ذلك أحد من الناس؟ فهو من العبادات التي تعتبر سراً بين العبد وبين ربه، وأيضاً فلكونه بهذه المنزلة من العبادات فالله يجازي عليه جزاء لا يقدره قدرَه ولا يعلم غايتَه إلا الله تبارك وتعالى، فالحسنات الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، إلا الصيام فإنه لا يعلم مدى المضاعفة فيه إلا الله، ويشهد لهذا ما ورد في بعض الروايات: «**إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم فإنه لا يدري أحد ما فيه**»، ويشهد له أيضاً ما رواه ابن وهب في جامعه مرسلاً ورواه الطبراني والبيهقي في «الشُعب» عن ابن عمر مرفوعاً من حديث «**الأعمال عند الله سبع**» وفي هذا الحديث «**وعمل لا يعلم ثواب فاعله إلا الله**»، ثم قال: وأما العمل الذي لا يعلم ثوابَ عامله إلا الله فالصيام[1].

هذا إلى ما في إضافة هذه العبادة إلى الله من التشريف للعبادة والتشريف للصائمين، وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى: «**وأنا أجزي به**» أي أثيب عليه ثواباً لا يعلم كُنْهَه ومقداره إلا الله.

«**والصيام جُنّة**».

جُنّة ـ بضم الجيم وتشديد النون المفتوحة ـ أي ستر ووقاية، ومادة (جن) وما تصرف منها تدور على معنى الاستتار والاستخفاء ومنه (الجن) لاستتارهم عن الأعين ومنه (المجن) الذي يلبسه المحارب لأنه يقيه ويستره من سهام الأعداء وسيوفهم، ومنه (الجنة)؛ لأنها تستر مَن فيها بأشجارها وظلالها.

والصوم ستر ووقاية من النار، ووقاية من الشهوات والوقوع في

---

(١) قال الدكتور أبو شهبة: «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» ج٤، ص٨٦ ـ ٨٧.

المحرمات، ووقاية النفوس من مساوىء الأخلاق كالشح، وقسوة القلب، وعدم الرحمة بالخلق، ووقاية للمجتمعات من الفقر وسوء الأخلاق والمذاهب الفاسدة الباطلة، فإن الصائم الحقيقي إذا صام كما أراد الله وأراد رسول الله فإنه ولا شك يصبح إنساناً قويَّ العزيمة، صلب الإرادة فلا يصير أسيرَ شهواته، ولا عبد أهوائه عطوفاً على الناس، محباً للفقراء، والمحتاجين عف اللسان، عف الجوارح، نموذجاً للكمال الخلقي الإسلامي، وإن الصوم ليربي في المسلم ملكة المراقبة لله ويقظة الضمير، وما أشد حاجة الأمم والشعوب إلى ملكة المراقبة لله، وإلى الضمير الحي؛ فإنهما من أسباب الاستقامة، والصلاح الدنيوي والأخروي.

«فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب».

وفي رواية للبخاري: **«فلا يرفث ولا يجهل»**.

يرفُث بضم الفاء وكسرها، ويجوز في ماضيه الفتح، والضم، والكسر، والرفث بفتح الراء، والفاء يطلق ويراد به مباشرة الزوجة ومنه قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾[1]، ويطلق ويراد منه مقدمات المباشرة، ويطلق ويراد منه ذكر ما يتعلق بذلك ولا سيما أمام النساء ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾[2] ويطلق ويراد منه الكلام الفاحش، والعبارات البذيئة، وهذا هو المراد هنا؛ فالمراد النهي عن

(١) سورة البقرة: آية ١٨٧.
(٢) سورة البقرة: آية ١٩٧.

الفحش في الكلام والتفوه بالألفاظ النابية، وأما المباشرة التامة للزوجة فهي مفسدة الصوم وموجبة القضاء والكفارة، وأما مقدمات المباشرة أو المباشرة للزوجة غير التامة فقد تؤدي إلى فساد الصوم؛ لأن القبلة أو المعانقة أو المضاجعة قد تؤدي إلى الإنزال وهو موجب للقضاء عند الحنفية، والشافعية، والحنابلة، وموجب للقضاء والكفارة عند الإمام مالك وآخرين، فالأولى عدم ذلك وخاصة لمن لا يأمن على نفسه الوقوع في المفسد للصوم كالشاب مثلاً، ولذلك قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ في الحديث الذي روي عنها في الصحيح من جواز القبلة، والمباشرة غير التامة: «وكان رسول الله ﷺ أملككم لإربه» أي لنفسه، وأما الإمذاء[1] بسبب القبلة ونحوها فالجمهور على أنها لا تفطر، وبعض العلماء يقول: إنها تفطر وعليه القضاء فحسب.

«**يصخب**» روي بالصاد والخاء المفتوحة، وروي بالسين، والخاء أيضاً، وهما لغتان صحيحتان ووردت بهما الرواية ولكن الأكثر هو الأول، والصخب: الخصام والصياح ورفع الصوت بما لا ينبغي، وهو بمعنى الرواية الأخرى.

«**ولا يجهل**» أي لا يفعل فعل أهل الجهل والسفه، والرفث، والصخب والجهل ممنوعات في غير الصوم لكنهما في الصوم أشد حرمة، وآكد في المنع.

(١) قال الدكتور: المذي ماء رقيق يخرج من غير دفق وشهوة بعد المداعبة مثلاً، وأما المني فهو ما يخرج من الرجل بدفق وشهوة، وفيه غلظ وثخونة، وحكم المرأة في ذلك حكم الرجل فليتنبه إلى ذلك، والمذي في غير الصوم موجب للوضوء لا الغسل، وأما الإمناء فموجب للغسل.

ثم بين رسول الله ﷺ المنهج الذي يتبعه الصائم إذا ما أثير بسباب أو فحش، أو مخاصمة، ومضاربة فقال: «**فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل: إني امرؤ صائم**».

في رواية البخاري: «**وإن امرؤ قاتله أو شاتمه**»: بتقديم القتال على الشتم، والشتم والسب بمعنى واحد، و«أو» للتنويع لا للشك، والتقديم والتأخير في مثل هذا أمر سهل لأنه يدخل في باب الرواية بالمعنى، ولا سيما أن التقديم والتأخير لا يترتب عليه أي إخلال بالمعنى، وإن كنت أرجح الرواية التي معنا في هذا الحديث: «**فإن سابه أحد أو قاتله**» لأن فيها ترقياً من الأدنى إلى الأعلى وهو المناسب لكلام أبلغ البلغاء ﷺ، وفي بعض الروايات في غير الصحيحين: «**فإن سابه أحد أو ماراه**»، أي جادله.

والمراد بالمقاتلة الهم بالمضاربة والمشاجرة، أما إن أراد قتله بالفعل فعليه أن يدفعه بالحسنى، أو بقوله: إني صائم، فإن لم يفد فواجب عليه أن يدافع عن نفسه، وفي الحديث الشريف: «**من قتل دون نفسه فهو شهيد**»، والدفاع عن النفس ضد الصائل[1] أمر مشروع مقرر في الشريعة الإسلامية الغراء، والمراد بالمسابة والمقاتلة الفعل من جانب واحد، وكثيراً ما تأتي المفاعلة على غير بابها مثل قول العرب: تراءينا الهلال، وعافاه الله، وعاقبت اللص.

«**فليقل: إني امرؤ صائم**»، وفي رواية للبخاري «**فليقل إني صائم مرتين**» وقد اتفقت الروايات في الصحيحين وغيرهما على قوله: «إني

(١) أي المعتدي.

صائم» إلا أن بعض الروايات اقتصرت على ذكر ذلك مرة، وفي بعضها ذكر مرتين، والمراد أن يكرر قوله «**إني صائم**» وذلك لتأكيد المسالمة وأنه لا يرد الجهل بالجهل، ولا السفه والسباب بالسفه والسباب، فانظر كيف يصيِّر الصوم من الصائم رجلاً مسالماً، عَفُوّاً، لا يقابل السيئة بالسيئة ولكن يدفع بالتي هي أحسن.

أيقول: «**إني صائم**» بقلبه أم يقولها بلسانه؟ ذهب إلى كلٍ بعض من العلماء، والقول باللسان حسن، ولو جمع بين القول بالقلب، والقول باللسان يكون أجمل وأحسن، والمراد بالقول بالقلب: الإذعان على عدم الرد، ثم يؤكد ذلك بالقول باللسان، فيتواطأ على عدم مقابلة السباب بالسباب القلب واللسان، وهذا غاية الخلق الكريم أن يكون الخلق الظاهري منبعثاً عن خلق نفسي أصيل.

«والذي نفس محمد بيده لَخُلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك».

هذا قسم من النبي ﷺ لتأكيد المحلوف عليه وتوكيده في نفس السامع.

«الخُلُوف» بضم الخاء واللام، وهذا ما عليه جمهور علماء اللغة والحديث، وأجاز اللغويون والمحدثون فتح الخاء فيكون فيه لغتان، يقال: خَلَف ـ بفتح الخاء واللام ـ فوه، يُخلف ـ بضم اللام في المضارع ـ وأَخْلف ـ بالهمز ـ يخلف إذا تغير، والخلوف: تغير رائحة فم الصائم بسبب الصوم، والمراد بكونه **أطيب عند الله من ريح المسك**... قيل إن ذلك سيكون جزاءه وسمته في الآخرة أن يأتي على هذه الحالة وهي النكهة الطيبة، كما يأتي المجروح في سبيل الله يوم القيامة جرحه يشخب دماً، اللون لون الدم والريح ريح المسك.

وقيل: إن ذلك بحسب الملائكة وأنهم يستطيبون خلوف فم الصائم أكثر مما يستطيبون ريح المسك، وفي ذلك من تكريم الصائمين ما فيه، وقد استدل بهذا الجزء من الحديث بعض العلماء على أن السواك يكره للصائم لأن في الاستياك إزالة الرائحة، والحق أن الحديث لا يدل على هذا، وهذا الاستدلال يعارضه ما ثبت في الأحاديث الصحيحة من أنه ﷺ كان يستاك وهو صائم، وقد ترجم الإمام البخاري في صحيحه في كتاب الصيام فقال: «باب السواك الرطب واليابس للصائم»، ثم روى تعليقاً فقال: ويذكر عن عامر بن ربيعة قال: «**رأيت النبي ﷺ يستاك وهو صائم ما لا أحصي أو أعد**»، وهذا الحديث المعلق قد رواه موصولاً الإمام أحمد وأبو داود والترمذي من طريق عاصم بن عبدالله بن عامر بن ربيعة عن أبيه، وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه، وقد ساق الإمام البخاري أحاديث أخرى، تفيد بعمومها شرعية السواك للصائم(١)، والذي أرجحه هو جواز الاستياك للصائم وسنيته، ولا سيما أن هذه الرائحة التي تنبعث من فم الصائم لا يكون مبعثها غالباً ما بين الأسنان من فضلات، وإنما مبعثها خلو البطن من الطعام وجفاف الريق بسبب عدم الشراب، وهذا ربما يحصل للجائع والعطشان في غير الصوم، وأيضاً فالحديث مساق لبيان فضل الصائمين عند الله حتى ولو لم تنبعث من أفواههم رائحة كريهة فالحديث كما قال جمهور العلماء سيق مساق التمثيل والمجاز.

«**وللصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره**» يفرحهما أي يفرح بهما فحذف حرف الجر ووصل الضمير.

---

(١) قال الدكتور أبو شهبة: «فتح الباري» ج٤، ص ١٢٧.

ثم بين الله تبارك وتعالى أن للصائم فرحتين: إحداهما في الدنيا، والأخرى في الآخرة، الأولى فرحه عند فطره، وذلك بزوال جوعه وعطشه حيث أبيح له الفطر، وهذا الفرح فطري طبيعي، وأيضاً فالصائم عند الغروب يفرح لتوفيق الله له بإتمام عبادته وصومه، وخلوه من المفسدات والمبطلات، ووقوعه على ما أراد الله ورسوله فلا رفث، ولا صخب، ولا فحش ولا هُجْر في القول، وهذه من الأمور الوجدانية التي يشعر بها معظم الصائمين عند الغروب من رضى قلبي، وراحة نفسية، وشعور بأداء الفرض الذي فرضه الله عليه. «وعند الصباح يحمد القوم السُرى»[1] مهما كان في هذا السرى من تعب ومشقة وعدم نوم.

والثانية: فرحه عند لقاء ربه تبارك وتعالى، وذلك لما يجده من ثواب عظيم وفضل كبير قد أعده الله له، مما لا يخطر له على بال، وأيضاً يسر بلقاء ربه لأنه لقاء يجد فيه كل ألوان التكريم ويجد فيه الرضوان الأكبر، وصدق الله حيث يقول في الحديث القدسي الذي رواه عنه نبينا محمد ﷺ وعلى آله وسلم: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، بله ما اطلعتم عليه**» ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2].

نسأل الله سبحانه أن يرزقنا وإخواننا المسلمين هذا النعيم المقيم، وأن يتقبل منا صيامنا وقيامنا في هذا الشهر الكريم[3].

---

(١) قال الدكتور محمد أبو شهبة: المشي في السفر ليلاً.
(٢) سورة السجدة: آية ١٧.
(٣) «مجلة الأزهر»: السنة ٤٥ الجزء ٧ رمضان سنة ١٣٩٣، ص ٦٠٢ ـ ٦٠٨.

قدر هذا الشهر الأغر

للأستاذ عبد الرحيم فوده

قال الأستاذ:

١ ـ عن قتادة رحمه الله أنه قال: إن الله اصطفى صفايا من خلقه، اصطفى من الملائكة رسلاً، ومن الناس رسلاً، واصطفى من الكلام ذكره، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالي ليلة القدر، فعظموا ما عظم الله، فإنما تعظم الأشياء بما عظمها الله عند أهل العلم والفهم.

٢ ـ وقد اجتمع لهذا الشهر ما يعظم به قدره، ويجعله غرّاً في جبين الزمن كله، ومن ثَمَّ ذكره الله باسمه ـ دون غيره ـ حيث قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[١].

فنزول القرآن فيه، وفي ليلة مباركة من لياليه ـ سماها الله ليلة القدر، وذكر أنها خير من ألف شهر ـ قمة ما يعد من مفاخر هذا الشهر؛ ذلك لأنَّ القرآن كما قال الله فيه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾[٢].

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٥.
(٢) سورة ص: آية ٢٩.

والليلة التي أنزل فيها كما قال الله فيها: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾(١).

ثم هو حياة الحياة كما يفهم من قول الله فيه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٢).

وقد وصفه النبي ببعض ما فيه حيث قال:

«فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء، ولا يَخْلق(٣) على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً، من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أُجر، ومن اعتصم به هدي إلى صراط مستقيم».

٣ ـ فلو لم يكن لهذا الشهر غير شرف نزول القرآن فيه لكان ذلك غاية الفضل والشرف فكيف وقد جعل الله فيه فريضة الصيام، وهي من أركان الإسلام الخمسة وحقق للإسلام فيه النصر في غزوة بدر وفتح

---

(١) سورة الدخان: آية ٣.
(٢) سورة الشورى: آية ٥٢.
(٣) أي لا يبلى.

مكة، ومعركة عين جالوت مع التتار والمنصورة مع الصليبيين، والأندلس مع القوط..؟

إنه موسم خير عام يلتقي فيه المسلمون على صيام نهاره، وقيام لياليه، وتوثيق صلتهم بالله فيه، وتحقيق ـ ما ينبغي ـ أن يسودهم من أخاء وود وولاء.

٤ ـ ذلك لأنَّ صيام هذا الشهر في مظهره الاجتماعي كما يقول العقَّاد رحمه الله: يعطينا مظهر أسرة عظيمة من مئات الملايين، تنتشر في جوانب الأرض، وتقترن شعائرها الدينية كل يوم بأمسّ ما يحسّ الإنسان في حاجته اليومية، وهو أمر الطعام والشراب ومتع الأجساد، ملايين من الناس في جوانب الأرض يطعمون على نظام واحد، ويمسكون عن الطعام على نظام واحد، ويستقبلون ربهم على نظام واحد، وقلما انتظمت أسرة بين جدران بيت على مثل هذا النظام.

٥ ـ وهو في **تأثيره** على الفرد كما يفهم من قول الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١].

فالتقوى هي ثمرة الصوم وضمير الصائم، وقد قرن الله بها كل خير كما يفهم من قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[٢].

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٣.
(٢) سورة الطلاق: آية ٢ ـ ٣.

وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾(١).

وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾(٢).

وقوله في المتقين: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٣).

٦ ـ ثم إنه يعود المسلم على الصبر في الشدة والشكر في الرخاء، لأنه يجمع هذين الأمرين في الحرمان من الطعام والشراب وملامسة النساء في النهار، والاستمتاع بذلك في الليل، والصبر والشكر كلاهما من مقومات الشخصية القوية التي لا تهزّها الشدائد، ولا تستخفها المناعم والملذّات.

٧ ـ وقد توّج الله صوم هذا الشهر بزكاة الفطر ليشيع بين الفقراء والأغنياء الشعور بالسرور، لأداء الواجب، وعودة الحرية، وبهجة العيد.

ذلك بعض ما يذكر لهذا الشهر العظيم وما يفسر به احتفال النبي لاستقباله والتيمُّن بهلاله، فقد كان يستقبله بهذه الكلمات: **«اللَّـٰهُمَّ أَهِلَّه علينا بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام، ربي وربك الله، هلال رشد وخير»** ﷺ، ووفّقنا إلى الانتفاع بسيرته واتِّباع سنَّته(٤).

---

(١) سورة الطلاق: آية ٥.
(٢) سورة الطلاق: آية ٤.
(٣) سورة البقرة: آية ٥.
(٤) مجلة «الأزهر»: الجزء ٧، السنة ٤٣، رمضان ٨، سنة ١٣٩١هـ.

تشريع الصيام وتاريخه



الصوم حقيقته وتاريخه
للدكتور علي عبدالواحد وافي[١]

قال الدكتور:

١ـ نشأة الصيام وأنواعه:

لا نعلم على وجه اليقين متى نشأت فكرة الصوم في المجتمعات الإنسانية، ولا نكاد نعرف شيئاً يعتد به عن الأسباب الأولى التي دعت إليه، كما أن ما وصل إلى علمنا عن النظم الدينية للأمم الغابرة لا يرشدنا إلى أول شريعة جاءت به، ولا يقفنا على أول شعب ظهر فيه، وكل ما يذهب إليه بعض الباحثين في صدد هذه الأمور يتألف من آراء فطيرة[٢] تعتمد في بعض نواحيها على الحدس والتخمين، وفي نواح أخرى على استنباطات ضعيفة قلقة لا يطمئن إلى مثلها منهج سليم.

غير أنه مما لا شك فيه أن الصوم من أقدم العبادات الإنسانية ومن

(١) علي عبدالواحد وافي، رائد علم الاجتماع بمصر. ولد سنة ١٣١٩ في أم درمان لأب مصري. وتنقل في المدارس حتى جاز أربعة دبلومات عالمية وحصل على الدكتوراه وتنقل في الوظائف وعمل عميداً لعدة كليات في الدول العربية ورئيساً لبعض الأقسام في كلياتها. وكان عضواً في مجامع كثيرة لغوية وإسلامية، واختير رئيساً للجمعية العلمية المصرية ولجمعية علم الاجتماع. له نحو خمسين مصنفاً. توفي رحمه الله تعالى سنة ١٤١٢. انظر «تتمة الأعلام»: ١/ ٨٣ـ ٨٤.

(٢) غير ناضجة.

أكثرها انتشاراً، فلم يكد يخلو منه دين من الأديان التي أخذت بها المجتمعات، ولم تتجرد منه شعائر شعب من شعوب العالم قديمة وحديثة: جاء في ملل التوتميين والمجوس والوثنيين والصابئين والمانوية والبوذيين وعبدة الكواكب والحيوان، كما جاء بشرائع اليهود والنصارى والمسلمين.

وقد اختلفت أشكاله باختلاف الأمم والشرائع، وتعددت أنواعه بتعدد الظروف المحيطة به والأسباب الداعية إليه؛ فمنه ما يكون بالكف عن الأكل والشرب والاتصال الجنسي والكلام، ومنه ما يكون بالكف عن واحد من هذه الأمور أو عن بعضها.

ولعل الكف عن الكلام هو أغرب أنواع الصيام، وهو منتشر لدى كثير من الأمم البدائية وغيرها؛ فقد ذكر الأستاذان سبنسر وجيلين في كتابهما عن سكان أستراليا الوسطى حالات كثيرة من هذا القبيل، منها أن المتوفى عنها زوجها يجب عليها أن تظل مدة طويلة ـ تبلغ أحياناً عاماً كاملاً ـ صائمة عن الكلام، ويظهر أن شيئاً من هذا كان متبعاً في ديانة اليهود، بدليل قوله تعالى على لسان مريم:

﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ. . .﴾[1].

والإمساك عن الأكل والشرب في الصيام يقع على وجوه كثيرة: فمنه المطلق الذي يشمل جميع المأكولات والمشروبات ـ كصيام

---

(١) سورة مريم: آية ٢٦ ـ ٢٩.

الصابئين والمانوية والمسلمين ـ ومنه المقيد الذي يتم بالكف عن بعض أنواعها، كبعض أنواع الصيام عند المسيحيين.

وقوام الصيام، كما يظهر من ملاحظة الأشياء التي يقتضي الكف عنها، هو حرمان الجسم والنفس من بعض حاجاتهما الضرورية المحببة.

ومن أنواع الصيام ما يقتضي الإمساك عن هذه الأمور اليوم كله نهاره وليله، ومنه ما لا يقتضي الإمساك إلا نهاراً أو شطراً من النهار، ومنه ما يبدأ بغروب الشمس ويستغرق الليل كله أو شطراً منه.

ومن أنواع الصيام ما يكون متتابعاً يجري في أيام متتالية، ومنه ما يكون مقصوراً على يوم واحد أو ليلة واحدة أو جزء من يوم أو ليلة، ومنه ما شرع في أيام غير متتابعة يفصلها بعض عن بعض فترات معينة.

ومن أنواع الصيام ما هو واجب على جميع الطبقات أو على بعضها بشروط خاصة، ومنه ما هو مستحب يندب إليه جميع الأفراد أو بعض طوائف منهم.

٢ـ مقتضيات الصيام ومناسباته:

هذا وترجع أهم الحالات والمناسبات التي تقتضي الصوم على وجه الوجوب أو الندب في مختلف الشرائع الإنسانية إلى الأمور الآتية:

١ ـ حلول مواقيت عادية دورية، كحلول فصل معين من فصول السنة أو شهر من شهورها، أو يوم من أيام الأسبوع، أو بلوغ كوكب منزلة خاصة من منازله، وما إلى ذلك، وكثيراً ما يكون الميقات تاريخاً لحدث اجتماعي خطير وقع فيه، فيتجه الصيام أولاً وبالذات إلى هذا الحدث أو

إلى أمور تتصل به: كشهر الصيام مثلاً عند المسلمين، فإنه تاريخ لنزول كتابهم الكريم وهو القرآن، وكاليوم السابع عشر من الشهر الرابع العبري عند اليهود وهو أحد أيام صيامهم، فإنه تاريخ لسقوط أورشليم عاصمة ملكهم القديم.

٢ ـ حلول ظواهر فلكية غير عادية كالكسوف والخسوف.

٣ ـ حوادث الوفاة.

٤ ـ بلوغ الشخص سناً معينة أو مجاوزته مرحلة من مراحل حياته.

٥ ـ التكفير عن بعض الذنوب المقصودة وغير المقصودة أو التحلل من بعض الواجبات والالتزامات الدينية وغيرها.

٦ ـ وقد يتخذ الصوم وسيلة للحصول على أغراض نفعية إيجابية: صفاء الروح، إشراق الحقائق على النفس وإلهامها المعلومات، القدرة على الإتيان بأمور خارقة للعادة.

٧ ـ وقد يُلجأ إلى الصوم لدفع ضرر فرديّ أو جمعيّ: مرض أو وباء أو طوفان أو قحط... وما إلى ذلك.

٨ ـ وقد يتخذ الصوم تمهيداً لعبادة أخرى أو وسيلة لجعلها مقبولة أو عنصر هاماً من عناصرها، ومن ذلك الصوم الذي يسبق أو يصاحب تقديم القربان أو الوفاء بالنذور أو إيتاء الزكاة أو إخراج الصدقات أو الاعتكاف أو الصلاة... وما إلى ذلك.

ولعل أهم أنواع الصيام وأكثرها انتشاراً في مختلف الديانات هو النوع الأول، وهو الصيام في مواقيت معينة تتكرر كل سنة أو كل شهر أو كل أسبوع، وهو الصيام الذي يرتبط في الغالب بتاريخ أحداث اجتماعية خطيرة.

ومن أشهر الديانات التي وجهت إلى هذا النوع من الصيام عناية كبيرة وكثرت فيها مناسباته، وأنزلته منزلة الفروض العينية، ديانات الصابئين والمانويين والبوهميين والبوذيين واليهود والمسلمين.

وسنقصر كلامنا فيما يلي على بيان مظاهر هذا النوع من الصيام في بعض هذه الشرائع والبحث عن الدعائم التي يقوم عليها.

٣ـ الصيام ذو المواقيت الدورية في الديانة اليهودية:

وفي الديانة اليهودية لهذا النوع من الصيام أمثلة كثيرة من أهمها صيام اليوم العاشر من الشهر السابع العبري «يوم كبور، أو يوم الكفارة»، وقد كتب هذا الصوم على اليهود للاستغفار وطلب العفو عن الخطايا بنصوص قطعية صريحة من التوراة نفسها.

ويظهر أن اليهود في عصورهم القديمة كانوا يصومون السبت من كل أسبوع واليوم الأول من كل شهر قمري، فضلاً عن كفهم عن مزاولة الأعمال فيهما، ثم قصر الأمر فيما بعد على الكف فيهما عن مزاولة الأعمال، وهذا ما يستفاد ضمناً من الآيات التي نهوا فيه نهياً صريحاً عن صيامهما؛ إذ النهي عن صيام هذين اليومين بالذات دليل على أنهم كانوا يصومونهما فيما سبق، وذلك أن الحظر في الشرائع لا ينصب في الغالب إلا على شيء كان متبعاً معمولاً به.

ولصيام هذين اليومين صلة وثيقة بحركات القمر؛ أما صيام اليوم الأول فصلته بذلك واضحة كل الوضوح، وأما صيام يوم السبت فقد قامت أدلة كثيرة على أن خواتيم الأسابيع كانت توافق في عصورهم القديمة دخول القمر في منازله فكانت مواقيتهم الفلكية ـ على ما يظهر ـ

تقسم الشهر القمري أربعة أقسام؛ يمثل كل قسم منها منزلة من منازل القمر الأربع، وكان كل قسم من هذه الأقسام يسمى أسبوعاً، ويختتم بيوم السبت، على أن التفكير في تقسيم الزمن إلى أسابيع ترجع نشأته الأولى في الإنسانية إلى تعاقب منازل القمر واستغراق كل منزلة منها نحو سبعة أيام، وبذلك يتصل صيام اليهود القديم في سبتهم بالظواهر نفسها التي يتصل بها صيام البوذيين أربعة أيام من كل شهر قمري كما تقدم.

وورد في الآيات الثانية والثالثة والتاسعة والعاشرة من الإصحاح الثامن بسفر نحميا ـ وهو من الأسفار التاريخية من العهد القديم ـ ما يدل على أن كثيراً من اليهود كانوا يصومون اليوم الأول من الشهر السابع، وعلى أن نحميا نفسه أقرهم على ذلك وأمر أفراد الشعب بأن يبعثوا إلى الصائمين منهم في هذا اليوم بطعام إفطارهم.

وورد كذلك في الآية الأولى من الإصحاح التاسع بسفر نحميا ما يدل على أن اليهود قد صاموا اليوم الرابع والعشرين من الشهر السابع: «في اليوم الرابع والعشرين من الشهر السابع اجتمع بنو إسرائيل مرتدين المسوح معفرين جسومهم بالرماد للاحتفال بيوم الصوم».

ويفهم مما ورد في سفر زكريا أنهم بعد الجلاء إلى بابل كانوا يصومون أياماً أخرى كثيرة دورية لذكرى حوادث مؤلمة في تاريخهم، وأنهم كانوا يسمون كلاً منها برقم الشهر العبري الذي وقعت فيه الحادثة؛ فمن ذلك «الصوم الرابع» الذي كان يقع في السابع عشر من الشهر الرابع «تموز، يوليه» لذكرى سقوط أورشليم، و«الصوم الخامس» الذي كان يقع في التاسع عشر من الشهر الخامس «آب، أغسطس» لذكرى خراب أورشليم والهيكل، و«الصوم السادس» وهو صوم أستير الذي كان يقع

في الثالث عشر من الشهر السادس «آذار، مارس» لذكرى حادثة هامان وأستير، و«الصوم السابع» في الثالث من الشهر السابع «تشرين، سبتمبر» لذكرى قتل جداليا آخر رئيس على اليهود بعد السبي، و«الصوم العاشر» الذي كان يقع في العاشر من الشهر العاشر «طيبت، كانون الثاني، يناير» لذكرى حصار أورشليم.

ولديهم كذلك أنواع أخرى مستحبة من الصيام تقع في مواقيت دورية ويقومون بها تخليداً لذكرى وفاة عظمائهم كموسى وهارون والشهداء وحوادث أخرى في تاريخهم، ويبلغ عددها خمساً وعشرين.

ويصوم بعض أتقيائهم اختياراً الاثنين والخميس من كل أسبوع حزناً على سقوط أورشليم والهيكل، وأول وثاني اثنين وأول خميس من شهري أيار «مايو» وحشوان «اكتوبر» بعد عيد الفصح والمظال كفارة عن خطاياهم في الأعياد، وقد جرت العادة لديهم كذلك أن يصوم البكر من كل عائلة اليوم السابق لعيد الفصح لذكرى حادثة قتل الأبكار قبل الخروج من مصر.

٤ـ الصوم ذو المواقيت الدورية عند المسلمين:

شرع الدين الإسلامي أنواعاً كثيرة من الصيام في مواقيت دورية: بعضها يعود مرة كل سنة، وبعضها مرة كل شهر، وبعضها مرة كل أسبوع، ومن هذه الأنواع ما هو فرض ـ وهو صيام رمضان ـ ومنها ما هو مستحب كصيام التاسع والعاشر من المحرم، وثلاثة الأيام الأولى من رجب، والخامس عشر من شعبان[١]، وستة أيام متتابعة من شوال تبدأ

---

(١) لم يثبت حديث في فضل صيام أيام من رجب أو منتصف شعبان، والله أعلم.

من اليوم الثاني منه «**من صام رمضان وأتبعه بست من شوال. . . الحديث**»، والتاسع من ذي الحجة ـ وهو يوم عرفة ـ، والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر قمري. . .

وتسمى هذه الأيام بالأيام البيض لبلوغ القمر في لياليها إلى كماله، وصيام الاثنين والخميس من كل أسبوع. . وهلم جرا.

وتحافظ بعض فرق المسلمين على أنواع من الصيام ترتبط مواقيتها بأحداث اجتماعية ذات بال في تاريخها الخاص، كإحياء بعض فرق الشيعة للأيام العشرة الأولى من المحرم بالصيام والقيام وترتيل الأوراد تخليداً لذكرى من استشهد من آل البيت في هذه الأيام.

٥ـ تعليل الصوم ذي المواقيت المرتبطة بأحداث اجتماعية:

ينتظم الصيام ذو المواقيت الدورية ـ كما يظهر ذلك مما سبق ـ مجموعتين مختلفتين: إحداهما أنواع ترتبط مواقيتها بأحداث اجتماعية وقعت فيها، وثانيتهما أنواع لا تتصل مواقيتها بأحداث اجتماعية وإنما ترتبط بظواهر فلكية خالصة.

أما الأنواع التي ترتبط مواقيتها بأحداث اجتماعية وقعت فيها ـ وهي أهم أنواع هذا الصيام، وأكثرها انتشاراً، وأعظمها خطراً ـ فيرجع السبب في نشأتها إلى حرص المجتمع على تخليد هذه الأحداث وتجديد ذكرياتها في النفوس، وجعلها ماثلة في أذهان الأفراد، وبالجملة يرجع إلى حرصه على تسجيل تاريخه وإحياء أيامه البارزة.

وتتحقق هذه الأغراض الاجتماعية فيما جاءت به الديانات السماوية نفسها من هذا النوع، غير أن حكمة التشريع في هذه الديانات كثيراً ما

تكون أوسع نطاقاً من ذلك، وقد تتجه أحياناً اتجاهاً آخر.

٦ـ تعليل الصوم ذي المواقيت المرتبطة بظواهر فلكية:

وأما الأنواع الأخرى من هذا الصيام الدوري، وهي التي لا تتصل بأحداث اجتماعية وإنما ترتبط بظواهر فلكية خالصة، فقد اختلفت آراء العلماء اختلافاً كبيراً في تعليلها وتوضيح نشأتها؛ فمنهم من يرى أنها مظهر من مظاهر عبادة الكواكب، وأن نشأتها الأولى في المجتمعات الإنسانية ترجع إلى رغبة الناس في الظهور بمظهر الضعف والمسكنة والذلة والخشوع أمام الكواكب المقدسة عند بلوغها في سيرها منزلة ذات تأثير يقيني أو معتقد في حياة الحيوان أو النبات أو الطبيعة، فهذا النوع من الصوم لا يختلف في نظر أصحاب هذا الرأي عن الصلاة التي يقيمها عباد الشمس عند شروقها أو زوالها أو غروبها: كلاهما رمز إلى ضعف العابد وذله وعظمة المعبود وجلاله، وكلاهما يحدث في أوقات تتجلى فيها قدرة المعبود وتظهر آثاره في حياة العابد، وكلاهما يتضمن اشتراك الجسم في التعبير عما يريد العابد أن يظهر به من صفات الاستكانة والخضوع، وكل ما بينهما من فرق أن الصلاة تعبر عن ذلك بتقصير الجسم في الركوع والعمل على تلاشيه ومساواته بالرغام[١] في السجود، على حين أن الصوم يعبر عن ذلك بطريق إضعافه وحرمانه من بعض ما يحتاج إليه.

ومنهم من يرى أن نشأة هذه الأنواع من الصيام يرجع السبب فيها إلى خوف الإنسان في مراحله الدينية الأولى من بعض ظواهر فلكية واعتقاده

---

(١) أي بالتراب.

أنها نذير نحس، وحرصه على أن يتقي شرها بالكف في أثناء حدوثها عن كل ما يمكن أن يكون مصدر مكروه كالطعام والشراب.

وقد ظهر للقائلين بهذا الرأي من دراستهم لمجموعة المعتقدات التي كان يدين بها معظم الأمم السابق ذكرها أن صيام كل منها كان يقع في الأوقات التي اشتهر عندها في جميع عصورها أو في بعضها أنها أوقات نحس، ويرون في شرائع البوذيين على الأخص أوضح دليل على صدق ما يذهبون إليه؛ فقد تقدم أن أيام الصيام عند البوذيين لا يجب فيها الكف عن الطعام والشراب فحسب، بل يجب فيها كذلك الكف عن مزاولة أي عمل، وما ذلك إلا لشدة اعتقادهم في نحسها ومبالغتهم في الحرص على اتقاء شرها بإحجامهم عن كل ما يمكن أن ينجم عنه مكروه.

وغني عن البيان أن هذه الآراء وما إليها لا يمكن أن يصدق شيء منها إلا على شرائع المجوس والوثنيين والصابئين والمانوية ومن إليهم، أما ما جاءت به شرائع التوحيد من صيام ـ وإن بدا في ظاهره متصلاً بسير الأفلاك ومنازلها ـ فتتعالى أعراضه في الحقيقة عن هذه الأمور علواً كبيراً، كما سيظهر لنا ذلك في الفقرة التالية:

٧ـ محاولات باطلة لرد الصيام ذي المواقيت عند المسلمين إلى نظيره عند الصابئة والمانويين:

حاول كثير ممن في قلوبهم مرض، وممن وقفوا جهودهم على النيل من الإسلام والكيد له تحت ستار البحوث التاريخية والتحقيقات الاجتماعية أن يرجعوا أنواع الصيام الدورية عند المسلمين إلى نظائرها عند الصابئة والمانويين، وعلى الأخص صيام رمضان عندنا إلى صيام

الثلاثين عندهم، كما حاولوا رجع صلواتنا إلى صلواتهم. فزعموا أن محمداً عليه الصلاة والسلام قد نقل عن هاتين الشريعتين معظم ما جاء به من صلاة وصوم، وأنه كان أميناً في النقل فلم يغير شيئاً من أوقات هذه العبادات وتواريخها، وأن كل ما عمله أنه جعلها لوجه الله بعد أن كانت تؤدى للشمس والقمر وغيرهما من الكواكب، وأن هذا القناع لم يستر شيئاً من حقيقتها، فإن الأوقات التي شرعها فيها واتصال هذه الأوقات بحركات الشمس والقمر والكواكب كل أولئك ينم على الأصول التي استمدت منها، وقد ذهب بعضهم إلى أبعد من هذا، فزعم أن محمداً ﷺ كان يجهل ـ إذ نقل هذه العبادات ـ أن الصابئة والمانوية يقصدون منها تقديس الكواكب، وأنه لو كان يعلم ذلك ما جاء بها، لتعارضها مع شريعة التوحيد التي أسس عليها دعوته.

ومن هؤلاء الدكتور جاكوب؛ فقد قرر في رسالة كتبها في موضوع صيام رمضان، بعد تحقيقات حسابية طويلة وموازنات بين التواريخ العربي والميلادي والبابلي، أن أول سنة شرع فيها صيام رمضان وهي سنة ٦٢٣ ميلادية كان أول يوم من رمضانها يوافق الثامن من شهر آذار[١]، أي أن أول رمضان صامه المسلمون كان موافقاً في مبدئه ونهايته لتاريخ صيام الحرانيين؛ فقد قلنا إنهم كانوا يصومون ثلاثين يوماً تبدأ من الثامن من شهر آذار، وأن في هذا أقطع دليل على أن محمداً عليه السلام قد نقل صومه عن شريعة الصابئين.

وذهب الأستاذ وسترمارك إلى ما يقرب من هذا الرأي مع شيء من

(١) أي شهر مارس.

الاعتدال والحذر في التعبير إذ يقول: «إن وجوه الشبه بين صيام رمضان وصيام الحرانيين والمانوية لبالغة من الوضوح مبلغاً يحمل الباحث على أن ينظر إلى هذه الأنواع الثلاثة من الصيام نظرته إلى ثلاث شعب متفرعة عن أصل واحد، فلا مشاحة إذن في أن محمداً قد نقل صيامه عن الحرانيين أو المانوية أو عنهما معاً».

وهذه لعمري شِنْشِنة[١] عرفناها من معظم من تصدى من الفرنجة لبحث عقائد الدين الإسلامي وشعائره، فتراهم قبل أن يفهموا الموضوع الإسلامي الذي يتصدون لدراسته حق الفهم، يوجهون هممهم إلى البحث عن نظير له في الشرائع الأخرى، ولا يكادون يعثرون عليه حتى يوحي إليه تعصبهم أنه لا بد أن يكون هذا منقولاً عن ذاك، ثم لا تُعْوِزهم الحيل والمنافذ التاريخية لإلباس أهوائهم ثوبَ الحقائق.

ومع أن المقام لا يتسع لرد مفصل على ما زعموه بصدد صيام رمضان، لا نرى مندوحة[٢] عن الإشارة إلى بعض أمور أعماهم تعصبهم عن النظر إليها، وهي خليقة أن تقوض مزاعمهم رأساً على عقب، وهذه الأمور هي:

أولاً: لم يعرف أنه قد حدث في الجاهلية اتصال فكري أو ديني كبير بين قريش التي نشأ فيها الرسول وبين الصابئة أو المانوية، وقد حال دون هذا الاتصال أمور كثيرة: منها اختلاف اللغة والخط والثقافة والحضارة، ومنها بعد المسافة بين منازل هؤلاء وأولئك؛ فقد كانت بلاد الصابئين

---

(١) الطبيعة والسجية والعادة.

(٢) فسحة ومتسعاً، أي أنه لا بد من الإشارة إلى. . .

والمانوية في حدود فارس من الغرب على حين أن القرشيين كانوا يقطنون الحجاز والمواطن المتاخمة له، وكانت أسفارهم التجارية لا تتجاوز طريقي الشام واليمن يسلكون أحدهما في رحلة الشتاء والآخر في رحلة الصيف، ولم يعرف عن الرسول عليه السلام أنه اتصل قبل بعثته بالصابئين والمانوية أو احتك بثقافتهما الدينية أو عُني بدراسة شرائعهم أو وقف على شيء منها، وظل هذا حاله إلى ما بعد رسالته بأمد غير قصير.

ثانياً: أن صوم رمضان يختلف اختلافاً جوهرياً في شروطه وقواعده ومقاصده ووقته وشكل أدائه وحكمة تشريعه عن صوم الثلاثين عند الصابئين والمانوية، فليس بينهما من وجوه الشبه إلا الاتفاق في عدد الأيام وتتابعها، وهذه ناحية شكلية من التعسف، اتخذاها دليلاً على أن أحدهما منقول عن الآخر، على أنهما في هذه الناحية نفسها يختلفان اختلافاً غير يسير؛ فالصيام الإسلامي مدته شهر عربي، على حين أن صيام الصابئين والمانوية مدته ثلاثون يوماً مبدؤها الثامن من الشهر، والصيام الإسلامي يبتدىء بابتداء الشهر وينتهي بانتهائه، أما صيامهم فيبدأ من الثامن من الشهر ولا ينتهي إلا في الشهر التالي له.

ثالثاً: أن اختيار رمضان بالذات ليس سببه اتفاق مبدئه في أول عام شرع فيه الصوم مع مبدأ صيام الصابئين ـ كما ذهب إلى ذلك جاكوب ـ وإنما سببه، كما صرح بذلك الكتاب العزيز وكما يدل البحث التاريخي المجرد من الهوى، أنه الشهر الذي أنزل فيه القرآن، فلا غرو أن اختصه الله بهذه المزية من بين سائر الشهور.

رابعاً: هذا إلى أن القرآن الكريم ينص على أن ما سُن لنا من الشرائع قد سُن مثله لكثير من الأمم قبلنا، قال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ

ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ. . . ﴾[١].

وقال عزوجل في صيام رمضان نفسه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ. . . ﴾[٢].

فمن الممكن إذن أن يكون صيام الثلاثين عند الصابئين والمانوية مستمداً في الأصل من شريعة سماوية تقادم عليها العهد فدخلها التحريف والتبديل وبعدت عن غايتها الأولى وصبغت بصبغة التقديس للكواكب، وأن الدين الإسلامي قد كتب الصوم نفسه الذي كتبته هذه الشريعة فأحياها طاهرة نقية وقضى على كل ما علق بها من أدران الشرك، وما قيل في صيام رمضان يقال مثله في بقية أنواع الصيام الدورية وفي جميع أنواع الصلاة عند المسلمين.

وقد ذهب بعض المؤرخين من المسلمين[٣] وغيرهم إلى أن صيام رمضان كان منتشراً عند بعض قبائل العرب في الجاهلية ولا سيما قريش ويؤيدون رأيهم هذا بأن النبي عليه السلام نفسه كان قبل بعثته يقضي في غار حراء شهر رمضان من كل عام متحنثاً صائماً، وقد اختلفوا في أصل هذا التشريع؛ فمنهم من يرى أنه من الشرائع التي جاء بها إبراهيم عليه السلام ويستدل على ذلك بأن الذين ثبت أداؤهم لهذه الشعيرة في الجاهلية كانوا من المعروفين باتباعهم لملة إبراهيم، ومنهم من يرى أن عبدالمطلب جد النبي عليه السلام كان أول من سن هذا الصيام وعمل به،

(١) سورة الشورى: آية ١٣.
(٢) سورة البقرة: آية ١٨٣.
(٣) كابن جرير الطبري.

وقد أخذ بهذا الرأي الأستاذ موير في كتابه عن «حياة محمد».

ولكن لم يثبت بعد شيء من هذا كله بالدليل القاطع، على أنه لا يضير الدين الإسلامي في شيء ـ كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق ـ أن يكون صيام رمضان متبعاً قبل بعثة الرسول؛ فقد ثبت أن الشريعة المحمدية أقرت كثيراً من عادات العرب وشعائرهم، وأن ركناً كبيراً من أركانها وهو الحج لم تدخل على أوقاته ومناسكه في الجاهلية تغييراً كبيراً[١].

(١) مجلة «حضارة الإسلام»: العدد ٧، السنة ٣، رمضان سنة ١٣٨٢، ص٧٢٧ ـ ٧٣٨، بتصرف يسير.

خصائص التشريع الإسلامي في الصوم وفضله وأحكامه
للأستاذ أبو الحسن الندوي

قال الأستاذ:

جاء التشريع الإسلامي للصوم أكمل تشريع وأوفاه بالمقصود، وأضمنه بالفائدة، وقد تجلّت فيه حكمة العزيز العليم الحكيم الخبير، الذي خلق الإنسان ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[١].

فخصّ شهراً كاملاً ـ وهو شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن ـ بصيام أيام متتابعات متواليات، يصام نهارها ويفطر ليلها، وهو العُرف عند العرب في الصوم، وهو الميزان في التشريع العالمي الإسلامي، يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبدالرحيم الدهلوي:

«ويضبط اليوم بطلوع الفجر إلى غروب الشمس، لأنه هو حساب العرب ومقدار يومهم، والمشهور عندهم في صوم عاشوراء، والشهر برؤية الهلال إلى رؤية الهلال؛ لأنه هو شهر العرب، وليس حسابهم على الشهور الشمسية»[٢].

لماذا خُص رمضان بالصوم؟

وجعل الله الصوم في رمضان، فجعل أحدهما مقروناً بالآخر،

---

(١) سورة الملك: آية ١٤.

(٢) قال الأستاذ: «حجة الله البالغة»: ٢/ ٣٧.

مرتبطاً به، فذلك قران السعدين، والتقاء السعادتين في حكمة التشريع، وذلك لأن رمضان قد أُنزل فيه القرآن، فكان مطلعَ الصبح الصادق في ليل الإنسانية الغاسق، فحسُن أن يُقرن هذا الشهر بالصوم، كما يقترن طلوع الصبح الصادق بالصوم كل يوم، وكان أحقّ شهور الله ـ بما خصَّه الله من يُمن وسعادة وبركة ورحمة، وبما بينه وبين القلوب الإنسانية السليمة من صلة خفيَّة روحية ـ بأن يصام نهاره، ويقام ليله[١].

وبين الصوم والقرآن صلة متينة عميقة؛ ولذلك كان رسول الله ﷺ يُكثر من القرآن في رمضان، يقول ابن عباس رضي الله عنه:

«كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل، أجود بالخير من الريح المرسلة».

يقول العارف بالله، العالم الرباني الشيخ أحمد بن عبدالأحد السرهنديّ «١٠٣٤هـ» في بعض رسائله:

«إن لهذا الشهر مناسبة تامة بالقرآن، وبهذه المناسبة كان نزوله فيه، وكان هذا الشهر جامعاً لجميع الخيرات والبركات، وكل خير وبركة تصل إلى الناس في طول العام قطرة من هذا البحر، وإن جمعية هذا الشهر سبب لجمعية العام كله، وتشتت البال فيه سبب للتشتت في بقية الأيام وفي طول العام، فطوبى لمن مضى عليه هذا الشهر المبارك، ورضي

---

(١) قال الأستاذ: يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبدالرحيم الدهلوي «إذا وجب تعيين ذلك الشهر، فلا أحق من شهر نزل فيه القرآن، وارتسخت فيه الملة المصطفوية، وهو مظنة ليلة القدر» «حجة الله البالغة»: ٢/ ٣٧.

عنه، وويل لمن سخط عليه، فمُنع من البركات، وحُرم من الخيرات[١].

ويقول في رسالة أخرى:

«إذا وفق الإنسان للخيرات والأعمال الصالحة في هذا الشهر، حالفه التوفيق في طول السنة، وإذا مضى هذا الشهر في توزع بال وتشتت حال، مضى العام كله في تشتت وتشويش»[٢].

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، قال:

«إذا دخل رمضان فُتحت أبواب الجنة، وأُغلقت أبواب جهنم، وسُلسلت الشياطين» والأحاديث في الباب كثيرة.

موسم عالمي، ومهرجان عام، للعبادات، والخيرات:

وهكذا أصبح رمضان موسماً عالميّاً للعبادة والذكر والتلاوة والورع والزهادة، يلتقي على صعيده المسلم الشرقي مع المسلم الغربي، والجاهل مع العالم، والفقير مع الغني، والمقصر مع المجاهد، ففي كل بلد رمضان، وفي كل قرية وبادية رمضان، وفي كل قصر وكوخ رمضان، فلا افتيات[٣] في الرأي، ولا فوضى في اختيار أيام الصوم، فكل ذي عينين يستشعر جلاله وجماله أينما حل ورحل في العالم الإسلامي المترامي الأطراف، تغشى سحابته النورانية المجتمع الإسلامي كله، فيُحجم المُفطر المتهاون بالصوم عن الانشقاق عن جماعة المسلمين، فلا يأكل إلا متوارياً أو خجلاً، إلا إذا كان وقحاً مستهتراً من الملاحدة، أو

(١) قال الأستاذ: «رسائل الإمام الرباني الشيخ أحمد بن عبدالأحد السرهندي»: ١/ ٨.
(٢) قال الأستاذ: رسالة ٤٥ أيضاً.
(٣) أي فلا سَبْق.

الماجنين، أو كان من المرضى والمسافرين، الذين أذن الله لهم في الإفطار، فهو صوم اجتماعي عالمي، له جو خاص، يسهل فيه الصوم، وترق فيه القلوب، وتخشع فيه النفوس، وتميل فيه إلى أنواع العبادات والطاعات، والبر والمواساة.

الجو العالمي، وما له من تأثير في النفوس والمجتمع:

وقد لاحظ ذلك شيخ الإسلام أحمد بن عبدالرحيم الدهلوي بنظره الدقيق العميق، فقال وهو يشرح حديث: «إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة» إلخ: «إذا التزمته أمة من الأمم، سلسلت شياطينها، وفتحت أبواب جنانها، وغلقت أبواب النيران عنها»[١].

ويقول في موضع آخر:

«وأيضاً فإن اجتماع طوائف عظيمة من المسلمين على شيء واحد، في زمان واحد، يرى بعضهم بعضاً معونة لهم على الفعل، ميسر عليهم ومشجع إياهم».

«وأيضاً فإن اجتماعهم هذا لنزول البركات الملكية على خاصتهم وعامتهم، وأدنى أن ينعكس أنوار كُمَّلهم على مَن دونهم، وتحيط دعوتهم من وراءهم»[٢].

الفضائل، وما لها من تأثير وقوة:

إن الحياة في صراع دائم بين الشهوات الحبيبة إلى النفس، والمنافع المقررة عند العقل، وليست الشهوات هي التي تنتصر دائماً في هذه

(١) قال الأستاذ: «حجة الله البالغة»: ١/ ٥٩.
(٢) قال الأستاذ: «حجة الله البالغة»: ٢/ ٣٧.

المعركة ـ كما يعتقد بعض الناس ـ فذلك سوء ظن بالطبيعة البشرية، وإنكار للواقع.

إن القوة التي تدير عجلة الحياة بسرعة، وتفيض على هذا العالم الحياة والنشاط هي الإيمان بالنفع، ذلك الإيمان هو الذي يوقظ الفلاح في يوم شاتٍ شديد البرد فيحرم عليه الدفء، ويبكر به إلى الحقل، وفي يوم صائف شديد الحر يهون عليه وهج الشمس ولفح السموم، ويفصل بين التاجر وأهله، ويتوجه به إلى متجره، ذلك الإيمان هو الذي يزين للجندي الموت في ساحة القتال، وفراق الأحبة والعيال، فلا يعدل به راحة ولا ثروة ولا نعيماً، إن كل ذلك أيمان بالمنافع وحرص على الخير، وهو القطب الذي تدور حوله الحياة.

وهنالك إيمان أعظم سلطاناً على النفوس، وأعمق أثراً من الإيمان الذي ضربنا له بعض الأمثال، ذلك الإيمان بمنافع أخبر بها الأنبياء والرسل، ونزل به الوحي، ونطقت بها الصحف، وهي تنحصر في رضا الله وثوابه، وجزائه في الدنيا والآخرة.

لقد علم الجميع أن الإمساك عن الطعام في بعض الأيام مفيد للصحة، وخير للمرء أن يصوم مراراً في كل عام، وقد أسرف الناس في الأكل والشراب، واتَّخموا بأنواع من الطعام والشراب فأصيبوا بأمراض جسدية وخلقية، كل ذلك معروف ومشاهد، وآمن الناس بفوائد الصوم الطبية، وآمنوا بأنه ضرورة صحية، وآمنوا كذلك بفوائد الصوم الاقتصادية.

ولكن إذا سأل سائل: ما عدد الصائمين في هذه السنة لفوائد طبية، ومصالح اقتصادية؟ وما عدد الأيام التي صاموها طمعاً في الاعتدال في

الصحة أو الاقتصاد في المعيشة؟ كان الجواب المقرر إنه عدد ضئيل جداً، ضئيل حتى في الشتاء مع أن الصوم فيه سهل هين، ورغم أن الصوم الطبي أو الاقتصادي أسهل بكثير من الصوم الشرعي.

ثم ننظر في عدد الصائمين الذين يصومون؛ لأنهم يعتقدون أن الصوم فريضة دينية، قد وعد الله عليه بثوابه ورضاه، وتكفل بجزائه، فنرى أن هذا العدد ـ مهما طغت المادية، وضعف الدافع الديني ـ عدد ضخم لا يقل عن ملايين، وأن هؤلاء الملايين من النفوس لا يمنعهم الحر الشديد في الأقاليم الحارة من أن يصوموا في النهار، ويقوموا في الليل، لأن الإيمان بالمنافع الدينية التي أخبر بها الأنبياء عند أهل الإيمان أقوى من الإيمان بالمنافع الطبية التي أخبر بها الأطباء، ومن الإيمان بالمنافع الاقتصادية التي لهج بها الاقتصاديون.

ذلك لأن المؤمنين سمعوا في الصوم ما هون عليهم متاعب الصوم، وشجعهم على احتمال الحر والجوع والعطش، فقد روى أبوهريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«كل عمل ابن آدم يُضاعف، الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى: إلا الصوم، فإنه لي، وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي، للصائم فرحتان فرحة عند فطوره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك» وروى سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال: **«في الجنة باب يدعى الريان، يدعى له الصائمون، فمن كان من الصائمين دخله، ومن دخله لم يظمأ أبداً»**، وعن أبي هريرة رضي الله عنه رفعه: **«من صام رمضان إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه»**.

العناية بروح الصوم، وحقيقته، ومقاصده، والجمع بين «السلب» و «الإيجاب»:

إن صوم رمضان لهيئته الاجتماعية وشيوعه في المجتمع الإسلامي عرضة لأن يتغلب عليه التقليد واتّباع العادة، وأن لا يصومه كثير من الناس، إلا مسايرة للمجتمع والبيئة، وتفادياً من الطعن والملام، وأن يُشار إليهم بالبنان، ولا يرافقه الإيمان والقصد، والتفكير في عظم شأنه وموقعه من الله وأجره وثوابه، أو يصومه بعض الناس لغايات مادية، أو مقاصد صحية واقتصادية، فكان من حكمة النبوة الباهرة، وفقه الرسالة العميق، أن اشترط النبي ﷺ للصوم المقبول عند الله الإيمان والاحتساب، فقال: «**من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه**».

وقد يتساءل الرجل الذي لم يعرف دخائل النفس الإنسانية والأنماط البشرية المختلفة: إن رمضان لا يصومه إلا المسلمون، ولا يدعوهم إلى ذلك إلا الإيمان والاحتساب، فلماذا قيده لسان النبوة بصفة الإيمان والاحتساب، فهو من قبيل تحصيل الحاصل؟ ولكن الذي توسعت دراسته للحياة، وتعمّقت معرفته للدوافع النفسية، والعوامل الخلقية والاجتماعية، وقف خاشعاً أمام هذه الحكمة، والعلم الدقيق العميق، وشهد بأنه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[١].

وقد جاء تفسير الإيمان والاحتساب في حديث آخر، بأن يكون الإنسان راجياً للثواب، مصدِّقاً لما وعد الله على هذا العمل بالمغفرة والرضا...

(١) سورة النجم: آية ٣ـ٤.

ثم إن التشريع الإسلامي لم يكتف بصورة الصوم، بل اعتنى بحقيقته وروحه كذلك، فلم يحرم الأكل والشرب والصلات الجنسية في الصوم فحسب، بل حرم كل ما ينافي مقاصد الصوم وغاياته، وكل ما يضيع حكمته وفوائده الروحية والخلقية، فأحاط الصوم بسياج من التقوى والأدب وعفة اللسان والنفس، فقال النبي ﷺ:

«**إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث، ولا يصخب، وإن سابه أحد، أو قاتله، فليقل إني صائم**» وقال: «**مَن لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**»، وذكر أن الصوم الذي يخلو من روح التقوى والعفاف صورة مجردة من الحقيقة، وجسم بلا روح، فقال: «**كم من صائم ليس له من صيامه إلا الظمأ، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر**»، وعن أبي عبيدة رفعه، قال: «**الصوم جُنَّة ما لم يخرقها**».

وليس الصوم الإسلامي مجموعة من أمور سلبية فقط، فلا أكل ولا شرب، ولا غيبة ولا نميمة، ولا رفث ولا فسوق ولا جدال، بل هو مجموع أمور إيجابية كذلك، فهو زمن العبادة والتلاوة والذكر والتسبيح، والبر والمواساة، وقد قال النبي ﷺ: «**من تقرب فيه بخصلة من الخير، كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فريضة فيه، كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه، وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة، وشهر المواساة**».

وعن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «**من فطر صائماً كان له مثل أجره، غير أنه لا يُنقص من أجر الصائم شيء**».

وألهم الله الأمة المحافظة على صلاة التراويح، التي ثبت أصلها عن

النبي ﷺ وقد تركها بعد ثلاثة أيام، لئلا تفرض على أمته فرضاً فتشق عليها، فقد روى ابن شهاب قال: أخبرني عروة أن عائشة رضي الله عنها أخبرته: أن رسول الله ﷺ، خرج ليلة من جوف الليل فصلى في المسجد، وصلى رجالٌ بصلاته، فأصبح الناس فتحدثوا فاجتمع أكثر منهم فصلى فصلوا معه فأصبح الناس فتحدثوا، فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة، فخرج رسول الله ﷺ فصلى فصلوا بصلاته، فلما كانت الليلة الرابعة، عجز المسجد عن أهله، حتى خرج لصلاة الصبح، فلما قضى الفجر أقبل على الناس فتشهد، ثم قال: «**أما بعد، فإنه لم يخف علي مكانكم، ولكني خشيت أن تُفرض عليكم فتعجزوا عنها**»، فتوفي رسول الله ﷺ، والأمر على ذلك.

وقد قام بها الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ وعضت عليها الأمة بالنواجذ في أعصارها وأمصارها، حتى أصبحت شعاراً لأهل السنة، والصالحين من الأمة، وكان للتراويح فضل كبير في شيوع حفظ القرآن في الأمة(١)، ومحافظتها عليه، وبقائه في الصدور، وفضل كبير في توفيق العامة والجماهير لقيام الليل والعبادة.

وبذلك كله أصبح شهر رمضان مهرجاناً للعبادة، وموسماً للتلاوة،

---

(١) قال الأستاذ: وقد أكرم الله بعض الأقطار الإسلامية البعيدة عن مهد الإسلام «كالهند وباكستان» بالعناية الزائدة بهذه الصلاة وختم القرآن فيها، يهتم بها العامة والخاصة، ويحرصون عليها كل الحرص، فما من مسجد صغير خامل في كل حي من الأحياء، إلا وتقام فيه صلاة التراويح، وتختم فيها على الأقل ختمة، أما المساجد الكبيرة، والأحياء الدينية، فتختم فيها عدة ختمات، ولا شك أن هذه السنة قد أفادت انتشار حفظ القرآن في الشعب، فكثر عدد الحفاظ كثرة تستدعي العجب، وحملت على الاحتفاظ بحفظ القرآن، ومدارسته طول السنة، حتى كان حفاظ فحول، برعوا وفاقوا في حفظه وإتقانه.

وربيع الأبرار والمتقين، وعيد العبّاد والصالحين، تتجلى فيه عناية هذه الأمة بإقامة أحكام دينها وغرامها بالعبادة[١]، وإخباتها إلى الله، ورقة القلوب، والتنافس في البر والمواساة في أروع مظاهره، لا تبلغه، ولا تبلغ عشرَ معشاره أمة من الأمم، أو طائفة من طوائف بني آدم، ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[٢].

تفريط المسلمين في مقاصد الصوم، وجناية العادات على العبادات:

ولكن المسلمين قد جنوا في كثير من الأحيان على أنفسهم وعلى مقاصد الصوم وفوائده بالعادات التي يبتدعونها، وبجهلهم وإسرافهم في الإفطار والطعام، الإسراف الذي يُفقد الصوم الشيء الكثير من فائدته وقوته الإصلاحية والتربوية. . .

الصيانة من التحريف والغلو:

كان رمضان مظنة للغلو والتعمق في الدين؛ فقد يفهم كثير من الناس أن موضوعه وغايته قهر النفس، وترويضها على ترك الشهوات

(١) قال الأستاذ: إن مما توارثته الأجيال الإسلامية في مختلف عصورها هو الإكثار من العبادة، وأنواع البر، والتقرب إلى الله في رمضان، والإكثار من التلاوة، وتدارس القرآن وختمه، والتنافس فيه والجهاد إلى حد لا يكاد يصدقه من لم يعرف قوة إرادة أهل الإيمان والصدق، وما تصنع الروحانية القوية من عجائب وخوارق، وعلى ذلك أدركنا العلماء الربانيين، والدعاة المخلصين في بلادنا، وشاهدنا حالهم، فإن بعضهم يختم كل يوم ختمة، ولا تكتحل عينه بنوم في الليل، هذا مع تقليل زائد من الطعام، فيغتنمون كل لحظة من اللحظات في هذا الشهر المبارك، وكل نَفَس من الأنفاس، فلا ينفقونه إلا فيما يقربهم إلى الله، ويزيد في قيمة رمضان، ووزنه في الميزان، وإذا رآهم الإنسان، عرف قيمة رمضان وكرامته، وعرف قيمة الحياة، وصدق ما روي في كتب التاريخ والتراجم عن عبادة السلف، والمتقدمين، وعلو همتهم وقوة إرادتهم.

(٢) سورة الجمعة: آية ٤.

والرغبات، وإجهادها إلى أقصى حد ممكن، فكلما أمعن الإنسان في إجهادها وقهرها، وكلما طالت الفترة[١] في الأكل والشرب والتمتع، وطالت مدة الجوع والظمأ، وكلما أظهر الصبر والاحتمال، كان أقرب إلى الله وأحب إليه، وأبعد عن المترفهين المترفين والمتنعمين المتمتعين، وأدخل في غمار المتقين الصابرين.

وهذا الفهم الخاطىء السطحي هو الذي زين لكثير من المتدينين والمتقشفين في الأمم السابقة، والديانات القديمة الغلو في العبادات عامة، وفي الصوم خاصة، فأطالوا مدة الإمساك عن الطعام والشراب، وأخروا الفطور، وعجلوا السحور، أو تحرجوا عن التسحُّر مطلقاً، ورأوه عجزاً في الدين، وضعفاً في الصائمين، أو وصلوا الصوم بالصوم، والليل بالنهار، وقلدهم في ذلك غُلاة المسلمين، والطوائف المبتدعة المتشددة، فكان كل ذلك تحريفاً في الدين، وجهاداً في غير جهاد، ورهبانية ابتدعوها، ووباباً واسعاً لفساد شامل، وتحدياً لقول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٣] وقوله ﷺ: «**إن الدين يسر، ولن يشاد هذا الدين أحدٌ إلا غلبه فسددوا وقاربوا**».

لذلك كله سدت الشريعة الإلهية الأخيرة الخالدة هذا الباب، فحثت على السحور أولاً، ورغب فيه رسول الله ﷺ واستحبه، وجعله سنة للمسلمين، فقد روى أنس بن مالك عنه ﷺ: «**تسحروا فإن في السحور**

---

(١) أي طال الانقطاع.
(٢) سورة البقرة: آية ١٨٥.
(٣) سورة الحج: آية ٨٧.

بركة» وعن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ، قال: «**فَصْلُ ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أَكْلَة السَّحر**» وحذر عن تأخير الفطر، وجعل التأخير فيه آية للفساد، والوقوع في الفتن، وشعاراً لغلاة أهل الكتاب، فعن سهل بن سعد، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر**» وعن أبي هريرة رضي الله عنه رفعه، قال: «**لا يزال الدين ظاهراً ما عجل الناس الفطر، لأن اليهود والنصارى يؤخرون**».

وكذلك كان من سنته وسنة أصحابه تأخير السحور؛ فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: «**تسحرنا مع رسول الله ﷺ، ثم قمنا إلى الصلاة، قيل: كم كان بينهما؟ قال: خمسون آية**» وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان لرسول الله ﷺ مؤذنان: بلال، وابن أم مكتوم، فقال رسول الله ﷺ: «**إن بلالاً يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم**، قال: ولم يكن بينهما إلا أن ينزل هذا ويرقى هذا».

وقد بسط شيخ الإسلام أحمد بن عبدالرحيم الدهلوي الكلام في هذا الموضوع فذكر عناية الشريعة الإسلامية، والسنة النبوية، بهذا الجانب الإصلاحي في علم جم وفقه دقيق، قال:

«إن من المقاصد المهمة في باب الصوم سد ذرائع التعمق، ورد ما أحدثه فيه المتعمقون؛ فإن هذه الطاعة كانت شائعة في اليهود والنصارى ومتحنثي العرب، ولما رأوا أن أصل الصوم هو قهر النفس تعمقوا، وابتدعوا أشياء فيها زيادة القهر، وفي ذلك تحريف دين الله.

وهو إما بزيادة الكم أو الكيف، فمن الكم قوله ﷺ: «**لا يتقدمن أحدكم رمضان بصوم يوم أو يومين، إلا أن يكون رجل كان يصوم يوماً،**

فليصم ذلك اليوم»، ونهيه عن صوم يوم الفطر ويوم الشك، وذلك لأنه ليس بين هذه وبين رمضان فصل، فلعله إن أخذ ذلك المتعمقون سنة، فيدركه منهم الطبقة الأخرى، وهلم جرا، يكون تحريفاً، وأصل التعمق أن يؤخذ موضع الاحتياط لازماً، ومنه يوم الشك.

ومن الكيف: النهي عن الوصال، والترغيب في السحور، والأمر بتأخيره وتقديم الفطر، فكل ذلك تشدد وتعمق من صنع الجاهلية»[1].

والصوم كله خضوع للأمر الإلهي، فلا أكل ولا شرب، ولا متعة بما حظر على الصائم بعد تبيُّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر إلى غروب الشمس مهما جمحت النفس، وطغت شهوة الطعام والشراب، ولا إمساك عن الطعام والشراب وما حُظر في النهار، بعد غروب الشمس، مهما جمحت طبيعة الزهد والنسك، فليس الحكم للنفس والشهوة والعادة، إنما الحكم لله، ولا تجلد مع الله، ولا مصارعة مع الدين، وكلما كان الصائم متجرداً عن هواه، منقاداً للحكم، مستسلماً لقضاء الله تعالى وشريعته، كان أصدق في العبودية، وأبعد عن الأنانية، وقد أحسن العارف الكبير، والمصلح العظيم، الإمام أحمد بن عبدالأحد السرهندي، في الإشارة إلى هذه النكتة، إذ قال في إحدى رسائله:

«يتجلى في تأخير التسحر وتعجيل الإفطار، عجزُ الصائم وحاجته، وهو ملائم للعبودية محقق لغرضها»[2].

---

(١) قال الأستاذ: «حجة الله البالغة»: ٢/ ٣٩.

(٢) قال الأستاذ: .الرسالة الخامسة والأربعون «مجموع الرسائل».

الاعتكاف:

والاعتكاف في رمضان متمم لفوائده ومقاصده، متدارك لما فات الصائم من جمعية القلب، وهدوء النفس، واجتماع الهم، والانقطاع إلى الله تعالى بالقلب والقالب، وحقيقته الفرار إلى الله، والاطّراح على عتبة عبوديته، والارتماء في أحضان رحمته. . .

يقول شيخ الإسلام الدهلوي رحمة الله عليه:

«ولما كان الاعتكاف في المسجد سبباً لجمع الخاطر، وصفاء القلب، والتفرغ للطاعة، والتشبه بالملائكة، والتعرض لوجدان ليلة القدر اختاره النبي ﷺ في العشر الأواخر، وسنه للمحسنين من أمته»[١].

لذلك داوم عليه ﷺ، وحافظ عليه المسلمون في كل جيل، وفي كل عصر ومصر[٢] وأصبح من السنن المأثورة ومن شعائر رمضان، فعن عائشة رضي الله تعالى عنها: «أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى، ثم اعتكف أزواجه، من بعده»، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يوماً».

دور الإسلام الإصلاحي في تشريع الصوم:

قام الإسلام بنفس الدور الإصلاحي الذي قام به في جميع العبادات والفرائض والمناسك، وكان إصلاحاً جذرياً، في مفهوم الصوم وآدابه

---

(١) قال الأستاذ: «حجة الله البالغة»: ٢/ ٤٢.

(٢) قال الأستاذ: الاعتكاف في أكثر المذاهب سنة، وليس بواجب إجماعاً، وعند الحنفية سنة مؤكدة في العشر الأخير من رمضان، سنة كفاية كما في «البرهان» وغيره.

وأحكامه، ووضعه، جعله أعظم يسراً وسهولة وقرباً إلى الفطرة السليمة، وأضمن بالفوائد الروحية والاجتماعية، وأعمق تأثيراً في النفس والمجتمع.

فمن إصلاحاته الكثيرة المتنوعة هو التحويل في مفهوم الصوم؛ فقد كان رمزاً للحداد والحزن، وتذكاراً للكوارث والمآسي في الديانة اليهودية ـ كما أسلفنا ـ فحوّله الإسلام من هذا المفهوم القاتم الذي يغلب عليه التشاؤم، إلى مفهوم منشِّط مشرق تغلب عليه روح التفاؤل، وجعله عبادة عامة، يتمتع فيها الصائم بالنشاط والفرح، ويستبشر بما وعده الله تعالى وثوابه الجزيل، ورضاه، ووردت الآيات والأحاديث المبشرة بالثواب، المتضمنة بالفرح الطبعي تُثير في الصائم هذا الشعور وهذه الثقة، فقد جاء في حديث قدسي: «**إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**» وورد في هذا الحديث: «**للصائم فرحتان: فرحة عند فطوره، وفرحة عند لقاء ربه**»، وقد أحاط الصائم بجوٍّ من السمو، والحظوة، والمكانة عند الله تعالى، فقال: «**لخلوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك**» وذلك جو يخالف جو الحداد والمآتم والحزن والتشاؤم.

وقد كان الصوم عند اليهود مرادفاً لتذليل النفس والعقوبة، وقد شاع هذا التعبير في أسفارهم وصحفهم، فقد جاء في اللاويين أو سفر الأحبار:

«ويكون لكم فريضة دهرية أنكم في الشهر السابع في عاشر الشهر، تذللون نفوسكم وكل عمل لا تعملون، الوطني والغريب النازل في وسطكم؛ لأنه في هذا اليوم يكفر عنكم لتطهيركم من جميع خطاياكم،

أمام الرب تطهرون»[١].

وجاء في موضع آخر:

«وكلم الربُّ موسى قائلاً، أما العاشر من هذا الشهر السابع، فهو يوم الكفارة، محفلاً مقدساً، يكون لكم، تذللون نفوسكم وتقربون وقوداً للرب، عملاً ما لا تعملون في هذا اليوم عينه؛ لأنه يوم كفارة للتكفير عنكم أمام الرب إلهكم»[٢].

وجاء في سفر العدد:

«وفي عاشر هذا الشهر السابع، يكون لكم محفل مقدس، وتذللون أنفسكم، عملاً ما لا تعملون»[٣].

أما الشريعة الإسلامية فلم تعتبر الصوم إيلاماً للنفس، ولا عقوبة من الله، ولم ترد في القرآن ولا في السنة كلمة تدل على ذلك، بل اعتبرته عبادة، يتقرب بها العبد إلى الله، ولم تشرِّع من الأحكام الغليظة المجحفة، ومن القيود القاسية العنيفة ما تجعله مرادفاً لتعذيب النفس وإرهاقها، وحملها على ما لا طاقة لها به، بل سنت التسحر، واستحبت تأخيره إلى أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، وسنت تعجيل الفطور، وأباحت النوم والراحة في الليل والنهار، والاشتغال بالصناعة والتجارة، والأعمال المفيدة المباحة، خلافاً لليهودية التي فرضت الإضراب عن العمل، والانقطاع إلى العبادة.

---

(١) قال الأستاذ: اللاويين ـ الإصحاح السادس عشر (٢٩ ـ ٣٠ ـ ٣١) الكتاب المقدس، أي كتب العهد القديم، والعهد الجديد «ترجمة مراسلي الجمعية الأمريكانية» طبع نيويورك.

(٢) قال الأستاذ: اللاويين ـ الإصحاح الثالث والعشرون (٢٦ ـ ٢٧ ـ ٢٨).

(٣) قال الأستاذ: سفر العدد ـ الإصحاح التاسع والعشرون (٧).

وكان الصوم في كثير من الديانات القديمة ـ ولا يزال ـ مختصاً بطبقة دون طبقة، فكان في الديانة البرهمية فريضة على البراهمة في أكثر الأحيان، وعند المجوس على العلماء والكهنوت «دستور»، وعند اليونان بالإناث دون الذكور.

أما الإسلام فقد عمم وأطلق، فنزل: «فمن شهد منكم الشهر فليصمه»[١]، وبجانب هذا التخصيص ـ الذي عُرفت به الديانات القديمة ـ لم تستثنِ المعذورين[٢]، أما الإسلام فقد استثنى أصحاب العذر، وقال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[٣] وقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ تَصُومُوا﴾[٤].

وقد كان في بعض الديانات جوع أربعين يوماً، لا يتناول فيها الصائم غذاءاً، وبالعكس من ذلك توسعت بعض الديانات توسعاً زائداً، فاقتصرت على تحريم تناول اللحوم، وأباحت الفواكه والمشروبات، أما الإسلام فقد جاء تشريعه وسطاً بين الشدة والرقة، وبين الإرهاق والإطلاق، فجاء صومه صوماً متزناً عادلاً، ليس فيه تعذيب أبدان، ولا إزهاق أرواح، وليس فيه كذلك إرخاء عنان، ولا تسريح في روح وريحان.

وكان اليهود يقتصرون على ما يأكلونه عند الفطر، ثم لا يعودون إلى أكل أو تمتع، أما العرب فكانوا لا يأكلون ولا يتمتعون بالمباحات إذا

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٥.
(٢) في سياقه اضطراب لكن المعنى معروف.
(٣) سورة البقرة: آية ١٨٤.
(٤) سورة البقرة: آية ١٨٤.

ناموا، أما الإسلام فقد ألغى هذه القيود كلها، ونزل القرآن: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾[١] وكذلك عُفي عن الخطأ والنسيان، وكذلك لا يُفسد الصوم أفعال اضطرارية: كالقيء والرعاف، والاحتلام خلافاً لبعض الديانات.

وكان الصوم في أكثر الديانات القديمة مضبوطاً بالشهور الشمسية، وكان ذلك يحتاج إلى العلوم الرياضية والفلكية، وإلى وضع التقاويم، ثم كانت تلك الأيام مستقرة دائمة في فصول خاصة، لا تجور ولا تنتقل.

أما الصوم الإسلامي فهو مضبوط بالشهور القمرية، ومربوط بالهلال[٢] فقد جاء في القرآن: ﴿۞ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾[٣]، وقال النبي ﷺ: «**لا تصوموا قبل رمضان، صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن حالت دونه غيابة**[٤]**، فأكملوا ثلاثين يوماً**»، وجاء في حديث آخر: «**لا تصوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا حتى تروه، فإن غم عليكم فاقدروا له**» فاستطاع المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، وفي البوادي وقُلل الجبال[٥] وفي الدور والممعن في البداوة والأمية، وفي أمكنة منقطعة موغلة في الغابات والآجام أن يبدأوا الصوم

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٧.

(٢) والمعتبر في الشريعة الإسلامية، شهود الهلال، لا وجوده، فلا يحتاج إلى تكلفات رياضية وصناعية يهتدي بها إلى وجوده، كما يلجأ إلى ذلك بعض البلاد والحكومات الإسلامية، وعلى ذلك يدل الحديث الصحيح «**صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته**» وفي المسألة بحث علمي طويل.

(٣) سورة البقرة: آية ١٨٩.

(٤) الغيابة: السحاب.

(٥) أي رؤوسها.

ويختموه من غير مشقة وتكلف وبحث علمي عميق، وكانت فائدته كذلك أن رمضان يدور في فصول مختلفة، من شتاء وصيف، فلا يكلف المسلمون بالصوم في حر لافح، وفي قيظ شديد، ولا في برد قارس وشتاء كالح، دائماً وفي كل سنة، فيتمتعون بتغير الفصول واختلاف الطقوس، ويتعودون كل ذلك، وهم في كل ذلك صابرون محتسبون، أو شاكرون حامدون»[١].

ومن عرف أوضاع الصوم ومناهجه في الأمم القديمة، والديانات المعاصرة، ودرس تاريخها وفلسفتها، وشاهد أحوال الصائمين فيها ـ على قلّتهم وتشتّت أحوالهم ـ وقارن ذلك بالصوم الإسلامي ووضعه ومنهجه، وفقهه وآدابه، وأكرمه الله بالدخول في هذه الأمة المسلمة، والعمل بالشريعة الإسلامية السمحة نطق لسانه بالحمد والثناء، والشكر على نعمة الإسلام، وكان حقيقاً بأن يقول وهو صائم:

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾[٢] [٣].

---

(١) قال الأستاذ: استندنا في هذا الفصل من كتاب سيرة النبي ﷺ للأستاذ العلامة السيِّد سليمان الندوي رحمه الله «المجلد الخامس».

(٢) سورة الأعراف: آية ٤٣.

(٣) «الأركان الأربعة»: ٢١١ ـ ٢٣٣ بتصرف.

تاريخ الصيام
للأستاذ أبو الحسن الندوي

قال الأستاذ:

الصوم في الديانات القديمة:

اشتملت جميع الأديان والشرائع المعروفة في التاريخ على الصوم، وطالبت به جميع من كان يدين بها، فمن أقدم الديانات، والتي لا يزال عدد كبير من الناس يدين بها الديانة الهندية البرهمية ويحدث عنها الأستاذ T.M P,Mahadevan رئيس قسم الفلسفة في جامعة مدراس الهند، وهو يشرح الصوم ومكانته في الشريعة الهندوكية والمجتمع الهندي:

«ومن الأعياد والأيام المحتفل بها في السنة ما خُصصت للصوم الذي تُقصد به تزكية النفس، إن كل طائفة من الطوائف الهندكية تُخصص لنفسها أياماً تقضيها في الدعاء والعبادة، ويصومها أكثر أفرادها كذلك، فيكفون عن الطعام، ويسهرون الليل كله، ويبيتون يتلون الكتب المقدسة ويراقبون الله، ومن أعم هذه الصيام، وأكثرها انتشاراً في الطوائف المختلفة، «ويكنته إيكاوشي» الذي يُنسب إلى «وشنو» فلا يصوم ذلك اليوم أتباع وشنو فحسب بل يصومه أكثر الناس، فيصومون نهاره ويسهرون ليله.

ومن الأيام ما يصومها النساء فقط، ويدعون الآلهة «مظهر صفات الله النسوية» في مختلف مظاهرها، وتسمى هذه الأيام لأهميتها الخاصة بـ«برَت» أو العهد، وقد خصصت لتزكية الروح، وغايتها تغذية الروح بالغذاء الروحاني».

ولا يزال البراهمة يصومون في اليوم الحادي عشر والثاني عشر من كل شهر هندي، وهكذا يبلغ عدد الأيام التي تُصام عند البراهمة **٢٤** يوماً في كل سنة، إذا حافظوا عليها وتقيدوا بها، وقد فاقت الديانة الجينية في الهند في التشديد في شرائط الصوم وأحكامه، فأتباعها يواصلون أربعين يوماً بالصوم.

ويظهر الصوم عند المصريين القدماء بجوار أعيادهم الدينية، وكان صوم اليوم الثالث من شهر «تهسموفيريا» اليوناني خاصاً بالنساء عند اليونان، ولا تخلوا الصحف المجوسية عن الأمر بالصوم والحث عليه، ولو لطبقة خاصة، وتدل آية وردت في بعض كتبهم المقدسة على أن صوم خمسة أعوام كان فريضة على الرؤساء الدينيين.

الصوم عند اليهود:

أما اليهود فقد كان الصوم يعتبر رمزاً للحداد والحزن عندهم في العهد البابلي، وكان يُلجأ إليه إذا هدد خطر، أو إذا كان كاهن أو «مُلهَم» يُعد نفسه لإلهام، أو «نبوة»، وكان اليهود يصومون مؤقتاً إذا اعتقدوا أن الله ساخط عليهم، غير راضٍ عنهم، أو إذا حلت بالبلاد نكبة عظيمة، أو خطب كبير، أو إذا أُصيبت البلاد بوباء فاتك، أو بجدب عام، وفي بعض الأحيان عندما يعزم الملوك على مشروع جديد.

أيام الصيام المحددة الدائمة قديمة ومحدودة في التقويم اليهودي،

علاوة على يوم الكفارة، يوم الصوم المقرر الوحيد في الديانة الموسوية، وكانت هنالك أيام معينة للصوم الدائم، في ذكرى حوادث أليمة، وقعت لليهود في أيام الأسر في «بابل»، وهي تقع في الشهر الرابع «تموز» وفي الشهر الخامس «آب»، وفي الشهر السابع «تشري» وفي الشهر العاشر «تبت Tebet»، ويرى بعض ربيي «التلمود» أن صيام هذه الأيام إجباري عندما يعيش الشعب الإسرائيلي تحت قسوة الحكومات الأجنبية وفي اضطهاد، ولا تلزم عندما يتمتع الإسرائيليون بأمن ورخاء.

وزيدت إلى أيام الصيام هذه أيام أخرى، تصام تذكاراً لكوارث ومآسي نزلت باليهود، وأُضيفت إلى الأولى على مر الأيام، وهي لا تُعتبر إلزامية، ولم تنل الحظوة الكافية عند الجمهور، ومع اختلاف يسير يبلغ عددها إلى خمسة وعشرين يوماً.

وهنالك أيام صيام شعبية محلية تختلف باختلاف الأقاليم والمناطق التي يسكنها اليهود منذ زمن بعيد، وهي تذكار كذلك لكوارث وخطوب أُصيبت بها هذه الشعوب في أوقات مختلفة، واضطهاد وقسوة تعرضوا لها في بعض الحكومات، وأيام صيام تصومها بعض الطبقات دون بعض في ذكرى وقائع ومحن في تاريخ اليهود، وفي ذكرى مآتم وأفراح في حياتهم الشخصية، وصوم أول يوم من السنة شائع في كثير من الطبقات، وهنالك أيام صيام تُشرع، ويأمر بها الرِّبِّيُّون إذا تعرض الشعب لخطر، أو تأخر المطر، أو أصيبت البلاد بمجاعة، أو صدرت مراسيم قاسية، أو قوانين غليظة.

وأيام الصيام الشخصية المختارة التي يفضلها بعض الأفراد دون بعض شائعة في تاريخ اليهود منذ زمن مبكر، وهي أيام صوم تذكارية

لبعض الحوادث الفردية، أو كفارة عن بعض المعاصي والآثام، أو لجلب رحمة الله وعفوه عند خطر داهم، أو بلاء نازل، وصوم تلك الأيام لا يشجعها الربيون، ولا يوافقون عليها إذا كان الصائم رجلاً علمياً، أو أستاذاً معلماً، حتى لا يشوش ذلك خاطره، أو يضعف صحته، وهنالك صوم يصام على إثر رؤيا مفزعة، ولما كانت الشريعة اليهودية لا تسمح بالصوم في أيام الأعياد «فالتلمود» يبيح هذا الصوم في هذه الأيام، بشرط أن يكفر عنه بصوم آخر في أيام عادية.

والصوم عند اليهود يبتدىء من الشروق، وينتهي عند ظهور أول نجوم الليل، إلا صوم يوم الكفارة[١]، واليوم التاسع من شهر «آب»[٢] فإنه يستمر من المساء إلى المساء، وليس هنالك أحكام وتقاليد للصيام العادية، وقد رغب في الصدقة وإطعام المساكين، وخصوصاً توزيع العشاء المعتاد التقليدي.

إن الأيام التسعة الأولى من شهر «آب»، وبعض أيام بين اليوم السابع عشر من شهر «تموز» وبين اليوم العاشر من شهر «آب» تعتبر أيام صوم جزئي فيُحرم فيها تناول اللحوم، وتعاطي الخمور فقط[٣].

الصوم عند المسيحيين:

أما الصوم عند المسيحيين فيطول شرحه وتفصيله؛ لأن الديانة

---

(١) قال الأستاذ: وهو اليوم العاشر من الشهر السابع «تشري Tishri» «كما في دائرة المعارف اليهودية» وفي كتاب «اليهودية في الإسلام».

(٢) قال الأستاذ: وهذا الصوم شرع تذكاراً لإحراق الهيكل المرة الأولى أو الثانية.

(٣) مقتبس وملخص من «دائرة المعارف اليهودية» المجلد الخامس، طبعة ١٩١٦م، الولايات الأمريكية المتحدة.

المسيحية هي من أقل الديانات تشريعاً فقهياً وأحكاماً كلية تشمل أدوار التاريخ والمجتمعات المسيحية والطوائف الدينية كلها وأكثرها تطوراً مع الزمن والعوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية أحياناً، ولذلك يصعُب أن يُطلق عليها اسم شريعة إلهية، وقد حاولنا أن نقدم صورة موجزة عن الصوم عند المسيحيين وما مر به من أدوار وأطوار:

المسيح صام أربعين يوماً قبل أن يبدأ رسالته، ومن المرجح أنه كان يصوم يوم الكفارة، الذي كان الصوم المفروض في الشريعة الموسوية، ككل يهودي مخلص، إنه لم يشرع أحكاماً للصوم، إنه خلف المبادىء وترك كنيسته تُقنن قوانين لتطبيقها، وليس لأحد أن يزعم أنه أصدر قوانين عن الصوم رأساً، إننا نقرأ في المصادر المسيحية حديثاً عن صوم «بولس» والمسيحيين الأولين، إن المسيحيين الذين كانوا من السلالة الإسرائيلية ظلوا يصومون يوم الكفارة، وينوه به الراهب ليوك Luke كيوم يُحتفل به، ولكن المسيحيين الذين ينتمون إلى أصول اخرى لم يُلحوا على ذلك.

وبانتهاء القرن المسيحي الأول ونصف قرن بعد وفاة القديس «بولس» نواجه رغبة ملحة في تقنين القوانين للصوم، وقد كان ذلك موكلاً إلى تقوى الصائم، نرى الرهبان وبعض رجال الكنيسة يقترحون صياماً ليقاوم به المسيحيون الإغراءات المادية والجنسية، وكان يسود في ذلك العصر شعور بالواجب، وتحذير عن أن يظل الصوم عملاً خارجياً لا يؤثر في نفس الصائم، ويتحدث القديس «ايرينيس» عن أنواع من الصيام، منها ما يستغرق اليوم، ومنها ما يستغرق يومين، أو بضعة أيام، ومنها ما كان يستغرق أربعين ساعة متوالية، وقد استمر هذا الوضع مدة طويلة، وكان صوم «جمعة الآلام أو الصلبوت» صوماً شعبياً عاماً، وكان صوم يوم

الأربعاء ويوم الجمعة في كل أسبوع شائعاً في بعض الأقطار في القرن الثاني المسيحي، وكان الذين ينتظرون الاصطباغ «التعميد» يصومون يوماً أو يومين، وكان يشترك فيه الذين يأخذون الاصطباغ والذي يتولى ذلك.

وهنالك خلافات جزئية في مناهج الصوم وأحكامه في الطوائف المسيحية، وقد نال الصوم قسطاً كبيراً من التنظيم والتقنين في فترة بين القرن الثاني والقرن الخامس المسيحيين؛ فقد أصدرت الكنيسة قائمة أحكام وتوجيهات عن الموضوع، وقد اتسم الوصم بصلابة وشدة في القرن الرابع، فقد انتقل من طور الرقة والتوسع والمرونة إلى طور الصلابة والغلظة والتدقيق، وقد حُدد اليومان اللذان يسبقان «عيد الفصح» بالصوم في هذا العصر، وكان الصوم في هذين اليومين ينتهي في نصف الليل، والمرضى الذين لا يستطيعون أن يصوموا في هذين اليومين كان يُسمح لهم أن يصوموا يوم «السبت»، و قد سُجلت في تاريخ المسيحية والمسيحيين في القرن الثالث أيام الصوم، وكان هنالك اختلاف في نهاية الصوم، فكان بعضهم يُنهي ويُفطر عند صوت الديك، وبعضهم إذا أرخى الليل سدوله.

أما صوم أربعين يوماً، فلا يُوجد له أثر إلى القرن الرابع الميلادي، وكانت هنالك عادات وأوضاع للصوم تختلف باختلاف البلاد التي يسكنها المسيحيون، فكان في «روما» صيام يختلف عن الصيام في «لانان» و«الإسكندرية»، وكان بعضهم يُمسك عن تناول الحيوانات خلافاً لغيره، وبعضهم يجتزىء بالسمك والطيور، وبعضهم يُضرب عن البيض والفواكه، وبعضهم يجتزىء بالخبز اليابس، وبعضهم يكُف عن كل ذلك، وقد شُرعت أيام أخرى للصوم في القرون المتأخرة تذكاراً

لحوادث وأيام تتصل بحياة المسيح وبتاريخ المسيحية يطول عدها[١]، منها ما كان يستغرق ثلاث ساعات، وأربعاً، يُمسك فيها الصائم عن الأكل والشرب، وقد حُددت أيام مختلفة في القرون الوسطى للصوم في العالم المسيحي، تطورت مع تقدم الزمن، وهي تختلف باختلاف الأقاليم والبلاد التي تحكم عليها الكنيسة المسيحية.

وبعد الإصلاح حددت الكنيسة الإنجليزية أيام الصوم، ولم تُقنن قوانين وحدوداً للصائمين، تاركة ذلك لضمير الفرد وشعوره بالمسؤولية، ولكن قوانين البرلمان الإنكليزي في عهد «ايدورد السادس» و «جيمس الأول» و «مرسوم اليزيبت» فرض الإمساك عن اللحوم في أيام الصوم، وبرر ذلك بقوله: «إن صيد السمك، والتجارة البحرية، يجب أن تُشجع وتربح»[٢].

لذلك لما شرع الله الصوم في الإسلام، وفرضه على المسلمين، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[٣].

جناية التخيير وعدم التحديد، والحرية الزائدة في الصوم على مقاصده وفوائده:

وقد تجردت بعض الأديان والشرائع القديمة عن تعيين أيام الصوم

---

(١) قال الأستاذ: اقرأ التفصيل في «دائرة معارف الأديان والأخلاق».

(٢) قال الأستاذ: مقتبس من مقال «الصوم عند المسيحيين» في «دائرة معارف الأديان والأخلاق».

(٣) سورة البقرة: آية ١٨٣.

وتحديدها بالبداية والنهاية، وضبطها بالأحكام، فكان الأمر بالخيار، وكان الناس في كثير من الأديان مخيرين في اختيار الأيام التي يصومونها، وفي تحديدها، وكانوا مخيرين بين إمساك شامل عن المأكول والمشروب، وبين تقليل من الطعام والشراب، وكانوا مأمورين بترك بعض المطعومات، واختيار بعضها، كما جرى العمل به في بعض الديانات الهندية، فيمسك بعضهم عن أكل اللحوم، وبعضهم عما طُبخ على النار، ويجتزىء بعضهم بألوان من الطعام، أو بالماء الممزوج بالملح[١].

وقد جنى ذلك على الصوم قديماً، فضيعه وأضعف قوته، فكان للإنسان أن يصوم متى شاء، وما شاء، وأن يجتزىء بطعام واحد أو بشراب؛ وأن يقتصر على المقدار القليل، والأمر موكول إلى الصائم فتطرق الوهن، وتسربت الخيانة إلى النفوس، وتخطى الناس الحدود، وصعُبت المحاسبة، فرُب مفطر إذ حُوسب تعلل بأنه قد صام فيما مضى، ومن يدري ذلك؟ ورب متجاوز في الأكل إذا وُجه إليه النقد اعتذر بأنه المقدار القليل الذي أُمر به في الصوم، وهكذا ضاع الصوم في الأمم القديمة، وفقد تأثيره وفوائده الروحية والخلقية.

وإلى هذه الحكمة الدقيقة في التحديد والتعيين، أشار شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي في كتابه «حجة الله البالغة» فقال:

«وإذا وقع التصدي لتشريع عام، وإصلاح جماهير الناس، وطوائف

(١) قال الأستاذ: وهكذا كان يصوم زعيم الهند الكبير «غاندي» ويقلده بعض المضربين والمحتجين من زعماء الأحزاب، ويسمى عندهم «برت».

العرب والعجم وجب أن لا يخير في ذلك الشهر، ليختار كل واحد شهراً ليسهل عليه صومه؛ لأن في ذلك فتحاً لباب الاعتذار والتسلل، وسداً لباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإخمالاً لما هو من أعظم طاعات الإسلام»[(١)].

ثم يقول وهو يذكر الحاجة إلى تعيين المقدار:

«ثم وجب تعيين مقداره لئلا يُفرط أحد فيستعمل منه ما لا ينفعه وينجع فيه، ويُفرط مفرط فيستعمل منه ما يوهن أركانه ويذهب نشاطه، وينفه[(٢)] نفسه، ويزيره القبور، وإنما الصوم ترياق يستعمل لدفع السموم النفسانية مع ما فيه نكاية بمطية اللطيفة الإنسانية ومنصتها، فلا بد من أن يتقدر بقدر الضرورة»[(٣)].

تقليل الغذاء وتحديده، أم إمساك مطلق؟:

ويقارن بين منهجين للصوم المعروفين عند الطوائف والأمم، الأول: الإمساك عن الأكل والشرب وما ينافي الصوم بتاتاً في مدة محدودة معلومة، والثاني: تقليل الغذاء، أو الاجتزاء بشيء واحد، وترك بعض المرغوبات والمألوفات، فيفضل الأول على الثاني في ضوء التجارب والتحليل العلمي وعلم النفس يقول:

«ثم إن تقليل الأكل أو الشرب له طريقان: أحدهما: أن لا يتناول منهما إلا قدراً يسيراً، والثاني: أن تكون المدة المتخللة بين الأكلات

---

(١) قال الأستاذ: «حجة الله البالغة» ٢/ ٣٧.
(٢) قال الأستاذ: نفه وأنفه الناقة: أعياها، وأكلها.
(٣) قال الأستاذ: «حجة الله البالغة» ٢/ ٣٦.

زائدة على قدر المعتاد، والمعتبر في الشرائع هو الثاني لأنه يخفف وينفه، ويذيق بالفعل مذاق الجوع والعطش، ويلحق البهيمية حيرة ودهشة، ويأتي عليها إتياناً محسوساً، والأول إنما يضعف ضعفاً يمر به، ولا يجد بالاً حتى يُدنفه[١].

وأيضاً فإن الأول لا يأتي تحت تشريع العام إلا بجهد؛ فإن الناس على منازل مختلفة جداً يأكل الواحد منهم رطلاً والآخر رطلين، والذي يحصل به وفاء الأول هو إجحاف الثاني»[٢].

ويذكر أنه لا بد من الاعتدال في هذا التوقيت والتحديد، فيقول:

«ثم يجب أن تكون تلك المدة المتخللة غير مجحفة ولا مستأصلة، كثلاثة أيام بلياليها، لأن ذلك خلاف موضوع الشرع، ولا يعمل به جمهور المكلفين»[٣].

صيام مجموعة متتابعة، أم متشتتة موزعة؟:

وكانت الأيام التي تصام في كثير من الديانات القديمة، وعند طوائف من الأمم أياماً موزعة مبعثرة في طول السنة، تتخلل بينها فترات طويلة تفقدها التأثير في الأخلاق والميول والعادات، ولا تجعل النفس تنصبغ بها، فكان من المصلحة والحكمة أن تتوالى هذه الأيام وأن تتكرر، يقول شيخ الإسلام الدهلوي رحمه الله:

«يجب أن يكون الإمساك فيها متكرراً ليحصل التمرن والانقياد،

---

(١) أي يمرضه.
(٢) قال الأستاذ: «حجة الله البالغة» ٢/ ٣٧.
(٣) قال الأستاذ: أيضاً: ص٣١.

وإلا فجوع واحد أي فائدة يفيد، وإن قوي واشتد»[١].

وقد جاء التشريع الإسلامي للصوم مستوفياً لجميع هذه الشروط والصفات، محققاً لجميع هذه الأغراض والنتائج الروحية والخلقية، والنفسية والاجتماعية وكان ذلك صيام رمضان الذي فرضه الله على المسلمين[٢].

---

(١) قال الأستاذ: أيضاً: ص٣٧.
(٢) «الأركان الأربعة»: ١٨٧ ـ ١٩٦.

استقبال رمضان

فضائل رمضان

للأستاذ الإمام حسن البنا[1]

قال الأستاذ:

نحمد الله تبارك وتعالى، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين، أما بعد: فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته:

أيها الإخوان: هذه الليلة العظيمة الكريمة التي نحن إليها، ونستأنس بها، لأنها مجتمع هذه القلوب المتعاونة على طاعة الله، وابتغاء مرضاته، ولست أنسى عاطفة بالأمس، تجلت أمامي وهزت عاطفتي وأثرت في نفسي.

كنت أسير بالأمس مع أخ كريم، وكنا نتحدث حديثاً عادياً عاماً، وكان من شأن الأخ أن جاء خلال الحديث أننا في يوم الاثنين، وأن غداً الثلاثاء، فكان حديثاً ساراً لنفسي، مؤثراً في أعماق قلبي أن بدت

---

(١) حسن بن أحمد بن عبدالرحمن البنا، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين. ولد سنة ١٣٢٤ في المحمودية قرب الاسكندرية. وتخرج من مدرسة دار العلوم بالقاهرة، واشتغل بالتعليم واستقر مدرساً في الإسماعيلية بعد تنقل في البلدان، ثم انتقل إلى القاهرة. وله عدة مصنفات. توفي شهيداً ـ إن شاء الله تعالى ـ حيث قتله ثلاثة أشخاص في الطريق العام سنة ١٣٦٨ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٢/ ١٨٣ ـ ١٨٤.

على الأخ عاطفة غريبة، وقال في بساطة ولهجة عادية: إننا نعد لهذه الليلة حتى نلقاها وحتى نلتقي فيها بإخواننا، ثم قفى على هذا: والآن أدركت حكمة الإسلام في يوم الجمعة، وصلاة الجمعة، وكيف غفل المسلمون عن سر ذلك، ولو أنهم وجهوا القلوب في يوم الجمعة وصلاة الجمعة لكان شأنهم غير هذا الشأن، هذه الاجتماعات حين فرضها الإسلام نظر فيها إلى أسمى المقاصد وأشرف الغايات من اجتماع الأرواح، وائتلاف القلوب المخلصة في يوم الجمعة لصلاة الجمعة، لكن الناس لم يدركوا من يوم الجمعة إلا أداء فرض الجمعة، فمن أداه فقد سقط عنه، ومن لم يؤده فإنه مؤاخذ عليه، أما ما وراء هذا فقد نسيه المسلمون، فصار اجتماع الجمعة اجتماعاً آلياً، يجتمعون بأجسامهم ثم ينصرفون، وما التقت منهم أرواح ولا ائتلفت قلوب.

أخذ الأخ يسترسل في حديثه، وكنت أنا في شيء من الغفلة عن كلامه لأنه غمرتني عاطفتان: الأولى الفرح والسرور من أن المسلمين بدؤا يدركون فوائد هذا الاجتماع، وهو اجتماع القلوب والأرواح، هذا المعنى سرني وأسعدني وأغفلني عن كلام الأخ.

والعاطفة الثانية: أني خشيت أن يتطاول الزمن وأن تخفى الحكمة عليهم فيفهمون الثلاثاء يوم درس، وينسون ما دون ذلك من التعاون على مرضاة الله تعالى.

نسأل الله تعالى أن يجمعنا فيها على الحب فيه، إنه سميع الدعاء.

وبعد أيها الإخوان: أراني مسوقاً إلى التذكير برمضان، ونحن على أبوابه، وبما يجب أن نشتغل به فيه، فهو شهر البركات والرحمات والسرور، وما أولى الناس أن يقفوا وقفة قصيرة، يستعدون للقائه، وما

فيه من خيرات، فهو الوقت المعظم في الجاهلية، وقد زاده الإسلام تعظيماً، جاء الإسلام فشرفه وأكرمه، وأنزل الله فيه القرآن هدى للناس، فما أحوجنا أن نهني أنفسنا، ونشعرها بحق رمضان قبل أن نلقاه.

أيها الإخوان: إن الله تبارك وتعالى جعل هذا الشهر معظماً، فاختصه بمزايا كثيرة، وجعله مرحلة من مراحل الحياة الثمينة، ومحطة من محطات السير فيها على النهج القويم، يصرف المسلم فيه أعظم همته إلى الله، ويتجه فيه بكليته إلى آخرته، والسمو بروحه قبل مادته، فهو شهر الروحانية وصفاء النفس والمناجاة والإقبال على الله، والاستمداد من القوي العلي الكبير، والاتصال بالملأ الأعلى، وهو شهر له خصوصيته:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١].

وهناك لفت نظر جميل، ومتعة رائعة جليلة، تلك هي توصيل هذه الآية بأخرى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[٢].

ثم تتلو هذه الآية آية أخرى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ﴾[٣].

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٥.
(٢) سورة البقرة: آية ١٨٦.
(٣) سورة البقرة: آية ١٨٧.

تأتي هذه الآية الكريمة خلال أحكام الصيام: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[(١)].

ثم: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾[(٢)].

في استطراد واستحكام يتصل بالصيام، ثم يأتي الله تعالى بين هذه الأحكام بهذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[(٣)]، معنى جليل هو أن الحق تبارك وتعالى يحثنا على مناجاته والسؤال في وقت تكون النفوس فيه أقرب ما تكون إلى ربها: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾، بإصابة الحق ونيل الرشد.

فشهر رمضان سؤال ومناجاة وهداية ورشاد ليعد الصائم فيه نفسه، ويبعدها عن خلط المادة، لترقى بشريتها، وتتصل بربها.

وقد وردت الأحاديث لتلفت أنظار الناس إلى فضيلة هذا الشهر وعلو مكانته، وشرف أيامه، وجزالة التوبة فيه، مما يهيب بالمسلمين أن يعدوا أنفسهم ويجهزوها لملاقاته، ويشعروها بأن التجارة فيه رابحة، والأوقات التي ستجتازها أوقات غالية، وأن الفرصة فيه سانحة «**يا باغي الشر أقصر، ويا باغي الخير هلم**» وليذكروا أنفسهم بقوله ﷺ:

«**ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا ابن آدم أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد**».

احرصوا أيها الإخوان على أن لا يمر بكم وقت بغير عمل صالح،

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٣.
(٢) سورة البقرة: آية ١٨٧.
(٣) سورة البقرة: آية ١٨٦.

وإذا غفلتم فاستدركوا، فقد لقي حنظلة ـ رضي الله عنه ـ أبا بكر الصديق، فقال: يا أبا بكر لقد رأيت حالي في حال المنافقين، فقال: ولم؟ قال حنظلة: ألسنا حين نكون مع رسول الله ﷺ ترق أرواحنا وترقى نفوسنا، فإذا انصرفنا عنه تبدل الحال غير الحال؟ فقال أبو بكر: هلم بنا إلى رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «**لو كنتم كما عندي لصافحتكم الملائكة، ولكن ساعة وساعة**».

فعلاج الغفلة التذكر والتبصر والاتصال بالله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[١].

فإذا مس الشيطان قلوبنا بمسيس الغفلة، وفوت علينا من رمضان نصيباً من الخير، فعلينا أن نجد السير ونبذل الجهد، ونقبل على الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾[٢].

فليتجهز الإنسان بدوام التوبة والاستغفار، ومراجعة صفحات الماضي، فما وجدنا من خير حمدنا الله عليه، وما وجدنا من شر أقلعنا عنه بالتوبة إليه: «**يا باغي الشر أقصر**».

وإذا كان ﷺ يتوب في اليوم مائة مرة، وهو كما تعلمون قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فما بالكم بمن أحاطته المعاصي من كل جانب، وانغمس في لذاته وشهواته، فواجبنا أن نكثر من الاستغفار ونحن على طهر، ونتوجه إلى الله في إيمان كامل وإخلاص صادق، طالبين منه تعالى أن يهيئنا للقيام بالأسباب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً

---

(١) سورة الأعراف: آية ٢٠١.

(٢) سورة الشورى: آية ٢٥.

نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾(١).

فالتوبة النصوح، والتوجه الصادق بالرجوع إلى الله تعالى من أسباب الفوز التام يوم القيامة، ومرافقة النبي ﷺ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾(٢).

فاجتهدوا من الآن بالتطهر من أدران الذنوب والمعاصي، فستقابلون شهر رمضان، وفضل الله فيه واسع منه في غيره، لتهيئوا نفوسكم لهذا الواجب العظيم، قال ﷺ: «**من جاءه رمضان ولم يغفر له فيه فلا غفر الله له**».

والشقي من حُرم فيه رحمة الله عزوجل.

فالواجب تذكير النفس بفضل هذا الشهر، وإعدادها للعمل فيه، فقد نُدبت إلى أعمال كثيرة وواجبات غالية، من صيام وصلاة وذكر وتلاوة لكتاب الله، الذي يطهر النفوس ويحيى القلوب، قال ﷺ: «**الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي ربي منعته الطعام والشهوة فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعني فيه، قال: فيشفعان**».

وكان رسول الله ﷺ يقرأ القرآن ويدرسه على جبريل في شهر رمضان مرة، وقرأه عليه في السنة الأخيرة مرتين، ودعوتكم دعوة

---

(١) سورة التحريم: آية ٨.
(٢) سورة النساء: آية ٦٩.

القرآن، وأنتم تقولون: القرآن دستورنا، فشهر رمضان دعوتكم، فأكثروا من تلاوة القرآن، وتدبروا في معانيه، فإنكم تجدون له حلاوة تتجدد بتجدد تلاوته مهما كنت حافظاً، وتجدون له تأثيراً عجيباً إذا قرأتموه بإمعان، ولا تحاولوا أن تفهموه بتعمق وبحث مضن، بل اقرأوه كما قرأه أصحاب رسول الله ﷺ، فمن قرأه على هذا الوجه كان له بكل حرف عشر حسنات، والله يضاعف لمن يشاء، ومن استمع إلى آية من كتاب الله كانت له نوراً وبرهاناً يوم القيامة.

واعلموا أن هذا الشهر شهر الصدقات والزهادة في المادة، فأكثروا من مواساة الفقراء والمساكين، فقد كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، ثم اجتهدوا أن يكون لكم فيه عمل تلازمون عليه، واحرصوا على صلاة التراويح، فنحن نصليها بالقرآن كله ثماني ركعات، وصلاة التراويح من السنن المؤكدة، ومن شعائر شهر رمضان ومن مميزاته وخصائصه، فهي ظرف يتصل فيه قلب المسلم بربه، وكان ﷺ يأتيه جبريل في رمضان فيعرض عليه القرآن؛ لأن رمضان صيام بالنهار ويناسب أن يكون شهر قيام بالليل، والقيام تناسبه الصلاة، والقيام من حيث العدد فثمان، وهو فعل رسول الله ﷺ، وعشرون وهو فعل عمر رضي الله عنه، وست وثلاثون وهو فعل أهل المدينة، فكلٌ له أصل في السنة، والغرض منها الاتصال بالله، وبكتاب الله، فالسنة فيها الإطالة، وليس الغرض سرد العدد فحسب كما يفعله كثير من الناس الآن مع الإسراع المخل، وفاتهم أن النظر في التراويح إنما هو المتعة بكتاب الله وهو السر فيها، فإذا تعارض الأمران، فالاقتصار على ثمان مع التطويل خير من العشرين مع التقصير، فعن أبي بكر رضي

الله عنه قال: «كنا ننصرف من صلاة القيام نستعجل السحارين بالسحور مخافة طلوع الفجر» فكانوا يقرأون بالبقرة كلها، وكانوا يعتمدون على العصي من طول القيام والقراءة ليستمتعوا بكتاب الله، فالمطلوب في هذه الصلاة ملاحظة روح التشريع فيها، والإحسان في الأداء، وانتهاز فرصة الاستماع.

أما الطقوس التي يفعلها بعضهم من التشويش في المساجد كصلاتهم على النبي ﷺ بصوت مرتفع، وإعلانهم بلا إله إلا الله وحده لا شريك له... إلى آخره، وقراءتهم للقرآن بالهيئة المعروفة، فليس ذلك من الدين في شيء، والواجب على المرشد إزاء هذه الحالة أن يتلطف في دعوته، ويستعمل الحكمة في إرشاده من غير عنف ولا شدة: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ﴾[١].

فإن كنا من أهل القوة نلزمهم قهراً وإلا تلطفا: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[٢].

والمسؤول أمام هذه الحالة إنما هو وزارة الأوقاف والأزهر الشريف، ولا داعي لإيجاد النزاع بين المسلم وأخيه المسلم، فإن المحافظة على الوحدة واجبة وصلاة التراويح سنة، والحرص على الواجب أولى من الحرص على السنة، وعلى الدعاة المرشدين أن يوجهوا أنظار أولي الأمر منهم إلى إصلاح هذه الحالة بالحكمة، وحافظوا دائماً على الأكمل والأحسن.

---

(١) سورة النحل: آية ١٢٥.
(٢) سورة النور: آية ٥٤.

ثم إنكم في رمضان ترقبون ليالي كريمة، يفيض فيها الخير فيضاً، فليلة يوم السابع عشر، يوم الذكرى الجليلة التي اجتمع فيها النصر النظري والنصر العلمي في غزوة بدر، يوم التقت الفئتان: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾(١).

وليلة القدر في العشر الأواخر من شهر رمضان، بل العشر هي من ليالي التجلي، فروضوا فيها أنفسكم، وجردوها من علائق الدنيا، وأقبلوا على الله بالصلاة والمناجاة والإلحاح في الدعاء؛ فإن الله يحب الملحين في الدعاء، ومن كان في فراغ فليعتكف فيها ولا يخرج إلا لحاجة ملحة، فهي سنة رسول الله ﷺ، وقد أخذ بها الصالحون، أما المشغول فلا أقل من أن يعتكف فيها بالليل، وكان ﷺ إذا أقبل العشر الأواخر من رمضان شمر المئزر، وقام الليل، وأيقظ أهله.

واعلموا أن الصلة في رمضان مطلوبة في طاعة الله لا في اللهو واللعب، ولكن الناس عكسوا؛ فجعلوه شهر غفلة ولهو ولعب، فمنهم من يقضيه في النادي والملاهي والمقاهي، ومنهم من يأتي بالفقيه في حجرة يتلو فيها كتاب الله ثم يهجرونه إلى حجرة أخرى يتكلمون فيها بما يشاؤون ويشتهون، معرضين عن السماع والتدبر.

مر ابن مسعود رضي الله عنه على جماعة خرجوا إلى عرض الطريق فقال لهم: أصحاب محمد كانوا يتزاورون في الله، فقالوا: ما أخرجنا من بيوتنا إلا التزاور في الله، فقال لهم: أبشروا، فقد سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٣.

يقـول: «**لا تـزالـون بخيـر مـا تـزاورتـم**». . . فعليكـم معشـر الإخـوان أن تجعلوا هذا الشهر موسم عبادة تتقربون فيه إلى الله وأن تنهجوا فيه نهج السلف الصالح رضي الله عنهم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم[١].

(١) «حديث الثلاثاء»: ١٣٣ ـ ١٣٩.

طلعة الهلال

للإمام الشهيد حسن البنا

قال الأستاذ:

﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ ﴾(١) .

مرحباً بطلعة الوليد الحبيب بشير الخير العميم، هلال رمضان ومشرق أنوار القرآن، وشذا نفحات الجنان، وواحة الاسترواح في صحراء العام، وراح الأرواح بالصلاة والصيام والقيام، فاللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والطمأنينة والسلام، هلال خير ورشد، إن شاء الله، والله أكبر والحمد لله.

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «**إذا أقبل رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النيران، وصُفِّدت الشياطين، ونادى منادٍ من قبل الحق تبارك وتعالى: يا باغيَ الشر أقصر، ويا باغيَ الخير هلم**».

لقد بُني الإسلام على شرائع وعبادات، وفرائض وواجبات، كان من جميل صنع الله لعباده فيها أن أقامها على دعائم من الخير، وقواعد

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٥.

من البر، تفيدهم في الدنيا، وتنفعهم في العقبى، وتسعدهم في الآخرة والأولى.

فالقاعدة الأساسية: في العبادة المتقبلة الكاملة النية الصالحة الفاضلة والإخلاص فيها لرب العالمين: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى**» فما لم يكن الدافع الأول إلى العبادة قلبياً، تشترك فيه خلجات الوجدان مع حركات الأبدان، وتحضر فيه القلوب، وتطهر به الأرواح والنفوس فلا وزن لها ولا مثوبة عليها، «**وليس للعبد من صلاته إلا ما عَقَلَ منها، وكم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطَش**».

والقاعدة الثانية: دفع الحرج والعسر وإيثار السهولة واليسر، فليس في تكاليف الإسلام وعباداته ما يشق على العابدين أو يرهق نفوس المكلفين:

﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١)، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾(٢)، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾(٣)، وقال رسول الله ﷺ: «**يسروا ولا تُعسِّروا، وبشِّروا ولا تُنفِّروا. . .**».

وهكذا تتمشى هذه القاعدة في محل التكاليف الشرعية، والعبادات

---

(١) سورة المائدة: آية ٦.
(٢) سورة الحج: آية ٧٨.
(٣) سورة البقرة: آية ١٨٥.

الإسلامية، وتأمل ذلك تجده مطرداً في كل الأحكام، وإليك ما جاء منه خاصاً بفريضة الصيام:

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١).

والقاعدة الثالثة: أن لهذه العبادات آثارها العملية النافعة في حياة الفرد والجماعة، وليست مفروضة لمجرد التعبد والطاعة، فهي أوضاع لوحظ فيها المعنى الدنيوي الاجتماعي، إلى جانب الربح الأخروي، والتهذيب النفساني، فما أمر الإسلام إلا بطيب فيه خير يرى الناس في حياتهم العملية أثره، وما نهاهم إلا عن خبيث يلمسون شره وضرره:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٢).

فيا أيتها الأمة المسلمة: قد أظلك شهر الصيام، وفيه ركن من أركان الإسلام، وإن عليك فيه لواجبات وله منك حقوق:

أولها: أن تهيأ النفوس لاستقباله بالتوبة الصادقة النصوح، والتطهر الشامل الكامل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ

(١) سورة البقرة: آية ١٨٤.
(٢) سورة الأعراف: آية ١٥٧.

سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾(١).

وثانيها: الحرص على صومه حسياً ومعنوياً والامتناع عن المفطرات، وكف الجوارح عن الآثام والمنكرات وصدق التوجه، ودوام التأمل، وكثرة التذكر والتفكر في ملكوت الأرض والسموات.

وثالثها: الإكثار من الطاعات فيه وبخاصة البر والإحسان وتلاوة القرآن؛ فإن الله يضاعف فيه مثوبة المتصدقين ويرفع فيه درجات التالين المتدبرين، وكان رسول الله ﷺ أجود ما يكون في رمضان حين يعارضه جبريل عليه السلام بالقرآن فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة.

ورابعها: المحافظة على التراويح والقيام ومناجاة الملك العلام، فمن قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، وكم لهذه الصلاة في قلوب الخاشعين فيها والمعنيين بها من مشارق لامعة وأنوار ساطعة.

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾(٢).

ولنا بعد ذلك مع الحكومات الإسلامية كلمة هي النصيحة التي لا مفر منها ولا معدى عنها: لماذا لا تعتبر الإفطار في نهار رمضان جريمة كجرائم الإخلال بالنظام والآداب العامة وتضع من القوانين ما يروع المفطرين ويصون حرمة هذا الركن من أركان الدين؟

---

(١) سورة التحريم: آية ٨.
(٢) سورة المؤمنون: آية ١ ـ ٢.

ولا يكفي أن تصدر الوزارات منشوراً تقليدياً للموظفين باحترام شهر رمضان، وتنصح بعدم التجاهر ببعض أنواع العصيان، ثم لا تتبع ذلك بالرقابة الزاجرة والعقوبة الرادعة؟ ولماذا لا تجرب الحكومة الحزم ولو مرة واحدة فتؤدي بذلك واجبها وتنقذ الناس، وإن الله ليَزَع[١] بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

فاللهم ألهمنا البر والرشاد، ووفقنا للخير والسداد، إنك أهل التقوى والمغفرة[٢].

---

(١) أي يكف.

(٢) مجلة «حضارة الإسلام»: العدد السادس، السنة الرابعة، شعبان سنة ١٣٨٣، ص ٥٩٩ ـ ٦٠٢.

شهر رمضان

للأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز[١]

قال الأستاذ:

واستدار الزمان، وعاد شهر رمضان.

عاد إلينا بعد أن نسينا كثيراً، وبعد أن سبحنا في شؤون دنيانا سبحاً طويلاً عاد رمضان، وقدر لنا أن نعود معه لنشهد أيامه الغرَّاء، ونحيي لياليه الزهراء، ترى هل يمتد بنا العمر فنعود إليه كرة أخرى؟ أم هل يسبق الأجل فلا نلقاه بعد عامنا هذا؟

ألا من اتخذ عند الله عهداً أنه سيُنسأ[٢] له في أجله، حتى يلقى رمضان في عام قابل، معافى في بدنه موفوراً في رزقه، ممكناً من تدارك أمره، صادقاً في نيَّته، راشداً في عزيمته، من اتَّخذ عند الله عهداً بذاك، فليبطئ ما شاء أن يبطئ في عمله، وليسترسل ما شاء أن يسترسل في أمله، وليسوف وليؤجل ما بدا له أن يسوف ويؤجل، أما والقدر مستور محجب، والأجل قد ينتهي في لمحة، والساعة لا تأتي إلَّا بغتة فمن الحق

---

(١) محمد بن عبد الله بن دِراز، عالم محقق، مصري أزهري، كان من هيئة كبار العلماء بالأزهر، له عدة كتب بعضها بالفرنسية، توفي ـ رحمه الله تعالى ـ سنة ١٣٧٧. انظر «الأعلام»: ٦/ ٢٤٦.

(٢) أي سيؤخر.

ـ والله ـ أن نبيع حاضراً بغائب، وأن نستبدل شكّاً بيقين ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾[1].

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾[2].

وفي أي فرصة بعدها يتداركون؟ أفينتظر كل امرىء منا حتى يجيئه اليوم الذي يقول فيه: ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ ﴾[3].

أو يقول: ﴿ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[4].

كلا، بل الحزم كل الحزم، والكيس كل الكيس أن نغتنم هذه الفرصة السانحة ولا نضيع هذه الصفة الرابحة.

نعم، إنها لفرصة سانحة، ألا تعرف من فصول الزمان فصلاً خصيباً يورق فيه الشجر، ويتفتح فيه الزهر، وتطيب فيه التربة، وتبارك فيه الحبة، فتؤتي أكلها ضعفين أو أضعافاً كثيرة؟ إنه الربيع، يتحيَّنه الزراع ويترصَّدونه ليلقوا فيه بذرهم وليغرسوا فيه غراسهم، هكذا رمضان، هو ربيع الأرواح، كل ما أزلفت[5] فيه النفس من خير وبر يزكو وينمو ويربو: صيامه وقيامه وصدقاته وغدواته وروحاته كلها مباركة مضاعفة الأجر، وحسبه أن فيه ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر؟ ليلة القدر خير من ألف شهر.

---

(١) سورة الشعراء: آية ٢٠٥ ـ ٢٠٧.
(٢) سورة الأعراف: آية ١٨٥.
(٣) سورة المؤمنون: آية ٩٩ ـ ١٠٠.
(٤) سورة المنافقون: آية ١٠.
(٥) أي قرّبت.

فما أجدر المتخلفين منا عن الركب أن يتداركوا في هذا الربيع ما فاتهم، وأن يحاولوا اللحاق بالقافلة قبل أن ينقطع الطريق بهم.

وما أقدرَ السائرين منا في هذه القافلة السماوية على أن يضاعفوا اليوم جهودهم، وأن يستحثوا مطاياهم وركائبهم، ليزدادوا اقتراباً من مثلهم العليا.

ألا وليكن أول ما نبدأ به حين نستمع إلى هذا النداء، أن نلتفت التفاتة يسيرة إلى الوراء لنحصي على أنفسنا سقطاتنا وزلّاتنا، ولنمحو بماء الندم ما مضى من تفريطنا في حق ربنا، ولنوطن العزم على الجد والاستقامة في مستقبل أمرنا، تلك هي الخطوة الأولى في الاستجابة لداعي الله، وتلك هي حقيقة الاستغفار الذي جعله الله ضماناً للأمن والأمان في هذه الحياة، وفيما بعد هذه الحياة، وذلك حيث يقول عزَّ شأنه مخاطباً رسوله الرؤوف الرحيم: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[1]، فكان للأمة إذ ذاك حصانتان من البلاء حصانة بوجود الرسول بين ظهرانيهم وحصانة باستغفارهم لذنوبهم، واليوم وقد ذهبت الحصانة الأولى ولم يبق لنا إلاَّ الحصانة الثانية فإن ضيَّعناها هي الأخرى بإصرارنا على إقرار الكفر، والإلحاد، وإهمالنا لقمع الفجور والفساد فسوف يسلط الله علينا بذنوبنا من لا يرحمنا، وسوف يهلكنا بما فعل السفهاء منا، ولن يكون لنا منه يومئذ ضمان ولا إيمان، فإن من لا إيمان له لا أمان له: ﴿ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ

(١) سورة الأنفال: آية ٣٣.

ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[١].

فلنبدأ عملنا في هذا الشهر الكريم بالإقلاع عن كل ظلم، والتوبة والإنابة من كل إثم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾[٢].

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[٣].

فإذا أتممنا هذه الخطوة السلبية بالتنزُّه والتطهُّر، بقي علينا أن نتبعها خطوة إيجابية بالتجمُّل والتكمُّل، والبناء والإنشاء، نعم، بعد أن نفرِّغ قلوبنا من ظلمات الشهوة يجب أن نملأها بنور الحكمة فليس الشأن كل الشأن في رمضان أنه شهر الجلد والمقاومة، ولكنه فوق ذلك هو شهر الهدى والرحمة، هدى ورحمة منشوران على الأرض، وهدى ورحمة مرسلان من السماء.

فيه تزدحم بيوت الله ليلاً ونهاراً بالراكعين والساجدين، والقارئين والذاكرين، والمرشدين والمسترشدين وفيه تفيض قلوب المؤمنين رحمة وحناناً، وبرّاً وإحساناً، بالفقير والمسكين، واليتيم وابن السبيل، فذلك هو الهدى وتلك هي الرحمة المنشوران على الأرض.

وفيه أنزل القرآن، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وفيه تصب الرحمات، وتستجاب الدعوات: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[٤]، فذلك هو الهدى وتلك هي الرحمة المرسلان من السماء.

---

(١) سورة الأنعام: آية ٨١ ـ ٨٢.
(٢) سورة آل عمران: آية ١٤٧.
(٣) سورة الأعراف: آية ٢٣.
(٤) سورة البقرة: آية ١٨٦.

أيها الصائم: إنَّ العاقل لا يقدم على أمر إلاَّ إذا رسم هدفه وحدَّد غايته، وإنَّ المؤمن لا يعمل عملاً إلاَّ إذا صحح فيه نيَّته، وتبين سداده واستقامته، فهل حددت هدفك من صيامك وصححت نيتك فيه؟ أم هي العادة الموسمية، والمتابعة للعرف السائر؟

إني لأربأ بك أن تكون في مسلكك هذا أسيراً لعادة من العوائد، فردية كانت أو جماعية، فإنَّ الله الذي جعل زمام قيادتك في عقلك وقلبك لا يرضى لك أن تتبدل من هذه القيادة الرشيدة قيادة العادات العمياء التي تجعل منك آلة أو أشبه آلة، وإن الله الذي خلقك سيِّد نفسك، يكره منك أن تكون إمَّعة تصوم كما يصوم الناس وتفطر كما يفطرون، وأنت لا تدري فيم صاموا ولا فيم أفطروا.

أما إذا كنت فكَّرت وقدَّرت، وآثرت هذه التضحية والحرمان عن بصيرة وبيِّنة فحدِّثني ملياً عن دخيلة نفسك، وصف لي حقيقة الخير الذي تبتغيه من هذا الصوم.

هل رأيت فيه استجماماً لأجهزتك، وتجديداً لأنسجتك، وحِمْية تصحح بها بدنك، أو وجدت فيه اقتصاداً لشيء من نفقاتك، وادِّخاراً لبعض أوقاتك؟ أو رأيت فيه فرصة لإعلان شدَّة مراسك وقوَّة احتمالك وتحدِّيك للشدائد والآلام، واستعدادك لنُوَب الزمان؟

أيها الصائم: إني لست أنكر أن يكون من خصائص الصيام الوفاء بهذه الوظائف كلها وأضعاف أضعافها، ولكني أحذِّرك وأنذرك، أحذِّرك أن يكون هدفك وهمّك شيئاً من هذه الأغراض النفعية وأشباهها، وأنذرك بأنك إن فعلت ذلك لم تزد على أن تكون رجلاً رياضيّاً جسوراً، أو اقتصاديّاً دقيق الحساب، أو متطبباً يلتمس أيسر السبل للوقاية أو العلاج،

أو ما شئت أن تكون غير ذلك، أما أن تحسب نفسك صائماً في نظر الإسلام فلا؛ فالصوم في الإسلام لا يكفي فيه هذا المظهر السلبي المادي، الذي يقوم على اجتناب المفطرات لأي باعث كان، ولأي هدف اتفق، وإنما هو قبل كل شيء عمل روحي إيجابي، يتحرَّى فيه العامل الهدف الذي حددته له الشريعة، ويجعل نيَّته فيه وفقاً لإرادة ربه منه، فاعرف إذاً ما أراد ربك من صومك، واعمل على أن تكون نيتك وفقاً لإرادته، وليكن أول ما تذكره من ذلك أنَّ الله الرحيم لا تعنيه من صومك حرارته ومرارته، ولا يناله من جسمك ذبوله وهزاله، وإنه إذا كانت هنالك أديان ونحل ترى في ألم الجسم مقصداً يطلب، وترى في الانتفاع بالطيبات عدوّاً يحارب، فليس الإسلام من بين هذه الأديان، كيف وهو الذي يقول: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[١].

ويقول: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[٢].

إنه لو كانت غاية الصوم هي إشعار الصائم بالجوع والعطش، لكان الرجل العادي يكفيه صوم جل اليوم، بدل صومه كله، ولكان الرجل الفاقد لشهية الطعام يجب عليه أن يضيف مدة أخرى يشعر فيها بألم المَخْمَصة[٣]، ولكننا نعلم أنَّ الذي يزيد في مدة الصوم، ولا يتحلَّل من حرمانه ولو بالنية عند غروب الشمس آثم[٤]، وأنَّ مثله في الإثم كمثل الذي ينقص من مدة الصوم فيفطر قبل الغروب، ونعلم من جهة أخرى أنَّ

---

(١) سورة المائدة: آية ٨٧.
(٢) سورة البقرة: آية ١٨٥.
(٣) أي الجوع.
(٤) ما عدا المواصل؛ فقد رخص النبي ﷺ للصحابة بالوصال إلى السحر فقط.

الذي يراعي شرائط الصوم وحدوده، وهو على صومه معان، وله ميسر، مبرور مأجور، كالذي يكابد فيه شيئاً من تغير المزاج.

ليس هدف الصوم إذاً هو هذا الألم البدني، وإن كان هذا الألم قد يقع في طريقه، إنَّ الله عزَّ وجلّ حين قال لنا: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، لم يقل لعلَّكم تتألَّمون، كما أنه لم يقل لعلكم تصحون، أو لعلكم تقتصدون، وإنما قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾، فجعل الصوم اختباراً روحيّاً وتجربة خلقية، وأراد منه أن يكون وسيلتك إلى نيل صفة المتَّقين، وأداتك في اكتساب ملكة التقوى، التقوى: هذا هو الهدف الحقيقي، الذي إن أصبته جاءت من ورائه كل الثمرات مكرهة راغمة، وإن أخطأته فقد أضعت عملك كله سدى.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾[١].

فما أدراك ما التقوى؟ إنك لن تحيط بكُنهها، ولن تقدرها حق قدرها إلَّا إذا عرفت طبقات الكائنات ومراتب الوجود، فاعلم أنَّ الوجود ثلاث مراتب: «مرتبة السيادة العظمى»، وهذه قد استأثر بها الواحد الأحد، الفرد الصمد، و«مرتبة العبودية الدنيا»، وهذه هي مرتبة الكائنات العاجزة المسخرة لقانون الطبيعة، والتي ليس لها من الحرية نصيب كالجماد والحيوان، وإن الإنسان ليهبط إلى هذه المنزلة إذا وقع أسيراً في قبضة شهواته.

بين هاتين المرتبتين مرتبة تجتمع فيها السيادة على الكون والعبودية

(١) سورة الشورى: آية ٢٠.

لخالق الكون، وتلك هي المنزلة التي يصعد إليها الإنسان إذا وقف يتلقَّى أوامره العليا من ربه، ثم جعل يلقي هذه الأوامر على جنوده من القلب والجوارح.

فإذا أسلست له تلك الجنود مقاليدها، فصار قائداً مطاعاً في جنده، سيِّداً مهيباً في مملكته الصغيرة فقد نال صفة القوى، وأصبح جديراً بالاستخلاف في الأرض والتمكين له فيها، وأُكرم بعبودية هي عين السِّيادة.

تلك هي التقوى التي أراد الله أن تكون ثمرة صيامك، وهي في الحقيقة هدف مشترك بين العبادات والطاعات جميعاً، غير أنَّ للصوم في تحصيلها أثراً أوسع وأعم، والمنزلة التي يبلغها الصائم بين مراتب المتَّقين هي أعلى المراتب وأسماها.

أما أن أثر الصوم في التقوى أوسع وأعلم فلأنَّ التقوى التي تثمرها هذه الواجبات إنما هي كف عن المحارم، أما الصيام فإنه يجيء من وراء هذه الدائرة المحظورة فيضيف إليها نطاقاً جديداً يعلمنا به كيف نكف عن بعض الحلال والمباح؟ وكيف نستغني أحياناً عما هو في العادة من مقومات الحياة، فإذا كانت الطاعات الأخرى تورث أوائل درجات التقوى بالاعتدال والاستقامة فإنَّ الصيام يورث نهاية درجاتها بالزهد والورع.

إنَّ منزلة الصيام هي أسمى مراتب التقوى وأكرمها عند الله؛ فإنَّ في سائر العبادات جوانب تحببها إلى النفوس الكريمة، وتقربها من مقتضى الطباع السليمة، ففي الصلاة ـ مثلاً ـ حلاوة المناجاة، وفي الزكاة أَرْيحية

الجود[١] والكلام، وفي الجهاد عزَّة الحسية وإباء الضَّيم، أما الصيام فإنه ليس فيه معاونة من الطبع، بل فيه على العكس معاندته ومقاومته، فكان أقربَ الأعمال إلى الخلوص عن الشوائب.

ولعله من أجل ذلك كانت الأعمال كلها يثاب عليها بأضعاف معلومة من العشر إلى السبعمائة إلاَّ الصوم فإنَّ تضعيف جزائه لا يدخل تحت حصر ولا عد، كما جاء في الحديث القدسي: «كل عمل ابن آدم له إلاَّ الصوم فإنه لي وأنا أجزي به» ومصادقه في الكتاب العزيز: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[٢].

هذا الفضل العظيم إنما هو كما قلنا لمن فقه حكمة الصوم وصحَّح فيه نيَّته، وذلك إنما يكون بجعله نهاية الطهر ـ طهر الأبرار ـ بترك المحارم، ونهاية الطهر ـ طهر الأخيار ـ بالتحرُّر من عادة الترف والعيش الناعم، حتى إذا جاء الغد، وجد الجد، ودعا الداعي إلى التضحية العظمى نكون قد أخذنا للأمر عدته، حيث مارسنا الصبر وشدَّته ويومئذ نرضى بالظمأ، والنصب، والمخمصة في سبيل الواجب، ولا نرضى أبداً أن نعود إلى الترف والنعيم تحت الذلّ وفي قبضة الغاصب.

وتلك هي عبرة الساعة من درس الصيام[٣].

---

(١) النشاط والارتياح إلى الجود.
(٢) سورة الزمر: آية ١٠.
(٣) «مجلة الأزهر»: رمضان سنة ١٣٩٧، الجزء ٧، السنة ٤٩.

موقف المسلم
للأستاذ محب الدين الخطيب[١]

قال الأستاذ:

نحن في شهر رمضان، وشهر رمضان في السنة، كجرس المنبه في الساعة: يدعو أهله إلى أمر غير الذي كانوا فيه، يدعونا إلى تغيير نظام معيشتنا، والانتقال من حياة الدعة والانطلاق المباح إلى التقيد بقيود طارئة، والتزام أمور كنا في حلٍ من التزامها في سائر شهور السنة...

إن رمضان كجرس المنبه في الساعة يقرع آذاننا ونحن نيام، أو أشباه النيام، ليوقظنا من غفلاتنا، ولينقلنا من نظام الدعة الرتيب في المعيشة وسياسة النفس، إلى نظام التقيد الطارىء في المعيشة وسياسة النفس.

وحكمة الإسلام في هذا التغيير الطارىء على رمضان، وعلى حياة المسلمين في رمضان، هي تمرين النفس المسلمة على أن يكون هذا التغيير ـ ولا سيما ما يتعلق منه بكبح جماح النفس، واعتياد الصبر ـ سجيةً

---

(١) محب الدين بن أبي الفتح محمد بن عبدالقادر الخطيب، يتصل نسبه بالسيد عبد القادر الجيلاني الحسني من كبار الكتاب الإسلاميين. ولد في دمشق سنة ١٣٠٣ وتعلم بها وبالأستانة. وشارك في إنشاء جمعية النهضة العربية بها ثم رحل إلى صنعاء وعمل في بعض مدارسها ثم عاد إلى دمشق، ثم جرت عليه أحداث تنقل على إثرها من دمشق إلى مكة المكرمة ثم دمشق فالقاهرة التي استقر بها وعمل محرراً في جريدة الأهرام وأصدر مجلته الفتح والزهراء، وكان من أوائل مؤسسي جمعية الشبان المسلمين، وتولى تحرير مجلة الأزهر ست سنوات، وأنشأ المطبعة السلفية ومكتبتها. له عدة مصنفات ومكتبة خاصة فاخرة. توفي رحمه الله تعالى سنة ١٣٨٩. انظر «الأعلام»: ٥/ ٢٨٢.

للمسلمين في غير رمضان، وفي ظروف حياتهم كلها.

إن هذا التغيير في نظام المعيشة يحدث في رمضان، ولكن أثره في كبح جماح النفس ينبغي أن ينسحب إلى تطوير أخلاقنا الإسلامية في سائر الشهور بعد رمضان، حتى ننطبع به ونألفه في حياتنا كلها، وإلا كان رمضان كالجسم مجرداً من حيويته، ومن الروح السماوية التي يمتاز بها . . .

يأتينا رمضان في كل سنة لنتمرن فيه على الصبر، وتهذيب النفس، وكبحها عن لغو القول، وعن الاستجابة لدواعي الشهوة.

يأتينا ليعودنا عفة اللسان، وطهارة القلب، في كل ما يتحرك به اللسان ويخفق به القلب.

يأتينا ليذكرنا بالله، وليعودنا السير في الطريق الذي شرعه لنا الإسلام، ولنتوخى ما يرضي الله من قول وعمل فيما بين السحور والإفطار، ثم فيما بين الإفطار والسحور.

يأتينا بنظامه المشروع، ومن نظامه المشروع ضبط النفس، وقمع شهواتها، وتقوية الروح والبدن بالإقلال من الطعام، حتى يكون غذاء النفس وغذاء البدن متعادلين متعاونين في حياة المسلم الكادح المكافح.

نحن مقبلون على أمور عظيمة تحتاج إلى تعبئة قوانا كلها: قوى النفوس، واكتشاف معادنها، واستعمالها في الكفاح المنتظر، وقوى الأجسام وإعدادها للنهوض بأعباء الجهاد المقدس، وقوة المال واستعماله في النهضة الاقتصادية وميادين التصنيع والتعمير ودفائن الأرض من معادن وزراعة وتشجير نقوم منها بما نبرهن به على معرفتنا بأقدار النعم الإلهية علينا، وشكر الله عليها بحسن استعمالها واستغلالها

واستثمارها وتعميم النفع بها إلى أقصى ما تبلغه قدرتنا وجهودنا.

هذه التعبئة القومية لجميع قوانا المادية والأدبية تحتاج منا إلى أن نقتصد في كل قوة من هذه القوى، فلا نستعملها إلا فيما يزيدنا قوة وعزة وثروة ومنعة.

هنا حقيقة من حقائق الاقتصاد الإسلامي يجب أن يعلمها كل مسلم، وأن يعمل بها كل مسلم، وإن لم يفعل فقد نقص من إسلامه بمقدار ما يفرط به من العلم بهذه الحقيقة والعمل بها:

أيها المسلم:

إن ما تحت يدك وفي تصرفك من الأموال ـ قَلَّت أو كثرت ـ ليس ملكاً لك، فالملك كله لله، وإنما هي أمانة الله تحت يدك، حصلت عليها بتوفيق الله وتيسيره لا بجهدك أو سعيك، وقد يكون فيمن تعرف أو لا تعرف من الناس من هو أبرع منك في تحصيل المال وأنشط سعياً منك لتحصيله، ويكون مع ذلك أفقر منك وأقل توفيقاً، لحكمة يعلمها الله، وقديماً زعم قارون وهو يتحدث عن أمواله أنه أوتيها على علم منه بطرق تحصيلها فكذبه الله وأباد أمواله.

إن الذي لك من مالك ـ قَلّ أو كثر ـ ما يقوم منه بحاجاتك الضرورية تنفق منه بالمعروف، وما زاد على ذلك فهو أمانة الله تحت يدك، فإن كنت صاحبَ مصنع عليك أن توسع به مصنعك وترقيه لينتفع بنو قومك بزيادة إنتاجه، ولئلا يحتاج بلدك إلى استيراد شيء من ذلك من البلاد الأجنبية، وإن كنت من أصحاب الحقول والمزارع والبساتين فآثر بني قومك بتوسيع زراعة ما تمس حاجتهم إليه وإن كان أقلَّ ربحاً لك من زراعة أصناف أخرى لا تمس حاجة بني وطنك إليها، وإن كنت تاجراً فلا تقع في مثل الخطأ الذي وقع فيه أحد أصحاب الملايين من تجارنا؛ إذ

حصل على إذن باستيراد سيارات رخيصة مما ينتفع به أرباب الأعمال في أعمالهم، فأحدث في إذن الاستيراد تغييراً ليستورد سيارات فاخرة لأرباب الترف والمسرفين في الأرض، فيحصل من ذلك على ربح أكبر، وعاقبه الله بمتاعب كان في غنى عنها لو أنه أحسن استعمال أمواله فيما ينفع الناس ويرضي الله، لا فيما يتهافت عليه المسرفون في الأرض ويبتز به أموالهم، ولو أن كل تاجر أو مزارع أو صاحب مصنع علم أن ما تحت يده إنما هو أمانة لله عنده ائتمنه عليها ليحسن استعمالها فيما ينهض بالأمة ويرفع مستواها بين الأمم، لزاده الله ثروة وغنى ومحبة في قلوب الناس وتوفيقاً في أعماله وبركة في ثروته.

كان مرشدنا الأعظم ﷺ لا يخشى علينا الفقر بقدر ما كان يخشى علينا طغيان الثروة والأموال، ونحن نشاهد الآن من طغيان المال في أيدي الذين أنعم الله به عليهم ما نقضي له العجب من التبذير في إنفاقه وتبديده وتحويله من بلاد المسلمين إلى بلاد أعدائهم، بل قد يتعدى طغيان المال في أيدي بعض الطغاة إلى ما وراء ذلك مما يسخط الله ويستعجل غضبه.

أين نحن من عمر بن عبد العزيز رحمه الله وكان يملك الممالك في آسيا وإفريقية وأوروبا، ومع ذلك فإنه تحوّل يوم تولى الخلافة عن الدار الخضراء دار الخلافة إلى منزل صغير في خارج الباب الشمالي من مسجد بني أمية، وفيما كان يعمل للدولة ليلاً على ضوء شمعة من مال الدولة جاءه من يحدثه في غير شؤون الدولة فأطفأ الشمعة لئلا يسرف في شيء من دوانيق الدولة التي ائتمنه الله عليها.

إنما كان في أسلافنا من تبلغ به الأمانة على ما تحت يده من الأموال إلى هذا الحد لأنهم كانوا يدركون معاني نظام الإسلام الاقتصادي

ويعملون بها، ويحرصون على أن يقيسوا إسلامهم بمقاييس هذا الإدراك لرسالة الإسلام وأغراضه، ولذلك اتسعت حدود ملكهم إلى أسبانيا من بلاد أوربا، وإلى قفقاسيا وما وراءها من بلاد روسيا، ولم تكن في الأرض يومئذ إمبراطورية أوسعَ وأغنى وأرقى من البلاد التي كانت تحكمها الخلافة الإسلامية في القارات المعروفة في زمانهم.

وإنما كان في أسلافنا من تبلغ به الأمانة على ما تحت يده من الأموال إلى هذا الحد؛ لأن رمضان كان يأتيهم فيترك فيهم أثره من ضبط النفس، وقمع شهواتها، وينسحب ذلك في أخلاقهم بعد رمضان؛ حتى انطبعت نفوسهم بطابع رمضان، وألفوه في حياتهم كلها فعزوا وسادوا، وكانوا هم الناس بين أمم الأرض.

هذا رمضان قد جاءنا مرة أخرى ليدعونا إلى التخلق بأخلاق أسلافنا في صدر الإسلام، فهل لنا أن نحاسب أنفسنا عما نقيمه من أنظمة رمضان المشروعة، وما نحققه من أغراضه.

أليس في الصائمين منا من ينحرفون عن حكمة الصيام وكماله بما يكيدون به للناس من شر، وما تتحرك به ألسنتهم من باطل، وما يسخطون به ربهم فيما بين سحورهم وإفطارهم، وما يقضون به سهراتهم من الإفطار إلى السحور، وما ينفقون على شهواتهم من أموال يزعمون أنها لهم، وإنما هي أمانة الله تحت أيديهم يمتحنهم بها ليعلم كيف يتصرفون فيها بعقل وكياسة وحكمة، وفيهم من يذكرون الله، ولكنهم يذكرونه بألسنتهم دون قلوبهم، وإذا حلت ساعات السحور، أو الإفطار ملأوا بطونهم بما جاء رمضان ليكفهم عن الإسراف فيه.

إن الشيطان قد نجح ـ فيما مضى من شهور رمضان السالفة ـ في

إقناع أشباه الرجال منا بأن يفسدوا على أنفسهم صيامهم ببعض ما يخالف حكمة الله في الصيام، وشعائر الصيام، وأنظمة الصيام، فهل لنا أن نخزي الشيطان في رمضاننا هذا، فنحكم بعزائمنا الإسلامية على نفوسنا الإسلامية توطئة لإعدادها لما يريده الله لنا من أمر عظيم، في مستقبل عظيم، نحكم فيه أوطاننا الإسلامية بآدابنا الإسلامية، لننهض بهذه الأمة إلى مستوى السيادة والسعادة في الأرض؟!

كما أن الإسلام دين الحق، فهو كذلك دين الصبر والاعتدال والاقتصاد.

ورمضان إنما تقوم فينا شعائره لنقيم بها الحق، ولنتعود بها الصبر، ولنكون فيها من أهل الاعتدال، والاقتصاد.

كنا نشكو الاستعمار، ونشكو حكام السوء، ونضيف إليهم كل سيئة تقع في أوطاننا، وكل ضعف أصيبت به شعوبنا، وفي الواقع كان الاستعمار مصدر الشرور والسيئات فيما أصابنا من ضعف، وكان حكام السوء قدوة الدهماء والوارثين فيما انحدرنا إليه من تبذير وإسراف وإسفاف، ولكن سياسة الإسلام كانت تهتف بمن يعقل عنها منادية على ملأ الأشهاد: كما تكونوا يول عليكم، فنحن الذين أهملنا سنن ديننا ونظام الإسلام في حياتنا فوقعنا بين براثن الاستعمار، ونحن الذين أسففنا وأسرفنا فابتلانا الله بحكام السوء، ولو أننا استقمنا على سنة الإسلام في معيشتنا وتصرفاتنا لكف الله عنا سلطان الاستعمار، ولوقانا شر حكام السوء.

وأخيراً، أنقذنا الله من براثن الاستعمار، ومن أذنابه حكام السوء ليمتحن سلوكنا في الحياة، واستعدادنا للمحافظة على هذه النعمة، وتأهيل مجتمعنا للمضي فيها، وليرى موقفنا من سننه في الارتقاء

والانحطاط، وفي التقدم والتخلف.

إن النعم التي يسديها الله سبحانه لأمة من الأمم تترتب عليها مسئوليات، ولا تدوم هذه النعم إلا إذا اضطلعت الأمة بتلك المسئوليات.

إن نعمة الله علينا بالخلاص من كابوس الاستعمار وحكام السوء قد ترتب عليها واجب عظيم هو تعبئة كل القوى لإقامة كياننا القومي الجديد، على أساس متين من الأخلاق والعلم والثروة والتنظيم والاستثمار واعتبار الأموال التي تحت أيدينا أمانة لله نتصرف فيها بما فيه المصلحة العامة للأمة والوطن، وهذا الأساس وحده هو الذي يتحمل البنيان الشامخ الذي يسر الله لنا أسباب تشييده هدية من جيلنا إلى الأجيال القادمة من أبنائنا وأحفادنا.

من حسن حظنا أن في نظام الإسلام ـ إذا وطنا أنفسنا على العمل به ـ ما يساعدنا على تعبئة قوانا كلها، وإقامة بنياننا الشامخ على أساسها، والحياة الإسلامية في رمضان ـ كما أراد الإسلام للمسلمين ـ هي حجر الزاوية في هذا الأساس الذي يدعونا رمضان إلى إقامة بنيان المستقبل عليه.

ليكن رمضاننا في هذا العام بداية عهد جديد لتمرين النفس المسلمة على كبح جماح الشهوات، والمشاركة في التعبئة القومية الكبرى لاستقبال الأحداث القومية الكبرى، بحسن استعمال ما ائتمننا الله عليه من أوطان، وثروة، وصحة، وقوة، فنجعل ذلك كله في سبيل الله وفي مرضاته، والعاقبة للمتقين[١].

---

(١) مجلة «الأزهر»: المجلد ٢٩، الجزء ١٩، ص ٧٨٨ ـ ٧٩٣ بتصرف.

شهر الصيام

للأستاذ محب الدين الخطيب

قال الأستاذ:

دار الزمانُ دورته، وأطلتْ علينا أيام شهر الصيام ولياليه.

غداً تعلن المحاكم الشرعية ثبوتَ رؤية الهلال، فينوي المسلمون الإمساكَ عن الطعام والشراب في أوقات الإمساك المعلومة، قربةً لله وأداءً لما فرض عليهم.

غداً تمتلىء حلقات الوعظ في المساجد بجماهير الأمة، ليعلموا ما يُسخط الله عليهم فيجتنبوه، وما يقربهم منه ويكسبهم رضاءه فيسارعوا إلى عمله.

غداً يُقبل الناس على علمائهم بقلوب مستعدة للخير، كالأرض يوم تكون صالحة للزرع؛ وسينظر الله إلى علماء المسلمين ماذا يزرعون بسيرتهم ومعارفهم في قلوب عباده.

إن هداية الإسلام حرّرت المسلمين من كل ما اعتاد البشر أن يكونوا مستعبَدين له في حياتهم الفردية، والبيتية، والاجتماعية فيئس الشيطان أن يمسهم طائفٌ منه، بعد أن سلحهم الإسلام باليقظة من أحابيله، وبعد أن

امتازوا عن الأمم الأخرى بميزة التقوى والاحتراس، فكلما اجتذبتهم الشهوة إلى باب من أبواب العبودية التي يقودهم الشيطان إليها، تنبهت فيهم سليقة التقوى التي غرسها الإسلام في قلوبهم، فاحتفظوا بحريتهم، ودفعوا عن أنفسهم خطر العبودية للشهوات.

وشهر رمضان هو شهر الله الذي تُرَبَّى فيه سليقة التقوى والاحتراس في نفوس المسلمين، فيتمرنون على الامتناع عما أحله الله في غير أوقات الإمساك من مأكل ومشرب، لتكون نفوسهم دائمة الانتباه لما يجب اتقاؤه والاحتراس منه في جميع تصاريف الحياة.

احترس! انتبه! كنْ مستعداً!

ذلك مما يتربى عليه المسلم في رمضان، فتنفعه هذه التربية في غير رمضان، وذلك ما يتربى عليه المسلم في الإمساك عن المفطرات، فتنمو فيه سليقة الإمساك وميزة التقوى في كل ما يحسن بالمرء والمرأة أن يبتعدا عنه مما يمس بالمروءة.

كانت في المسلم الذي صحب الهادي الأعظم ﷺ صفات من صفات الرجولة والمروءة غرسها فيه الإسلام ورباها ونماها، ونحن إذا بحثنا الآن عن هذه الصفات في المسلم المعاصر لنا قد نجد بعضها وقد لا نجد أكثرها، وسيأتي هذا المسلم في رمضان إلى حلقة العالم ليسمع منه ما يفيده في دينه ودنياه، فيكسب بذلك رضاء الله ويتقي سخطه.

فأنا أريد ممن تقع أنظارهم على هذه الكلمة من إخواني الذين وضعهم الله في موضع الهداية والإرشاد لجمهور المسلمين أن يتصلوا بأرواح هذا الجمهور، وأن يُعْنَوا بتنمية الصفات الطيبة الباقية في نفوس

أفراده مما ورثوه عن أسلافهم، وأن يزرعوا في تلك النفوس الصفات الإسلامية المفقودة الآن والتي لن يرضى الله عن المسلمين ويعيد إليهم استقلالهم وعزهم ما لم يعودوا إليها.

ليس لله حاجة في أن نجوع، ولكن له حكمة في أن نكون أمة التقوى، فهل لعلمائنا أن يعلّموا الجمهور المسلم ـ بسيرتهم ثم بمواعظهم ـ حقيقة التقوى بمعناها الواسع الذي يتناول سعادة المسلمين في أبدانهم ومعاشهم وثروتهم واستقلالهم وعمران أوطانهم ورجوع القوة والعز إليهم.

أنت تضع على مقربة منك في ليالي رمضان الساعة ذات المنبه لتنبهك من نومك فتتسحر قبل أن ينقضي الليل، والله قد فرض عليك الصيام في رمضان لينبه فيك سليقة «التقوى» و «الاحتراس»، خشية أن تكون الأحد عشر شهراً قد أضعفت فيك ما اكتسبته في رمضان العام الماضي من هذه السليقة، فاذكر إذا هممتَ بما لا يحسن فعله في رمضان فأمسكت عنه لأنك صائم أن الإسلام يريد منك كلما هممت بما لا يحسن بالمسلم فعله أن تمسك عنه، لأن الإمساك عن ذلك هو «التقوى» وهو «الاحتراس»، وذلك من الأخلاق التي يعلمونها الآن للفتيان الكشافة، والمسلمون كلهم «كشافة» وكلهم «جنود متقون»، وإذا تراخت فيهم هذه السليقة فعلى وعّاظنا وعلمائنا أن ينتهزوا فرصة رمضان ليبعثوا فيها قوة وانتعاشاً، فنكون كما أراد الله لنا «أمة تقوى».

المسلم «كشّاف» يربأ بنفسه عن الكذب، وإذا نسي المسلم أنه «كشاف»، وغفل عن أن «الكشاف المسلم» يترفع عن دنيئة الكذب ـ مهما دعت إلى ذلك الدواعي ـ فإن رمضان، والإمساك المطلوب منا في

رمضان كفيل بأنه ينبه فينا سليقة الوقاية من هذا المرض، وإن لم نفعل واقتصرنا على الإمساك عن الأكل والشرب كنا من الجاهلين الغافلين.

و«الكشاف المسلم» يربأ بنفسه عن أن يأخذ ما ليس له، وقد يكون في جمهور المسلمين من يتساهل في هذا الأمر ثم إذا رأى الناسُ هلال رمضان أمسك معهم عن الأكل وعن الشرب، فهل لوعّاظ رمضان أن يمرنوا هذا الفريق من الناس على النوع الآخر من الصيام، وأعني الصيام عن أخذ ما ليس لهم، حتى يكون ذلك سليقة فيهم، وحتى يعلم غير المسلمين أن هذه الصفة إسلامية محضة فيحببوهم بالإسلام ويدعوهم إليه بالسيرة العملية لا بالدعاوي الكلامية.

و«الكشاف المسلم» من شأنه أن يصوم عن المال يتناوله من أعداء ملته ثمناً لمساعدتهم على أهل ملته، لأنه مفطور بطبعه على استعمال قواه لدرء الشرور، واعتبار مواهبه وقفاً على دفع عدوان العادين؛ فإذا كان في المسلمين من لم يتمرن على هذا النوع من الصيام، فيجب على وعاظ المسلمين أن يتناولوا هذا الموضوع في مواعظهم مدة شهر رمضان، حتى يعلم الذين يخونون الملة أن تجويع بطونهم في رمضان لا يغني عنهم شيئاً، وأنه رُبّ تالٍ يلعنه القرآن، وكم من مصلٍ قال الله عزوجل فيه:

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾[1].

فعسى أن لا يستهين علماؤنا في هذا الضرب من المواعظ فإنها نافعة في البلاد المغلوبة على أمرها، وقد علم القراء أنه كان في الهند رجل

(١) سورة الماعون: آية ٤ ـ ٧.

أمعن في هذا النوع من الغواية حتى صار يزعم أن التفريط في جنب الذين سلبوا وطنه نعمة الاستقلال لا يقل عن التفريط في جنب الله تعالى الله علواً كبيراً[١].

وبعد فإن واجبات المسلم نوعان: الأول: الواجبات الفردية، وأكثر المسلمين يعرفونها.

والثاني الواجبات الاجتماعية، وهي التي يتعاون بها المسلمون على رفع شأن الملة، وإعلاء كلمة الله، وتحويل الناس كلهم إلى الإسلام، وجعل المسلمين أعضاء صالحة في الكيان الإنساني، فهذا النوع الثاني من الواجبات قصّر فيه المسلمون، ومنذ قصروا فيه ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة تأديباً لهم، وتنبيهاً إلى ما ارتضوا لأنفسهم من سوء الاختيار.

يا سادتي الوعاظ، إلى هذا النوع الثاني من الواجبات نبهونا في مواعظ رمضان، فنحن عن ذلك جدُّ غافلين[٢].

---

(١) لعله يتحدث عن الطائفة الأحمدية الضالة التي نادت بإسقاط فريضة الجهاد في الهند.

(٢) صحيفة «الفتح»: السنة ٨، العدد ٣٧٥، شعبان سنة ١٣٥٢، ص٤٦٥ ـ ٤٦٦.

رمضان وشيطانه

للأستاذ: محب الدين الخطيب

قال الأستاذ:

تكـون منهمكاً بعملك أو لهوك مستغرقاً فيه لا تـكاد تشعر بنفسك، فيصل عقرب الساعة إلى الموضع الذي كنت عقدت عليه جرسها فينبهك إلى حلول الوقت الذي أنت في انتظاره، وحينئذ تخرج مما كنت فيه، وترى كأنك كنت نائماً فاستيقظت.

ذلك مثل شهر رمضان مع غيره من أشهر السنة: يكون الناس قبله كالقافلة التي تسري في جوف الليل لا تعرف من الوجود شيئاً غير أنها تسري، فيطلُّ عليها القمر من وراء الجبل فيبدو لها كل أمر من أمورها كأنما هو جديد.

فأهلاً بشهر رمضان نجدد به أنفسنا، وننتبه لها، بعد أن كنا في غفلة عنها.

الناس في سكرة: فمنهم من يرجع إلى نفسه فيصحو في رمضان، وما يزال الصحو يتسع ويشيع في عوالم نفسه حتى يصير من أهل البصيرة.

ومنهم من يزيده رمضان ارتكاساً في سكرته، فلا يخرج منها إلا يوم

يجتاز القنطرة التي يجتازها كل ابن أنثى بين حياتين: إحداهما سريعة كالخيال، وأخرى دائمة دوام الأبد.

رمضان شهر يذكرك بنفسك، فتخلو بها تحاسبها وتحاسبك، وكم خرج الموفقون من هذا الحساب إلى حياة جديدة يتعجبون كيف كانوا في غفلة عنها، وكيف كانت أوهام المجتمع تحجب عنهم جمالها.

في رمضان نغير حياتنا، وهذا التغيير ضروري لتجديد الحياة، وتجديد الحياة ضروري لمن يريد أن يلتفت إلى الوراء ينظر في أي طريق كان سائراً، ثم يرسل نظره إلى الأمام يكتشف المصير.

في رمضان نحاول أن نقهر النفس لنعودها الطاعة العسكرية في سبيل الواجب، ومن لا يستطيع أن يحكم نفسه فيصرفها على مقتضى المصالح فاته خير كثير.

في مثل هذا الشهر من كل عام نستقبل رمضان، فيجب علينا قبل كل شيء أن نعرف رمضان الحقيقي الذي نحن مستقبلوه، والحذرَ الحذر أن يخدعنا شيطان رمضان فيوهمنا أنه هو ، ويصحبنا الشهر بطوله ثم يذهب بنا في داهية.

هنالك رمضان، وشيطان رمضان، ويجب أن نكون من الفطنة بحيث لا يضحك علينا شيطان رمضان فيوهمنا أنه رمضان.

رمضان يعلم المسلم الصبر والبشاشة والحلم والرضا، وشيطان رمضان يورث صاحبه ضيق الصدر والكآبة والغضب.

فإذا جاء رمضان وكنت ممن يدخن فامتنعت عن التدخين، فإن رمضان يمرنك على الصبر عنه حتى يكون الصبر عنه سجية لك قد تبلغ

بك إلى ترك الدخان بتة بما تسلحت به من قوة العزم وفضيلة الصبر، وأما شيطان رمضان فيعظم لك أمر الدخان، ويوهمك أنك متألم للامتناع عنه، وينصح لك بأن تخفف من ألمك بالغضب على من هم دونك من خدمك وأقاربك وذويك، فيفسد عليك شيطان رمضان مزية من مزايا رمضان، وهي اعتياد الصبر واتخاذه سجية لك وسلاحاً تتقي به كثيراً من شرور الحياة.

رمضان يمنعك من الطعام بياض نهارك الحكمة ستدركها إذا راقبت أثر ذلك في نفسك، وشيطان رمضان يغريك بحشد صنوف الطعام في جوفك وكَرِشك حتى تفسد في ساعة الغروب ما أصلحته عامة نهارك، فتغدو محروماً صفاء النفس الذي هو الغرض الأول من صوم رمضان، وتخسر علاج الحمْية الذي هو نفع عارض من منافع رمضان الكثيرة.

ورمضان يحبب إليك الاقتراب من ربك في لياليه، والقرب إلى الله منزلة أيسر مزاياها أنها تحجب لذتها عن غير أهلها، وأما شيطان رمضان فيسوق صاحبه إلى المقهى أو السينما أو إلى سهرات أخرى تهرب منها الملائكة وتشهدها الشياطين، وأكثر الصائمين يتفننون في إعداد هذه السهرات في بيوتهم وبيوت أصدقائهم أو في بيوت الشياطين يحسبون أنها جمال رمضان، وإنما هي جمال شيطان رمضان.

وصائم رمضان تتغلب فيه على ألم الجوع لذة الصبر، وبهجة الرفق والحلم، أما صاحب شيطان رمضان فيجوع نهاره ويفسد على نفسه ثواب هذا الجوع بما يصحبه من كآبة وغضب وبذاءة لسان، ثم يفطر إفطار من لا يعرف حكمة الصوم، ثم يسهر سهر من لا يريد أن يعلم أن نهار رمضان لا يلائمه إلا ليل من جنسه.

إن المسلم الذي يعرف مرامي الإسلام، ويفهم حكمة الصوم يخرج في رمضان من ضوضاء الحياة المادية التي أحيط بها المتزاحمون على توافه الدنيا وزبالتها من أهل القافلة التي تسري في الظلام، فيكون له من رمضان جرس ينبه إلى التخلق بأخلاق رمضان في ليله ونهاره، وهذا سبيل تصفو فيه النفس وتتجدد، وتسمو بصاحبها إلى منزلة من منازل الكمال.

جعلني الله وإياك يا أخي من أهلها، وأحيانا إلى أمثاله إن كان الخير في حياتنا إلى أمثاله[١].

(١) مجلة «الأزهر»: المجلد ٢٤، الجزء ٩، رمضان سنة ١٣٧٢، ص ١٠٩٥ـ١٠٩٦.

مرحباً بربيع القلوب

للأستاذ أحمد حسن الزيات[١]

قال الأستاذ:

بعد أحد عشر شهراً قضاها المسلمون في جهاد العيش وصراع المادة فقاسوا في صيفها سُعار الشهوات، وكابدوا في خريفها خمود المشاعر، وعانوا في شتائها موت الضمائر يأتيهم ربيع الأرواح في رمضان فيحيي موات قلوبهم بالبر، ويوقظ رواقد نفوسهم بالذكر، ويرجع بأرواحهم إلى منبعها الأزلي فتبرأ من أوزار الحياة وتطهر من أوضار المادة، وتتزود من مذخور الخير بما يقويها على احتمال المحن والفتن في دنيا الآمال والآلام بقية العام كله.

---

(١) أحمد بن حسن الزيات صاحب مجلة «الرسالة». ولد سنة ١٣٠٢ في قرية بطلخا ـ في مصر ـ كان أديباً من كبار الكتاب. دخل الأزهر لكن فصل قبل إتمام دراسته وتعلم في مدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة. ودرس الأدب العربي في بعض المدارس وفي المدرسة الأمريكية بالقاهرة ثم في دار المعلمين العليا ببغداد. انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة وكان قبل ذلك عضواً في مجمع دمشق، وتولى رئاسة تحرير مجلة «الأزهر» سنة ١٣٧٢ ـ ١٣٧٤، توفي بالقاهرة سنة ١٣٨٨ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ١/ ١١٣ ـ ١١٤.

لذلك كان رمضان في الشرع الإلـهي طهوراً من رجس العام، وهدية في حرب القوت، وروحاً في مادية الكون، وقد اختصه الله بهذه الميزة على سائر الشهور ليومين من أيامه كان لهما في تاريخ العالم أرفع الشأن، وفي مصير الإنسان أبلغ الأثر: يومه السابع عشر من السنة الحادية والأربعين من مولد الرسول ﷺ وهو يوم القرآن، ويوم السابع عشر من السنة الثانية لهجرته وهو يوم الفرقان.

فأما يوم القرآن... فاستعلنت منذ تلك الليلة معاني الحق، واستبانت سبل السلام، واستقامت موازين العدل، وخرج الناس من ظلام حالك كانوا يعمهون فيه إلى نور ساطع صاروا يهتدون به.

وأما يوم الفرقان فهو يوم التقى الجمعان: جمع المدينة وجمع مكة في بدر، وكان المسلمون على فقرهم وضرهم ثلث المشركين، وكان المشركون على كثرتهم وعدتهم صفوة قريش، وكان موقف الإسلام من الشرك يومئذ موقف محنة، كان بين العدوتين الدنيا والقصوى في بدر مفرق الطريق، فإما أن يقود محمد زمام البشرية في سبيل الله فتنجو، وإما أن يردها أبو جهل إلى مجال التيه والضلال فتهلك، لذلك كان النصر في موقعة بدر حكماً قاطعاً من أحكام الله غير مجرى التاريخ، وعدل وجهة الدنيا، ومكن للعرب في دورهم أن يبلغوا رسالة الله، ويؤدوا أمانة الحضارة، ويصلوا ما انقطع من سلسلة العلم.

رمضان هو التمرين الرياضي للنفس، يشترك فيه المسلمون في جميع أقطار الأرض: يصومون في وقت واحد، ويفطرون في وقت

واحد، وينصرفون عن اللذات الحسية والنفسية ليتجهوا بالتأمل والتعبد والخشوع إلى الله، فيغضوا أبصارهم عن المنكر، ويكفوا ألسنتهم عن الفحش، ويصموا آذانهم عن اللغو، ويَغُلّوا أيديهم عن الأذى، ويصدوا أهواءهم عن السوء، وتلك هي العناصر الجوهرية لعقيدة الصوم، وهذه القيود والحدود التي تضمنها معنى الصوم هي المجاهدة التي تعود الإنسان ضبط النفس وقوة الإرادة.

وضعف الإرادة إنما يقوى برياضة النفس على الحرمان المؤلم، كما يقوى الجسد برياضة البدن على الجهد العنيف، وكما يقوي العقل برياضة الذهن على التفكير العميق، والرياضة الروحية هي حكمة الصيام في الأديان كلها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[1]، وتقوى الله ومجاهدة النفس هما الغاية من هذه الحكمة، وقد اجتمعتا في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴾[2]، فالخوف من الله هو التقوى، ونهي النفس عن الهوى هو المجاهدة، على أن للجوع أثراً شديداً في تصفية النفوس وتلطيف الطباع؛ لأن كدر النفس إنما يكون في الأكثر من كدر الجسد، وقد قالوا إن البطنة تفسد الفطنة، لذلك اتخذ كثير من أئمة الدين ورجال التصوف الجوع سبيلاً إلى تهذيب النفس وتقوية العقل وإذكاء الروح، قال الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ يصف العارف بالله: «قد أحيا عقله وأمات نفسه حتى دق جليله ورق غليظه» يريد بجليله بدنه الضخم وبغليظه طبعه الكثيف، وقال يحيى بن معاذ: «الجوع

(١) سورة البقرة: آية ١٨٣.
(٢) سورة النازعات: آية ٤٠ ـ ٤١.

للمريدين رياضة، وللتائبين تجربة، وللزاهدين سياسة، وللعارفين تكرمة».

فرمضان إذن رياضة للنفس بالتجرد، وثقافة للروح بالتأمل، وتوثيق لما وَهِي بين القلب والدين، وتقريب لما بعد بين المرفَّه والمسكين، ونفحة من نفحات السماء تنعم دنيا المسلمين بعبير الخلد وأنفاس الملائكة.

ورمضان ثلاثون عيداً من أعياد القلب والروح، تفيض أيامها بالسرور، وتشرق لياليها بالنور، وتفتر مجالسها بالأنس، ويغمر فيها الصائمين فيضٌ من الشعور الديني اللطيف يجعلهم بين صحوة القلب ونشوة الجسد في حال استغراق في الله، يتأملون أكثر مما يعملون، ويستمعون أكثر مما يتكلمون.

ورمضان بعد أولئك كله رباط اجتماعي وثيق يؤكد أسباب المودة بين أعضاء الأسرة بالتواصل والتعاطف، وبين أفراد الأمة بالتزاور والتآلف، وبين أهل الملة بذلك الشعور السامي الذي يغمرهم في جميع بقاع الأرض بأنهم يسيرون إلى غاية الوجود قافلة واحدة ممتزجة الروح متحدة العقيدة متفقة الفكرة متشابهة النظام متماثلة المعيشة.

هذه تحية صادقة لشهر رمضان المبارك كتبها مؤمن وقرأها مؤمنون، ولا يدري إلا الله ماذا تدخر مدنية المال ومادية العلم لهذه الروحية التي تتجلى في الصوم، ولهذه الغيرية التي تتمثل في الصائم!

وقى الله رمضان شر العلم الجاهل والدين الكاذب والتقليد الأعمى

والتمدن المشوه، وجدد الله به على المسلمين الأعوام المقبلة وهم ناعمون في ظلال الأمن، متمتعون بنعمة الوحدة، ظاهرون على بغي العدو[١].

(١) مجلة «الأزهر»: ٣٩: الجزء ٧، رمضان سنة ١٣٨٧، ص ٥٦١ ـ ٥٦٣ بتصرف.

استقبال رمضان
للأستاذ أحمد حسن الزيات

قال الأستاذ:

في هذا اليوم المبارك، استقبل المسلمون في أقطار الأرض شهرهم العظيم رمضان، استقبلوه بعد أحد عشر شهراً قضوها في صراع المادة وجهاد العيش، تكدر فيها القلب، وتبلد الحس، وتلوث الضمير؛ فهو يجلو صدورهم بالذكر، ويطهر نفسهم بالعبادة، ويزود قلوبهم من قوى الجمال والحق والخير بما يمسكها العام كله على فتنة الدنيا ومحنة الناس. وإذا كان المرهفون قد استقبلوا في إبريل ربيع الحواس، والمترفون قد استقبلوا في يونيو ربيع الغرائز، فإن المؤمنين استقبلوا في رمضان ربيع الأرواح، وربيع الحواس في الرياض زهور وعطور وفتنة، وربيع الغرائز على الشواطىء فجور وغرور ولذة، وربيع الأرواح في المساجد صيام وقيام ونسك، لذلك كان رمضان في الشرع الإلهي طهوراً من رجس العام، وهدنة في حرب القوت، وروحاً في مادية الحياة.

يستقبل المسلمون في رمضان ذكريين جليلتين لحادثتين خطيرتين كان لأولاهما أكبر الفضل في تقدم الإنسانية، وكان لأخراهما أقوى الأثر في نجاح الدعوة الإسلامية: ذكرى نزول القرآن الكريم في ليلة القدر، وذكرى انتصار المسلمين في غزوة بدر.

كان نزول القرآن في رمضان فرقاناً بين عهدين متغايرين: عهد ذل فيه الإنسان حتى عبد الحجر، وضل فيه العقل حتى استحب العمى، وفجرَ فيه الطغيان حتى أنكر الإنسانية، وعهد تدارك الله فيه عباده بلطفه، فهدى بنور دينه ضلال الفكر، وأقام بدستور شرعه ميزان العدل، ورفع بسلطان خلافته معنى الإحسان.

وكانت معركة بدر في رمضان حكماً قاطعاً من أحكام القدر غير مجرى التاريخ، وعدَّل وجهة الدنيا، ومكن للعرب في دَورهم أن يبلغوا رسالة الله، ويؤدوا أمانة الحضارة، ويصلوا ما انقطع من سلسلة العلم.

كان المسلمون في بدر على ضرهم وفقرهم ثلث المشركين، وكان المشركون ـ على كثرتهم وعدتهم ـ صفوة قريش، فموقف الإسلام من الشرك كان يومئذ موقف محنة، كان بين العُدوتين في بدر مفرق الطريق، فإما أن يقود محمد زمام البشرية في سبيل الله فتنجو، وإما أن يردها أبو جهل إلى مجاهل التيه والضلال فتهلك.

وقفت مدنية الإنسانية بأديانها وعلومها وراء محمد على القليب، ووقفت همجية الحيوان بأصنامها وأوهامها وراء أبي جهل على الكثيب، فكان طريق وعقبة، ونور وظلمة، وإله وشيطان؛ فإما أن يتمزق تراث الإنسانية على هذا الصخر، ويتبدد نور الله في هذا القَفْر، وإما أن تتم المعجزة فتفيض الحياة على الناس من هذه البئر، ويتصل الماضي بالمستقبل من هذه السبيل، ويبدأ التاريخ عهده الجديد بهذه الموقعة، ولقد أراد الله أن تتم المعجزة فانتصر ثلثمائة مسلم على قرابة ألف مشرك.

ويستقبل المسلمون في رمضان ثلاثين عيداً من أعياد القلب

والروح، تفيض أيامها بالسرور، وتشرق لياليها بالنور، وتفتر مجالسها بالأنس. ففي المدن يغمر الصائمين فيض من الشعور الديني اللطيف يجعلهم بين صحوة القلب ونشوة الجسد في حال استغراق في الله، يتأملون أكثر مما يعملون، ويستمعون أكثر مما يتكلمون، فإذا أمسى المساء وفرغوا من الطعام والصلاة انتشروا في المدينة بالبهجة والزينة؛ فالرجال يحضرون محافل القرآن أو السمر في البيوت أو في المنتديات، والنساء يوزعن الوداد على منازل القريبات والصديقات، والأطفال يُفْرحون بأناشيدهم ومصابيحهم الميادين والطرقات، والدور الباقية على العهد تتقرب إلى الله بالذكر والصدقات، والمساجد المقفرة طول العام تعج بالوعظ والصلوات، والمآذن الحالية بالمصابيح، الشادية بالتسابيح ترسل في أعماق الأبد نور الله وكلمته.

وفي القرى يرجع الفلاح في رمضان نقياً كقطرة المُزْن، طاهراً كفطرة الوليد، فلا يقتل ولا يسرق ولا يشهد الزور ولا يقول الهُجْر ولا يأتي المنكر، ثم تعتريه حال من الصوفية الشاعرة فيعف لسانه ويخشع قلبه وتلين يده، فلا تسمع منه لغواً في حديث، ولا عنفاً في جدل، ولا بغياً في خصومة، فإذا أذله الغضب فرفع صوته ندم عجلان واستغفر وقال: اللهم إني صائم!

وما أجمل أن ترى فاتك الأمس وقد أصبح ناسك اليوم يمشي من البيت إلى المسجد في ثوبه النظيف وئيدَ الخطو، غضيضَ الطرف، لا تترك السبحة يده، ولا يفْتُر عن التسبيح لسانه، حتى إذا قُضيت صلاة العصر جلسوا على المصاطب يستمعون القصص أو الوعظ إلى أن تؤذن الشمس بالمغيب، فيمدوا الموائد في الطريق أمام بيوتهم ويدعوا إليها

عابري السبيل وطالبي الصدقة؛ ثم لا يلبث الإخاء المحض أن يجعل الموائد المتعددة مائدة واحدة، يصيب منها من يشاء ما يشاء.

ويستقبل القاهريون في رمضان مظهراً قومياً رائعاً يعيد إلى القاهرة عز القرون المواضي، فيصبغ لونها الأوروبي الحائل بصبغة الشرق الجميلة، ويرفع صوتها الخافت بشعائر الصوم الجليلة، ويبرز شخصيتها الضائعة في زحمة الأجانب بالمظاهر الرسمية للحكومة، والتقاليد العرفية للشعب، وما أروع القاهرة في سكتتها عند الإفطار وجَلَبتها عند السحور وهِزّتها ساعة انطلاق المدفع!

أما إذا كان في دنيا الإسلام من يستقبل رمضان بالوجه الكالح والصدر الضيق واللسان الطويل والغيظ الخانق فهم ثلاثة:

الخمار الأجنبي، والشيطان المغوي، والمسلم المزيف:

فالأجنبي صاحب القهوة أو البار يستقبل في رمضان الكساد المحزن؛ لأن القهوة في النهار يكثر فيها الجلوس ويقل الطلب، والبار في الليل تهجره الكؤوس ويفارقه الطرب، ورمضان هو المسؤول؛ لأن السكير في رمضان لا يشرب، والمقامر في رمضان لا يلعب.

وصاحب القهوة مضطر بحكم الصنعة أن يقدم إلى الصائمين أدوات التسلية بالمجان حتى المغرب، وأن يقدم إلى المفطرين أكواب الماء المثلوج طول السهرة حتى السحر!

والشيطان يستقبل في رمضان حصناً من الخير لا يدخله الشر ولا تفتحه الرذيلة، فإذا حاول إبليس أن يدنو منه رده الذكر بالنهار، وصده القرآن بالليل، فيظل كما يعتقد القرويون مصفداً بالأغلال مقيداً بالسلاسل حتى ينطلق من إساره في آخر يوم من أيام رمضان.

والمسلم المزيف يستقبل في رمضان فطاماً لشهواته ولجاماً لغرائزه وقيداً لحريته؛ فهو يرميه بما يرميه به الأوربيون من قلة الإنتاج وكثرة الإهلاك وشل الحركة وقتل الصحة، فيشيح بوجهه عنه، ويتخذ لنفسه رمضان آخر رقيق الدين خفيف الظل باريسي الشمائل، يبيح النظرة الآثمة والكلمة العارية والأكلة الدسمة والكأس الدهاق والسيجار الغليظ، ولا يكلفه إلا أن يجعل عشاءه من باب المجاملة عند الغروب وبعد طلقة المدفع، وإذا كان في بيوت المحافظين قارىء يقرأ القرآن، وذاكر يذكر الله وساقٍ يقدم المرطبات، فليكن في بيت هذا الصنف من المسلمين مقصف يجمع ما حل وما حرم من لذائذ الحس، فتجتمع إليه زمر من السيدات والأوانس ومعهن أبناؤهن وإخواتهن من الأيفاع والشباب، فيعزف البِيان، ويخفق العود، وتشدو الكواعب، ويهزج الفواتغراف، ويدور الرقص على نمطية الشرقي والغربي، فتلتف السواعد على الخصور، وتلتصق الصدور بالصدور، وتمتزج أنفاس الخمور بأنفاس العطور، ويقف رمضان الأصيل من هذه المناظر المريبة وقفة شيخ من شيوخ الدين دفعت به الأقدار إلى ماخور.

وهكذا يَجِدّ العالم ونحن نلعب! كأنما كتب علينا أن نأخذ الحياة من جانبها الفضولي العابث فنتأثر بها ولا نؤثر فيها! وكأنما قضى الله أن تعيش صعاليك على تقاليد الأمم دون أن تميزنا خِصيصة من قومية ولا شعيرة من عقيدة! وكأنما عاقت شعائر التلمود القاسية وعقائد التوراة الصلبة أشتات اليهود من المغامرة والنبوغ والتقدم وتكوين دولة ما زلنا نقول إنها مزعومة، ولكنها أخذت تهدد بقوتها سلامة العرب، وتتحدى بأطماعها سيادة الشرق!

ذلكم أيها السادة موجز مما يقال في استقبال رمضان، وجدتموه ولا ريب أقل مما تحسونه في أنفسكم من الإجلال والإكبار والحب لهذا الشهر العظيم الكريم؛ ولكنها على كل حال تحية خالصة قالها مؤمن وسمعها مؤمنون، ولا يدري إلا الله ماذا تدخر مدنية المال ومادية العلم لهذه الروحية التي تتجلى في الصوم، ولهذا الغيرية التي تتمثل في الصائم.

وقى الله رمضاننا الكريم شر العلم الجاهل والدين الكاذب والتقليد الأعمى والتمدن المشوه! وجدد الله عليكم به الأعوام المقبلة يا ساداتي وأنتم ناعمون في ظلال الأمن ممتعون بنعمة العافية[١].

---

(١) مجلة «الرسالة»: العدد ٩٣٦، السنة ١٩، ٧ رمضان سنة ١٣٧٠.

شهر له فلسفة
للأستاذ محمد الغزالي[١]

قال الأستاذ:

فإن أياماً طيبة توشك أن تفد إلينا، ربما كانت الجمعة المقبلة اليوم الأول من رمضان، إن بشائر الموسم الكبير ـ موسم العبادة والتقوى ـ تهب علينا، وتستروحها قلوبنا، وإن كان المرء يتساءل ما أسرع ما عادت الأيام ورجعت الذكريات!!

وإذا ألقى الإنسان نظرة خلفه إن كان قد بلغ العشرين أو الثلاثين أو الأربعين أو الخمسين أو أكثر أو أقل فإنه يشعر أن الأيام التي عاشها والليالي التي قضاها قد تداخل بعضها في البعض، وأصبحت كتلة واحدة منكمشة مبهمة لا يدري بالضبط إلا أنها أصبحت ماضياً تركه خلفه ولن يعود!!.

الإحساس بالزمن غريب، لأن الناس يوم يلقون ربهم سيشعرون بأن الأعمار كلها وقد أصبحت ماضياً انكمشت وتداخلت أجزاؤها بعضها في

(١) الشيخ محمد الغزالي السقّا. عالم أزهري ورجل من رجال الإسلام الذين وقفوا أمام المؤامرات بحزم، وألف في هذا الباب عشرات الكتب، وهو غني عن التعريف، وقد توفي قريباً وهو يدافع عن الإسلام في مهرجان الجنادرية، رحمه الله تعالى.

البعض الآخر، وأصبحت شيئاً قليلاً: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

تكرر هذا المعنى في القرآن، فهو جل شأنه يتحدث عن الساعة: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾[2].

والواقع أن الإنسان يبقى على ظهر الأرض مدة طويلة، الطفل فيها يشب والشاب فيها يشيخ، ومع ذلك فالمرء ينظر إلى عمره الذي خلفه فلا يجد إلا أن هذا الماضي الطويل قد أصبح هذه الكتلة المنكمشة في زمن مبهم لا يدري أوله ولا آخره، ولكن الإنسان الذي لا يدري ما كان يجب أن يعلم أن الله يسجل عليه كل ما كان!! ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3].

وقد مرت سنة، ففي مثل هذه الأيام كنا نتهيأ لاستقبال شهر رمضان المبارك والآن نتهيأ لاستقبال شهر آخر حتى نلقى ربنا!!.

نرجو أن ننتفع من الزمن الذي هو رأس مالنا، هو هبة القدر الأعلى لنا، إنه لا يجامل، إنه إما صديق وإما عدو، صديق إن انتفعت به، وعدو إن أهملته وأضعته.

ورمضان يجيء، ولا نتحدث عنه طويلاً، إنما نريد أن نتحدث عن

---

(١) سورة المؤمنون: آية ١١٢ ـ ١١٤.
(٢) سورة طه: آية ١٠٢ ـ ١٠٤.
(٣) سورة الجاثية: آية ٢٩.

فلسفة الإسلام في العلاقة بين الروح والجسد، لمناسبة صيام المسلمين في رمضان؛ فإن هذا الصيام في حقيقته ترويض للغرائز البشرية العاتية فليس هناك أعتى من غريزة البطن التي تطلب الأكل باستمرار!! وليس هناك أعتى من غريزة الجنس التي تريد أن تنفس عن تطلعها باستمرار!!.

والبشرية قد تنكب نكبة قاصمة إذا هي لم تحسن تحديد موقفها من كلا الأمرين، والمتأمل في سير القافلة الإنسانية يجد أن هناك فلسفتين استطاعتا أن تسيطر على جماهير كثيفة من الناس، فلسفة مادية موغلة في المادة، وفلسفة روحية موغلة في الروح.

فأما الموغلون في الفكر المادي من ملحدين، ومن شيوعيين، ومن وجوديين ومن وثنيين، فإنهم يعيشون ليومهم الحاضر، ويطلقون العنان لغرائزهم فما تقف عند حد، إنهم يطلبون المتع!!.

وطبيعة البشر أنهم إذا أحرزوا نصيباً من الشهوة استهانوا بما أحرزوه وازدروه وطلبوا شيئاً أكثر وأعلى.

ولذلك فإن الشهوات البشرية مسعورة يسلم بعضها إلى بعض، ويتطلع من حاز قليلاً إلى كثير، ومن حاز الكثير إلى أكثر!! ومن هنا فإن القرآن هدد هؤلاء: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿... وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[(٢)].

إنهم في هذه الدنيا فارغو البال يجرون وراء نزواتهم، ويقطعون

(١) سورة الحجر: آية ٣.
(٢) سورة محمد: آية ١٢.

الطريق إليها في خفة، لكنهم يوم القيامة يدفعون ثمن هذا مرارة، يشعرون بغصتها في حلوقهم، ويقال لهم: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾[1].

هذه فلسفة مادية، هناك فلسفة روحية قامت على الرهبنة، ورأت أن من عبادة الله كبت الغريزة الجنسية، وسحق نوازعها، واعتبار القرب من الله على أساس أن يميت المرء في بدنه نوازع التطلع إلى الجنس الآخر، وأن يحيا بذلك رجلاً كان أو امرأة، وربما استعان على ذلك بتقليل الطعام حيناً، المهم أنهم دخلوا في معركة ضد الجسد البشريّ!! وهذه الفلسفة تبنتها الكنيسة المسيحية من قديم!!.

ولكن من التقرير للواقع أن نقول: إن الفلسفتين قاتلت إحداهما الأخرى، وإن عواصم الغرب الآن سحقت فلسفة الكنيسة، وتخلصت منها، وإن عواصم أوروبا الآن تنفق من وقتها، ومن مالها أغلب ما تكسب وقوداً لشهوات الجسد!! وإن فلسفة الروحانية اختفت، وإن الكنائس المسيحية ليس لها وارد حتى يوم الأحد، وإن المسيحية إذا كان لها وجود أو ازدهار فبين الأقليات التي تعيش في العالم الإسلامي!!.

ولذلك أسباب قد ندرسها فيما بعد، أما قصة إماتة الجسد، وقتل الغرائز بالرهبنة، فإن هذه القصة قد تلاشت، وتوشك الآن أن تنتهي بل إن الرهبنة نفسها أصبحت شيئاً يفر منه أصحابه سراً أو علناً!!.

والواقع أيضاً أن الإسلام كان ديناً منصفاً عندما احترم الروح والجسد معاً، وعندما اهتم بالخصائص العليا للإنسان، وفي الوقت

---

(١) سورة غافر: آية ٧٥.

نفسه كفل ضرورات الحياة للغرائز الدنيا، فجعلها تتحرك ولكن داخل إطار معلوم، وسياج حارس، وتقاليد ضابطة، وفضائل معروفة مقصاة، فترك الغريزة الجنسية تأخذ مداها في بيت الطاعة، في فراش الزوجية، ومنع ما وراء ذلك منعاً صارماً حاسماً!!.

وأباح للإنسان أن يأكل، ولكنه بين له أن القصد والعفاف خير له وأولى، وفي هذا يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

«كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مَخيلة» أي إسراف وخيلاء، كل والبس في غير إسراف ولا خيلاء.

صالح الإسلام بين الروح والجسد، فقال عليه الصلاة والسلام وهو يحافظ على جسده وروحه:

«اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة».

وقال فيما صح عنه: **«اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، لا إله إلا أنت»** الكفر ضياع الآخرة والفقر ضياع الدنيا!!.

والإسلام كفل الاثنين معاً: ﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٞۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1].

الإسلام في تعاليمه يريد تزكيتك، ورفع مستواك، فيطهرك جسداً

(١) سورة النحل: آية ٣٠.

بالغسل والوضوء، ثم يطهرك روحاً بالركوع والسجود!!

الإسلام جسد وروح، دنيا وآخرة.

وبين الإسلام حقيقة تعرف مع فلسفة الصيام، هذه الحقيقة أن الإنسان وإن كان قد نبت من الأرض جسده فإن قيمته ليست في هذا الجسد الذي يطعم ويكتسي، ولكن قيمته في الروح الذي يحركه، الإنسان من حيث هو جسد لا كرامة له، وما كلف أحد بأن يسجد له، إنما كان التكريم وتكليف الملائكة بالسجود له بعد شيء آخر، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[1].

فسجود الملائكة لآدم إنما كان بعد أن سواه ربه ونفخ فيه من روحه قبل أن ينفخ فيه من روحه، قبل أن يسويه بالعقل والشعور والإحساس كان طينة من الأرض، إذا تحركت بحياة حيوانية فلا وزن لها، إنما كرامة الإنسان في أنه نفخة من روح الله.

والناس بعد ذلك قسمان: قسم يعرف من نفخ فيه من روحه؟ من كرَّمه على سائر الخلق؟ قسم يعرف هذا، ويشكر وليَّ النعمة رب العالمين الذي سوى وكرم، هذا القسم هو المؤمن، عرف نسبه السماوي وعرف الفضل الأعلى الذي أسبغ عليه فهو جدير بأن يحترم وأن ينعم في دار الخلد.

وقسم آخر: نسي ربه، نسي من نفخ فيه من روحه، نسي من بَرَأَه من عدم، نسي هذا كله، ولذلك يعاتبه ربه ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ

---

(١) سورة ص: آية ٧١ ـ ٧٢.

ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾[١].

لماذا تنسى؟ إذا كان الإنسان وهو فرد يؤمن ويكفر، أو ينسى ربه أو يذكر، أو يجحد نسبه الأعلى أو يعترف به، فكذلك الحضارات، وأنا آسف إذ أقول: إن العالم الآن تنفرد بزمامه حضارات ذهلت عن ربها، ونسيت حقه!! فإما أنكرت هذه الحضارات رب العالمين بتة كما تفعل الشيوعية، أو اعترفت به على نحو مضحك كما جاء في العهد القديم عندما يوصف رب العالمين بانه أكل من الوليمة التي صنعها إبراهيم عندما ذبح له العجل السمين وقال له: يا رب إن كان عبدك له نعمة عندك فكل من وليمته، فأكل الله من وليمته!!

هذا النوع من تصوير الألوهية رفضه العقل الإنساني، فكانت النتيجة أن ناساً إما كفروا صراحة، وإما انتسبوا إلى أديان لم تملأ فراغهم النفسي فعاشوا بأفئدة فارغة، وكملوا هم طريقة معيشتهم واتجاه سلوكهم على ما يشتهون!!.

وهذا العالم تنقصه حضارة أخرى، حضارة تعترف بالروح والجسد، وتخدم الدنيا والآخرة، وتحدد حقوق الناس إلى جانب ما لرب العالمين من حقوق، هذه الحضارة هي الحضارة الإسلامية، وهي حضارة ليس لها الآن من دعاة في العالم، وليس لها من كيان أدبي محترم، وليس لها عالَم تَأْرِز إليه[٢]، وتستجمع فيه وتقدم نماذج من تكوينها المادي والأدبي لينظر الآخرون إليه، ويوازنوا بينه وبين غيره.

---

(١) سورة الانفطار: آية ٦ ـ ٨.
(٢) أي تأوي.

إن المدنية الإسلامية، أو الحضارة الإسلامية، أو المنطق الإسلامي في فلسفة الدنيا والآخرة، والروح والجسد غير قائم الآن؛ لأن الأمة الإسلامية أمة ممزقة، وليست لها وحدة ثقافية يتبناها معهد عريق يستطيع أن يقدم النضارة الروحية والمادية لهذه الحضارة العظيمة.

وكانت النتيجة أن بقي الناس كما وصف رب العالمين عند ظهور البعثة الأولى، أو عند ظهور محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[١].

ثم أكثر الناس لا يعلمون!! علماء الإسلام بين مقصرٍ يجبن عن أداء واجبه خوفاً على رزقه، أو خوفاً على أجله، أو كسلاً حيث يَجِدُّ الجد ويطلب الرجال أو إخلاداً إلى الأرض واتباعاً للهوى وطلباً للدنيا!!.

أما العلم الإسلامي كما ينبغي أن يقدم، فالواقع أن أجهزته بين معطوب وكسلان!! الفلسفة الإسلامية لم نجد إلى الآن من يقدمها للناس.

قال لي بعض الوافدين من عواصم أجنبية: والله لقد رأيت شباباً في «باريس» من الفرنسيين اعتنقوا البوذية ـ وما البوذية؟ نحلة مضحكة، نحلة وثنية ـ قال لي: وجدتهم حلقوا رؤوسهم على الطريقة البوذية حلقوها بالموسى وتركوا بعض الشعر في وسطها نامياً لكي يدل على أنهم بهذا بوذيون!!.

قلت: فهل للإسلام دعاة؟ لا، وبداهة امتداد الإسلام في هذه

(١) سورة الروم: آية ٣٠.

العواصم إنما هو فرع قوته في بلاده، والإسلام في بلاده شاحب الوجه، خائر القوة، محدود الخطو!!.

يجيء رمضان فتبدأ قصة الصيام، وأنا لا أعلق على صيام المسلمين لأني أعلم أن رمضان شهر الطعام لا شهر الصيام، شهر الأكل والمتع، وليس شهر تدريب الغرائز وتكوين الإرادات، دعنا من هذا فلا أتحدث عنه إنما أتحدث عن ليالي رمضان؛ فإن الله ـ جل شأنه ـ لأمر ما أنزل كتابه في هذا الشهر، بدأ نزول القرآن في شهر رمضان، وكان النبي ﷺ يضاعف من إقباله على القرآن الكريم، ومن مدارسته له، يضاعف فهو طول العام يقرأ القرآن، ولكنه في شهر رمضان يضاعف الدراسة، وكلمة الدراسة شيء آخر غير القراءة العابرة، أو التلاوة المجردة، لأن القراءة العابرة نوع من حفظ الحروف، التلاوة المجردة نوع من ترتيل الكلمات، لكن روح القرآن في معانيه، ويوم تقرع المعاني نفوس الناس، ومع ذلك تبقى هذه النفوس موصدة الأبواب، تبقى وعليها أقفالها فإن المشكلة كبيرة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾[1].

المسلمون لا يعرفون عظمة هذا الكتاب الذي شرفوا به، لكي نعطي لمحة من عظمة هذه الكتاب أقول لكم: إن الله جل شأنه جعل هذا الكتاب موازياً أو مساوياً للكون الذي نعيش فيه، عندما وصف نفسه، رأيت أنه ـ جل جلاله ـ وصف نفسه بأمرين: أمر يقول فيه: أنا خالق الكون، وأمر يقول فيه: أنا منزل الكتاب، فجعل خلق الكون وإنزال الكتاب صفتين كلتاهما تعادل الأخرى.

---

(١) سورة السجدة: آية ٢٢.

تأمل في قول الله تعالى وهو يذكر بركته، ويشرح نعمته، ويلفت النظر إلى ما في الوجود من ثمرات دانية القطوف، ومن آيات رائعة الدلالة يقول مرة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[(١)]، تبارك كثرت بركته. ويقول مرة أخرى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[(٢)].

فمرة تبارك من بيده الملك، ومرة تبارك من أنزل هذا القرآن، وعندما حمد ربنا نفسه، وأثنى على ذاته بما هو أهله قال مرة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[(٣)].

فبين أنه أهل الحمد لأنه خالق الكون، وموجد ما يتخلل الكون من ظلام ونور، ويقول مرة أخرى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾[(٤)].

كما وصف نفسه على هذا النحو، أقسم كذلك على هذا النحو، أقسم بعظمة الكون وأبعاده، وعلماء الفلك لهم حديث مذهل عن السنين الضوئية، وعما بين الكواكب من مسافات، تسمع رب العالمين وهو يقول: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(٥)].

---

(١) سورة الملك: آية ١.
(٢) سورة الفرقان: آية ١.
(٣) سورة الأنعام: آية ١.
(٤) سورة الكهف: آية ١.
(٥) سورة الواقعة: آية ٧٥ ـ ٨٠.

بمواقع النجوم أقسم، بالكون أقسم، ويتكرر القسم في مواضع أخرى من القرآن: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١). ويقول: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾(٢).

في هذه الآيات يصف رب العالمين الفترة قبل بزوغ الشمس وقبل مطلع الفجر والكون في حالة ترقب لليوم الجديد الذي يطل على الناس ليفتتحوا معه صفحة جديدة، إنه يقسم بهذه الحالة لكي يلفت النظر إلى أن من أراد الهدى ففي القرآن هداه!! ومن أراد الحق ففي القرآن أمله، ومن أراد النصر والعزة ففي القرآن ما ينشده: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾(٣).

نحب أن نقول: إن هذا الكتاب جاء إلى الناس حياة تذهب الموت الأدبي، الموت العقلي، الموت الحضاري!!.

الأمم محتاجة إلى عصر إحياء، فمن الذي يحييها؟

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ

---

(١) سورة الحاقة: آية ٣٨ ـ ٤٣.
(٢) سورة التكوير: آية ١٥ ـ ٢٢.
(٣) سورة فاطر: آية ١٠.

﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾(١).

ما مصدر هذا النور الذي نمشي به بين الناس؟ ما مصدر هذه الحياة التي أذهبت الموت الأدبي والمادي في الأمم؟.

إنه القرآن: القرآن الذي جاء إلى أمة على هامش الدنيا فما زال يرتفع بها حتى جعلها قمة الوجود!!.

أمة كان ترتيبها «١٣٠، ١٤٠» لو نظرنا إلى عدد الأمم في هيئة الأمم المتحدة الآن، أصبحت أمة رقم (١) في العالم!! ليست أمة رقم (١) سنة أو سنتين أو خمسين سنة، بل عدة قرون!!.

من الذي بوأها هذه المكانة؟ من الذي رفعها إلى هذا المستوى؟.

إنه القرآن الكريم، ولذلك فإن النبي ﷺ حض على دراسته، حض على قراءته قراءة بحث واستطلاع وتفقه وترتيل، لذلك كان القرآن في رمضان النور الذي تضاء به الليالي وتبيض.

ومن أعجب ما قرأت في وصف ليالي الصالحين الذين يقرأون القرآن، والذين ينتفعون بوعده ووعيده، وأمره ونهيه أبيات لشاعر من الشعراء وصف من يقومون الليل فقال:

تتجافى جنوبهم ... عن وطيء المضاجع
كلهم بين خائفٍ ... مستجير وطامع
تركوا لذَّة الكَرَى ... للعيون الهواجع
ورعَوا أنجم الدُّجى ... طالعاً بعد طالع

(١) سورة الأنعام: آية ١٢٢.

لـــو تـــراهـــم إذا هُـــمُ ... خـطـــروا بـــالأصـــابـــع
وإذا هـــــم تـــــأوَّهـــوا ... عـنـــــد مـــــر القـــــوارع
وإذا بـــــاشـــروا الثـــرى ... بـــالخـــدود الـضـــوارع
واستهلـــت عيـــونُهـــم ... فـــائضـــات المـــدامـــع
ودعــــوْا يـــا مليكنـــا ... يـــا جميـــل الصنـــائـــع
اعـــف عنـــا ذنـــوبنـــا ... للـــوجـــوه الخـــواشـــع
اعـــف عنـــا ذنـــوبنـــا ... للعيـــون الـــدوامـــع
أنـــت إن لـــم يكـــن لنـــا ... شـــافـــعٌ خيـــرُ شـــافـــع
فـــأُجيبـــوا إجـــابـــة لـــم ... تقـــع فـــي المســـامـــع
ليـــس مـــا تصنعـــونـــه ... أوليـــائـــي بضـــائـــع
تـــاجـــرونـــي بضـــاعتـــي ... تـــربحـــوا فـــي البضـــائـــع
وابـــذلـــوا لـــي نفـــوسكـــم ... إنهـــا فـــي ودائعـــي[1]

هذا قيام الليل في رمضان، بعد صيام كما وصف نبي الإسلام ﷺ صيام يرتفع به مستوى الصائم فيتحول في المجتمع إلى عنصر رحمة، إلى عنصر سلام، إلى عنصر طمأنينة وزكاة نفس وشرف خلق، ونضارة سيرة: «**وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل: إني امرؤ صائم**».

الرفث: هو الكلام العيب، الصخب: الكلام الذي لا معنى له ولا خير فيه، والذي هو ضجة ليس لها عقل.

---

(١) قال الأستاذ: من شعر ابن الرومي - ديوان ابن الرومي ٤/ ١٤٨٢، ١٤٨٣ طبعة دار الكتب.

إني صائم: أي لا يكون سباباً مع السبابين ولا شتاماً مع الشتامين.

هذا الشهر المقبل فيه فلسفة الإسلام في ربط الدنيا بالآخرة، ربط الروح بالجسد، ربط الأرض بالسماء، ربط البشر بالوحي الإلهي، ربط الدنيا بالكتاب الذي أضاء لها الطريق، وحدد لها الغاية!! شهر ينبغي أن يعرف المسلمون فضله، وأن يستعدوا له.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم[١].

---

(١) خطب الشيخ الغزالي: ١/ ١٨٧ ـ ٢٠٠، خطبه في شعبان سنة ١٣٩٣.

أيام العطاء

للدكتور توفيق الواعي

قال الدكتور:

تقبل علينا أيام لها في القلوب مكان، ولها في النفوس منازل، أيام خلدها القرآن وباركها الله سبحانه وتعالى، أيام يزاد فيها العطاء، ويرفع فيها الدعاء، وتغفر فيها الذنوب، أيام تكثر فيها الصلاة، وتفرض فيها الزكاة، ويقام فيها التهجد، أيام تتعلم منها النفوس الطاعة بعد الشرود والشفافية بعد القتامة والخشية من الله بعد الجحود، وردت فيها النفس إلى فطرتها رداً جميلاً.

ولقد كان من الطبيعي أن يفرض الصوم على الأمة التي يفرض عليها الجهاد، وتعد للرسالة، وتؤهل للقيادة، وللقوامة على البشرية؛ لأن الصوم هو مجال تقرير الإرادة العازمة الجازمة، التي تستطيع في ساعات الشدة أن تصبر على شهواتها، وأن تنتصر على هواجسها، أن تتنصل من الدنايا، فتكون في شبعها عابدة، وفي صيامها متبتلة، تستعلي على ضرورات الجسد كلها واحتمال ضغطها وثقلها إيثاراً لما عند الله من الفضل والجزاء، وهل يهلك النفوس اللاهثة إلا ثقل المادة الطاغي، وبريقها الساحر، وحديثها اللعوب، إن في الصوم العناصر

اللازمة لإعداد النفوس لاحتمال مشقات الطريق المرصع بالعقبات والأشواك، فالصيام عمل فيه ثواب، وطاعة لها جزاء، وعبادة عليها عطاء، إن رمضان شهر عظيم مبارك يصب فيه الخير صباً، فيه ليلة خير من ألف شهر، من تقرب فيه بخصلة من الخير كان من أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه، من فطر فيه صائماً، كان مغفرة لذنوبه، وعتق رقبته من النار، وكان له مثل أجره، أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار، تَنَزَّل فيه الوحي، وانهمرت في لياليه الآيات، ونزلت فيه الرسالة، وبعث فيه النور، وبدا فيه الحق، وزهق فيه الباطل، وصدق الله العظيم ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾(١).

إن رمضان كان فتحاً ونصراً، وعزاً وإعلاءً، ورجولة وتضحية، وفداء، وفي رمضان ذاق المسلمون طعم النصر الأول في بدر، وخرج المؤمنون بسلاح الإيمان وعدة اليقين، ودروع العقيدة، ومراكب الصبر وزاد التقوى كله، ولكن بعزم حديد، وبأس شديد، وإصرار عنيد، وقلب واثق ونفس مطمئنة.

انظر إلى سعد بن معاذ في هذا الموقف والرسول يستشير عند المعركة، يقول: «والله لكأنك تريدنا يا رسول الله، لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك عهودنا ومواثيقنا

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٥.

على السمع والطاعة، فامض يارسول الله لما أمرك الله به فخذ من أموالنا ما شئت، فما أخذت أحب إلينا مما تركت، وحارب بنا من شئت، وسالم بنا من شئت، إنا لصُبُرٌ في الحرب صُدُقٌ عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك».

وكان في رمضان فتح مكة بعد عناد طويل وضلال كبير، أتذكر نفوس الشرك الذليلة تحت أقدام الإيمان المنتصر والإسلام المرفرف، والعقيدة الخفاقة، فيقول الرسول لهم: ما تظنون أني فاعل بكم، فيقولون خيراً أخٌ كريم وابن أخٍ كريم، فيقول عليه الصلاة والسلام: أقول لكم كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء، رمضان الدعاء الطاهر، واللسان الذاكر، والقلب المسبح، والرحمة القريبة، والدعوة المستجابة، والعطاء الغامر، والتجليات المنهمرة، والنور المحيط، والقرآن الداوي، والآيات المحلقة، والذكر الحكيم ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾(١).

فهل يستجيب المسلمون، وهل يؤمنون حتى يكون الرشاد، أم يتسرب الخير ويتلاشى الفضل، ويضيع الزمان ويرجع الناس بالبعد والحسرة، عن كعب بن عجرة رضي الله عنه، عن الحسن بن مالك بن الحويرث عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: «صعد رسول الله ﷺ

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٦.

المنبر فلما رقى عتبة قال: آمين، ثم رقى الأخرى فقال: آمين، ثم رقى الثالثة فقال: آمين، ثم قال: أتاني جبريل عليه السلام فقال: يا محمد: من أدرك رمضان فلم يغفر له فأبعده الله، فقلت آمين، قال: ومن أدرك والديه أو أحدهما فدخل النار فأبعده الله، فقلت: آمين، قال: ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فأبعده الله فقلت آمين».

نرجو أن يأتي رمضان فنأخذ من أنواره، ونستفيد من آياته، ونأخذ من عظاته، ونقتبس من ذكرياته عسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده، فتسر القلوب المؤمنة ويفرح المؤمنون بنصر الله، آمين.

وسلام الله عليكم ورحمته وبركاته[1].

---

(١) «سلوك المسلم»: ١٩٩ ـ ٢٠١.



أثر رمضان
على السلوك الإنساني



خواطر حول شهر الصيام
الأصول الرئيسية التي تقوم عليها الهداية القرآنية
للأستاذ الإمام حسن البنا

قال الأستاذ:

نحمد الله تبارك وتعالى، ونصلِّي ونسلِّم على سيِّدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدِّين.

أيُّها الإخوة الفضلاء: أحيِّيكم بتحية الإسلام، تحية من عند الله مباركة طيبة، فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته:

في هذه الليلة التي تجاوز ختام شعبان نختم هذه السلسلة من المحادثات حول نظرات في القرآن ـ كتاب الله تبارك وتعالى ـ وإن شاء الله في العشر الأول من شوال نعود إليها، ونستفتح بذلك موسماً جديداً من مواسم المحاضرات الإخوانية، وسيكون موضوعها إن شاء الله: نظرات في السِّيرة النبوية والتاريخ الإسلامي.

هذا أيها الإخوان ورمضان شهر شعور وروحانية وتوجُّه إلى الله، وأنا أحفظ ـ فيما حفظت ـ أنَّ السلف الصالح كانوا إذا أقبل رمضان ودَّع بعضهم بعضاً حتى يلتقوا في صلاة العيد، وكان شعورهم: هذا شهر العبادة وشهر الصيام والقيام، فنريد أن نخلو فيه لربنا، والحقيقة أيها

الإخوان، إني حاولت أن أوجد فرصة نقضي فيها حديث الثلاثاء في رمضان فلم أجد الوقت الملائم، فإذا كنا قد قضينا معظم العام في نظرات في القرآن فأنا أحب أن نقضي رمضان في تطبيق هذه النظرات، خصوصاً وكثير من الإخوان يصلِّي التراويح، ويطيل فيها فيختم القرآن ختمة واحدة في رمضان، وهي طريقة بديعة، وفيها معنى من معاني الإفاضة، كان جبريل يدارس النبي ﷺ القرآن كل سنة مرة، وكان رسول الله ﷺ جواداً سخيّاً، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يدارسه جبريل القرآن، فإذا به ﷺ أجود من الريح المرسلة، وظلَّت هذه المدارسة حتى كان العام الذي اختير فيه رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، فعارضه جبريل القرآن مرَّتين، وكان هذا إيذاناً للنبي ﷺ بأن هذا ختام حياته في الدنيا.

ورمضان أيها الإخوة شهر قرآن، يقول فيه رسول الله ﷺ: «**الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي ربي منعته الطعام والشهوة فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعني فيه، قال: فيشفعان**» رواه الإمام أحمد والطبراني.

أيها الإخوان: إنَّ في نفسي فكرة أحب أن أتحدَّث فيها، ولما كنا على أبواب شهر الصوم فليكن الحديث منثورات وخواطر حول شهر الصيام.

أيها الإخوان: لقد تحدَّثنا طويلاً عن عاطفة الحب والتآخي التي ألف الله بها بين قلوبنا، والتي كان من أبرز آثارها هذا الاجتماع على الله، وإذا كنا سنحرم هذا اللقاء أربعة أسابيع أو أكثر فليس معنى هذا أن تخمد العاطفة أو تخبو أو ننسى أبداً ما كانت تفيض به قلوبنا ومشاعرنا في هذا المجلس الطيِّب من أسمى معاني العزَّة والتآخي في الله، بل أنا أعتقد أنها

ستظل متمثلة ومشتعلة في نفوسنا حتى نحظى بلقاء كريم بعد هذه الإجازة إن شاء الله، فإذا جاء أحدكم يصلِّي العشاء في ليلة الأربعاء لي رجاء أن يدعو لإخوانه بالخير، فلا تنسوا هذا، ثم أحب أن تذكروا أننا إذا كانت عاطفتنا ستتعطَّش إلى هذا اللقاء خلال هذه الأسابيع، فأحب أن تعلموا بأنها سترتوى من معين أفضل وأكمل وأعلى، وهو الاتصال بالله تبارك وتعالى، وهو خير ما يتمناه مؤمن لنفسه في الدنيا والآخرة.

فاحرصوا أيها الإخوة على أن تكون قلوبكم مجتمعة على الله تبارك وتعالى في ليالي هذا الشهر الكريم، فإنَّ الصوم عبادة احتجزها الله لنفسه «كل عمل ابن آدم له إلاَّ الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به»، وذلك يشير يا أخي إلى أنَّ كل الأعمال التي يقوم بها الإنسان فيها نوع من الفائدة الظاهرة الملموسة، وفيها كذلك شيء من حظ النفس، فقد تعتاد النفس الصلاة، فيكون من حظها أن تصلي كثيراً، وقد تعتاد الذكر فيكون حظها أن تذكر الله كثيراً، وقد تعتاد البكاء من خشية الله فيكون حظها أن تبكي كثيراً، أما الصوم يا أخي فليس فيه إلاَّ الحرمان، وهو بريء من كل الحظوظ، فإذا كنا سنحرم من أن يلقى بعضنا بعضاً فإننا سنسعد كثيراً بمناجاة الله عزَّ وجلّ، والوقوف بين يديه تعالى خصوصاً في صلاة التراويح.

وتذكَّروا أيها الإخوان دائماً أنكم صائمون امتثالاً لأمر الله تبارك وتعالى واجتهدوا أن تصاحبوا ربكم بقلوبكم في هذا الشهر الكريم، فرمضان أيها الإخوة شهر فاضل حقّاً، وله منزلة كبرى عند الله تبارك وتعالى أشاد بها في كتابه الكريم: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٥.

والآية هنا يا أخي تجد في آخرها: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، فالصيام فائدة لا ضرر فيها، وقد رتَّب الله على إكمالها هداية منه لعبده، فإذا وفقك الله لإكماله في طاعة الله كانت هداية وكانت هدية تستحق الشكر وتكبير الله على تلك الهداية: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، ثم انظر يا أخي إلى ما ترتَّب على هذا كله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(١).

هنا يا أخي ترى أنَّ الحق تبارك وتعالى قد وضع هذه الآية في هذا الموضع ليدل على أنه تبارك وتعالى أقرب ما يكون لعبده في هذا الشهر الفاضل.

ولقد ميَّز الله تعالى شهر رمضان، وجاءت فيه الآيات والأحاديث، قال ﷺ: «**إذا جاء شهر رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النيران، وصفدت الشياطين، ثم نادى مناد من قبل الحق تبارك وتعالى: يا باغي الشر أقصر، ويا باغي الخير هلم**».

فتحت يا أخي أبواب الجنة لإقبال الناس على الطاعة والعبادة والتوبة فيكثر أهلوها... وصفدت الشياطين أي غلت، لأنَّ الناس سيكونون منصرفين إلى الخير، فلا تستطيع الشياطين شيئاً، فأيام رمضان يا أخي وليالي رمضان هي مواسم تشريفات من قبل الحق تبارك وتعالى ليزداد المحسنون فيها إحساناً، ويتعرَّض المسيئون فيها لفضل الله تبارك وتعالى فيغفر الله لهم، ويجعلهم من المحبوبين المقرَّبين.

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٦.

إنَّ أفضل فضائل هذا الشهر الكريم وأكرم خصائصه وغرره، أنَّ الله تبارك وتعالى قد اختاره ليكون وقتاً لنزول القرآن، هذه ميزة امتاز بها شهر رمضان، ولهذا أفردها الله تبارك وتعالى بالذكر في كتابه، فقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[1].

وهناك رابطة معنوية وحسِّيَّة بين نزول القرآن وشهر رمضان، هذه الرابطة هي: كما أنه أنزل القرآن في رمضان، فقد فرض فيه الصيام؛ ذلك لأنَّ الصيام معناه حرمان للنفس من شهواتها وأهوائها، فهذا انتصار للمعنى الروحي في النفس على المعنى المادي فيها، ومعنى هذا يا أخي أنَّ النفس والروح والفكر الإنساني سيتخلَّص في رمضان من مطالب الجسم ومقومات الحياة البدنية، فالروح الإنساني في هذه الحالة على أصفى ما يكون، لأنها غير مشغولة بالشهوات والأهواء، وتكون أكثر ما تكون استعداداً للفقه والتلقِّي عن الله تبارك وتعالى ولهذا كانت قراءة القرآن أفضل العبادات عند الله تبارك وتعالى في هذا الشهر الكريم: رمضان.

وبهذه المناسبة أيها الإخوة ألخِّص لحضراتكم نظراتنا في كتاب الله تبارك وتعالى في كلمات قصيرة.

أيها الإخوان الفضلاء: إنَّ المقاصد الأساسية في كتاب الله تبارك وتعالى، والأصول الرئيسية التي تقوم عليها الهداية القرآنية أربعة:

إصلاح العقيدة:

إنك تجد يا أخي أنَّ القرآن الكريم قد أكثر من الآيات التي تفصل

(١) سورة البقرة: آية ١٨٥.

العقيدة وتلفت الأنظار إلى ما يجب أن يتركَّز في نفس الإنسان المؤمن تركُّزاً حقيقيّاً لينتفع بها في الدنيا والآخرة، العقيدة في أنَّ الله تبارك وتعالى هو الواحد القهَّار المتَّصف بالكمال كله، المنزَّه عن النقائص كلها، ثم الاعتقاد باليوم الآخر لتحاسب كل نفس على ما قدَّمت وأخَّرت، ولو جمعت يا أخي الآيات الخاصة بالعقائد في القرآن لوجدتها أكثر من ثلث القرآن، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾[1].

وكلما قرأت يا أخي في هذه السورة تجد هذا المعنى يعترضك، وقال سبحانه وتعالى في سورة المؤمنون: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ۝٨٩ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾[2].

وقال تعالى في سورة المؤمنون أيضاً: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة: آية ٢١ ـ ٢٢.
(٢) سورة المؤمنون: آية ٨٤ ـ ٩٠.
(٣) سورة المؤمنون: آية ١٠١ ـ ١٠٣.

وقال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾(٣).

هذه الآيات يا أخي تبيِّن اليوم الآخر بياناً واضحاً يلين معه القلب القاسي.

تنظيم العبادات:

وأنت يا أخي تقرأ عن العبادات قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾(٦).

---

(١) سورة الزلزلة: آية ١ ـ ٨.
(٢) سورة القارعة: آية ١ ـ ٣.
(٣) سورة التكاثر: آية ١ ـ ٤.
(٤) سورة البقرة: آية ٤٣.
(٥) سورة البقرة: آية ١٨٣.
(٦) سورة آل عمران: آية ١٩٧.

وقوله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾(١).

إلى غير ذلك من الآيات.

تنظيم الأخلاق:

وتقرأ يا أخي عن تنظيم الأخلاق قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾(٤).

فتجد يا أخي أنَّ مكارم الأخلاق منثورة في كتاب الله تبارك وتعالى وأنَّ الوعيد على رذائلها وعيد شديد: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾(٥).

وهذه القوانين أيها الإخوة هي في الواقع أرقى ما عرف الناس ذلك؛

(١) سورة نوح: آية ١٠.
(٢) سورة الشمس: آية ٧ ـ ٨.
(٣) سورة الرعد: آية ١١.
(٤) سورة الرعد: آية ١٩ ـ ٢٢.
(٥) سورة الرعد: آية ٢٥.

لأنَّ فيهـا كل مـا يريده النـاس لتنظيم شـؤون مجتمعهـم، فإنك حيـن تستعرض طائفة من الآيات تجد هذه المعاني واضحة بيِّنة، فهذا ربع «الخمـر» الـذي يبـدأ بقـول الله تعـالـى: ﴿۞يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾[1].

هذا الربع يا أخي قد اشتمل على أكثر من خمسة وعشرين حكماً عمليّاً: الخمر، الميسر، اليتامى، إنكاح المشركين والمشركات، الحيض، الإيمان، الإيلاء، الطلاق، الرجعة، الخلع، النفقة إلى غير ذلك من الأحكام الكثيرة تجدها يا أخي في ربع واحد؛ لأنَّ سورة البقرة قد نزلت لتنظيم المجتمع الإسلامي في المدينة.

أيها الإخوة الأحبَّاء: اتَّصلوا بكتاب الله، وناجوا ربكم بكتاب الله، وليضع كل منا هذه الأصول الأساسية التي ألمحت إليها فإنها ستفيدك يا أخي كثيراً وتنتفع بها إن شاء الله تعالى، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم[2].

---

(١) سورة البقرة: آية ٢١٩.

(٢) «حديث الثلاثاء»: ١٤٦ ـ ١٥١

خُلُق الصائم
للأستاذ عبدالوهاب خلاف[(١)]

قال الأستاذ:

روى البخاري وأبو داود عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

«من لم يدَع قول الزور والعملَ به فليس لله حاجةٌ في أن يدعَ طعامَه وشرابَه».

الزور: الكذب والبهتان والافتراء. واللفظ مأخوذ من الزَوْر والازورار، أي الميل والانحراف؛ يقال في اللغة العربية: ازور عن الشيء وتزاور عنه، أي مال وانحرف. ومنه التزوير وهو زخرفة القول والانحراف به عن الحق. وسُمي الكذب زوراً لأنه ميل عن الصدق وانحراف عن مطابقة الواقع. وقد جاء لفظ الزور في القرآن الكريم في أربعة مواضع:

ففي سورة الحج: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾[(٢)].

---

(١) عبد الوهاب بن عبد الواحد خلاف. فقيه مصري. ولد سنة ١٣٠٥ بكفر الزيات، كان أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق ومفتشاً في المحاكم الشرعية، وأحد أعضاء مجمع اللغة العربية، تخرج في مدرسة القضاء الشرعي ودرس بها ثم انتقل إلى القضاء، له عدة تصانيف، توفي سنة ١٣٧٥ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٤/ ١٨٤.

(٢) الآية (٣٠).

وفي سورة الفرقان قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾(١).

وفي سورة الفرقان قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾(٢).

وفي سورة المجادلة قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ ﴾(٣).

وهذا الهدي النبوي الحكيم فيه إرشاد الصائم إلى ما ينبغي أن يتخلق به وأن يتخذه شعاراً لعبادته، وفيه إرشاد المسلم إلى أن العبادات ما هي إلا وسائل لصلاح حال الناس وأمن كل فرد على نفسه وعرضه وماله وكل حقوقه.

فكل عبادة فرضها الله على المسلمين ليس المقصود منها مجرد هيكلها المادي وصورتها الظاهرية، وإنما المقصود منها روحها ولبُّها الذي يهذب الخلق ويصلح النفس، ويباعد بينها وبين الشرور والآثام.

فليس المقصود من الصلاة مجرد قيام وقعود، وركوع وسجود، وتكبير وتسبيح، وإنما المقصود منها استحضار ألوهية الواحد الأحد، وتذكر عظمته وقدرته، ونعمته ورحمته؛ وبهذا الذكر الدائم المتكرر كل يوم يخشى المسلم عذاب ربه ويرجو رحمته، وعن هذا الخوف والرجاء يقاوم نفسه الأمارة بالسوء، وينتهي عن الفحشاء والمنكر.

---

(١) الآية (٤).
(٢) الآية (٧٢).
(٣) آية (٢).

وليس المقصود من الصوم مجرد الكف عن شهوتي البطن والفرج من قبيل طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وإنما المقصود منه السمو بالنفس إلى المستوى الملائكي، وصون الحواس عن الشرور والآثام، فالكف عن الطعام والشراب ما هو إلا وسيلة إلى كف اللسان عن السب والشتم والصخب، وإلى كف اليد عن الأذى، وإلى كف البصر عن النظرة الخائنة، وإلى كف السمع عن الإصغاء للغيبة والنميمة والقول المنكر.

فالمقصود من الصيام أن يكون رياضة تَحُدُّ من سَورة النفس[١] البهيمية، لتقوى في الإنسان ناحيته الملائكية، والشعار الملائكي: لا فحش ولا منكر، ولا زور، ولا كذب، ولا أذى، وعن هذا عبر رسول الله بقوله: «**مَن لم يَدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**» لأنه إذا ترك طعامه وشرابه وما ترك كذبه ولا افتراءه ولا غشه ولا تدليسه ولا إيذاءه فقد جاع وما صام، وحقق الهيكل المادي للصوم وأهمل روحه، وعُني بالصورة الشكلية الظاهرية وما عُني بالحكمة الإلهية المقصودة، والله غني عن العبد وعبادته، وما كلف عبده بما كلفه به إلا لمصلحة العباد أنفسهم، فإذا كانت عبادتهم مجرد صور وأشكال فهي لا تحقق ما قصده الله من تعبدهم بها.

وما أبلغ قول الرسول ﷺ: «**من لم يدع قول الزور والعمل به**» لأن الزور ـ أي الكذب والافتراء ـ كما يكون بالقول يكون بالعمل، فالكذب ودعوى الإنسان ما ليس حقاً له، وإنكاره ما هو حق عليه، وشهادة الإنسان بغير الحق، وكل ما يقوله الإنسان وهو باطل غير مطابق للواقع

---

(١) أي من شدة النفس.

هو من قول الزور والغش والتدليس وتلفيق التهم على الأبرياء والسعي بالفساد بين الناس، وكل عمل هو ميل عن الحق هو من العمل بالزور؛ والمقصود من الصيام الكف عن قول الزور وعمل الزور.

ورب قائل: لماذا خص الرسول قول الزور والعمل به مع أن سائر الشرور والآثام مثله، وعلى الصائم أن يدعها ويكف عنها جميعاً؟

ولنا في الجواب عن هذا السؤال طريقان:

فإما أن يكون الرسول قد خص قول الزور تفظيعاً لأمره؛ وقد جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم بأكبر الكبائر؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال**: الشرك بالله، **وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس وقال: ألا وشهادة الزور، ألا وقول الزور...**».

وإما أن يكون المراد بالزور معناه اللغوي ـ وهو الميل والانحراف عن الحق والطريق المستقيم بقول أو عمل ـ ولا ريب في أن كل إثم قولي أو عَملي هو انحراف عن الجادة، فهو زور؛ فكأن الرسول قال: مَن لم يَدع كل ميل عن الصراط المستقيم بقول أو عمل.

وقوله ﷺ: «**فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**» كناية عن أن صومه ليست له ثمرة؛ لأن الله سبحانه لا يكلف المسلم بأن يصوم لأنه يقصد أن يشق عليه بالجوع والعطش، وإنما يشق عليه بالجوع والعطش ليداويه من أمراض نفسية وآفات خلقية؛ فإذا جاع وعطش ونفسه على مرضها وسوئها فما حقق حكمة الله في التكليف، ويؤيد هذا ما رواه الحاكم وصححه من أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس الصيام من الأكل والشرب، إنما الصيام من اللغو والرفث**» وما رواه الحاكم وصححه من أن رسول الله ﷺ قال: «**رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش،**

ورب قائم حظه من قيامه السهر».

وهذا الحديث يقرر أصلاً ثابتاً من أصول الدين وهو أن العبادة لا تتحقق على الوجه الأكمل بمجرد استكمال أركانها وشروطها التي تتكون منها صورتها، وإنما تتحقق على الوجه الأكمل باستكمال أركانها وشروطها التي تتكون منها صورتها وبمراعاة حكمتها وروحها وسرها التي يتحقق بها الغرض المقصود للشارع منها. ويلفت إلى ما ينبغي أن يكون عليه الصائم من صون للسانه عن الكذب والزور، وكف لجوارحه عن الشرور، وإلى أنه كما يجب عليه أن يتحرج من وصول طعام أو شراب إلى جوفه، يجب عليه أن يتحرج من صدور منكر من الأقوال والأفعال منه، ولعله إذا قهر نفسه الأمارة بالسوء وسلم الناس من لسانه ويده في رمضان اعتاد هذا الخير، وكان لرمضان أثره المحمود في نفس الصائم في عامه كله، وفي عمره كله(١).

---

(١) مجلة «لواء الإسلام»: العدد ١، السنة الخامسة، رمضان سنة ١٣٧٠، ص ١١ ـ ١٣. =

رمضان والصيام

للأستاذ الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني[١]

قال الأستاذ:

١ـ الطلعة الميمونة:

أهلاً بطلعتك الميمونة أيها الشهر الكريم، ومرحباً بطالعك السعيد أيها الضيف العظيم، وهنيئاً بزيارتك المباركة أيها الطبيب الحاذق والآسي الحكيم، لقد أطل علينا نجمك من سمائه ينادي على الدهر وهو طائر بقافلة البشر، من غير اكتراث ولا حذر، أن قفْ ـ يا دهر ـ بأبناء البشرية رويداً، فقد أرهقتهم بمفاتنك، وخدعتهم ببهارجك، واستعبدتهم بغرورك، وشغلتهم حتى عن علاج أنفسهم وتغذية أرواحهم، وسلخت من عامهم أحد عشر شهراً كاملة تشابهت أيامها ولياليها، وطفحت أحداثها بمآسيها، كفى كفى يادهر، فقد أجعتهم من كثرة ما أكلوا، واظمأتهم من طغيان ما شربوا، وأرقتهم من طول ما ناموا، وأتعبتهم أضعاف أضعاف ما استراحوا، قف ـ يا دهر ـ بأمر من خلقني وخلقك، فإن الناس أكرم على الله من أن يتركهم فريسة لختلك

---

(١) محمد عبد العظيم الزُرقانيّ، من علماء الأزهر بمصر، تخرج من كلية أصول الدين وعمل بها مدرساً لعلوم القرآن والحديث، له عدة مصنفات نافعة، توفي رحمه الله تعالى سنة ١٣٦٧. انظر «الأعلام»: ٦/ ٢١٠.

وخداعك[١]، وهو سبحانه أرحم بهم من أن يُغرقهم بشهواتك وأحداثك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

هنالك وقف الدهر وسكن، وجنح إلى الهدنة وركن، ولكنه وقف بالمرصاد ينتهز الفرصة، وينتظر الكرة، فماذا أنت صانع أيها الإنسان؟

٢ـ لماذا نصوم؟

لقد علم ربك أنك مخلوق في وسط متدفق بالمنغصات والألم، متشبع بالمتاعب والأهوال، ولا بد لانتصارك في هذا الميدان من أن تجالد وتجاهد، وتكافح وتنافح، وتبذل وتصبر، وتضحي وتثبت، وأنى يكون لك ذلك وأنت ضعيف الإرادة، منحل العزيمة، وضيع الهمة، ناقص الرجولة؟ لا ريب أن هذا الكمال، لا يكون إلا من وهاب الكمال.

لهذا فرض عليك فريضة الصيام ليقوي من إرادتك، ويشُدَّ من عزيمتك ويرفع من همتك، ويكمل من رجولتك، فتصير مسلحاً بقوة الإرادة، مزوداً بذخيرة الشجاعة، مستعداً استعداداً صالحاً لخوض ذلك العباب، ومغامرة هاتيك الصعاب.

نعم، قالت لك شريعته الغراء: جُعْ فلا تأكل واعطش فلا تشرب، وامكث كذلك سحابة كل يوم من أيام رمضان، واستعن بالله ولا تعجز، وانو هذا الصيام من الليل، واعزم وصمِّمْ، واصدُق ولا تتردد؛ ثم قالت: إن الله لم يحرِّم عليك الزاد والماء لتتعذب، ولكن لتتهذب، فإذا تمرنت

---

(١) لا أظن أن الشيخ الزرقاني ـ وهو من هو جلالة وعلماً ـ يريد من كلامه تنقص الدهر فقد نهينا عن سب الدهر، ولكنه الأسلوب الأدبي الذي قد يسوق صاحبه إلى ما لا يقصد ولا يريد، والله تعالى أعلم.

(٢) سورة البقرة: آية ١٤٣.

على ترك ما هو ضروري لوجودك، سهل عليك ترك الشهوات والمعاصي وهي ليست من ضروريات وجودك، بل إنها بالعكس جناية على حياتك وخطر على وجودك، وإذا كنت قد صبرت على هجر الطعام بمجرد العزم والتصميم على الصيام؛ فأنت بهذه الإرادة نفسها تكون أشد اصطباراً على مقاطعة القبيح ومجانبة الحرام، إذاً فاترك المناكر واهجر السفاسف، وتلك حكمة من حكم الله في تشريع الصوم، ولهذا يقول ﷺ: «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**» رواه البخاري وأبو داود عن أبي هريرة، والزور هو الباطل.

٣ـ حكمة ثانية:

ولقد علم ربك ـ أيضاً ـ أن الإنسان سريع الطغيان، وأن طغيانه أشكال وألوان، فألزمه سبحانه الصوم حتى إذا جاع وظمىء ذلَّت نفسه، وانصدع كبره وفخره، وأحس أنه ـ مهما أوتي ـ فهو عبد مسكين تُقعده اللقمة إذا فُقدت، وتُضعفه جرعة الماء إذا مُنعت، هنالك يُطامن من غروره، ويعترف بفضل الله عليه حتى في كسرة الخبز ورشفة البحر، ومتى عرف الله خافه، ومتى خافه استقام على الطريقة، وسار على الجادة، وترك ما كان فيه من بغي واستطالة وعلو في الأرض بغير الحق، وآثر رضوان الله على ترضية نفسه وصار رسول رحمة وسلام لكل من حوله من أبناء الإنسانية، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[1].

وقال ﷺ: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا**

(١) سورة العلق: آية ٦ ـ ٧.

مجاريه بالجوع»، روى صدرَ هذا الحديث البخاري ومسلم.

٤ـ حكمة ثالثة:

ولقد علم ربك أيضاً أن الإنسان كثير النسيان لإخوانه البؤساء، قليل العطف على المُعْوِزين والفقراء، فأمره بالصوم حتى يذوق شيئاً من آلامهم، ويُحس بؤسهم ويشعر بوَجْدهم[١]، فإذا رأى أنه لم يصبر على الجوع وحده يوماً كاملاً وتقدَّم إليه في آخره ألوان الطعام والشراب، أدرك ـ إن كان فيه إحساس ـ كيف لا يستطيع أولئك البؤساء أن يصبروا على الجوع وغير الجوع عاماً كاملاً أو عمراً طويلاً لم يقدم لهم فيه لون من تلك الألوان في الطعام والشراب.

ولهذا حث الشارع على الجود والكرم، والإحسان والعطف خصوصاً في رمضان، وكان ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، لهذا ـ أيضاً ـ شرع الله زكاة الفطرة في ختام رمضان؛ لأن هذا البذل حكمة مقصودة من تشريع الصيام. . .

ومن عرف قيمة الزكاة وأثرها في تقليل الجرائم وتقوية صفوف الأمة، وتحسين الروابط بين الأغنياء والفقراء، وصد تيار الاشتراكية المتطرفة، والشيوعية الطاغية، من عرف هذا تجلت له حكمة الإسلام في عنايته بذلك الواجب الاجتماعي الحيوي والتذرع له بكثير من الوسائل حتى بفرض الصيام على الغني ليشارك أخاه البائس في ألمه، تمهيداً لإشراكه إياه في شيء من ماله.

إن هذه لمعجزة كبرى من معجزات الإسلام الاجتماعية ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ

---

(١) الوَجْد: الألم والحزن.

حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[١].

٥ـ حكمة رابعة وخامسة:

على أن في الصوم تعويداً للناس على النظام حتى في الأكل والشرب، فتكون لهم مواقيت لطعامهم، وأخرى لأعمالهم وهلم جرّا، ولا يليق بهم أن يتركوا الأمر للمصادفات والفوضى فيأكلوا أو يشربوا بغير ميعاد وبدون حساب، فإن ذلك مفسدة للصحة، ومتلفة للمال، ومضيعة للمصالح، وجناية على الفرد ثم على المجموع.

ولا تنس أن الصوم فيه تطهير للأمعاء من الرواسب السامة التي ثبت طبياً أنه لا يحللها إلا الجوع، وفي الحكمة: «المعدة بيت الداء والحِمْية رأس الدواء» والحِمية ـ بكسر فسكون ـ هي ترك الطعام.

٦ـ النص الكريم:

ولقد جمع الله كل تلك الحكم وغيرها في آية واحدة من كتابه الكريم فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾[٢].

فنادى الله عباده في هذه الآية ذلك النداء الفخْم الذي يهز المشاعر، ويثير الانتباه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ثم فرض الصوم عليهم، وألزمهم إياه، وهونه عليهم بثلاثة أمور:

أولها: إن الصوم دواء عام كتبه الله على كل أمة معلوم أن الأمر متى عم هان حتى لو كان من نوع البلاء، فما بالك وهو من نوع الدواء.

---

(١) سورة فصلت: آية ٤٢.

(٢) سورة البقرة: آية ١٨٣ ـ ١٨٤.

ثانيها: إن فيه مصالح تعود على البشر لا على الله، ففيه تقويم الإرادة وتهـذيـب النفس، واستـدرار العطـف، وتـأييـد النظـام، وحفـظ الصحة، على نحو ما شرحنا، وفيه فوق ذلك ما الله أعلم به، وكله مدلول عليه بتلك الكلمة الحكيمة الجامعة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فإن التقوى اسم يجمع كل خير وفضيلة: «كل الصيد في جوف الفرا».

ثـالثهـا: إن أيـام الصيـام أيـام محصـورة يعـدهـا العـاد ويحصيهـا المحصي، ومتى قلت الأيام وانحصرت سهل على الإنسان صيامها وقيامها ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

٧ـ أدب الصائم:

أما بعد فإن رمضان غنيمة فابتدرها، وفرصة فانتهزها، إنه الشهر الذي أنزل فيه القرآن ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾، وفيه ليلة واحدة هي ليلة القدر، العمل الصالح فيها خير من العمل الصالح في ألف شهر، وقد أخفاها الله تعالى ولم يعينها لتجتهد في ليالي الشهر كله، فشمر عن ساعد الجد، وتعرض لنفحات الله ورحماته، وسابق إلى إحراز مزايا هذا الشهر وحسناته، ثم إياك وقول الزور وعمل الزور فقد سمعت قول الرسول ﷺ آنفاً، اجتهد أن يكون قولك حقاً، ومشيك حقاً، ونظرك حقاً، وسمعك حقاً وعملك كله حقاً، وإياك والعبث والهذر، فإن الساعة ساعة جد لا هزل، وكفاك أحد عشر شهراً،

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٥.

نقرأ في القرآن الكريم ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[1].

ونقرأ في صحيح البخاري أنه ﷺ قال: «**الصيام جُنّة**» أي وقاية وتهذيب لا مجرد جوع وتعذيب. «**فلا يَرفُث**» أي لا يتلوث الصائم بالشهوات النسائية. «**ولا يجهل**» أي لا يتكلم كلام الجاهلين، ولا يتخلق بأخلاق الجاهلين. «**وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم مرتين**» أي لا يليق بالصائم أن يقابل السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح، ويستعين على ذلك بأن يذكر أنه صائم، والصائم عابد والعابد لا ينبغي له مسايرة الجاهل في جهله، وليكرر الصائم هذه الذكرى لنفسه ولخصمه.

«**والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**» الخلوف بفتح الخاء وهو تغير رائحة فم الصائم بعد الزوال، فتلك التي تكرهها من الصائم هي أطيب عند الله من ريح المسك، وذلك لشرف الصيام.

ثم ذكر الرسول عليه السلام أن الله تعالى يقول في الحديث القدسي «**يترك**» أي الصائم «**طعامه وشرابه وشهوته من أجلي**» أي أن هذا جهاد عظيم من الصائم يستحق به عظيم الأجر «**الصيام لي وأنا أجزي به، والحسنة بعشر أمثالها**» أي إن الذي يتولى مكافأة الصائم هو الله تعالى نفسه لا يكله إلى ملك، ولا يحصى جزاءه بعدد، ومعلوم أن الكريم إذا تولى العطاء بنفسه أجزل، وإذا أعطى من غير عدد أكثر وأفضل، وما ذلك بعجيب، فإن الصوم نوع جليل من أنواع الصبر، والله تعالى يقول في

---

(١) سورة الإسراء: آية ٣٦.

كتابه العزيز: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١].

ولا تنس أن تحيى ليالي رمضان بالصلاة والقيام وقراءة القرآن أو سماعه أو حضور عظاته ودروسه فإن ذلك غذاء نافع لروحك، وقوة كبيرة في دينك، وقد قال ﷺ: «**من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**» رواه البخاري[٢].

---

(١) سورة الزمر: آية ١٠.

(٢) مجلة «الهداية الإسلامية»: ١١٣ ـ ١١٨.

مدرسة الثلاثين يوماً
للمرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعي(١)

قال الأستاذ:

لم أقرأ لأحد قولاً شافياً في فلسفة الصوم وحكمته؛ أما منفعته للجسم، وأنه نوع من الطب له، وباب من السياسة في تدبيره، فقد فرغ الأطباء من تحقيق القول في ذلك، وكأن أيام هذا الشهر المبارك إن هي إلا ثلاثون حبة تؤخذ في كل سنة مرة، لتقوية المعدة وتصفية الدم وحياطة أنسجة الجسم.

ولكننا الآن لسنا بصدد من هذا وإنما نستوحي تلك الحقيقة الإسلامية الكبرى التي شرعت هذا الشرع لسياسة الحقائق الأرضية الصغيرة، عاملة على استمرار الفكرة الإنسانية فيها، كي لا تتبدل النفس على تغير الحوادث وتبدلها، ولكيلا تجهل الدنيا معاني الترقيع إذا أتت على هذه الدنيا معاني التمزيق.

ومن معجزات القرآن الكريم أنه يدخر في الألفاظ المعروفة في كل

---

(١) مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد الرافعي، عالم بالآداب، من كبار الكتاب وشاعر، أصله من طرابلس الشام ومولده في بَهْتِيم ـ بمصر ـ سنة ١٢٩٨، أصيب بصمم، شعره فيه جفاف ونثره من الطراز الأول، توفي في طنطا سنة ١٣٥٦، رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٧/ ٢٣٥.

زمن حقائق غير معروفة لكل زمن، فيجليها لوقتها حين يضج الزمان العلمي في متاهته وحيرته، فيشغب على التاريخ وأهله مستخفاً بالأديان، ويذهب يتتبع الحقائق، ويستعصي في فنون المعرفة، ليستخلص من بين كفر وإيمان ديناً طبيعياً سائغاً، يتناول الحياة أول ما يتناول فيضبطها بأسرار العلم، ويوجهها بالعلم إلى غايتها الصحيحة ويضاعف قراءها بأساليبه الطبيعية، ليحقق في إنسانية العالم هذه الشيئية المجهولة التي تتوهمها المذاهب الاجتماعية ولم يهتد إليها مذهب منها ولا قاربها، فما برحت سعادة الاجتماع كالتجربة العلمية بين أيدي علمائها: لم يحققوها ولم ييأسوا منها، وبقيت تلك المذاهب كعقارب الساعة في دورتها: تبدأ من حيث تبدأ، ثم لا تنتهي إلا إلى حيث تبدأ.

يضطرب الاشتراكيون في أوروبا وقد عجزوا عجز من يحاول تغيير الإنسان بزيادة ونقص في أعصابه، ولا يزال مذهبهم في الدنيا مذهب كتب ورسائل، ولو أنه تدبروا حكمة الصوم في الإسلام لرأوا هذا الشهر نظاماً عمليّاً من أقوى وأبدع الأنظمة الاشتراكية[1] الصحيحة، فهذا الصوم فقر إجباري تفرضه الشريعة على الناس فرضاً ليتساوى الجميع في بواطنهم، سواء منهم من ملك المليون من الدنانير ومن ملك القرش الواحد ومن لم يملك شيئاً، كما يتساوى الناس جميعاً في ذهاب كبريائهم الإنسانية بالصلاة التي يفرضها الإسلام على كل مسلم، وفي ذهاب تفاوتهم الاجتماعي بالحج الذي يفرضه على من استطاع.

---

(١) قال الأستاذ: سنناقش أمثال هذه التعابير في رسالة قادمة إن شاء الله.
قلت: كان زمان الرافعي زمان خلط في المفاهيم والإطلاقات، وإلا فالإسلام بريء من الاشتراكية كل البراءة.

فقر إجباريّ يراد به إشعار النفس الإنسانية بطريقة عملية واضحة كل الوضوح، إن الحياة الصحيحة وراء الحياة لا فيها، وإنها إنما تكون على أتمها حين يتساوى الناس في الشعور لا حين يختلفون، وحين يتعاطفون بإحساس الألم الواحد لا حين يتنازعون بإحساس الأهواء المتعددة.

ولو حققت رأيت الناس لا يختلفون في الإنسانية بعقولهم، ولا بأنسابهم ولا بمراقبهم، ولا بما ملكوا، وإنما يختلفون ببطونهم وأحكام هذه البطون على العقل والعاطفة، فمن البطن نكبة الإنسانية. . .

ومن ههنا يتناوله الصوم بالتهذيب والتأديب والتدريب ويجعل الناس فيه سواء: ليس لجميعهم إلا شعور واحد وحس واحد وطبيعة واحدة، ويحكم الأمر فيحول بين هذا البطن وبين المادة، ويبالغ في إحكامه. . .

وبهذا يضع الإنسانية كلها في حالة نفسية واحدة تتلبس بها النفس في مشارق الأرض ومغاربها، ويطلق في هذه الإنسانية كلها صوت الروح يعلم الرحمة ويدعو إليها، فيشبع فيها بهذا الجوع فكرة معينة هي كل ما في مذهب الاشتراكية من الحق، وهي تلك الفكرة التي يكون عنها مساواة الغني للفقير من طبيعته، واطمئنان الفقير إلى الغني بطبيعته، ومن هذين الاطمئنان والمساواة يكون هدوء الحياة بهدوء النفسين اللتين هما السلب والإيجاب في هذا الاجتماع الإنساني، وإذا أنت نزعت هذه الفكرة من الاشتراكية بقي هذا المذهب كله عبثاً من العبث في محاولة جعل التاريخ الإنساني تاريخاً لا طبيعة له.

من قواعد النفس أن الرحمة تنشأ عن الألم، وهذا بعض السر

الاجتماعي العظيم في الصوم؛ إذ يبالغ أشد المبالغة، ويدقق كل التدقيق في منع الغذاء وشبه الغذاء عن البطن وحواشيه مدة آخرها آخر الطاقة، فهذه طريقة عملية لتربية الرحمة في النفس، ولا طريقة غيرها إلا النكبات والكوارث، فهما طريقتان كما ترى مبصرة وعمياء، وخاصة وعامة، وعلى نظام وعلى فجأة.

ومتى تحققت رحمة الجائع الغني للجائع الفقير أصبح للكلمة الإنسانية الداخلية سلطانها النافذ، وحكم الوازع النفسي على المادة، فيسمع الغني في ضميره صوت الفقير يقول «أعطني» ثم لا يسمع منه طلباً من الرجاء، بل طلباً من الأمر لا مفر من تلبيته والاستجابة لمعانيه، كما يواسي المبتلى من كان في مثل بلائه.

أية معجزة إصلاحية أعجب من هذه المعجزة الإسلامية التي تقضي أن يحذف من الإنسانية كلها تاريخ البطن ثلاثين يوماً في كل سنة، ليحل في محله تاريخ النفس(١) وأنا مستيقن أن هناك نسبة رياضية هي الحكمة في جعل هذا الصوم شهراً كاملاً من كل اثني عشر شهراً، وإن هذه النسبة متحققة في أعمال النفس للجسم، وأعمال الجسم للنفس، كأنه الشهر الصحي الذي يفرضه الطب في كل سنة للراحة والاستجمام وتغيير المعيشة لإحداث الترميم العصبي في الجسم، ولعل ذلك آت من العلاقة بين دورة الدم في الجسم الإنساني وبين القمر منذ يكون هلالاً إلى أن يدخل في المحاق؛ إذ تنتفخ العروق وتربو في النصف الأول من الشهر

(١) قال الأستاذ: أفسد ضعف النفوس هذا المعنى، فما يحقق الناس تاريخ البطن كما يحققونه في شهر رمضان، وهم يعوضون البطن في الليل ما منعوه في النهار، حتى جعلوا الصوم تغييراً لمواعيد الأكل، ولكن الصوم على ذلك لم يحرمهم فوائده.

كأنها في مد من نور القمر ما دام هذا النور إلى زيادة، ثم يراجعها الجزر في النصف الثاني حتى كأن الدم إضاءة وظلاماً، وإذا ثبت أن للقمر أثراً في الأمراض العصبية وفي مد الدم وجزره[١] فهذا من أعجب الحكمة في أن يكون الصوم شهراً قمرياً دون غيره.

وفي ترائي الهلال ووجوب الصوم لرؤيته معنى دقيق آخر، وهو مع إثبات رؤية الهلال وإعلانها ـ إثبات الإرادة وإعلانها، كأنما انبعث أولُ الشعاع السماوي في التنبه الإنساني العام لفروض الرحمة والإنسانية والبر.

وهنا حكمة كبيرة من حِكَم الصوم، وهو عمله في تربية الإرادة وتقويتها بهذا الأسلوب العملي الذي يدرب الصائم على أن يمتنع باختياره من شهواته ولذة حيوانيته ويبقيه مصراً على الامتناع، متهيئاً له بعزيمته، صابراً عليه بأخلاق الصبر، مزاولاً في كل ذلك أفضل طريقة نفسية لاكتساب الفكرة الثابتة ترسخ لا تتغير ولا تتحول، ولا تعدو عليها عوادي الغريزة.

وإدراك هذه القوة من الإرادة العملية منزلة اجتماعية سامية، هي في الإنسانية فوق منزلة الذكاء والعلم، ففي هذين تعرض الفكرة مارة مرورها ولكنها في الإرادة تعرض لتستقر وتتحقق، فانظر في أي قانون من القوانين وفي أية أمة من الأمم تجد ثلاثين يوماً من كل سنة قد فرضت فرضاً لتربية إرادة الشعب ومزاولته فكرة نفسية واحدة بخصائصها

(١) قال الجاحظ في «الحيوان»: ولزيادة القمر حتى يصير بدراً أثر بَيِّنٌ في زيادة الدماء والأدمغة وجميع الرطوبات.

وملابساتها حتى تستقر وترسخ وتعود جزءاً من عمل الإنسان، لا خيالاً يمر برأسه مرًّاً.

أليست هذه هي إتاحة الفرصة العملية التي جعلوها أساساً في تكوين الإرادة؛ وهل تبلغ الإرادة ـ فيما تبلغ ـ أعلى من منزلتها حين تجعل شهوات المرء مذعنة لفكره، منقادة لوازع النفس فيه، مصرّفة بالحس الديني المسيطر على النفس ومشاعرها؟

أما والله لو عم هذا الصوم الإسلامي أهل الأرض جميعاً لآل معناه أن يكون إجماعاً من الإنسانية كلها على إعلان الثورة شهراً كاملاً في السنة لتطهير العالم من رذائله وفساده، ومحق الأثرة والبخل فيه، وطرح المسألة النفسية ليتدارسها أهل الأرض دراسة عملية مدة هذا الشهر بطوله، فيهبط كل رجل وكل امرأة إلى أعماق نفسه ومكامنها، ليختبر في مصنع فكره معنى الحاجة ومعنى الفقر، وليفهم في طبيعة جسمه ـ لا في الكتب ـ معاني الصبر والثبات والإرادة، وليبلغ من ذلك وذلك درجات الإنسانية والمواساة والإحسان، فيحقق بهذه وتلك معاني الإخاء والحرية والمساواة.

شهر هو أيام قلبية في الزمن، متى أشرفت على الدنيا قال الزمن لأهله: هذه أيام من أنفسكم لا من أيامي، ومن طبيعتكم لا من طبيعتي، فيقبل العالم كله على حالة نفسية بالغة السمو، يتعهد فيها النفس برياضتها على معالي الأمور ومكارم الأخلاق، ويفهم الحياة على وجه آخر غير وجهها الكالح، ويراها كأنما أجيعت من طعامها اليومي كما جاع هو، وكأنّما ألزمت معاني التقوى كما ألزمها هو، وما أجمل وأبدع أن تظهر الحياة في العالم كله ـ ولو يوماً واحداً ـ حاملة في يدها السبحة! فكيف بها على ذلك شهراً من كل سنة؟

إنها ـ والله ـ طريقة عملية لرسوخ فكرة الخير والحق في النفس، وتطهر المجتمع من خسائس العقل المادي، ورد هذه الطبيعة الحيوانية المحكومة في ظاهرها بالقوانين والمحررة من القوانين في باطنها ـ إلى قانون من باطنها نفسه ـ يطهر مشاعرها، ويسمو بإحساسها، ويصرفها إلى معاني إنسانيتها، ويهذب من زياداتها ويحذف كثيراً من فضولها، حتى يرجع بها إلى نحو من براءة الطفولة، فيجعلها صافية مشرقة بما يجتذب إليها من معاني الخير والصفاء والإشراق؛ إذ كان من عمل الفكرة الثابتة في النفس أن تدعو إليها ما يلائمها ويتصل بطبيعتها من الفكر الأخرى، والنفس في هذا الشهر محتبسة في فكرة الخير وحدها، فهي تبني بناءها من ذلك ما استطاعت.

هذا على الحقيقة ليس شهراً من الأشهر، بل هو فصل نفساني كفصول الطبيعة في دورانها، وهو ـ والله ـ أشبه بفصل الشتاء في حلوله على الدنيا بالجو الذي من طبيعته السُّحب والغيث، ومن عمله إمداد الحياة بوسائل لها ما بعدها إلى آخر السنة، ومن رياضته أن يكسبها الصلابة والانكماش والخفة، ومن غايته إعداد الطبيعة للتفتح عن جمال باطنها في الربيع الذي يتلوه.

وعجيب جداً أن هذا الشهر الذي يدخر فيه الجسم من قواه المعنوية فيودعها مصرف روحانيته، ليجد منها عند الشدائد مدد الصبر والثبات والعزم والجلد والخشونة عجيب جداً أن هذا الشهر الاقتصادي هو من أيام السنة هو كفائدة ٨,٣٣٪[1] فكأنه يسجل في أعصاب المؤمن حساب قوته وربحه فله في كل سنة زيادة ٨,٣٣٪ من قوته المعنوية الروحانية.

---

(١) وهي نسبة شهر رمضان لشهور السنة كلها.

وسحر العظائم في هذه الدنيا إنما يكون في الأمة التي تعرف كيف تدخر هذه القوة وتوفرها، ليستمدها عند الحاجة، وذلك هو سر أسلافنا الأولين الذين كانوا يجدون على الفقر في دمائهم وأعصابهم ما تجد الجيوش العظمى اليوم في مخازن الأسلحة والعتاد والذخيرة.

كل ما ذكرته في هذا البحث من فلسفة الصوم فإنما استخرجته من هذه الآية الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١).

وقد فهمها العلماء جميعاً على أنها معنى «التقوى» أما أنا فأولتها من «الاتقاء» فبالصوم يتقي المرء على نفسه أن يكون كالحيوان الذي شريعته معدته، وألا يعامل الدنيا إلا بمواد هذه الشريعة، ويتقي المجتمع على أنسانيته وطبيعته مثل ذلك، فلا يكون إنسان مع إنسان كحمار مع إنسان: يبيعه القوة كلها بالقليل من العلف.

وبالصوم يتقي هذا وهذا ما بين يديه وما خلفه، فإن ما بين يديه هو الحاضر من طباعه وأخلاقه، وما خلفه هو الجيل الذي سيرث من هذه الطباع والأخلاق فيعمل بنفسه في الحاضر، ويعمل بالحاضر في الآتي(٢).

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٣.

(٢) قال الأستاذ: يفسر القرآن بعضه بعضاً، ومن معجزاته في هذا التأويل الذي استخرجناه أنه يؤيده بالآية الكريمة في سورة يس: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. ويشير إلى هذا التأويل قول النبي ﷺ: «**إنما الصوم جُنَّة ـ بضم الجيم ـ فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل، وإن أمرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم، إني صائم**».

والجُنة: الوقاية يتقي بها الإنسان، والمراد أن يعتقد الصائم أنه قد صام ليتقي شر حيوانيته =

وكل ما شرحناه فهو اتقاء ضرر لجلب منفعة، واتقاء رذيلة لجلب فضيلة وبهذا التأويل تتجه الآية الكريمة جهة فلسفية عالية، لا يأتي البيان ولا العلم ولا الفلسفة بأوجز ولا أكمل من لفظها، ويتوجه للصيام على أنه شريعة اجتماعية إنسانية عامة، يتقي بها المجتمع شرور نفسه، ولن يتهذب العالم إلا إذا كان له مع القوانين النافذة هذا القانون العام الذي اسمه الصوم، ومعناه: «قانون البطن».

ألا ما أعظمك يا شهر رمضان! لو عرفك العالم حق معرفتك لسمَّاك «مدرسة الثلاثين يوماً»[1].

= وحواسه، فقوله: **«إني صائم، إني صائم»**: أي إني غائب عن الفحش والجهل والشر، إني في نفسي ولست في حيوانيتي.

(١) «مجلة التمدن الإسلامي»: الأجزاء ٢١ ـ ٢٤، المجلد ٢٩، سنة ١٣٨٢، ص٤٤٣ ـ ٤٤٩ بتصرف يسير.

التقوى غاية الصيام الكبرى
للأستاذ الشهيد سيد قطب[1]

قال الأستاذ:

لقد كان من الطبيعي أن يفرض الصوم على الأمة التي يفرض عليها الجهاد في سبيل الله لتقرير منهجه في الأرض، وللقوامة به على البشرية وللشهادة على الناس، فالصوم هو مجال تقرير الإرادة العازمة الجازمة، ومجال اتصال الإنسان بربه اتصال طاعة وانقياد، كما أنه مجال الاستعلاء على ضرورات الجسد كلها، واحتمال ضغطها وثقلها، إيثاراً لما عند الله من الرضى والمتاع.

وهذه كلها عناصر لازمة في إعداد النفوس لاحتمال مشقات الطريق المفروش بالعقبات والأشواك، والذي تتناثر على جوانبه الرغبات والشهوات والذي تهتف بالسالكين آلاف المغريات!

---

(١) سيد بن قطب بن إبراهيم. مفكر إسلامي مصري. ولد في أسيوط سنة ١٣٢٤. تخرج في كلية دار العلوم بالقاهرة سنة ١٣٥٣ وعمل في جريدة الأهرام، وكتب في بعض المجلات الأدبية، وعين مدرساً للعربية ثم تنقل في الوظائف الحكومية. انضم إلى الإخوان المسلمين سنة ١٣٧٣، ثم سجن فعكف على تأليف صفوة كتبه في سجنه، ثم أعدم بعد ذلك سنة ١٣٨٧ في زمان الانصراف إلى القوميات الفاجرة الكافرة، رحمه الله تعالى وتقبله شهيداً. وانظر «الأعلام»: ٣/ ١٤٧ ـ ١٤٨.

وذلك كله إلى جانب ما يتكشف على مدار الزمان من آثار نافعة للصوم في وظائف الأبدان؛ ومع أنني لا أميل إلى تعليق الفرائض والتوجيهات الإلهية في العبادات ـ بصفة خاصة ـ بما يظهر للعين من فوائد حسية؛ إذ الحكمة الأصيلة فيها هي إعداد هذا الكائن البشري لدوره على الأرض، وتهيئته للكمال المقدر له في حياة الآخرة، مع هذا فإنني لا أحب أن أنفي ما تكشف عنه الملاحظة أو يكشف عنه العلم من فوائد لهذه الفرائض والتوجيهات، وذلك ارتكاناً إلى الملحوظ والمفهوم من مراعاة التدبير الإلهي لكيان هذا الإنسان جملة في كل ما يفرض عليه وما يوجه إليه، ولكن في غير تعليق لحكمة التكليف الإلهي بهذا الذي يكشف عنه العلم البشري، فمجال هذا العلم محدود لا يتسع ولا يرتقي إلى استيعاب حكمة الله في كل ما يروض به هذا الكائن البشري، أو كل ما يروض به هذا الكون بطبيعة الحال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[1].

إن الله سبحانه يعلم أن التكليف أمر تحتاج النفس البشرية فيه إلى

(١) سورة البقرة: آية ١٨٣ ـ ١٨٥.

عون ودفع واستجاشة لتنهض به، وتستجيب له، مهما يكن فيه من حكم ونفع؛ حتى تقتنع به وتراض عليه.

ومن ثم يبدأ التكليف بذلك النداء الحبيب إلى المؤمنين، المذكر لهم بحقيقتهم الأصلية، ثم يقرر لهم ـ بعد ندائهم ذلك النداء ـ أن الصوم فريضة قديمة على المؤمنين بالله في كل دين، وأن الغاية الأولى هي إعداد قلوبهم للتقوى والشفافية والحساسية والخشية من الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

وهكذا تبرز الغاية الكبرى من الصوم: إنها التقوى، فالتقوى هي التي تستيقظ في القلوب وهي تؤدي هذه الفريضة، طاعة لله، وإيثاراً لرضاه، والتقوى هي التي تحرس هذه القلوب من إفساد الصوم بالمعصية ـ ولو تلك التي تهجس في البال ـ والمخاطبون بهذا القرآن يعلمون مقام التقوى عند الله، ووزنها في ميزانه، فهي غاية تتطلع إليها أرواحهم، وهذا الصوم أداة من أدواتها، وطريق موصل إليها، ومن ثم يرفعها السياق أمام عيونهم هدفاً وضيئاً يتجهون إليه عن طريق الصيام: و ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

ثم يثني بتقرير أن الصوم أيام معدودات، فليس فريضةَ العمر وتكليف الدهر، ومع هذا فقد أعفى من أدائه المرضى حتى يصحوا، والمسافرون حتى يقيموا، تخفيفاً وتيسيراً: ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾.

وظاهر النص في المرض والسفر يطلق ولا يحدد، فأي مرض وأي سفر يسوغ الفطر، على أن يقضي المريض حين يصح والمسافر حين يقيم، وهذا هو الأولى في فهم هذا النص القرآني المطلق، والأقرب إلى

المفهوم الإسلامي في رفع الحرج، ومنع الضرر، فليست شدة المرض ولا مشقة السفر هي التي يتعلق بها الحكم إنما هي المرض والسفر إطلاقاً، لإرادة اليسر بالناس لا العسر، ونحن لا ندري حكمة الله كلها في تعليقه بمطلق المرض ومطلق السفر، فقد تكون هناك اعتبارات أخرى يعلمها الله ويجهلها البشر في المرض والسفر، وقد تكون مشقات أخرى لا تظهر للحظتها، أو لا تظهر للتقدير البشري، وما دام الله لم يكشف عن علة الحكم فنحن لا نتأولها، ولكن نطيع النصوص ولو خفيت علينا حكمتها، فوراءها ـ قطعاً ـ حكمة، وليس من الضروري أن نكون نحن ندركها.

يبقى أن القول بهذا يخشى أن يحمل المترخصين على شدة الترخص، وأن تهمل العبادات المفروضة لأدنى سبب، مما جعل الفقهاء يتشددون ويشترطون، ولكن هذا ـ في اعتقادي ـ لا يبرر التقييد فيما أطلقه النص، فالدين لا يقود الناس بالسلاسل إلى الطاعات، إنما يقودهم بالتقوى وغاية هذه العبادة خاصة هي التقوى، والذي يفلت من أداء الفريضة تحت ستار الرخصة لا خير فيه منذ البدء؛ لأن الغاية الأولى من أداء الفريضة لا تتحقق، وهذا الدين دين الله لا دين الناس، والله أعلم بتكامل هذا الدين بين مواضع الترخص ومواضع التشدد، وقد يكون وراء الرخصة في موضع من المصلحة ما لا يتحقق بدونها، بل لا بد أن يكون الأمر كذلك، ومن ثم أمر رسول ﷺ أن يأخذ المسلمون برخص الله التي رخصها لهم.

وإذا حدث أن فسد الناس في جيل من الأجيال فإن إصلاحهم لا يتأتى من طريق التشدد في الأحكام، ولكن يتأتى من طريق إصلاح

تربيتهم وقلوبهم واستحياء شعور التقوى في أرواحهم، وإذا صح التشدد في أحكام المعاملات عند فساد الناس كعلاج رادع، وسدٍ للذرائع، فإن الأمر في الشعائر التعبدية يختلف؛ إذ هي حساب بين العبد والرب، لا تتعلق به مصالح العباد تعلقاً مباشراً كأحكام المعاملات التي يراعى فيها الظاهر، والظاهر في العبادات لا يجدي ما لم يقم على تقوى القلوب، وإذا وجدت التقوى لم يتلفت متلفت، ولم يستخدم الرخصة إلا حيث يرتضيها قلبه، ويراها هي الأولى، ويحس أن طاعة الله في أن يأخذ بها في الحالة التي يواجهها.

أما تشديد الأحكام جملة في العبادات أو الميل إلى التضييق من إطلاق الرخص التي أطلقتها النصوص، فقد ينشىء حرجاً لبعض المتحرجين، في الوقت الذي لا يجدي كثيراً في تقويم المتفلتين، والأولى على كل حال أن نأخذ الأمور بالصورة التي أرادها الله في هذا الدين، فهو أحكم منا وأعلم بما وراء رخصه وعزائمه من قريبة وبعيدة، وهذا هو جماع القول في هذا المجال.

وقد جعل الصوم للمسافر والمريض في أيام أخر لكي يتمكن المضطر من إكمال عدة أيام الشهر، فلا يضيع عليه أجرها:

﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾.

والصوم على هذه نعمة تستحق التكبير والشكر:

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

فهذه غاية من غايات الفريضة، أن يشعر الذين آمنوا بقيمة الهدى الذي يسره الله لهم، وهم يجدون هذا في أنفسهم في فترة الصيام أكثر من كل فترة، وهم مكفوفو القلوب عن التفكير في المعصية، ومكفوفو

الجوارح عن إتيانها، وهم شاعرون بالهدى ملموساً محسوساً، ليكبروا الله على هذه الهداية، وليشكروه على هذه النعمة، ولتفيء قلوبهم إليه بهذه الطاعة، كما قال لهم في مطلع الحديث عن الصيام: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١).

(١) مجلة «البعث الإسلامي»: العدد ٤، المجلد ١٥، رمضان سنة ١٣٩٠، ص ٣٦ ـ ٤٠.

المعاني الإيجابية في الصوم

للأستاذ محمد عبدالله دراز

قال الأستاذ:

إن ما في الصوم من كبت وحرمان، ليس هدفه هذا الكبت والحرمان، وإنما الصوم وسيلة إلى غاية نبيلة.

إنه التدريب على السيادة والقيادة: قيادة النفس وضبط زمامها، وكفها عن أهوائها ونزواتها.

بل إنه التسامي بتلك القيادة إلى أعلى مراتبها، فلقد كنت في بحبوحة الإفطار إنما تحمي جوفك عن تناول السحت والخبيث، فأصبحت في حظيرة الصوم تفطمه حتى عن الحلال الطيب.

ولقد كنت تكف لسانك عن الشتم والإيذاء فأصبحت اليوم تصونه حتى عن رد الإساءة، وعن إجابة التحريش والاستفزاز، فإن خاصمك أحد أو شاتمك لم تزد على أن تقول: إني صائم، إني صائم.

هكذا ملكت بالصوم زماميْ شهوتك وغضبك، وإنه لصبر يجر إلى صبر، ونصر يقود إلى نصر.

فلئن كان الصوم قد علمك أن تصبر اليوم طائعاً مختاراً في وقت الأمن والرخاء، فأنت غداً أقدر على الصبر والمصابرة في البأساء والضراء وحين البأس.

ولئن كان الصوم قد علمك كيف تنتصر اليوم على نفسك، فلقد أصبحت به أجدر أن تنتصر غداً على عدوك.

وتلك عاقبة التقوى التي أراد الله أن يرشحك لها بالصيام، إن شريعة الصوم عبادة ذات شطرين، وليس شطرها الأول إلا تمهيداً وإعداداً لشطرها الثاني، إنها شجرة جذعها الصبر، وأغصانها الشكر، وأوراقها وثمارها الذكر والفكر.

وإن من تأمل كلمة التقوى التي عبر عنها القرآن في حكمة الصيام يجدها منطوية على هذين الشطرين، فهي في شطرها الأول: كف وانتهاء، وابتعاد واجتناب، لكنها في شطرها الثاني إقبال واقتراب، وإنشاء وبناء.

وهذا الجانب الإيجابي هو الشطر الثاني لشريعة الصوم، ولما جعل الله شهر الصوم موسماً لانطلاق الروح من عقالها، فتح فيه للأرواح بابين تندفق منهما: باباً إنسانياً وباباً ربانياً:

فأما انطلاق الروح من الباب الإنساني فذلك أنه أرشدنا إلى أن يكون زهدنا في الطعام والشراب ليس قبضاً وإمساكاً بالحفظ

والادخار، بل بسطاً وسخاء بالبذل والإيثار.

وأما انطلاق الروح من الباب الرباني فذلك أن الإسلام فتح فيه للطاعة مسالك مسلوكة: تسبيح وتحميد، وتكبير وتمجيد، تضرع وابتهال، ودعاء وسؤال، ركوع وسجود، وقيام وتشمير ونهوض[1].

(١) مجلة «التمدن الإسلامي»: الأجزاء ٢١ ـ ٢٤، المجلد ٢٩، سنة ١٣٨٢، ص٤٥٣ ـ ٤٥٤، نقلاً عن مجلة «حياتك».

رمضان شهر الحرية
للدكتور مصطفى السباعي[١]

قال الدكتور:

ليست الحرية كما يتوهمها أكثر الناس مقصورة على نوال الشعوب حقها في السيادة والاستقلال، فتلك هي الحرية السياسية، ووراءها حرية الأمة في تفكيرها وثقافتها واتجاهاتها الإنسانية الكريمة.

وليست الحرية كما يظنها كثير من الشباب أن ينطلق الإنسان وراء أهوائه وشهواته: يأكل كما يشاء، ويفعل ما يشاء، ويحقق كل ما يهوى ويريد، فتلك هي الفوضى أولاً والعبودية الذليلة أخيراً.

أما إنها فوضى فلأنه ليس في الدنيا حرية مطلقة غير مقيدة بقانون أو نظام، بل كل شيء في الدنيا له قانون يسيره وينظمه، وحرية الفرد لا

---

(١) مصطفى بن حسني السباعي، أبو حسان، عالم إسلامي مجاهد، من خطباء الكتاب، ولد سنة ١٣٣٣ بحمص، وتعلم بها وبالأزهر، اعتقله الإنكليز في مصر وفلسطين ستة أشهر وأسلموه إلى الفرنسيين فسجنوه في لبنان ثلاثين شهراً، وانطلق فكان على رأس كتيبة من الإخوان المسلمين تقاتل في فلسطين، ثم أحرز شهادة الدكتوراه من الأزهر، ثم استقر في دمشق عميداً لكلية الشريعة ومراقباً عاماً للإخوان المسلمين وأنشأ مجلة حضارة الإسلام، له عدة مصنفات نافعة، أصيب بشلل نصفي ثم توفي سنة ١٣٨٤ رحمه الله تعالى. انظر: «الأعلام»: ٧/ ٢٣١ ـ ٢٣٢.

تصان إلا حين تقيد ببعض القيود لتسلم حريات الآخرين، ومن هنا كانت الحكمة من الشرائع والدساتير والأنظمة والقوانين، خذ لذلك مثلاً قانون السير في المدن الكبرى: هل تستطيع أن تسير بسيارتك إلا وفق السهام التي تحدد اتجاهك في السير؟ وخذ لذلك مثلاً قانون الراحة العامة: هل تستطيع أن تغني بعد منتصف الليل كما تشاء في الشوارع الآهلة بالسكان؟ وخذ لذلك قانون حماية الاستقلال: هل تستطيع أن تبث من الآراء ما يؤدي إلى الانتقاض على آمن الدولة وتهديد سلامتها؟ هل تستطيع أن تدعو إلى الصلح مع العدو وأمتك في قلب المعركة؟ هل تستطيع أن تتاجر مع العدو أو تهرب إليه منتجات بلادك دون أن تتعرض للعقوبة التي قد تصل أحياناً إلى حد الإعدام؟

إن تمام الحرية لا كمالها قد يكون بالمنع أحياناً، فالمريض حين يمنع من الطعام الذي يضره إنما تحد حريته في الطعام مؤقتاً، لتسلم له بعد ذلك حريته في تناول ما يشاء من الأغذية، والمجرم حين يسجن إنما تحد حريته مؤقتاً ليعرف كيف يستعمل حريته بعد ذلك في إطار كريم لا يؤذي نفسه ولا يؤذي الناس.

ثم إن الإنسان لا يعيش وحده وإنما يعيش جزءاً من مجتمع متماسك يؤذي كله ما يؤذي بعضه، وقد ضرب رسول الله ﷺ لذلك مثلاً من أروع الأمثلة بقوم كانوا في سفينة وكان بعضهم في أعلاها وبعضهم في أسفلها، وكان الذين في أسفلها يأخذون الماء ممن فوقهم، فقالوا: لماذا لا نخرق في مكاننا خرقاً نأخذ منه الماء من البحر رأساً؟ قال عليه الصلاة والسلام: «**فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً**» إنه مثل كريم من معلم الإنسانية الأكبر يضع فيه الحد

الفاصل بين الحرية الشخصية التي لا تؤذي أحداً، وبين الحرية التي تؤذي المجتمع وتعرضه للانهيار إذا أطلقت يد صاحبها فيها كما يشاء.

وأما إنها العبودية، فلأن تمام الحرية هو أن لا يستعبدك أحد ممن يساويك في الإنسانية أو يكون دونك فيها، وفي الفوضى التي يعبر عنها بعض الناس بالحرية الشخصية عبودية ذليلة لمن هو مثلك أو دونك من قيم الحياة ومادتها.

حين تستولي على الإنسان عادة الانطلاق وراء كل لذة، والانفلات من كل قيد يكون قد استعبدته اللذة على أوسع مدى، وأصبح أسيرها يجري في الحياة تحت إرادتها ووحيها، لا يعمل إلا ما تريد، ولا يستطيع فكاكاً مما تهوى، فما هذه الحرية التي تنقلب إلى عبودية لأهون ما في الحياة من قيمة ومعنى؟ لئن كانت قيمة الإنسان بمقدار ما ينال من لذائذه فإن الحيوان أكثر منه قيمة وأعلى قدراً، إن الحيوان هو الذي يسعى وراء لذته بلا قيد ولا هدف، ومهما جهد الإنسان أن ينال من لذائذه ما يهوى فإنه ملاق في سبيل ذلك ـ رغم أنفه ـ عوائق تمنعه من بعض ما يريد، فهل يزعم أحد أن الحيوان الذي لا يعوقه دون استكمال لذته عائق أكثر من الإنسان حرية؛ فهو أكثر منه سعادة؟!

وحين ينطلق الإنسان وراء فتاة يهواها، أو وراء الغانيات يشبع بهن لذائذه أيستطيع أن يزعم أنه حر من سلطانهن؟ ألا تراه أسيرَ اللحَظات، رهن الإشارات، شارد اللب، أقصى أمانيه في الحياة بسمة من حبيب هاجر، أو وصال من جسم ممتنع؟ أية عبودية أذل من هذه العبودية وهو لا يملك حريته في الحب والكره، والوصل والمنع، والرضا والغضب، والهدوء والاضطراب؟

وحين يسترسل الإنسان في تناول المسكرات يعب منها ما تناله يده حتى تتلف أعصابه وصحته وتسلب عقله وكرامته، أيزعم بعد ذلك أنه حر؟ أهنالك أبشع من هذه العبودية لشراب قاتل وسموم فتاكة؟

وقل مثل ذلك في التهالك على المال والجاه والتعصب للبلد والعشيرة إن كل ذلك حين يستولي على قلب الإنسان ونفسه ينقلب إلى عبودية ذليلة، وكل هوى يتمكن من النفس حتى تكون له السيطرة على الأعمال والسلوك ينقلب بصاحبه إلى عبودية بشعة لا نهاية لقبحها، ومن أعجب أساليب القرآن تعبيره عن مثل هذه الحالة بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[1]؟ إن الهوى عند أمثال هؤلاء له خصائص الألوهية في نفوس المؤمنين، أليس الإلـه هو الذي يعبد ويطاع، ويخشى ويرتجى؟ وأليس أصحاب الأهواء والشهوات قد خضعوا لأهوائهم وأطاعوها فيما تحب وتكره؟ فلا يستطيعون إغضابها ولا معارضة اتجاهاتها.

ليست العبودية قيداً ولا سجناً فحسب، فهذه أهون أنواع العبودية وأسرعها زوالاً، ولكن العبودية الحقة عادة تتحكم، وشهوة تستعلي، ولذة تطاع، وليست الحرية هي القدرة على الانتقال من بلد إلى بلد فتلك أيسر أنواع الحرية وأقلها ثمناً، ولكن الحرية الحقة أن تستطيع السيطرة على أهوائك ونوازع الخير والشر في نفسك، إن الحرية الحقة أن لا تستعبدك عادة ولا تستذلّك شهوة.

بهذا المعنى كان المؤمنون المتدينون، أحراراً لا تحد حريتهم بحدود ولا قيود، إن الدين حرر نفوسهم من المطامع والأهواء والشهوات، وربط

---

(١) سورة الجاثية: آية ٢٣.

نفوسهم بالله خالق الكون والحياة، وقيد إرادتهم بإرادته وحده، والله هو الحق وهو عنوان الخير والحب والرحمة، فمن استعبده الحق والخير والرحمة كان متحرراً من كل ما عداها من صفات مذمومة.

وإذا كان لا بد للإنسان من أن تستعبده فكرة أو نزعة أو خلق، فالذين يستعبدهم الحق خير وأكرم ممن يستعبدهم الباطل، والذين تستعبدهم نزعة إنسانية كريمة تستمد سموها من الله أكرم ممن تستعبدهم نزعة شهوانية يمتد نسبها إلى الشيطان، والذين يخضعون لله ويمتثلون أمره ونهيه أفضل وأكمل وأعقل ممن يخضعون لامرأة أو كأس أو مال أو لذة، أفلا ترى معي بعد هذا سخف بعض التقدميين الذين يأبون أن يناديهم الناس بأسمائهم كما سماهم آباؤهم «عبدالله أو عبدالجواد» مثلاً ويأنفون في ـزعمهم ـ أن يوصفوا بالعبودية، أفلا ترى هؤلاء الذين يرفضون عبوديتهم لمن لا يملكون لأنفسهم خروجاً عن سلطانه، ويقبلون عبوديتهم لأحقر شهوة وأحط رغبة، ألا ترى هؤلاء يستحقون منك الإشفاق والرثاء، أكثر مما يثيرون في نفسك السخط والاستنكار؟

إن أوسع الناس حرية أشدهم لله عبودية، هؤلاء لا تستعبدهم غانية، ولا تتحكم فيهم شهوة، ولا يستذلهم مال، ولا تضيع شهامتهم لذة، ولا يذل كرامتهم طمع ولا جزع، ولا يتملكهم خوف ولا هلع، لقد حررتهم عبادة الله من خوف ما عداه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1] صدق الله،

---

(١) سورة يونس: آية ٦٢ ـ ٦٤.

فقد انقطع هؤلاء بعبوديتهم له عن كل خضوع لغير الله، فإذا هم في أنفسهم سادة، وفي حقيقتهم أحرار، وفي أخلاقهم نبلاء، وفي قلوبهم أغنياء، وذلك لعمري هو التحرر العظيم، وصدق رسول الله ﷺ حين يقول: «**ليس الغنى عن كثرة العَرَض، إنما الغنى غنى النفس**»، وما أجملَ قول ابن عطاء الله: «أنت حر لما أنت عنه آيس، وعبد لما أنت له طامع»، وبهذا المعنى الذي شرحناه تفهم تلك الحكمة البليغة التي قالها الشيخ الصوفي الكبير أحمد بن خضرويه: «في الحرية تمام العبودية، وفي تحقيق العبودية تمام الحرية»[1].

---

(١) مجلة «حضارة الإسلام»: العدد التاسع: رمضان سنة، ص٩٩٨ ـ ١٠٠٢.

سبحات فكر
لسعادة الدكتور عبدالوهاب عزام بك[١]

قال الدكتور:

صوم رمضان مشقة، ولكن لابد منها لرياضة النفوس على احتمال المشاق، وهو حرمان، ولكنه عظيم الأثر في توطين الإنسان على ما يكره، وهو تغيير في أسلوب العيش، ولكنه حسن يجنب الناس ـ حيناً ـ هذه المعيشة المتشابهة التي يصبح الإنسان فيها ويمسي على نسق واحد.

قلّ أن يحمل الإنسان نفسه على ما تكره إلا في رمضان، وقَلّ أن يحرم الإنسان نفسه مما تشتهي حيناً إلا في رمضان، وقَلّ أن يغير الإنسان أسلوب عيشه ويخلص من هذه الدائرة المفرغة إلا في رمضان.

وقليل منا من يعرف من دهره ساعات السحر ونسمات الفجر طوال عامه إلا في ليالي رمضان، وقَلّ أن يتزاور الناس ويتهادوا

(١) عبد الوهاب بن محمد بن حسن بن سالم عزام، عالم بالأدب، مصري، ولد في مصر سنة ١٣١٢، وتخرج في مدرسة القضاء الشرعي، ودرس بها، وأحرز شهادة الجامعة المصرية القديمة في الآداب والفلسفة، واختير مستشاراً في السفارة المصرية في لندن للشؤون الدينية، وعين سفيراً لمصر في المملكة العربية السعودية، وأنشأ جامعة الملك سعود فيها، وتقلب في مناصب في داخل مصر وخارجها حتى توفي سنة ١٣٧٨ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٤/ ١٨٦.

ويتراحموا ويفرحوا كما يفعلون في هذا الشهر المبارك.

فينا من لا يصوم رمضان لأنه لا يبالي بالدين ولا يُعنى برياضة النفس، وهو في شغل شاغل من لذاته ليل نهار، وفينا من لا يصوم رمضان إشفاقاً من مشقة، وعجزاً عن صبر نفسه على مكروهات ساعات، وفينا من يصوم رمضان ولا يصل بين صومه ونفسه، بل يكون في الصوم أشد شراسة وأحد سلاطة، وأكثر عبوساً وتجهماً.

إنما نريد الصوامين يروضون أجسامهم وأنفسهم، ويطبون لأبدانهم وأرواحهم طوال الشهر بالحمية والعفة والمودة والمرحمة والذكر والفكر؛ فيخرجون من الشهر كما يخرج المريض من المستشفى وقد أَبَلَّ واسترد صحته، نريد صوامين، هم من رمضان في عبادة وصلاح مستمر ورقي متصل، وهو في سائر العام في أثر رمضان وذكراه وهداه[1].

---

(١) مجلة «المسلمون»: السنة الأولى، العدد ٧، رمضان سنة ١٣٧١، ص ٧٠٢.

التراويح في الحرم

د. عبدالوهاب عزام

قال الدكتور:

صليت التراويح في المسجد الحرام؛ والإمام يقرأ فيها جزءاً من القرآن ليختم القرآن في الشهر.

قام الإمام في جانب المطاف متوجهاً إلى الكعبة بين الركن اليمانيّ والحَطيم، ويقوم الأئمة في غير التراويح بين مقام إبراهيم والكعبة متوجهين إلى الجدار الذي فيه الباب؛ ولكن في التراويح يفسحون المطاف للطائفين فيصلون حيث ذكرت.

لا أنسى الصفوف محيطة بالكعبة على نظام محكم، والمصابيح ترسل على الوجوه نورها، والقمر فوقنا ينافسها إنارة للمصلين، والنسيم يسري فيمحو عن المسجد حرَّ النهار، ويمسح وجوه المصلين ويمس ثيابهم رفيقاً رقيقاً.

والقرآن تنبعث نغماته فتخالط النور والهواء، ولم تزل نغماته متصلة منذ قرأه الرسول الكريم حول الكعبة أول مرة.

والتكبير يدويّ في الأرجاء كأنه في هذه الموسيقى الروحية التي يؤلِّفها نور المصابيح وأشعة القمر وخفقات النسيم وتلاوة القرآن.

كنت أُشغل عن الصلاة حيناً بالتأمل في هذا المشهد العظيم، أقول:

وما عليك إن شغلت عن صلاتك لترى صلاة السماء والأرض في هذا المرأى الرائع، وتبصر قيام العالم كله حول الكعبة، أليست هذه الصفوف مقدمة صفوف متلاحقة متواصلة من الكعبة إلى أقصى الجهات؟ هل يخلو ميل من الأرض في بلاد المسلمين من مصل منفرد أو جماعة وجهتها الكعبة ولسانها القرآن ونداؤها التكبير؟ فانظر إلى هذه الجماعة الكبرى تتلاحق صفوفها، واستمع إلى هذه الموسيقى تتوالى نغماتها، وتمتد موجاتها من هذه الكعبة إلى بلاد نائية في أقطار الأرض.

هنا مركز الدائرة، وهنا قطب المغناطيس تتوجه إليه القلوب والوجوه، هنا أخوة المسلمين، هنا توحيد الله: الله أكبر[١].

---

(١) مجلة «المسلمون»: السنة الأولى، العدد ٧، رمضان سنة ١٣٧١، ص ٧٠٣.

المدرسة الاجتماعية العملية
الدكتور مصطفى السباعي

قال الدكتور:

لم تبق ناحية من نواحي الصوم وفوائده إلا تحدث عنها الباحثون المسلمون، وفي كل فائدة منها يزداد يقين المسلم ثقة بدينه، واطمئناناً إلى حكمة الله في شرع هذه الفريضة البارزة من شرائع الإسلام.

ويهمنا أن نكثر من الحديث عن فوائد الصوم الاجتماعية؛ لما في ذلك من أضواء على وضعنا الاجتماعيّ في الماضي والحاضر، ولما نرجو أن يفيده أثر الصوم الاجتماعيّ من رفعٍ لمستوانا الخلقيّ والسياسيّ.

١ـ أول ما يتبادر من فوائد الصوم الاجتماعية ما يعود به على المجتمع الصائم من تقوية لإرادة جماهيره، وتحكم في أهواء الأفراد وشهواتهم، فالذي يترك طعامه وشرابه ولذاته طائعاً مختاراً مستعد لتحمل المشقات والجهد فترة مستطاعة من الزمن، وكل مجتمع يريد النهوض أو يريد أن يحتفظ باستمرار نهضته ورقيه، لا بد له من قوة إرادة تبعثه إلى جلائل الأمور، وتمنعه عن أسباب الانهيار، وإنما تتمايز المجتمعات في درجات الحضارة والرقي بتمايز الأفراد في مجتمع عن الآخرين في مجتمع آخر بقوة الإرادة، ومضاء العزيمة.

والصوم أفضل وسيلة لتربية قوة الإرادة، فما الصائم إلا إنسان يمارس الصبر على اللذائذ المباحة، ليستطيع الصبر على اللذائذ الآثمة.

٢ـ ومما يفيده الصوم تربية الجماهير على تحمل الجوع والعطش والحرمان، وهو أمر تتعرض له كل أمة خلال الحروب، كما تتعرض له في فترات السلم في أيام الجدب ونقصان الأغذية، ويتعرض له الأفراد أيام الضيق وفي الأسفار والسجون والمعتقلات.

وقد شهدت بنفسي أثر الصوم خلال اعتقالنا في الحرب العالمية الثانية، فقد كنا في سجن «قلعة راشيا» الواقعة في سفح «جبل الشيخ» من الجهة الغربية الواقعة في لبنان، لقد كان طعامنا يأتينا يومياً من بيروت بالسيارة من القيادة العسكرية للحلفاء فيها، وفي فصل الشتاء فوجئنا بتهاطل الثلوج بغزارة بلغ ارتفاعها مائة وأربعين سانتمتراً، فانقطعت المواصلات بين بيروت وراشيا، كما انقطعت بين «راشيا» البلدة وبين قلعتها التي كنا مسجونين فيها، واستمر الانقطاع ثمانية أيام لقينا فيها من الجوع جهداً كبيراً، وقد لاحظت أنه لم يصمد في هذه الفترة إلا الذين اعتادوا الصيام من قبل، بينما تهاوى الآخرون على فرشهم لا يكادون يستطيعون حراكاً.

٣ـ والصوم يغرس في الأمة الصائمة روح «الاشتراكية»[1] الإنسانية

---

(١) جاء المسلمين زمان اختلطت عليهم بعض المفاهيم والإطلاقات ومما اختلط عليهم فراج على بعضهم: «اشتراكية الإسلام»، وقد صنف الأستاذ مصنفاً بهذا العنوان فلم يوفق فيه رحمه الله تعالى؛ إذ بين الإسلام والاشتراكية بون شاسع ولا تلاقي بينهما أبداً، ولا يصح أن يسمى، بعض ما اتفقت فيه الاشتراكية مع الإسلام في جزء يسير منه: اشتراكية الإسلام، والله أعلم.

الأخلاقية؛ إن الصائمين يشتركون في الجوع جميعاً خلال النهار، وفي الشِبَع بعد الغروب، في النهار لا تتميز معدة غني على معدة فقير بل هما سواء في الجوع والعطش، وفي المساء لا تفترق المعدتان أيضاً، فهما سواء في الريّ والشِبَع.

حين تجوع معدة الغني شهراً في كل سنة، يتذكر معدة أخيه الفقير كيف تكون خاوية في السنة كلها، ولا يعرف أثر الحرمان إلا من يكابده، ففي الصوم حرمان إجباري يفرضه الله على الأغنياء ليتذكروا حرمان إخوانهم من الفقراء ، فيواسوهم بأموالهم، ويشاركوهم في سرائهم وضرائهم، ولعمري هذا أبلغ في فرض الاشتراكية الخيرة الأخلاقية على الناس من ألف مذهب اشتراكي لا تعطي المجتمع إلا فلسفات نظرية يكون أول الخارجين عليها هم الذين ينادون بها قولاً، وهذا دأب الإسلام في «اشتراكيته» العظيمة الفريدة أنه دعا إليها، وأسس قواعدها، وأجبر المؤمنين على التخلق بها عن طريق العبادات، ففي الصلاة «اشتراكية» في الرؤوس لا يعلو رأس كبير على رأس مغمور، وفي الصوم «اشتراكية» في البطون، لا يمتاز فيها بطن على بطن، وفي الزكاة اشتراكية في الأموال، لا تمتلىء في جيب وتقفر منها جيب، وفي الحج اشتراكية في الأجساد، لا يتميز جسد عن جسد بلباس ولا غطاء، فأية اشتراكية في القديم والحديث تغرس في الناس روح الاشتراكية المتحابة المتعاونة مثل اشتراكية الإسلام العظيمة؟ وأي تدبير لمنع الناس من الافتتان باشتراكية ملحدة أو اشتراكية ظالمة متحكمة أجدى من لفت أنظارهم إلى هذه الاشتركية التي تتجاوب لها نفوس الأخيار والأبرار من كل فئة وكل طائفة في المجتمع؟

٤ـ الصوم ينشر في المجتمع روح الحرية كما يفهمها الإنسان العاقل! فهو يحرر صاحبه من عبادة الشهوة، ومن الاسترقاق للعادة، ويسمو بنفسه إلى أن لا يخضع إلا لمن تجب له العبودية، بل لا يستطيع إنسان ولا مخلوق فكاكاً من العبودية له وهو الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(١).

فالمؤمن الصائم هو الحر بأكمل معاني الحرية وأنبلها وأسعدها للمجتمعات، أما الذين يجدون حريتهم في الإفطار يأكلون ويشربون فهؤلاء قوم مستعبدون، تستعبدهم شهواتهم وعاداتهم وأهواؤهم، وهم حين يعيبون على المؤمن عبوديته لله يعبدون أتفه ما في الحياة من مطالب أو مُثُل أو غايات، وما أروع هذا التعبير المعجز في كتاب الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾(٢) فالهوى حين يطاع إله فاسد يستبد برعيته ويفسد عليهم أمورهم وإنسانيتهم وكرامتهم، وما أجمل قول «ابن خضرويه»: في الحرية تمام العبودية، وفي تحقيق العبودية تمام الحرية!

٥ـ والصائم يتعود الإخلاص في أعماله، ويحرص على كتمانها أكثر مما يحرص على إظهارها، وفي ذلك تربية على إنكار حب الذات وطلب الشهرة وابتغاء المحمدة، وكم أضلت هذه الرغبات زعماء وقادة وحكاماً وعلماء وعاملين فأفسدت عليهم أعمالهم وأركبتهم متن الشطط، وسقت فيهم شجرة الغرور، فأفسدوا المجتمع في حياتهم، وأفسدوا ثوابهم عند الله بعد مماتهم، وكل ما نشكو منه اليوم من تعثر نهضتنا مرده

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٨٣.
(٢) سورة الجاثية: الآية ٢٣.

إلى ذاك، وكل ما ينبت في المجتمع من خير مرجعه إلى إنكار الذات، واطّراح الغرور، والاتجاه إلى ثواب الله ورضاه في كل عمل وكل تفكير وكل اتجاه، ولهذا المعنى ورد في الحديث القدسي: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع طعامه وشرابه من أجلي».

٦ـ وآخر ما نذكره الآن من فوائد الصوم الاجتماعية، أنه يعوّد على حسن الخلق، وصدق المعاملة، والبعد عن الخصام والنزاع، فالجائع أبعد الناس عن التفكير في الجدال والمناقشة والأخذ والرد، وهو في صيامه أصدق الناس لهجة، وأوفاهم وعداً، وأبعدهم عن الشر والأذى، فإن لم يكن كذلك لم يكن له من صيامه أجر ولا ثواب، ولم يحصل منه إلا على جوع وعطش، وإلى هذا المعنى أشار الرسول الكريم بقوله: **«الصوم جُنّة «وقاية»، فإذا كان صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل، وإن سابه أحد أو خاصمه فليقل: إني صائم، إني صائم، إني صائم»!**

هذا بعض ما يفيده المجتمع من صوم الصائمين، ومن ثمة كان الصوم مدرسة اجتماعية لتربية أرقى أنواع السلوك الاجتماعي تربية عملية.

وبذلك كنا في مجتمعنا الإسلامي الأول من أرقى مجتمعات التاريخ في سلوكنا الاجتماعي وعلاقتنا مع الأمم الأخرى، بل كنا بمدرسة العبادات ـ وبخاصة الصوم ـ أهلاً لحمل رسالة الإسلام إلى الدنيا بما ربته في نفوسنا من إيثار وإقدام وتضحية واستقامة وطاعة كريمة وتماسك حميد، وحرص على هداية الشعوب، ورغبة في تحرير الجماهير من الظلم والعبودية والخرافة والجهل وفساد العقيدة وانحلال الأخلاق، وتحكم الطغاة الظالمين في مقدراتها، وإفساد رجال الدين والسياسة

لعقولها وضمائرها، وإشاعة الخراب والدمار في ربوعها، وليست إلا عبادات الإسلام ـ وبخاصة الصوم ـ هي التي ربتنا على تلك الأخلاق التي حببت بنا الشعوب، وفتحت لنا قلوبها قبل أن تفتح لنا حصونها وقلاعها، وكذلك تفعل العبادة إذا أقيمت على وجهها الصحيح.

ومن هنا في وضعنا الاجتماعي الراهن أشد الحاجة إلى الصوم لجميع فئات الشعب، ساسة وقادة وحكاماً وجماهير، وكان انتهاك حرمته بإعلان الإفطار فيه صداً للأمة عن دخول هذه المدرسة الاجتماعية العملية، واحتقاراً لما تؤديه هذه المدرسة من إصلاح اجتماعي عظيم[١].

---

(١) مجلة «حضارة الإسلام»: السنة ٢، العدد ٩، رمضان سنة ١٣٨١، ص ٩٦٩ ـ ٩٧٢.

صيام رمضان
للدكتور عبد الحليم محمود[1]

قال الدكتور:

الناس يتحدثون عن صيام رمضان، وفوائده، وحكمة مشروعيته منذ أن فرضه الله تعالى إلى الآن.

وحينما يحل هذا الشهر المبارك يكثر الحديث عنه في الصحف والمجلات والكتب، وصحافتنا المصرية تتبارى في اجتذاب أكبر عدد من الكتاب ليكتبوا: «حديث رمضان» أو «حديث الصيام»، ويتنافس كتابنا في استنتاج الهدف من فرض الصيام، ومن الحق أن نقول:

إن التوفيق يصاحبهم في كثير من الأحايين: بيد أن هذه الآراء

(١) عبد الحليم محمود، عالم، صوفي، ولد في عزبة أبو أحمد التابعة لمركز بلبيس في محافظة الشرقية سنة ١٣٢٨. وأبو أحمد الذي نسبت العزبة إليه هو جده. وكان والده يدرس في الأزهر فسافر به إلى القاهرة فدخل الأزهر هنالك ثم انتقل إلى معهد الزقازيق وترقى في دراسته حتى حصل على العالمية، ثم نال الدكتوراه من باريس، ورجع من هناك ليعين مدرساً لعلم النفس بكلية اللغة العربية ثم أستاذاً للفلسفة بكلية أصول الدين ثم عميداً للكلية. استعانت به عدد من الدول العربية موجهاً وأستاذاً زائراً، وشارك في كثير من المؤتمرات. وترقى في المناصب حتى صار وزيراً للأوقاف ثم شيخاً للأزهر. له مصنفات كثيرة في موضوعات شتى. توفي ـ رحمه الله تعالى ـ سنة ١٣٩٨. انظر «تتمة الأعلام»: ١/ ٢٧٠ ـ ٢٧٢.

التي تذكر في حكمة الصوم: محدودة معينة، ولذلك كانت دائماً موضع تكرار، ولو لم يكرر القول لنفد كما يقولون.

لذلك كان تفاوت كتابنا إنما هو على الخصوص في كيفية العرض وجمال الأسلوب.

ومن الآراء التي ذُكرت في حكمة الصيام:

١ـ إن الإنسان تحكمه عاداته، ويصل به الأمر إلى أن يصبح مجموعة من العادات وتتحكم فيه العادات إلى درجة يصبح معها كأنه آلة من الآلات، تسير على نسق معين وتؤدي أعمالاً محدودة، فيبتعد كل الابتعاد عن المرونة التي تفرق بينه وبين الآلات.

والإنسان الذي تحكمه عاداته يصبح عبداً لها ويتخلى عن شيم الأحرار الذين يعملون في حرية واختيار.

وفرض الله الصيام، ليحرر الإنسان من هذه العبودية؛ فإن الصيام يقلب العادات رأساً على عقب ويعلم الإنسان نوعاً من المرونة حتى لا يتصرف تصرف الآلة.

٢ـ وقد كتب الكاتبون كثيراً عن فائدة الصوم من الناحية الطبية، وقد عبر عن ذلك خير تعبير، المرحوم الأستاذ «فريد وجدي» إذ يقول:

«كان الناس إلى زمان قريب يحسبون أن الصيام من الشؤون الخاصة بالأديان، ولكن لم يكد ينتشر تاريخ الطب بين الناس حتى علموا أن الصيام قد اعتبر في كثير من الأمراض من مقومات الصحة الجسمانية كما علموا من عهد «أبو قراط» أنه عامل قوي من العوامل المنقية للجسم من سموم الأغذية؛ فإن المواد الحيوانية التي نتناولها بشراهة تحتوي على

مواد رباعية العناصر[1] لا تطيق البنية البشرية أن تختزن مقداراً يزيد عن الحاجة منها، وإطلاق الحرية للإنسان يجعله يتناول كل ما يقع تحت يده، وكثيراً ما يصاب بسبب هذه الحرية بآفات مرضية تكون وبالاً عليه.

والصوم ذو تأثير بالغ في تخفيف الأمراض التي تنتاب الأعضاء الظاهرة والباطنة، وتحويل محمود في حالة المريض يتأدى منه إلى التخلص مما أصابه من الآلام والانحرافات، وحصة الروح من هذا التحويل لا تقل عن حصة الجسم، وقد استفاد الطب من ناحية الصوم ما لم يستفده من ناحية العلاج بالعقاقير» اهـ.

٣ـ وقد فرض الله الصوم ليحس الغني بألم الجوع، فيحسن إلى الفقير، وبذلك يتم العطف والمودة، وينشأ عنهما تماسك المجتمع وسعادته.

٤ـ وقد فرض الله الصوم تهذيباً للنفس، وتصفية للروح.

هذه الآراء وغيرها قد قيلت في حكمة الصوم وكررت، ولكن الذي لاحظه الكثيرون من ذوي البصائر أن الأمم الإسلامية ـ في وضعها الحالي ـ أقل مرونة من الأمم الغربية وعلى الأخص من قطر كأمريكا الشمالية مثلاً.

ويلاحظون أن هذه الأمم الإسلامية، أقل في مستواها الصحي من الأمم الغربية، كما يلاحظون أننا في بيئاتنا الحاضرة وفي وضعنا الراهن نعاني الأمرَّين: من شح الأغنياء، ولا نكاد نرى من يتبرع لمعهد علمي لتعليم أولاد الفقراء، أو لمبرة خيرية، وبيوتهم مغلقة لا يكاد الفقير يجرؤ

---

(١) هذه النظرية قديمة أبطلها العلم الآن.

حتى على التطلع إليها، ومع أنهم يسرفون في ملاذهم، وينفقون الآلاف في أوروبا وغيرها على موائد القمار، وحفلات السباق وعلى الغانيات والراقصات فإنهم لا ينفقون شَرْوى نَقير[١] في وجه من وجوه الخير.

ومن دقة الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه لم يقل: إن الصوم يعلم الجود أو يبسط الأيدي، وإنما تمنى أن يكون الصائم كذلك، فقال في أسلوبه الدقيق: «أحب للصائم الزيادة بالجود في شهر رمضان اقتداءً برسول الله ﷺ ولحاجة الناس فيه إلى مصالحهم، ولتشاغل كثير منهم فيه بالعبادة عن مكاسبهم».

ولاحظ ذوو البصائر ـ أيضاً ـ أن الصبر لا يكاد يوجد عند الصائم، بل يتخذ الناس الصوم عذراً للصائم إذا تجاوز الحد وكثيراً ما تجاوزه.

لهذا كله رأى بعض المفكرين أن حكمة الصوم لا نعلمها، ذلك أنه عبادة، والعبادة في كثير من تفاصيلها لا نعلم لها حكمة.

هل نعلم مثلاً حكمة الصلاة في أن تكون ركعتين في الصبح وقت النشاط، وأربعاً في الظهر وهو وقت يكون الإنسان فيه عادة مجهداً؟

إن الصوم ـ حسبما يروا[٢] ـ من هذا النمط فرضه الله تعالى لحكمة لا شك في ذلك، ولكننا لا نعلمها.

ونحن هنا لا نتمشى مع النظرة الأخيرة التي تنفض يدها من بيان

---

(١) أي لا ينفقون ما يوازي شراء نقير، والنقير: ثقب صغير يكون في نواة التمر، والمعنى لا يتصدقون ولا حتى بشيء تافه حقير.

(٢) لعل الصواب يرون.

الحكمة في الصوم، ولا نريد أن نكرر ما قالوه سابقاً، ذلك: أننا نتجه إلى الآيات القرآنية التي تحدثت عن الصوم، فنستلهمها الحكمة، وفيها لو تأملنا الحكمة واضحة، في تعبير غاية في الدقة، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[1].

وفي هذه الآية يحدثنا الله سبحانه وتعالى أنه كتب علينا الصوم وفرضه لغاية معينة، ذكرها في قوله ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

وعبر القرآن بكلمة ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ ولم يقطع ولم يجزم بأن ثمرة الصوم لا محالة تحقق التقوى؛ لأن الصوم يعد الصائم للتقوى.

إنه إعداد وتهيئة، إن مثله بالنسبة للصائم كمثل زارع تُعد له الأرض وتهيأ، وتُعطى له محروثة، لا حشائش فيها، مهيأة تمام التهيئة، وما عليه إلا أن يتصرف حسبما يريد، فإن شاء ألقى فيها البذر ثم تركه يذبل ويموت، وإن شاء تركها مهملة، تنمو فيها الحشائش الخبيثة من جديد، وتعود تربة غير صالحة، وإن شاء ألقى فيها البذر وتعهده حتى يترعرع ويستوي على سوقه ويؤتي أكله، كل هذا منطوي في كلمة: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

فإذا ما تعهد الإنسان نفسه التي أُعدت بالصوم وانتهى إلى التقوى كان جزاؤه حقيقة عند الله عظيماً.

ومن هنا مفتاح فهم الأحاديث التي رويت في الصوم، والتي لا تفهم

(١) سورة البقرة: آية ١٨٣.

حقيقياً إلا إذا راعينا أن الصائم يتعهد نفسه التي مُهدت وأعدت بالصوم:

طلب أبو أمامة من رسول الله ﷺ، يوماً أن يأمره بعمل ينفعه الله تعالى به، فقال ﷺ: «**عليك بالصوم، فإنه لا عِدل له**» فكرر له أبو أمامة الطلب، فقال ﷺ: «**عليك بالصوم فإنه لا مثل له**» وطلب أبو أمامة للمرة الثالثة نفس الطلب فقال عليه الصلاة والسلام أيضاً نفس ما قاله في المرة الثانية.

ولا شك أن الصوم لا عدل له، ولا مثل له، في تهيئة النفوس للتقوى، ومن انتهى بهذه التهيئة إلى غايتها، و«**من صام رمضان إيماناً واحتساباً: غفر له ما تقدم من ذنبه**».

ومن هنا كان المعنى العميق، للحديث المشهور: «**كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**».

وهذا الحديث رواه البخاري ومسلم وبقية الكتب الستة، وهو متناسق مع حديث آخر قدسي، رواه البخاري وغيره.

«**كل عمل ابن آدم له إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به**».

وقد فهم الناس أن الله يجازي على الصوم باستمرار جزاء يزيد على سبعمائة ضعف، هذا صحيح فيما يتعلق بمن تعهد نفسه واتقى.

أما من لم يتعهد نفسه ولم يتق فتَصدُق فيه الأحاديث الأخرى التي لا تفهم فهماً صحيحاً إلا على ضوء ما قدمنا، يقول الرسول ﷺ: «**كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع العطش**».

ويقول ﷺ: «**من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**».

ولا ينتهي الصوم إلى ثمرته التي أرادها الله تعالى منه، إلا إذا صدقت النية وقويت العزيمة وصام الإنسان إيماناً واحتساباً، أي صام على التصديق والرغبة، طيبة بالصوم نفسه، غير كاره له، ولا مستقل[١] لأيامه، وصام طلباً لوجه الله تعالى وصدقت نيته في النجاة، واستشرفت نفسه لرضوان الله.

فإذا ما توفر كل ذلك تحقق ما قاله السابقون والمعاصرون في فائدة الصوم.

أما بغير ذلك، فليس للصوم من فائدة، إلا الجوع والعطش، عافانا الله وإياكم من ذلك[٢].

---

(١) لعلها: ولا مستثقلٍ لأيامه.
(٢) مجلة «الجديد»: عدد ١٥٨، أغسطس سنة ١٩٧٨.

رمضان شهر الوحدة

لفضيلة الشيخ عبدالله خياط[١]

قال الشيخ:

من محاسن دين الإسلام أنه دين الوحدة كما قال تعالى:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾[٢].

إنها وحدة متكاملة شاملة، فكل المسلمين في رمضان يعتقدون أن صيامه فريضة على المسلمين عامة تعبدهم الله بها، وأنها إحدى عُرى الإسلام.

ومن واجبهم كعبيد مربوبين أن يستجيبوا لأداء فريضة الصيام دون التواء أو محاولة للتنصل والتهرب منها بالحيل والأعذار الواهية أو الاجتهادات الخاطئة الشاذة، وأن يكون الأداء عن إيمان واحتساب للأجر ويقين بأنه خير للصائم وأهدى سبيلاً كما قال تعالى: ﴿ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ

---

(١) عبدالله بن عبدالغني خياط إمام وخطيب المسجد الحرام، ولد سنة ١٣٢٦هـ، كان مدرساً بمدارس مكة ثم أصبح عميداً لكلية الشريعة فيها ثم مديراً للتعليم بمكة فمستشاراً في وزارة المعارف، كان متواضعاً، له أخلاق العلماء وشيم الصالحين، توفي سنة ١٤١٥ رحمه الله تعالى. انظر «تتمة الأعلام»: ١/ ٣٣٠ـ ٣٣٢.

(٢) سورة الأنبياء: آية ٩٢.

لَكُمْ ﴾(١)، وقال رسول الهدى ﷺ: «**من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**».

وليس من شأن المسلمين أن يفلسفوا لأداء الفرائض وأن يعللوا القيام بها بأمور مادية بحتة كمن يفلسف لأداء الصلوات ويوجه الأنظار للقيام بها لأنها رياضة بارعة، أو كمن يفلسف لأداء الصيام لينساق إليه الصائمون بأنه عامل صحي لترميم الجسم وإذهاب الفضلات وإصلاح المعدة وما إليه من الأسباب المادية التي تكون الهدف البارز للصوم دون غيره من الوسائل الروحية التي يحرز بها العبد السعادة في حياته كأثر للطاعة كما قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(٢).

ورمضان ـ أيضاً ـ شهر الوحدة في الشعور بجلاله وحرمته ومزاياه، فكل المسلمين في مختلف مستوياتهم وتباعد أقطارهم يشعرون بحرمة رمضان وجلاله، وأنه شهر المغفرة والرضوان وشهر فيض النفحات وعظيم التجليات وكريم الهبات من المولى ـ جل وعلا ـ وفيه تقال العثرات وتمحى السيئات وتستجاب الدعوات، وأن فيه ليلة خير من ألف شهر هي ليلة القدر التي قال رب العزة عنها موجهاً الأنظار إلى عظمتها وجليل قدرها ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٤.
(٢) سورة النحل: آية ٩٧.
(٣) سورة القدر: آية ١ ـ ٥.

وهو ـأيضاًـ شهر القرآن أنزله الله هدى ونوراً ودستوراً وفرقاناً بين الحق والباطل، هذا الشعور بجلال رمضان وما له من مكانة كثيراً ما يكون حافزاً على استصلاح الأخطاء في رمضان والعودة إلى حظيرة الله بالتوبة الصادقة، والإنابة الدائبة، فكم من جبار في الأرض متسلط على العباد بسوط العذاب أقلع عن جبروته في رمضان أملاً في رحمة الله في شهر الرحمة وأدرك أن الشمول في الصيام هو العمدة؛ فللعين صيام وللأذن صيام، وللرجل صيام، ولكل جارحة في الإنسان صيام، ومن مجموع ذلك يتكون الصيام الزاكي الذي لا خدوش فيه ولا نكور. . .

ولعل مما يوجه الأنظار إلى هذا المسلك الراشد ما ورد من قوله ﷺ في مزايا رمضان وفضائله «**إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنان، وغلقت أبواب النيران، وصفدت فيه الشياطين، ونادى مناد: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر**»، إذ إن من عوامل فتح أبواب الجنان وقفل أبواب النيران كثرة من يدخلها؛ إذ يزداد صاحب البر في بره في رمضان وحسن معاملته لله واستدامة طاعته، ويقصر صاحب الإثم عن نزوته ويرتدع عن غوايته وظلمه فيكون ذلك سبباً في شموله برحمة الله في رمضان ودخوله دار كرامته إلى جانب البررة الصالحين من أوليائه.

ورمضان ـأيضاًـ شهر الوحدة في النظام؛ فكل المسلمين في مختلف أقطارهم وأمصارهم يتعودون فيه النظام ويقلعون عن الفوضى، فمبدأ يوم الصيام واحد لدى عموم المسلمين وهو طلوع الفجر، وطلوع الفجر يشعر به من في الحاضرة كمن يقطن البادية وهو ليس بالأمر المعقد الذي يتطلب آلة أو مرصداً، وانتهاء يوم الصوم ـأيضاًـ معلوم بغروب الشمس، وغروب الشمس لا يخفى على العيان إلا في ظروف طارئة

كأيام الغيوم المتكاثفة، قال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾[(١)]، أي إلى غروب الشمس قولاً واحداً لا تأويل فيه ولا تعديل.

ورمضان شهر الوحدة في قوة العزيمة والثبات على المبدأ؛ فكل المسلمين تقوى عزائمهم على الصوم ويكبحون جماح شهواتهم شهراً كاملاً، حتى لو أجبر المسلم وعذب ليترك الصوم لما فعل، وحتى لو أفتاه الناس وأفتوه أو زينوا له الفطر وأغروه به أو انتحلوا له الأعذار لما استجاب لرغبتهم أو انقاد لإغرائهم بل يثبت على مبدئه في أداء فريضة الله محتسباً الأجر عند الله، واضعاً نصب عينيه قول الرسول الكريم ﷺ: «من **صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**».

وللثبات على المبدأ وقوة العزيمة آثار تُحمد عقباها في دنيا الكفاح ـ والحياة كلها كفاح ـ فمن قويت عزيمته على جهاد النفس في ذات الله والقيام بفرائض الله وثبت على مبدئه في طاعة الله أيده الله بروح من عنده، وقواه وهداه إلى سبيله الموصلة إلى رضوانه؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[(٢)] فلو وقفت الدنيا في وجهه أو تآلف ضده كل قوى الشر لما فَتّ ذلك في عَضُده، وحَسْبه معية الله عدة تنقذه من كل شدة.

ورمضان ـ أيضاً ـ شهر الوحدة في إرهاف الشعور وترقيق العواطف، فالجوع وحر الظمأ الذي يشعر به الصائم ـ وخاصة إذا كان من

(١) سورة البقرة: آية ١٨٧.
(٢) سورة العنكبوت: آية ٦٩.

أرباب النعيم ـ من طبيعته أن يُرهف الإحساس ويرقق العاطفة فيحنو الكل على الفقراء والبؤساء ويعطفون عليهم، ويذكرون حوائجهم، ويمدونهم ببرهم ورِفْدهم[١]، ويصلونهم بالفاضل من أموالهم بل يواسيهم حتى المقل ساعة الإفطار ولو باليسير من طعامه كحبة التمر أو شربة الماء ومِذْقة اللبن أملاً في غفران ذنوبه وعتق رقبته من النار . . .

ورمضان ـ أيضاً ـ شهر الصبر أو شهر إجماع المسلمين على الصبر، فكل المسلمين أو جلهم يؤدون فريضة الصيام في صبر منقطع النظير: صبر على طاعة الله وما تتطلبه من جهد ومشقة وما تفرضه من إخلاص واحتساب، وصبر عن محارم الله؛ إذ لا يصح أن يصوم المسلم عن الحلال ويلطخ صومه بارتكاب الحرام فيغدو الصائم في يوم الصوم أشبه بمَلَك في مسلكه وخلقه يطيع الله كما أمر ويصبر على الأذى مما قد يناله من الغير تحفظاً لصومه واستجابة لأمر الرسول الكريم حيث يقول: «**الصوم جُنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل: إني صائم إني صائم**» أي لا يرد السيئة بمثلها بل يصبر ويستشعر في قرارة نفسه ما يجب للصوم من وقار وشعار هو أبرز ما في الصائم ثم يشعر المتجني عليه أنه يُغلِّب جانب التسامح والغفران في صومه على الأخذ بحقه كما قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَالِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[٢] وليستوفي أجر الصابرين والعافين عن الناس كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٣].

---

(١) أي عطائهم.
(٢) سورة الشورى: آية ٤٣.
(٣) سورة الزمر: آية ١٠.

وبعد فكم لرمضان من مظاهر الوحدة الشاملة الكاملة التي لا تحدها الأمثال والنماذج، ولا يستوعبها مقال محدد، وكم فيه من مناهج الخير ومعاني الإنسانية الرفيعة والمثل العليا، فهنيئاً للمسلمين برمضان، ونسأل الله للجميع فيه القبول والرحمة والغفران[١].

---

(١) مجلة «رابطة العالم الإسلامي»: العدد ٧ السنة ٣، رمضان سنة ١٣٨٥.

الصوم جزء من نظام كامل للحياة

للأستاذ محمد المبارك(١)

قال الأستاذ:

إن رياضة الأجسام وتدريبها على أنواع التمارين ليست إلا وسيلة لتقويتها وتهيئتها لحسن القيام بوظيفتها في الحياة العملية، وليس التدرب على الرمي واستعمال السلاح وسيلة للتسلي أو غاية في ذاتها وإنما هو وسلية لرد الاعتداء والدفاع عن النفس والوطن، وكذلك العبادات ليست غاية في ذاتها وإنما هي نوع من الرياضة التي تعالج النفس من بعض نواحيها وتربيها وتعدها لغايات أخرى، وقد جاءت هذه الفكرة واضحة في القرآن الكريم، ولم يكن الانحراف عن هذا الفهم إلا مظهراً من مظاهر الانحطاط في بعض العصور.

إن الآية التي تفرض عبادة الصوم في الكتاب المبين وردت في سورة

---

(١) محمد عبد القادر المبارك، المفكر الإسلامي الكبير، ولد في دمشق سنة ١٣٣١، وأصل أسرته من الجزائر، درس في سلك التدريس ودرس العلوم الدينية وتخرج في جامعة دمشق والسوربون بباريس، وعمل مدرساً للأدب العربي في المدارس الثانوية بدمشق، ثم صار مفتشاً عاماً للغة والدين، ثم محاضراً في كلية الآداب بجامعة دمشق، ثم أستاذاً في كلية الشريعة، ثم عميداً لها، وارتحل إلى بلدان عدة وتولى عدة مناصب في جامعاتها، وكان مشاركاً في مجلس نواب سوريا ووزيراً لبعض وزاراتها، له عدة مصنفات، توفي بالمدينة النبوية المنورة سنة ١٤٠٢ رحمه الله تعالى. انظر «تتمة الأعلام»: ٢/١٠٨ ـ ١٠٩.

مدنية هي سورة البقرة، وإذا أردنا أن نفهمها حق الفهم وجب علينا أن نقرأ ما سبقها وما تبعها من الآيات وحينئذ تتجلى لنا حكمة هذه العبادة وتتبين لنا النتائج التالية:

١ـ لقد تقدم آية الصوم في السورة نفسها آيات منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[1]، وبعد ذلك بثلاث آيات قوله أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾[2]، فهذه الآيات تدل على أن الصوم ليس هو الأصل في حياة الإنسان بل الأصل إباحة الطعام، وأن قاعدة الفطرة الإنسانية السليمة هي في الأخذ مما سماه الله الطيبات وجعله مستحقاً لشكر الإنسان له، ومن هنا يستنتج أن الكف عن الطعام ـ أعني الصوم ـ استثناء من القاعدة ودواء موقت لعلة تستوجبه ولحكمة تقتضيه، وأنه مقيد في حدود العلة أو الحكمة التي من أجلها فرض ووضع في موضعه من النظام الإنساني، ولذلك جاء في آية الصوم النص على تحديد زمنه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾[3] ولذلك كان صوم الدهر أمراً مكروهاً في الإسلام، وقد نبه الرسول الكريم ﷺ على ذلك بصراحة في قوله: «**من صام الأبد فلا صام ولا أفطر**»، وفي رواية أخرى: «**ولا صام من صام الأبد**».

٢ـ لقد ورد قبل آية الصوم ببضع آيات آية تنص على قاعدة عامة في

(١) سورة البقرة: آية ١٦٨.
(٢) سورة البقرة: آية ١٧٢ ـ ١٧٣.
(٣) سورة البقرة: آية ١٨٣ ـ ١٨٤.

العبادات وأنها ليست مقصودة في ذاتها بل هي جزء من نظام عام ولا قيمة لها في ذاتها إذا أهملت بقية أجزاء هذا النظام وعطلت.

قال تعالى: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[1].

تحدد هذه الآية حقيقة البر وتنفي ما يفهمه الناس من أن البر والصلاح هو بمجرد إقامة بعض الشعائر فتقول إن البر ليس في التوجه إلى جهة معينة ـ إشارة إلى استقبال القبلة في الصلاة ـ وهذا المعنى وارد في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾[2].

وقوله: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[3].

ثم تعدد الآية عناصر البِرّ وهي:

١ـ الإيمان بالله وحسابه وما يتبع ذلك.

٢ـ بذل المال في وجوه عديدة ذكرها.

٣ـ إقامة الصلاة.

٤ـ الوفاء بالعهد.

---

(١) سورة البقرة: آية ١٧٧.

(٢) سورة الحج: آية ٣٧.

(٣) سورة التوبة: آية ١٩.

٥ـ الصبر في كل الأحوال وخاصة في الشدة والحرب.

وقد ختمت الآية بما يؤكد معناها وفكرتها الأساسية، ذلك أنها وصفت المستجمعين لهذه العناصر بالصدق والتقوى على سبيل الحصر وكأنها نفت هذه الصفة عن غيرهم ممن يكتفون بظاهر العبادات.

وأما ما جاء بعد آيات فقد تضمنت أموراً اجتماعية خطيرة، الأمر الأول منها: النهي عن أكل الأموال بالباطل ويدخل تحت هذا العنوان جميع أنواع المظالم المالية: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1].

والأمر الثاني: القتال في سبيل الله ردّاً للمعتدين: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[2]، وحماية لحرية العقيدة حتى لا يفتن المؤمن عن إيمانه: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3].

والأمر الثالث: الإنفاق في سبيل الله: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[4]، والهلاك هنا ـ على ما فسره كثير من الصحابة ـ هو البخل عن الإنفاق في سبيل الله وخاصة في الجهاد ومقاتلة العدو.

هذه هي الآيات التي أحاطت بآيات الصوم وتضمنت هذا المعنى الهام وهو أن الصوم ليس عبادة مستقلة مقصودة لذاتها وإنما هي جزء

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٨.
(٢) سورة البقرة: آية ١٩٠.
(٣) سورة البقرة: آية ١٩٣.
(٤) سورة البقرة: آية ١٩٥.

من نظام له أجزاء أخرى، وليست منفصلة عن النظام الاجتماعي؛ فالعدالة الاجتماعية، والامتناع عن الظلم في الأموال، والقتال في سبيل صد العدوان، وحماية العقيدة، وبذل المال في سبيل المصلحة العامة ـ وخاصة في سبيل صد الاعتداء ـ هي الغايات المقصودة من تربية النفس على كف الشهوات وإمساكها عن الملذات وترويضها على التضحية بها في سبيل ما هو أعظم منها.

وقد فرض الصوم في السنة الثانية للهجرة في وقت كان القتال قد سمح به لصد الاعتداء، وكان إنفاق المال ضرورياً لبقاء المجتمع الإسلاميّ الجديد لا مجرد صدقة على سائل أو فقير، وكان الجو كله جو تضحية وجهاد بالنفس والمال، في مثل هذا الظرف بالذات فرض الصوم وجعل عبادة أساسية من العبادات، ووضع في مكانة من هذا النظام العام المشتمل على الجهاد والإنفاق وبذل المال ليكون تمريناً للنفس وتدريباً وتربية لها وترويضاً، لا لمجرد الزهد في طيبات الحياة، كما يؤكد هذا المعنى ما ورد من أن أحد الصحابة في أثناء إحدى المعارك مر بغار فيه ماء فحدثته نفسه أن يقيم فيه ويصيب مما حوله من بقل ويتخلى عن الدنيا، ولكنه حين استشار النبي صلوات الله عليه قال له: «**إني بعثت بالحنيفية السمحة، والذي نفسي بيده لغُدْوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، ولمقام أحدكم في الصغار ـ أي في صف القتال ـ خير من صلاته ستين سنة**»[1].

وقد فرض الصيام على مرحلتين: كان في الأولى منهما على سبيل

---

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٢٦٦.

التخيير؛ إذ كان المرء مخيراً بين أن يصوم أو أن يطعم مسكيناً فيجزىء ذلك عنه، كما روى ذلك البخاري في أحاديث متعددة عن الصحابة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾[١].

ثم كان في المرحلة الثانية فرضاً محتماً فنسخت هذه الآية بالآية التالية: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[٢]، فلم يستثن إلا المريض والمسافر، وذلك نفياً للحرج والتضييق ورغبة في التيسير وتكليف الإنسان بما يطيق من التكاليف: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٣].

وقد تلت هذه الآية آية تذكر بأن الصوم عبادة تقرب من الله وتثير في النفس معاني الصلة به وتشير إلى أن الأصل في العبادات تفتح القلب وتوجهه إلى الله ومناداته ومخاطبته ودعائه واستشعار وجوده: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[٤].

وهذه الآية الرائعة التي تصور حقيقة الدعاء وأنه ليس مجرد كلام بل يجب أن يُسبق من قبل الإنسان باستجابة لله وتلبية، وليس من

(١) سورة البقرة: آية ١٨٤.
(٢) سورة البقرة: آية ١٨٥.
(٣) سورة الحج: آية ٧٨.
(٤) سورة البقرة: آية ١٨٦.

المعقـول أن تطلـب مـن أحـد أن يلبيـك ويجيبـك وأن لا تجيبـه أنـت إذا دعاك، فلنستجب، وليست هذه الاستجابة أمراً سهلاً فإنها تتضمن تنفيذ أوامر الله وانصراف النفس البشرية إلى تحقيق الرسالة التي أمره الله بالقيام بها وأداء الأمانة التي كلفه بها؛ سواء في حياته الشخصية أو في حياته العامة بين بني جنسه من البشر، لقد اشترط لتلبية الدعاء الإيمان به والاستجابة له ليصل البشر إلى الرشاد والسداد، ليس الدعاء كلاماً مجرداً يعقبه إجابة الطلبات، فإن لذلك ثمناً عظيماً إنه الفعالية التي يبذلها الإنسان في حياته في سبيل ما يرضي الله، إنه الجهاد الذي أمر الله به في هذه الحياة، جهاد النفس وشهواتها، جهاد الأهواء الغالبة والملذات المستأثرة، وجهاد الظلم ومكافحته، وجهاد الباغين المعتدين من الأعداء، جهاد إقامة العدل والدفاع عن الحق والفضيلة، إن الدعاء الرخيص بمجرد رفع الأيدي وتحريك اللسان دون العمل لا يعدل شيئاً ولا يرجي منه نتيجة، وإنما الدعاء بذل الجهد والتوجه إلى الله بالقلب والشعور وبالعمل والجوارح والاستجابة لدعوة الله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[1]. ﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[2].

ذلكم رمضان في صورته الكاملة وفي المخطط العام لنظام الإسلام، فإلى دعوة الحياة إلى معارك النصر، إلى لقاء الله، إلى جنات الخلد أيها المؤمنون[3].

---

(١) سورة الأنفال: آية ٢٤.

(٢) سورة محمد ﷺ: آية ٧.

(٣) مجلة «حضارة الإسلام»: السنة الثانية، العدد ٩، رمضان سنة ١٣٨١، ص ٩٨١ ـ ٩٨٥.

الصوم والتربية النفسية
للأستاذ الدكتور محمد أبو شهبة

قال الأستاذ:

من مقاصد الشريعة الإسلامية إصلاح المجتمع الإنساني، وإقامة هذا الإصلاح على أساس من الخلق الكريم والفضائل الثابتة التي لا يقوم مجتمع فاضل إلا عليها، كالتعاطف والتراحم والتعاون والتكافل والتحاب والتواد، والإصلاح لا يثمر ثمرته ولا يُرجى بقاؤه إلا إذا كان منبعثاً من قلب الإنسان ونفسه وشعوره ووجدانه، والإسلام يهدف فيما يهدف إليه أن يقوم الإصلاح على أسس روحية ومعان نفسية، لا على أساس من سلطة الحاكم وسطوة القانون فحسب، وإلا فسرعان ما يمرق الإنسان من قيود الخير والحق والفضيلة إذا غفل الرقيب أو وجد ثغرة ينفذ منها إلى التحلل من سلطان القـــانون.

وقد أشار الصادق المصدوق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى هذا الأصل الذي يقوم عليه الإصلاح الصحيح بقوله ـ فيما رواه البخاري عنه ـ «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح البدن كله، وإذا فسدت فسد البدن كله، ألا وهي القلب**»، ولذلك كثيراً ما تجد القرآن والسنة يدعوان إلى الإخلاص ومراقبة الله وتحسين النيات وتزكية النفوس والخشية من الله، لأنها دعائم الصلاح والاستقامة.

ومن محاسن الإسلام أنه حينما يدعو إلى تقويم السلوك الإنساني وجعله موائماً للحق والخير والفضيلة لا يعمل على كبت الغرائز النفسية وتجاهل الفطرة البشرية وإنما يعمل على توجيه الغرائز توجيهاً سليماً، وتنمية النزعات النفسية الخيرة بحيث تسيطر على أعمال الإنسان وسلوكه الديني والدنيوي، وذلك عن طريق التشريعات الحكيمة التي توصل إلى المقاصد الشريفة.

ومن شرائع الإسلام التي تربي النفوس على الأخلاق الحميدة، وتنمي نزعاتها الخيرة شرعة الصوم، وأول صفة ينميها الصوم في نفس الصائم هي قوة الإرادة، فالصائم الذي يفطم نفسه عن المآكل والمشارب والشهوات الجسدية والنفسية وهي على قيد الذراع منه مدة من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ثم يستمر على ذلك شهراً كاملاً لا بد أن يخرج من صومه وهو ذو إرادة قوية عاقلة حازمة، فما بالك إذا تكرر الصوم عاماً بعد عام، بل ماذا يكون الحال لو أنه حرص على أداء الصوم المسنون في جميع أيام العام حتى يصير الصوم له عادة، والمسلم إذا تربت فيه قوة الإرادة أصبح مسيطراً على رغبات نفسه فلا يكون عبداً لهواه ولا أسيراً لشهواته، ومن ثم يملك زمام نفسه ويوجهها التوجيه الواجب، وحينئذ يسهل عليه الائتمار بما أمر الله وإن كان شاقاً على النفس، والانتهاء عما نهى عنه وإن كان محبوباً لها، وإذا علمنا أن أكثر الفساد والاضطراب في حياة الناس إنما يأتي من ضعف الإنسان أمام شهواته وأهوائه أدركنا ما للصوم من أثر بعيد في حركة الإصلاح والتطهير وتكوين المجتمع المثالي الكريم، وما أشدَّ احتياجَ المسلم الذي تتناوشه زخارف الحياة وزينتها إلى إرادة قوية حازمة تعصمه من الفتن وتقيه شر الزلل، وعلى قدر تفاوت

البشر في قوة إرادتهم وصلابتهم في إحقاق الحق وإزهاق الباطل تكون منازلهم في الفضل والكرامة، وصلاحهم وإصلاحهم.

ولا عجب إذا كان الصوم سمة من سمات الأنبياء والصديقين والصالحين، وأن اتخَذوه وسيلة من وسائل مجاهدة النفس وتربيتها تربية صحيحة، وأن جعله الله فريضة في كل شرع ودين، وصدق الله حيث يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾[1].

وإن الأمم في حياتها لتتعرض لِهزات اقتصادية ربما يترتب عليها نقص في مواد معايشها وأرزاقها، وغلاء فاحش في بعض الأسعار، فلو أن كل إنسان ـ بما كسب من قوة الإرادة ـ كف نفسه عن شهواتها وفطمها عن بعض مستلذاتها وتقشف بعض التقشف لمرت كل الأزمات الاقتصادية بسلام، ولاضطر الجشعون والمستغلون لحاجات الناس إلى الحد من غُلَوائهم وعرض السلع بأقلَّ من ثمنها المعتاد، ورحم الله القائل:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على
حب الرضاع، وإن تفطمه ينفطم

ومن الصفات النفسية التي يربيها الصوم في نفس الصائم صفة المراقبة، مراقبة الله عزَّ وجلّ في السر والعلن والغَيبة والشهود، والمسلم إذا راقب الله حق المراقبة فقد بلغ غاية الإحسان، وفي حديث جبريل المشهور الذي رواه الشيخان أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: ما

(١) سورة البقرة: آية ١٨٣ ـ ١٨٤.

الإحسان؟ قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» ولا تكاد تجد عبادة تتجلى فيها مراقبة الله مثل الصوم، فالصائم الذي لا يراقب الله سبحانه ربما يأكل ويشرب في الخفاء ثم يظهر أمام الناس بمظهر الصائم المتنسك.

فالصوم في الحقيقة سر بين العبد وبين ربه، ولا يطلع على حقيقته إلا الله، ولكونه سراً بين العبد وبين ربه أضافه الله إلى نفسه وشرفه بهذه الإضافة، ففي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنَّة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم...**» الحديث.

ولا يزال الصوم يقوي من صفة المراقبة حتى تصير ملكة من الملكات النفسية، وإذا صارت ملكة راسخة تحكمت في سلوك الإنسان ووجَّهته إلى المسارعة في الخيرات والإحجام عن المنكرات؛ إذ كلما أمرته نفسه الأمارة بالسوء بمنكر تذكر عظمة الله وجلاله وأنه مطلع عليه ومراقب له فتقول له: اترك ولعمل الخير أسرع، وصدق الله حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾[1] وصلاح الأفراد والجماعات متوقف إلى حد كبير على هذا الوازع النفسي الذي يجعل من صاحبه رجلاً حاضر القلب متيقظ الشعور حيَّ الضمير.

ولو أن كل إنسان وُكل إليه أمر من الأمور راقب الله في عمله وفيمن

---

(١) سورة الأعراف: آية ٢٠١.

تحت يده، وتيقن أن هنا محاسِباً لا يغفل لقطع دابر الفساد والشرور والآثام، ولساد الحق وعم الخير البلاد والعباد.

وصفة أخرى يربيها الصوم في النفس، تلك هي صفة الصبر والاحتمال، والصبر على الطاعات واحتمال ما يحيط بها من مكاره ومشاق، والصبر عن المعاصي والشهوات، أليس ما يتطلبه الصوم من الصائم أن يكون على سمت خاص في العبادة، وأن يكف نفسه عن شهوات بطنه وفرجه، ولسانه عن الهُجْر والفحش من القول، وجوارحه عن فعل ما يؤثم؟ وهل الصبر إلا حبس النفس على ما تكره وصرفها عما تحب وتشتهي؟ فالصبر ثمرة من ثمرات الصوم وغاية من غاياته، وفي حديث الباهلي الذي رواه أبو داود أن النبي ﷺ قال له: «**صم شهر الصبر ويوماً من كل شهر**»، فقد سمى رسول الله ﷺ رمضان شهر الصبر، ولا يزال الصائم يروض نفسه على الصبر حتى يصير عادة، وحينئذ يمكن للمسلم أن يشق عباب الحياة المتلاطم بأمواج الفتن والبلاء والشدائد والمكاره، فالصوم اختبار عمليّ لتعرف أحوال النفوس البشرية ومدى صلاحيتها لتكاليف الحياة وحمل أعبائها، وأن الصوم في الأيام الشديدة الحرارة ـ ولا سيما مع مزاولة العمل الشاق ـ ليستحق أن يكون درساً عملياً في الاحتمال دونه كل درس، وما من شخص في الدنيا إلا وهو في حاجة إلى الصبر وترويض نفسه عليه، فالفلَّاح في مزرعته، والصانع في مصنعه، والعامل في عمله، والطالب في استذكار دروسه، والأم في القيام بأعباء بيتها كلهم في حاجة إلى هذا الدرس العملي.

هذا إلى ما في الصوم من غرس الرحمة في القلوب، فترق القلوب القاسية، وتتهذب النفوس الشحيحة، وتبسط الأيادي المغلولة وتدر

الخير على الفقراء المحتاجين الذين تمر بهم الأيام ولا يجدون ما يقيم صلبهم ويرطب قلوبهم ولا يشعرون بأن لهم إخواناً في الإنسانية يمدون إليهم يد المعونة والإنفاق، فالصائم إذا أحس من نفسه ألم الجوع وحرارة العطش ومرارة الحرمان من لذائذ الحياة وطيباتها دفعه ذلك دفعاً إلى العطف والبذل والعطاء؛ وشتان بين من يؤمر بالإعطاء وقد ذاق ألم الجوع ومرارة الحاجة وبين من يؤمر ولم يجع يوماً ولم يذق ألم الحرمان، وإن المجتمع الذي لا يعطف فيه الأغنياء على الفقراء ولا يرحم فيه الأقوياء الضعفاء ولا يسود فيه التكافل والتعاون على البر والخير لهو مجتمع مجرد من خصائص الإسلام ويخشى عليه من الزوال والدمار.

وبحسبنا ما ذكرت في بيان أثر الصوم في تربية النفوس وإصلاح المجتمع إصلاحاً قائماً على دعائمَ روحيةٍ ونفسيةٍ لتكون أبقى أثراً وأدوم نفعاً، ولعلك أدركت معي ـ أيها القارىء الفطن ـ حكمة الله الدقيقة السامية في تشريع الصوم، وأن تشريع ربك كله خير ورحمة وصدق وعدل، وصدق الله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1] [2].

---

(١) سورة الأنعام: آية ١١٥.

(٢) مجلة «الأزهر»: المجلد ٢٤: الجزء ٩، رمضان سنة ١٣٧٢، ص ١٠٩٧ ـ ١١٠٠.

رمضان يكشف لنا الطريق
للأستاذ فتحي عثمان

قال الأستاذ:

من شعائر هذا الدين ما شرع ليتخلل الحياة اليومية العادية، ينفخ فيها روح الإيمان ساعة بعد ساعة، دون أن يقتطع المرء من بيئته ومشاغله إلا بقدر، وذلك واضح في فرائض الصلاة الخمسة في كل يوم.

ومن شعائر هذا الدين ما اتجه إلى تغيير نظام الزمان الذي يعيش خلاله الإنسان تغييراً مباشراً، ويتجلى هذا في فريضة الصيام التي تغير مواعيد الطعام والشراب إلى أوقات أخرى تماماً.

ومن شعائر هذا الدين ما اتجه إلى تغيير المكان الذي يحيا فيه الإنسان تغييراً مباشراً، ويظهر هذا في فريضة الحج التي يرحل فيها المسلم إلى صحراء، ويلبس ملابس الإحرام، وتمتنع عليه طوال الإحرام أعمال معينة مما كان يزاوله في الحياة اليومية عادة.

ولكلٍّ من هذه الشعائر أثره في حياة الإنسان: الصلاة تنبيهات خفيفة لضبط الآلة الإنسانية خلال مجرى الحياة العادية، والصوم فك ومسح لهذه الآلة مما يكون قد علق بها على مدار العام عن طريق تغيير للعوائد والنظام، والحج غيار كامل لما تلف من هذه الآلة طوال العمر.

وكلما كانت الشعيرة الدينية أطول أمداً وأكثر تغييراً للمألوفات

الرتيبة كلما تركت انعكاساتها على نفس الفرد وواقع المجتمع، ويبدو جلياً مدى اهتمام الإسلام بأثر المجتمع على نفوس الأفراد؛ فهو لا يترك المؤمن يشقى بالإيمان في بيئة تلح عليه ضغوطها المادية والأدبية لينخلع من دينه، وإنما يرسي بالإيمان نظاماً للفرد والمجموع يحقق سلام الضمير وسلام البيت وسلام الجماعات كلها دون تصادم أو تمزيق.

والذين يريدون دراسة صحيحة للأسلوب الديني في التربية والتنظيم، فعليهم برمضان فهو جامع لمناحٍ متعددة من أسلوب الدين في التوجيه:

فرمضان أولاً: عَلَمٌ على المجتمع الإسلامي يميزه فلا يخطئه السائح القادم من بعيد.

فمع أن الصيام شعيرة حقيقتها بين العبد وربه «**كل عمل ابن آدم له، إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**»، إلا أن لهذه العبادة ظواهر تراها في المجتمع كله خلال رمضان.

وجو رمضان الاجتماعي: هو الأثر الباقي الذي لم يتخلف عن حياتنا الإسلامية، ومهما تاه المسلمون وتفرقت بهم السبل عبر شهور العام فإنهم يفيئون إلى الطريق في رمضان.

فنهار رمضان تقفل فيه حوانيت الطعام، وتمتنع الأفواه عن الازدراد أو الاحتساء، ويصبح الشذوذ أن ترى إنساناً يأكل أو يشرب أمام الناس.

وتعود الحساسية تغشى جماعات المسلمين فلا يطيقون رؤية ناشز آبق، ويعود الحياء إلى وجوه أفراد المسلمين فقلما ترى مجاهراً بعصيان، وإن رأيته سارع إلى الاعتذار والتبرير!

لا أقول إن هذا هو الحكم السائد الشامل ولكن لو قارنت الحال

في موقف الناس من مخالفات رمضان وموقفهم إذا رأوا الكاذب الخائن أو العِرْبيد فيما اعتادوه من أيام لتحققت الفارق الكبير.

وقبل المغرب ترى مجتمعاً صائماً يستعد للفرحة الأولى: فرحة الفطر: إقبال على حوانيت الطعام، وترى الطرقات تموج بالناس، ثم رويداً رويداً تتثاقل الأقدام عن جوب الشوارع لتسكن في البيوت، وهكذا تخلو الطرقات وتغلق معظم الحوانيت، وتصير المدن في حالة هدوء تام يقطعه صوت مدفع الإفطار.

وما يكاد ينتهي الإفطار حتى تنتفض الشوارع حركة، وتقذف البيوت بسكانها إلى تراويح رمضان، ثم سهرات رمضان، وتعوض البلاد بالليل ما افتقدته بالنهار.

حتى الأطفال الصغار لهم في رمضان تقاليد وعوائد، يمهدون بضجيجهم ساعة العصر لضربة المدفع، فإذا أقبل الليل كان لهم سمر ولهو، ومنهم من يصر على أن يرافق المسحراتي أو يقلده ليغني الناس عنه.

إن رمضان هنا يلقى علينا درساً نفيساً في تطبيق الإسلام، فلن ينهض دين الله إلا إذا تعاون عليه الفرد والمجموع، الصغار والكبار، الرجال والنساء، الأسرة والمدرسة، الإذاعة والصحافة، الفن والأدب، وهكذا.

ولن تستمر جذور دين الله غائرة ضاربة متغلغلة، إلا إن كان المجتمع كله يتعاون على المعروف ويتواصى بالحق والخير، فينكر كل مخالف مارق حتى يجد نفسه غريباً في مجتمع تميز بالطهر والإيمان.

ولن ينجح التوجيه الديني إلا إن أشركنا فيه نساءنا وأطفالنا، وعمرنا

به أيامنا وليالينا، ولا أعني بالتوجيه الديني إزجاء المواعظ فحسب، ولكن أعني الحياة الكاملة التي يشيع فيها الصدق في القول والإخلاص في العمل، والحب لله والبغض لله.

الحياة التي لا يكون فيها الدين أحمالاً وأثقالاً وأعباء فقط، بل يتخلل الدين كل دروب الحياة ومسالكها ويسد كل ثغراتها، جدَّها ولهوها، فرحها وترحها، سلمها وحربها.

الحياة التي يكون الدين فيها تقاليد مستقرة، وعرفاً جارياً، وقدوة سائدة، ولا يكون المعروف والمنكر مجرد كلمات يُصرخ بها في واد، بل حقيقة واقعة تحتمها حياة فاضلة لمجتمع يسوق تنظيمه نفسه إلى الخير دون ملاحاة أو اصطراع، مجتمع فيه كفالة للحاجات، وتعاون على الملمات، وتصارح في الحق، ولا مكان فيه للكذب والنفاق والخيانة؛ إذ لا يجد المرء فيه ما يخافه ليتقيه بالالتواء والتعقد، وإنما هو آمن على حريته وعمله وبيته ووطنه وعقيدته.

فليكن مكان الدين كله من حياتنا مثل مكان رمضان بيننا، وحينئذ يخلد الدين في واقع أمرنا خلود رمضان على تتابع الأعوام.

ورمضان مدرسة، نرى في رمضان: ارتباط الوجدان بالفكر والعمل، وارتباط التكليف بالتيسير، وارتباط الحرمان بالمتعة، وارتباط الفرد بالمجموع، وارتباط الشعائر بالحياة.

وفي هذه الصور المتعددة من الارتباط، تعبير عن الوحدة في الدين والحياة؛ فإن الإنسان مشاعر وأحاسيس، والإنسان عقل وفكر، والإنسان سلوك ونزوع.

ورمضان نموذج لاستيعاب الدين حاجات الإنسان كلها؛ فالصوم في رمضان شفاء ووقاية للنفوس، والقرآن نزل في رمضان ذكراً وضياءً للعقول، وفي رمضان ذكريات جهاد وكفاح ترسم للمؤمنين منهج السلوك، وفيه زكاة الفطر حق للسائل والمحروم.

ورياضة النفس بغير فكر أصيل لن تزيد الإنسانية ثراء إلا في عدد الذين ينامون على المسامير، ويسيرون على الحبال ويبتلعون النيران ويلعبون بالسكاكين، والفكر الأصيل إذا لم تعصمه نفس طهور قد يكون وبالاً على صاحبه وعلى الناس، وإذا عفت النفوس واستقامت العقول فلا بد من عمل وثمر يعمر الدنيا بالخير.

والمسلمون يستقبلون في رمضان ندوات القرآن بعد صيام وقيام، وما أجدرهم أن يخرجوا من رمضان بنفوس سوية وعقول مستنيرة لو كانوا يعقلون.

ورمضان فيه تكاليف ومشقة، ولكنه يعبر عن روح الدين كله إذ يجمع إلى ذلك التخفيف والتيسير، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١).

الدين عندنا ليس إعناتاً للناس وتشديداً في لحظات، ثم بعد ذلك

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٥.

إطلاقاً للعنان وإرخاء للشهوات في غير أوقات الشعائر وبعيداً عن دور العبادة.

والدين عندنا ليس إضناءً للبدن وتعذيباً للجسد زعماً بأن ذلك يرقي الروح، هذا وذاك من الأفكار الغريبة عن ديننا، الدخيلة عليه.

الدين عندنا تحقيق لكل الضرورات والحاجات والآمال، وتقرير للراحة الإنسانية في صورتها الكاملة: راحة للجسد والروح، للنفس والعقل، للفرد والمجموع.

لذلك نرى الدين الذي فرض الصوم في رمضان ينهى عن الصوم في الأعياد، وينهى عن الوصال في الصوم، ويدعو إلى تعجيل الفطر وتأخير السحور رحمة بالصائمين: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[١].

ومن أجل ذلك خفف الله عن المسافر والمريض «ليس من البر **الصيام في السفر**»...

دين واقعي إنساني: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[٢].

ولكي ينفي الدين معنى التعبد بالحرمان وإجهاد البدن، ويثبت معنى التعبد بطاعة أوامر الله سواء كان فيها تخفيف أو تشديد فإنه جعل

---

(١) سورة المائدة: آية ٦.

(٢) سورة النساء: آية ٢٧ ـ ٢٨.

الصوم ساعات معدودات حتم الفطر بعدها وحرم المواصلة فوقها، وأحل ليلة الصيام أن يخلو الرجل لأهله.

وأنت تقرأ في ذلك حُنُوّ الربانية الرحيمة على الطبيعة الإنسانية التي يعلم الله سرها ونجواها: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾(١).

وفي هذا أصل جليل، حدّد فيه الإسلام فطرته إلى دوافع النفس، فلم يزهد في الاستجابة لها ولم يحط من قدرها، بل عمل على إرضائها بما يغني الفرد ولا يحيف على المجتمع، بعيداً عن كبت المتزمتين أو انطلاق الفجرة.

هكذا يسوق الدين أحكام قضاء الوطر في ثنايا أحكام الصيام حتى يغدوا الصيام قربة لله بالامتناع عن الطعام والشراب والنساء، كما يغدو تلبية نداء الفطرة قربة لله بابتغاء ما كتبه الله لعباده ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

فإذا انتهى رمضان ختم الله أيامه المباركة بعيد الفطر، وهكذا يتزاوج في الدين الصبر على المشقة، ثم الإقبال على المتعة والبهجة، فلا إفراط ولا تفريط...

وقد شاء الله أن يكون ختام الصوم عيداً، وأن يكون ختام الحج

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٧.

عيداً، وكما تكون الطاعة باحتمال مشقة الصوم والحج، تكون الطاعة بإشاعة مشاعر السرور في عيد الفطر وعيد النحر.

وليس الصوم مقصوراً على تربية الفرد فحسب، بل إنه يضفي آثاره على الفرد وعلى المجموع، فيعقب صوم رمضان زكاة الفطر، كما أن أيام الحج تنتهي بالأضحية في عيد النحر.

وفي هذا وذاك يتقرر حق الفقير والمسكين، وتثمر شعائر العبادة ثمارها في روح الفرد في مصالح المجموع على السواء.

وأخيراً فإننا نجد ارتباطاً كاملاً بين الصيام والحياة، وهو ارتباط نجده في كل شعيرة من شعائر الإسلام، فليست الشعائر في الإسلام مقصودة لذاتها، وإن لم ينعكس أثر الصلاة والصيام والحج على واقع حياة المصلين والصائمين والحجاج فإنهم لم يعرفوا الطريق بعد: «**رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر**»(١).

الشعائر في الدين مدرسة أخلاقية، وعيادة نفسية، وتربية اجتماعية: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾(٢). ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٣). ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾(٤).

---

(١) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة وصححه السيوطي في جامعه الصغير.
(٢) سورة العنكبوت: آية ٤٥.
(٣) سورة البقرة: آية ١٨٣.
(٤) سورة البقرة: آية ١٩٧.

وفي الصيام بالذات توجيه لتقوية الإرادة والعزيمة، وتعود الصبر والاحتمال، وتأكيد لانقياد الفرد لأحكام الله في أخص مقومات حياته غرائز حفظ النفس وحفظ النوع: «**الصيام جُنة من النار، فمن أصبح صائماً فلا يجهل يومئذ، وإن امرؤ جهل عليه فلا يشتمه ولا يسبه، وليقل إني صائم**»، «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**».

ويبين القرآن ثمرة تربية المجاهدين على الصبر: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾[1]، فأما الذين لم يطيقوا الصبر على العطش بعض الوقت فقد كانوا أعجز عن مواجهة العدو: ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾.

وأما الذين ثبتوا على الطاعة فقد واجهوا عدوهم ثابتين: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[2].

فهل يخرج المسلمون من رمضان بأخلاق في عزائمهم وسلوكهم تلين لهم مصاعب الحياة؟؟

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٤٩.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٤٩ ـ ٢٥١.

وهل يعرف المسلمون أن شعائر العبادة في الإسلام نماذج مركزة للتعليم، لن تغني شيئاً إذا لم تتحقق عن طريقها النماذج الأصيلة على الطبيعة في واقع الحياة؟؟

وهل يعلم المسلمون أن شهادات أداء الشعائر لن تنفعهم إذا لم يجتازوا بها ميدان العمل، ويتفوقوا بها على من لا يحملون مؤهلاتهم؟؟

وهل يصمم المسلمون على أن يجعلوا للإسلام في حياتهم قاعدة اجتماعية يتضامنون على إرسائها، كما أرسوا بينهم تقاليد رمضان[1]؟؟

(١) مجلة «الأزهر»: الجزء التاسع، رمضان، المجلد ٢٩، ص ٨٠٨ـ٨١٦ بتصرف.

الصوم في مجال اجتياز الأزمات
للدكتور محمد البهي[١]

قال الدكتور:

إنه السبيل لوقوف المؤمن في صبر وإصرار في وجه الحرمان المؤقت ومشقته، ولنجاحه في الاختبار بنعم الله وعدم الافتتان بها، ولكي يستطيع المؤمن بالله وحده أن يلتزم بما آمن به، وأن يلتزمه مختاراً، وأن يجتاز العقبة النفسية الداخلية، وهي هواجس الشهوة والهوى في سبيل التنازل عن بعض ما في يده ـ كثر أو قل ـ تحقيقاً للمنفعة العامة للمال كانت عبادة الصوم كتجربة نفسية وكعبادة يتقرب بها إلى الله، يجب أن يمر بها المؤمن، ويستمر من وقت لآخر في مباشرتها.

ولكي يستطيع المؤمن بالله وحده، أن يواجه كذلك مشقة الحرمان ويتغلب عليها، حتى لا يذل لفتنة المتع الحسية وإغرائها، وعندئذ يقع

(١) محمد البهي، مفكر إسلامي، داعية إلى التجديد والإصلاح الاجتماعي، ولد سنة ١٣٢٣، بمحافظة البحيرة، والتحق بمعهد دسوق الديني، ونال شهادة العالمية، وابتعث إلى هامبورغ بألمانيا، حصل خلالها على الدكتوراه، وعين بعد عودته مدرساً في كلية أصول الدين، ثم رأس قسم الفلسفة بكلية اللغة العربية، وعمل أستاذاً زائراً في عدة جامعات عربية وأجنبية، وتولى وزارة الأوقاف، له عدة رسائل وكتب، توفي سنة ١٤٠٣ رحمه الله تعالى. انظر «تتمة الأعلام»: ٢/ ٥٣ ـ ٥٤.

تحت التبعية لها من جديد فيسيء إلى إيمانه بوحدة الألوهية، وينتقل إلى سلوك الشرك والتقلب في العبادة من أجل هذه المتع كانت عبادة الصوم هي السبيل الواضح للمؤمن في الوقوف في عزم وصبر وإصرار أمام مشقة الحرمان المؤقت.

وتحقيق المنفعة العامة للمال عن طريق الصوم ليس إذن عطفاً على من تُعطى إياه، بقدر ما هي واجبة الأداء في صورة لا يشق على النفس أداؤها عندئذ، فأوجه المنفعة العامة ليست فحسب رعاية العاجز عن السعي في الحياة، ولا تغطية حاجة من يقصر سعيه عن ضرورات معيشته، وإنما هي عديدة، بقدر ما تحتاجه المصلحة العامة للأمة.

فالصوم الآن ـ وهو التجربة النفسية على الحرمان كقربى إلى الله ـ يستهدف تحقيق «القدرة» في الذات، وهي حقيقة نفسية تصور حرية الإرادة الفردية في تحديد الموقف وتعيين سبيل السلوك في الحياة، وبهذه القدرة الذاتية يفي المؤمن بما يلتزم به، ويكون وفاؤه ليس عن إلزام خارجي له.

هذه التجربة النفسية على الحرمان هي الكفيلة بتحقيق النظرة الإسلامية في المادية وفي المال معاً.

فإذا كانت النظرة إلى المادية على أنها مصدر الفواحش والمنكر والبغي والطغيان والعبث والفساد فالوقاية من الاستسلام إلى الاتجاه المادي في الحياة، أو تحدي هذا الاتجاه إنما هو في استساغة الحرمان استساغة نفسية وعدم اعتبار أنه شقاء، بل اعتبار أنه ضرورة من ضرورات الحياة البشرية تقع، كما تقع أية ضرورة أخرى من ضروراتها.

وإذا كانت النظرة إلى المال في الإسلام أيضاً على أن وظيفته وظيفة اجتماعية، أي أن منفعته عامة للكل، فالسبيل إلى تيسير أمر هذه الوظيفة الاجتماعية للمال، وتحويل تلك النظرة إلى ما يشبه العادة في سهولة أدائها يكمن في تجربة الصوم كعبادة، فالإمساك عن المتع الحسية وقتئذ أي وقت كون الصوم عبادة ليس عن عجز في اقتنائها، إذ هي موجودة ومتوفرة، وإنما عن عبادة وقربى إلى الله تعالى، عن اختيار ومشيئة.

وما يسمى بـ«القناعة» ليس إلا إمساكاً باختيار القانع عن متع حسية وليس عن عجز عنها، بل هناك رغبة في رضاء الله، بدلاً عنها عن هذه المتع.

وتجربة الصوم كعبادة إذا كانت تجربة عن استساغة الحرمان استساغة نفسية من المتع الحسية وشهوات النفس فيها، وليس عن عجز وإنما عن قدرة، وإذا كانت ضرورة في حياة المؤمن كسبيل لتحويل النظرة الإسلامية إلى واقع في نفس الذات، هو عادة أو إرادة أو طاقة على الصبر والتحمل فإنه لا بد أن يكلف بها من يقدر عليها، وأن تكون فترتها في استطاعة الإنسان، وأن تتخلل حياة الإنسان، كما يتطلب شأن العبادة التكرار، وكما تتطلب القوى النفسية وجود البواعث لحيويتها.

وهنا نجد القرآن الكريم يحدد في الآيات التالية ما تتطلبه هذه التجربة من أوضاع كي تبقى حية ذات فعالية في حياة المؤمن بالله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

١ـ ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾.

٢ـ ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ

يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٣ـ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾.

٤ـ ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١).

فأولاً: يحدد القرآن فرضية الصوم ووجوبه، وهو فريضة وواجب منذ رسالة الله على الأرض، وفرضيته ووجوبه إذن جزء لا يتجزأ من دين الله، وهو الإسلام ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

وكما يحدد وجوبه يوضح هدفه في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وهو اتقاء فتنة المادية وإغرائها، والوقاية من الانسياق في تيار الاتجاه المادي في الحياة الذي يوصل عادة إلى الطغيان والفساد.

وثانياً: يربط وجوب أدائه باستطاعة الإنسان البدنية، فإن شق على الإنسان في وضع معين له كالسفر والمرض، فيرخص له بالفطر، على أن يعيد صوم الأيام التي أفطر فيها في وقت آخر لا يشق عليه أداؤه فيه.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

ومع هذه الرخصة للمسافر والمريض فالذي يستطيع منهما الصوم يجب عليه أن يخرج من طعام اليوم ما يكفي فرداً عن كل يوم يفطر فيه،

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٣ ـ ١٨٥.

وإن زاد فيما يخرجه بحيث يكفي أكثر من فرد واحد فهو خير له يثاب عليه.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾، ومع ذلك فصوم المسافر أو المريض ـ الذي يستطيع منهما الصوم ـ خير لأي منهما من الإفطار والفدية ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. لأنه سينفع الصائم في شد عزيمته وإبعاد التراخي في قوة احتمال الحرمان ومشقته: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

و «الطاقة» على الصوم التي تتحدث عنها الآية هنا: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ هي طاقة المسافر أو المريض ـ وليس القصد طاقة من يظن منه عدم الطاقة لشيخوخة مثلاً أثناء سفره أو أثناء مرضه، لأن عدم الصوم مع الطاقة للمسافر والمريض يكون رخصة له عندئذ، وإلا إذا كان أيٌّ من المسافر أو المريض يضره الصوم يكون إفطاره واجباً، وليس رخصة: يجوز له بسببها أن يفطر، كما يجوز له أن يمسك.

وثالثاً: يحدد وقت أداء الصوم العبادة والفريضة بشهر رمضان المبارك، وهو بهذا التحديد يهيء جواً روحياً خاصاً يزيد من فعالية الصوم في «التجربة» في سبيل احتمال الحرمان ومشقته، فشهر رمضان هو الشهر الذي أنزل فيه القرآن بهدايته وببيانه للطريق المستقيم، وهو الطريق الذي يُجنب من يسلكه انحرافات المادية وعبثها: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

وأما ما جاء مرة أخرى في شأن المريض والمسافر في قوله هنا: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، فجاء ليوضح

سبب الرخصة في عدم الصوم أثناء المرض أو السفر، وهو دفع حرج المشقة التي قد تبعد الصوم عن كونه «عبادة» أي قربى تنطوي على ميسرة يتقرب بها الصائم إلى الله جلت قدرته: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾.

وقد فهم بعض الذين يعالجون شؤون التفسير لكتاب الله أن ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ هو نسخ لما ورد من قبل في الآية السابقة، في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، وهو في هذا التفسير يقطع صلة هذا القول: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ عن المريض والمسافر في الترخيص لهما بالفطر، مع استطاعتهما مباشرة الصوم، ويجعل هذا الحكم مستقلاً ومنشئاً وضعاً خاصاً في عبادة الصوم وهو: أن القرآن في بداية تقرير عبادة الصوم جعل القادرين من المؤمنين مخيرين بين الصوم أو الفطر مع الفدية وهي إطعام المسكين، ثم نسخ هذا الحكم بما جاء في الآية بعد ذلك من قوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فرفع التخيير عندئذ وأوجب الصوم وحده.

ولكن ماذا يقول صاحب هذا التفسير في بدء النداء للمؤمنين هنا في تقرير الصوم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾؟ أليس هذا القول مساوياً لقول الله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾؟ إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أعاد أمر الوجوب هنا فقط بالنسبة للمدة وهي الشهر، ولكن وجوبه كعبادة تقرر بما جاء في النداء السابق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾.

ورابعاً: يطلب من المؤمنين أن يشكروا الله ـ جلت قدرته ـ ويكبروا

ويهللوا بذكره وبعظمته على فريضة الصوم كعبادة في حياة المؤمن، وعلى ما هداهم إليه في تجاربهم ليكونوا خليقين بإنسانيتهم، وهي التجارب التي تتمثل في العبادات، فكل واحد منها وإن اتصلت بمجال معين في حياة الإنسان اتصالاً وثيقاً فهي تتصل بالجانب الآخر بقسط له أثره فيه، وهي كلها تصقل الإنسان بما تكونه من عادات لديه، وبما تنشئه من ملكات وقدرات خاصة تساعد على تحويل النظر إلى واقع والفكر إلى تطبيق.

ولولا هداية الله ـ ولذا يجب على المؤمنين به شكره ـ لما استطاع أن يخرج الناس من إغراء المتع الحسية والتبعية لها: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾[1].

إن الإمساك لأداء فريضة الصوم وقت الرخاء ـ أي وقت اقتناء المتع الحسية واستطاعة الاستمتاع بها ـ يعبد للمؤمن طريق النجاح إلى الاختبار بالنعم التي يفيض بها الله عليه، والتي لها إغراء وبريق يخدع ويفتن: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[2]، فالصائم عن قدرة ـ وليس عن عجز ـ هو الذي لا يدع نفسه لخداع ما على الأرض من زينة ويتورط في بريقها، وبذلك ينحرف في مسلكه، ويتخذ من تلك النعم طريقاً للظلم والطغيان والفساد بسبب تبعيته لما أترف فيه حينئذ.

وذلك هو الطريق لاجتياز الابتلاء بتفاوت المستويات في الاقتناء واختلاف درجات الثراء ومنازل الغنى بين الناس، فكما جعل الله ما على

---

(١) سورة محمد: آية ١٤.
(٢) سورة الكهف: آية ٧.

الأرض زينة لاختبار أثرها على النفوس كذلك جعل تفاوت الغنى والمال امتحاناً للنفوس الضعيفة والقوية والصادقة في إيمانها والمترددة فيه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾(١)، سريع العقاب لمن جنح بسبب ما آتاه الله من مال ورزق وأصر على غيه فيه، وغفور رحيم لمن خدع به وقتاً ما ثم تاب إلى الله وسلك الطريق السوي، في الاستمتاع به من جهة، وفي تحقيق المنفعة العامة لوظيفة المال الاجتماعية من جهة أخرى.

وكما يكون الابتلاء باقتناء النعم، وبالتفاوت في الثروات، يكون بالحرمان أو بالأزمات في ذلك: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾(٢)، فالحياة عرضة للكثير والقليل، وللرخاء والضيق، والرخاء أو الكثير إذا كان للإنسان ولنشاطه في السعي أثر فيه فإن القليل أو الضيق قد يكون نتيجة لعوامل بعيدة كل البعد عن إرادة الإنسان وقدرته: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾(٣).

والمؤمن الذي يتقرب إلى الله بعبادة الصوم وبإمساكه عن المتع ـ رغم وجودها بين يديه ـ هو ذلك الذي تمر عليه الأزمات والشدائد

(١) سورة الأنعام: آية ١٦٥.
(٢) سورة الأنبياء: آية ٣٥.
(٣) سورة البقرة: آية ١٥٥ ـ ١٥٧.

بسبب نقص في الأموال والأنفس والثمرات، دون أن تحدث أثراً سلبياً في نفسه، حتى يهتز ويستسلم لشهوة النفس، ويسأل ويلح في السؤال لقضاء ما تشتهيه، بطريق أو بآخر، وهو نفسه الذي تدرب على الصبر والاحتمال، فإذا ما كانت الأزمة في الأنفس فإنه ينقل صبره واحتماله إلى مجال فقدها، دون أن يضطرب إيمانه بالله وباليوم الآخر فيميل إلى الاتجاه المادي في الحياة فينكر ربه وآخرته؛ لأن الاحتمال قدرة وطاقة، أينما تكون الأزمة تواجه بها.

ولذا فهو من أصحاب الهداية، وممن رضي عنهم ربهم برحمته وتوفيقه فتمرس على الصبر بتدريب نفسه على الإمساك في الرخاء والشدة على السواء.

وربما قبل الابتلاء بالدنيا ومتعها ـ اقتناءً وحرماناً ـ يواجه المؤمن بالله الابتلاء في الإيمان نفسه، يواجه الابتلاء في مدى صدق إيمانه وإخلاصه فيه، يواجه التعرض بسبب الإيمان للقتال مرة، ولإيذاء الأعداء بالقول والتآمر مرة أخرى: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[1].

إن المؤمنين سيختبرون في أموالهم بإنفاقها في الجهاد في سبيل الله، وسيختبرون في أنفسهم بالمواجهة في قتال الأعداء، وسيختبرون بالتعرض للسخرية والإهانة والتشهير وترويج الأكاذيب، سيختبرون في كل ذلك من أجل الإيمان، وما لم يكن لهم صبر وتحمل، وما لم يدربوا

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٨٦.

على حماية النفس من التأثر بالدنيا في متاعها والحرمان منها على السواء، لا يكون لهم عزم ولا تكون لهم إرادة وقوة نفسية خاصة يتقون بها ما يوضعون فيه من أحوال من شأنها أن تهز الإيمان وتضعفه، ولن يكوِّن هذه المعاني النفسية ويجعل في أعماق الذات واقعاً يواجه الابتلاء إلا عبادة الصوم، إلا الإمساك عن نية وإرادة ورغبة، إلا الإمساك في تحد لشهوة النفس، وفي تحد لمتع الحياة المتوفرة، وفي تحد للإغراء ولبريق هذه المتع الحسية[1].

(١) مجلة «الوعي الإسلامي»: السنة السابعة، العدد ٨١، غرة رمضان سنة ١٣٩١، ص١٣ - ٢٤، بتصرف كثير.

الصوم تأديب وتهذيب

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم علي أبو سعيد

قال الأستاذ:

النفس الإنسانية كثيرة المطالب، متنوعة الحاجات والرغائب، لا ينتهي طمعها، ولا يفتر جشعها، ولا تقف عند حدٍ أهواؤها ونوازعها: إذا منعت من شيء غضبت وسخطت، وأرغت وأزبدت، وإذا أعطيت طمعت واستلقت، بل بطرت وأنكرت نعمة الله، وإحسان الخالق وحاجة المخلوق!

لذلك كان تشريع العبادات، وفرض التكاليف الإلهية لتهذيبها وترقيق مشاعرها، وإرهاف حسها، وتوجيهها إلى الحق، ولفتها إلى ما يجب لها من قناعة وإسماح، وما ينبغي من سكينة ورضى، وحسن إيمان، وتذكيرها أن الله ـ جل شأنه ـ هو الذي يعطي ويمنع، ويهب ويسلب، ويثيب ويعاقب، عطاؤه لسر، ومنعه لحكمة، ولا يدرك ذلك، ولا يرضى به إلا المؤمنون الصادقون.

فكل ما شرعه المولى من عبادات، ودعا إليه من تكاليف وطاعات؛ إنما يرمي إلى تربية الفضائل في النفس، وتنمية روح الاجتماع في الإنسان، وإعداده إعداداً صحيحاً لمواجهة الحياة الكريمة الفاضلة، وإن

في الإسلام لآداباً وفضائل نحن أحوج إلى تدبرها، والانتفاع بما فيها من سمو العبرة، وجلال العظة!.

والصيام عبادة من أجل العبادات، وطاعة من أروع الطاعات، شرعها المولى جل شأنه لغرس الرحمة في القلوب، وتطهير النفس من الشرور وتعويدها على الرضى بتصاريف القدر والصبر حين يفاجئها المنع ويستذل بها الحرمان، فهو فضيلة من أعظم الفضائل، ومدرسة حازمة لتربية الإرادة القوية، والعزيمة النافذة، والطاعة الحكيمة، وهو كذلك جُنة من الشهوات ووقاية من ملابسة الخطيئات، وحصن يحتمي به المؤمن إذا ساوره الهوى، ونازعته غواية الشيطان.

يقول الله جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[1] فغاية الصيام غرس التقوى في القلوب، وبعث الخشية في النفوس، وتذكيرها بما يحسه الفقير من ألم الحاجة وذل الحرمان، ومرارة الجوع وقسوته، وإراحتها من بعض أطماعها، واشتجار أهوائها. ونحن نقضي أحد عشر شهراً من العام بين لهو ولعب، وأكل وشرب، نأكل من غير نظام ولا ميعاد، ولا تقيد بصباح أو مساء، ثم نستقبل شهر رمضان، نستقبل شهراً نتعود فيه حكم هذه النفس التي أسرفت وجازفت، والتي أكلت حتى ملت وتعبت، وشبعت حتى أتخمت؛ وبذلك يكون الصيام وسيلة إلى حكم النفس وإخضاعها، وسبيلاً إلى زجرها وتخويفها، والنفس الإنسانية لقسوتها وتمردها لا يُخيفها شيء، ولا يرهبها سلاح بقدر ما يخيفها الجوع، ويرهبها

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٣.

الحرمان، تستطيع أن تصبر على كل حادث، وتتحمل كل ألم إلا ألم الجوع وذله وشدته؛ لذلك كان هذا السلاح من أسلحة إرهابها وتخويفها، وتوجيهها إلى رب العالمين، يقول ﷺ: «**إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع**».

لو فهم الناس الصيام على حقيقته، وأرادوه على طبيعته لكان حربَ كلِّ مفسدة، وعدو كل شر وطغيان، ومدعاة إلى التراحم والتعاطف؛ لكن الناس أَلِفوه على غير وضعه، وتعودوه على غير طبعه، وفهموه جوعاً تمل منه النفس، وعطشاً يتأذى منه الإنسان دون حكمة ولا غاية.

انقلبت العبادة فيه إلى عادة يواجهها الإنسان بما يخفف وطأتها، ويسهل شدتها، ويعين عليها من مأكل ومشرب، وهل هناك أسوأ أثراً، وأقبح خطراً، وأشأم عاقبة من أن تنقلب العبادة العظيمة إلى عادة، تتبلد عندها المشاعر، وتستغلق دونها الحواس، ويقابلها الناس بتألم واستكراه؟

إن العبادة إن لم يكن لها أثر فعال في تهذيب مشاعر الإنسان، وإدخال الرحمة على قلبه، وتذكيره بخالقه، وإثارة دوافع الخير وحوافز المعروف في نفسه، فلا فائدة منها ولا أثر لإتعاب الإنسان بها، ولذا كان ﷺ يقول: «**كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش!**» لقد فهم الناس الصوم لوناً من الحرمان يضجر الإنسان منه، ويصطنع الحيل للتغلب عليه، وليس غريباً على هؤلاء الغافلين أن يستعينوا على الصيام، وقضاء رمضان بأكل يرهق المعدة، وطعام يثقل البطن، ونوم يستغرق اليوم كله؛ فالأعمال فيه معطلة، والحياة جامدة راكدة، والوجوه عابسة قاتمة، لا تعلوها بشاشة، ولا يداعبها سرور، والنفقات قد بلغت من السرف والتزايد حدّاً لا تتحمله طاقة، ولا تنهض به قدرة!

أتلك هي الحكمة من تشريع الصيام؟ جنون في الإنفاق، وإهدار للزمن، وقعود عن السعي واستنامة عن العمل، واستعانة على قتل الوقت بالنوم المستغرق العميق؟

تعالت حكمة الله عن ذلك علوّاً كبيراً! لقد فرض علينا الجوع والحرمان؛ لنعرف كم من النفوس الإنسانية الحساسة تكابد هذا المنع، وتقاسي ذلك الحرمان، وما دام هذا الجوع في سبيل الله، وما دام ذلك الإجهاد والتعب في سبيل التهذيب الخلقيّ، والكمال الإنسانيّ، فكل مشقة فيه محببة، والتعب راحة ولذة وقرب من الله، والكريه المرذول سائغ ومقبول، ومن هنا كان ﷺ يقول: «**لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**».

ظن كثير من الناس أن الصوم إمساك عن الشراب والطعام، وليس إمساكاً عن الفواحش والآثام، فتركوا ألسنتهم ـ وهم صائمون ـ تجول في أعراض الناس، وتخوض في العورات وتنشر السواءت، وتختزل من مساوىء الناس مادة للحديث، وأداة للهو والتسلية، يفطمون أنفسهم عن الآكل والشرب، ويغذونها بأسوأ ما يتناوله إنسان من الفضائح والعيوب.

وما جدوى الصيام إذا لم تتهذب به الألسنة، وتتطهر به النفوس، وتتعود من الأدب الكريم، والخلق القويم والطبع المستقيم؟

وما فائدة الحرمان إذا لم تكن من ورائه عفة القول، وسماحة الكلام ولين الحديث؟

إن الرسول ﷺ كان يقول: «**من لم يدع قول الزور، والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**».

فهل يتدبر هذا أولئك الذين جعلوا الصيام إثارة للأعصاب، وتهييجاً للشرور، وإضعافاً لقوة التحمل، وأكلاً للحوم الناس، وولوغاً في أعراضهم؟ لا يكاد إنسان يتحدث إلى أحدهم حتى تثور ثائرته، وتشتعل حفيظته، ويشتد غضبه وصخبه ويقذف لسانه بفحش القول وهجر الكلام! . . .

ويقول الناس: معذور إنه صائم. . ! كلا والله ما هو بصائم، ولو كان صائماً لكان مهذب الخلق، رقيق العاطفة، حلو اللسان، يملك نفسه، ويسيطر على أعصابه، ويذكر دائماً أنه صائم وأنه قائم في عبادة ربه فلا يليق به أن يفحش، ولا يجمل به أن يسلم نفسه للشيطان، ويلطخها بالمآثم والعصيان.

يقول ﷺ: «**الصيام جُنة فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم**».

إن الصيام رحمة فيجب أن نتراحم، والصيام محبة فيجب أن نتحاب، والصيام رفع لدرجة الإنسانية إلى مرتبة الملائكة، فيجب أن نكون فوق الحيوانية، وفوق الغرائز الجشعة، والشهوات الثائرة.

قيل للأحنف بن قيس: إنك شيخ كبير، وإن الصيام يضعفك. فقال: «إني أعده لسفر طويل، والصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذابه» . . . [١].

---

(١) مجلة «الأزهر»: المجلد ٢١، الجزء ٩، رمضان سنة ١٣٦٩، ص٨٤٢ ـ ٨٤٥.

الصوم...طاعة وتربية
للأستاذ عبدالجليل شلبي[١]

قال الأستاذ:

كلما تحدث الناس عن حكمة تشريع الصوم، أو الفائدة التي تعود منه على الصائمين اتجهت أفكارهم إلى مزاياه الصحية، وبحثوا عما يفيده جسم الصائم من هذا الجوع والحرمان، ولهذا الاتجاه أسبابه في حياتنا الحاضرة؛ فنحن في عصر ماديّ لا يحفل كثيراً بالمعنويات، وحياتنا تقوم على المنفعة العاجلة، والفائدة المحسة الملموسة، ثم إن جسم الإنسان بطبيعة الحال من أثمن ما لديه، وأعز ما عنده، فمن الطبيعي أن يلتمس له دائماً أسباب القوة، ويبحث عما يعود عليه بالصحة والعافية.

وفي الأبحاث الطبية ما يثبت أن في الصوم ـ فعلاً ـ صحة للجسم،

---

(١) عبد الجليل شلبي. عالم باحث، داعية. حفظ القرآن الكريم وهو في الثانية عشرة من عمره ودرس بالأزهر حتى حاز الشهادة العالمية وبإجازة التدريس من كلية اللغة العربية. حصل على الدكتوراة من لندن حيث كان قد اختير لإمامة مركزها الإسلامي، وعاد إلى القاهرة فعين أستاذاً عاماً لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر وعين عضواً في لجنة الفتوى، وكان عميداً لمعهد إعداد الدعاة بمصر، له عدة مصنفات رد في أكثرها على الاستشراق والتنصير. توفي سنة ١٤١٥ عن عمر ناهز الثمانين، رحمه الله تعالى. انظر «تتمة الأعلام»: ١/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨.

وأنه وقاية من بعض الأمراض، وطب لبعضها الآخر، وأنه يفيد الصائم حظاً من القوة والنشاط، لست أريد أن أنفي هذه الفائدة ولا أن أناقش في مدى تحققها، وإنما أنفي أن تكون حكمة لتشريع الصوم، أو هي المزية الأولى من مزاياه.

أرى أن العبادات كلها ـ صوماً أو غير صوم ـ تسمو على العلل المادية، وتعليل أية عبادة بعلة مادية كمزية أولى لها يذهب بما فيها من قيمة روحية، ويغمط ناحيتها المعنوية ويسلبها أسمى معانيها وهو الاستسلام والخضوع لرب العالمين، فالعبادة عبودية لله وترفع وسمو عن حقارة الماديات وبهذه المعاني يكون المسلم أكبر من دنيا يسترخصها بجانب معنوياته، ويضحي بها في سبيل مبادئه، ويجد منها عوناً على التضحية والبذل، وإنكار الذات، فإذا رددنا العبادة إلى غرض؛ فقد ضاعت كل هذه الاعتبارات هباء.

ومن ناحية أخرى نحن نستطيع أن نحصل على حظ أوفى من هذه الماديات بعمل آخر غير العبادة.

قد ترغب في الصلاة فنقول: إنها رياضة بدنية، أو يشمل أداؤها على الأقل حركات رياضية، تفيد الجسم، وتكسبه قوة ونشاطاً، ولكنه من غير شك قول ساذج، ورأي خطير.

فإذا دخل هذا الاعتبار في قصد المصلي كانت صلاته إذن رياضة بدنية، وعملاً لتنشيط الجسم، ولا تكون في هذه الحالة عبادة مما يتقرب به إلى الله أو على الأقل لا تكون عبادة خالصة؛ إذ يشوبها نفع شخصي، وفائدة دنيوية عاجلة، وبعد هذا كله نجد في الأعمال الرياضية المنظمة ما يفيد الجسم أكثر مما تفيده حركات الصلاة.

وهذا بعينه ما نقوله في الصوم؛ فإذا نحن صمنا لطلب الصحة لا نكون بصومنا متعبدين، وصومنا لهذا الغرض لا يلزم أن يكون يوماً كاملاً، ولا في شهر معين والحمية حقاً صحة، ولكنها ليست عبادة.

والكثيرون ينسبون إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قال: «جوعوا تصحوا» ويوردون هذه العبارة على أنها حديث يستندون فيه إلى حكمة تشريع الصيام، ولم أجد هذه العبارة فيما بين يدي من كتب الحديث الصحيحة، أو على الأصح لم أجدها في باب الصوم، فإذا صح أنها حديث؛ فإنها لا تعدو أن تكون دعوة للحمية، وتحذيراً من التخمة، شأن الأحاديث الكثيرة التي جاءت لهذا الغرض، مثل: «**نحن قوم لا نأكل حتى نجوع؛ فإذا أكلنا لا نشبع**»، ومثل: «**ما ملأ ابن آدم وعاء شرّاً من بطنه**»، إلى أحاديث كثيرة، وعظات للصحابة والحكماء، ولا علاقة لها بالصوم، ولا حكمة تشريعة.

فإذا أردت بالجوع الصوم ـ على بعد هذا المراد ـ فإن فائدة الصوم لم تختصر في هذا الجوع.

وقد لاحظت أن الذين تكلموا على الصوم من الوجهة الطبية يتحدثون عن ترك الطعام ولم يتعرضوا أبداً لترك الشراب وغيره من المفطرات...

لا ينبغي بحال من الأحوال أن ننظر إلى هذا الجانب المادي وإنما تهدف العبادات جميعاً ـ بعد كونها طاعة لله تعالى واستسلاماً ـ إلى المعاني الخلقية، والمزايا التربوية التي يظهر لها أثر طيب في سلوك الفرد، وعلاقته بالجماعات، ونحن إذ نرتب هذا الأثر الخلقيّ والاجتماعيّ على أداء العبادات والإخلاص فيها لا نقوله من القرآن

والسنة؛ فالقرآن ينص أن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر . . . والحج ـ وهو المجتمع الأكبر للمسلمين، ويقوم جانب عظيم من أعماله على الطاعة والامتثال ـ حرص الشرع على إحاطته بمظاهر الخلق الكريم، ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾[١] والزكاة وظيفتها الاجتماعية بارزة واضحة يبطل ثوابهَا روح التعالي، أو امتهان الفقير ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ . . . ﴾[٢]، وإذن فالجانب المعنويّ هو روح العبادة؛ إذ الجانب المادي في الزكاة يتأدى ببذل المال حتى مع المن والأذى، ولكنها عمل فارغ لا يستتبع مثوبة من الله .

هذا الجانب الخلقيّ، وأثره في التربية النفسية وتكوين العادات، والعواطف النبيلة أبرزُ في الصوم مما هو في العبادات الأخرى، فالصوم أمانة فيما بين العبد وربه، وإتقانه أو التهاون فيه مرده إلى ضمير الصائم، وإخلاصه في عبادته .

يستطيع الشخص أن يتظاهر بالصوم أمام الناس ويفطر بينه وبين نفسه، وقد يمر عمره كله وهو عند الناس من الصائمين، وعند الله من المفطرين يساعده على ذلك طبيعة الصوم، وقصر مدته إذ هو فترة محدودة، وشهر معين بين شهور العام ـ ولا يتأتى هذا التظاهر في الصلاة التي تتكرر خمس مرات كل يوم، ومنها ما لا يصح إلا في جماعة، ومسجد جامع، وكذلك الحج يوم مشهود مجموع له الناس من شتى البقاع، وله ملابسه وميقاته، والزكاة على الأقل يطلع عليها الفقراء ويبقى

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٩٧ .
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٦٤ .

الصوم وحده لا يحتاج عمله إلى إعلان، ولعل في هذا مصداقاً للحديث القدسيّ الكريم: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**»؛ ولعله لهذا أيضاً كانت علة الصوم في القرآن هي التقوى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1]، والتقوى بطبيعة الحال أسمى مظاهر الأخلاق.

وقد نص الحديث الشريف على أنه «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**»؛ فدل على أن ترك الطعام والشراب لا فائدة فيه، ما لم يَفُذْ إلى الحق، ويحمل النفس على التضحية بما تشتهي في سبيل العدل والحق والإنصاف...

ومعروف أن من الفقهاء ـ بله الصوفية ـ من يرى أن الصوم يفسد بمفطرات غير مفطرات البطن والفرج، ويرون أن منها الاغتياب والكذب وشهادة الزور والسباب، ووجهتهم في هذا، أن الأحاديث نهت عن بعض هذه الأشياء للصائم خاصة، وعن بعضها حتى لغير الصائمين، فهي تبطل ثواب الصائم، وإن لم توجب عليه كفارة ولا قضاء.

ونحن نلمح في كل العبادات أنها تستتبع شيئين: رفع عقوبة المعصية أولاً؛ لأن ترك العبادة معصية تستوجب عقوبة، والحصول على المثوبة أو رفع الدرجة عند الله ثانياً، والأداء الشكليّ للعبادة إنما هو عمل لرفع العقوبة، أما تحصيل الثواب، ورفع المنزلة، فإنما يأتي بإتقان العبادة، والإخلاص فيها، بقدر ما تترك في صاحبها من آثار طيبة في سلوكه وأخلاقه، وتربية ضميره، وعلى هذا فالإمساك عن الطعام

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٣.

والشراب أبسط أنواع الصوم لأنه العمل الصوريّ الذي يرفع عقوبة المعصية، وينبغي ألا يقنع به من لا يرضون بالدرجة الدنيا من الإيمان.

وإذا نظرنا إلى البيئة الخلقية الواسعة التي هيأها الشرع للصائمين ندرك أنه يقصد منه معنويات أسمى وأرفع من مجرد الكف عن الطعام، فرمضان موسم عبادة، وبيئة أخلاق، رغب الشارع فيه في الصدقة طوال الشهر، وجعل الصوم معلقاً لا يقبل إلا بزكاة الفطر، ودعا فيه إلى الإكثار من قراءة القرآن، وقد كان رسول الله ﷺ ـ وهو أجود الناس ـ أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل عليه السلام فيدراسه القرآن.

.والصائم في كنف الأخلاق العليا لا يؤذي أحداً حتى ولو آذاه الآخرون، وإن امرؤ سابه أو شاتمه فليقل: إني صائم إني صائم.

كذلك سُنَّت فيه صلاة التراويح فجمع عدداً من فرائض الدين، وأمهات الفضائل كل ذلك ليهيء للصائم تدريباً عمليّاً على تقوية الضمير، ومكارم الأخلاق، فإن وُجدت للصيام بعد هذا كله فوائد أخرى مادية: صحية، أو اقتصادية.. أو غيرهما؛ فهي مما يأتي تابعاً وليس أهم أغراضه ولا من أكبر مزاياه[١].

---

(١) مجلة «الأزهر»: سنة ٣٧، الجزء ٧، رمضان سنة ١٣٥٨، ص٣٩٠ ـ ٣٩٢. بتصرف.

رمضان بركاته وذكرياته
للأستاذ أحمد محمد جمال[١]

قال الأستاذ:

شهر رمضان ـ بدون جدل ـ شهر البركات: روحية ومادية، على السواء، وآيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول ـ عليه صلاة الله وسلامه ـ عن هذه البركات الرمضانية عديدة وأكيدة.

وبوحي من طبيعة الشهر، وبأثر من فضله تعود الناس في استقباله عادات كريمة، هي ـ كما أشرنا ـ بعض من آثار كرامته، وشيء من ثمرات يمنه.

ففي رمضان تنفتح قلوب التجار، وذوي اليسار، وتنبسط جيوبهم أيضاً ـ للعطف على الفقراء، واللطف بالمساكين، والتصدق عليهم بالمال المنقود حيناً، وبالأغذية والأكسية أحياناً، وقد يكون ذلك زكاة واجبة عن أموالهم، مؤجلة إلى رمضان، وقد يكون صدقة نافلة، والمهم أن رمضان هو الحافز على الوفاء والأداء.

---

(١) أحمد محمد جمال. الكاتب الإسلامي الفقيه الباحث. ولد بمكة المكرمة سنة ١٣١٧ واختير أستاذاً للثقافة بجامعة الملك عبدالعزيز ثم أم القرى بمكة سنة ١٣٨٧ . كان عضواً في لجنة الحكم ورابطة العالم الإسلامي والمجمع الفقهي. وله مصنفات كثيرة. توفي سنة ١٤١٣ رحمه الله تعالى. انظر «تتمة الأعلام»: ١/ ٥٥ ـ ٥٦.

ومن بركات رمضان: ظاهرة التسامح والتعاطف والتراحم، والتزاور بين الأقربين والأبعدين، بل حتى بين المتخاصمين، فرمضان في نظرهم وعقيدتهم وعلى ألسنتهم شهر الرحمة والمغفرة، ولذلك فإنهم متأثرون بروحه الكريمة، مستشعرون بظله الرحيم.

ومن بركاته ـ كذلك ـ أن المظلوم يغفر لظالمه، والمشتوم يصفح عن شاتمه، لأن رمضان في مشاعر الناس: شهر السماح والسلام.

وبركة أخرى ـ لهذا الشهر الكريم ـ هي اندفاع الناس فيه إلى مزيد من الصلوات والنوافل، سواء أكانت تراويح أو وتراً أو تهجداً، بل إن من لم يصل طوال العام يحافظ على الصلاة في رمضان.

وكما يكثر الناس من الصلاة النافلة في رمضان يكثرون ـ أيضاً ـ من تلاوة القرآن، على غير ما تعودوه طوال سنتهم، وهم يفعلون ذلك رجاء المزيد من رحمة الله ورضوانه، والمزيد من جوده وإحسانه.

وفي رمضان يستعد الناس حتى مَن لا يعبأ بالعاطفة الروحية نحوه بالأطايب من المأكل والمشرب، ويتوسعون في الإنفاق بسخاء فريد، ويتعهدون ذوي الجوار والقربى بالهدايا من ذلك، كما يبذلون لأولي الحاجة والفاقة صدقات منه.

كل أؤلئك من بركات رمضان، وليست كلَّ بركاته، فمرحبا بأبي البركات، شهر القرآن، وشهر الغفران.

وقد امتاز رمضان ـ هذا الشهر المبارك الميمون ـ بفضائل وخصائص وذكريات، ليست لغيره من شهور العام:

من هذه الامتيازات:

ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، والتي تتنزل فيها الملائكة بالسلام والأمان، والتي يفرق فيها كل أمر حكيم؛ أي التي يقضي الله فيها سبحانه قضاء العام كله، من أجل عباده، وأعمالهم، وأرزاقهم.

ومنها:

نزول القرآن: نزوله هدى وبينات من الهدى والفرقان توضح الحلال والحرام، وتميز الحق من الباطل، وتحث على الصالح، وتنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي.

وفي هذا الشهر نفسه نزلت ـ كما يرى الطبريّ ـ صحف إبراهيم، وتوراة موسى، وإنجيل عيسى، عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه.

وفي رمضان ـ أيضاً ـ كانت بعثة الرسول ﷺ، حيث أعلمه الله تبارك وتعالى ببدء الرسالة والدعوة إلى دين الحق، دين الخير والنور.

ومن ذكريات رمضان غزوة بدر الكبرى ـ في السابع عشر منه في السنة الثانية للهجرة ـ وهي أول معركة وأعظمها بين المؤمنين والمشركين، كانت فرقاناً بين الحق والباطل، وفيصلاً بين الكفر والإيمان.

وفي اليوم العاشر من رمضان من السنة الثامنة للهجرة، كان فتح مكة المكرمة، حيث سار إليها جيش الإسلام من المدينة المنورة بعد نقض المشركين لصلح الحديبية، وكان فتحاً مبيناً كما وصفه القرآن عزّ به الإسلام، وقويت شوكته، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

وفي عامي ٩١ و ٩٢ للهجرة، وفي رمضان بالذات كان غزو

المسلمين للأندلس، وتم فتحها وخضوعها لحكم الإسلام، ذلك الحكم العادل الفاضل، الذي ظلت الأندلس تنعم خلاله بحضارة رشيدة مجيدة، طوال ثمانية قرون.

هذه بعض بركات رمضان وشيء من ذكرياته وخصائصه وامتيازاته.

أهداف الصيام:

هناك، بين الناس: من يصوم يوماً أو بعض يوم، وعن كل الطعام أو شيء منه، للتخلص من السمنة، أو تطهير أمعائه من الرواسب الضارة، أو لاكتساب جمال الجسم وقوته، أو لكبت الغريزة الجنسية، أو غير ذلك من أغراض وأهداف رسمها العلم الحديث في دنيا الطب والرياضة والجمال.

أما الإسلام فقد شرع الصيام لتحقيق التقوى في نفوس أتباعه، حيث يرتفعون بها إلى مكارم الأخلاق، وعزائم الأمور.

في القرآن الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[(١)].

وفي الحديث النبوي: «**من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**».

فأهداف الصيام وأغراضه في الإسلام: التعويد على الصبر، وتحمل المصاعب، والإخلاص في أداء العمل، وكف السمع والبصر واللسان وسائر الجوارح عن الأذى والخنا، والتذكير بالفقراء من أجل البذل لهم من غذاء وكساء.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٣.

فإن لم ينتفع الصائم بآثار صومه الروحية والأخلاقية، كان كما قال ﷺ: «**رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش**»، أما المنتفعون بالصوم السعداء حقّاً برمضان، الظافرون ببركاته الروحية والجسدية فحسبهم أن الله جعل جزاءهم غير محصور ولا مذكور كما جاء في الحديث القدسيّ «**كل عمل ابن آدم يضاعف ـ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ـ إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي**». . .

رمضان في مكة المكرمة:

رمضان ـ كما قلنا ـ شهر البركة، والمغفرة، والرحمة، ما أحبَ أيامه، وما أسعد لياليه عند كافة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

ولقد كان نبيّ الإسلام ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يدعو منذ رجب راجياً أن يدرك رمضان ليصومه ويقومه، كان ﷺ يقول: «**اللهم بارك لنا في رجب وشعبان وبلغنا رمضان**».

إنه الشهر الذي يرجو المسلم أن يعيشه كي يصومه ويقومه، ويحظى ببركاته ورحماته، وما خصه الله به من مغفرة للمذنبين، ورضوان على الصالحين، وهو كذلك شهر الصبر، لأنه يُعلم الصبر والتسامح والتصافح والتصافي، وبر الأغنياء للفقراء، وإحسان الأقوياء للضعفاء.

ويمتاز رمضان في مكة المكرمة عن غيره في غيرها، لموقع البيت الحرام فيها، ومشهد الكعبة منها، والاعتمار إليها، وأعمال الطواف والسعي، وما اعتاده بعض الصائمين من أهلها والوافدين عليها من الإفطار في المسجد الحرام كسباً لصلاة المغرب جماعة، والتذاذاً

بمشاهدة البيت العتيق، ومن انتظار صلاة الفجر فيه بعد السحور، ثم أدائها جماعة كذلك.

وصدق القائل: «حبذا الكعبة من مشهد» في كل وقت، وفي رمضان بوجه خاص حيث تتنزل رحمة الله ومغفرته على عباده الصالحين والتائبين.

وحسبي أن أنقل هنا اعتراف زائر مسلم بالمتعة الفريدة التي يمتاز بالحظوة بها صائم رمضان في مكة المكرمة، فقد وفد إليها في نفس الشهر في عام ١٣٧٣هـ الأستاذ أمين المميز الذي كان وزيراً مفوضاً للعراق في لندن وواشنطن وجدة، وكتب عن انطباعه في أداء العمرة، والصلاة بالمسجد الحرام الكلمة التالية:

«الآن وقد أدركت ضالتي وتمت لي نعمة الله بأداء العمرة فما عساي أفعل.

إنها ليلة من ليالي رمضان، وأهل مكة والعمار والطائفون يقصدون المسجد الحرام للإفطار بجوار الكعبة، ولصلاة العشاء ومن بعدها صلاة التراويح والوتر ومنهم من يقوم لصلاة القيام إلى مطلع الفجر.

لقد شهدت في حياتي مشاهد أخّاذة لا تعد ولا تحصى في كثير من بلاد الله، ولكني أقر بأن المشهد الذي شهدته هذا المساء ليس له مثيل بين مشاهد العالم، إنه أروع مشهد يبهر العين، ويأخذ بالقلب والوجدان.

المسجد الحرام تتلألأ جنباته بالأنوار الكهربائية الساطعة، ألوف وألوف من المحرمين، ومن غير المحرمين اصطفوا حول الكعبة من كافة جهاتها، مولين وجوههم شطرها، منهم من يصلي، ومنهم من يتلو آي

الذكر الحكيم، ومنهم من يردد التسبيح والابتهال والدعاء والتكبير . . ».

وفي مقدمه ثانيةً إلى مكة في نفس الشهر قبَّل الحجر الأسود وقال: (طبعت عليه قبلة لم تتذوق شفتاي أشهى وأطيب منها).

زكاة الفطر:

الحديث عن بركات رمضان، الكثيرة الغزيرة ـ يستتبع الحديث عن عيد الفطر، الذي هو ختام بركاته، وقد شرع ـ أي العيد ـ ليكون تماماً لعدد من أفراح الصائمين الصادقين.

فالصائم الصادق، بلا شك فرح مسرور بأدائه لفريضة الصوم، وهو مرتقب فضل الله ورحمته، وامتنانه عليه بالقبول الحسن، والمثوبة المدخرة، وما يصحبها من غفران الذنوب وتكفير الخطايا، والتوبة الصدوقة في مستقبل العمر.

والصائم الصادق فرح كذلك بإتمام صيامه، واستقبال ختامه الذي هو عيد الفطر يفرح به الطالب بنجاحه في الامتحان، أو فرحة المجاهد بالنصر في الميدان.

وقد شرع العيد كجائزة أولى للصائمين يتناولون فيه البريء من اللهو، والحلال من اللذة، والمباح من المسرات، ويتبادلون فيه الزيارات بأقدامهم أو التحيات بأقلامهم إذا كانوا متباعدين بين بلد وبلد.

وليست فرحة العيد فردية تخص الفرد وحده، وإنما هي فرحة جامعة، ولذلك شرعت صلاته في الأماكن الفسيحة؛ لأن المساجد العادية تضيق بالجموع الكثيرة التي تسارع إلى أدائها في شوق وحرص، وأذن فيها باصطحاب الأطفال والنساء لتكون الفرحة أوسع وأروع، ويكون مظهر وحدة المسلمين أكمل وأجمل.

كما شرعت زكاة الفطر لتكون جبراً لما قد يكون أصاب صيام الناس من خدش، وطهرة لما يكونون قد أحدثوه من لغو، ومواساة للضعاف منهم والمساكين ليفرحوا كما يفرحون. . .

توحيد الصيام والأعياد:

ولما كان رمضان ـ في منهاج الإسلام وحياة المسلمين ـ مظهراً من مظاهر الوحدة وحدة الباعث الذي هو الإيمان، ووحدة الوسيلة التي هي الصبر على آلام الجوع والظمأ، ووحدة الغاية التي هي إرضاء المعتقد، وتربية الروح والجسد فإن كمال هذه الوحدة يتحقق بتوحيد بدء الصيام في بلاد الإسلام.

. لقد كنت أستمع أول ليلة من رمضان إلى راديو القاهرة ـ بعد راديو مكة ـ وهو يذيع بلسان مفتٍ سابقٍ مصريّ ثبوت هلال رمضان في المملكة العربية السعودية، وأن مصر رعاية للوحدة الإسلامية ستعتبر يوم السبت أول يوم من رمضان اتفاقاً مع السعودية، واعتماداً على ثبوت الهلال فيها. . .

وكان حديث المفتي رائعاً في سمعي وفي قلبي؛ فإن مصر وسوريا ولبنان والأردن، والعراق، واليمن، والسودان، وإمارات الخليج العربيّ منطقة واحدة، إن اختلف الوقت فيها ساعة أو بعض ساعة في توقيت الصلاة، فإنه لا يختلف يوماً كاملاً في توقيت الصيام.

ولكن الدول العربية كانت لا تعتمد على ثبوت الهلال إلا على نفسها وفي بلادها، ومن أجل ذلك كانت إحداها تصوم السبت ـ مثلاً ـ والأخرى تصوم الأحد، ويتبع هذا الاختلاف في بدء الصيام اختلافٌ في

ابتداء عيد الفطر، وهذا الاختلاف بين الدول العربية المتجاورة المتقاربة في صومها وعيدها مثار للأسف والجدل حول وحدة الدين، واختلاف مطالع الهلال، ومبعث لتساؤل كثيرين من المسلمين وغير المسلمين: كيف يختلف المسلمون في صيامهم وعيدهم؟ ولماذا لا يتفقون؟

إن من حق كل عربيّ مسلم أو مسلم غير عربيّ أن يبتهج بانبعاث هذه المظاهر الرائعة من ظواهر وحدة الدين بين المسلمين، هذا الدين الذي تقوم أركانه ـ من صلاة وصيام وزكاة وحج ـ على الوحدة، وتأمر بالاتحاد، ومن حقه كذلك المطالبة بتوحيد بدء الصيام في كافة البلاد العربية والإسلامية سواء بطريق الرؤية أم بالحساب الفلكيّ.

فما أحوج المسلمين اليوم إلى الوحدة والاتحاد، ليعودوا كما كانوا أقوياء الأرواح والأجساد والعقول[1].

---

(١) «الوعي الإسلامي»: السنة ٧، العدد ٨١، رمضان سنة ١٣٩١، ص٣٨ـ٤٣، بتصرف.

رسالة الصيام
للأستاذ سعيد رمضان[١]

قال الأستاذ:

الطهر، والبركة، وتجلي الله، ونزول الرحمة، وحط الخطايا، واستجابة الدعاء، وتحرير النفوس لله، وشقوة الحرمان من رحمة الله.

هذه الكلمات يهل بها هلال رمضان من كل عام، فينساب منها في النفوس نور أقرب من نوره في الأفق، وتتجدد بها في المشاعر موازين تجاوب مواقيت الأهلة في حساب الزمن: هذه ضوابط يتعامل بها عامة الناس في تقويم مادة الوقت، وتلك شرارات تذكي فيهم قبس الروح وفقه الحياة، في تعاقب الأهلة مشهد الفناء على رؤوس الأحياء، وفي تجدد مشاعر الخير شاهد الكرامة والخلود لحقيقة الإنسان.

يطلع كل هلال ليقول للإنسان: ها أنذا مرة أخرى، تجدّد بي الذاهب من الوقت لا تملك رده، وتقدّر الآتي منه لا تملك وقفه ولا

---

(١) سعيد رمضان. أحد الخطباء المرموقين، ولد سنة ١٣٤٤، ورجل من رجال الإخوان المسلمين. نال الدكتوراه في القانون من جامعة كولون، فر من مصر أيام الطاغية عبدالناصر والتجأ إلى سويسرا وبقي فيها سنوات طوالاً، توفي بجنيف عام ١٤١٦ ودفن في مصر ـ رحمه الله تعالى وأجزل مثوبته ـ وكان قد أصدر بها مجلة «المسلمون» بعد أن توقفت في مصر، وله عدة مصنفات. انظر «ذيل الأعلام»: ٩٣.

دفعه، ثم أمضي كما جئت، رضيت أنت أم كرهت، ويمضي معي شطر من عمرك، علمت أم جهلت، هكذا دواليك، حتى لا يبقى من عمرك شطر، فيُهال على جيفتك التراب ويقال: مات.

ويطلع هلال رمضان ليقول ذلك كله ويزيد عليه: ها أنذا مرة أخرى، كل عام لا كل شهر، جئت أتحدى ما اعتدته من حساب الوقت، فليلة واحدة من لياليّ خيرٌ من ألف شهر، وأتحدى ما تعودته من نظام الحياة، فليس يحل لك في أيامي طعام ولا شراب، وأتحدى عوادي الغفلة وغواشي الفناء التي تطمس حقيقتك أكثر أيام العام، فأنت أيها الإنسان الخليفة الذي سجدت له الملائكة، وأنت أيها الإنسان معقد الأمانة التي لم تقدر على حملها السماوات والأرض والجبال، وليس الذي يمضي من أشطار عمرك، ويهال عليه التراب من جسدك إلا أثواباً تنسلخ عن حقيقة فيك باقية لا تموت، وأشواطاً من الرحلة المقدورة منذ وسوس الشيطان لآدم وحواء فأخرجهما مما كانا فيه: من الوطن الرحب حيث الهناءة والسلام والخلود الذي لا فناء معه، إلى الحياة الدنيا على هذه الأرض بين محنة التكليف ومحنة الغربة، فأنت هنا إنما تقضي عمرك المحدود كما يقضي المنفيّ مدة النفي إلى حين، سبيلك إلى السلام من محنة التكليف سبيل واحد: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]، وطريق عودتك إلى الوطن العزيز طريق يحدوه نداء السماء: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[2].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٨.
(٢) سورة الفجر: الآية ٢٧ ـ ٣٠.

هذا أنت أيها الإنسان: في حقيقتك الروحية سر وجودك، وفي حفاظك عليها نور طريقك، وفي سلطانهما على حياتك شهادة الصدق أنك أهل لقول الله: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾[١]

لهذا تصوم وليس لله حاجة إلى طعامك وشرابك، كي يشهد حالك أن نداء السماء أعز عليك من شهوة جسدك، فتنقدح بذلك شرارات تذكي روحك وتبدّد ظلمة نفسك، وكي يروضك الصيام أياماً كل عام على ضبط إرادتك وتوثيق عزمك، فتستقيم حياتك على العبرة الماثلة في قصة جدك: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾[٢].

وقد تستبين من كل ذلك المناسبة بين رمضان ونزول القرآن، وتمثل الحكمة التي من أجلها امتاز الصيام من بين فرائض الإسلام بصحبة التنزيل، ذلك أن الوحي إنما يحمل حقائق من رحاب القدس تتحدى زخرف المظهر: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾[٣]، ورحيقاً من الصدق يسكبه في الحقيقة الروحية للإنسان: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾[٤] وأن سلطان هذا الوحي في حياة الناس هو دائماً على قدر صلته بحبات قلوبهم، وبالحقيقة الروحية في أعماقهم، فوق اختلاف الرأي وتعدد المصالح، وفوق الهوى والشهوة، وصدق الله العظيم: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[٥]، ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٠.
(٢) سورة طه: الآية ١١٥.
(٣) سورة الإسراء: الآية ١٠٥.
(٤) سورة الشعراء: الآية ١٩٣ ـ ١٩٤.
(٥) سورة ق: الآية ٣٧.

أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[(١)].

رسالة الصيام هي رسالة القرآن:

١ـ تذكير المؤمن بحقيقته الروحية وراء عوارض الشبع والجوع والري والظمأ.

٢ـ ترويض إرادته في ظل سلطان الروح على إيثار داعي الله على كل هوى وشهوة.

٣ـ تزكية روحه وتحريرها من الغفلة، كي تظل الرائدَ المشرق لنشاط الحياة.

ولئن كان إهلال رمضان كل عام تذكيراً بهذه الرسالة وتجديداً لمعانيها الثلاثة، إنه في هذا العصر يهل على عالم يحتاج إلى دروسه أشد من حاجاته إلى الغذاء والكساء والبترول وقوى الذرة وشتى وسائل المدنية والعمران.

لقد انقطع ركب البشرية عن رسالة الإنسان، وأصبح يتهدد أمنه معسكران كبيران، أحدهما كافر صريح الكفر بالله وبالروح وبالمثل العليا التي يقدسها الإنسان، والآخر يحمل في ظاهره دعوى الإيمان في حين تتسم حياته بالميوعة والتحلل والتمردّ على أعزّ القيم والأخلاق، وبين المعسكرين المتناحرين ملايين من البشر هي مرابع الهوى والطمع والعبث لهذا المعسكر أو ذاك، وهي الفرائس لسعره الخادع منهما أو الغالب! ونشاط هذه الملايين بين المعسكرين لا يزال في جملته نشاطاً يتتلمذ على فنونهما في الحيلة والمداورة، ويحمل ذات طبيعتهما في

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٧١.

ماديّة الاتجاه وإقليمية المصالح وكبرياء الفخر بالقوة والجاه.

إن العالم يعيش في مادية طاغية موغلة حرمت الإنسان نعمة الأمن والسلام حتى في خاصة نفسه وأهله، ولقد بلغ من إيغال هذه المادية وطغيانها أنها مسخت مشاعر الإنسان التي تعود التاريخ أن يجد من عندها منطلق حركات التبديل والإنقاذ، فغدت كلمات الحب والعطف والرحمة والعدل والمروءة والوفاء عناوين على ضعف الذين لا يزالون يعيشون في أحلامها البريئة الساذجة، وعلى تخلفهم عن ركب حياة عارمة لا يرحم المتخلفين، بل لقد انتكست هذه الكلمات العظيمة ذاتها حتى غدت مفاهيمها حكراً على دنيا الصلات الجنسية تستمد منها فتنتها وتؤول إليها حصيلتها: تحللاً في الفرد والأسرة والجماعة!.

والمسلمون في هذه الغابة الموحشة لم يعد يميز أكثرهم عن غيرهم روح ولا خلق، بل إن كثرة ولاة أمورهم لم تعد ترى من عقبة في طريق ما تزعمه من آمال النهوض إلا البقية المبعثرة من روحانية الإسلام وأخلاقه، وتطاردها، وتتفنن في مطاردتها!

ودعاة الاسلام ـ على اختلاف أسمائهم وأوطانهم ـ يتلمسون طريقهم في ظلمات بعضها فوق بعض، ويغالبون تضاريسها بوسائل شتى لدعم حقهم ودحض الشبهات عن دينهم، ولا يألو[1] كثير منهم جهداً في تفهم واقع العصر وفي استعمال لغته وأساليبه كي يبلغوا الآذان ويعالجوا مركبات الجهل والنقص والغفلة في المسلمين.

وأحْرِ بهؤلاء الدعاة ـ مهما اختلفت أسماؤهم وأوطانهم ووسائلهم ـ

---

(١) أي لا يقصر.

أن تلفتهم عبرة الصيام إلى الأساس الذي يلتقون عنده جميعاً، وهو أن دعوتهم دعوة إلى الله ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾[1] وأنها تستهدف في الإنسان سره العميق الذي يصله بالله: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾[2]، وأن نجاح الدعوة لذلك إنما يأتي على قدر الطاقة الروحية في الدعاة من وراء أساليب الكتابة والخطاب، ولغة الروح رائشة السهم نافذة الأثر لأنها من أمر الله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[3].

جميل أن نستشعر حاجة المسلمين إلى العلم والنظام ومختلف وسائل المدنية والعمران، بل أن القيام على ذلك واجبات تفرضها شريعة الإسلام، بيد أن العلم والنظام ووسائل العمران كلها ليست إلا بعض أسباب المادة لتسخير قواها ومعالجة مشكلاتها، فدورها لا يكاد يعدو دور العصا للسائر في الظلام أما العدة الأصلية على طغيان المادة وظلامها وخاصة في عصرنا المادي الرهيب الذي نعيش فيه. وهي قوة الروح وانطلاق طاقاتها واستعلان لغتها: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[4][5].

---

(١) سورة يوسف: الآية ١٠٨.
(٢) سورة ص: الآية ٧٢.
(٣) سورة الإسراء: الآية ٨٥.
(٤) سورة النور: الآية ٤٠.
(٥) مجلة «المسلمون»: العدد ٦، رمضان سنة ١٣٨١، ص ٥١٧ ـ ٥٢١، بتصرف يسير.

التسلية الباطلة في رمضان
الشيخ محمد الغزالي

قال الأستاذ:

عباد الله: أوصيكم ونفسي بتقوى الله عزَّ وجلّ واعلموا أيها المسلمون أننا قد تسلل إلى مجتمعنا ما أفسد المجتمعات الأولى، المجتمع الإسلامي عندما بدأ كان مجتمعاً ناضراً حيّاً، كان الوحي فيه غضاً طرياً، كانت النبوة ترشد الناس إلى المسالك الشريفة، والمستويات العالية فيرتفعون معها، ويبذلون الجهود في الاستجابة لها لأنهم يعلمون أن الحياة الحقيقية في الاستجابة لله وللرسول ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[1] لكن فساد الأديان يجيء من أن بعض الناس ينتسب إليها شكلاً، ويرفضها موضوعاً، يأخذ شارة الدين من فوق، ولكنه في الخبيء ما بينه وبين الله لا يعرف من الدين لا حقيقة ولا كياناً صالحاً.

عندما حقّر الإسلام بعض رجال الدين الأوائل قال في وصفهم: ليسوا رجال دين، هم تجار دين، يأكلون بالدين ولا يخدمون الدين، يأكلون الجماهير ولا يهدون الجماهير قال فيهم ربنا: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٤.

ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(١).

سبحان الله، أحبار ورهبان، مفروض أن تكون وظائفهم أن يقتادوا الناس إلى الله، وألا يرزؤوا أحداً في ثروته أو ماله(٢) أو ما يحرص عليه من دنياه، لكن هؤلاء الأحبار والرهبان عاشوا كما تعيش الطفيليات على الجسد البشريّ فهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله.

إلى جانب هذا فإن جوهر الدين هو القلب السايح في معرفة الله، الواعي للوجود الإلهي حوله، الشاعر بالرقابة العليا ما تنفك عنه ليلاً أو نهاراً.

هذا هو التدين، وعندما يفسد التدين يأخذ الناس الغطاء الذي يظهر فوق تعاليم الدين، أما الدين نفسه فيكون قد ضاع من قلوبهم.

المجتمع الإسلامي الآن يصوم، وله في صيامه تقاليد غريبة، قد يقرأ القرآن واستمعت إلى سورة الرحمن، والقارىء يقول: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾(٣) فإذا المستمع يقول: الله، الله، أعد، ما هذا: هل يعي هذا الإنسان أن الآية تهدده بالهلاك، بالفناء، وأن الآية تشير إلى أن الوجود من حوله سوف يتلاشى، ويعود إلى ربه ليحتكم الطائع والعاصي، والمؤمن والكافر، ويشرح كل شيء مرة أخرى أمام الله ليبت فيه، ولتبيض وجوه وتسود وجوه.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٣٤.
(٢) أي لا يصيبوا من مال أحد ولا ينتقصونه.
(٣) سورة الرحمن: الآية ٢٦.

هل الذي يقرأ، هل الذي يسمع يعي شيئاً؟

هذا نوع من التلاعب بالدين والقرآن، ليس هذا إلا حفاوة بالنغم أو حفاوة بشكل القرآن.

وتسالي رمضان، هل ليالي رمضان للتسالي؟ للسهر المجنون؟ للغو الفارغ؟ للعبث التافه؟.

ومن الذي يتسلى؟ ربما عذر الفارغ إذا تسلى. في الجاهلية التي لا ضوء فيها وجدنا شاباً من أصحاب الخمر والنساء، عاش طول عمره صعلوكاً ضِلِّيلاً وهو: «امرؤ القيس» كان عاهراً، لما قُتل أبوه شعر بالصدمة توقظه من ذهوله فقال: «اليوم خمر وغداً أمر».

الشاب الماجن ترك مجونه وأخذ يعمل لإدراك ثأره، والاقتصاص لمقتل أبيه، فلما أعياه أن يدرك ثأره ـ لأن قبائل العرب لم تسعفه ـ قرر أن يذهب ومعه صديق له إلى بلاد الروم، وكان الصديق مخلصاً ورأى الشاب الناعم الذي عاش في الملذات ومجالسها، رآه يتعسف الطريق ذاهباً إلى غربة بعيدة فبكى، فقال امرؤ القيس:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا
قلت له: لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا[1]

والله لوددت أن المسلمين اتبعوا حتى هذا العربيّ في الجاهلية، إنهم يقولون ـ وأنا أعرف ـ نحن قوميون عرب أو بعثيون عرب، كونوا قوميين عرباً، كونوا بعثيين عرباً، كونوا عرباً، أهذا المسلك الذي تسلكونه والبلاد محتلة، وأعداؤها جاثمون على صدرها، وسواد الذل

---

(١) قال الأستاذ: انظر ديوان امرىء القيس: ٦٥،١٦، ط دار المعارف.

يقطر من وجهها، ويراه أهل المشرق والمغرب فيتضاحكون منه؟.

هل هذا وقت التسالي، التسالي إنما هي وظيفة القلوب الميتة والأعصاب الهالكة، والسِيرَ الباردة، ومن يريد أن يعيش لا ليقول: اليوم خمر وغداً أمر، لا، اليوم خمر، وغداً خمر، وبعد غد خمر.

لا بد أن نصحو، لا بد أن نستيقظ، ليالي العبادة لا تكون ليالي تسلية، ليالي العبادة تكون ليالي إقبال على الله.

شهر رمضان موسم طاعة، ومواسم الطاعات جعلت معالم في حياة الناس كي ينتهوا إليها ليبدأوا من عندها صفحة جديدة، ولذلك لا بد لاستقبال الشهر من نية جديدة لمن أراد رضوان الله، نية جديدة، أن أغير من حياتي كذا وكذا بالتحديد، أن أجدد في حياتي كذا وكذا بالتعيين.

هذا هو مفهوم مواسم العبادة، أما أن تجيء أنثى لذعها الهجر وغياب الحبيب فهذا نوع من العبث الذي تهلك به الأمم!!..

إن الله أهلك الأولين لما لعبوا بالعبادات، وأخذوها شكلاً ولم يتحركوا بها قلباً!! وحذرنا ربنا أن نجري وراء هذه المسالك الطائشة فقال: ﴿ ۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[1] [2].

---

(١) سورة الحديد: الآية ١٦.

(٢) «خطب الشيخ محمد الغزالي»: ١/ ١٨٧ ـ ٢٠٠، خطبة في شعبان سنة ١٣٩٣.

رمضان
للأستاذ علي الطنطاوي[١]

قال الأستاذ:

لما قعدت أكتب هذا الحديث تقابلت في نفسي صورتان لرمضان: رمضان المزعج الثقيل، الذي قدم يحمل الجوع والعطش، ترى الطعام أمامك، يدك تصل إليه ونفسك تشتهيه، ولكنك لا تستطيع أن تأكله، ويلهب الظمأ جوفك، والماء بين يديك ولكنك لا تقدر أن تشربه، وتكون في أمتع نومة، فيأتي رمضان فيوقظك لتأكل من جوف الليل وأنت تؤثر لحظة منام على كل ما في الدنيا من طعام، وإن كنت صاحبَ دخان منعك من دخينتك (سيكارتك)، أو نارجيلتك فهو شهر مشقة وتعب، وجوع وعطش.

ورمضان الحلو الجميل الذي يقوم فيه الناس في هدئات الأسحار، وسكنات الليل، حين يرق الأفق، وتزهو النجوم، ويصفو الكون، ويتجلى الله على الوجود يعرض كنوز فضله على الناس، ويفتح لهم باب

---

(١) أديب العربية المعروف، من أصل مصري، من بلدة طنطا. كانت له رحلات وجولات في نصرة فلسطين والقضية الإسلامية، وله العديد من المصنفات الأدبية الدالة على علو كعبه في هذا المضمار، وله الكثير من الأحاديث في الرائي والإذاعة، وقد توفي الشيخ في ٤/ ٣/ ١٤٢٠هـ رحمه الله رحمة واسعة وغفر لنا وله.

رحمته، يقول جلّ وعلا: «**ألا من مستغفر فأغفرَ له، ألا من سائل فأعطيه**» فيسأل الطالب، ويستغفر المذنب، فيعطي السائل ويغفر للتائب، وتتصل القلوب بالله فتحس بلذة لا تعدل لذاذاتُ الدنيا كلها ذرة واحدة منها، ثم يسمعون صوت المؤذن يمشي في جنبات الفضاء مشيَ الشفاء في الأجسام والطرب في القلوب، ينادي: «الصلاة خير من النوم»، فيقومون إلى الصلاة يقفون بين يدي مصرف الأكوان يناجون الرحيم الرحمن، فيسري الإيمان في كل جنان، ويجري التسبيح على كل لسان، وتتنزل الرحمة في كل مكان.

رمضان الذي ينيب فيه الناس إلى الله، ويؤمون بيوته، فتمتلىء المساجد بالمسلمين، متعبدين أو متعلمين، لا متحدثين ولا نائمين، ففي كل بلد من بلاد الإسلام مساجد حُفَّل بالعبّاد والعلماء، ليس يخلو مجلس فيها من مصل أو ذاكر، ولا أسطوانة من تالٍ أو قارىء، ولا عقد من مدرس أو واعظ، قد ألقوا عن قلوبهم أحمال الإثم والمعصية، والغل والحسد، والشهوات والمطامع، ودخلوا المساجد بقلوب صفت للعبادة وسمت إلى الخير، قطعوا أسبابهم من عالم الأرض ليصلوها بعالم السماء، تفرقوا في البلدان واجتمعوا في الإيمان، وحدتهم هذه القبلة التي يتوجهون كلهم إليها، لا عبادةً لها ولا إيماناً بها، فما يعبد المؤمن إلا الله، وما الحجر الأسود إلا حجر لا يضر ولا ينفع، وإنما هو رمز إلى أن المسلمين مهما تناءت بهم الديار، وتباعدت الأقطار أمة واحدة، دائرة محيطها الأرض كلها، ومركزها الكعبة البيت الحرام.

رمضان الذي نجتلي فيه أجمل صفحات الوجود وما كنا لنجتليها قبل رمضان؛ لأن الحياة سفر في الزمان، يحملنا قطار الأعمار، فإذا قطع

بنا أجمل مراحل الطريق، حيث يولد النور، وتصفو الدنيا، ويسكن الكون ـ مرحلة السحر ـ قطعها بنا ونحن نيام لا نفتح عليها عيوننا ولا نبصر جمالها.

رمضان الذي تتحقق فيه معاني الإنسانية، وتكون المساواة بين الناس، فلا يجوع واحد ويتخم الآخر، بل يشترك الناس كلهم في الجوع وفي الشبع، غنيهم وفقيرهم، فيحس الغني بألم الجوع، ليذكره من بَعْدُ إذا جاءه من يقول له: أنا جوعان، ويعرف الفقير قيمة نعمة الله عليه، حين يعلم أن الغني يشتهي على غناه رغيفاً من الخبز أو كأساً من الماء، ويعلم الجميع حين يجلسون إلى مائدة الإفطار أن الجوع يسوّي بين المطاعم كلها: القوزي والنمورة[1] وصحن الفول المدمّس وقطعة الجرادق[2]، وليس الذي يطيب الطعام غلاء ثمنه، ولا جودة صنعه، ولا حسن مائدته ولكن الجوع الذي يشهيّه، والصحة التي تهضمه، وأرخص طعام مع الصحة والجوع ألذّ من موائد الملوك لمن كان مريضاً أو شبعان.

ويغدو الناس كأنهم إخوة في أسرة واحدة، أو رفاق في مدرسة داخلية يفطرون جميعاً في لحظة واحدة، ويمسكون جميعاً في لحظة واحدة، فتراهم المساء مسرعين إلى بيوتهم، أو قائمين على مشارف دورهم، أو على أبواب منازلهم، ينظرون في ساعاتهم ويتطلعون إلى المآذن بعيونهم، وإلى المدفع بآذانهم، فإذا سمعوا ضربة المدفع، أو أبصروا ضوء المنارة، أو رنّ في أسماعهم صوت المؤذن عمت الفرحة

---

(١) نوع من الكنافة.
(٢) الجَرْدق: الغليظ من الخبز: «المعجم الوسيط».

الكبار والصغار، فانطلقت وجوه الكبار وصاح الصغار بنغمة موزونة: «أذن، أذن» وطاروا إلى دورهم كعصافير الرَوْض، يرضى كل بما قسم له، ويحمد الله عليه، قد راضهم الجوع على أن يتقبلوا كل طعام هو في أذواقهم تلك الساعة أطيب طعام.

فإذا فرغوا من طعامهم، أموا المساجد فقاموا بين يدي ربهم وخالقهم صفاً واحداً، متراصة أقدامهم، ملتحمة أكتافهم، وجباههم جميعاً على الأرض: الغني والفقير، والكبير والصغير، والصعلوك والأمير، يذلون لله، يضعون له وجوههم عند مواطىء الأقدام، فيعطيهم الله بهذه الذلة له عزة على الناس كلهم، فيخفض لهم رؤوس الملوك والجبارين حتى تقع على أقدامهم، ومن ذل لله أعزه الله، ومن كان لله عبداً جعله الله في الدنيا سيداً، ومن كان مع الله باتباع شرعه والوقوف عند أمره ونهيه، وإتيان فرائضه واجتناب محرّماته كان الله معه بالنصر والتوفيق والغفران، وبذلك ساد أجدادنا الناس، وفتحوا الأرض من مشرقها إلى مغربها، وحازوا المجد من أطرافه، وأقاموا دولة ما عرف التاريخ أنبلَ منها ولا أفضل ولا أكرم ولا أعدل، رمضان الذي يجمع للصائم صحة الجسم، وصحة الروح، وعظمة النفس، ورضا الله.

إن الصيام من سنن الرياضيين، وسلوا كتب الرياضة وسلوا شيخها مكفادن، ولست طبيباً ولكني جربت بنفسي، ورب مجرّب أعرف بنفسه من طبيب، فأنا أحد من أظنتهم الرِثية (الروماتزم) وحصوات الكلى، ولقد راجعت في علاجها ستة وثلاثين طبيباً، إي والله، وأحسبني جربت لها كل علاج، فلم أجد لها مثل الصيام، والصيام يصفي الجسم، ويطرح سمومه، وينفي عنه الفضلات، ويبعد عنه الأمراض.

هذه صورة رمضان الحلوة، أفلا تستحلي معها مرارة الصورة الأخرى، إنه دواء فَمن من العقلاء لا يحتمل ألم الدواء لما يرجو بعده من لذة الشفاء.

هذا هو رمضان فإذا أردتم أن تصوموا حقاً، فصوموا فيه عن الأحقاد، والمآثم، والشرور، كفوا لسانكم فيه عن اللغو، وغضوا فيه أبصاركم عن الحرام، واعلموا أن من الصائمين مَن ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، ذلك الذي يترك الطعام ويأكل بالغيبة لحوم إخوانه، ويكف عن الشراب، ولكنه لا يكف عن الكذب والغش والعدوان على الناس، ولقد سأل الرسول ﷺ أصحابه، «**من المفلس**»؟ قالوا: المفلس فينا من لا مال له ولا درهم، قال: «**المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وحسنات ويأتي قد ضرب هذا وشتم هذا وأكل مال هذا، فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته فلا يبقى له شيء**» وأفظع الذنوب الكذب: الكذب بالقول والكذب بالفعل، بأن تتزيا بزي الصالحين، وتتخذ سمت المتقين وأنت مراء خداع تريد أن تأكل الدنيا بالدين، ولقد سئل الرسول ﷺ هل يسرق المؤمن؟ هل يفعل كذا وكذا من الذنوب، فأجاب: بأنه ربما وقع ذلك منه فتاب، فسألوه: هل يكذب المؤمن؟ قال: لا، إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون.

ولقد بين ﷺ بأن من غش فليس منا، وهذا قانون من مادة واحدة معناه بلسان اليوم: «يطرد من الجنسية الإسلامية من يغش»!

ففتشوا في الصائمين، أليس فيهم من يكذب؟ أليس فيهم من يغش؟ أليس فيهم من يخلف بالوعد وإخلاف الوعد ثلث علامات النفاق؟ فكيف

يرجو هؤلاء أن يكون لهم ثواب الصائمين، وهم قد صاموا عن الطعام الحلال ولم يصوموا عن الحرام.

إن الدين المعاملة، ومقياس الصلاح الصفراء والبيضاء: الذهب والفضة، المال، هذا هو المقياس، ولقد زكى رجل رجلاً عند عمر فقال له: هل عاملته؟ هل سافرت معه؟ أم لعله غرك منه إحناء رأسه في الصلاة، وتحريك لسانه بالتسبيح.

الدين المعاملة، والمقياس المال.

وبعد: يا أيها الصائمون فإن رمضان شهر الحب والوئام، فكونوا فيه أوسع صدراً، وأندى لساناً، وأبعد عن المخاصمة والشرّ، وإذا رأيتم من نسائكم زلة في رمضان فاحتملوها، وإن وجدتم مساءة من إخوانكم فاصبروا عليها، وإن بادأكم أحد بالخصام فلا تقابلوه بمثله، بل ليقل أحدكم: إني صائم.

وإذا جعتم هذا الجوع الاختياريّ، فاذكروا من يتجرع غصص الجوع الإجباريّ، واشكروا على نعمة ربكم، وليس الشكر أن ترددوا ألف مرة باللسان: الحمد لله الحمد لله، ولكن شكر الغني بالبذل للفقراء، وشكر القوي إسعاد الضعفاء.

وأعطوا من نفوسكم كما تعطون من أموالكم، فربّ بسمة مع العطاء تنعش السائل أكثر من العطاء، وكلمة خير لجار تحيي الجار، وبَشٌّ في وجه ذي الحاجة والاعتذار عنها، خير من قضائها مع الترفع عليه عند السؤال، والمنّ عليه بعد النوال، فجربوا هذه العطية في رمضان.

وخذوا منه الصحة لأجسامكم، والسمو لأرواحكم، والعظمة

لنفوسكم، والقوة والنبل، والبذل والفضل، وخذوا منه ذخراً للعالم كله يكن لكم ذخراً.

رمضان الذي تشيع فيه خلال الخير، ويعم الحب والوئام، فإذا أردتم أن تصوموا حقاً فصوموا عن الأحقاد، واذكروا ما في أعدائكم من خلال الخير، فأحبوهم لأجلها، واغفروا لهم وادفعوا بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينكم وبينه عداوة كأنه ولي حميم[1].

---

(١) من كتاب الشيخ على الطنطاوي: «مع الناس».

الحياة الهادفة والصوم
للدكتور محمد أديب صالح

قال الدكتور:

كلما أطلّ على الأكوان هلال شهر رمضان سرت في دنيا المسلمين هِزَّة من الحركة والتطلُّع تبدو وكأنها ـ على الأقل ـ محاولة لتجديد الصلة بالله ـ تبارك وتعالى ـ واستئناف سلوك أفضل من سابقه قبل أن يشهد المسلم هذا الشهر العظيم.

هذا أمر حسن لا غبار عليه ولقد يكون ذلك أقل ما يفترض بالمسلم الذي يودّ ـ لو قدر ـ تطويع سلوكه للمنهج الإسلاميّ، ويحاول أن يستقيم على الطريقة ليفوز برضا الخالق العظيم فوزاً يسعده في الدنيا والآخرة.

ولكن الذي يشكو منه المصلحون في كل مكان، والذي يبدو وكأنه على صعيد السلوك مرض يعاني منه الأفراد والجماعات في كل قطر وفي كل مصر من دنيا الإسلام العريضة، التي تبلغ تعداد سكانها مئات الملايين حيث يؤمن الجميع برب واحد وبنبي واحد، ويتجهون إلى قبلة واحدة، ذلك المرض هو ضعف الأثر العملي، وإن شئت انعدامه أحياناً عندما يراد أن تتحول المبادىء إلى حركة وسلوك، والعلم إلى عمل وتطبيق.

فحين تأذن الخالق الحكيم أن يعيش المسلم في ظل أكرم رسالة

وأنبل دعوة، حمله على الحياة الهادفة التي لا تعرف العبث، ولا تعترف بالانحراف، وأكرمه بألوان من التكوين النفسيّ والعقليّ ليكون دائماً على مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقه والأمانة التي حملها بالإسلام ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾(١).

وإذ كان الأمر كذلك رأينا في أركان الإسلام بعد الشهادتين ألواناً من العبادة التي تشتمل حياة الفرد والجماعة من كل نواحيها المادية والمعنوية فمن عبادات بدنية، إلى عبادات مالية، إلى عبادات تجمع بينهما.

وكان من ذلك عبادة الصوم، حيث كتب على المسلمين صيام شهر رمضان فرضاً لازماً على المكلف منذ طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس، ولا يكون ذلك بالإمساك عن جميع المفطرات التي حدّدها العلماء، أخذاً من نصوص الكتاب الكريم وسنة النبي عليه الصلاة والسلام.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٢) والأمر منوط بعدم وجود العذر فلا حرج ولا إعنات ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾(٣).

وعلى هذا كان من مقتضى الحياة الهادفة، أن يكون سلوك الفرد

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ١١٥.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٣.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

وتصرفاته دائماً في ظل منهج واحد تتكامل أجزاؤه من هنا وهناك، ويرتبط بوحدة كاملة تجعله دائماً على الطريقة التي طلب أن يستقيم عليها فرداً نافعاً في الحياة، تضيء قلبَه عقيدةُ التوحيد وتظهر على جوارحه آثار العبادة، لا يباعد بينه وبين الغاية الكبرى التي تتمثل في العبودية الحقة لله عرض زائل ولا غرض قريب؟

والإمساك عن المفطرات في واقع الأمر عنوان لإمساك حقيقيّ أمين عن كل ما يتجافى مع السبيل المرضية لله ـ عز وجل ـ وإلا فأي غناء في أن يدع مسلم ما طعامه وشرابه ثم يركب الصعب والذلول على طرائق المعاصي والمخالفات، فيأتي ظاهر الإثم وباطنه، ويلقي بجوارحه في حَمَأة الأذى والعَنَت؟؟.

أي غناء في أن يمسك عن المفطرات، ثم يبدو وكأن سلوكه مجموعة من المتناقضات عبثاً واستهتاراً ولهواً. . .

وقبل ألف وأربعمائة عام قال نبي الرحمة ـ صلوات الله عليه ـ تحت هذا العنوان: «**رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر**».

ومن هنا كان جديراً بنا في مستهل شهر رمضان أن نذكر ما قد نغفل أونتغافل عنه في كثير من الأحيان.

ولولا الغفلة أو التغافل لكان لنا ـ نحن المسلمين ـ شأن آخر من حيث علاقتنا بهذه العبادة التي هي الصوم، ومن حيث صداها الباهر في تكويننا النفسيّ والخلقيّ.

وهذا الذي لا مندوحة عن تذكره، ولا مناص من وضعه موضعه هو

أن الصيام قبل كل شيء أمانة، وحين نقول أمانة فإنما نعنيها بكل ملامحها، بكل مدلولاتها، بكل ما تحمل من امتحان عميق للفرد، وقدرته على العمل، والمتابعة، والإعراض عن الإثم دونما رقيب ظاهريّ، أو حارس قريب.

وعلى هذا خُصّ الصيام بأن نسبه الله ـ تبارك وتعالى ـ إلى نفسه في معرض الجزاء، وجاء الخبر الصادق عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فيما يرويه عن ربه عز وجل: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**».

يطالعنا هذا الكلام البيِّن كل البيان، الواضح كل الوضوح ونحن نعلم أن الأعمال كلها مرد الحكم عليها إلى الله عز وجل، فالناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

ولكن السرّ يكمن وراء وراء، وراء أن الصيام إمساك والإمساك ليس عملاً ظاهرياً، فهو سلب وليس بإيجاب، ومن الممكن لكل إنسان أن يتبع خطوات الشيطان، فيخلو إلى نفسه وَيلغَ في الإثم فطراً ومخالفة في وضح النهار، ولا يراه أحد من البشر، ثم ينقلب إلى أهله وذويه متظاهراً بالصيام لابساً لبوسَ العابد المتنسك الذي يقف عند شريعة الله ولا يتعدى حدوده في حال من الأحوال.

من الممكن أن يفعل هذا فرد ينتسب إلى الإسلام، وقد يقع ذلك من أفراد، ولكن هذا المسكين كان غافلاً عن أن هناك عيناً لا تدركها الغفلة، غفل عن الحيّ القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، الذي يعلم السر وأخفى والمحيط بما تكسب كل نفس، بل بما يخطر على كل قلب،

وفوق ذلك كله ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[١].

وعلى هذا لم يكن بدعاً من الترتيب المنطقيّ بعد أن أجاب رسول الله عن الإسلام والإيمان أن يجيب جبريل عليه السلام في سؤاله عن الإحسان «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

والمسلمون على عددهم الذي يزيد على ستمائة مليون نسمة في شتى أرجاء هذه المعمورة، مدعوون ـ والقوارع تنزل بهم صباح مساء، والرزايا تلم بهم من كل جانب ـ أن ينظروا إلى هذه العبادة نظرة قرآنية ربانية سليمة، نظرة تحملهم على الخلوص من وهدة الواقع المختلف عن طبيعة الوعي الإسلامي.

والصيام بعد ذلك مظهر من مظاهر التحقق بالعبودية الصادقة لله ـ عز وجل ـ ووسيلة تحمل كل معاني الإشراق والسمو إلى تقوى الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢].

أرأيت إلى قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ أي فرض عليكم، وإلى قوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، أدرْها على لسانك واستمع إليها بقلبك واقرأ معها قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٣.

﴿مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[١].

إنك واجد حين تفعل ذلك أن أي حكمة ظاهرية من الحكم التي يمكن أن يلتمسها المسلم للصوم ـ كالصحة والتنظيم والنشاط، وما إلى ذلك ـ لن تكون هي العلة لهذه الفريضة والباعث لها.

الصيام ركن من أركان الإسلام وعبادة لازمة مفروضة والذي فرضها خالق ونحن عباده، فمن العبودية أن نقوم بها امتثالاً لأمره عز وجل، وطاعة خالصة نبتغي بها رضاه، وطريق أمينة توصلنا إلى تقواه.

ولم يكن من مدلولات العربية التي بها نزل الكتاب، ولا من بيان من قلّده الله أمانة البيان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ولا من فهم الذين عاشوا وقائع الوحي، ودرجوا في ظل المدرسة النبوية المحمدية أن تربط فريضة من فرائض الإسلام بشيء من حكم التشريع الظاهرة التي يمكن أن يستنبطها الفرد أو تتلمسها الجماعة.

فإما أن ندور مع الحق، وإلا أدركتنا المتاهة، واستبدت بنا مخاطر الضياع. فكثير من الوسائل يمكن أن تكون طريقاً للصحة مثلاً، وكثير من الأسباب يمكن أن تكون منهجاً للتنظيم.

جميل أن تتبدى لنا كل يوم حكمة جديدة للصيام أو لأي عبادة من العبادات، ولكن لن يكون ذلك من الحقيقة في شيء إذا اعتبرنا تلك الحكمة هي علة تلك العبادة أو الباعث الذي من أجله شرعت تلك العبادة.

ومن هذه الزاوية كان من الخير أن نذكر أن الآيات التي حملت

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢ ـ ٥.

شرعة هذه الفريضة جاء بعدها مباشرة قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[١].

العبودية لله أولاً، واعمل طاقاتك ومواهبك فيما وراء ذلك ما شاء لك العمل ما دام ذلك في ساحة الشرعية والالتزام، ويرحم الله الأحنف ابن قيس الذي قيل له وهو صائم: إنك شيخ كبير وإن الصيام يضعفك فقال: إني أعده لسفر طويل والصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذاب الله.

على هدي هذه الحقائق التي عرضنا لها بكثير من الإيجاز الذي نرجو أن لا يتعب القارىء الكريم، نستطيع أن نقرر دون لبس أو غموض أن واقع المسلمين ـ أو كثير منهم ـ اليوم لا يصح أبداً أن يكون هو الصورة الصحيحة للعبادة الإسلامية كما أمر الله، وخصوصاً الصيام.

وحرام على المسلمين أن يولوا ظهورهم للتقوى فيطمئنوا لما هم عليه من ضياع وفرقة وبعد عن الوعي الإسلامي القويم، وأن يهونوا على أنفسهم حتى يتبلد منهم الحس، فلا يستيقظوا على وقع تلك المطارق التي لا تعرف إلاّ ولا ذمة، وقد تداعت عليهم الأمم كما تداعى الأَكلَة إلى قصعتها.

حرام عليهم أن يكون هذا موقفهم وقد خصهم الله بشهر رمضان يعاودهم مرة في كل عام، فلا يكادون يودعونه حتى يتصرم الزمن ويستقبلوه من جديد.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

ترى هل يكتب لنا شرف السعادة فنؤوب إلى منابع الخير، ونستأنف طريق الهدى، ونستقبل شهر رمضان العظيم مدركين من أعماقنا وبكل قوانا وطاقاتنا أنه شهر القرآن وأنه شهر الصبر، وأنه شهر العبودية، وأنه شهر الجهاد، شهر بدر والفتح، وأنه شهر ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر!! إن فعلنا ذلك كنا على الجادة في النصح لأنفسنا ولأمتنا بل ولكل بني الإنسان.

فلأمر يريده الله كان رمضان شهر القرآن حيث سعدت الدنيا بتنزل الوحي ليلة القدر.

ولأمر يريده الله كان رمضان شهر معركة الفرقان بدر التي بدّلت ملامح الدنيا وغيرت وجه التاريخ.

ولأمر يريده الله كان رمضان شهر غزوة الفتح التي كانت غُرّة النصر في معركة التوحيد مع الوثنية.

ولأمر يريده الله ـ وهو الذي وهب الموجودات خصائصها ـ كان لشهر رمضان ليلة القدر التي يتجلى الله على عباده بالمغفرة والخير والرضوان.

ألا إنه ليس عزيزاً عليك ـ يا الله، يارب كل شيء ومليكه، يا جبار السماوات والأرض ـ أن تهب هذه الأمة يقظة إيمانية جديدة تنهض بها من عثار، وتحملها إلى مواقع القوة والأَيْد[1]، وتسمو بها إلى قمة النصر المؤزر من جديد[2].

---

(١) الأَيْد: القوة.

(٢) مجلة «حضارة الإسلام»: العدد التاسع، السنة ٧، رمضان سنة ١٣٨٦، ص ٥ ـ ١٠.

الصيام تدريب على الفضائل

الأستاذ محمد الراوي

قال الأستاذ:

الصوم للجسد والروح:

«من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه».

«من استطاع الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء[1]».

حصانة لكليهما: للجسد: بالتهذيب والإصلاح، وللروح بإبراز خصائصها وانتصار فضائلها.

الحياة لا بد فيها من عزيمة صادقة تصدع غوائل الهوى، وترد هواجس الشر، تبطش بالهوى الكذوب، وتنطلق بالإنسان إلى الجهاد الحر الكريم في شتى الميادين، وهذه العزيمة لا بد منها لتحمل أعباء الحياة.

والصوم وهو يمدنا بالعزيمة المتجردة والإرادة الحرة عون من الله لنا على تحمل أعباء الحياة.

---

(١) الوجاء: قطع الشهوة.

وأي عزيمة أصدق بل أي نظام من أن ترى المؤمن في مشارق الأرض ومغاربها يمسك عن طعامه وشرابه في لحظة محدودة ثم يتناوله في وقت معين من الليل إلى الفجر.

ثم يمسك زمام نفسه من أن تذل لشهوة أو تسترق لنزوة أو تنجرف في تيار الهوى الضال، أو تنحرف عن هدى الصراط المستقيم؟

بل أي إرادة حرة أكرم من إرادة المتجرد لربه المتجه لخالقه الممسك عن هواه تقرباً إليه، والممتنع عن طعامه وشرابه رغبة فيه، الحذر من مواطن السوء وسفاهة القول رهبة منه، والمتجه بكيانه كله شوقاً إلى قربه وإيماناً بفضله؟

والحياة ـ أيضاً ـ بمراحلها المختلفة وظروفها المتقلبة ومشاكلها المتعددة، الحياة ـ بسرّائها وضرّائها ورخائها ونعيمها وبلائها ـ تحتاج إلى صبر. . وأي صبر أكرم من صبر يحرز طاعة أو يرد معصية يتحقق معه في الحالين رضا الله، ذاك هو الصبر الناشيء عن الصوم الرضى الأمين.

وأود بعد هذه النظرة العامة لتلك الفريضة أن ندرك من أمرها أنها عبادة قديمة امتدت مع الإنسانية من بدايتها، لأن الإنسان من يوم أن كتب الله له الاستخلاف في الأرض وهو بحاجة إلى إبراز الخصائص التي تؤهله وتعينه على أداء ما استخلف عليه.

والصبر الذي يحققه الصوم من أهم هذه الخصائص التي تؤهله للبقاء، بقائه كإنسان خلق ليسعى إلى دار السلام، بفضائله التي يحققها بسعيه، ويبرهن بما يحقق على أهليته للتمتع بثمار غرسه وجنة ربه.

وغرس الإنسان الخالد لا بد فيه من انتقاء البذرة ومن تهيئة الجو والتربة، لا بد من الملاحظة الدقيقة والرعاية والكاملة.

ثم لا بد بعد كل هذا من رعاية الله وحماية السماء حتى لا يتعرض الغرس لآفة قاتلة، آفة الشرك الخفيّ والغفلة الشاردة، أو الغرور ببداية الطلع ونماء الزرع.

والسماء لا تمسك آفاتها بإعلان العصيان عليها أو التمرد على أوامرها ولا ترسل خيراتها لمن يتنكر لها أو ينفصل بقلبه عنها، وإنما إذا القلوب تطهّرت، وإذا العزائم تجردت، وإذا الأسباب بعد ذلك توافرت: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[١]. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[٢] وتلك ثمرة الغرس الطيب، غرس الإيمان والتقوى. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[٣].

والإنسان من يوم أن وجد يغرس ليبقى، ولا نفرق بين ما يغرس من نبات ليطعم وبين ما يغرسه من سلوك طيب، فكلاهما في باب التدين الصحيح القائم على النية الطيبة سبب من أسباب بقائه، والإنسان على أهبة الانتقال في أية لحظة. ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[٤].

وسيجنب حتماً نتيجة عمله وثمار غرسه، ولن يتخلف ثمر أو يبطىء رحيل.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٩٦.
(٢) سورة المائدة: الآية ٦٥.
(٣) سورة المائدة: الآية ٦٦.
(٤) سورة لقمان: الآية ٣٤.

ورحم الله أبا العلاء المعريّ إذ يقول:

تشـــاد المغـــانـــي والقبـــور دوارس
ولا يمنـــع المقـــدار بـــاب وحـــارس

مهمـــا يكـــن فـــالله ليـــس بـــزائـــل
ويجنـــي الفتـــى مـــن بَعْـدُ مـــا هـــو غـــارس

كما قلت: إن الغرس ما لم يتهيأ له جو التربة والرعاية والوقاية فلا يرجى له نماء ولا ثمر، وتربة الغرس النافع القلب السليم، ونماؤه الكلم الطيب والعمل الصالح، ورعايته ووقايته بمراقبة الله وخشيته.

والآفات لا تنشأ إلا من داخل النفس وهي أمارة بالسوء، فمن رحمة الله بها أن يعينها على إبراز خصائصها وصيانة غرسها.

فيأتي الإسلام متكاملاً لضبط النفس وحصانة القلب ورعاية السلوك، وتأتي فرائضه التي يقام عليها لتكون أسساً راسخة لبنيان متين.

ومن هذه الأسس التي بُني الإسلام عليها «الصوم» الذي فرضه الله لنا وألزمنا تأديته كما فرضه على الذين من قبلنا.

فالصوم مع كونه قربة إلى الله يعطي النفس قناعتها، ويعتقها من الهوى الكذوب، ويحررها من الشهوة الآسرة.

والـنفـس راغبـة إذا رغـبـتهـا وإذا تـــرد إلـى قليـل تقنـــع

يكاد شهر رجب يقبل ومن ورائه شعبان حتى يتنسم الناس عبيق الشهر القرآنيّ الفريد.

ولا يكاد يطلع على الناس هلاله حتى يغمر الدنيا ضوء من الخشية الهادية والذكر الرفيع.

الله أكبر، أذن الفجر في أول يوم، فليمسك الناس عن ملاذهم بعد أن حصنوا القلب بالخشية واللسان بالذكر. فليقبلوا مع الإمساك والخشية إلى بيت الله وقد دعاهم داعية: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾(١).

أي سلوك يطبع الأمة على وحدة مصونة وألفة بارة ومحبة خالدة مثل هذا السلوك المنتظم المرتبط بآيات الكون والمعترف بخالقه؟

أي سلوك بل أي أسلوب يمكن أن توحد به أمة بعد هذا الأسلوب التربوي الفذ؟

في لحظة واحدة لحظة الفجر الصادق يتم الإمساك والنداء واحد، والمعبود واحد، والقبلة والغاية متحدتان.

بدأ الصوم بهذا العبيق المسكوب على الكون والضوء السابح فيه فليبدأ السعي.

والنفس بطهرها وصومها خفيفة الظل طيبة الأثر.

كل قد انتهى من شر نفسه فالتقى على الخير مع غيره عبداً للخالق وأخاً للمخلوق.

وإذا النفس أرادت أن تنساق في فترة ضعف لهواها تذكرت صومها فأبصرت.

وإذا الشيطان طاف بهذه النفوس يرجو غوايتها تذكرت الله وهي صائمة خاشعة فرجع الشيطان من ساحتها.

---

(١) سورة الفتح: الآية ٢٩.

سلاح من الطهر الدائم يحمله المؤمن متجدداً بشعائر دينه، وبر تطيب به الدنيا ينبع من قلبه ويمليه يقينه، فتنطلق الهمم قوية يقينها، ناعمة بإيمانها، باسمة بحبها، راضية بربها، محفوفة بطهرها، آمنة في سعيها، متأهبة للقاء ربها.

وتمضي ساعات النهار مع آناء الليل ندية السعي طيبة الذكر، يغمر الإنسان مع بسمة الفجر الأول فيض من النور، يحرر إرادته بالتجرد لله الواحد الأحد، ويجرد النفس من نوازع الهوى والشهوة.

وإذا كان الصوم قد فرض على الأمم الماضية ليظل حبل الإنسانية موصول العزيمة فإن رمضان الذي فرض الله صومه على المسلمين لم يكن مقصوراً على الكبار وحدهم، بل الأطفال يمرنون على الصوم لينشأوا على العزيمة والإرادة والصبر وحسن القصد.

عن الرُبَيِّع بنت مُعَوِّذ قالت: أرسل النبي ﷺ غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار: «**من أصبح مفطراً فليتم بقية يومه، ومن أصبح صائماً فليصم**»، فكنا نصومه بعد وتصوم صبياننا، ونجعل لهم اللعبة من العِهْن[1]، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك حتى يكون عند الإفطار.

وإذا كانت العادة ترسخ في النفوس وتعمل عملها في توجيه الأمم والجماعات فإن تعويد الصبيّ الصوم وتمرينه عليه وهو لم يفرض عليه بعد ينتج أمة طابعها العزيمة والجد وطبعها الإرادة والصبر.

والإنسان يحتاج في رحلة الحياة تلك إلى رفقة صالحة صادقة تعينه على نفسه إذ هو في ضعفه البشري يحتاج إلى العون والمساعدة لينتصر

---

(١) أي الصوف.

في معركة الحياة، ومن هنا مدح رسول الله ﷺ جليس الخير وشجع عليه وذم جليس السوء وحذر منه.

وإذا نحن تأملنا ما يصنعه الصوم من إتاحة جو مشحون بالطهر ووجود أمة متسمة بطابع واحد وجدنا هذه الفريضة كغيرها عاملة في تحقيق التآلف الإنسانيّ والسلام العالميّ، ونحن نلمس ما تحققه من وجود المودة بين الرفقة الجادة الصادقة التي لا تقبل منكراً ولا تحرص عليه، وتمسك عن قول الزور والعمل به مع إمساكها عن الطعام والشراب لتصهر العزيمة الفردية مع العزيمة الجماعية في بوتقة واحدة، بوتقة الصوم الطهور واللسان العف والصبر والتجرد، وهي بوتقة لا تدع الإنسان يفلت من نفسه فيتسلط على غيره.

ومن أودى نفسه بالشهوات والمفاسد امتد شره حتماً إلى غيره[1].

---

(١) مجلة «البعث الإسلاميّ»: المجلد ١٨، العدد الثالث، رمضان سنة ١٣٩٣، ص٤٢ ـ ٤٨.

أسرار الصيام وحكمه

أسرار الصوم وشروطه الباطنة
للإمام أبو حامد الغزالي[١]

قال الإمام:

اعلم أن الصوم ثلاث درجات: صوم العموم وصوم الخصوص وصوم خصوص الخصوص، أما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة.. وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام، وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدنيئة والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر فيما سوى الله عز وجل واليوم الآخر، وبالفكر في الدنيا إلا دنيا تراد للدين؛ فإن ذلك من زاد الآخرة وليس من الدنيا.. وأما صوم الخصوص ـ وهو صوم الصالحين ـ فهو كف الجوارح عن الآثام وتمامه بستة أمور:

---

(١) الشيخ الإمام البحر، حجة الإسلام، زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطُوسي الشافعي الغزالي، صاحب التصانيف والذكاء المفْرط. تفقه ببلده ثم تحول إلى نيسابور فلازم إمام الحرمين فبرع في الفقه، ومهر في الكلام والجدل، وشرع في التصنيف، وعظم جاه الرجل، ثم رفض الرئاسة وحج، وانعزل عن الناس مدة، وكان خاتمة أمره إقباله على طلب الحديث ومجالسة أهله. توفي سنة خمس وخمسمائة بطوس رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٩/ ٣٢٢ـ٣٤٦.

الأول: غض البصر وكفه عن الاتساع في النظر إلى كل ما يذم ويكره، وإلى كل ما يشغل القلب ويلهي عن ذكر الله عزوجل قال ﷺ «**النظرة سهم مسموم من سهام إبليس لعنه الله، فمن تركها خوفاً من الله آتاه الله عزوجل إيماناً يجد حلاوته في قلبه . . .**».

الثاني: حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمراء، وإلزامه السكوت وشغله بذكر الله سبحانه وتلاوة القرآن فهذا صوم اللسان، وقد قال سفيان: «الغيبة تفسد الصوم» رواه بشر بن الحارث عنه، وروى ليث عن مجاهد: خصلتان يفسدان الصيام: الغيبة والكذب، وقال ﷺ: «**إنما الصوم جُنة، فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم . . .**».

الثالث: كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه لأن كل ما حرم قوله حرم الإصغاء إليه؛ ولذلك سَوّى الله عزوجل بين المستمع وآكل السحت فقال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾[1] وقال عزوجل ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾[2] فالسكوت على الغيبة حرام وقال تعالى ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾[3].

الرابع: كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرجل عن المكاره، وكف البطن عن الشبهات وقت الإفطار، فلا معنى للصوم وهو الكف عن الطعام الحلال ثم الإفطار على الحرام، فمثال هذا الصائم مثال من يبني

(١) سورة المائدة: آية ٤٢.
(٢) سورة المائدة: آية ٦٣.
(٣) سورة النساء: آية ١٤٠.

قصراً ويهدم مصراً، فإن الطعام الحلال إنما يضر بكثرته لا بنوعه، فالصوم لتقليله، وتارك الاستكثار من الدواء خوفاً من ضرره إذا عدل إلى تناول السم كان سفيهاً، والحرام سم مهلك للدين، والحلال دواء ينفع قليله ويضر كثيره، وقصد الصوم تقليله، وقد قال ﷺ: «**كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش**» فقيل هو الذي يفطر على الحرام، وقيل هو الذي يمسك عن الطعام الحلال ويفطر على لحوم الناس بالغيبة وهو حرام، وقيل هو الذي لا يحفظ جوارحه عن الآثام.

الخامس: أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلىء جوفه فما من وعاء أبغض إلى الله عزوجل من بطن ملىء من حلال، وكيف يستفاد من الصوم قهر عدوّ الله وكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره ما فاته ضحوة نهاره وربما يزيد عليه في ألوان الطعام؟ حتى استمرت العادات بأن تدخر جميع الأطعمة لرمضان فيؤكل من الأطعمة فيه ما لا يؤكل في عدة أشهر، ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى، وإذا دُفعت المعدة من ضحوة نهار إلى العشاء حتى هاجت شهوتها، وقويت رغبتها، ثم أطعمت من اللذات وأشبعت زادت لذتها وتضاعفت قوتها وانبعث من الشهوات ما عساها كانت راكدة لو تركت على عادتها، وروح الصوم وسره تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان في العود إلى الشرور، ولن يحصل ذلك إلا بالتقليل وهو أن يأكل أكلته التي كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم فأما إذا جمع ما كان يأكل صحوة إلى ما كان يأكل ليلاً فلم ينتفع بصومه، بل من الآداب أن لا يكثر النوم بالنهار حتى يحس بالجوع والعطش ويستشعر ضعف القوى فيصفو عند ذلك قلبه ويستديم في كل ليلة قدراً من الضعف

حتى يخف عليه تهجده وأوراده، فعسى الشيطان أن لا يحوم على قلبه فينظر إلى ملكوت السماء، وليلة القدر عبارة عن الليلة التي ينكشف فيها شيء من الملكوت وهو المراد بقوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ ومن جعل بين قلبه وبين صدره مِخْلاة[1] من الطعام فهو عنه محجوب، ومن أخلى معدته فلا يكفيه ذلك لرفع الحجاب ما لم يخل همته عن غير الله عزوجل وذلك هو الأمر كله، ومبدأ جميع ذلك تقليل الطعام. . .

السادس: أن يكون قلبه بعد الإفطار معلقاً مضطرباً بين الخوف والرجاء؛ إذ ليس يدري أيقبل صومه فهو من المقربين أو يرد عليه فهو من الممقوتين؟ وليكن كذلك في آخر كل عبادة يفرغ منها فقد روي عن الحسن بن أبي الحسن البصري أنه مر بقوم وهم يضحكون فقال: «إن الله عزوجل جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه يستبقون فيه لطاعته فسبق قوم ففازوا وتخلف أقوام فخابوا فالعجب كل العجب للضاحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه السابقون وخاب فيه المبطلون، أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته» أي كان سرور المقبول يشغله عن اللعب وحسرة المردود تسدّ عليه باب الضحك.

وعن الأحنف بن قيس أنه قيل له: إنك شيخ كبير وإن الصيام يضعفك فقال: «إني أعده لسفر طويل، والصبر على طاعة الله سبحانه أهون من الصبر على عذابه».

فهذه هي المعاني الباطنة في الصوم.

فإن قلت: فمن اقتصر على كف شهوة البطن والفرج وترك هذه

---

(١) المِخْلاة: السلة أو الوعاء الذي يوضع فيه الشعير للبهائم ثم استعير للإنسان.

المعاني فقد قال الفقهاء: صومه صحيح فما معناه؟ فاعلم أن فقهاء الظاهر يثبتون شروط الظاهر بأدلة هي أضعف من هذه الأدلة التي أوردناها في هذه الشروط الباطنة لا سيما الغيبة وأمثالها، ولكن ليس إلى فقهاء الظاهر من التكليفات إلا ما يتيسر على عموم الغافلين المقبلين على الدنيا الدخول تحته، فأما علماء الآخرة فيعنون بالصحة القَبول وبالقبول الوصول إلى المقصود، ويفهمون أن المقصود من الصوم التخلق بخلق من أخلاق الله عزوجل وهو الصمدية، والاقتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بحسب الإمكان فإنهم منزهون عن الشهوات، والإنسان رتبته فوق رتبة البهائم لقدرته بنور العقل على كسر شهوته، ودون رتبة الملائكة لاستيلاء الشهوات عليه وكونه مبتلى بمجاهدتها، فكلما أنهمك في الشهوات انحط إلى أسفل السافلين والتحق بغمار البهائم، وكلما قمع الشهوات ارتفع إلى أعلى عليين والتحق بأفق الملائكة، والملائكة مقتربون من الله عزوجل والذي يقتدي بهم ويتشبه بأخلاقهم يقرب من الله عزوجل كقربهم، فإنّ الشبيه من القريب قريب، وليس القرب ثَم بالمكان بل بالصفات، وإذا كان هذا سر الصوم عند أرباب الألباب وأصحاب القلوب فأي جدوى لتأخير أكلة وجمع أكلتين عند العشاء مع الانهماك في الشهوات الأُخَر طول النهار؟ ولو كان لمثله جدوى فأي معنى لقوله ﷺ: «**كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش**».

ولهذا قال أبو الدرداء: «**يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم كيف لا يعيبون صوم الحمقى وسهرهم**» ولذرة من ذوي يقين وتقوى أفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادة من المغترين، ولذلك قال بعض العلماء: كم من صائم مفطر وكم من مفطر صائم، والمفطر الصائم هو الذي يحفظ

جوارحه عن الآثام ويأكل ويشرب، والصائم المفطر هو الذي يجوع ويعطش ويطلق جوارحه، ومن فهم معنى الصوم وسره علم أن مَثَل من كف عن الأكل والجماع وأفطر بمخالطة الآثام كمن مسح على عضو من أعضائه في الوضوء ثلاث مرات فقد وافق في الظاهر العدد إلا أنه ترك المهم وهو الغسل فصلاته مردودة عليه بجهله، ومثل من أفطر بالأكل وصام بجوارحه عن المكاره كمن غسل أعضاءه مرة مرة فصلاته متقبلة إن شاء الله لإحكامه الأصل وإن ترك الفضل، ومثل من جمع بينهما كمن غسل كل عضو ثلاث مرات فجمع بين الأصل والفضل، وهو الكمال، وقد قال ﷺ «**إن الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته**»[١].

فإذن قد ظهر أن لكل عبادة ظاهراً وباطناً وقشراً ولباً ولقشرها درجات ولكل درجة طبقات، فإليك الخيرة الآن في أن تقنع بالقشر عن اللباب أو تتحيز إلى غمار أرباب الألباب[٢].

(١) حسّن الحافظ العراقي إسناد هذا الحديث.
(٢) «إحياء علوم الدين»: ١/ ٢٣٤ ـ ٢٣٧ بتصرف.

بين يدي رمضان
للأستاذ حسن الهضيبي[١]

قال الأستاذ:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾[٢] .

روى الشيخان رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين» .

وتلك حقائق جليلة القدر، إذا تأملها الإنسان سرح خاطره في آفاق خطيرة من علم الله وغيبه وسمعياته لا طاقة له بإدراك كائناتها ولا تصور شيء من هيئاتها.

وقد اعتاد بعض الناس أن يمروا بهذا الحديث الجليل وأمثاله مروراً عابراً، كأنما يمرون بمعانٍ عادية لا تستوقف الخاطر ولا تستلفت النظر؛

---

(١) حسن الهضيبي، المرشد العام للإخوان المسلمين، ولد سنة ١٣٠٨، ولي القضاء بمدينة أسيوط، ثم كان مستشاراً قضائياً، تولى إرشاد الإخوان المسلمين سنة ١٣٧١ وسجن وعذب وصبر حتى توفي سنة ١٣٩٣ بمنزله بعد سجن طويل، رحمه الله تعالى، وانظر «الأعلام»: ٢/ ٢٢٥.

(٢) سورة البقرة: آية ١٨٥.

مع أن الرسول ـ عليه السلام ـ لو لم يقررها لفنيت الأجيال، وانقطعت الأعمار، وانحسرت العقول دون تحصيل لمحة واحدة من حقائقهما؛ فكأن الناس استغنوا عن فضل الله وما يقبل به على عباده في مواسمه من منح ومغانم ونفحات فيها كل التوسعة على أرواحهم في عالمهم هذا الضيق المادي المخنوق.

إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة فلا تغلق الشهر كله، ومعنى ذلك أنها كانت مغلقة قبل حلوله.

وإذا جاء رمضان غلقت أبواب النار، فلا تفتح الشهر كله، ومعنى ذلك أنها كانت مفتحة الأبواب قبل حلوله.

فلو أنا لنا بصائر تدرك ما في ملكوت الله من كائنات لطيفة دقيقة خفية لأدركت طرفاً من سر الجحيم يسري في ضمير هذا الوجود من قِبَل تلكم الأبواب المفتحة في سائر شهور العام! ولو أنا لنا بصائر تدرك، لأدركت ما في سريرة الكون من لهفة، وما لأرواح المؤمنين في أبدانهم المادية من استشراف لغُرّة الهلال المبارك، تقبل عليهم بربح الرخاء والسعة، مؤذنة بعيد تصطفق له أجنحة الأرواح سروراً وبهجة، ولعلموا حقيقة معنى الأثر الكريم: «**لو تعلم أمتي ما في رمضان من الخير لتمنت أن يكون رمضان العام كله**».

ولكن مشاعر الناس علقت بظاهر الحياة الدنيا لا بضمير الوجود، ووعيهم وُصل بكيانهم المادي لا بمدركات كائناتهم الروحية الدقيقة؛ فهم يسمعون الكلام القدسي أو يقرأونه دون أن تختلج فيهم خالجة فَهْم أو تأثر بما يقرأون أو يسمعون.

إننا في رمضان بإزاء عيد عجب فذ بين أعياد الله، وإن في إغلاق أبواب النار وفتح أبواب الجنة لمعنى عظيماً من إقبال الله سبحانه إقبالاً لم يتشرف بمثله عيد سواه! وإن من هذا العجب الذي لا تقف نفحاته وأسراره عند حد أن ليلة واحدة من لياليه ترجح في ميزان الحق ليالي ألف شهر من الشهور الأخر، ترجحها لا لأن أديمها[1] رصع بماس ولؤلؤ، أو حُلِّي بذهب وفضة، ولكن بما يكون فيها مما يحير الألباب، ويدهش الأنظار؛ إذ تغدو أرضنا هذه وقد نصب فيها عيد قدسي من إقبال الله وتجليه، وما يغدق من رحماته ونفحاته، حتى إن الملائكة لتهوى نفوسها إلى غشيان هذا العيد والمشاركة في بهجته ونفحته، فتستأذن ربها والروح فيها بإذنه من كل أمر، سلام هي حتى مطلع الفجر.

لقد جاءت السنن الصحيحة بثواب من صام رمضان إيماناً واحتساباً.

وجاءت بثواب من قام رمضان إيماناً واحتساباً.

وجاءت بثواب من قام ليلة القدر، وثواب من بسط كفه سحّاء بالخير والصدقة للفقراء، ولكن لنا وراء ذلك كله مأرباً بل مآرب.

لنا وراء ذلك بصائر من النور نريد إدراكها بقلوبنا، ومدداً من عزائم الرشد نريد تحصيله لهممنا ونفوسنا، فنحن أمة تقوم في بيداء هذا العام تجاهد للتحرير، وتدعو أن تكون كلمة الله هي العليا؛ فما لم يهب لنا من لدنه سلطاناً نصيراً فمن لنا بالنصير؟ وما لم يجعل لنا من نوره نوراً فأنى نلتمس ذلك النور؟

إننا أمة غلبت علينا شهوتنا فعبدناها، وتفرقنا في محاريبها الخسيسة

---

(١) الأديم: الجلد، والمقصود السماء.

نعبد المال، والبنين والنساء والجاه والإثم والرياسة والمجد الداني الكاذب، فضعفت نفوسنا، ودب الوهن إلى همم الكبار منا والصغار، وصاروا مسوخاً رخوة تلعب بها الشهوة ويطير بها الهوى في كل واد، وها نحن أولاء بإزاء عيد روحي وفرصة لا يتيحها لنا الله إلا كل عام، فيها المدد لعزائمنا، وفيها النور لبصائرنا، وفيها القوة لنفوسنا، فهل نقبل عليها إقبالاً يكافىء ما أقبل به سبحانه فيها من فضل ونعمة وشفاء ورحمة؟

لقد أمر سبحانه بالجنة ففتحت، وبالنار فأغلقت، وبالشياطين فصفدت، فماذا بقي علينا لإدراك فضله سبحانه، والتخلص من سموم الإثم والهوى؟ هل بقي على كل منا إلا نفسه التي بين جنبيه يعالجها باليسير من الجهد، وما أهونها وأضعفها بعد أن زال عنها عون قرينها المصفد في الشياطين.

لأمر ما، وحكمة جليلة، فرض الله ـ عزَّ شأنه ـ علينا أن نصوم رمضان، فهل لنا أن نلتمس في جوانب تلك الحكمة أن ذلك الصيام أريد به فيما أراد الله ـ سبحانه ـ أن يكون هو المجهود الذي يقبل به المرء على نفسه فيؤدبها به ويصفدها عن شهواتها كما صُفدت الشياطين فإذا سرائر المؤمنين قد زال عنها كل ضباب، وصار لا يحجبها عن فضل الله ونوره حجاب؟

وهل لنا أن نستأنس لذلك بما علمنا إياه مولانا رسول الله ﷺ من أن الصيام الحق لا يكمل إلا بترك ما اعتادت النفس أن تلم به من هوى وإثم: «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**» و «**إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث، ولا يصخب، فإن سابَّه**

أحد أو قاتله فليقل إني صائم»، وما أعمق ما يقول الله في الحديث القدسي عن الطعام والشهوة: «**إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي**».

ونحب أن نقول: إن خصائصنا الروحية إنما تحيا وتنتعش في جو قدسي تراوحه وتغاديه أسرار النور والحياة، وليس الإنسان في الحقيقة سوى تلك الخصائص؛ فإذا انصرف إلى شهواته الدنيا، وأدار أعماله وأقواله على تلك المحاور، فقد أفنى نفسه وحَيَّ في غير حياة، وليس كالشهوات ما حقاً لصفاته معطلاً لخصائصه الأصيلة.

فصوم رمضان من هذا الوجه إن هو إلا منهاج يتدرب به المرء على تحرير نفسه والانسحاب بها من أسر المادة وظلمة الشهوة، ليحيا ما شاء الله في ملكوت الحياة الحق ويكون له ما شاء الله من خصائص الخير والفضيلة.

فالحرية الصحيحة لا يذوقها ولا يقدرها قدرها إلا من حيي هذه الحياة.

والنفس الكريمة القوية التي يؤمن عليها ألا تلين أمام مساومات المادة إنما تستمد عناصرها ومقوماتها من هذا الأفق العلوي الكريم، والروح الأبي الذي يرفض الضَيْم ويتأبى على الذل، ويجاهد الطاغوت، ويسعى في إقامة الأوضاع العادلة إنما ينشق عبير هذا كله من هذا العالم الملكوتي الطهور، وكفانا بذلك عزيمة على الرشد وتوفيقاً إلى الخير وهداية إلى الصواب[1].

---

(١) مجلة «المسلمون»: السنة الأولى، العدد السابع، ص ٦٢٩ ـ ٦٣١.

من عجائب رمضان

للأستاذ عبدالله القلقيلي

قال الأستاذ:

لا ريب أن لهذا الشهر عجائب تستدعي التأمل والنظر والتفكر لمعرفة أسرارها واكتناه[1] عللها وأسبابها وللانتفاع بها والاستفادة منها.

فمن ذاك ترى أن الصائم في غير الصيام لا يحتمل التأخر عن ميعاد أكله ساعة، وتراه إذا ما تأخر عن موعد طعامه يضيق صدره وتسوء أخلاقه ويتوجع ويتألم ويتأفف ويتضجر، وقل لي بربك: منَ مِن المدخنين يستطيع أن يصبر عن التدخين ساعة، وأنت تعرف كثيراً من المدخنين قد عرضوا أنفسهم على الأطباء لمرض ألمّ بهم فبين لهم الأطباء أمراضهم ووصفوا علاجهم، وذكروا فيما بينوا من علل أمراضهم أن للدخان دخلاً كبيراً في تلك الأمراض، ورسموا لهم الحِمْية واجتناب ما يضر بهم من المآكل والمشارب، وفي رأس ما يوصونهم أن يجتنبوه الدخان، ويقولون لهم مؤكدين: إنهم لن يشفوا من أمراضهم ولن ينجوا من العطب إلا بالإمساك عن الدخان ولو أسبوعاً واحداً، ولعل هؤلاء المرضى يحتملون أن يدعوا كل ما رسم لهم الأطباء في الحِمْية إلا الدخان، ونحن نعرف

---

(١) أي معرفة.

صديقاً من هؤلاء أكد له الأطباء أن حتفه وهلاكه في التدخين، وكان يدرك هذا وهو بالحس ولا يشك فيه ولكن على ذلك ما كان يترك الدخان إلا فترة تمنعه منه فيها زوجه التي كانت تقوم عليه.

ولكن الصائمين على اختلاف طبائعهم وأمزجتهم يصبرون عن الطعام والدخان ـ وغير ذلك مما لم يكونوا يستطيعون عليه صبراً إلا قليلاً ـ يصبرون كل يوم منذ طلوع الفجر حتى غروب الشمس مدة ثلاثين يوماً أو تسعاً وعشرين على الأقل، فما هو السر في ذلك؟ أما المؤمنون فيرون أن ذلك بفضل شهر رمضان وبركته وروحانيته وقدسيته، وأما غير المؤمنين فيعللون ذلك بعلل شتى على قدر عقولهم، ولكن يبقى للمتبصر أن يسألهم: لم لا تؤثر هذه العلل في المريض حين الضرورة وإذ يقول له الطبيب الذي يثق به أن حتفك في الدخان ولا تؤثر إلا في رمضان؟

هذا من جهة الأسرار والعلل والأسباب، أما من الجهة الأخرى وهي التفكر للانتفاع منه ـ وهذا هو قصدنا من هذه المقدمة ـ ذلك أن الصائم يستطيع أن ينتفع من صومه منفعة كبيرة باستمراره على ترك ما يضره بعد الصوم فإنه قد تدرب على تركه بالصيام في رمضان ويمكنه في أوائل الشهر أن يترك ما يضره كالدخان مثلاً إلى ما بعد غروب الشمس جرياً مع حكم الصوم، ثم يتركه ليلاً ساعات بعد الإفطار عدة ليال، ثم يتركه ألبتة سائر ليالي رمضان وبذلك يتم له الشفاء بصوم رمضان من كل داء، لكن لا يتم ذلك إلا لمن تأمل وتفكر وألقى السمع وهو شهيد.

من حكم رمضان التدرب على النظام:

إنه مما لا ريب فيه أن هذا الصيام الذي فرضه الله في شهر رمضان جَمُّ الحكم والمنافع، كثير العوائد والمصالح، وإن من جليل فوائده،

وعظيم حكمه ومصالحه تدريبَ الصائم على النظام وأن يفعل الشيء في وقت معين وميعاد لا يتغير، وذلك كمثل الأكل في وقت معين، إذ كان الدين قد عين للصائم الإفطار بعد غروب الشمس فترى الصائم يفطر في هذا الوقت، وإنه ليكون كل يوم متهيئاً لذلك حتى إذا سمع الأذان أو المدفع لم يتوان في تناول الطعام ولم يتأخر عن هذا الميعاد، وفي هذه المحافظة على الصحة والسلامة من الأدواء التي تنشأ عن اختلاف أوقات الطعام والوقاية من الأمراض، ويتدرب الصائم بالإفطار كل يوم معين على الأكل في وقت معين كما يتدرب بالسحور على ذلك.

ومما في صيام هذا الشهر من المصالح والمنافع أنه يُرَغِّب من يصومه في تناول الطعام دائماً مع أهل بيته؛ فقد يكون قبل ذلك قلما يجتمع هو وأهل بيته في وقت واحد على غداء أو عشاء؛ إذ كان عمله لا يسمح له بذلك، فإذا ما اضطر بحكم الصيام إلى الاجتماع هو وأهله وولده حول مائدة في وقت واحد، ورأى أن ذلك ممكن إذا شاء ورأى ما في ذلك من اللذة والفائدة أخذ نفسه بذلك وقرره وجرى عليه فكان نظاماً لا يحيد عنه ولا يستهين به.

وكم في هذا من الفوائد فإنه مدعاة إلى ازدياد التآلف بين الرجل وأهل بيته وبين كل واحد من أهل بيته والآخر، كما أن فيه مزيدَ علم كل واحد من أهل البيت بأحوال الآخر بما يذكره ويقصه في هذا الاجتماع من أحواله وما وصل إليه في عمله وأدركه من سعيه.

وإن في ذلك الاجتماع لفرصة أي فرصة لتأديب الرجل أولادَه وتهذيبهم وإرشادهم إلى أدب المائدة ونظام الاجتماع على الطعام، وكيف يكون الأكل والشرب.

وإنك لترى كثيراً من الناس لا يعرفون أدب المائدة ولا سنن الأكل والشرب ولا كيف يتناولون الطعام، حتى ليكون أحدهم موضع الغمز واللمز والسخرية والهزء لما يلحظه مؤاكلوه من خروجه على أدب المائدة ومخالفته لسنن الأكل وقواعده؛ وذلك لأن أحداً لم يعلمه ذلك وهو صغير، وإن موضع التعليم هو المائدة حيث يجتمع أهل البيت على الطعام ويرمق الوالد ولده وينظر إليه وهو يأكل فيعلمه ويؤدبه ويُقَوِّم اعوجاجه ويرشده.

ولعل كثيراً من الجفاء والوحشة بين الرجل وأهل بيته يزول بالاجتماع على المائدة، فإن الطعام هو أحد أركان الحياة الزوجية، فإذا جلس الرجل مع أهل بيته على المائدة وشاركهم في هذا الاجتماع الهام الذي يصيبون فيه ما يقيم أَوَدهم ويحفظ حياتهم مع ما يجدون في ذلك من اللذة والمتعة تأكدت الأواصر بينهم وتوثقت العُرى، وإنك لتجد مثل هذا الأثر للاجتماع على الطعام بين الأجانب فكيف بين الأهل والأقارب.

فهذا الاجتماع على المائدة الذي بيّنا ما له من نفع وفائدة ترى رمضان كفيلاً أن يأخذ به كل أهل بيت وما كانوا قبل ذلك يعرفونه.

ثم إن رمضان من البواعث على تقسيم الأوقات وترتيب الأعمال عليها؛ فترى الصائم بما يعتريه بفضل الصيام من إقبال على الطاعة يخصص من وقته حصة لإتيان المسجد لصلاة الجماعة، وحصة أخرى لقراءة القرآن، وأخرى لحضور درس الوعظ وهكذا من تقسيط الأعمال على الأوقات وملء كل ساعة بعمل.

ثم إنه يجد في محافظته على صلوات الجماعات والذهاب إليها في

أوقاتها دروساً كثيرة في النظام من مثل تخصيص كل صلاة بوقت متابعته الإمام ووقوفه في الصف وقْفةَ الجندي، وإنه بمداومته على ذلك طوال شهر رمضان لينطبع على ذلك ويصبح ذلك طباعاً له وملكة راسخة فيه، فما أعظم هذا فائدة وما أجمله من رمضان عائدة كيف وبالنظام قامت السموات والأرض، أليس الله بأحكم الحاكمين[١].

(١) مجلة «هدى الإسلام»: ص٥٧٣٩ ـ ٥٧٤٢.

من حكم الصوم
للشيخ عبدالرحمن محمد الدوسري[١]

قال الشيخ:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[٢].

فأول آية في حكم الصيام تقرر فيها الحكمة الجامعة لخيري الدنيا والآخرة على اختلاف أنواعها وهي «التقوى» لأنها هي التي تنشأ من الإيمان بالغيب الذي يستيقظ به الضمير، وهي التي تحرس القلوب من إفساد الصوم بالمعصية وتشحذ الذهن وتدفعه إلى التفكير في الحكم

(١) عبد الرحمن بن محمد الدوسري، العالم الداعية، ولد في البحرين سنة ١٣٣٢، وسافر مع والده إلى الكويت وهو صغير، فأدخله المدرسة المباركية فيها، وتعرف على عدد من العلماء، وكان شديد الذكاء، وبعد تخرجه في المدرسة المباركية لزم العلماء وطلبة العلم وشارك في دعم الهيئات والجهات الإسلامية في الداخل والخارج، واستمر على نهجه هذا بعد انتقاله للرياض، وكانت له اليد الطولى في معرفة المذاهب الهدامة وأسماء جمعيات التضليل في العالم، وله نشاط كبير في الوعظ والإرشاد في الأندية والمدارس والكليات والمعاهد والجامعات والمساجد والحدائق والمنتزهات والإذاعة والصحافة، توفي في لندن سنة ١٣٩٩ بعد محاضرة ألقاها في إحدى حدائقها العامة وكانت في التحذير من المضلين، له عديد من المصنفات رحمه الله تعالى. انظر «تتمة الأعلام»: ١/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

(٢) سورة البقرة: آية ١٨٣.

البالغة من تشريعات العليم الخبير جل وعلا فيلتزمها المسلم ويرعاها حق رعايتها ليطبقها على تمامها وعلى وجهها الصحيح.

وسر ختام آية الصيام بالتقوى أن إعداد نفوس الصائمين لتقوى الله يظهر من وجوه كثيرة أعظمها شأناً وأظهرها أثراً وأعلاها شرفاً أن الصيام أمره موكول إلى نفس الصائم وضميره ولا رقيب عليه فيه إلا الله؛ لأنه يستطيع أن يفطر سراً مختفياً عن أقرب قريب ولكنه لتقوى الله يلتزم الأمانة في حفظ الصيام مهما سنح له ما يشتهي أو يغري، فمواصلة ذلك شهراً كاملاً عن تقوى ومراقبة وحياء من الله يصاحبه في هذه المدة يحصل بها نزاهة للضمير وضبط للنفس وإعداد لما يؤهلها للخير وتحمل للأذى في سبيل الله، ويقوي عزيمتها في كل إقدام وإحجام، ويتقوى أيضاً بصومه الصحيح على كبح جماح شهوته ونزوات نفسه؛ فالصيام من أعظم العون على محاربة الهوى وقمع الشهوات وتزكية النفس بالوقوف عند حدود الله، فيحبس لسان صاحبه عن اللغو والسباب والانطلاق في أعراض الناس والسعي بينهم بالغيبة والنميمة والمفسدة، كما يردعه عن الغش والخداع والتطفيف والمكر وارتكاب الفواحش وأخذ الربا وأكل أموال الناس بالباطل بأي نوع من الاحتيال، بل يجعل المسلم يسارع في الخيرات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة على وجهها الصحيح وجهاتها المشروعة، ويجتهد في بذل الصدقات وفعل المشاريع النافعة، ويحرص على تحصيل لقمة العيش من الوجه الحلال، ويكون محاذراً من اقتراف الإثم والمعاصي فضلاً عن الاسترسال بها وإذا نسي أو غلبته نفسه وشيطانه على فعل معصية ذكر الله سريعاً فأناب إليه وتاب مما أصاب بما غرس فيه صوم هذا الشهر الكامل من مراقبة الله وخشيته كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾(١)، ولذا وجب على الصائم ان يتحفظ أكثر ما ينبغي له أن يتحفظ؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه**».

فالصيام يا عباد الله تهذيب لا تعذيب، فإذا لم يؤتِ ثمراته فليس النقص منه إنما النقص هو من سوء تصرف الصائم وعدم صحة قلبه وعدم حسن تفكيره، ومن هنا وجب أن يكون الصوم عن إيمان واحتساب وضبط وتعظيم لشعائر الله لا عن تقليد ومسايرة كصوم من يصوم بتوجع وتحسر ويقتل أوقاته بالنوم والبطالة ويتمنى سرعة انقضاء رمضان كأنه ليس محسوباً من عمره ولا فيه زيادة لأجره والعياذ بالله.

الغاية الكبرى من الصوم هي التقوى بجميع معانيها ومبانيها؛ إذ هي في اللغة مشتقة من «التوقي» ففي الصوم يتوقى المؤمن من المعاصي والآثام فيأخذ لنفسه وقاية من عذاب الله، وفي الصوم يعظم إحساسه وتقوى عزيمته على حمل رسالته والقيام بواجب وظيفته لله في أخذ القرآن بقوة والدفع به إلى الأمام ليصلح بوحي الله ما أفسده المبطلون في مشارق الأرض ومغاربها، وينقذ الناس من الظلم والاستعباد والتهتك والانحلال، ويستعد لأجل أخذ القوة وتسخير كل دابة ومادة مما على وجه الأرض أو في جوفها أو أجوائها ليتقي بذلك من شر ما يقف في وجهه ويحول دونه ودون حمل رسالته فيكون أخذاً بأسباب الوقاية التي تقيه من غضب الله وعذابه وتسليط أعدائه بسبب إجرامه أو تفريطه بواجبه

---

(١) سورة الأعراف: آية ٢٠١.

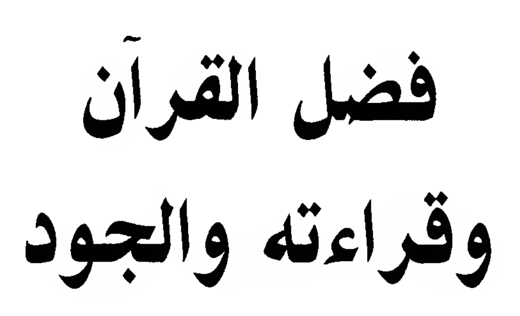
أمام الله مندفعاً بما يُكسبه الصيام إياه من قوة الإرادة وطهارة الروح؛ فإن من حكم الصيام وفوائده العظيمة تقوية الإرادة في النفوس تلك الركيزة العظيمة التي عمل رجال الاجتماع وأصحاب التنظيم العسكري على تقويتها في المجتمع هذا الزمان، وقد سبقهم الدين الإسلامي على ذلك منذ أربعة عشر قرناً تقريباً، وما أحوج المسلم إلى أن يكون قوي الإرادة صادق العزيمة، ولذا أمره الله أن يتحمل المشاق في الحج والصبر على فراق الأهل والأحباب، والسير إلى بلد لا يبلغه أحد إلا بشق الأنفس.

ومكابدة ألم الجوع والعطش في الصيام وقوة الصبر عن مألوفاته التي اعتادها ليكون قوي الإرادة في تحقيق وظيفته التي أسلفنا ذكرها إجمالاً[1]، فجدير بالصائم أن لا يفعل بعد إفطاره ما يخل بهذه القوة أو يوهنها أو يقلل من شأنها فيهدم في ليله ما بناه في نهاره من قوة الإرادة التي صبر بسببها عن محبوباته ومألوفاته، وما أحزمه لو استغل شهر رمضان كمدرسة يتدرب بها على هجر ما يكرهه هو أو ما يكرهه الشارع من مألوفاته التي اعتاد أكلها أو شربها ومقاربتها من دخان وغيره، تالله ما أحزمه لو واصل هذه الحمية عن ذلك بالليل كما واصلها بالنهار، وإن هو عكس الأمر وأخذ يتأفف على ما حرمه منه الصيام ويتلهف لساعة الإفطار للإسراع إلى تناول مألوفاته بنهمة فقد ضيع الحزم والعزم وبرهن على خَوَره وضعف نفسه وانعدام يقينه وقلة صبره وسرعة انحلال معنويته، وأنه لا يزال فاقد الإرادة مغلوباً على أمره، لم يستفد من صيامه ولم ينجح من مدرسة مولاه التدريبية بشيء فليتدبر المسلم ذلك[2].

---

(١) في السياق نوع اضطراب وإن كان المعنى مفهوماً، ولعل سقطاً حدث هنا.

(٢) مجلة «التربية الإسلامية»: العدد الثاني، السنة ٨، رمضان سنة ١٣٨٥، ص ٩٢ ـ ٩٤.


فضل القرآن
وقراءته والجود



فضل الجود في رمضان وتلاوة القرآن

للإمام ابن رجب الحنبليّ

قال الإمام:

في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**كان النبـي ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن، وكان جبريل يلقاه كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فَلَرَسُول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة**» وخرجه الإمام أحمد بزيادة في آخره وهي «**لا يسأل عن شيء إلا أعطاه**».

الجود: هو سعة العطاء وكثرته، الله تعالى يوصف بالجود، وفي الترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ: «**إن الله جواد يحب الجود، كريم يحب الكرم**» وفيه ـ أيضاً ـ من حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ عن ربه قال: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا في صعيد واحد فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته فأعطيت كل سائل منكم ما نقص ذلك من ملكي إلا كما لو أن أحدكم مر بالبحر فغمس فيه إبرة ثم رفعها إليه، ذلك بأني جواد واجد ماجد أفعل ما أريد، عطائي كلام وعذابي كلام إنما أمري لشيء إذا أردت أن أقول له كن فيكون**».

وفي الأثر المشهور عن فضيل بن عياض: «أن الله تعالى يقول كل ليلة أنا الجواد ومني الجود أنا الكريم ومني الكرم».

فالله سبحانه وتعالى أجود الأجودين، وجوده يتضاعف في أوقات خاصة كشهر رمضان وفيه أنزل قوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[١].

وفي الحديث الذي خرجه الترمذي وغيره أنه ينادي فيه مناد يقول يا باغي الخير هلم ويا باغي الشر أقصر.

ولله عتقاء من النار وذلك كل ليلة، ولما كان الله عز وجل قد جبل نبيه ﷺ على أكمل الأخلاق وأشرفها ـ كما في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» وذكره مالك في الموطأ بلاغاً ـ فكان رسول الله ﷺ أجود الناس كلهم... كما أنه أفضلهم وأعلمهم وأشجعهم وأكملهم في جميع الأوصاف الحميدة، وكان جوده بجميع أنواع الجود من بذل العلم والمال وبذل نفسه لله تعالى في إظهار دينه وهداية عباده وإيصال النفع إليهم بكل طريق من إطعام جائعهم ووعظ جاهلهم وقضاء حوائجهم وتحمل أثقالهم، ولم يزل ﷺ على هذه الخصال الحميدة منذ نشأته، ولهذا قالت له خديجة في أول مبعثه: «والله لا يخزيك الله أبداً: إنك لتصل الرحم، وتُقْري الضيف، وتحمل الكَلَّ[٢]، وتُكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق» ثم تزايدت هذه الخصال فيه بعد البعثة وتضاعفت أضعافاً كثيرة.

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٦.
(٢) أي الضعيف.

وفي الصحيحين عن أنس قال: «**كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناس وأشجعَ الناس وأجود الناس**».

وفي صحيح مسلم عنه قال: «**ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه فجاء رجل فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاءَ مَن لا يخشى الفاقة**» وفي رواية: «**أن رجلاً سأل النبي ﷺ غنماً بين جبلين فأعطاه إياه فأتى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء ما يخاف الفقر**».

قال أنس: «إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يمسي حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها».

وفيه ـ أيضاً ـ عن صفوان بن أمية قال: لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لمن أبغض الناس إلي فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي. قال ابن شهاب: أعطاه يوم حنين مائة من الغنم ثم مائة.

وفي مغازي الواقديّ أن النبي ﷺ أعطى صفوان يومئذ وادياً مملوءاً إبلاً ونَعماً، فقال صفوان: أشهد ما طابت بهذا إلا نفس نبي.

وفي الصحيحين عن جبير بن مطعم أن الأعراب علقوا بالنبيّ ﷺ مرجعه من حنين يسألونه أن يقسم بينهم فقال: «**لو كان لي عدد هذه العَضاة[1] نَعَماً لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً**».

وفيهما[2] عن جابر قال: **ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً فقال لا، وإنه**

---

(١) نوع من الشجر.

(٢) أي في الصحيحين.

قال لجابر: لو جاء مال البحرين لقد أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا وقال بيديه جميعاً.

وخرج البخاريّ من حديث سهل بن سعد أن شَمْلةً[١] أهديت للنبي ﷺ فلبسها وهو محتاج إليها فسأله إياها رجل فأعطاه فلامه الناس وقالوا: كان محتاجاً إليها وقد علمت أنه لا يرد سائلاً فقال: إنما سألتها لتكون كفني، فكانت كفنه.

وكان جوده ﷺ كله لله وفي ابتغاء مرضاته فإنه كان يبذل المال إما لفقير أو محتاج أو ينفقه في سبيل الله أو يتألف به على الإسلام من يقوى الإسلام بإسلامه، وكان يؤثر على نفسه وأهله وأولاده فيعطي عطاء يعجز عنه الملوك مثل كسرى وقيصر ويعيش في نفسه عيش الفقراء فيأتي عليه الشهر والشهران لا يوقَد في بيته نار، وربما ربط على بطنه الحجر من الجوع، وكان قد أتاه سبي مرة فشكت إليه فاطمة ما تلقى من خدمة البيت وطلبت منه خادماً يكفيها مؤنة بيتها فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد عند نومها وقال: «**لا أعطيك وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع**».

وكان جوده ﷺ يتضاعف في شهر رمضان على غيره من الشهور كما أن جود ربه يتضاعف فيه أيضاً فإن الله جبله على ما يحبه من الأخلاق الكريمة، وكان على ذلك من قبل البعثة وذكر ابن إسحاق عن وهب بن كيسان عن عبيد بن عمير قال: كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهراً يطعم من جاءه من المساكين حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله

(١) نوعاً من الثياب من صوف أو شعر يؤتزر به: انظر «لسان العرب»: ش م ل.

به ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه فيها وذلك الشهر شهر رمضان خرج إلى حراء كما كان يخرج لجواره معه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله تعالى برسالته ورحم العباد بها جاءه جبريل من الله عز وجل ثم كان بعد الرسالة جوده في رمضان أضعاف ما كان قبل ذلك، فإنه كان يلتقي هو وجبريل عليه السلام وهو أفضل الملائكة وأكرمهم ويدارسه الكتاب الذي جاء به إليه وهو أشرف الكتب وأفضلها، وهو يحث على الإحسان ومكارم الأخلاق، وقد كان رسول الله ﷺ هذا الكتاب له خُلُقاً بحيث يرضى لرضاه ويسخط لسخطه، ويسارع إلى ما حث عليه ويمتنع مما زجر عنه، فلهذا كان يتضاعف جوده وإفضاله في هذا الشهر لقرب عهده بمخالطة جبريل عليه السلام وكثرة مدارسته له هذا الكتاب الكريم الذي يحث على المكارم والجود، ولا شك أن المخالطة تؤثر وتورث أخلاقاً من المخالطة، كان بعض الشعراء قد امتدح ملكاً جواداً فأعطاه جائزة سنية فخرج بها من عنده وفرقها كلها على الناس فأنشد:

لمست بكفي كفه أبتغي الغنا ... ولم أدر أن الجود من كفه يُعدي

فبلغ ذلك الملك فأضعف له الجائزة.

وقد قال بعض الشعراء يمتدح بعض الأجواد، ولا يصلح ذلك إلا لرسول الله ﷺ:

تعود بسط الكف حتى لو أنّه ... ثناها لقبض لم تجبه أنامله
تراه إذا ما جئته متهللا ... كأنك تعطيه الذي أنت سائله
هو البحر من أي النواحي أتيته ... فلُجّته المعروف والجود ساحله
ولو لم يكن في كفه غير روحه ... لجاد بها فليتق الله سائله

سمع الشبلي قائلاً يقول: يا الله يا جواد، فتأوه وصاح وقال: كيف

يمكنني أن أصف الحق بالجود ومخلوق يقول في شكله: فذكر هذه الأبيات ثم بكى، وقال: بلى يا جواد فإنك أوجدت تلك الجوارح وبسطت تلك الهمم فأنت الجواد كل الجواد، فإنهم يعطون عن محدود وعطاؤك لا حد له ولا صفة، فيا جواد يعلو كل جواد وبه جاد كل من جاد.

وفي تضاعف جوده ﷺ في شهر رمضان بخصوصه فوائد كثيرة منها شرف الزمان ومضاعفة أجر العمل فيه، وفي الترمذي عن أنس مرفوعاً: «**أفضل الصدقة صدقة في رمضان**».

ومنها إعانة الصائمين والقائمين والذاكرين على طاعاتهم فيستوجب المعين لهم مثل أجرهم كما أن من جهز غازياً فقد غزا، ومن خلفه في أهله فقد غزا، وفي حديث زيد بن خالد عن النبي ﷺ قال: «**من فطر صائماً فله مثل أجره من غير أن ينقص من أجر الصائم شيء**» خرجه الإمام أحمد والنسائي والترمذي وابن ماجه.

ومنها أن شهر رمضان يجود الله فيه على عباده بالرحمة والمغفرة والعتق من النار لا سيما في ليلة القدر والله تعالى يرحم من عباده الرحماء كما قال ﷺ: «**إنما يرحم الله من عباده الرحماء**» فمن جاد على عباد الله جاد الله عليه بالعطاء والفضل، والجزاء من جنس العمل.

ومنها أن الجمع بين الصيام والصدقة من موجبات الجنة كما في حديث علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن في الجنة غرفاً يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها، قالوا: لمن هي يا رسول الله؟ قال: لمن طيب الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام**» وهذه الخصال كلها تكون في رمضان فيجتمع فيه للمؤمن الصيام والقيام والصدقة وطيب الكلام فإنه ينهى فيه الصائم عن اللغو والرفث،

والصيام والصلاة والصدقة توصل صاحبها بوصله إلى الله عز وجل قال بعض السلف: الصلاة توصل صاحبها إلى نصف الطريق والصيام يوصله إلى باب الملك والصدقة تأخذ بيده فتدخله على الملك.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**من أصبح منكم اليوم صائماً؟ قال أبو بكر: أنا، قال: من تبع منكم اليوم جنازة؟ قال أبو بكر: أنا، قال: من تصدق بصدقة؟ قال أبو بكر: أنا، قال: فمن عاد منكم مريضاً؟ قال أبو بكر: أنا، قال: ما اجتمعن في امرىء إلا دخل الجنة**».

ومنها أن الجمع بين الصيام والصدقة أبلغ في تكفير الخطايا واتقاء جهنم والمباعدة عنها وخصوصاً إن ضم إلى ذلك قيام الليل فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الصيام جنة**» وفي رواية «**جنة أحدكم من النار كجنته من القتال**» وفي حديث معاذ عن النبي ﷺ قال: «**الصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار، وقيام الرجل من جوف الليل**» يعني أنه يطفىء الخطيئة أيضاً وقد صرح بذلك في رواية الإمام أحمد، وفي الحديث الصحيح عنه أنه ﷺ قال: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**» كان أبو الدرداء يقول صلوا في ظلمة الليل ركعتين لظلمة القبور، صوموا يوم شديداً حره لحر يوم النشور، تصدقوا بصدقة لشر يوم عسير.

ومنها أن الصيام لا بد أن يقع فيه خلل أو نقص وتكفير الصيام للذنوب مشروط بالتحفظ مما ينبغي التحفظ منه؛ كما ورد ذلك في حديث خرجه ابن حبان في صحيحه، وعامة صيام الناس لا يجتمع في صومه التحفظ كما ينبغي ولهذا نُهي أن يقول الرجل: صمت رمضان كله أو قمته كله، فالصدقة تجبر ما فيه من النقص والخلل، ولهذا وجب في

آخر شهر رمضان زكاة الفطر طهرةً للصائم من اللغو والرفث، والصيام والصدقة لهما مدخل في كفارات الأيمان ومحظورات الإحرام وكفارة الوطء في رمضان، ولهذا كان الله تعالى قد خير المسلمين في ابتداء الأمر بين الصيام وإطعام المسكين ثم نسخ ذلك وبقي الإطعام لمن يعجز عن الصيام لكبره، ومن أخر قضاء رمضان حتى أدركه رمضان آخر فإنه يقضيه ويضم إليه إطعام مسكين لكل يوم تقوية له عند أكثر العلماء كما أفتى به الصحابة، وكذلك مَن أفطر لأجل غيره كالحامل والمرضع على قول طائفة من العلماء.

ومنها أن الصائم يدع طعامه وشرابه لله فإذا أعان الصائمين على التقوى على طعامهم وشرابهم كان بمنزلة مَن ترك شهوة لله وآثر بها أو واسى منها، ولهذا يشرع له تفطير الصوام معه إذا أفطر لأن الطعام يكون محبوباً له حينئذ فيواسي منه حتى يكون ممن أطعم الطعام على حبه، ويكون في ذلك شكر لله على نعمة إباحة الطعام والشراب له ورده عليه بعد منعه إياه، فإن هذه النعمة إنما عُرف قدرها عند المنع منها، وسئل بعض السلف لم شرع الصيام؟ قال: «ليذوق الغني طعم الجوع فلا ينسى الجائع» وهذا من بعض حكم الصوم وفوائده.

وقد ذكرنا فيما تقدم حديث سلمان وفيه «**وهو شهر المواساة**» فمن لم يقدر فيه على درجة الإيثار على نفسه فلا يعجز عن درجة أهل المواساة، كان كثير من السلف يواسون من إفطارهم أو يؤثرون به ويطوون كان ابن عمر يصوم ولا يفطر إلا مع المساكين فإذا منعه أهله عنهم لم يتعش تلك الليلة، وكان إذا جاءه سائل وهو على طعامه أخذ نصيبه من الطعام وقام فأعطاه السائل فيرجع وقد أكل أهله ما بقي في

الجَفْنة فيصبح صائماً ولم يأكل شيئاً، واشتهى بعض الصالحين من السلف طعاماً وكان صائماً فوضع بين يديه عند فطوره فسمع سائلاً يقول: من يقرض المليّ الوفيّ الغنيّ، فقال: عبده المعدم من الحسنات، فقام فأخذ الصحفة فخرج بها إليه وبات طاوياً، وجاء سائل إلى الإمام أحمد فدفع إليه رغيفين كان يعدهما لفطره ثم طوي وأصبح صائماً، وكان الحسن يطعم إخوانه وهو صائم تطوعاً ويجلس يروحهم وهم يأكلون، وكان ابن المبارك يطعم إخوانه في السفر الألوان من الحلواء وغيرها وهو صائم، سلام الله على تلك الأرواح، رحمة الله على تلك الأشباح، لم يبق منهم إلا أخبار وآثار، كم بين من يمنع الحق الواجب عليه وبين أهل الإيثار:

لا تعرضن لذكرنا في ذكرهم ‏ ‏ ‏ ‏ ليس الصحيح إذا مشى كالمقعد

وله فوائد أخر: قال الشافعي رضي الله عنه: أحب للرجل الزيادة بالجود في شهر رمضان اقتداء برسول الله ﷺ ولحاجة الناس فيه إلى مصالحهم، ولتشاغل كثير منهم بالصوم والصلاة عن مكاسبهم، وكذا قال القاضي أبو يعلى وغيره من أصحابنا[١] أيضاً.

ودل الحديث ـ أيضاً ـ على استحباب دراسة القرآن في رمضان والاجتماع على ذلك وعرض القرآن على من هو أحفظ له، وفيه دليل على استحباب الإكثار من تلاوة القرآن في شهر رمضان، وفي حديث فاطمة عليها السلام عن أبيها ﷺ أنه أخبرها «**أن جبريل عليه السلام كان يعارضه القرآن كل عام مرة وأنه عارضه في عام وفاته مرتين**» وعن ابن

---

(١) أي الحنابلة.

عباس أن المدارسة بينه وبين جبريل كانت ليلاً يدل على استحباب الإكثار من التلاوة في رمضان ليلاً فإن الليل تنقطع فيه الشواغل ويجتمع فيه الهم ويتواطأ فيه القلب واللسان على التدبر كما قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾(١).

وشهر رمضان له خصوصية بالقرآن كما تعالى ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾(٢) وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما أنه أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في ليلة القدر ويشهد لذلك قوله تعالى ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾(٣) وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾(٤) وقد سبق عن عبيد بن عمير أن النبي ﷺ بُدىء بالوحي ونزول القرآن عليه في شهر رمضان.

وفي المسند عن واثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ أنه قال: «**نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان**».

وقد كان النبي ﷺ يطيل القراءة في قيام رمضان بالليل أكثر من غيره، وقد صلى معه حذيفة ليلة في رمضان، قال: فقرأ بالبقرة ثم النساء ثم آل عمران لا يمر بآية تخويف إلا وقف وسأل، فما صلى

---

(١) سورة المزمل: آية ٦.
(٢) سورة البقرة: آية ٨٥.
(٣) سورة القدر: آية ١.
(٤) سورة الدخان: آية ٣.

الركعتين حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة. خرجه الإمام أحمد، وخرجه النسائي وعنده أنه ما صلى إلا أربع ركعات.

وكان عمر قد أمر أبيّ بن كعب وتميماً الداري أن يقوما بالناس في شهر رمضان، فكان القارىء يقرأ بالمائتين في ركعة حتى كانوا يعتمدون على العصي من طول القيام وما كانوا ينصرفون إلا عند الفجر، وفي رواية أنهم كانوا يربطون الحبال بين السواري ثم يتعلقون بها.

وروي أن عمر جمع ثلاثة قرّاء فأمر أسرعهم قراءة أن يقرأ بالناس ثلاثين وأوسطهم بخمس وعشرين وأبطأهم بعشرين، ثم كان في زمن التابعين يقرؤون بالبقرة في قيام رمضان في ثمان ركعات، فإن قرأ بها في اثنتي عشرة ركعة رأوا أنه قد خفف.

قال ابن منصور: سئل إسحاق بن راهويه: كم يُقرأ في قيام شهر رمضان؟ فلم يرخص في دون عشر آيات، فقيل له: إنهم لا يرضون فقال: لا رضوا، فلا تؤمنهم إذا لم يرضوا بعشر آيات من البقرة، ثم إذا صرت إلى الآيات الخفاف فبقدر عشر آيات من البقرة يعني في كل ركعة، وكذلك كره مالك أن يُقرأ دون عشر آيات، وسئل الإمام أحمد عما روي عن عمر كما تقدم ذكره في السريع القراءة والبطيء فقال: في هذا مشقة على الناس ولا سيما في هذه الليالي القصار وإنما الأمر على ما يحتمله الناس وقال أحمد لبعض أصحابه وكان يصلي بهم في رمضان: هؤلاء قوم ضعفى اقرأ خمساً ستاً سبعاً. قال: فقرأت فختمت ليلة سبع وعشرين.

وقد روى الحسن أن الذي أمره عمر أن يصلي بالناس كان يقرأ خمس آيات ست آيات، وكلام الإمام أحمد يدل على أنه يراعي في

القراءة حال المأمومين فلا يشق عليهم، وقاله ـ أيضاً ـ غيره من الفقهاء من أصحاب أبي حنيفة وغيرهم.

وقد رُوي عن أبي ذر أن النبي ﷺ قام بهم ليلة ثلاث وعشرين إلى ثلث الليل، وليلة خمس وعشرين إلى نصف الليل. فقالوا له: لو نَفَّلْتَنا بقية ليلتنا فقال: «**إن الرجل إذا صلى مع الإمام حتى ينصرف كُتب له بقية ليلته**» خرجه أهل السنن وحسنه الترمذي، وهذا يدل على أن قيام ثلث الليل ونصفه يكتب به قيام ليلة لكن مع الإمام، وكان الإمام أحمد يأخذ بهذا الحديث ويصلي مع الإمام حتى ينصرف، ولا ينصرف حتى ينصرف الإمام.

وقال بعض السلف: من قام نصف الليل فقد قام الليل.

ومن أراد أن يزيد في القراءة ويطيل ـ وكان يصلي لنفسه ـ فليطول ما شاء كما قاله النبيّ ﷺ وكذلك من صلى بجماعة يرضون بصلاته، وكان بعض السلف يختم في قيام رمضان في كل ثلاث ليال، وبعضهم في كل سبع منهم قتادة، وبعضهم في كل عشرة منهم أبو رجاء العطارديّ، وكان السلف يتلون القرآن في شهر رمضان في الصلاة وغيرها: كان الأسود يقرأ القرآن في كل ليلتين في رمضان، وكان النَخَعيّ يفعل ذلك في العشر الأواخر منه خاصة وفي بقية الشهر في ثلاث، وكان قتادة يختم في كل سَبْع دائماً، وفي رمضان في كل ثلاث، وفي العشر الأواخر كل ليلة، وكان للشافعيّ في رمضان ستون ختمة يقرأها في غير الصلاة، وعن أبي حنيفة نحوه، وكان قتادة يدرس القرآن في شهر رمضان.

وكان الزهريّ إذا دخل رمضان قال: فإنما هو تلاوة القرآن وإطعام الطعام. قال ابن عبدالحكم: كان مالك إذا دخل رمضان يفر من قراءة

الحديث ومجالسة أهل العلم وأقبل على تلاوة القرآن من المصحف.

قال عبد الرزاق: كان سفيان الثوريّ إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة وأقبل على قراءة القرآن.

وكانت عائشة رضي الله عنها تقرأ في المصحف أول النهار في شهر رمضان فإذا طلعت الشمس نامت.

وقال سفيان: كان زُبَيْد الياميُّ إذا حضر رمضان أحضر المصاحف وجمع إليه أصحابه.

وإنما ورد النهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث على المداومة على ذلك فأما في الأوقات المفضلة كشهر رمضان ـ خصوصاً الليالي التي يطلب فيها ليلة القدر ـ أو في الأماكن المفضلة كمكة لمن دخلها من غير أهلها فيستحب الإكثار فيها من تلاوة القرآن اغتناماً للزمان والمكان، وهو قول أحمد وإسحاق وغيرهما من الأئمة وعليه يدل عمل غيرهم كما سبق ذكره[١].

واعلم أن المؤمن يجتمع له في شهر رمضان جهادان لنفسه: جهاد بالنهار على الصيام، وجهاد بالليل على القيام، فمن جمع بين هذين الجهادين ووفي بحقوقهما وصبر عليهما وفي أجره بغير حساب، قال كعب: ينادي يوم القيامة مناديان: كل حارث يُعطى بحرثه ويزاد غير أهل القرآن والصيام يعطون أجورهم بغير حساب.

ويشفعان له ـ أيضاً ـ عند الله عز وجل كما في المسند عن عبدالله

---

(١) هذا ضابط رائع جميل، وفيه رد على الذين ينكرون على بعض السلف والخلف قراءة القرآن في رمضان في أقلّ من ثلاث.

ابن عمرو عن النبي ﷺ قال: «**الصيام والقيام يشفعان للعبد يوم القيامة يقول الصيام: أي رب منعته الطعام والشراب بالنهار، ويقول القرآن منعته النوم بالليل فشفعني فيه فيشفعان**» فالصيام يشفع لمن منعه الطعام والشهوات المحرمة كلها سواء كان تحريمها يختص بالصيام كشهوة الطعام والشراب والنكاح ومقدماتها أو لا يختص كشهوة فضول الكلام المحرم والنظر المحرم والسماع المحرم والكسب المحرم، فإذا منعه الصيام من هذه المحرمات كلها فإنه يشفع له عند الله يوم القيامة ويقول: يا رب منعته شهواته فشفعني فيه، فهذا لمن حفظ صيامه ومنعه من شهواته، فأما من ضيع صيامه ولم يمنعه مما حرمه الله عليه فإنه جدير أن يضرب به وجه صاحبه ويقول له: ضيعك الله كما ضيعتني ـ كما ورد مثل ذلك في الصلاة ـ قال بعض السلف: إذا احتضر المؤمن يقال للملك: شم رأسه قال: أجد في رأسه القرآن، فيقال: شم قلبه فيقول: أجد في قلبه الصيام، فقال: شم قدميه فيقول أجد في قدميه القيام، فيقال: حفظ نفسه فحفظه الله عز وجل.

وكذلك القرآن إنما يشفع لمن منعه من النوم بالليل فأما من قرأ القرآن وقام به فقد قام بحقه فيشفع له. . .

قال ابن مسعود: ينبغي لقارىء القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، ونهاره إذا الناس يفطرون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبورعه إذا الناس يخلطون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، وبحزنه إذا الناس يفرحون.

قال محمد بن كعب: كنا نعرف قارىء القرآن بصفرة لونه، يشير إلى سهره وطول تهجده.

قال وهيب بن الورد: قيل لرجل: ألا تنام؟ قال: إن عجائب القرآن أطَرْن نومي.

وصحب رجل رجلاً شهرين فلم يره نائماً، فقال: مالي لا أراك نائماً؟ قال: إن عجائب القرآن أطرن نومي، ما أخرج من أُعجوبةٍ إلا وقعت في أخرى.

قال أحمد بن أبي الحواري: إني لأقرأ القرآن وأنظر في آية فيحير عقلي بها، وأعجب من حفاظ القرآن كيف يهنيهم النوم ويسعهم أن يشتغلوا بشيء من الدنيا وهم يتلون كلام الله، أما إنهم لو فهموا ما يتلون وعرفوا حقه وتلذذوا به واستحلوا المناجاة به لذهب عنهم النوم فرحاً بما قد رزقوا.

أنشد ذو النون المصري:

منع القرآن بوعده ووعيده ... مُقَل العيون بليلها لا تهجع
فهموا عن الملك العظيم كلامه ... فهماً تذل له الرقاب وتخضع

فأما من كان معه القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل به بالنهار فإنه ينتصب القرآن خصماً له يطالبه بحقوقه التي ضيعها، وخرج الإمام أحمد من حديث سَمُرة أن النبي ﷺ رأى في منامه رجلاً مستلقياً على قفاه ورجل قائم بيده فِهْر[١] أو صخرة فيشدخ به رأسه فيتدهده الحجر فإذا ذهب ليأخذه عاد رأسه كما كان فيصنع به مثل ذلك فسأل عنه فقيل: هذا رجل آتاه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل به بالنهار فهو يفعل به ذلك إلى يوم القيامة، وقد خرجه البخاري بغير هذا اللفظ.

---

(١) أي حجر.

وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ: «**يمثل القرآن يوم القيامة رجلاً فيؤتي بالرجل قد حمله فخالف أمره فيتمثل له خصماً فيقول: يا رب حملته إياي فبئس حامل: تعدى حدودي، وضيع فرائضي، وركب معصيتي، وترك طاعتي، فما يزال يقذف عليه بالحجج حتى يقال: شأنك به، فيأخذه بيده فما يرسله حتى يكبه على منخره في النار ويؤتى بالرجل الصالح كان قد حمله وحفظ أمره فيمثل خصماً دونه فيقول: يا رب حملته إياي فخير حامل حفظ حدودي، وعمل بفرائضي، واجتنب معصيتي، واتبع طاعتي، فلا يزال يقذف له بالحجج حتى يقال: شأنك به فيأخذ بيده فما يرسله حتى يلبسه حلة الإستبرق ويعقد عليه تاج الملك ويسقيه كأس الخمرة**».

يا من ضيع عمره في غير الطاعة، يا من فرط في شهره بل في دهره وأضاعه، يا من بضاعته التسويف والتفريط وبئست البضاعة، يا من جعل خصمه القرآن وشهر رمضان كيف ترجو ممن جعلته خصمك الشفاعة:

ويـل لمـن شفـعـاؤه خصمـاؤه   والصـور في يـوم القيامة ينفـخ

رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، وقائم حظه من قيامه السهر، كل قيام لا ينهى عن الفحشاء والمنكر لا يزيد صاحبه إلا بعداً، وكل صيام لا يصان عن قول الزور والعمل لا يورث صاحبه إلا مقتاً ورداً، يا قوم: أين آثار الصيام؟ أين أنوار القيام؟:

إن كنت تنوح يا حمام البان   للبين[1] فـأين شـاهـد الأحــزان

---

(١) أي للفراق.

أجفانك للدموع أم أجفاني لا يقبل مُدّع بلا برهان

هذا عبادَ الله شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، وفي بقيته للعابدين مستمتع، وهذا كتاب الله يتلى فيه بين أظهركم ويُسمع، وهو القرآن الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدع، ومع هذا فلا قلب يخشع، ولا عين تدمع، ولا صيام يصان عن الحرام فينفع، ولا قيام استقام فيرجى في صاحبه أن يشفع، قلوب خلت من التقوى فهي خراب بَلْقع(١)، وتراكمت عليها ظلمة الذنوب فهي لا تبصر ولا تسمع، كم تتلى علينا آيات القرآن وقلوبنا كالحجارة أو أشد قسوة، وكم يتوالى علينا شهر رمضان وحالنا فيه كحال أهل الشقوة، لا الشاب منا ينتهي عن الصَبوة، ولا الشيخ ينزجر عن القبيح فيلتحق بالصفوة، أين نحن من قوم إذا سمعوا داعي الله أجابوا الدعوة، وإذا تليت عليهم آيات الله جلت قلوبهم جلوة، وإذا صاموا صامت منهم الألسنة والأسماع والأبصار، أفما لنا فيهم أسوة؟ كم بيننا وبين حال الصفا أبعد مما بيننا وبين الصفا والمروة، كلما حسنت منا الأقوال ساءت الأعمال، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وحسبنا الله:

يا نفس فاز الصالحون بالتقى
وأبصروا الحق وقلبي قد عمي
يا حسنهم والليل قد جَنّهم(٢)
ونورهم يفوق نور الأنجم

---

(١) أي خالية.
(٢) أي سترهم.

تـرنمـوا بـالـذكـر فـي ليلهـم
فعيشهـم قـد طـاب بـالتـرنـم
قلـوبهـم للـذكـر قـد تفـرغـت
دمـوعهـم كلـؤلـؤ منتظـم
أسحـارهم بهم لهـم قـد أشـرقت
وخِلـعَ الغفـران خيـر القسـم
ويحـك يـا نفـس ألا تيقـظ
ينفـع قبـل أن تـزل قـدمـي
مضـى الـزمـان فـي تـوان وهـوى
فاستدركي مـا قد بقـى واغتنمـي[1]

(١) «لطائف المعارف»: ص١٧٢ ـ ١٨٥ بتصرف.

هذا القرآن
لفضيلة الشيخ حسن الهضيبي

قال الشيخ:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[1].

الصيام والقرآن:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[2].

ليس من غرضي أن أبين أحكام الصوم في هذه الكلمات، بل الغرض منها الإلمام ببعض المعاني التي قد تخطر بالبال عندما يوافينا شهر رمضان المبارك في كل عام.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٣ ـ ١٨٥.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ فجعل الله تبارك وتعالى الصيام أصلاً من أصول الديانات كلها على خلاف في كيفيته، وليس الغرض من الصيام ـ في ظنّي ـ إذلال النفس بكفها عن المأكل والمشرب والملذات، بل الغرض منه رفع النفس الإنسانية عن شهواتها وتهيئتها لعظائم الأمور وتعويدها الصبر والاحتمال؛ لذلك كان الرسول ﷺ يصوم كلما همّ بغزوة من الغزوات توطيناً لنفسه الشريفة على احتمال ما يلاقيه في سبيلها، وتقرباً إلى الله تعالى بالطاعة، وإرشاداً للمسلمين إلى سلوك سبيل الاستعداد لاحتمال الشدائد، وليس في ذلك إذلال للنفس، بل فيه إثبات لعظمتها وقدرتها على التغلب على الحاجات والأهواء والتغلب على المعاصي والمنكرات، والنفس الذليلة هي التي تقارف المنكرات، وأما النفس العظيمة فهي التي تعلو عليها ولا تتنزل إليها.

وليس الصيام هو الكف عن الطعام والشراب، وما أُحلَّ للإنسان من طيبات أخرى[1]، بل هو ـ فيما أعتقد ـ كف عن جميع المحرمات من قول وعمل، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «**من لم يَدَعْ قول الزور والعمل به فليس لله حاجةٌ في أن يدع طعامه وشرابه من أجله**» فالله تعالى ليس في حاجة إلى أن ندع طعامنا وشرابنا من أجله إذا كذبنا في أنفسنا أو قصرنا في واجب أو تجاوزنا الحق في حكم. . . إلى غير ذلك مما تشعر النفس بأنه معصية، وإنما جعلته العادة أمراً مباحاً أو كالمباح.

وهذا تدريب على الخلق الفاضل والحياة الطاهرة؛ فإذا لزم الإنسان

(١) أي فقط.

مدة شهر كل سنة هذا الخلق وهذه الحياة كان خليقاً ألا ينحرف عن ذلك في سائر الأيام، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وقد رأى بعض الفقهاء من الحديث السابق ذكره، ومن قول الرسول ﷺ: «**كل عمل أتى على غير أمرنا فهو رد**» أن ارتكاب أي معصية مهما صغرت وهانت في نظر مرتكبها تبطل الصوم(١).

في الصيام ما يعلم الناس وما لا يعلمون من فوائد طبية ما زال الطب الحديث يكشف عنها.

ولست أقول ذلك لأبحث فيها، فليس ذلك من شأني، وإنما ألفت النظر إليها لأبين أن الله يعلم من أمورنا مالا نعلم، وقد فرض علينا من الفروض ما هو في غنى عنه، وإنما فرضه لمصلحتنا دون أن نعرف الفوائد التي تعود علينا منه؛ فإذا أثبت الطب فائدة لفرض فكم من فوائد خفيت على الطب وتحققت بأداء الفروض دون أن يدركها الإنسان، فالفروض التي أمر الله تعالى بها علاج لتصحيح النفوس والأبدان يجب علينا أن نتقبلها ونؤديها من غير نظر إلى ما يكشفه الطب من فوائدها، فهو يكشف عن شيء وتغيب عنه أشياء، وإنما يعلم ذلك الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً.

من أنواع الطاعات التي يأتيها المسلمون في رمضان الإكثار من تلاوة القرآن.

والقرآن خليق بأن يكون إمام المسلم في كل وقت وخصوصاً في رمضان، ولكنا نقرؤه على نحو لا يؤدي للغرض المقصود منه، وبعض

---

(١) وهو رأي مرجوح.

الناس يفرضون على أنفسهم قراءة قدر منه كل يوم حتى إذا مر الشهر كان قد ختمه كله مرة أو مرات ثم طوى المصحف بعد ذلك فلا يعاود قراءته أو يعاودها بلا نشاط، وهو في كل ذلك يمر على ما يقرأ مراً سريعاً لا يكاد يفقه لما يقرأ معنى، أو لا يدرك إلا معنى القليل منه.

وليست العبرة في التلاوة بمقدار ما يقرأ المرء، وإنما العبرة بمقدار ما يستفيد؛ فالقرآن لم ينزل بركة على الرسول ـ عليه السلام ـ بألفاظه مجردة عن المعاني، بل إن بركة القرآن في العمل به، واتخاذه نهجاً في الحياة يضيء سبيل السالكين، فيجب علينا حين نقرأ القرآن في رمضان أو في غير رمضان أن يكون قصدنا من التلاوة أن نحقق المعنى المراد منها؛ وذلك بتدبر آياته وفهمها والعمل بها.

وكان صحابة رسول الله عليه السلام لا يقرأون من القرآن إلا عشر آيات لا يجاوزونها إلى غيرها حتى يفهموها ويعملوا بما فيها، فحبذا لو نهجنا نهجهم وسلكنا مسلكهم؛ فإن في القرآن آيات إذا تدبرها الإنسان وعمل بها لخرج من بيته ملاكاً طاهراً وعاد إليه ملاكاً طاهراً، ومن أنسب ما يتدبره الصائم هذه الآيات:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ

سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ﴿٧٥﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾[1].

«صدق الله العظيم»[2].

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٦٣ ـ ٧٧.

(٢) مجلة «المسلمون»: السنة ١، العدد السابع، رمضان سنة ١٣٧١، ص ٦٢٥ ـ ٦٢٨.

رسالة السماء
للأستاذ أحمد حمزة[١]

قال الأستاذ:

يطالعنا العام الجديد لهذه المجلة بشهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس؛ وبينات من الهدى والفرقان، فهو شهر يفرق بين الظلمة والنور؛ وبين الباطل والحق، وبين الجاهلية الأولى والوحدانية الإلهية.

فيه بُعث خير البرية محمد ﷺ وبَعْثُ محمد كان إنهاء لمظالم العرب بعضهم لبعض، وإشراق النور الذي أزال جهلهم وجاهليتهم، وفيه الوحدة الجامعة، والوحدانية الطاهرة، والحق الذي لا ريب فيه.

كان العرب من قبله قبائل متفرقة في الصحراء، فجمعتهم الوحدة، واهتدوا بالوحدانية، وكانت دعوة القرآن الكريم دعوة الرفعة والسمو، والتقوى والعلو، والتهذيب والتربية، والفضيلة والأخلاق الكريمة، وتكوين مجتمع لا يظهر فيه إلا الخير والمعروف، ويختفي فيه المنكر،

---

(١) الشيخ أحمد حمزة. صحفي وزير. ولد بقرية طحالاب في صعيد مصر لأسرة عرف آباؤها بالتدين والوطنية. غادر إلى إنجلترا لدراسة الميكانيك ثم عاد فأنشأ مصنعاً للثلج محارباً للاحتكار الأجنبي. تولى وزارة التموين ثم وزارة الزراعة فعمل فيهما أعمالاً نافعة. أقام معهداً دينياً تابعاً للأزهر وأصدر مجلة «لواء الإسلام» سنة ١٩٤٧ حتى توقفت سنة ١٩٨٩ توفي سنة ١٣٩٧ - ١٩٧٧ رحمه الله تعالى. انظر «تتمة الأعلام»: ٢٥.

فلا تَقْذى به العيون[١]، ولذلك قال سبحانه في محكم آياته مخاطباً المؤمنين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[٢].

وإن المعتبر المتدبر، والمتأمل المتفكر، ليجد أن الاعتصام بحبل الله الوثيق الذي دعا إليه القرآن، واعتبره أعظم نعمة في الوجود، لا يقويه ولا يوثقه إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فلا يمكن أن تكون للمسلمين وحدة جامعة إلا إذا كانت الفضيلة تظلها؛ والهداية تحميها، وأوامر الله تهديها، ونور الله يضيئها.

إن القرآن ما زلنا نتلوه، وهو الذي ينطق بالحق، وهو النور، وهو الحجة، وهو الطريق المستقيم، وكل آياته نداء الله لعباده، ولا يمكن أن نأخذ بهديه سبحانه إلا إذا أجبنا نداءه الذي ينادينا به في كل آية نتلوها، وفي كل سورة نقرأها.

إن شهر رمضان هو شهر القرآن، كان النبي ﷺ يحييه بقراءته، وكان يذاكر جبريل بتلاوته، وها نحن أولاء نحاول أن نحييه بقراءة القرآن، فالسائر في الطريق يسمع أصداء التلاوة تتجاوب في الفضاء، ولكن هل اعتبرنا به واستبصرنا؟ هل أجبنا داعي الله الذي نسمعه من القارىء يقرأ، ومن التالي يتلو، ومن المذياع يذيع.

---

(١) أي لا تتأذى.
(٢) سورة آل عمران: آية ١٠٢ ـ ١٠٤.

إننا نخشى أن نكون في الزمن الذي تنبأ به النبي ﷺ، وهو الزمان الذي يقرأ فيه القرآن لا يتجاوز الحناجر! فإننا نجد القارئين يقرأون غير معتبرين، والسامعين يسمعون ليطربوا آذانهم بالنغمات والأغاني، لا ليعالجوا قلوبهم بهذا القرآن الذي فيه شفاء الصدور، وفيه الرحمة لمن اتبعه، وفيه الموعظة، وفيه الهداية، ومن اعتبر واتعظ يقشعر بدنه عند تلاوته، لأنه يحس بأن الله يخاطبه ويناديه ويكلمه، ألم تقرأ أيها القارىء قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾[١].

لقد ذكرت الروايات والأخبار أن بعض السلف كانوا إذا سمعوا القرآن يتلى أصابتهم من خشية ربهم رِعْدة كأنما يغشى عليهم، لأن فرط إحساسهم برهبة الخطاب، وإيمانهم بأن الكلام هو كلام رب العالمين يكلمهم به يُوجِد فيهم خوفاً وخشية كأنما تمتلىء قلوبهم برؤية الله وهم يستمعون، ويصلون بهذا إلى درجة الإحسان الذي أمر به النبيّ، فقد قال ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

إن شهر رمضان، شهر البركة وشهر العبرة وشهر ذكر الله ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[٢] [٣].

---

(١) سورة الزمر: آية ٢٣.
(٢) سورة الرعد: آية ٢٨.
(٣) مجلة «لواء الإسلام»: العدد ١، السنة ١٤، رمضان سنة ١٣٧٩، ص ٣ ـ ٤.

مدرسة الإحسان
للأستاذ عبدالله كنون[(١)]

قال الأستاذ:

قيل إن العرب لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق شهر رمضان أيام رمض الحر فُسمي بذلك.

وسواء صح هذا أم لم يصح، ومعنى المادة التي اشتق منها ذلك الاسم يصححه، فإن الإسلام قد جعل لهذا الشهر رمضان حر معنوي لا يفارقه مدى السنين، ولو جاء في أشد الأوقات برداً وقَرّاً، وذلك هو الصيام الذي افترضه الله على المؤمنين وجعلهم يرتمضون فيه بحر الجوع ليذوقوا مما يذوقه الفقراء والمساكين في كل شهر لا في شهر رمضان

---

(١) عبدالله كنون الحسنيّ، العالم، رئيس رابطة علماء المغرب، ولد سنة ١٣٢٦ بمدينة فاس، حفظ القرآن وبعض المتون، وأجاد رواية الحديث والشعر، ثم لحق بجامع القرويين ودرس على كبار المشايخ، وانتقل مع والده بطنجة فأسس المعهد الإسلامي بها وتولى إدارته، ثم تنقل في المناصب فكان وزيراً للعدل، ثم الحاكم العام لطنجة، وعين عضواً في مجامع اللغة بدمشق والقاهرة وبغداد وعمان، وأميناً عاماً لرابطة علماء المغرب، وعضواً في مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، وعضواً في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، له عدة مصنفات، توفي سنة ١٤٠٩ رحمه الله تعالى. انظر «تتمة الأعلام»: ١/ ٣٣٥ـ٣٣٦.

فقط، فيواسوهم ويحسنوا إليهم في شهر رمضان وفي كل شهر آخر، لأن الإحساس بالجوع غير وصفه، والشعور بالخصاصة غير الخبر عنها.

وقد يكتب الكتاب ويعظ الواعظون في الحض على المواساة والإحسان إلى الفقراء والمساكين ولكنهم لن يبلغوا من النفس البشرية ما يبلغ منها صيام يوم واحد وتجويعها على النحو الذي أمر به الشارع في شهر رمضان للرياضة والتربية، لا للتطبيب والاستجمام.

والصيام وإن كانت له فوائد صحية لا تنكر، ويصح أن يكون الشارع قصدها فيما قصد إليه من فرض هذا الركن العظيم من أركان الإسلام، ولكن مسألة الإحسان هي منه في الطليعة وربما كانت هي المرادة منه بالقصد وبالذات، ألا ترى إلى ما روي في الصحيح من أنه ﷺ، كان أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيذاكره بالقرآن، فالرسول ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة.

وكيف لا يكون الرسول ﷺ أجود الناس وهو الذي بعث ليتم مكارم الأخلاق؟ وكيف لا يكون أفضل أكوانه بالنسبة إلى الجود في رمضان وقد اجتمعت فيه ثلاث دواع كل واحد منها كاف لمضاعفة أثر ذلك الخلق الكريم: وهي الصيام، ولقاء جبريل، ومذاكره القرآن؟

فالصيام عامل طبيعيّ لإثارة عاطفة الإحسان بسبب ما يشعر به الصائم من الحرمان الذي يعيش فيه الفقراء دائماً، ويستوي فيه الرسول وغيره إلا أن أثره فيه ﷺ أعظم من غيره، ولقاء جبريل هو صلة مباشرة بالملأ الأعلى يصفو معها جوهر النفس وتسمو معنوياتها إلى أبعد حد ممكن لبشر، ومذاكرة القرآن، وهو مَعْدِن الأسرار والأنوار، لا تأتي إلا بأعظم النتائج في باب التخلق لعموم الناس فأحرى الرسول الكريم.

وعلى كل حال فالغاية من الجميع هي الجود، وذلك مما يجعل من رمضان مدرسة إحسان، يتخرج فيها ملايين المحسنين كل عام، من الصائمين الذين يكونون على قدم الرسول ﷺ في الاتصاف بالجود أيام السنة كلها وفي أيام رمضان أكثر.

ومما يدل على أن فرض الصيام حكمته معالجة آلام الحرمان بالفعل، لتربية عاطفة الإحسان في الإنسان ما روي في الصحيح أنه ﷺ قال: «**بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له**».

فهذا الحديث يرشد إلى أن الحرمان يولد العطف والعطف يبعث على الإحسان، فما شعر بما يجده المحروم من ألم نفسيّ وبدنيّ إلا من حرم مثله من لذاته ومشتهياته، وإذ ذاك ترق عاطفته ويسخو بما لم يكن يسخو به من قبل هذا التمرين.

ولو لم يؤخذ هذا الرجل بتجربة العطش الشديد الذي حمله على النزول في البئر لما رق قلبه لذلك الكلب ولو رآه مندلع اللسان من العطش، فكذلك يكون الذي عانى الصيام شهراً في كل عام إذا رأى جائعاً أو عطشان أو محروماً من ضرورية من ضروريات العيش على العموم.

ولعل هذا هو ما يفسر قوة عاطفة الإحسان الفردي عند المسلمين برغم تخلفهم في ميادين الإحسان العام لضعف تربيتهم الاجتماعية والسياسية.

على أن هذا المعنى الذي ذكرنا أنه المقصود الأهم من الصيام ـ وهو تنمية عاطفة الإحسان ـ قد وقع التصريح به في حديث سلمان رضي الله عنه قال خطبنا رسول الله ﷺ في آخر يوم من شعبان فقال: «**يا أيها الناس: قد أظلكم شهر عظيم مبارك، فيه ليلة خير من ألف شهر، شهر جعل الله صيامه فريضة، وقيام ليله تطوعاً، وهو شهر الصبر وشهر المواساة، من فطر فيه صائماً كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار**»[1].

ولا معنى لكونه شهر المواساة إلا هذا بدليل ما بعده من الحض على تفطير الصائم الذي لا يجد ما يفطر عليه، وناهيك أن كتاب الله العزيز لما عذر العاجز مطلقاً عن الصيام لم يجعل له مندوحة من إطعام المساكين.

وتختم هذه الدروس التي تدوم شهراً كاملاً بامتحان جعله الشارع علامة النجاح في هذه المدرسة الإحسانية العظيمة، وهو زكاة الفطر التي ورد في الصحيح أنها طهرة للصائم من اللغو والرفث. . .

فختمت دروس الإحسان بامتحان عملي في الإحسان، مما لا يبقى معه شك في أن رمضان ما هو إلا مدرسة للإحسان:

إن الصيام مواساة وإحسان | قضى بذلك قرآن وبرهان
نعم الصيام مع المعروف تبذله | وليس مع الحرمان حرمان[2]

---

(١) رواه ابن خزيمة في صحيحه.
(٢) مجلة «الوعي الإسلامي»: العدد ٨١، السنة ٧، رمضان سنة ١٣٩١، ص ٦٥ـ٦٦. بتصرف يسير.

رمضان والقرآن.. وليلة القرآن.. وأمة القرآن..

للأستاذ: عبدالكريم الخطيب(١)

قال الأستاذ:

الزمن في نظر الإسلام، حقيقة واقعة.. يعيش فيه الوجود، وتتحرك الموجودات في آناته ولحظاته، كما تتحرك الأجنّة في أرحام أمهاتها، فالزمن في حساب الإسلام وتقديره، هو الرحم التي تتخلق فيها الأحداث، والبوتقة التي تنضح فيها الكائنات، وتتحرك في محيطها من المولد إلى الممات.

ففي كل لحظة من لحظات الزمن، وفي كل آنة من آناته يخلع الوجود قديماً ويلبس جديداً، حيث لا يكون الوجود في أية لحظة على الصورة التي كان عليها في اللحظة السابقة، أو التي سيكون عليها في

(١) عبد الكريم محمود الخطيب. المفكر الإسلامي، الباحث المفسر. ولد سنة ١٣٢٨ بقرية «الصوامعة غرب» التابعة لمركز طهطا، مديرية جرجا بصعيد مصر. وتعلم في كتاب القرية فحفظ القرآن الكريم والتحق بعدة مدارس حتى تخرج من دار العلوم بالقاهرة، وقد اشتغل بالتدريس في عدة مدارس ثم صار مديراً لمكتب وزير الأوقاف. له مصنفات كثيرة ومئات من المقالات في الصحف المصرية والعربية، وله مئات من الأحاديث الإذاعية. وكان سمح الخلق متواضعاً، صافي الذهن. توفي سنة ١٤٠٦ رحمه الله تعالى. انظر «تتمة الأعلام»: ١/ ٣١٧_٣١٨.

اللحظة التالية، وهذا بعض ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[١].

والإنسان ـ في هذا الكوكب الأرضي ـ هو الكائن الذي يشعر بالزمن، ويدرك آثاره، ويَلحظ حركة مسيره، وأنها حركة تتجه إلى الأمام دائماً دون توقف لحظة! وإن كان ذلك الشعور على اختلاف كبير بين الناس؛ إذ بينما يكون في الناس من لا تمر به ساعة من ليل أو نهار إلا ويشهد فيها آثار الزمن في نفسه وفي الحياة من حوله، على حين يكون في الناس من لا يكاد يشعر حتى باختلاف الليل والنهار عليه، فيقطع العمر غافلاً لاهياً، لا يجد الحياة إلا لوناً واحداً، ولا يرى فيها أو في نفسه شيئاً يختلف فيه يومه عن أمسه!

وقد كان من تدبير الإسلام هنا أن عمل بشريعته وأحكامه على إيقاظ الشعور بالزمن في كيان المؤمنين، بحيث تقوم نظرتهم إليه على أساس قوي من الاحترام له، والحرص على الإفادة من كل نَفَس يتنفسه الإنسان فيه.

ومن هذا التدبير الحكيم أن ربط الإسلام ما تعبد الله به المسلمين من صلاة، وصيام، وحج، وزكاة، بمواقيت محددة من الزمن تؤدى فيه، ولا تقبل في غيره.

فللصلوات الخمس كل يوم وقت محدد لكل صلاة، وللصوم المفروض، وقت محدد معلوم هو شهر رمضان، وللحج وقته المعلوم الذي يبدأ من شوال وينتهي في اليوم العاشر من ذي الحجة، كما يقول

(١) سورة الرحمن: آية ٢٩.

سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾(١)، وللزكاة وقت محدد لكل نوع منها، فزكاة النقدين وما يلحق بهما تكون على رأس الحول عن ملك نصاب الزكاة فيهما، وزكاة الزرع تكون عند حصاده وجني ثماره كما يقول: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾(٢).

وأكثر من هذا، فإنه إظهاراً لقيمة الزمن، ولفتاً لآثاره العظيمة في بناء الحياة الإنسانية للإنسان أقسم الله سبحانه وتعالى بمقاطع محددة من الزمن، وبأجزاء معلومة منه لتكون معالم للإنسان في مسيرته مع الحياة، يَشْخَص بوجوده كله إليها، ويهيء نفسه لاستقبالها، والتزود من الخير المحمول بين يديها، فأقسم الحق سبحانه وتعالى بالليل والنهار: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾(٣) وأقسم جلّ شأنه بالفجر، والصبح، والضحى، والعصر: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾(٤) ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾(٥) ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾(٦) ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾(٧) وذكر سبحانه في مقام التكريم والتنويه يوم الجمعة، لم يذكر في القرآن بالاسم يوماً غيره، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) سورة البقرة: آية ١٩٧.
(٢) سورة الأنعام: آية ١٤١.
(٣) سورة الليل: آية ١ ـ ٢.
(٤) سورة الفجر: آية ١ ـ ٢.
(٥) سورة التكوير: آية ١٧ ـ ١٨.
(٦) سورة الضحى: آية ١ ـ ٢.
(٧) سورة العصر: آية ١ ـ ٣.

ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾[1] وبمثل هذا جاء سبحانه: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾[2].

ونخلص من هذا إلى القول بأن تلك الأوقات من مقاطع الزمن وأجزائه التي جاء ذكرها في القرآن الكريم ـ في معرض القسم أو في غيره ـ هذه الأوقات لها فضلها على غيرها من مقاطع الزمن وأجزائه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من خلقه، كما يقول سبحانه: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ﴾[3] وكما فضل الله تعالى بعض الناس على بعض، فاصطفى منهم الرسل والأنبياء والصديقين والأولياء فقد فضل سبحانه بعض الأوقات على بعض، واصطفى من أيامها ولياليها وشهورها ما شاء سبحانه وتعالى منها.

وشهر رمضان، هو الشهر الذي تُؤدى فيه فريضة الصوم، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾[4]. ثم بيّن سبحانه وقت هذه الأيام المعدودات، وعددها، فقال سبحانه: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾[5] ففي قوله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ تنويه بهذا

---

(١) سورة الجمعة: آية ٩.
(٢) سورة البقرة: آية ١٨٥.
(٣) سورة القصص: آية ٦٨.
(٤) سورة البقرة: آية ١٨٣ ـ ١٨٤.
(٥) سورة البقرة: آية ١٨٥.

الشهر، ورفع لقدره؛ إذ كان الظرفَ الزمني الذي نزل فيه القرآن بما يحمل إلى العالمين من هدى وما يسوق إليهم من فضل الله ورحمته، وفي قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ تعقيب على هذا البيان الذي كشف عن قدر هذا الشهر وفضله من جهة، وتنويهاً بفريضة الصيام من جهة أخرى، بجعل هذا الشهر المبارك ظرفاً لها، حيث تعظم فيه آثار الصوم، ويتضاعف خيره.

وهنا حقيقة ـ أو ظاهرة ـ ينبغي أن ننتبه إليها، وهي أن أكثر ما يلتفت إليه كثير من الصائمين، هو هذا الحرام من الطعام والشراب، والإمساك عن شهوتي البطن والفرج من الفجر إلى غروب الشمس، وقليل هم أولئك الذين ينظرون في رمضان إلى ما وراء الطعام والشراب، منعاً أو أخذاً، ولهذا فإنه يسبق رمضان ويتخلل أيامه ما نشهده من هذا الإقبال الشديد على مواد الطعام التي يستجلبها الصائمون، ويستكثرون منها، وخاصة ما كان من تلك المواد التي يستغني عنها الناس أو أكثر الناس عادة في غير رمضان، فإن هذه المأكولات التي تعرف بمأكولات رمضان تكاد تكون في نظر كثير من الصائمين ـ بل وغير الصائمين ـ كأنها جزء من فريضة الصيام، وحتى لكأن الصوم لا يكمل ولا يُقبل إلا بها، الأمر الذي يحملهم على حمل ما لا تتسع له قدرتهم المالية فيعانون في سبيل ذلك ما يعانون من جهد ومشقة من أجل الحصول على أشياء رمضان!!

والصوم، وإن كان في ظاهره هو حرمان الجسد من شهوتي البطن والفرج ساعات محددة من الزمن كل يوم من أيام رمضان، فإن هذا الحرمان ليس غاية في ذاته، وإنما هو وسيلة إلى غاية أو غايات تتصل بالجانب الروحي والنفسي من الإنسان أكثر من اتصالها بالجسد، وذلك

لا يكون إلا إذا كان الصائم على شعور دائم بأن هذا الحرمان الواقع على الجسد هو امتثال لأمر الله، وأنه جهاد في سبيل الله، وحرب على أهواء النفس ووساوس الشيطان، وهنا يشعر الصائم بأنه قائم في ميدان الجهاد فعلاً، وأن أية عَضّة للجوع أو العطش ليست إلا كَلْماً يُكْلمه(١) الصائم في سبيل الله، فيحتملها صابراً راضياً مغتبطاً، كما يحمل المجاهد المقاتل جراحاته في صبر ورضى وغبطة، عندئذ يجد الصائم نفسه وقد تهيأ لاحتمال كل حرمان، وتجاوز كل شهوة تعرض له على طريق صومه، وبذلك يكون الصائم صائماً حقاً، له أجر الصوم كاملاً، سواء شق عليه الصوم أو لم يشق، تماماً كالمجاهد يخرج غازياً في سبيل الله، ثم يعود سالماً غانماً، وقد وقع أجره على الله.

هذا وجه من وجوه الصوم، لا يكاد يلتفت إليه كثير من الصائمين الذين يَحْصُرون دائرة الصوم في حدود الجسد ومطالبه، وفي حرمانه من شهواته ساعات محدودة كل يوم، حتى إذا دنت ساعة الإفطار أخذ الصائم يضع بين يديه ما أعد من ألوان الطعام لإفطاره، والتي قضى نهاره مفكراً فيها مشغولاً بها، فإذا جاء وقت الإفطار أقبل على الطعام في نَهَم وإسراف، ينتقل من لون إلى لون، حتى تمتلىء معدته، وتختنق أنفاسه.

ليس الصوم في حقيقته حرباً تدور رحاها بين الصائم وبين شهواته الجسدية، وإنما هو في صميمه حرب على شهوات كثيرة مُنْدسّة في كيان الإنسان، كشهوة العدوان على الناس، وشهوة الغيبة والنميمة، وشهوة الغفلة عن الضمير لتقضي النفس حاجتها من التقصير في الواجب، أو

---

(١) أي جرحاً يجرحه.

الاستخفاف بأداء حقوق الله، وحقوق عباد الله، فهذه الشهوات وما إليها هي التي جاءت رسالات السماء لمحاربتها، وكسر شوكتها.

فالعبادات من صلاة، وزكاة، وصوم، وحج هي الدواء السماوي لهذه الأدواء التي تسكن في كيان الإنسان، والتي من شأنها أن تفسد فطرته إن لم يتداو بهذا الدواء، ويجري في تعاطيه على الحدود التي رسمها الله.

والصوم-إذا أداه الصائم على وجهه المطلوب- هو أظهر العبادات وأكثرها فعالية في علاج الروح عن طريق الجسد، وأخذه بالحرمان المادي من شهواته، حالا بعد حال.

إن صوم رمضان هو فرصة المسلم التي تتاح له بلقاء هذا الشهر كل عام، حيث يلقاه فيها بآلامه وهمومه وذنوبه، وبما أصابه في طريق الحياة من جراح ليستشفي من آلامه وعلله، و ليجد برد السكينة وثلج العافية في نفسه، وليخرج من هذا الشهر المبارك وقد برىء من كل داء، وعوفي من كل هم وحزن، وإن أخسر الصائمين صفقة، وأكثرهم غبناً من أقبل عليه رمضان ثم لم يهيىء نفسه لاستقباله على نية الاستشفاء لنفسه فيه، وطلب العافية من نفحات أيامه وبركات لياليه، ثم إن أخسر الخاسرين، وأغبن المغبونين من خرج من رمضان ولم تزدد شعلة الإيمان في قلبه توهجاً، ولم يتزود من التقوى بزاد يدنيه من الخير، ويباعد بينه وبين المنكر والإثم.

ويلتقي المسلمون في شهر رمضان بثلاثة معالم من عالم الحق، اختصهم الله تعالى بها، ووسمهم بسماتها، وآتاهم بها من فضله ما لم يُؤت أحدٌ من العالمين، وتلك المعالم هي: القرآن، وليلة القرآن، وأمة

القرآن: التقت ثلاثتها في رمضان لقاء على قَدَرٍ، فكان من ثمرها هذا الخير الذي تعيش في ظله الإنسانية كلها، والذي تَنْدى منه قلوبها بمشاعر الرحمة والمودة والإحسان، سواء في هذا من كان من المسلمين، أم كان جيرة للمسلمين.

فشهر رمضان هو شهر القرآن حيث ابتدأ نزوله فيه، وأشرقت شمسه على الوجود في ليلة من لياليه، ومن هنا كان لقاؤنا بالقرآن الكريم في شهر رمضان يختلف كثيراً أو قليلاً عن لقائنا به في غير رمضان، وذلك لأن شهر رمضان هو موسم القرآن، وهو الظرف المبارك من الزمن الذي اختاره الله تعالى ليكون محملاً لكلماته إلى رسول الإسلام، وإلى أمة الإسلام.

ولا شك أن اتصال المسلم بالقرآن في هذا الظرف المبارك يُضفي على مَن يتلو القرآن أو يستمع إليه كثيراً من نفحات هذا الشهر وبركاته، ويمد بصيرته بالسنا الوضاء من الأنوار العلوية التي تكشف له من أسرار القرآن وعجائبه ما تتمثل له من المعجزات القاهرة المتحدية، التي يرى فيها مصداق قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[١].

ومن جهة أخرى، فإن لقاء المسلم بالقرآن في رمضان إنما يكون في حال الصوم الذي تتكسر فيه شهوة الجسد، وتتخلص فيه الروح من كثير من قيود المادة المضروبة عليها من الجسد، وهذا لا شك أنسب الأحوال، وأعدلها، وأقربها بالإنسان إلى آيات الله وكلماته، فالقرآن الكريم روح من

---

(١) سورة الإسراء: آية ٨٨.

روح الله تعالى كما يقول جل شأنه للنبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

فأقرب الناس إلى القرآن وأشكلهم به مَن خف ميزان جسده، وثَقل ميزان روحه، فيقترب بهذا من عالم الروح، عالم القرآن الكريم، ومتنزل آيات الله وكلماته.

لهذا كان شهر رمضان موسم القرآن، ومرد المسلمين جميعاً إليه، حتى أولئك الذين لا يكادون يتصلون بالقرآن، أو يتصلون به لماماً في غير رمضان، فإذا جاء رمضان تزاحموا على هذا المورد العذب المبارك، ونهلوا منه ليرووا فلماً جعلوا موعد إروائه رمضان، وهذا لا شك شعور حسن وسنة محمودة، يتدارك بها كثير من المسلمين ما فاتهم من الاتصال بكتاب الله ومدارسته طوال العام، كما أن كثيراً من المسلمين الذين يجعلون موعد لقائهم بالقرآن في شهر رمضان، تتوثق الصلة بينهم وبين كتاب الله بعد هذا اللقاء في هذا الظرف المبارك، فتتصل لقاءاتهم بالقرآن في رمضان، وفي غير رمضان.

ونود أن نقف هنا قليلاً مع الذين يتصلون بكتاب الله، تلاوة أو استماعاً، في رمضان وفي غير رمضان لنقول: إن تلاوة القرآن الكريم، أو الاستماع إليه هو ذكر وصلاة ودعاء، وإنه لن يحرم أحد من المسلمين حظه من نفحات آيات الله ورحماتها وبركاتها، تالياً أو مستمعاً، ثم إنه ليس لتلاوة القرآن أو الاستماع إليه ـ في غير الصلاة المكتوبة ـ وقت

---

(١) سورة الشورى: آية ٥٢.

معين، أو قدْر محدد، فأي وقت من ليل أو نهار هو وقت تلاوة واستماع، وأي قدر من القرآن هو مُجْزٍ في التلاوة أو الاستماع، لأن ذلك من النوافل التي تُرك للمؤمن إتيانها في أي وقت يشاء، وعلى أي قدر يريد، وله من الجزاء الحسن عند الله على قدر ما يُعطي من نفسه وعقله وقلبه ووقته لآيات الله وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾[1].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[2].

ومن تيسير القرآن للذكر رفع كل قيد يحول بين أي مؤمن بالله وبين الاتصال بكتاب الله، تالياً أو مستمعاً أو دارساً، فكتاب الله هو ميراث المسلمين جميعاً، ولن يُحرم أحد حظه من هذا الميراث إذا هو طلبه، وحرص على الإفادة منه، وأنه على قدر ما تكون عليه صلة المسلم بالقرآن، وعلى قدر توسله إليه بما يقربه منه ويدنيه إليه يكون حظه من هذا الميراث المبارك العظيم.

فالقرآن الكريم، لا يقبل إلا على من يقبل عليه، ولا يمنح خيره وبركته إلا لمن يعرف قدره، ويطرق بابه في أدب وولاء وخشوع.

وليس المقصود من الاتصال بالقرآن الكريم مجرد الإلمام به، وقطع المسافة بين فاتحته وخاتمته في أقل زمن ممكن، فتلك سبيلٌ غير سبيل مَن يريد إجابة دعوة الله تعالى إلى لقاء كتابه، إذ يقول سبحانه لنبيه الكريم: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[3].

---

(١) سورة المزمل: آية ٢٠.
(٢) سورة القمر: آية ١٧.
(٣) سورة ص: آية ٢٩.

فالذي يقرأ القرآن أو يستمع إليه في غير تدبر وتذكر ليس بقارىء للقرآن وإن قرأ، وليس بمستمع للقرآن وإن سمع، لأنه ليس من الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[1].

ونحن المسلمين في عصرنا هذا نستمع كثيراً إلى آيات الله تتلى علينا، حتى لا يكاد بيت من بيوت المسلمين لا تتردد في جنباته في الصباح وفي المساء وفيما بين الصباح والمساء أصوات المقرئين منقولة إلى كل بيت فيه مذياع، أو إلى جيران أي بيت فيه مذياع، فنحن من هذه الوجهة أكثر من أسلافنا سماعاً للقرآن لما يسر الله تعالى لنا من وسائل الاتصال به بقصد أو بغير قصد، ولكن الذي لا شك فيه هو أن حظنا من عطائه المبارك، ومن أضواء هديه، ونفحات رحمته أقل بكثير من حظ أولئك الذين كانوا يستمعون إلى آية أو بضع آيات فيكون لهم منها ـ ومنها وحدها ـ زاد حياة، ودستور عمل، ومنهج سلوك، لأنهم استمعوا إلى ما استمعوا إليه من كلام الله بآذان صاغية، وجوارح ساكنة، وقلوب خاشعة، فوقعت منها كلمات الله موقع الغيث من الأرض الجديبة، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج كريم، يقول الله تعالى فيما يؤدب به أهل القرآن في مجلس القرآن: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[2]، فالرجاء في رحمة الله، المستمطرة من آيات الله رهن بالاستماع والإنصات لما يتلى من كلمات الله، حيث تسكن الجوارح،

---

(١) سورة الزمر: آية ٢٣.
(٢) سورة الأعراف: آية ٢٠٤.

وتخضع المشاعر، وتتهيأ العقول والقلوب لتهتدي إلى مواقع العبرة والعظة من آيات الله، فيكون منها الدواء لكل ما في كيان المسلم من داء.

ألا فليعلم أولئك الذين يفتحون المذياع على تلاوة القرآن ثم يدعون صوت المقرىء يملأ جنبات البيت، وهم يحسبون أنهم بهذا قد ملأوا البيت من نفحات آيات الله، ونشروا على أنفسهم وعلى أهليهم الخير والبركة منها، دون أن يجلسوا هم وأهلوهم مجلس القرآن، ودون أن يُحسنوا الاستماع إلى آيات الله، وتدبرها، والوقوف عند كل زاجرة وواعظة منها، ألا فليعلم هؤلاء أنهم بخسوا القرآن حقه، وظلموا أنفسهم وأهليهم بما فاتهم من حظ عظيم كان دانياً منهم، من نفحات القرآن وبركاته، لو أنهم عرفوا للقرآن الكريم قدره، وإنه لخير لأولئك الذين يتخذون من القرآن الكريم «بخوراً» يطلقونه من المذياع أن يحولوا مؤشره إلى غير القرآن، فذلك ـ على ما به ـ أصون لمقام القرآن الكريم، وأحفظ لجلاله وعظمته.

وفي رمضان ليلة القدر التي كانت مفتتح نزول القرآن الكريم، ومبدأ اصطفاء رسول الله ﷺ لحمل رسالة الله إلى عباد الله.

وهي ليلة من ليالي رمضان الذي أنزل فيه القرآن، وفيها يقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[1].

ويقول جل شأنه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ

(١) سورة الدخان: آية ٣ ـ ٤.

ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾[(١)].

ومعنى ليلة القدر أنها الليلة التي قَدّر الله تعالى فيها عوالم الوجود كلها، خَلقاً وأمراً، بحكمته وعدله وعلمه وقدرته ورحمته، فأعطى فيها كل شيء خلقه ثم هدى.

فليلة القدر هي الليلة التي كانت الوعاء الزمني لتجليات الله سبحانه وتعالى على هذا الوجود، ثم كانت الوعاء الزمني لنزول القرآن الكريم من السماء إلى الأرض ، ففتح الله تعالى به قلوباً غُلفاً، وأعيناً عمياً، وآذاناً صماً.

ولهذا فإن ليلة القدر تنزل من عقول المسلمين وقلوبهم منزل الإعزاز والإكرام إنها ليلة العمر التي تهفو إليها النفوس، وتحتشد لها الآمال.

وأمر نحب أن نشير إليه فيما يتصل بليلة القدر التي نرصد مطالعها في رمضان وهو أن الذين ينتظرون ليلة القدر في رمضان من كل عام، ويتوقعون أن تطرق عليهم الباب في أي لحظة من لحظات لياليه، وأن تستجيب لكل ما يطلبون من مال وجاه وسلطان وصحة وشباب، إلى غير ذلك مما يتمثل لكثير من الناس مما تحمل ليلة القدر إلى الموعودين بلقائها هؤلاء الذين حساب ليلة القدر عندهم هو هذا الحساب، هم أبعد الناس عن ليلة القدر، لأنهم يسيرون في طريق، وليلة القدر تسير في

(١) سورة القدر: آية ١ ـ ٥.

طريق، إنها ليلة العاملين، الذين يصومون رمضان فيمسكون ألسنتهم عن الفحش والسوء، ويفطرون على الحلال الطيب مما كسبت أيديهم، فإذا كان الليل قطعوه ترتيلاً لآيات الله، وتدبراً لكلماته، وقبساً من نور كتابه، وقطفاً من ثماره، فمن فعل هذا كان خليقاً بأن يتحلى بحلل صافية من أنوار تلك الليلة المباركة، وأن يسامر ملائكة الرحمن التي تتنزل بما يملأ ما بين الأرض والسماء من نفحات الله ورحماته، إنها ليلة القرآن، وليلة أهل القرآن، ليلة الأرواح المنتشية بذكر الله، لا ليلة الأجسام المتخمة المثقلة بالطعام والشراب: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ فلا تلتقي إلا بأهل السلامة والسلام، ولا تصافح إلا أهل النور والصفاء.

هذا، وليلة القدر وإن لم يحدد وقتها إلا أن المقطوع به هو أنها ليلة من ليالي رمضان، فمن طلبها فليطلبها في رمضان، صائماً نهاره، قائماً ليله، ومن فَتَرت همته فليطلبها في العشر الآواخر من رمضان، حيث أشار إلى ذلك الرسول الكريم بقوله: «**التمسوها في العشر الآواخر من رمضان**»، ومن ضعف عن ذلك فليقم لها الليالي الفردية من تلك الليالي العشر، حيث تظاهرت الأخبار بأنها واحدة من تلك الليالي، فمن عجز عن هذا فليقم لها ليلة السابع والعشرين حيث وردت آثار وشواهد كثيرة بأنها ليلة السابع والعشرين.

ومن جهة أخرى، فقد استظهر بعضهم أن ليلة القدر هي ليلة السابع والعشرين، بأن عد كلمات السورة، ـ سورة القدر ـ فوجدها ثلاثين كلمة، بعدد أيام الشهر، ثم وجد كلمة (هي) التي تشير إلى ليلة القدر تقع متممة العدد السابع والعشرين من كلمات السورة.

وفي رمضان كان ميلاد أمة الاسلام، وكان القرآن الكريم هو اليد

الصانع لها، والروح السارية في كيانها، وصبغة الله التي صبغها بها، فكانت كما نوه بها الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم بقوله جلّ ذكره: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(١).

ففي قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ﴾ بلفظ الماضي ما يشير إلى هذا الوصف الذي وصف الله تعالى به هذه الأمة بأنها ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ليس محدوداً بزمن من أزمان هذه الأمة، ولا مقصوراً على جيل من أجيالها، أو بحال من أحوالها، وإنما هو وصف عام مطلق يشمل الأمة الإسلامية كلها، في جميع أزمانها وأجيالها وأحوالها، من عهد النبوة إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، وأن أمة الإسلام في أسوأ أحوالها، وفي أنزل منازلها هي على هذا الوصف، وأنها خير أمة، بما في كيانها من قوى الحق والخير، وإن بدا في ظاهر الأمر أن أمماً كثيرة اليوم أقوى منها قوة، وأكثر أموالاً، ومتاعاً؛ إذ أن ما يقوم عليه بناء الأمة الإسلامية من حق وخير لا تنال منه الأيام، وأنها لا بد أن تجد وجودها يوماً، و أن ينفخ فيها الحق من روحه، فتصحو صحوة مشرقة تبهر أنظار العالمين، أما ما يقوم عليه بناء تلك الأمم الظاهرة الغالبة اليوم فهو قائم على شفا جرف هار، لا يلبث أن يتصدع ويهوي إلى القاع وإن علا وطاول السماء: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾(٢).

---

(١) سورة آل عمران: آية ١١٠.
(٢) سورة الرعد: آية ١٧.

وفي التعبير القرآني: ﴿أُخْرِجَتْ﴾ تنويه آخر بشأن هذه الأمة، وأنها هي المولود الكامل الذي تمخضت عنه الإنسانية، ولن تلد مثله أبد الدهر. . .

وفي قوله سبحانه: ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ تنويه ثالث بتلك الأمة، وأنها لم تخرج من الناس، ولكنها أخرجت للناس، حتى لكأنها بهذا من مَعْدِنِ غير مَعْدِنِ الناس، ومن عالم غير عالم الناس، وحتى لكأنها قد جاءتهم من عالم الغيب، وطلعت عليهم من أفق بعيد، وأخرجت لهم من حيث لا يتوقعون، فمن صحراء مجدبة قَفْر، ومن مجتمع أمي غارق في جهالة الجاهلية، لا يكاد يمسك من حظوظ الناس بشيء تخرج هذه الأمة، فتقود ركب الإنسانية إلى مواقع الخير والإحسان، وترد بها موارد العلم والمعرفة، وتسوسها سياسة العدل والرحمة، وتقيم في كل أفق من آفاق الأرض معالم الأمن والحرية والسلام.

فلتذكر الأمة الإسلامية دائماً أنها خير أمة خرجت للناس، ولتذكر دائماً أن هذه الخيرية إنما بفضل من الله تعالى عليها بأن كانت هي المتلقية للقرآن الكريم، الذي هو روح من روح الله، يبعث الحياة حيث نزل، ويحيى الموات حيث حل. .

فالأمة الإسلامية هي أمة القرآن، إليه يرد أصلها، وبه يعرف نسبها، ومنه نسجت وتنسج ما لبست أو تلبس من حلل العزة والكرامة والسيادة.

وإنه لن يمسك على هذه الأمة وجودها في هذا المقام الكريم إلا رعايتها للقرآن، وتمسكها بالعمل به، واجتماعها على الحياة في ظله.

إن القرآن الكريم هو مائدة الله السماوية الممدودة لأمة القرآن، مائدة يتغذى منها العقل والروح، فتخلق من هذا الغذاء ملكات علوية،

ووجدانات ربانية، بها يسمو الإنسان ويعلو، وبها ينتصر على الضعف الإنساني، وعلى النزعات الحيوانية المندسة في كيانه، وهذا ما يشير إليه الرسول صلوات الله وسلامه عليه في قوله: «**القرآن مأدبة الله، فتعلموا من مأدبته**»[(١)]. ولم يقل الرسول الكريم. فكلوا من مأدبته؛ لأن القرآن الكريم مأدبة علم وحكمة، وأدب وخلق، وليس مأدبة معدات، ولا طعام بطون.

فانظر كيف رفع الله قدر هذه الأمة وأعلى شأنها، وكيف جعل غذاءها السماويّ الذي أنزله عليها غذاء يتصل بالقلب والعقل والروح، ولم يجعله طعاماً للبطون، كما أنزل الله تعالى على بني إسرائيل ما أنزل من المن والسلوى، فأكلوا حتى أتخموا وبشموا، وحتى عافوا هذا الطعام السماويّ، وقالوا لموسى: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾[(٢)]. وفي هذا ما فيه من فضل الله على الأمة الإسلامية، ومن إحسانه إليها، **فكانت** خير أمة أخرجت للناس، آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر مؤمنة **بالله**.

وإنه لكي تلبس الأمة الإسلامية هذا الفضل الذي اختصها الله تعالى به، وتتحلى بهذا الإحسان الذي أحسن سبحانه به إليها، ولكي تكون

---

(١) لا بأس بإسناد هذا الحديث ـ إن شاء الله تعالى ـ وقال أبو عبيد: «شبه القرآن بصنيع صنع الله عزوجل للناس لهم فيه خير ومنافع ثم دعاهم إليه، يقال: مأدُبة ومأدَبة، فمن قال: مأدُبة ـ بضم الدال ـ أراد الصنيع الذي يصنعه الإنسان فيدعو إليه الناس، ومن قال: مأدَبة ـ بفتح الدال ـ فإنه يذهب به إلى الأدب» انظر هذا ـ وتخريج الحديث بالتفصيل ـ في «لمحات الأنوار» ١/ ٢٣٢ ـ ٢٣٤.

(٢) سورة البقرة: آية ٦١.

على الوصف الذي وصفها الله تعالى به في قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1] ثم لكي تولد في الحياة ميلاداً جديداً يرى فيها المجتمع الإنساني ما رأى في يومها الأول، لكي تحقق الأمة الإسلامية هذا كله أو بعضه ينبغي أن تعود إلى كتاب الله، وأن تصحبه على ما صحبه عليه الأسلاف، دستوراً عاملاً في الحياة، وحارساً قائماً على ظاهر الإنسان وباطنه جميعاً، وحكماً مطاعاً ينزل على حكمه الحاكمون والمحكومون، ويلتزم حدوده الأقوياء والضعفاء، يوم يكون هذا تعرف الأمة الإسلامية طعم الحياة فتسعد، ويسعد الناس جميعاً معها.

وهذا رمضان قد أظلتنا أيامه، وهذه ليلة القدر تنتظرنا على طريق رمضان، وهذا كتاب الله بين أيدينا كما أنزله الله تعالى على رسوله، لم تبدل منه كلمة، ولم ينخرم منه حرف.

فيا أمة الإسلام، ويا خير أمة أخرجت للناس هذا هو القرآن فكوني أمةَ القرآن: تلاوة، وتدبراً، وتذكراً، وعملاً.

وهذا شهر رمضان فكوني أمةَ شهر رمضان: صياماً، وقياماً، واستقامة، وإحسانا.

وهذه ليلة القدر فكوني أمةَ ليلة القدر: صفاء روح، وطهارة نفس.

إنك إن تفعلي ثَبَّتَ الله خَطْوَك على الحق، وألبسك ثوب العزة والمجد، وأقامك على الصفة التي نزل بها القرآن في وصفك والتنويه بك، وجعلك شهادة حية، مشرقة الجبين، عالية الصوت لما يرتل

---

(١) سورة آل عمران: آية ١١٠.

المرتلون، ويسمع السامعون من كلمات الله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾..

إنها مسئولية كل مسلم عن نفسه، وعن أمته، وعن كتاب الله، لا تبرأ منها ذمة أي مسلم حتى يكون أقرب ما يكون إلى القرآن الكريم، بحيث يأمر ويأتمر بما أمر به القرآن من معروف، وبحيث ينهى وينتهي عما نهى عنه القرآن من منكر، والله سبحانه وتعالى يقول فيما أنعم به علينا بالقرآن، وبما لهذه النعمة من حق يجب أن يؤدى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ (١) (٢).

---

(١) سورة الزخرف: آية ٤٤.

(٢) «الوعي الإسلامي»: السنة ٨، العدد الثالث والتسعون، رمضان سنة ١٣٩٢، ص ٨٨ـ٩٧، بتصرف.

رمضان والقرآن

للأستاذ معوض عوض إبراهيم

قال الأستاذ:

لم يحظ شهر من الشهور في دنيا الناس بمثل ما حظي به شهر رمضان من تنويه القرآن الكريم به، وإشادته بأحداثه الكبرى في أيامه ولياليه، وبافتراض الله صيامه على أمة محمد صلوات الله عليه مقروناً بحكمة اللطيف الخبير في إيجاب هذا الصيام، وبيان مَن فرضه الله عليهم، ومَن عذرهم من أدائه، ورضي منهم بقضائه، ومن أسقط برحمته هذه الفريضة عنهم، وأوجب عليهم فيها الفدية، وبيان ابتداء يوم الصوم وانتهائه، والإلماع[1] إلى الآداب التي يثمرها الصوم في أنفس المؤمنين، وإلى سنة الاعتكاف التي هي إحدى ملامح الشهر الكريم، الذي ذهب بشرفه طائفة من أمهات الفضائل، في القمة منها نزول القرآن إيذاناً باصطفاء محمد صلوات الله عليه وابتداء طور جديد من أطوار الحياة، هو قيام أمة أنهى الله إليها بمحمد ورسالته وأمره إلى خلقه وكلماته إلى الناس حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

والقرآن الكريم في حياة البشرية ليس ككل كتاب سبقه، ولا هو

---

(١) الإشارة.

شأن عادي كسائر الشؤون التي تعرض للناس في شتى الظروف، فهو كتاب الله الذي يعلم السر في السموات والأرض ويعلم من خلق وهو أصدق الحديث، وأحسن القصص، والسجل الواحد، والثَبَت[١] الفرد الذي لم تعرف الحياة منذ نزل القرآن كتاباً تصدق نسبته إلى السماء سواه، ولا يجد المؤمن بدّاً من أن يخفض له الجناح ويكبح من نفسه الجماح، ويرتبط به كلما غدا أو راح؛ فلا يخفق فؤاده إلا به ولا ينبض قلبه إلا معه ولا ترنو عينه لغير إشاراته، ولا يرهف سمعه إلا لدلالاته وتوجيهاته، ويكون طماحه وأشواقه في مرضاة الرحمن ووفق ما رسم الصادق الصدوق صلوات الله عليه بقوله: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**»[٢].

ولقد جاءنا الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالقرآن من لدن حكيم حميد، وأمره الله أن يحكم به وثاق المؤمنين ويدعم صفهم، ويروي فيهم شجرة إيمان ينمو مع الزمان ويحمد أهله خيره وفضله أينما اتجهوا وقلبوا أبصارهم في جوانب الحياة، وقَلَّ أن تُوحِشَ المؤمنَ والقرآن معه وِحْدة أو تطارده وحشة أو تخفى عليه معالم الهدى؛ فإن القرآن الكريم يؤنس وحدته، ويقهر وحشته، ويهديه من ضلالة، ويعلمه من جهالة، ويملأ أعطافه بالثقة والإعزاز اللذين يصيران إليه من قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

والقرآن الكريم أعطى المنصفين ـ وهو يعطيهم إلى آخر الزمان ـ

---

(١) الثبت بمعنى السجل.
(٢) صحيح مسلم.
(٣) سورة المنافقون: آية ٨.

الدين والدنيا على سواء، ويفسح المجال في مدارج الشرف والكمال حتى يكونوا باتباع هداياته امتداداً صادقاً وبنين شهوداً لأوائلهم الذين يقول الله فيهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(١).

ولن يجد الأحياء هداهم ولا أمن دنياهم في غير رحاب القرآن، قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾(٢).

ورمضان حقيق بكل إشادة في القرآن ومثلها معها؛ فهو شهر الإسلام، وليس وراء الإسلام من هبات الله ومن مفاخر الحياة ما يوضع أمامه في كفة ميزان ولقد أبصر الذي قال:

ألم تـر أن السيـف ينقـص قـدره   إذا قيل هذا السيف خير من العصا

وجلت منّة الله الذي يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾(٣).

قال الإمام أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية في كتابه: «مفتاح دار السعادة»:

---

(١) سورة آل عمران: آية ١١٠.
(٢) سورة طه: آية ١٢٣ ـ ١٢٧.
(٣) سورة المائدة: آية ٣.

«وإذا تأملنا الحكمة الباهرة في هذا الدين القويم والملة الحنيفية والشريعة المحمدية التي لا تنال العبارة كمالها ولا يدرك الوصف حسنها ولا تقترح عقول العقلاء ـ ولو اجتمعت وكانت على أكمل عقل رجل منهم ـ فوقها، وحَسْب العقول الكاملة الفاضلة إن أدركت حسنها وشهدت بفضلها وأنه ما طرق العالم شريعة أمثل ولا أجل ولا أعظم منها، فهي نفسها الشاهد والمشهود له والحجة والمحتج له والدعوى والبرهان، ولو لم يأت الرسول ببرهان عليها لكفى بها برهاناً وآية وشاهداً على أنها من عند الله، وكلها شاهدة له بكمال العلم وكمال الحكمة وسعة الرحمة والبر والإحسان والإحاطة بالغيب والشهادة والعلم بالمبادىء والعواقب، وأنها من أعظم نعم الله التي ينعم بها على عباده فما أنعم عليهم بنعمة أجل من أن هداهم لها وجعلهم من أهلها وممن ارتضاها لهم، وارتضاهم لها، فلهذا امتن على عباده بأن هداهم لها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

وقال معرفاً لعباده ومذكراً لهم عظيم نعمته عليهم، مستدعياً منهم شكره على أن جعلهم من أهلها: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية.

قال: وتأمل كيف وصف الدين الذي رضيه لهم بالكمال، والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام، إيذاناً بأنه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل ولا شيء خارجاً عن الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حسنه

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٦٤.

وجلالته، ووصف النعمة بالتمام إيذاناً بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها، بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدار وفي دار القرار.

وتأمل حسن اقتران التمام بالنعمة، وحسن اقتران الكمال بالدين، وإضافة الدين إليهم، إذ هم القائمون به المقيمون له، وإضافة النعمة إليه؛ إذ هو وليها ومُسْديها، والمنعم بها عليهم، فهي نعمة حقاً، وهم قابلوها.

وأتى في الكمال «باللام» المؤذنة بالاختصاص، وأنه شيء خصوا به دون الأمم.

وفي إتمام النعمة «بعلى» المؤذنة بالاستعلاء والشمول والإحاطة، فجاء بـ«أتممت» في مقابلة «أكملت»، و«عليكم» في مقابلة «لكم» و«نعمتي» في مقابلة «دينكم»، وأكد ذلك وزاده تقريراً وكمالاً وإتماماً للنعمة بقول: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾.

وكان بعض السلف الصالح يقول: يا له من دين لو أن له رجالاً!».

هذه جوانب من الإسلام، تتواثب في الخواطر والأفهام، كلما دار الفلك بهذه الحقبة من الزمان عاماً بعد عام، والأبصار تستطلع هلال شهر الإسلام، والأرواح تهفو إلى صيام أيامه وقيام لياليه، استجابة لما كتب الله علينا، وحفاوة بأيمن الذكريات وأبرك المناسبات التي تجدد فيها عهود الولاء لله، والوفاء لدينه، والاقتداء برسوله، وشد عرى السير وراءه صحابته الذين هم من بعده أعلام الحق ونجوم الهدى، وتأمل الإسلام وتكاليفه ابتغاء أن نكون بها مع الله على حال نرجو بها نصره، ونستنجزه خيره، فما عند الله من عون ونعمة لا ينال إلا بطاعته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ

ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾[١].

وتكاليف الإسـلام ـ التي نتأملها وبحق نجدد مـع الله عهود الولاء لـه والوفاء لدينه ـ عصمةٌ من شرور الحياة، وأمان من أهواء النفوس، ووسـاوس الشيـطان ودسـائسه، وهي ينابيـع تفيض على المـؤمن أبداً مزيداً من الكرامة التي لا يهبها إلا الله: ﴿۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾[٢].

والصوم الذي تقبل فريضته واحد من هذه التكاليف التي لا ينبغي أن تغيب حقيقتها عن شُراة رضوان الله، وطالبي مغفرته وهداه، حتى يصنع منا الصيام مرة أخرى الأمة الموصولة بالله، والمستجيبة لأمره، المراقبة له في كل ما تأخذ وما تدع، وقد انتصرت في ميادين ترك طعامها الضروري وشرابها الحيوي، وشهواتها المشروعة، إلى ميادين الذب عن العقيدة وتعقب الذين يحتلون أرضها، ويتهددون أمتها ويتألبون في مواطن كثيرة عليها فلا تنتهي هذه العزيمة الخيرة النيرة حـتى يأمن العبـاد وتسلم البـلاد وحتى لا تكـون فتنـة ويكـون الديـن كله لله.

ولا تُبقي في كيان المجتمع المسلم ثغراً يمكن أن ينفذ منها الذين يحسبون الصوم ـ ظالمين ـ عبادة تدعو إلى السلبية، وتشجع على الكسل والعجز عن العمل، وتورث الصائم ضعفاً في صحته وتخلفاً في الإنتاج عن أبناء أمته ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾[٣].

---

(١) سورة النحل: آية ١٢٨.
(٢) سورة الإسراء: آية ٧٠.
(٣) سورة الكهف: آية ٤.

يقول الإمام ابن قيم الجوزية في فصل عقده لبيان الحكمة الإلهية في الشرائع في كتابه «مفتاح دار السعادة»:

«وأما الصوم فناهيك به عن عبادة تكف النفس عن شهواتها، وتخرجها عن شبه البهائم إلى شبه الملائكة المقربين؛ فإن النفس إذا خُليت ودواعي شهواتها التحقت بعالم البهائم، فإذا كفت شهواتها لله ضيقت مجاري الشيطان، وصارت قريبة من الله بترك عاداتها وشهواتها ومحبة له وإثاراً لمرضاته، وتقرباً إليه، فيدع الصائم أحب الأشياء إليه، وأعظمها لصوقاً بنفسه من الطعام والشراب والجماع من أجل ربه، فهو عبادة، ولا تتصور حقيقتها إلا بترك الشهوة لله، والصائم يدع طعامه وشرابه من أجل ربه، وهذا يعني كون الصوْم له تبارك وتعالى بهذا فسر تلك الإضافة رسول الله ﷺ في قوله: «**يقول الله تعالى: كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها قال الله تعالى إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به يدع طعامه وشرابه من أجلي**» حتى إن الصائم ليتصدر بحالة من لا حاجة له في الدنيا إلا تحصيل رضا الله، وأي حسن يزيد على حسن هذه العبادة التي تكسر الشهوة، وتقمع النفس، وتحيي القلب وتفرحه، وتزهد في الدنيا وشهواتها وترغب فيما عند الله، وتذكر الأغنياء بشأن المساكين وأحوالهم، وأنهم قد أخذوا بنصيب من عيشهم، فتعطف قلوبهم عليهم، ويعلمون ما هم فيه من نعم الله فيزدادوا له شكراً، وبالجملة فعون الصوم على تقوى الله أمر مشهور، فما استعان أحد على تقوى الله، وحفظ حدوده، واجتنب محارمه بمثل الصوم فهو شاهد لمن شرعه وأمر به بأنه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، وأنه إنما شرعه إحساناً إلى عباده ورحمة بهم ولطفاً، لا بخلاً عليهم برزقه ولا مجرد

تكليف وتعذيب خال من الحكمة والمصلحة، بل هو غاية الحكمة والرحمة والمصلحة، وإن شرع هذه العبادات لهم من تمام نعمته عليهم ورحمته بهم».

فمتى يأخذ الناس ما شرع الله وأوجب من تكاليف على وجوهها الربانية؛ لتصلح بها دينهم، وتصح عقيدتهم، ويكونوا بها مرة أخرى القادة السادة في كل زمان وبكل مكان[١].

---

(١) مجلة «الأزهر»: السنة ٤٥، الجزء ٧، رمضان سنة ١٣٩٣، ص ٦٣٣ ـ ٦٣٧.



رمضان والجهاد

غزوة بدر الكبرى
للأستاذ صالح عشماوي[١]

قال الأستاذ:

في هذا الشهر المبارك ـ شهر رمضان المعظم ـ تطالعنا ذكرى غزوة بدر الكبرى، ففي اليوم السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة الشريفة، وقعت هذه الغزوة وكانت فيها قوة المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلاً، ليس معهم إلا سلاح خفيف، سبعون بعيراً وفرسان! وقد خرجوا للاستيلاء على عير قريش القادم من الشام لا للقتال.

وكان جيش المشركين تسعمائة وخمسين، وغيرهم سبعمائة بعير ومائة فرس وسلاح كثير، فالقوتان غير متعادلتين والموازنة بينهما لا تجوز في دنيا الحرب والقتال، والتقت القوتان بماء بدر، ورأى المسلمون جيش عدوهم فلجأوا إلى الله عزوجل واستغاثوه وألقوا بأمرهم إليه، فاستجاب لهم، وأمدهم بالملائكة ثبتوهم وقاتلوا معهم، ونصرهم الله على عدوهم نصراً عزيزاً ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم

---

(١) صالح عشماوي، من الرعيل الأول لجماعة الإخوان المسلمين، رافق الإمام حسن البنا مدة طويلة، وترأس تحرير مجلة الدعوة منذ تأسيسها، توفي سنة ١٤٠٤ رحمه الله تعالى. انظر «تتمة الأعلام»: ١/ ٢٣٨.

بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١].

موقعة بدر وخطورتها:

والذي يطالع أنباء موقعة بدر ويستعرض مقدماتها ونتائجها ليحس لها بمنزلة خاصة، ويدرك أن التاريخ أودع في فصولها سراً تكتنفه الهيبة، وجعل من أدوار القتال فيها موعظة خالدة لا تفتأ تتجدد ذكراها ما بقي في الدنيا قتال بين الحق والباطل، وصراع بين الظلام والنور!

وما ظنك بموقعة يكون مصيرها هو الفاصل في عبادة الله على هذه الأرض هل ستبقى أم ستفنى؟

ويشعر قائد المعركة بهذه الحقيقة الحاسمة فيلجأ إلى الله مستنجزاً وعده: «لما كان يوم بدر نظر الرسول إلى المشركين وهم نحو الألف وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ثم استقبل القبلة ومد يده وجعل يهتف: **اللهم آتني ما وعدتني، اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**» وما يزال يهتف بربه ماداً يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، وحتى نزل الوحي مطمئناً ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[٢].

وما ظنك بموقعة تكون الخصومة فيها في الله، ويكون القتال فيها بداية لسلسلة من المعارك يحتدم النزاع فيها بين الحق والباطل، هذه السلسلة من المعارك التي خاضها المسلمون ـ من بعد ـ في فارس والروم

(١) سورة الأنفال: آية ٩ ـ ١٠.
(٢) سورة القمر: آية ٤٥.

لا تحسب الصلة بينها وبين بدر مقطوعة، إنها صلة النسب بين الأصل ونتائجه، فكأن أول سيف شهر في بدر إيذان بابتداء النضال المسلح بين الباطل والحق، كلما انتهت معركة قامت أختها.

القدر يمهد للموقعة ويفرضها:

لقد فُرضت الموقعة على المسلمين فرضاً، وفوجئوا ـ على غير استعداد ـ بتحدي صناديد قريش وأبطالها لهم، ولم يكن بُدٌّ من قبول هذا التحدي، وواجه النبي ﷺ الموقف بما يتطلبه من إيمان وثقة، غير أن كثيراً من المسلمين تساءل وحاول التملص إذ كيف يواجه هذا العدو الذي لم يستعد له؟! ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾[١] ولكن القدر كان يدفع الأمور إلى مجراها الذي أعده إعداداً محكماً، فها هو ذا جمع بين الفريقين على غير موعد ﴿ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا ﴾[٢] وها هو ذا يغري كليهما بالآخر ويجعله يرى عدده ضئيلاً قليلاً ﴿ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾[٣] وها هو ذا يبعث الشيطان لينفخ روح الغرور في أتباعه وليصيح بينهم ﴿ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾[٤].

---

(١) سورة الأنفال: آية ٥ ـ ٦.
(٢) سورة الأنفال: آية ٤٢.
(٣) سورة الأنفال: آية ٤٤.
(٤) سورة الأنفال: آية ٤٨.

وهناك في المعسكر الآخر تتطور الأمور كذلك بسرعة عجيبة، فقد قام المهاجرون يتبايعون على الموت: «لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكنا نقاتل عن يمينك وشمالك ومن بين يديك ومن خلفك» وكان في وسع الأنصار أن يتحللوا من هذه المعركة فإنهم إنما عاهدوا الرسول على حمايته في بلدهم ومنعته ما دام بينهم، فإذا خرج في حرب هجومية فليس له عليهم سبيل، ولكن الأنصار لم يتحللوا، وإذا زعيمهم سعد ابن معاذ يقول: يا رسول الله قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا على السمع والطاعة، فامض لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما يتخلف منا أحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا وعدوك، إنا لصُبُر عند الحرب، صُدُق اللقاء، ولعل الله عزوجل أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله».

سلاح الإيمان:

فما الذي حمل هؤلاء الأصحاب على أن يقفوا هذا الموقف مع أن جو المعركة وجوانبها المادية لتجعل أشد الناس تفاؤلاً ينظر إلى آثارها من خلال غيوم سود؟!

إنه الإيمان بالله الذي يضع أمر الله ورسوله في جانب والدنيا كلها في جانب آخر، وإنه التسليم لله ورسوله مهما حذر العقل ونهت ظواهر الأشياء، وإنها الثقة التي لا تجادل في أن الموت في الله شرف لا يقل عن شرف النصر على الناس، وهيهات لمن يحمل هذه المبادىء أن يذل أو يهزم أو يكون بعيداً عن تأييد الله ونصره.

وهكذا جرفت موجة الإيمان كافة عوامل التردد، وجاءت الساعة الرهيبة ودار القتال، ومشى ملك الموت يقطع رقاب الكفار، وتنجست الرمال بدماء الطائفة التي آذت الله ورسوله، ووطئت أقدام المسلمين خدوداً وجباهاً طالما استنكرت أن تسجد لله رب العالمين.

يقول شاهد عيان لأبي لهب يخبره بما كان «لا تسىء يا عماه، ما كان إلا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاءوا، لقينا رجالاً لا يتلقاهم شيء ولا يقوم لهم شيء» وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

أسباب النصر:

وللنصر في كل حرب أسباب فعالة واختيار الوقت والمكان المناسب للمعركة، مثل الإعداد والتدريب وتوفير السلاح، وتوفير عنصر المفاجأة إلى غير ذلك من الأسباب، ولا بد للمسلمين أن يأخذوا بهذه الأسباب جميعاً لأنها سنة الله في كونه، وناموس من نواميس الحياة والأخذ بالأسباب من صميم التوكل على الله.

وهناك أسباب للنصر لا يد للبشر فيها؛ فللحالة الجوية دخل عميق في تصريف المعارك، وقد شاهدنا كيف يوقف البرد والثلج زحف الجيوش، وكيف توقف السحب هجوم الطائرات، وكيف يؤثر هذا وذاك في النهاية الحاسمة وكذلك الإيمان الذي يملأ القلوب بالله والثقة في

---

(١) سورة الأنفال: آية ١٧ ـ ١٨.

وعده، والإصرار والعناد من أسباب النصر، وحالة الجو بيد الله وحده وحالة القلوب كذلك بين أصابع الرحمن، وأخيراً قدرته ومشيئته ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١).

كان موقف المسلمين في المدينة بحاجة إلى تدعيم بعد ما تكاثرت فتن اليهود ودسائس المنافقين، وماذا عسى يصنع المهاجرون الغرباء بعقيدتهم بين جماهير المشركين المتألبة عليهم؟ لذلك جاءت موقعة بدر وجاء النصر فيها مكافأة رائعة لقوم ظلوا بضعة عشر عاماً مؤمنين صابرين، وعقاباً مريراً لقوم أبطرهم الطغيان وأغراهم بالعدوان ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٢).

منطق القوة:

لقد كانت غزوة بدر بداية رائعة لحياة العزة الإسلامية؛ لأن حق المسلمين ابتداءً يعتمد على القوة بجوار الدعوة، وكلما تأملت بطء انتشار الدعوة الإسلامية قبل بدر وسرعتها بعدها أيقنت أن يوماً واحداً يعمل فيه المسلمون عملاً إيجابياً لدينهم يؤثر في حياتهم أضعاف ما تؤثره الدعوات الكلامية.

مكث المسلمون ثلاث عشرة سنة يدعون إلى الله ويتكلمون ويجادلون فلم يظفروا بأملهم العظيم وهو أن تكون كلمة الله هي العليا وأن يكون الدين لله، بل كانوا مستذلين مستضعفين، حتى كان يوم بدر، ورفع المسلم سيفه، وتكلم به في رقاب الكفار كلاماً بليغاً فهمه الحمقى

(١) سورة الأنفال: آية ١٠.
(٢) سورة آل عمران: آية ١٢٣.

والأذكياء، وعقله المنصفون والمتغطرسون المتجبرون في الأرض على السواء واستمعوا له فرادى وجماعات، وابتدأوا يتأملون فإذا هو رجل مكتمل القوى الروحية والجسدية معاً.

هذه هي العبرة التي يجب أن يفهمها المسلمون من «موقعة بدر» خصوصاً أن هذه الذكرى تطالعنا وأرض فلسطين العربية مدنسة باحتلال الصهيونيين والمسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، ومسرى رسول الله ﷺ ما زال أسيراً في قبضة اليهود يدنسونه بدخول العاهرات والراقصات ويحفرون أساسه تمهيداً لهدمه وتشييد هيكل سليمان على أنقاضه!

لقد تكلم العرب كثيراً كلاماً جميلاً عن حقهم في فلسطين والمسجد الأقصى ومدوا أيديهم بأغصان الزيتون طلباً للسلام، ولكن الصهاينة المتغطرسين لم يعيروا كلامهم التفاتاً، ولم يستجيبوا لنداء السلام، وظهر للعالم أجمع أنهم يريدون الأرض والمزيد من الأرض حتى يستكملوا دولتهم «من النيل إلى الفرات»!

فمتى يتكلم المسلمون «بمنطق بدر» ليفهم المنصفون والمتغطرسون، وليستردوا وطنهم المسلوب وحقهم المغصوب؟! إن الحق الضعيف خفيّ لا يظهر، أما الحق القوي فسلطان لا يقهر، على المسلمين أن يأخذوا بأسباب النصر فيعدوا ما استطاعوا من قوة، ويضعوا الخطط ويجمعوا السلاح، ولكن إياكم أن تنسوا أن العبرة باليد التي تحمل السلاح، ولن يكون السلاح فعالاً بتاراً إلا إذا حملته الأيدي المتوضئة، والقلوب العامرة بالإيمان بالله، والثقة في نصره.

عليكم أيها المسلمون بسلاح الإيمان، فهو السلاح الوحيد الذي لا يوجد في ترسانة الغرب أو الشرق، والإسلام هو الإسلام، يخرج الرجال

ويصنع الأبطال في كل زمان ومكان، وما على المسلمين إلا أن يلجأوا إلى الله، ويملأوا قلوبهم بالإيمان به والثقة في وعده، ويحكموا شريعته في كل أمورهم، ويعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا.

ولهم عندئذ أن ينتظروا نصره وتأييده، فلن يخلف الله وعده، ومن أوفى بعهده من الله؟

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١] [٢].

---

(١) سورة الروم: آية ٤٧.

(٢) مجلة «الدعوة»: السنة ٢٧، العدد السابع والعشرون، رمضان سنة ١٣٩٨، ص٢٠ ـ ٢١.

١٧ رمضان يوم الاتحاد والجهاد والنصر

للأستاذ أحمد حسن الزيات

قال الأستاذ:

كان الإسلام المهاجر من مكة الجاهلية لا يزال خافض الجناح في يثرب؛ وكان السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار لا يزالون تحت البلاء: يمتحن الله صبرهم بالألم، ويختبر إيمانهم بالفتنة، ليمحص الذين يجتبيهم لنشر الدعوة، ويعلم الذين يصطفيهم لجهاد الرسالة؛ فالقرشيون يُوَثّبون عليهم القبائل، واليهود ينصبون لهم الحبائل، والمنافقون يدسون لهم الغدر في الملَق[1]، فلما أذن الله لدينه أن يعود ولمجده أن يسود ولنوره أن يتم، أرسل جنوده الثلثمائة إلى وادي بدر، يتعاقبون على سبعين نِضواً من أباعر المدينة[2]، ويستعينون بصبر المجاهد على القلة، وبعزة المؤمن على الذلة، وبعفة الزاهد على الفاقة؛ ويسيرون... إلى ما وعدهم الله من إحدى الطائفتين؛ ولكن

---

(١) المَلَق: الوداد والتلطف: «ترتيب القاموس»: م ل ق.

(٢) النِضو: المهزول من الإبل: المصدر السابق: ن ض و.

العير الذي يفهق[1] بالثراء الضخم نجا به أبو سفيان على الساحل، فلم يبق إلا مكة الغاضبة لثروتها وسطوتها ودينها قد نزلت بالعُدْوة القصوى من الوادي مع أبي جهل! تسعمائة وخمسون من فلذات كبدها أرسلتهم في الخيل والحديد يجيشون على محمد بالغِل، ويفورون على صحبه بالحفيظة، ويرون الإسلام في هذا العدد القليل والمظهر الهزيل قد أمكنهم من نفسه، ودلهم على مصرعه.

التقى الجمعان في صبيحة اليوم السابع عشر من شهر رمضان، وكان المسلمون على فقرهم وضرهم ثلث المشركين، وكان المشركون على كثرتهم وعُدَّتهم صفوة قريش، فموقف الإسلام من الشرك كان يومئذ موقف محنة، كان بين العُدْوتين في بدر مفرق الطرق، فإما أن يقود محمد زمام البشرية في سبيل الله فتنجو، وإما أن يردها أبوجهل إلى مجاهل التيه والضلال فتهلك، وقفت مدنية الإنسان بأديانها وعلومها وراء محمد على القليب، ووقفت همجية الحيوان بأصنامها وأوهامها وراء أبي جهل على الكثيب!! فكان طريق وعَقَبة، ونور وظلمة، وإله وشيطان! فإما أن يتمزق تراث الإنسانية على هذا الصخر، ويتبدد نور الله في هذا القَفْر؛ وإما أن تتم المعجزة فتفيض الحياة على الناس من هذه البئر، ويتصل الماضي بالمستقبل من هذه الطريق، ويبدأ التاريخ عهده الجديد بهذه الموقعة!

«اللهم هذه قريش قد أتت بُخَيلائها تحاول أن تكذب رسولك! اللهم فنصرك الذي وعدتني! اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تُعبَدَ في الأرض!»

---

(١) الفهق: الامتلاء: المصدر السابق: ف هـ ق.

ذلك كان دعاء الرسول أمام العريش ووجهه إلى القبلة، ويداه إلى السماء، ورداؤه من الذهول في الله يسقط عن منكبيه فيرده الصديق ويقول: بعضَ هذا يا نبي الله فإن ربك منجز وعده!

وما هي إلا خفقة من خفقات الوحي حتى نزل الوعد بالنصر، وجاءت البشرى بالجنة، فغاب المسلمون في إشراق عجيب من الإيمان، لا يُرْسَم في أخيلتهم إلا الحُور، ولا يصور في عيونهم إلا الملائكة؛ وقذف الله في قلوب المشركين الرعب فانهار السد الغليظ أمام النبع النابض من صخور بدر، وانجاب القَتَم[1] الكثيف عن النور الوامض من ربوع يثرب، وانكشفت المعجزة الإلهية عن انتصار ثلثمائة على قرابة ألف!!

موقعة بدر الكبرى لا تذكر بخطتها وعدتها ونفقتها وعديدها في تاريخ الحرب، فلعلها في كل ذلك لا تزيد على معركة بين حيين في مدينة؛ إنما تذكر بنتائجها وآثارها في تاريخ السلم، لأنها كانت حكماً قاطعاً من أحكام القدَر غيَّر مجرى التاريخ، وعدَّل وجهة الدنيا، ومكَّن للعرب في دَوْرهم أن يُبلغوا رسالة الله، ويؤدوا أمانة الحضارة، ويصلوا ما انقطع من سلسلة العلم.

لم يكن النصر فيها ثمرة من ثمار السلاح والكثرة، ولكنه كان ثمرة من ثمار الإيمان والصدق، والإيمان الصادق قوة من الله فيها الملائكة والروح، وفيها الأمل والمثَل، وفيها الحب والإيثار، فلا تبالي العَدد ولا ترهب السلاح ولا تعرف الخطر!

---

(١) القَتام: الغبار.

بهذا الإيمان الصادق خلق الله من الضعف قوة في بدر والقادسية واليرموك؛ وبهذا الإيمان الصادق جعل الله من البادية الجديبة والعروبة الشتيتة عمراناً طبق الأرض بالخير، وملكاً نظَّم الدنيا بالعدل، ودينا ألَّف القلوب بالرحمة[١].

---

(١) مجلة «الرسالة»: السنة الثالثة، العدد مائة وثمان وعشرون، ٢٠ رمضان سنة ١٣٥٤، ص ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢.

رمضان بين تقاليد الماضي وهزائم الحاضر
للشيخ محمد الغزالي

قال الشيخ:

للجسد الإنساني وقوده الذي يحيا به ويتحرك، ويستحيل حرمان هذا الجسد من مصادر وجوده ونمائه وتنقله هنا وهنالك!

التجويع التام يقتله، والحرمان من عناصر رئيسية يثير الاعتلال في كيانه، ويفرض عليه الذبول واللغوب.

ولم يجىء في شرع الله تكليف من هذا النوع المحرج، بل جاء في السنة استعاذة النبي عليه الصلاة والسلام من هذا البلاء «**أعوذ بك من الكفر والفقر وأعوذ بك من عذاب القبر لا إله إلا أنت**»...

لكن الواجدين من الناس عندما يطعمون لا يكتفون بتناول الغذاء المطلوب لأبدانهم، بل يلتهمون مقادير أكبر، كل على قدر نهمته وطاقته!! ونحن نفتن في تزويد أنفسنا بأزيد من حاجتها، والرغبات تمتد مع التلبية المستمرة، وتألف ما اعتادت، وتطلبه إن فاتها.

وهذا الجسد العجيب قادر على اكتناز ما يفرض عليه إما بدانة مفرطة، أو قبولاً لما يشحن به، ثم عملاً صورياً فيه، ثم خلاصاً محققاً منه!! وهو الخاسر في هذا الجهد الضائع، والحياة العاقلة من حوله

تقول: لو كان هذا نصيب معدة فارغة لكان خيراً له ولها، ولكان أسعد وأرشد، وقديماً قيل:

والنفس طـامعـة إذا أطعمتهـا وإذا تـرد إلـى قليـل تقنـع!!

لعل فريضة الصيام تذكرنا بهذه الحقيقة النفيسة التائهة، لكن هناك شيئاً آخر يجيء رمضان ليذكرنا به، نحن العرب والمسلمين في أقطار الأرض كلها.

نعم، إذا كانت شهية بعض الناس مفتوحة للمزيد من ملذات الدنيا فما أحرى المنهزمين بأن تنكمش أيديهم وتغص حلوقهم، وإذا كان أهل الأديان كلها يمرحون ويهشون فما أحرى بني الإسلام بالصيام عن فنون المتع وألوان السرور، ذلك أن المرحلة التي يمرون بها لا تتحمل من ذلك قليلاً ولا كثيراً.

في أعقاب المتاعب التي تصيب الأمم، وتنتظم آلامها الأفراد والجماعات يحدث تغير شامل في السلوك القومي العام، ويزهد الصغار والكبار في فنون من المتع كانوا من قبل يألفونها، وأنواع من المرح طالما ابتهجوا أيام السلام بها.

وهذه عادة عربية قديمة، كان أسلافنا الأوائل إذا نال منهم عدو أو حل بهم مكروه هجروا تقاليد السرف والترف، وصدوا عن أسباب اللهو والمجون، وما يسمح أحدهم لنفسه بسرور غامر، وضحك عال إلا إذا نال ثأره أو استرد ما فقده، أو أوقع بخصمه مثل ما نزل به، فإذا تم له ما يبغي قال وهو مستريح:

فسـاغ لي الشـراب وكنـت قبـلاً أكـاد أغص بالمـــاء الفـرات

وقد نزل أبو سفيان، وجمهور أهل مكة على هذه العادة بعد هزيمتهم في معركة بدر فحلف أبو سفيان أن يحرم نفسه شتى الملذات حتى يدرك ثأره من محمد.

واتسق هذا المعنى في تقاليد البطولة التي شاعت بَعدُ بين المسلمين فيقول شاعرهم:

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم   عن النساء ولو باتت بأطهار!!

والمعنى أنه في ساعات الجد لا ينبغي الاكتراث بما عداه، وفي أيام الكفاح يجب على الأمم أن تقتصد اقتصاداً شديداً في مظاهر الفرح والتسلية.

وما دام أبناؤنا وإخوتنا في الجبهة، وما دامت قطع من أرضنا تحت أقدام العدو، وما دام جحد حقوقنا ظاهراً في أسلوب التبجح الذي نستمع إلى نبراته فما مكان الراحة والهدوء عند مجيء الراحة والهدوء؟

وما مكان التوسع في الإنفاق والبذل في المرفهات عند عشاق البعثرة والترفيه؟

لقد آن الأوان ليراجع العرب والمسلمون سلوكهم الخاص والعام فيحذفوا منها أساليب معايشهم وأفراحهم وأحزانهم الكثير مما لا يتفق مع أيام الحرب وليعلموا أن الكفاح طويل، وأنهم بإزاء عدو ماكر غادر تختبىء وراءه كل قوى العدوان في الأرض، وأن هدف المعركة الإتيان على تاريخهم ورسالتهم وحاضرهم ومستقبلهم، فكيف مع هذه النيات الهائلة نستخف بالأمر؟

أوَ نأذن لمشاعر الدعة والهزل أن تخامر القلوب؟

إن الأثر النفسي العظيم لفريضة الصيام هو تدريب المؤمن على ضبط نفسه، وإحكام أمره، وتقييد شهواته، فهو إذ يترك بعض الأعمال المباحة يتمرن على ترك جميع الأعمال المحظورة، أو التي تفرض ظروف المروءة وأعباء الكفاح أن يتركها، وقديماً قال رجل عزيز صلب:

يقولون: هذا مورد!! قلت: قد أرى

ولكن نفس الحر تحتمل الظما..!!

ولقد كان رسول الله ﷺ صاحب طاقة كبيرة على الحياة، مهما تباينت ظروفها، واختلف عليها العسر واليسر، والانكسار والانتصار، ولقد علم أصحابه أن الاستسلام للشهوات المادية، والحرص على نمط معين من الملذات سقوط بالهمة وخَوَرٌ في العزيمة، واسترخاء مع الشيطان.

قال عليه الصلاة والسلام يصف عشاق الليونة والرخاوة والمظاهر الجوفاء: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخَميصة**» والقطيفة والخميصة أنواع من الأقمشة الملبوسة والمفروشة تمتاز بالفخامة والنعومة، يحرص عليها طلاب الراحة وعبيد المثل الدنيا لا المثل العليا.

ويظهر أن بعض المسلمين لا يستفيدون من صيامهم هذه الآثار النفسية والاجتماعية التي تعين على خلق شعوب مجاهدة تتحمل متاعب الحصار الاقتصادي والعسكري، وأنهم حريصون في جوانب كثيرة من حياتهم على تقاليد اليسار والسعة، والتشبث بما ألفوه أيام السلام والسلامة!

وما نفكر في تحريم مباح، ولا في زجر الناس عن طيبات أحلت لهم، ولكنا نفكر في مواجهة العدو المتربص وضرورة وعي الأساس الأوحد للقائه، وهو أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم.

عندما أعلن غاندي المقاطعة السلبية، وحمل شعبه على الرضا بخيوط المغزل الهندي، وهجر الإنتاج الرائع لمصانع إنجلترا ونسيجها الرقيق الجيد كان ذلك «الصيام» بداية التحرر ونهاية الاستعمار، ولذلك يقول الشاعر العربي رشيد سليم الخوري:

لقد صام هنديٌ فدوّخ دولة
فهل ضار عِلْجاً صومُ مليون مسلم

إنني ألفت أنظار قومي إلى أننا أمام جهاد شاق المراحل، ثقيل التكاليف، وأن النجاح فيه يتطلب من الآن نظرة عابسة، ورفضاً لصفوف المباهج!!

ترى هل أستطيع أن أقترح إلغاء أفراح الأعياد؟ والاكتفاء بشعائره الدينية الرصينة وحسب؟

إن ولع العرب الشديد باللهو واللعب منته بهم بَتّةً إلى التلاشي، ودلالته واضحة على موت القلوب، وقبول الدنايا، وعشق الدنيا وكراهية الموت.

إن عبادة الحياة، وتكريس القوة والوقت لها وحدها علة قديمة بين الناس وهي العلة التي أرخصت القيم الرفيعة، وألهبت الغرائز الوضيعة، وصرفت القصد عن الله، وعلقت الهمة بالحاضر القريب، ونسيت ما عداه!!

في المجتمعات التي فتكت بها هذه العلة يقول جل شأنه: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾[(١)] ويقول: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾[(٢)].

ومظاهر هذه العلة معروفة في انتهاب اللذات من غير شِبَع، والبحث عنها دون اكتراث بحلٍّ أو حرمة، واعتبار الوجود الأرضي هو الإطار الأوحد للحس والإدراك.

فإن فات فليس عنه عوض، وإن أقبل فيجب التفاني فيه وارتشافه حتى الثمالة! إنه لا شيء بعده يُرتقب!!

وأحسب أنه في هؤلاء يقول جل شأنه وهو يذيقهم عقابه ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ۝٧٥ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[(٣)].

والمدنية الحديثة قد ضاعفت لأبنائها الفرص لعبادة الحياة والعَبِّ منها دون ارتواء، وذلك أن الشهوة تغري بالشهوة كما أشرنا آنفاً، والرغبات الإنسانية قد يضر بها القرب، ولا يزيدها الظفر إلا اشتعالاً، وعلى نحو ما قال الشاعر:

أعانقها والنفس ـ بعد ـ مشوقة ... إليها، وهل بعد العناق تداني
وألثم فاها كي تزول حرارتي ... فيشتد ما ألقى من الهيماني!

والأديان في أوربا وأمريكا عجزت عجزاً تاماً عن علاج هذا السُعار

(١) سورة الإنسان: آية ٢٧.
(٢) سورة النجم: آية ٢٩ ـ ٣٠.
(٣) سورة غافر: آية ٧٥ ـ ٧٦.

لقصورها الذاتي أولاً، ولاشتغالها مع ذلك بمحاربة الإسلام بدل أن تتعاون معه على فعل شيء ما يحفظ على الإنسانية مستقبلها المتداعي، والغريب أن المسلمين نافسوا غيرهم في التهاوي على هذه المتع والتشبع منها جهد المستطاع.

قد تقول: وما الغرابة في ذلك، أليسوا بشراً كالبشر؟

وأجيب: إنني لا أنكر على المسلمين ـ خاصة ـ أن يشاركوا الأوربيين والأمريكيين في ألوان المتاع التي اخترعوها، إنني قد أفهم أن يعود رواد الفضاء من رحلة مضنية ليلتمسوا بعض النزه البريئة أو المريبة في ليل أو نهار.

أما الذين يتسكعون بين دورهم وأجران[١] القمح والأرز، أو الذين يتركون خيامهم على مدى سهم في مراعيهم الساذجة، أو الذين يركبون سياراتهم ليجلسوا في الدواوين محسودين لا مجهودين، أو.. أو.. فما لهؤلاء والبحث عن الملذات المخترعة في الشرق أو الغرب؟؟

إن بعض الناس يذهب إلى العواصم العالمية المرموقة ثم يعود ليتحدث عن لياليها الصاخبة، فهلاّ تحدثت عن أيامها الجادة، وعن العرق المتصبب من أجساد الكادحين الصغار والكبار على سواء؟؟

إن المهندس هناك قد يغير وجهه وملبسه كله طول النهار ثم ينطلق بعد ذلك ليستجم وفق ما يفهم ويعتاد.

ويوجد عندنا من يقلده في الانطلاق الأخير، ولا يتأسى به قيد أنملة في الكفاح الذي سبقه!!

---

(١) الأجران: مواضع نشر الحنطة والشعير ونحوها وهي البيادر.

أي بلاء أصاب العرب والمسلمين حتى عَمُوا عما يجب أن يرى، وحملقوا عيونهم فيما يجب أن تغضَّ عنه، وتسترخي بإزائه؟

إنهم لو فقهوا سر الصيام، وسر الحياة العفيفة المبنية عليه لكان لهم موقف آخر، بل لو أنهم أدركوا ما كانوا عليه، وما صاروا إليه، وما تُبيته القوى المتربصة بهم لكان لهم قبل الصيام صيام، وقبل القيام سهر يطير معه المنام!!

من سنين طوال ورمضان يستقبله العرب والمسلمون بطريقة رتيبة؛ روايات أقلها جاد وأكثرها هازل تعرضها الإذاعات المسموعة والمرئية ـ أغان ـ بعضها ديّن (!) والآخر لا دين له ـ تُشَنِّف الآذان، فكاهات تخلق الأجواء الضاحكة، وتسلي الجماهير التائهة، مواعظ تقليدية ممجوجة يفر أغلب الناس من سماعها أو كتابات إسلامية في موضوعات مختارة عن عمد لتخدير الفكر وتفتير الهمم.

صور جميلة أو دميمة للمساجد والآثار الإسلامية، أحفال باهتة جرى رسمها وإخراجها بحيث تنعدم فيها الروح ويضعف فيها التأثير.

إن أعداء الإسلام لا يطلبون من أمة الإسلام أن تفعل بنفسها أكثر من ذلك!

لما مات أبو امرىء القيس الخليع الضِلِّيل قال هذا الشاعر يصف ما سيفعل: اليوم خمر وغداً أمر! لقد جعل لسكره حداً ينتهي عنده، إنه اليوم وحسب!

ومات امرؤ القيس وهو يجاهد لاستعادة مجده، ويقول لصاحبه يسليه عن هموم الكفاح ومشقات الضرب في الأرض:

فقلت لـه: لا تبك عينك، إنما نحاول ملكـاً، أو نموت فنعـذر!!

لكن جمهرة كبيرة من شباب العرب لا يزالون يقولون: اليوم خمر وغداً خمر، فمتى الصحو؟

ألا يستحـق المسجـد الأقصـى وقفـة تـدبـر واستعبـار، يتـلاوم فيهـا المفرطون، ثم يغضبون لله غضبة تمحو العار، وتدرك الثار[١]؟!

(١) مجلة «الوعي الإسلامي»: السنة ٨، العدد الثالث والتسعون، رمضان سنة ١٣٩٢، ص١٤ ـ ١٧، بتصرف يسير.

فوائد الصوم العسكرية
للواء الركن محمود شيت خطاب(١)

قال الأستاذ:

حل شهر رمضان المبارك على طلاب الكلية العسكرية سنة (١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م) وغمرت أنواره قلوب المؤمنين في كل مكان، فاستقبله قسم من الطلاب العسكريين بما يستحقه من حفاوة بالغة وصمموا على الصيام مهما تكن الصعوبات والمشاكل.

لقد تعود هؤلاء على صيام هذا الشهر المبارك حين كانوا تلاميذ في المدارس المدنية، وليس من السهل على من اعتاد الصوم أن يتخلى عنه، فهم قد تذوقوا فرحة الصائم، وبركات الصوم، وحلاوة الإيمان، وليس من ذاق كمن حرم، ومتاع الدنيا كله لا يساوي شيئاً بالنسبة إلى ما تذوقوه.

ومضى اليوم الأول من أيام الصيام، واجتمع الطلاب الصائمون على مائدة الإفطار والسحور، تحف بهم الملائكة، وترتسم على وجوههم سمات العزم والانشراح، وكما عزموا على الصوم، عزموا على

(١) محمود شيت خطاب، قائد عسكري ومؤرخ إسلامي، عاش في العراق ودافع عن فلسطين سنة ١٩٤٨، وله مصنفات كثيرة في التاريخ الإسلامي عامة والعسكري خاصة، توفي ببغداد من عهد قريب رحمه الله تعالى.

إبراز أثر الصوم في الصائم الحق معاملة حسنة للناس، وأخلاقاً محببة للنفوس، ومضاعفة للعمل المثمر البناء، وامتيازاً في النجاح دون الاكتفاء بالنجاح وحده.

كان الصائمون من طلاب الكلية العسكرية أقلية، وكانت الأكثرية تشك في إمكان الصوم وتحمل المشاق العسكرية في آن واحد، وكان المسئولون في الكلية والطلاب يتوقعون الإخفاق للصائمين في مجالي العلوم العسكرية والتدريب العسكري، وكانوا ينتظرون أن يتناقص عدد الصائمين بالتدريج حتى يتلاشى، وكانوا بين مشفق على الصائمين ومستقبلهم وبين مستهجن لإصرارهم على الصوم.

ومضت أيام رمضان يوماً بعد يوم، وعدد الصائمين يزداد كل يوم، ومضى الصائمون يثبتون عملياً أن الصوم حافز من أقوى حوافز العمل والإنتاج والنجاح، وكان من أشد المقاومين للصائمين ضابط برتبة نقيب، وكان هذا الضابط قائداً لفصيلة من فصائل الكلية العسكرية، وكان قادة الفصائل يتنافسون فيما بينهم على التفوق، وحين تفشى الصوم بين طلابه تنادى بالويل والثبور، وقد كانت فصيلته متميزة قبل رمضان فظن بعد حلوله أنها ستصاب بنكسة قاصمة، ولم ينقض الشهر المبارك إلا ولمس تقدماً مذهلاً في فصيلته فقد كان طلابه الصائمون يرتفعون كل يوم وينالون قصب السبق في التدريب والألعاب والدروس، فما حل العيد إلا وكانت فصيلته قد بلغت درجة من التفوق لا تضاهى، حتى أصبحت فصيلته ـ بفضل الصائمين ـ هي الفصيلة النموذجية بين فصائل الكلية العسكرية قاطبة، وأصبحت مضرب الأمثال في التدريب والتهذيب والعلوم العسكرية والألعاب الرياضية.

وصادفت هذا الضابط بعد عشر سنوات وقد أصبح برتبة عقيد قائداً لوحدة من وحدات المشاة في فلسطين سنة ١٩٤٨م وزرت وحدته في شهر رمضان من تلك السنة، فرأيته صائماً يقاوم الإفطار ويأمر بالصوم، ووجدت وحدته كلها ضباطاً وضباط صف وجنوداً صائمين، ووجدته مهتماً إلى أبعد الحدود بإحضار الإفطار والسحور لرجاله، فرحاً غاية الفرح بإجماع أتباعه على الصوم وحرصهم الشديد عليه.

وقال معللاً سر تحوله عن مقاومة الصوم والصائمين «لقد تعلمت من طلاب الكلية العسكرية الصائمين أن الصوم سر من أسرار التفوق والامتياز، وكنت قبل ذلك واثقاً من أن الصوم يضعف الهمم، ويحث على الكسل، ويقلل من الإنتاج وفرص النجاح».

إن كل فرائض الإسلام وكل تعاليمه خير وبركة، إذا طبقها المسلمون كما ينبغي، ولو طبق المسلمون اليوم تعاليم دينهم تطبيقاً سليماً لقادوا العالم، وسيطروا على مقاليده عسكرياً، وسياسياً وحضارياً، ولكن أين من يطبق تعاليم الإسلام كما يجب، أين؟

وطالما سمعت غير الصائمين يقولون: كيف تستطيعون الصوم عن الطعام والشراب ساعات وساعات، هؤلاء وأمثالهم لم يؤمروا بالصوم حين كانوا صغاراً، ولم يشاهدوا آباءهم وأمهاتهم يصومون، فلما كبروا استقر في أذهانهم أن الصوم صعب لا يحتمل ولا يطاق ولو أنهم صاموا وهم صغار وشاهدوا أبويهم يصومون لتغلغل حب الصوم في أفئدتهم ومعه نور الله، ولأصبحوا يقولون: كيف يستطيع المسلم القادر على الصوم الإفطار في رمضان؟ كيف يصبح المرء عبداً لبطنه؟ كيف يعصي المؤمن الحق أوامر الله؟

قبل بضع عشرة سنة ظهر طبيب ألماني كبير درس آثار العقاقير في الجسم البشري، فوجد أن قسماً منها يفيد من ناحية ويضر من ناحية أخرى فهي تبني وتهدم، وقد يكون ضررها أكبر من نفعها كما وجد أن قسماً من هذه العقاقير الطبية تترك آثاراً سيئة في الجسم، إذا لم تظهر اليوم فإنها تظهر غداً، لأنها تعتمد على المواد السامة في تركيبها.

وبعد بحوث مستفيضة أجراها ذلك الطبيب، وجد أن العلاج الطبيعي الذي يعتمد على الحمية والهواء الطلق، والتعرض لأشعة الشمس، والإيمان بالقضاء والقدر هو أنجع علاج لأمراض البشر.

وألف هذا الطبيب كتاباً عن العلاج الطبيعي، أشاد فيه بالصوم الإسلامي، وبالإيمان بالقضاء والقدر، وقال: إن هذين العلاجين أنجع العلاجات على الإطلاق.

فقد ذكر أن المعدة وأجهزة الهضم الأخرى تضرها التخمة، وأن فضلات الطعام تترك سموماً قاتلة في الجسم وأن الصوم يذيب هذه السموم بالتدريج حتى يتخلص الإنسان منها فتعود إليه صحته ويتعافى.

كما ذكر أن المكثرين من تناول الأدوية الصناعية، تكون نسبة السموم في أجسادهم أكثر من المقلين من تناول تلك الأدوية وقد أورد قول الكاتب البريطاني برناردشو عن مضار العقاقير: «لو ألقينا الأدوية في البحر لمات السمك».

وأنشأ هذا الطبيب في ألمانيا مصحاً صغيراً لم يفتأ أن أصبح مستشفى ضخماً يقصده المرضى من جميع أنحاء العالم للتطبب بالعلاج الطبيعي، ثم انتشرت مستشفيات العلاج الطبيعي في ألمانيا وفي العالم المتمدن وأصبح لهذا العلاج كراسي في كليات الطب ومختصون من

الأطباء، كما تخرج في تلك الكليات أطباء عرب يمارسون مهنتهم في البلاد العربية ويلاقون النجاح ويحظون بثقة المرضى.

وكما علل الطبيب الألماني أهمية الصوم في تخليص الأجسام من السموم علل أهمية الإيمان بالقضاء والقدر في العلاج الطبيعي فقد ذكر أن المريض الذي تنتابه الهواجس يكون قلقاً خائفاً، والقلق يقوض الجسم والخوف يحطم البدن، وهما عاملان من عوامل استشراء المرض وتفاقمه، أما الإيمان بالقضاء والقدر، فيدخل الهدوء إلى روع الإنسان ويصاول القلق والخوف، ويشيع الاطمئنان في النفوس، مما يؤدي إلى شفاء المريض.

والإسلام هو الرائد في الصوم والإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره من الله سبحانه وتعالى، ولم يكن الطبيب الألماني هو الرائد على الرغم من ادعاءاته وادعاءات غيره من الأطباء والناس.

ولكن الإسلام ـ مع الأسف الشديد ـ مظلوم حتى بين معتنقيه جغرافياً وبالوراثة ـ وما أكثرهم عدداً وأقلهم جدوى، وصدق الشاعر:

إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحداً

إن فوائد الصوم العسكرية ظاهرة للعيان، ولعل إبرازها في مثل هذه الأيام له أهمية خاصة نظراً للظروف العصيبة التي يجتازها العرب والمسلمون وهم في حرب مصيرية على إسرائيل وعلى من وراء إسرائيل من دول الاستعمار القديم والجديد.

وإحراز النصر على أعدائنا لا يكون إلا بالإيمان العميق، وهذا الإيمان هو السلاح الذي نتفوق به على الأعداء، فإذا تخلينا عنه تفوق علينا أعداؤنا بما يمتلكون من سلاح وعتاد ومكر وخداع.

في العسكرية نوع من التدريب يطلق عليه «التدريب العنيف» وهو تدريب العسكريين على النهوض بواجباتهم في ظروف صعبة، كالحرمان من الطعام والماء والترفيه عن النفس، وتحمل التعب والسهر، وقطع المسافات الشاسعة، واجتياز العقبات وعبور الموانع واقتحام العراقيل.

وأهم ما في هذا التدريب العنيف، هو الحرمان من الطعام والماء، لأن الجيش يمشي على بطنه ـ كما يقول نابليون ـ وهذا الحرمان هو الصوم.

إن الصوم يهيء الأسباب للتدريب على الحرمان عن الطعام والشراب أما بقية فروع التدريب العنيف فهي ميسورة لكل شاب سليم الصحة، ومعظم عناصر كل جيش في العالم هم الشباب.

إن ظروف الحرب قد تقتضي انقطاع سابلة الطعام والماءِ من جراء القصف الجوي أو نسف الجسور، فإذا لم يكن الجندي قادراً على تحمل الجوع والعطش يوماً أو أياماً عند الضرورة فإنه بدون شك يستسلم للأعداء ويرضخ لإرادتهم.

أما إذا كان الجندي قادراً على تحمل الجوع والعطش حتى تنجلي الغمة فإنه يقاوم الأعداء ويصاولهم ويحبط محاولاتهم لإجبارهم على الرضوخ والاستسلام.

والتدريب على الحرمان عن الطعام والشراب، هو في نفس الوقت تدريب على الصبر الجميل، ومن المعلوم أن الجندي الصابر يتغلب دوماً على الجندي الذي يُعْوِزه الصبر، وما أصدق المثل العربي «الحرب صبر ساعة».

ثم إن أعدى أعداء المرء نفسه، والرجل إذا استطاع السيطرة على هوى نفسه فأدى ما «يجب» أن يؤدى لا ما «يهوى» أن يؤدي، أصبح جندياً مثالياً في تصرفه ورجولته وإقدامه وتضحيته. وما الصوم إلا سيطرة على النفس الأمارة بالسوء، يوجهها إلى ما «يجب» أن تعمل لا إلى ما «تحب» أن تعمل.

فإذا كان الجندي مسيطراً على نفسه، فإنه يحول بينها وبين وساوسها في التولي يوم الزحف وغيره، ويحملها على التمسك بفضائل الجندية الحقة.

وصوم رمضان يحتاج إلى عزم صادق، وهذه المزية من مزايا الجندي المتميز؛ إذ لا فائدة من القرار الصائب بدون عزم على تنفيذه، ولا نصر في الحرب بدون عقد العزم على تحقيقه.

وكيف يمكن أن ينتصر الجندي إذا كان متردداً لا يقر له قرار على خطة أو رأي؟

إن الصوم يربي مزية العزم في النفوس، ويقضي على رذيلة التردد.

والصوم الإسلامي يطهر النفس وينقيها من الدَرَن، ويرتفع بها إلى معالي الأمور ويقتلع منها الخبث وحينذاك تقبل على التضحية بالمال والنفس وتطلب الشهادة أو النصر، والحرب في الإسلام هي إحدى الحسنيين: الشهادة أو النصر.

فما أحوجنا إلى جنود طاهرة نفوسهم، يقبلون ولا يدبرون، ويؤثرون ولا يستأثرون.

والصوم يحث على التعاون الوثيق؛ لأن الصائم الحق يكون قريباً

من الله بعيداً من الشيطان، فيعاون إخوته في الدين أفراداً، ويعاونهم جماعات، والتعاون مبدأ من مبادىء الحرب، فإذا تألف الجيش من أفراد متعاونين على النطاقين الفردي والجماعي، أصبح قوة لا تقهر، لأنه سيكون متعاوناً على نطاق الأسلحة المختلفة والقيادات المختلفة، ويكون هدف رجاله المصلحة العليا للأمة دون المصلحة الشخصية للفرد.

والصوم يغرس الخلق الكريم في النفوس، لأن الصائم الحق متسامح دمث، يحب لغيره ما يحبه لنفسه، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وقد يبدأ الصائم في التمسك بالخلق الرفيع في أول أمره «تطبعاً» إذا غاضبه أحد قال إني صائم، ثم يمسي التطبع بالتدريج «طبعاً» فيه.

والدين المعاملة، والنبي ﷺ بُعث ليُتمم مكارم الأخلاق، وقد وصف الله سبحانه وتعالى النبي ﷺ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1] وقد كان عليه الصلاة والسلام أعظم القادة، لأنه كان أعظمهم أخلاقاً والقائد المتمسك بالخلق الكريم، والجندي المتمسك بالخلق الكريم عناصر مفيدة ودعائم قوية لكل جيش في العالم.

فما أحوجنا اليوم إلى قادة وجنود متمسكين بخلق القرآن الكريم.

والصائم يطيع الله وينفذ تعاليمه، فيحرم نفسه من الطعام والشراب ومتاع الدنيا حتى يفطر.

وقد يكون جائعاً فيخلو إلى نفسه ويجد الطعام الشهي والشراب الهني ولكنه يمتنع عن تناولهما مرضاة لله وتنفيذاً لأوامره.

---

(١) سورة القلم: آية ٤.

هذه الطاعة في السر والعلن هي أرقى درجات «الضبط المتين» التي تنص على إطاعة الأوامر وتنفيذها عن طيبة خاطر في مختلف الظروف والأحوال دون رقيب أو حسيب.

ومن المعلوم أن الفرق بين الجندي الجيد والجندي الرديء هو تحلي الأول بالضبط المتين وتحلي الثاني بالتسيب والتمرد والعصيان.

ومن المعلوم ـ أيضاً ـ أن الفرق الأساسي بين الجيش القوي والجيش الضعيف أن الأول قوي الضبط والثاني ضعيفه لا يتميز عن العصابات بشي.

أعرف أشخاصاً يخشون رؤساءهم كخشيتهم لله أو أشد خشية، ولكنهم يعصون الله خالق الكون وفالق الحب والنوى القوي العزيز.

وطاعة المرؤوس للرئيس ما أطاع الرئيس الله واجبة، ولكن طاعة الله هي أوجب الواجبات.

فمتى يعرف الإنسان قدر نفسه، فيطيع الذي منحه الصحة والعافية والرزق والحياة؟

تلك هي مجمل فوائد الصوم العسكرية، إذا استغلها العرب اليوم واستغلها المسلمون تبدل حالهم إلى أحسن حال.

إنها تطبيق لمبادىء التدريب العنيف، وسيطرة على النفس الأمارة بالسوء، والتحلي بالعزم الصادق، وتطهير النفس من الخبث والدرن، والتمسك بمبدأ التعاون الوثيق الذي هو مبدأ من مبادىء الحرب، والتخلق بالخلق الكريم أفراداً وجماعات، والالتزام بالضبط المتين الذي

هو من أهم مزايا الجندية، والتشبث بالصبر الجميل الذي هو قوة كل جيش منتصر.

والذي أريده من إخواني قادة العرب والمسلمين أن يأمروا بالصوم ويشجعوا الصائمين، وأن ينهوا عن الإفطار ويؤنبوا المفطرين، حتى يحققوا لأمتهم وجيوشهم تلك الفوائد الحيوية والله مع المتقين، وما النصر إلا من عند الله[١].

(١) مجلة «الوعي الإسلامي»: السنة ٧، العدد واحد وثمانون، رمضان سنة ١٣٩١، ص٣٢ ـ ٣٧.

الشخصية الإسلامية

للشيخ عبد الحميد السائح

قال الشيخ:

بعد أن أعد الرسول الأعظم محمد ﷺ الشخصية الإسلامية في الفرد المسلم، في مكة المكرمة وفي أوائل عهده بالمدينة المنورة، بتثبيت الإيمان في النفوس المهيَّأة والقلوب الصافية على أرض صلبة تجابه التحديات، وتتحمَّل الهزَّات دون أن تلين لها قناة، ولو أدَّى الأمر إلى التضحية بكل مرتخص وغال، اتجه الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى أن يبني الشخصية الإسلامية الجماعية، وأن يبرز الإسلام في الجماعة، وكان من مقومات هذه الشخصية وأركانها صوم رمضان المبارك، وما أحاط بهذا الصوم، من تلاوة القرآن الكريم، وقيام رمضان، وسمات الجود والإحسان.

وكان ﷺ يلقى جبريل عليه السلام في رمضان كل ليلة حتى ينسلخ، يعرض النبي عليه القرآن، فكان ذلك للمسلمين سنة مرعية، وطريقاً محببة، يقضي الصائمون فترة من أوقاتهم في تلاوة القرآن الكريم، يتدبَّرون آياته ويأخذون العبرة من قصصه وأحداثه، ويقومون ليالي رمضان حرصاً على رضا الله، وأسوة بقول الرسول الكريم: «**من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**»، ويتَّصفون بسمات الجود

والإحسان اقتداءاً بالرسول عليه الصلاة والسلام الذي كان أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان.

ويتسابقون لتأدية الزكوات، ويتنافسون في زيادة المبرات والخيرات، وقد سئل رسول الله ﷺ: أيّ الصدقة أفضل؟ فقال: «**صدقة في رمضان**».

وقال أيضاً: «**من فطَّر صائماً كان له مثل أجره، غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيئاً**».

فكانت خصال الجماعة الإسلامية في هذا الشهر المبارك:

١ ـ امتناع عن تناول المفطرات والمشتهيات.

٢ ـ تلاوة القرآن الكريم.

٣ ـ قيام رمضان.

٤ ـ تسابق في البذل والإحسان.

٥ ـ التزام بآداب الإسلام.

تلاحظ هذا كله في الجماعات الإسلامية، سواء كنت في ظل حكومة إسلامية، أو بين فئات الأقليات الإسلامية في أي حكم أجنبيّ، حيثما ذهبت وأينما اتجهت.

ثورة الجماعة على من يثلم شخصيتها:

ومن أجل هذا تثور الجماعة الإسلامية حينما ينقض شعارها، أو تثلم شخصيتها من أولئك الذين يخرجون على الجماعة، ويتحلَّلون من خصائصها، لأنَّ في ذلك هدماً لكيانها، وقضاء على شخصيتها.

ومن هذا المنطلق تنقم الجماعة على الخنافس والهبيين وأمثالهم

الذين ينساقون وراء الآخرين في مظاهر مخزية، أو شعارات زائفة، لا تلبث أن ينجلي سخفها وتفاهتها.

الجماعة الإسلامية حريصة على الاحتفاظ بشخصيتها:

إنَّ الجماعة الإسلامية حريصة على الاحتفاظ بشخصيتها، لا احتفاظ المتزمِّتين، ولا التزام الحرفيين، ولا تقعر المتفيهقين[1]، ولا تطاول المتشدقين، وإنما احتفاظ المدركين الواعين، والتزام المؤمنين المتقين، الذين يردون عن الإسلام العاديات، ويجرِّدونه من البدع والخرافات، وينقذونه بتضحياتهم في الشدائد والأزمات، ويعيدونه كما كان ينبوعاً لكل خير، ومصدراً لكل مكرمة.

ففي صلاته تهذيب ينهى عن الفحشاء والمنكر، وفي صيامه انصراف إلى أعالي الأمور وأحاسنها ورفعة بالنفس الإنسانية عن الدنايا والسفاسف، وترفع عن المادة المطغية المفسدة إلى الروحانية المصلحة المهذبة حتى يلتحق ركبَ الجماعة الإسلامية في هذا الشهر المبارك بركب الملائكة الأخيار، والنسَّاك الأبرار الأطهار، الذين يتجرَّدون لعمل الخير وخير العمل، ويتمثَّلون في مسراهم وممارستهم بقول الرسول الأعظم ﷺ: «**خير الناس أنفعهم للناس**».

وقوله: «**الصيام جنة، فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم**».

---

(١) المتكبِّرين.

الجهاد في رمضان:

وإذا كان في رمضان تبرز الشخصية الإسلامية في الصيام وتلاوة القرآن، وممارسة الجود والإحسان فإنَّ في رمضان تبرز الشخصية الإسلامية أيضاً في الجهاد في سبيل الله، كما وقع في غزوة بدر الكبرى، للحفاظ على الدعوة الإسلامية، وتفتيت كل العقبات في سبيلها، وتذليل كل الصعاب من طريقها، حتى تصبح الدعوة طليقة في جداولها، منسابة في طرائقها، تغزو القلوب بنورها، وتستقر في النفوس ثابتة في جذورها، تحوطها قوة المؤمنين، وإعداد المجاهدين، وصبر المرابطين، ولا يخيفها قوة للعدو مهما كانت وفيرة، لأن للإيمان قوة لا تبارى، وللروحانيات المستندة للإعداد هيمنة لا تُجارى.

الفتح الأعظم في رمضان:

وإذا برزت الشخصية الإسلامية في رمضان بغزوة بدر الكبرى، وما نفحت من معان سامية، وما أعطت من دروس للمسلمين أبد الدهر في الثبات والصبر والإيمان، فإنَّ الشخصية الإسلامية الجماعة برزت في رمضان بالفتح الأعظم والنصر الأكبر يوم قاد الرسول جحافل المسلمين نحو مكة لتحطيم الأصنام الحجرية والبشرية، والقضاء على بقايا العصبية القبلية والعشائرية، ولرفع منارة التوحيد، وإعلان العدالة في أسمى صورها والتضحية في أكمل مظاهرها، وقد أعلنها رسول الله مدوية: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[1].

وتتجلّى حينئذ عظمة الشخصية الإسلامية متمثلة بخلق نبي الإسلام،

---

(١) سورة الإسراء: آية ٨١.

عقب النصر المؤزر على أهل مكة الذين أخرجوه وقاوموه، حين قال لهم: ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، هذا وذاك غاية السموّ الإنساني والرحمة الشاملة والخلق الرفيع.

وبعد: فإنَّ رمضان لم يكن شهر الانقطاع والاسترخاء، ولا شهر الاستسلام والاستخذاء، فإنه رغم ما فيه من صيام وقيام وجود وإحسان فإنَّ فيه تلاوة القرآن، الذي يقضي على المسلمين بأن يكونوا سادة أعزَّة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

ويقضي على المسلمين بأن يأخذوا حذرهم ويتأمَّلوا في مصيرهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾(٢)، ويستلزم ممارسة ما تهدف إليه الآيات الكريمات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

أيها المؤمنون الصائمون:

شهر رمضان اختصَّ الله به عباده المؤمنين ليظهروا شخصيتهم ويبرزوا خصائصهم، ويحرصوا على مميزاتهم، في إيمان المتقين وصفاء

(١) سورة المنافقون: آية ٨.
(٢) سورة النساء: آية ٧١.
(٣) سورة الصف: آية ١٠ ـ ١٣.

الأبرار العاملين، وثبات المرابِطين والمجاهدين، الذين لا يقبلون هواناً ومذلَّة، ولا تخاذلاً واستكانة، ويعلمون أنَّ رضا الله في الحرص على تعاليم الله، العمل على إعزاز دين الله، والحفاظ على مقدَّسات الإسلام، ويصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب.

وإنَّ العبادات لا تقصد لأشكالها وصورها، وإنما تقصد لما تهدف إليه من تهذيب نفسي وصفاء روحي، وقد قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: «**إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»، وقال أيضاً: «**من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**»، وقال أيضاً: «**كم من صائم ليس له من صومه إلاَّ الظمأ، وكم من قائم ليس له من قيامه إلاَّ السهر**».

فأين أنتم أيها الصائمون من تحقيق ما هدف إليه تشريع الصيام ودياركم المقدسة مستباحة، وقدسكم وأقصاكم ومقدساتكم تئن من الأسر والتشويه والحفر، والنساء والأطفال والشيوخ تستغيث ولا مغيث، وتستصرخ ولا مجيب، وفي موقعة عمورية تعرَّضت امرأة واحدة للانتهاك والأذى فاستغاث بأمير المؤمنين من مسافات شاسعة، فما كان منه إلاَّ أن جرَّد جيشه، وعمل على إغاثتها، فكان ذلك إعزازاً للإسلام، ورفعاً لراية الإيمان، وحرصاً على القيم والمقدَّسات أن تدنس أو تمس بالأذى.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾[1].

---

(١) سورة النساء: آية ٧٥.

أيها المؤمنون:

ما بالكم قد غفلتم عن واجباتكم، وأعرضتم عن حماية دياركم ومقدَّساتكم، وأضعفتم صلاتكم بالله واستكنتم إلى الراحة ومتع الدنيا وشهواتها.

فهل يكون هذا الشهر العظيم مباركاً بإحيائكم معاني الإسلام في نفوسكم وجماعتكم، وإبراز شخصيتكم وإعمار قلوبكم بالإيمان والاتساء[١] بخير ولد عدنان؟

وهل يكون هذا الشهر العظيم مناسبة لتحريك الهمم والشعور بالمسؤولية الملقاة على عاتق الفرد والجماعة في جميع شتات المسلمين ليدفعوا عن هذا الدين العظيم ما أحاط به من الشرور والفتن ويعملوا على إنقاذ وطن الإسلام ومقدسات الإسلام وشرف الإسلام من المؤامرات التي تحاك خيوطها في ظلمة الليل ووضح النهار؟

أيها المسلمون الصائمون:

إذا لم تتحركوا دفاعاً عن مقدَّساتكم ومبادئكم الإسلامية، فهبوا جميعاً للدفاع عن وجودكم وكرامتكم، ومصادر رزقكم، واعتبروا هذا الشهر شهر الجهاد بأنواعه وأقسامه، عسى أن يشملنا الله برحمته، ويحوطنا بعنايته، وينقذنا مما ألم بنا من نكبات وويلات، ويتقبَّل منا ما نقدم من صوم وقيام، وبذل وإحسان، وعمل الخير في كل ميدان، وحينئذ نرجو أن نكون من الفائزين[٢].

---

(١) الاقتداء.

(٢) مجلة «الوعي الإسلامي»: السنة ٨، العدد الثالث والتسعون، رمضان سنة ١٣٩٢هـ، ص ١٨ ـ ٢١.

رمضان يشهد انتصاراً حاسماً للمسلمين على الأسبان
للأستاذ محمد عبدالغني حسن(١)

قال الأستاذ:

إذا كان شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة قد شهد انتصار المسلمين على المشركين في غزوة بدر الكبرى، فإن شهر رمضان من سنة ٤٧٩هـ أو سنة ٤٨٠هـ قد شهد أروع انتصار للعرب المسلمين على الأسبان، أو على الروم كما يسميهم المؤرخون العرب في الأندلس.

ومهما كان الخلاف في اليوم الذي وقعت فيه غزوة بدر الكبرى من رمضان فإن أصح الأقوال إنها كانت في اليوم السابع عشر من هذا الشهر المبارك، وقد لقي فيها النبي من إجماع المسلمين على خوض المعركة ما يؤيده عزم الانتصار على دخول الحرب، مما يتضح من عهد سعد بن معاذ سيد الأوس وزعيم الأنصار للنبي ﷺ قبيل الموقعة قائلا: «والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل! قال: قد آمنا بك وصدقناك،

---

(١) محمد عبدالغني حسن، أديب كاتب ناقد، ولد في المنصورة بمصر سنة ١٣٢٥، وتخرج في كلية دار العلوم، وعمل في سلك التدريس ودرس في المعهد العالي للتمثيل وبكلية الشرطة، ثم صار مديراً للنشر بوزارة الثقافة المصري، وتولى عدة وظائف أخرى، وحصل على جوائز عدة، وله عدد من المصنفات، توفي ١٤٠٥ رحمه الله تعالى. انظر «تتمة الأعلام»: ١٠٨/٢.

وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهوداً ومواثيق على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً».

وقد اجتمع في خلال غزوة بدر من صبر المسلمين على الصيام، وعلى الجوع والظمأ، وعلى حر الجهاد، وعظم البلاء، وشدة اللقاء، ما ادخر الله به للمسلمين العزة بعد الذلة، والكثرة بعد القلة، حتى كانت الملائكة تمد المسلمين بالنصر بشرى لهم، وتطميناً لقلوبهم.

ومضى خمسمائة عام ـ إلا عشرين عاماً ـ على معركة رمضان في غزوة بدر الكبرى ليلتقي العرب المسلمون ـ في رمضان المكرم أيضاً ـ لقاء آخر مع أعدائهم من نصارى الأسبان والروم في الأندلس، فيعيد التاريخ البطولي نفسه، ويصبر العرب والمسلمون في الجهاد صبراً شهد لهم به عدوهم، فينتقل ميزان القوى من يد الأسبان إلى يد العرب، ويجمع المسلمون والعرب في موقعة (الزلاقة) أو في (يوم العروبة) بين صبر الصيام والصبر على القتال، وكأنهم كانوا يستلهمون غزوة بدر الكبرى أجمل معانيها، وأروع مشاهدها، وكأنهم كانوا يستعيدون ـ وهم في غمرات القتال ـ ذكريات بدر في شهر الصيام حيث نذر المسلمون أنفسهم لله، ولقضية الحق التي قاموا لأجلها، ومضوا في سبيلها.

ولقد كانت موقعة الزلاقة في أحد أيام الجمع من شهر رمضان سنة ٤٧٩هـ. ولما كان يوم الجمعة من أيام الأسبوع يسمى (يوم العروبة)، فقد اصطلح بعض المؤرخين على تسمية موقعة الزلاقة بموقعة العروبة، وإلى هذا المعنى يشير الشاعر ابن حمديس الصقلي في قصيدته الجزلة

التي مدح بها الأمير المعتمد بن عباد ملك إشبيلية، وأحد أبطال العرب والمسلمين في هذه الموقعة التي انتقم الله فيها من أعداء الإسلام أشد انتقام.

ولقد أبلى المعتمد بن عباد في يوم الزلاقة بلاءً حسناً حتى أثخنته الجراح من كل جانب، ولكنه استهان بها، وعدها يسيرة في جنب الله، حتى كتب إلى ابنه الذي استخلفه بأشبيلية يقول له مهوناً من شأن جراحه(١):

«الحمد لله على ما يسره وسنّاه من هزيمة أذفونس ـ أي الفونس ـ أصلاه الله نكال الجحيم، ولا أعدمه الوبال العظيم، بعد إتيان النوب على محلاته، واستئصال القتل في جميع أبطاله وأجناده، وحماته وقواده، حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها، فلله الحمد على جميل صنعه! ولم يصبني بحمد الله تعالى إلا جراحات يسيرة ألمت، لكنها قرحت بعد ذلك...».

ويقول الشاعر ابن حمديس في تهنئة المعتمد بسلامته من تلك الجراح:

نذرت نذوراً فاقتضاني قضاءها ... إيابك من يوم العروبة سالماً
ولما وجدت الوفر أعوز راحتي ... سجدت لربي، ثم أصبحت صائما

على أن شاعراً معاصراً آخر لهذه الموقعة الفاصلة ـ هو محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز ـ يشير إلى جراحات في يد ابن عباد قائلاً:

---

(١) قال الأستاذ: «أرسل المعتمد بن عباد هذه البشرى إلى ولده الأمير الرشيد عن طريق حمام الزاجل الذي قطع الرحلة بين أرض المعركة وإشبيلية في بضع دقائق كما ذكر ابن خلكان في «وفيات الأعيان».

وقـالـوا: كفـه جـرحـت، فقلنـا أعـاديـه تـوافـتـهـا الـجـراح
ومـا أثـر الـجـراح مـا رأيـتـم فتـوهنهـا المنـاصـل والـرمـاح
ولكـن فـاض سيـل الجـود فيهـا فـأمسـى فـي جـوانبهـا انسيـاح

ومهما يكن من أمر فيبدو أن الكُلوم[1] كانت تغطي جسد ابن عباد، ويشير المؤرخ الحميري صاحب «الروض المعطار» إلى أن جراحات ابن عباد كانت تثغب ـ تسيل ـ وهو يمشي في صحبة القائد المجاهد الإفريقي يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين عقب النصر وأن كَلْم رأسه قد تورم...

كان يوسف هذا أميراً على دولة المرابطين التي قامت في المغرب الأقصى سنة ٤٤٢هـ، وكان يتأهب ـ بما أوتيه من مواهب في الخلق والخلق ـ لزعامة العرب والمسلمين في الشمال الإفريقي وفي الأندلس، وخاصة بعد أن أخذ سلطان المسلمين في الأندلس يتقلص قليلاً قليلاً، وبعد أن سقطت طليطلة سنة ٤٧٨هـ في يد الفونس السادس ملك قشتالة، وأكبر زعماء الإسبان المتآمرين على العرب والمسلمين في وقته، وجد يوسف بن تاشفين الفرصة مواتية لكي يعبر من بلاد المغرب إلى الأندلس ليتزعم قيادة الجيوش الإسلامية، ويقود حركتها ضد المعسكر الأسباني.

والحق أن موقف الأسبان أخذ يتقوى في الأندلس بعد استيلاء الفونس السادس على إمارة طليطلة الإسلامية، فقد كان المعتمد بن عباد يتعهد بدفع مبلغ من المال كل عام لألفونس السادس نظير أن يعاونه هذا

---

(١) أي جروح.

ويمده بالجنود المرتزقة ليستعين بهم على محاربة خصومه من أمراء الأندلس!! وهي سياسة كان يستعملها الأسبان ليضربوا بها بين الإخوة من المسلمين ويذيقوا بعضهم بأس بعض.

وقد ظل المعتمد يدفع هذه الضريبة المفروضة عليه للملك الفونس ولا يجد مهرباً منها، واجترأ ألفونس على حليفه ابن عباد، وأخل بالمعاهدة بينه وبينه، وصرح للمعتمد في جرأة وقحة بأنه ينوي افتتاح الولايات الإسلامية كلها في الأندلس، وأعلن الفونس الحرب على المعتمد بن عباد حليفه بالأمس، كما أعلنها على بقية ملوك المسلمين في الأندلس، وبهذا شهد العرب والمسلمون بأعينهم نتيجة السياسة التي تورطوا فيها بالسماح للعدو بتفريقهم، وبث الخلافات بينهم ليقوى في النهاية سلطانه عليهم.

ولقد تعلم الأسبان من الظروف التي أحاطت بهم منذ فتح العرب بلادهم أكثر مما تعلم العرب والمسلمون أنفسهم من ظروفهم، فحين شبت الخلافات والفرقة بين العرب أخذ الأسبان ينبذون منذ أيام ألفونس السادس خصوماتهم وخلافاتهم فيما بين أنفسهم، ويكونون جبهة موحدة ضد العرب والمسلمين، واتفقت كلمة ألفونس السادس ملك قشتالة، وسانشو الأول ملك اراجون ونافارا، والكونت برنجار ريموند على طرد العرب من الأندلس.

وهناك أفاق العرب والمسلمون من غشيتهم، ورأوا أن ينسوا ما بينهم من خصومات صغيرة ومن خلافات، وأن يتجهوا نحو أمير المرابطين بالمغرب ـ وكانت قد بلغتهم أنباء بطولته وقوته وشخصيته وآماله البعيدة لتوحيد العرب والمسلمين ـ ويلتمسوا منه معونته، بالعبور

إلى أرض الأندلس ليتولى قيادة الصف العربي الموحد ضد الأسبان.

وعلى الرغم من أن بعض أمراء الأندلس من المسلمين كان يخشى من طموح يوسف بن تاشفين المرابطي، ومن احتمال سطوته عليهم بعد انتصار العرب على الأسبان، فإن المعتمد بن عباد قد أقنع ـ بعد جهد شديد ـ بعض أمراء المسلمين بالأندلس بضرورة الاستظهار على الأسبان بيوسف بن تاشفين أمير المرابطين، وقد بلغ من خوف أمراء المسلمين بالأندلس من مطامح ابن تاشفين أنهم أنذروا أخاهم المعتمد ابن عباد بأن الملك عقيم، وأن ابن تاشفين قد تتسع مطامعه إلى ما لا حد لهم بإيقافه، وأن السيفين لا يجتمعان في غمد واحد!

فأجابهم المعتمد بن عباد قائلاً كلمته المشهورة: إن رعي الجمال خير من رعي الخنازير! أي أن كون العرب المسلمين مأكولين لابن تاشفين المسلم يرعون الجمال في الصحراء، خير لهم من أن يكونوا مأسورين لألفونس السادس يرعون الخنازير في قشتالة!

وصحت عزيمة العرب والمسلمين هذه المرة على نسيان خصوماتهم مرة في سبيل قضيتهم الكبرى، وفي سبيل كيانهم العربي الموحد ضد الأسبان.. فأرسلوا رسلهم إلى يوسف بن تاشفين بالمغرب يجددون له دعوته إلى معاونتهم، واستجاب ابن تاشفين وعبر البحر الأبيض المتوسط عبوراً هنيئاً، حتى بلغ الجزيرة الخضراء من أرض الأندلس، فاستقبله أهلها أروع استقبال، وأثار موكب المجاهد الإفريقي الحماسة في نفوس العرب بالأندلس، فتسابق أهل الأندلس إلى التطوع في الجيش الذاهب إلى ملاقاة خصوم المسلمين، وامتلأت المساجد والرحبات بالمتطوعين.

والتقى الجيشان: جيس العرب والمسلمين، وجيش الأسبان لقاءً هائلاً في يوم من أيام رمضان كما يذكر بعض المؤرخين من أمثال ابن الأثير وعبدالواحد المراكشي صاحب كتاب «المعجب».

ولم يستطع حتى مؤرخو غير المسلمين أن ينكروا شجاعة العرب في الموقعة، وصبرهم النادر على القتال، كما لم يستطيعوا ـ على الرغم مما قد يفعله التعصب ـ أن يهونوا من شأن المسلمين، فقد أشاد المؤرخ الألماني المعاصر جوزيف أشباخ بالدور العظيم الذي قام به داود بن عائشة قائد الفرسان المرابطين، كما أشاد بالدور العظيم البطولي الرائع الذي استطاع به الأمير الشجاع المعتمد بن عباد مع رجاله أن ينقذوا شرف مسلمي الأندلس.

أما دور الزعيم المرابطي يوسف بن تاشفين، فقد أشاد به المؤرخ الألماني في نصفة نادرة، ووصف شجاعته وجرأته، وهو على فرس يمر بين ساقات المسلمين يحرضهم، ويقوي نفوسهم على الجهاد والصبر قائلاً: «يا معشر المسلمين: اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين، ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة».

وما كان أشد إنصاف المؤرخ الألماني جوزيف أشباخ وهو يشير إلى غصاصة مؤرخي الأسبان من تناول أنباء هذه الموقعة التي كتب الله فيها النصر للعرب والمسلمين، فيقول في صراحة: «ويبدو من الإيجاز الذي يلتزمه الرواة النصارى إزاء هذا النصر العظيم للإسلام على النصرانية في شبه الجزيرة الأندلسية مرة أخرى كيف يتناول المنهزمون سبر هزائمهم في غضاضة وإحجام. . .».

ولقد رفع انتصار العرب والمسلمين في (يوم العروبة)، أو هي يوم

موقعة الزلاقة بالأندلس من معنويات المسلمين جميعاً، وجعلوها من أيام العرب والإسلام الكبرى، وأفاض المؤرخون في وصفها والإشادة بها، حتى لقد نسي الحميري صاحب «الروض المعطار» المنهج الذي ألزم به نفسه من الاختصار في كتابه، فأطال في وصف هذه المعركة العربية الإسلامية الحاسمة، وهو يتحدث في معجمه الجغرافي عن أرض «الزلاقة»، والتمس لنفسه العذر في الإطالة، قائلاً - يُذكر العرب والمسلمين في عصره في القرن التاسع الهجري - : «قد خالفت بشرح هذه الوقيعة شرط الاختصار، لحلاوة الظفر في وقت نزول الهموم، ووقوعها في الزمن الخامل. . . ».

ولقد صدق مؤرخنا الأمير، فإن الذكرى تنفع المؤمنين[١].

(١) «الوعي الإسلامي»: السنة الثالثة، العدد ٣٣، رمضان سنة ١٣٨٧ ص ٦٤٦١.

الصيام والجهاد
للأستاذ محمد الدّسوقي[1]

قال الأستاذ:

١ـ الجهاد في الإسلام فريضة مقدسة لحماية الحق ونشر العدل وقمع الظلم، وليس ـ كما يزعم بعض المستشرقين ـ وسيلة لحمل الناس على الإيمان بالإسلام قهراً، لأنه لا إكراه في الدين كما أنه ليس وسيلة للإفساد في الأرض، أو التحكم في الرقاب، ونهب أرزاق الشعوب واستعبادها، وآية ذلك أن المسلمين ما فتحوا بلداً، أو غزوا أرضاً إلا توارت منه صور العبودية على تباين ألوانها، وشق طريقه في الحياة قوياً عزيزاً.

٢ـ على أن الجهاد في الإسلام غير قاصر على حمل السلام وخوض معارك القتال، ولكنه يشمل كل ما يدفع الشر ويمحق الباطل؛ لتظل دائماً كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، فمقاومة شهوات النفس والانتصار عليها جهاد، بل مقدمة لكل جهاد في الإسلام، وكلمة الحق أمام سلطان جائر جهاد لا يعدله جهاد آخر، وبذل الأموال في سبيل الله جهاد فوق الجهاد بالنفس وهكذا فكل عمل يحقق للمسلم العزة

(١) محرر أول بمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

والكرامة، وأصوات الحق الذيوع والحماية، ولدعاة الباطل والسوء الضعف والهزيمة، فهو لون من ألوان الجهاد في الإسلام.

٣ـ وإذا كان جهاد النفس مقدمة لكل جهاد، أو هو الجهاد الأكبر كما جاء في بعض الآثار، فإن ما افترضه الله على عباده من فرائض يهدف في مجموعه إلى غاية واحدة هي تهذيب النفس، والسمو بها إلى آفاق عليا من التطهر والصفاء، فتصبح أهلاً للجهاد على اختلاف ضروبه وأشكاله، أهلاً لحمل الأمانة التي نيطت بها دون أن تنال منها أحداث الحياة.

٤ـ وفريضة الصيام في الإسلام لها دورها الكبير في مجال الإعداد للجهاد بالمال والنفس؛ لأن الصيام في جوهره استعلاء على ضرورات الجسد من طعام وشراب ونحوهما، وهذا الاستعلاء تدريب عملي ونفسي لإعداد المسلم للحياة العزيزة الكريمة التي خلق لها وأمر بالحفاظ عليها والدفاع دونها؛ وذلك لأن الصائم حين يمسك عن كل ما يفسد صيامه يستشعر رقابة الله وحده عليه، ويفطم نفسه عن عادتها المألوفة فترة من الزمان تكون لها بمثابة التدريب العملي على تغليب الجانب الروحي في الإنسان، فلا تتحكم فيه النزوات والشهوات، ولا يخدعه حطام هذه الحياة الدنيا، فيحيا إنساناً عزيزاً أبياً لا يرضى بالدنية في دينه ويقدم ماله ونفسه فداء لعقيدته وحريته وكرامته.

ولكي يثمر الصيام ثمراته المرجوة في إعداد النفوس للجهاد والبذل والفداء لم يكن مجرد امتناع عن المفطرات من الفجر إلى غروب الشمس، ولكنه ـ مع هذا ـ امتناع عن كل ما لا يليق بمسلم أن يقدم عليه من فحش القول وغيره، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من لم يدع**

قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه من أجله» .

وقال عمر رضي الله عنه: ليس الصيام من الشراب والطعام وحده، ولكنه من الكذب والباطل واللغو.

وقال عيسى بن ميمون: إن أهون الصيام ترك الطعام والشراب.

وبهذا يحقق الصيام رسالته الخالدة في مجال تهذيب النفوس وتطهيرها من شوائب الإثم والمنكر، وتعويدها سلوك طرائق الخير والبر والمعروف، ومجابهة شدائد الحياة بإيمان لا يضعف، وصبر لا ينفد وعزيمة لا تعرف اليأس أو المستحيل فتصل بكل ذلك إلى مرتبة التقوى الكاملة التي هي غاية الغايات في جميع العبادات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[١] .

٥ـ وإذا كان الجهاد في صوره المختلفة يحتاج إلى أناس ذوي عقيدة راسخة، وإرادة قوية، وشخصية سوية فإن الصيام يثبت العقيدة، ويقوي الإرادة، كما أنه يحمي الشخصية الإنسانية من الضعف أو الغرور، ويسلك بها سوءا السبيل، فإحساس الصائم بمراقبة الله تعالى له، وإيمانه بأنه سبحانه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء وهو الذي يعلم حقيقة الصيام يخلق لديه ملكة المراقبة لله تعالى والحياء منه سبحانه أن يراد حيث نهاه، وهذا خير ما تقوى به العقيدة ويثبت الإيمان.

وامتناع الصائم عن رغبات الجسد ولذاته ترفع على الرغائب المشتهاة، ومن شأن ذلك أن تمرن الإرادة على عدم الخضوع للشهوات فتقوى، ولا تنهزم أمام نزوة عارضة أو عَرَض فان.

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٣ .

والامتناع عن رغبات الجسد وحاجاته الضرورية من ناحية ثانية يثير الانتباه إلى تلك الحاجات والرغبة فيها والاهتمام بها، وهذا يذكر الصائم بأنه بشر يحتاج إلى الطعام والشراب كما يحتاج الحيوان الأعجم، وأنه لا يختلف عن ذلك الحيوان إلا بما تفضل الله به عليه من النطق والإدراك والتفكير وإرسال الرسل وإنزال الكتب للهداية والإرشاد.

والتذكير ببشرية الإنسان وحاجته يحول بينه وبين الغرور والاستبداد والادعاء والاستعلاء، فلا يتجاوز حدود بشريته في كل تصرف من تصرفاته.

وهذا سبيل الشخصية السوية ولا سبيل سواه، ولعن الله فرعون؛ فإنه حين نسي بشريته وحاجته اضطربت شخصيته وغابت عنه حقيقته فصاح في قومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1].

٦ـ وبعد؛ فإن الإسلام دين العزة ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] ولذلك كان دين القوة، لأنها السبيل الوحيد لتحقيق العزة والكرامة ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[3]، **«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير»**.

والقوة التي يدعو إليها الإسلام لا تعرف الاعتداء الآثم لأنها عادلة رحيمة تحرس الحق وتقضي على الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وهي روحية ومادية، روحية تتمثل في العقيدة الراسخة التي

(١) سورة النازعات: آية ٢٤.
(٢) سورة المنافقون: آية ٨.
(٣) سورة الأنفال: آية ٦٠.

ترى في الجهاد كله خيراً يتطلع إلى الفوز به المؤمنون الصادقون، ومادية تتمثل في اتخاذ كل ما يكفل للمسلمين النصر والظفر في مجالات الحياة المختلفة، وفريضة الصيام في الإسلام تحقق للمؤمنين القوة الروحية والمادية؛ فهي تطهر النفس من الأثرة والشح والانحراف، ويوم أن فقه السابقون الأولون معنى الصيام ورسالته الخالدة كانوا قوة تهاب، فعاشوا أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، ومن المصادفات التي تستحق الاهتمام أن معظم المعارك الحربية التي خاضها المسلمون السابقون وحققوا فيها انتصارات مذهلة أنقذت البشرية من التخلف والهمجية كانت في شهر رمضان، شهر الكفاح والجهاد الأكبر[١].

---

(١) مجلة «الأزهر»: المجلد ٣٩، الجزء السابع، رمضان سنة ١٣٨٧، ص٥٧٦ ـ ٥٧٨.

الصوم جهاد وإعداد للجهاد

للأستاذ عبدالرحيم فوده

قال الأستاذ:

١ـ الجهاد بمعناه العام يصدق على بذل الجهد والطاقة، واحتمال التعب والمشقة، والصبر على المكاره والخطوب، ويدخل فيه الجهاد بمعناه المعروف المألوف وهو ـ كما قيل ـ استفراغ الوسع في مدافعة العدو، فكل ما يبذل من طاقة، أو يحتمل من مشقة في سبيل دفع العدو وقمعه وردعه يصدق على الجهاد بأنواعه الثلاثة: جهاد العدو الظاهر، وجهاد النفس، وجهاد الشيطان، فالعدو الظاهر هو كما يفهم من قول الله فيه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[1]، وجهاد الشيطان كما يقول الله فيه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[2]، أما النفس فكما يقول الله فيها: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[3]. . .

---

(١) سورة الأنفال: آية ٦٠.

(٢) سورة فاطر: آية ٦.

(٣) سورة يوسف: آية ٥٣.

٢ـ ولا شك أن النفس الإنسانية عالم كبير، يموج بعضه في بعض، وتصطرع فيه نوازع الخير والشر، ثم هي إلى ذلك تحكمها غرائز مختلفة، كحب الذات، والخوف والغضب، واللهو والطرب، والمحاكاة والتقليد، وحب التملك والادخار، وهذه النوازع والغرائز إذا لم تقوّم بالتربية الرشيدة والتوجيه السليم انحرفت عن طريق الحق والخير، وعصفت في طريق انحرافها بكل ما يعترضها من الفضائل ومكارم الأخلاق، ومن ثم كان جهاد النفس هو الجهاد الأكبر. . . لأن جهاد العدو الظاهر ـ مهما تكن شدته وقسوته ـ مؤقت بزمان، محدد بمكان، أما جهاد النفس فهو دائم لازم في كل مكان وزمان؛ لأن شهواتها ونزواتها وغرائزها دائمة معها، لازمة لها، لا تنفك عنها في أية مرحلة من مراحل حياتها وإن كان بعضها يختلف عن بعض باختلاف المراحل والأطوار التي تمر بها، كشهوة اللعب في الطفولة، والحب في الشباب، والطمع في الرجولة، والسلطة في الكهولة.

فهذه الشهوات والغرائز وما يتصل بها لا بد لها من رقابة واعية، وتقويم سليم، وتوجيه راشد، وجهاد متصل، ثم إن الإنسان يتعرض في كثير من الأوقات لكثير من المؤثرات والمغريات والمثيرات فإذا لم يكن قوي النفس، منيع الجانب، عظيم الخلق، لم يثبت للأحداث، ولم يصبر على المكاره، ولم يصمد لعوامل الإغراء والإغواء.

٣ـ لهذا كان الصوم جهاداً وإعداداً للجهاد؛ إذ يعود المؤمنين الصبر على الجوع والظمأ، والحرمان من شهوتي البطن والفرج، ويصلهم بالله صياماً في النهار وقياماً بالليل، ويروضهم على الصبر

وقوة الاحتمال، ومضاء العزيمة، وسمو الهمة، والاستبسال في القتال، وإيثار حب الله ورسوله على ما سواهما من شهوات النفس ومتع الحياة وعرض الدنيا، كما يقول الله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[١].

٤ـ والواقع أن الصوم تربية نفسية هامة تصح بها النفوس المريضة، وتصلح بها الغرائز المنحرفة، وتسمو بها الهمم والعزائم، وتصفو بها القلوب والضمائر، وهذا كسب عظيم لا يقاس به كسب آخر عند من يَزِنُون الأمور بمعيار سليم، وتقدير دقيق، وبصر بالعواقب والنتائج، وقد أجمل النبي ﷺ كل هذه الثمرات والنتائج في قوله عليه السلام: «**الصوم جُنَّة**»، فهو وقاية من كل سوء وشر، وسبيل إلى كل نفع وخير، كما يفهم من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢]، فإن التقوى كما يقول الله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[٣]، وكما يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾[٤]، وكما يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[٥].

---

(١) سورة التوبة: آية ٢٤.
(٢) سورة البقرة: آية ١٨٣.
(٣) سورة الطلاق: آية ٢ ـ ٣.
(٤) سورة الطلاق: آية ٥.
(٥) سورة الطلاق: آية ٤.

٥ـ وقد اقترن هذا الشهر بكثير من الخير لا يقع تحت حصر، ففيه أنزل القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وفيه ليلة القدر وهي كما يقول الله: ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[١] وفيه خاض المسلمون معارك النصر في غزوة بدر وفتح مكة، ومعركة عين جالوت مع التتار، ومعركة المنصورة مع الصليبيين، ولهذا ينبغي أن يتلقاه المسلمون باستبشار، وأن يعدوا أنفسهم فيه لجهاد أعدائهم وأعداء دينهم، فإن الكارثة التي حلت بالمسجد الأقصى وهو ثالث المساجد التي تشد إليها رحالهم تتقاضاهم أن ينفروا خفافاً وثقالاً للجهاد في سبيل الله وتحقيق معنى الإيمان بالعمل على هداه، فقد قال تعالى وقوله الحق: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[٢] وقال جل شأنه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ﴾[٣] [٤].

---

(١) سورة القدر: آية ٣.
(٢) سورة الحجرات: آية ١٥.
(٣) سورة النور: آية ٥٥.
(٤) مجلة «الأزهر»: الجزء ٧، السنة ٤١، رمضان سنة ١٣٨٩.

مواكب النصر في رمضان

للأستاذ إبراهيم علي شعوط[١]

قال الأستاذ:

١ ـ نزول القرآن في هذا الشهر:

شهر رحلة روحية يقطعها المؤمن ذهاباً إلى ربه محاولاً بكل إمكانياته التخلص من سيطرة المادة، ويجد المؤمنون فيه لذة كبرى للركون الروحي والإحساس النفسي بأن تلك العبادة تنزيه للبدن وسمو به في آفاق الروح الخالدة مع بارئها في شوط طويل من العبادة والتبتل والتخلص من الثقل المادي فتنطلق الروح محلقة في آفاق تتلاشى عندها كل الشهوات واللذات.

ولعل هذا الشهر قد اختصه الله من حيث وضعه الزمني بخصائص لا تكاد توجد ـ بل لا تكاد تدرك ـ إلا في هذا الشهر، ثم جعلها المولى سراً من أسراره، وخاصة من خواصه فاختار زمان شهر رمضان من خواصه

(١) إبراهيم شعوط، كاتب المقالة عنده تشوش في مسائل مهمة من شرعنا وتاريخنا، وقد صنف كتاباً سماه «أباطيل يجب أن تُمحى من التاريخ» وفي هذا الكتاب ضلال وأباطيل ردها الأستاذ حسني شيخ عثمان في كتاب صنفه بهذا الخصوص سماه «أباطيل الأباطيل» فليُعلم هذا، والله الموفق.

فاختار زمان شهر رمضان ليكون فيه مطلع النور، ومنه مصدر وميض البرق الذي بدد الضلال والظلام الملتصق بالأرض والسماء وجعل وجوه العالم كلها تشرق فيه حين أشرقت في سماء رمضان آيات القرآن الكريم الذي نزل على رسول رب العالمين ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾(١).

في الغار المظلم في جبل حراء انقدحت أول شرارة أضاءت في آفاق مكة وأرسلت شعاعها الخالد إلى كل أنحاء العالم، فكانت الكلمة الأولى هي الخطوة الأولى في سبيل العلم والمعرفة دفعت البشرية كلها إلى طرق أبواب العلم بكل إمكانياته.

دعوة دوى رَجْعُها في جنبات العالم حين قال الله لرسوله اللاجىء إليه في غار بعيد مظلم يلتمس منه الهدى والمعرفة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(٢).

للشهر العظيم سر، وللصوم فيه معنى يدركه الذين تجردوا من شهواتهم وكبتوا كل رغباتهم في سبيل الله حتى صارت رائحة أفواههم أطيب عند الله من ريح المسك. وهناك من قصار النظر من يعتقد أن شهر رمضان فترة زمنية يخلد فيها المسلمون إلى الكسل، ويعتري عزائمهم الفتورُ والضعف، ومما يؤسف له حقاً أن هذا الخاطر يسري في عقول الكثيرين من أبناء الأمة الإسلامية، فيجعلون من رمضان شهر النوم والبطالة والكسل، ويلتمسون مبررات لإهمالهم وتقصيرهم في أداء واجبهم.

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٥.
(٢) سورة العلق: أية ١ ـ ٥.

ونحن في هذا المقال نعرض للمسلمين شهر رمضان ونطوف معهم فيه بمواكب النصر التي حققها الصائمون في رمضان، ونكشف سر الطاقة الروحية التي قهرت الأحداث والأعداء، وخلقت في أمة الإسلام روحاً وثابة تصل إلى غاياتها في عزة الصائمين وكرامة المؤمنين.

باستعراض الحوادث الكبرى والمواقف الحاسمة في التاريخ نجد أن المولى جل جلاله عندما يريد النصر لأوليائه يختار لهم الزمان والمكان اختيار الذي وضع سره في اقتران الزمان بالمكان ليحقق الوعد الذي وعد، والنصر الذي يرفع به هامات أوليائه وينشر به دينه، ويؤيد به الحق الذي جاء على لسان رسوله.

٢- موقعة بدر:

كان الزمان الذي دبرته العناية الإلهية لمعركة بدر شهر رمضان حيث كان كل مسلم في عبادة روحية لا يشوبه فيها رياء ولا يفارقه فيها الإخلاص، في صيام وحرمان يسد منافذ الجسد المطلة على الشهوات ويهتك الحجب الكثيفة التي تحجب الأنوار، ويفسح المجال أمام الروح لتنطلق من قيوم المادة وتسبح في آفاق عليا لا يصل إليها إلا من أضناه الجوع والعطش لله وفي الله.

موقعة لم يحدد المسلمون زمانها ولا مكانها ولكن الله هو الذي حدد الميعاد فقال لنبيه: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾[1].

من أجل الزمان الذي حدثت فيه هذه الموقعة الكبرى لم تكن منزلة

---

(١) سورة الأنفال: آية ٤٢.

بدر بين حوادث التاريخ أنها معركة حربية انتصر فيها فريق على فريق، أو لأنها انجلت عن عدد من القتلى وجملة من الأسلاب فكم من معارك حربية كان حصادها من القتلى آلافاً ومن الأسلاب والغنائم ما لم يخطر على بال.

وإنما أخذت موقعة بدر مكانها في التاريخ بزمانها الذي أُقت لها ومكانها الذي التقى فيه طرفاها لأنها قلبت الميزان السياسي والاجتماعي والاقتصادي في جزيرة العرب، وانتزعت السيطرة من اليد التي كانت فيها ووضعتها في يد الصفوة المنتصرة من المؤمنين.

وأصبح الزمن كله ـ من يومها ـ مديناً لهذه الغزوة لأنها وضعت أساس دولة جديدة على أنقاض نظام منهار وسارت بركب الإنسانية في طريق الهدى والنور، ولقنت العالم كله مبادىء لم تكن لتخطر لأحد من البشر على بال.

وكان المكان (بدراً) بين العدوة الدنيا والعدوة القصوى، وكان موقف المؤمنين بالعدوة الدنيا حيث كانت الأرض ثابتة تحت أقدام الصائمين، وكان الماء تحت سيطرتهم وحدهم، وكان مكان رسول الله ﷺ على شُرف عال يدير منه المعركة ويتلقى توجيهات ربه الذي يدير له المعركة، ويتولى عنه نحر أعدائه الذين اغتروا بكثرتهم ويسجل عليهم الخزي أمام العالم كله.

زمان مختار في شهر مبارك ومكان منتقى لتدور المعركة فيه كما أراد خالق الزمان والمكان، منّ الله عليهم بالنوم قبل الموقعة، وأنزل عليهم مطراً طهرهم به، وأذهب عنهم رجز الشيطان، ووطأ الأرض وصلب به الرمل وثبت الأقدام: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾(١).

ضراعات إلى الله من أفواه الصائمين المعطرة بخلوف الصيام واستغاثات من المسلمين الذين هم في طاعة مولاهم منطلقين إلى رضا رسول الله ﷺ يقدمون أرواحهم فداء للنداء الموجه إليهم من ربهم ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾(٢).

لما كانت الضراعات الموصولة بالسماء من القلوب الصائمة والبطون الجائعة تصل إلى الملأ الأعلى في تجاوب وإخلاص أجاب المولى هذه القلوب الخاشعة الضارعة بقوله: ﴿أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾(٣) كما أوصى إلى المدد الملائكي بقوله لهم: ﴿أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾(٤) ثم يبالغ المولى في نصرة الصائمين وإمدادهم بإمكانيات النصر كلها بعد ما تبين من طهارة قلوبهم بالحرمان من شهوات نفوسهم وجهارة أصواتهم بالدعاء؛ فيقول لرسوله وحبيبه في حومة الوغى واشتداد المعركة: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾(٥).

---

(١) سورة الأنفال: آية ١١.
(٢) سورة الأنفال: آية ٧.
(٣) سورة الأنفال: آية ٩.
(٤) سورة الأنفال: آية ١٢.
(٥) سورة آل عمران: آية ١٢٤ ـ ١٢٥.

من سياق هذه الآيات تتبين عناية الله بالصائمين المقاتلين في بدر وفي قلة من العدد وإن كانوا قد سموا بأرواحهم وجردوا أنفسهم عن المادة بصيامهم فلم تعد المادة شيئاً في أعينهم وحلقوا بأرواحهم في عالم التسليم والرضا بعد أن رأوا بأعينهم منازلهم في الجنة ورأى رسول الله ﷺ مصارع الكفار في المعركة ومواضعهم في النار.

وفي منازل القرب من الخالق منزلة الشعور بالذل والإحساس بالضعف، فمتى ذل العبد بين يدي ربه وهبه العزة على خصومه وذلك وصف القرآن للمؤمنين: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[١].

ومن أجل هذا الذل الذي هو مقدمة العز وعلامة النصر قال الله لأهل بدر الصائمين في المعركة الخاشعين في العبادة الأذلاء في الضراعة قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢].

وأي إكرام أعلى من ترتيب المولى لمواكب النصر في شهر رمضان، وفي الموقعة الأولى بين أوليائه وأعدائه؟ أي إكرام بعد أن كانت عناية الله بالمعركة واضحة في إمداده أحبائه بألف من الملائكة مردفين، ثم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ثم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين.

إن اختلاط الملائكة بالمؤمنين في موقعة بدر لم يتم إلا بعد أن تجرد المؤمنون من سيطرة المادة وإغراء الشهوات وارتفعوا بأرواحهم إلى صفوف الملائكة الذين وجدوا في طهارة روحهم، وفي مهارة رميهم ما جعل الضربات يلتقي بعضها ببعض حتى كان يكفي المؤمن أن يحرك

---

(١) سورة المائدة: آية ٥٤.
(٢) سورة آل عمران: آية ١٢٣.

سيفه فتجهز الملائكة على خصمه فإذا بالرؤوس تتطاير، وإذا بالصفوف تنهار ولم يدرك السر إلا بعد أن أعلن الله للمؤمنين مشاركة الملائكة لهم في المعركة.

٣ـ فتح مكة في رمضان:

من يمن هذا الشهر، ومن طهر الصائمين فيه، ومن سمو الروح وتحليقها في مجالات ربانية تطلب منه العون وتبذل من أجله الروح تمت في هذا الشهر أحداث كبرى وأعمال جليلة اكتسب فيها المسلمون النصر والظفر بطهارة الروح وبذل المهج عبادة لله وطلباً للشهادة وإحساساً بحلاوة الجهاد والبطون خاوية والقلوب ظمآى في سبيل الله.

لم تكن مجرد الصدفة هي التي جعلت رسول الله ﷺ يخرج بكتائب الإسلام وجنود الرحمن في العام الثامن للهجرة وبعد مضي عشرة أيام من رمضان ويقرر في نفسه عزماً أكيداً على فتح مكة، هذا الفتح الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله الله مهوى أفئدة الناس أجمعين.

هذا الفتح الذي استبشر به أهل السماء ودخل الناس به في دين الله أفواجاً، وأشرق وجه الأرض، وزحفت جحافل الجيش الصائم لتدعو بسحرها وسرها أقواماً ضالين إلى هداية الإسلام.

تحركت الجموع مع رسول الله ﷺ إلى مكة في الحادي عشر من رمضان وفي قلوبهم التيمن بشهر رمضان وفي نفوسهم الأنس بعبادة الصوم فكانوا كلما أغذوا السير وتقدموا انضم إليهم من سائر القبائل من يزيد في عددهم ومنعتهم، وسار على رأسهم رسول الله ﷺ يفكر في

دخول البيت الحرام في شهر الصيام من غير أن تراق قطرة دم واحدة.

وبلغ الجيش (مر الظهران)[١] قرب مكة وقريش لا تعلم شيئاً عن هذا الجيش الجرار، وأمر الرسول بالفطر من شدة الحر.

وهناك في مر الظهران أخذت طلائع الراغبين في الإسلام تستقبل رسول الله في جيشه معلنة إسلامها، وكان للعباس بن عبدالمطلب عم رسول الله دور خطير في التمهيد لفتح مكة وتحقيق رغبة رسول الله في أن يتم الفتح بسلام من غير اصطدام أو إراقة دماء.

ومع ما استقبل به رسول الله من الرضا والتسليم فإنه فرق الجيش إلى مجموعات تدخل مكة من كل مداخلها دفعة واحدة ثم نزل ﷺ (الحَجون) على مقربة من قبر خديجة وعمه أبي طالب وضربت له قبة هناك فلما سئل: أيريد أن يستريح في بيته؟ قال: **«كلا فما تركوا لي في مكة بيتاً»**، ثم أجال بصره في جبال مكة وشعابها ومنازلها المبعثرة هنا وهناك وفي البيت الحرام الذي يقع في مكة في وسطها، فلما وضحت في ذهنه هذه الصورة ترقرقت في عينه دمعة الشكر العميق للمولى سبحانه وتعالى ممزوجة بلذة النصر الذي حققه له ربه، وأدرك أن مهمة القائد قد انتهت فركب من فوره ناقته القصواء وسار بها في مدارج صباه، وذكرى طفولته حتى بلغ الكعبة فطاف بها سبعاً على راحلته يستلم الركن بعصا في يده، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة ففتح الكعبة ووقف الرسول على بابها ثم قال: **«لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»**، ثم تكاثر الناس حوله حتى امتلأ بهم المطاف فتلا

---

(١) وادي فاطمة الآن.

عليهم قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[١]، ثم قال: «**ألا كل دم أو مأثرة أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج: يا معشر قريش: ما تظنون أني فاعل بكم؟**» قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

نفحات رمضان عطرت فم رسول الله فما يخرج منه إلا عطر، وما يفوح إلا بالمسك فتجاوز عن جرائم قريش الماضية كلها، صفح عن كل ما تقدم من أعمالهم الرهيبة، مسح قلبه الصائم من آثارها كلها فلم يشترط عليهم شرطاً للمستقبل، ولم يسترد منهم حتى ملكات المهاجرين التي استولت عليها قريش عقب هجرتهم إلى المدينة، بل طلب من المهاجرين أن ينزلوا عن كل حقوقهم القديمة. فتحت مكة أبوابها للمسلمين الصائمين، لكنها حين رأت من رسول الله ﷺ سماحته ونبله وكرم أخلاقه فتحت له قلوبها فكان هذا الفتح أجل وأعظم من أن تصل إليه سيوف المسلمين إذا كان اعتمادهم على السيوف وحدها فلانت قلوب ما كانت لتلين، وتأثر قساة القلوب وغلاظ الأكباد بمبادىء الإسلام القوية السامية.

٤ ـ غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة[٢]:

ويدور الفلك بالشهور والأيام ليجعل من شهر رمضان شهر يمن وبركة على المسلمين في مواقعهم الحربية التي يخوضونها في هذا الشهر.

---

(١) سورة الحجرات: آية ١٣.

(٢) من المعروف أن غزوة تبوك في رجب وليست في رمضان، والله أعلم.

كانت آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ هي غزوة تبوك وأدركها يمن رمضان حيث حمل أعباءها جيش العسرة الذي تبارى في تجهيزه صحابة رسول الله ليكشفوا عن إيمان عميق وتضحيات رفعت من قدرهم وصارت نماذج رائعة لبذل الأموال والمهج في سبيل نصرة الإسلام ومؤازرة الرسول، كما أن هذه الغزوة سجلت للمسلمين قوة كامنة يستطيعون بها أن يتحدوا دولة الروم ويطرقوا أبواب القياصرة في قوة وإصرار.

بلغ الرسول ﷺ أن قيصر الروم قد سلح القبائل العربية المقيمة على حدود الشام فأمد قبائل لخم وجذام وغسان بكل ما عنده من أسلحة لينقض بهؤلاء مع الجيش البيزنطي على أتباع محمد ومعتنقي الدين الجديد، ثم ذهب «هرقل» قيصر الروم بنفسه إلى مدينة حمص في أرض الشام ليدير بنفسه العمليات الحربية ضد محمد وأتباعه.

وأعد رسول الله جيشاً جراراً ليقضي على كل أساليب التهديد التي يتبعها هرقل ومن معه ورغم أن هذه الغزوة لم يحدث فيها قتال فإنها سجلت نصراً مؤزراً للمسلمين حيث انسحبت الجيوش الرومانية من مواقعها لما عرفوا قوة الجيش الإسلامي والروح التي تسوده من الرغبة العارمة في خوض المعركة الفاصلة بينهم وبين الروم.

ولما انفرد رسول الله ﷺ بالسيطرة على مواقع الروم، وعلمت القبائل المجاورة فرار الروم من وجه المسلمين أقبلت كل جماعات العرب المقيمين قريباً من الحدود الرومانية أو الواقعة ديارهم في طريق عودة المسلمين أسرعوا إلى عقد الصلح مع رسول الله، والارتباط معه

بمعاهدات الصداقة التي أمنت حدود الديار الإسلامية وألقت الرعب في قلب أكبر دولة عرفها العرب منذ قديم.

٥ ـ موقعة الفراض في عام ١٢هـ:

وهذه معركة رمضان أيضاً لها طابع جديد في مجرى الفتوحات الإسلامية، وهي تعتبر نقطة تحول في سير الحروب ضد الفرس، وهذه المعركة قائدها خالد بن الوليد، وقد اقتضى هذا الموقع توجيه الحرب وجهة جديدة لم يكن خالد ولا أبوبكر ليفكرا فيها إلى ذلك الحين.

وترجع أهمية موقعة الفراض إلى أنها أول موقعة يتحالف فيها الفرس والروم ضد المسلمين، وأنهما بتحالفهما هذا حملا المسلمين حملاً على أن يدخلوا حتماً في حرب مع الروم الذين شعروا أن قضية الفرس إنما هي قضيتهم، وبدا للمسلمين أنه ليس من الحكمة أن يقتصر الأمر على فتح فارس بل لا بد أن يخوضوا معارك دامية مع حلفائهم الذين اعتبروا المسلمين عدواً مشتركاً بين الدولتين.

ومن أجل ذلك لم يعد في إمكان المسلمين أن يتركوا الروم بعد ما ظهرت نواياهم بالانضمام للفرس في معركة الفراض، وذلك أن فلول الفرس وعرب العراق الذين فروا أمام جنود خالد في معركة «الحصيد» و«الخناقس» استمر بهم الإمعان في السير شمالاً، وجنود خالد من ورائهم حتى وصلوا «الفراض» وهي تطل على حدود الروم ولا يفصل بين الدولتين في هذه المنطقة سوى نهر الفرات.

وهناك اجتمع الحلفاء من الفرس والروم وعرب البادية والتقى

الجمعان في رمضان والأكباد صادية[١] والبطون خاوية والصائمون مع الله في صلح ومحبة، فكلما ظنوا بأنفسهم الضعف زادهم الله قوة، وكان خالد بن الوليد يدرك قوة الروح في جنده فأمرهم أن يلحوا على أعدائهم ولا يرفعوا أيديهم لحظة عن الطعن والإجهاز على عمالقة الدولتين، وهدم الكيان الفارسي والرومي على مرآى ومسمع من شعبيهما على ضفتي الفرات.

وقد أبدى خالد من فنون القتال ما لم يعهده الجند في المعارك السابقة حتى انكشف الروم وحلفاؤهم وتبعهم المسلمون يمعنون فيهم قتلاً حتى بلغت ضحايا موقعة الفرائض مائة ألف قتيل بإجماع المؤرخين، على الرغم من أن الشهر كان رمضان، والفصل كان صيفاً، والمكان على مئات الأميال من المدينة.

٦ ـ فتح الأندلس في رمضان عام ٩٢هـ:

وإذا سرنا في ركب الزمن وصاحبنا قافلة رمضان المنتصرة في كل زمان، وجدنا أن المجد الذي حققه شهر الصوم لم يتيسر أبداً لشهر سواه، فحين سبحت الأرواح الصائمة مع الآمال الهائمة إلى دفع العقيدة الإسلامية إلى أوربا عبرت بوغاز جبل طارق محلقة في شهر رمضان.

ومن الغريب أن كل معركة مهمة أو فتح بلد عظيم أو مدينة كبرى في الأندلس ارتبطت بشائر النصر فيه بشهر رمضان. أمر عجيب يلفت الأنظار حقاً.

فحين أراد موسى بن نصير أن يخوض الأرض الجديدة في أوربا

(١) أي عطشة.

بالسرايا وبعث في طليعة هذه السرايا مولاه طريف بن مالك ليرتاد ويكشف مقدرات أهلها كان ذلك في رمضان حيث حقق طريف نصراً رجع بعده محملاً بالغنائم إلى قائده موسى يبشره بتحقيق الآمال إذا وصل المسلمون إلى تلك البلاد.

وحين أعد موسى بن نصير جيش الفتح للأندلس بقيادة طارق بن زياد كأنه كان يعلم أن المعركة الفاصلة ستكون في رمضان، فما كاد يدخل طارق بلاد الأندلس حتى وافاه رمضان بأمجاده الإسلامية ويمنه في المعارك الحربية، ووجد جموع القوط هناك عند مدينة «شريش» وعند مائة ألف من جنود القوط بقيادة ملكهم «لُذَريق» دارت المعركة في سهول شريش مع فجر يوم ٢٨ من رمضان عام ٩٢هـ وجال طارق برجاله جولات بددت تلك الجموع الهائلة بعد أن فقدوا ملكهم لذريق في سنابك خيل المسلمين الذين لم يزد عددهم عن اثني عشر ألفاً.

ومن أسرار رمضان العجيبة أيضاً أن موسى بن نصير حينما ذهب إلى الأندلس ليساعد طارقاً في فتحها اختار أن يكون دخوله هذه البلاد في رمضان عام ٩٣هـ، ولما اشترك في المعارك الحربية ورأى بنفسه تلك المدن المحصنة أراد أن يضرب المدن الكبرى ليفتحها على مصراعيها للمسلمين فحاصر مدينة «مارده» حصار الواثق من قوته، وأحست المدينة بمصيرها على يد موسى بن نصير فسلمت صلحاً في آخر يوم في رمضان، عام ٩٤هـ.

وليس في وسعنا سرد الانتصارات الرمضانية كلها في الإسلام كما أنه ليس في صفحات مجلة شهرية مكان يتسع لكل نصر تم في رمضان، ولعل هذا البحث يكون فاتحة لكتاب يتناول مواكب النصر كلها في

رمضان إن شاء الله، ولكننا نختم هذا المقال بهذا التساؤل: ما الذي جمع في هذا الشهر كل هذا الخير؟ وما السر الذي جعل رمضان مقروناً بالنصر والفوز في ميادين الحياة كلها؟ أهو سر طواه خالقه في زمانه، وستره عن خلقه؟ أم هو سر الصائمين المنقادين لله في الثلاثين يوماً التي احتواها رمضان؟ لعله كل ذلك[1].

---

(١) مجلة «الأزهر»: المجلد ٣٨، الجزء الرابع، رمضان سنة ١٣٨٦، ص ٦٧٧ ـ ٦٨٤.

رمضان بين الوعي والتاريخ
للدكتور محمد أديب صالح

قال الدكتور:

يدور الزمان ويعود إلينا شهر رمضان، ليسكب في قلوبنا نوراً من نوره، وفي عقولنا إشراقة من هداه، وفي نفوسنا أملاً من ذكرياته وعلاه.

وليس بِدْعاً أن يكون النسب متصلاً بين رمضان العظيم وبين كل الحوادث التي شهدها على خطه الزمني يوم نطق التاريخ بأغلى كلماته، وجادت جزيرة العرب بأعز أبنائها ليكونوا وقود الحضارة، وبناة الإسلام، وحماة الحق.

ولقد يكون من الخير أن نعاود التذكار فنشهد نزول القرآن في هذا الشهر الكريم دستور رسالة نسخت ما قبلها، وشريعة أضاءت طريق الإنسان فكان هذا الكتاب هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، كما نشهد التفاعل الصادق بين المؤمنين وبين المبادىء التي دعا إليها والمناهج التي رسمها، فهو هدىً للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقهم الله ينفقون، لقد آمنوا بالغيب إيماناً جعله وكأنه من عالم الشهادة بين ظهرانيهم حتى قال علي بن أبي طالب: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً، وأقاموا فرائض الله وأنفقوا مما رزقهم الله من مال ونفس

وولد، لقد عذبوهم حتى سالت من أعقابهم الدماء فكانت الدماء غيثاً ينبت البطولات والتضحيات، وعرضوهم على النار فكانت النار صقال نفوسهم، وكشفاً للجوهر الأصيل في إيمانهم، وكانت آخر مراحل العهد المكي أن تركوا كل شيء لله وهاجروا في سبيل الله، لم تقعدهم مخافة الرزق وشهوة المال، ولم تثقلهم عواطف النسب وأواصر القرابة، وإنما كانوا خفافاً في سبيل الله فلقد طاروا بأرواحهم على الطريق بين مكة والمدينة، قبل أن تلامس أقدامهم ومضات الرمال ومنابت الأودية، حتى أبصروا معالم الحياة من خلال هذه الطريق، لأن الغاية التي من أجلها هاجروا وتحت راياتها انطلقوا كانت أوسعَ من أن يحدها زمان انتهاء الطريق أو مكان المسافة التي تحد الطريق.

وعلى أرض المدينة مهاجر الرسول صلوات الله عليه وأصحابه شهدت الدنيا أروع تجربة عرفها الإنسان، يوم آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار حتى صاروا يتوارثون بنسب الإسلام صدراً من تلك الفترة، إلى أن نسخ ذلك الحكم بغيره كما أراد الله.

وتمضي سنتان ويخوض هؤلاء المسلمون وهم الفئة القليلة معركة إنسانية لم يكن الصراع فيها يوم التقى الجمعان صراعاً بين قريش والمجاهدين المؤمنين، وإنما كانت صراعاً مع الباطل في كل مكان على سطح المعمورة مهما تعددت المظاهر والأشكال، ولم تكن الغاية فيها تحقيق أغراض قريبة تحدها أرض أو يحكمها مكان، وإنما كانت غاية تقوم على أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن يتحرر الناس من كل عبودية إلا لله، ولقد كشف الرسول ﷺ النقاب عن وجه المعركة الحقيقي حين قال في دعائه المشهور: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في**

الأرض» لقد كانت هذه الكلمات حقيقة قائمة في تاريخ دعوات السماء، لقد كان أبطال بدر يمارسون حق الحفاظ على العقيدة التي تبدأ من التوحيد وتنتهي في أقصى ما يحفظ كرامة الإنسانية وسعادة الإنسان، فرسالتهم لم تكن لفرد ولا لقبيلة ولا لقوم وإنما كانت للإنسان ولكل بني الإنسان.

وهذا أمر أدركه حملة الراية من أول الطريق، ولو أن كل المفكرين وأصحاب العقول ائتمروا في تلك الفترة من التاريخ ليجدوا مخرجاً مما تعانيه الإنسانية يومذاك من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، ومن انتهاك لحرمة العقل بالوثنية والخرافة لما وجدوا إلا ما صنعه أصحاب بدر حين خاضوا المعركة صابرين مصابرين حتى جاءهم نصر الله وكانت العاقبة للمتقين.

ولقد برهنت هذه المعركة ـ وهي معركة الفرقان ـ أنه لا يكفي في تأييد الحق أن تتسع له القلوب وتنشرح له الصدور، بل لا بد من تأديب العادين عليه، والذود عن حياضه، وقتال كل من أراد أذيته والعدوان عليه: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾(١) فالحق لا تحميه الأماني وإنما تحميه وتحرسه التضحيات والبطولات.

وكذلك كان صنيع أهل بدر، فقد كان لهم شرف القافلة الأولى على خط البناء العظيم الذي أرسوا قواعده بجثث أبطالهم ودماء شهدائهم يوم وقفوا على مفترق الطرق فمرغوا رعونة الظلم بالتراب، وأدوا أمانة الدعوة على خير ما يكون الأداء، وبلغوا رسالتها ـ وبشكل عملي ـ خير ما يكون التبليغ.

---

(١) سورة الأنفال: آية ٣٩.

لم يكن عجباً بعد هذا أن تكون لهؤلاء الرجال خصائص، وأن تكون لهم فضيلة، نعم لم يكن عجباً أن يكون ذلك كله فيقول رسول الله ﷺ: «**لعل الله اطلع على أهل بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**».

وفي ظل حركة مؤمنة دائبة، وتفاعل إسلامي أصيل، واستجابة صادقة للدعوة يلقي بها الوحي أو ينطق بها رسول الله ﷺ تنقضي ستة أعوام ليشهد رمضان خيل الله تحمل عشرة آلاف مقاتل يتوجهون إلى مكة مولد رسول ومتنزل الوحي وكان فتح مكة، ووقع الحدث العظيم، فدخل بلده فاتحاً مَن هاجر منها بالأمس بعد ألوان من الأذى والاضطهاد دامت أعواماً ثلاثة عشر.

ولقد كان فتح مكة مرحلة حاسمة من مراحل انتصار التوحيد على الوثنية، وتمركز الإسلام في أعز نقطة وأغلاها من الجزيرة؛ إذا تتجمع حول الكعبة أحداث تاريخ طويل، ومشاهد موروثة، وعادات وتقاليد هي دينية في نظر أهلها، ثم إن ظئر[١] الوثنية والأوثان كان يبدو بكل مظاهره هناك، وحسبك أن قريشاً تفاخر العرب أجمعين بموقعها من الكعبة.

عشرة آلاف مقاتل يركضون خيلهم بين المدينة ومكة، على الطريق نفسه الذي سلكه رسول الله صلوات الله عليه وأبوبكر أيام الهجرة!!

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾[٢] يوم بيوم وعلى الباغي تدور الدائر.

---

(١) من معاني الظئر الصالحة هنا: العاطف والمتولي.
(٢) سورة إبراهيم: آية ٤٧.

والذي لا يصح لباحث أن يهمله أن سمات مضيئة مشرقة كانت تميز تحرك الجيوش للفتح وتميز الفتح نفسه، فالعشرة آلاف مقاتل لم يكونوا أفراداً تجمع بعضهم إلى بعض، وإنما كانوا أبناء عيون القبائل بين العرب، وكان معنى انسلاكهم في الغزوة الموجهة أن الكثرة الكاثرة من العرب في جزيرتهم قد أصبحت لا في الصف الإسلامي فحسب، ولكن في الصف الإيجابي المقاتل المدافع عن الحوزة، والذي يرى أول واجباته الوفاء بالعهد، والصدق في المواطن، ولو كان ثمن ذلك المال والولد، والأرواح والمهج، هذه واحدة.

أما الأمر الثاني فأنت تلحظ أن نوعاً من النضج الفكري تبدو ملامحه على كل صعيد بين الأفراد وبين الجماعات، فرسول الله ﷺ هو المبين عن ربه ما أراد، فهو القدوة، وهو الأسوة وتصرف أي مؤمن أو مؤمنة يكون من وراء ذلك نحن الآن على أبواب التأهب للفتح، وهذا أبو سفيان يسير في المدينة خائفاً يترقب، يبغي مخرجاً من مصير يرتقبه لقريش نتيجة خرقها أكثر من مرة لبنود صلح الحديبية، وكان صنيعه أن دخل على بنته أم حبيبة زوج رسول الله ﷺ، فلما ذهب ليجلس على فراش كان في بيتها، طوته دونه لئلا يجلس عليه، فقال: يا بنية أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ فقالت: أنت امرؤ نجس مشرك، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ، فقال: يا بنية لقد أصابك بعدي شر!! قالت: هداني الله للإسلام وأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها، كيف يسقط عنك دخولك في الإسلام وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر!!

وعندما أوقف العباس أبا سفيان بعد إسلامه في المضيق دون الأراك

إلى مكة حتى تمر به جنود الله فيراها، وطلعت كتيبة رسول الله ﷺ الخضراء، وطلع سواد وغبرة من سنابك الخيل، وأبطال الكتيبة من المهاجرين والأنصار في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق، التفت أبو سفيان إلى العباس وقال: يا أبا الفضل: لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً، فكان جواب العباس رضي الله عنه ويحك إنها النبوة، وفي رواية يا أبا سفيان ليس بملك ولكن نبوة.

إن هذا الفهم العميق لطبيعة الدعوة، وطبيعة الحكم فيها يعطينا ـ وبشكل دقيق وواضح ـ صورة عن الإدراك التام وسلامة التصور للغاية التي من أجلها شرع القتال والتي من أجلها يتحرك رسول الله ﷺ للغزو، ثم لمعنى الاستخلاف والتمكين اللذين عنتهما الآية الكريمة: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾[1] فالقضية ليست قضية سلطان أو سيطرة ولا استئثار فرد أو قبيلة أو فئة، ولكنها وراء ذلك كله!! إنها تحقيق كلمة الله في الأرض، الكلمة التي بها يقوم الحق وتقوم العدالة، ويفسح المجال رحباً مشرقاً لكل ما من شأنه تكافؤ الفرص وتأمين حرية الإنسان وكرامة الإنسان في ظل العبودية الخالصة لله عزوجل: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[2] **«يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، كلكم لآدم وآدم من تراب»** فلا جاهلية ولا ملك وإنما نبوة وعبودية لله الخالق العظيم.

---

(١) سورة النور: آية ٥٥.
(٢) سورة الحجرات: آية ١٣.

ولعل ذلك هو الذي يفسر لنا كيف أن فتح مكة وقع دون معارك ودون إراقة دماء، إلا ما كان من حوادث فردية تسبب بها بعض الحمقى من الوثنيين، ثم أين ما أراده أبو سفيان مما رأى التاريخ من عبودية النبي ﷺ وتواضعه لربه حين توسط الناس بذي طوى وإن عُثنونه[١] ليمس واسطة الرحل أو يقرب منه.

وفوق هذا كان عنوان الرد على الذين حملوا أوزار الإساءة في الماضي: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

تلك هي النبوة، إن رسول الله ﷺ سيد الحلماء وأفضل من يعفو، وفي الوقت نفسه لم يكن شيء يهمه من أمر هؤلاء، تعاظمت رؤوسهم أو تقاصرت إلا بمقدار ما يحقق التمكين لدين الله عزوجل، بحيث تنزاح الوثنية من الطريق، وتتهيأ الفرصة لحكم الإسلام.

أرأيت إلى أبي القاسم ﷺ ماذا فعل بعد الفتح وهو يطوف حول الكعبة على راحلته؟؟ لقد كان حول البيت أصنام مشدودة بالرصاص، فجعل ﷺ يشير بقضيب في يده إلى تلك الأصنام ويقول: «**وجاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا**» ثم أرسل عدة سرايا، كان منها سرية لهدم العزى، وأخرى لهدم سواع، وثالثة لهدم مناة.

إن هذا التصرف من النبي ﷺ ليس بالأمر العادي، ولكنه إعلان، إعلان أن طريق الدعوة واحد: فهي في حالات الشدة والرخاء وأطوار الضعف والقوة لا تحيد ولا تميل، إن النداء الأول بلا إله إلا الله ما يزال

---

(١) ما ينبت من الشعر تحت الشفة السفلى.

هو النداء، وإن الدعوة إلى ترك عبادة الأوثان والتوجه إلى الإله الواحد ما تزال هي الدعوة، واحد وعشرون عاماً تمضي وكلها حلقات آخذ بعضها بحجز بعض وطوبى لمن أسعده الله بمتابعة الطريق.

لذا فإنا نعتبر أن فهم العباس رضي الله عنه مرتبط تمام الارتباط بسلوك النبي ﷺ الذي يعطي بياناً عملياً للدعوة الجديدة التي من أجلها كانت الهجرة من مكة وفي سبيلها كان فتح مكة.

وهكذا تعطينا الوقائع أن رمضان شهد آثار الإيمان في أبنائه، وأقام البرهان العملي على أن تحول أمة بكاملها إنما يبدأ أولاً وقبل كل شيء من داخل النفس الإنسانية، فلقد امتدت يد محمد ﷺ الصناع إلى هؤلاء الناس فحولتهم إلى أناس آخرين وإلى بشر آخرين، كان ذلك تبديلاً جذرياً في حياتهم، في تصوراتهم، في تقويمهم للمعاني، في مثلهم التي من أجلها يناضلون ويقاتلون، جموع تدفعها جموع، ومناكب تزحمها مناكب، وزحام على دروب المكاره، وزهد على طريق المغانم، والسعيد السعيد من يشعر أنه عمل لله، وأنه قضى في سبيل الله.

إن كل الدلائل تشير إلى أنه منذ نزل القرآن على النبي ﷺ ونادى منادي السماء في أهل الأرض واهتزت جنبات مكة، وأضاءت جبالها وبطحاؤها بدأت جزيرة العرب تشهد نوعاً من الحركة العملاقة الدائبة التي كانت تنتظم تصورات المسلمين وسلوكهم، وهي حركة منهجية قائمة على وعي ما هم فيه ووعي ما مالوا إليه ووعي ما يناضلون ويقاتلون في سبيله.

ولو أردت أن تبحث وتطيل البحث عن فترة زمنية ولو محدودة لترى

فيها فراغاً أو عطالة عن الحركة لأعيتك الحيلة ورجعت من غير طائل.

وهذه الحركة إن دلت على شيء فإنما تدل على مقدار التفاعل بين الأمة وبين دعوتها الجديدة، يستوي في ذلك كون المؤمنين قلة أو كثرة ضعفاء أو أقوياء.

والآن ترى هل مما يبشر بالخير اليوم أن يكون حديث هذه الأمة عن رمضان شهر الإعجاز والقوة وانتصار المبادىء حديثاً تقليدياً يُعني بسرد الوقائع، وإن امتد فإلى الإعجاب بعيونها وآثارها، أم أننا ونحن نعاني في الوطن العربي والإسلامي ما نعاني من متاعب وتمزق، يجب أن يكون حديثنا عن رمضان ومآثره وما صنع للتاريخ حديث الحركة واليقظة والانطلاق؟؟

رمضان الذي شهد كلمة السماء إلى الأرض على أول خط زمني امتد ما يزيد على ثلاثة وعشرين عاماً.

والذي شهد معركة الفرقان التي فرقت بين الحق والباطل، والذي شهد فتح مكة يوم عاد سيد المهاجرين محمد ﷺ ليمسح بيده الكريمة المعطاء عن الكعبة كل ما ألصقت بها الوثنية من أدران. رمضان هذا الشهر العظيم الذي يضم في ثناياه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر جدير بأن يفتح العيون ويهز القلوب ويحرك العزائم.

إن لزاماً علينا أن ندرك موقعنا من التاريخ، وأن ندرك ماذا وراء الوقائع التي شهدها رمضان، وإلى أي حد يمكن أن تدفع بنا إلى اليقظة من جديد.

نقول هذا لأنه لا بد من التساؤل وأمتنا على مفترق الطريق.

هل هذا الذي نقوله عن وقائع رمضان وما كان من تفاعل صادق بين تلك الوقائع وبين المسلمين هو تراث يذكر للتاريخ أم أنه دعوة وشرعة؟؟

إن الإسلام لا يرضى ولن يرضى عن الجواب الأول المحتمل، فالوقائع بجملتها دعوة وشرعة، وأنموذج تطبيقي عملي لما جاء به الإسلام، وصورة صادقة حية عن تحركات الرعيل الأول الذين كانوا جسر الفتوح ومنارة الحضارة، وقادة الطريق.

وإذا اعتبرناها شرعة كان معنى ذلك أنها تحمل عنصرين: عنصر الدفع وعنصر الإلزام، فهي قوة دافعة بما قدمت من قدوة رائعة وإمامة صادقة، وهي ملزمة بنفس الوقت «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين عضو عليها بالنواجذ**». ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ﴾[(١)]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[(٢)].

وهكذا فإن على هذه الأمة أن تدرك بيقين لا يَعْتورُه[(٣)] شك ولا يشوبه أذى أن طريقها لأن تجد ذاتها من جديد، وأن تنهي فترة الضياع التي تعانيها هي أن تمتحن قدرتها على التفاعل من جديد أيضاً مع مبادئها ومثلها، وبقدر ما يتولد عندها التفاعل مع هذه المبادىء والإحساس بما فيها من الحياة وقابلية الاستمرار. تكون الطريق أقرب إلى أن تعود إليها القدرة على امتلاك زمام المبادرة، لتكون في مقام المعلم الذي يملي، لا

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٢٣.
(٢) سورة التوبة: آية ١١٩.
(٣) أي لا يخالطه.

في مقام الضعيف الذي يستملي، نعم ولكي تقف على القمة فتفعل ما تريد هي، حال كون ما تريده نابعاً من ذاتها وأصالتها، بدلاً من أن تفعل ما يراد لها أن تفعل.

فإذا كنا الآن نفكر كما يراد لنا أن نفكر، ونقول ما يراد لنا أن نقول، ونحكم على مآثرنا وتاريخنا ومبادئنا كما يراد لنا أن نحكم فإن مرحلة التفاعل التي نتحدث عنها هي التي تعطينا أن نقول ما نريد أن نقول وأن نفعل ما تمليه مبادئنا وما توجب أن نفعله.

وإنه كلما اتسعت ساحة الوعي في صفوف أولئك الذين أهَّلتهم طاقاتهم وإيمانهم لهذا الوعي كان لنا أن نتفاءل بأن هذا ظاهرة التفاءل بين الأمة ومبادئها، وساحة الوعي هذه ليست ملكاً لأصحابها في الواقع وليست ملكاً لفئة دون أخرى وإنما هي ملك الأمة، وعلى الذين تسعدهم العناية ويطوقون شرف هذا الوعي أن يعدوا أنفسهم لطريق طويلة وشاقة واضعين نصب أعينهم قول العزيز العليم ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[(١)] [(٢)].

---

(١) سورة العنكبوت: آية ١ ـ ٣.

(٢) مجلة «حضارة الإسلام»: العدد ٧، السنة ٦، رمضان سنة ١٣٨٥، ص ٦٧٠ ـ ٦٧٦.

من وحي رمضان
للأستاذ محمد المبارك

قال الأستاذ:

إن دولاب الحياة دائر لا يقف، والصراع فيها مستمر: صراع بين ظالم ومظلوم، ومغتصب ومهضوم، ومستبد وكظيم مكبوت، مستعمِر سالب ومستعمَر مسلوب، وكم من صارع يدور في هذه الحياة في سبيل حق يؤخذ وباطل يزهق وظلم يرفع وعدل يقام، فلا بد للإنسان الخير الصالح من دخول حلبة الصراع مكرهاً غير طائع، وإذا أحجم ونكص على عقبيه فسح المجال لأهل الباطل يصولون، وللظالمين والباغين على الناس يرتعون.

فالأمم التي تريد أن تعيش في هذه الحياة مصونة الحقوق محفوظة الأموال لا بد أن يكون أبناؤها على أُهبة الاستعداد لصد العداة ورد البغاة، ولا يؤتي الله النصر لأمة أخلدت إلى الملذات، وركنت إلى الشهوات وأغفلت الاستعداد وبطرت معيشتها.

إن نفسية الجهاد في الحياة هي الحالة الدائمة الواجبة، وإن تربية الأجيال يجب أن يكون قوامها وملاك أمرها تكوين النفس الصابرة على الجهاد بمشاقه ومصاعبه وما يصاحبه من استغناء عن الكثير مما اعتاد الإنسان ملازمته من ملاذ الحياة وطيباتها.

فأول مرحلة من مراحل هذه التربية تعويد النفس على ترك ما أحبت والإعراض عما اشتهت، حتى إذا ما اضطرت إلى ذلك لم تجبن وتتأخر.

وإن الإسلام حين حمَّل المسلم في هذه الحياة أنواعاً من الجهاد سن له طرقاً لتكوين النفس المجاهدة؛ فقد شرع الإسلام الجهاد في سبيل تحرير العالم من الظلم وحماية المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، وفي سبيل حماية المجتمع الذي يحكمه ويظله أياً كان أفراده من أي جنس ومن أي دين من عدوان المعتدين والباغين، لهذا جعل نفسية المسلم نفسية مجاهد دوماً لا تقبل الخضوع والذل حتى لعاداتها وأهوائها وشهواتها، فالجهاد في سبيل تحرير النفس من أهوائها هو الشرط الضروري للجهاد في ساحات الوغى وميادين الحياة.

ومن أبرز ما شرعه الإسلام في سبيل تربية النفس على الحرمان والامتناع عن الملذات الصوم، وقد جعله نوعاً من أنواع العبادة المفروضة، ومظهراً من مظاهر الخضوع لأمر الله، ووسيلة لتهيئة النفس على تنمية قدرتها الكامنة وتغليب الإرادة على البيئة وعلى ما يحيط الإنسان من طيبات الحياة ومغريات الشهوات.

وهنا تبدو الصلة الواضحة بين العبادات وغايات الحياة فليست العبادات عزلاً للعابد عن الحياة ولكنها إعداد وتهيئة وتطهير وتزكية.

إن الصيام هو امتناع تام عن الطعام والشراب وما يلحق بهما من ملذات وعن إشباع الغريزة الجنسية من قبيل الفجر إلى الغروب خلال شهر كامل، ويستثني من ذلك المريض الذي يؤذيه الصوم، والشيخ الكبير العاجز عن تحمل الصوم وغير ذلك من أحوال استثنائية.

إن خلق النضال في العرب معروف من عهد قديم؛ فإن قلة الطعام

والماء في الصحراء التي كانوا سكانها عودتهم الصبر على الجوع والعطش في أيام البرد والحر اللاهب فكان بينهم وبين بيئتهم صراع دائم، فكان هذا الخلق ـ خلقُ الصبر والنضال ـ وليد الصحراء ونعمة من نعمها فلقد عوضتهم عن فقرها في المادة غنى وقوة في النفوس.

إن العرب لا يميلون إلى الإكثار من الطعام والشراب بل كانوا يحتقرون من يجعلها همه في الحياة، قال شاعرهم قديماً:

ولست بصلعوك مناه وهمه من العيش أن يلقى لبوساً ومطعماً

وجاء في أمثالهم القديمة: «البِطْنة تذهب الفِطْنة»، وقال الشاعر:

يـا بنـي المنـذر بـن عبـدان والبطنـة ممـا يسفـه الأحـلامـا

وكان العزوف عن الطعام والشراب مع شدة حاجتهم إليهما من أخلاقهم وطبائعهم لأن لهم غاية أسمى من العيش الرخي، قال امرؤ القيس:

ولـو أننـي أسعـى لأدنـى معيشـة
كفـاني ـ ولـم أطلـب ـ قليـل مـن المـال

ولكنمـا أسعـى لمجـد مـؤثـل
وقـد يـدرك المجـدَ المـؤثـلَ أمثـالـي

فكـان مـن صفـات الـذم عنـدهـم أن لا يكـون لـلإنسـان هـم إلا فـي العيش، ولذلك عدوا من أشد الهجاء قول الحُطَيئة:

دع المكـارم لا تـرحـل لبغيتهـا
واقعـد فـإنك أنـت الطـاعـم الكـاسي

كما أن من صفات التمدح والفخر أن يجوع الإنسان إذا لم يكن القوت إلا مع الذل قال الشنفري:

أديـــم مطـــال الجـــوع حتـــى أميتـــه
وأضـــرب عنـــه الصفـــح ذكـــراً وأذهـــل
وأستـــف تـــرب الأرض كيـــلا يـــرى
لـــه علـــي مـــن الطـــول امـــرؤ متطـــول

ولذلك كان من حكمة الله أن يختار لتبليغ رسالته هذه الأمة التي أعدت هذا الإعداد وهيأت نفوسها هذه التهيئة، وليس إلا أن يرسم الله لها المثل الأعلى بعد أن كانت ضالة في صحرائها حتى تحسن اعتناقه والجهاد في سبيله والتضحية في سبيل تحقيقه، وبذلك نقل هؤلاء العرب من صراع الصحراء والبيئة إلى صراع المجتمع الفاسد الجائر.

إن الخيال ليذهب بي والناس مقبلون حين الغروب على موائد الطعام إلى منازل القوافل في الصحراء حيث تجد الراحة من الجهد والرِيّ بعد العطش والشِبَع بعد الجوع، لقد قضى الله أن تكون مدرسة الصحراء هي مدرسة الإسلام يتخرج منها المجاهدون ويمرنون نفوسهم على ترك الملذات وتحمل العطش والجوع وليس ذلك إلا وسيلة لتحمل ذلك في الجهاد حيث يكون كذلك لجوعهم وعطشهم ومشقتهم أجر العبادة، قال تعالى بمناسبة الحرب والجهاد:

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا

﴿كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(١).

إن رمضان يحمل جو الصحراء إلى كل بلد دخله الإسلام، وإن صومه هو دخول في هذه المدرسة التي تخرج الرجال، إنه اصطناع ذلك الجو الذي خلق في العرب روح الرجولة والنضال والصبر والجلد، وإن خرق حرمة الصوم هو فرار من هذه الصحراء، وإن العربي إذا أفطر رمضان فقد ارتكب إثماً وخان تاريخاً ، أما الإثم ففي عصيان الله الذي فرض هذا التمرين السنوي الرائع، وأما الخيانة فخيانة تاريخ أمته وتقاليدها العظيمة المنتجة، فقد برهن أنه دون المستوى الذي يسمح له أن يلتحق بهذه الأمة الكريمة، لقد انحط وأَسَفَّ ولم يستطع أن يرتفع حتى إلى مستوى أبناء الجاهلية من أجداده، وبذلك لم يكن جديراً بالحياة.

لنستروح في رمضان عبير الصحراء:

ألا يـا صبـا نجـد متـى هجـت مـن نجـد
فقـد زادنـي مسـراك وجـداً علـى وجـد

ولنستنشق في أيام رمضان نوافح أيام الجهاد، فأيام رمضان كلها ذكريات جهاد.

لقد كانت عصور القوة والفتوح في تاريخ العرب وتاريخ الإسلام عصور تقشف لا ترف، وترفع عن الانغماس في الملذات، وهل أروع في تاريخنا ـ بل في التاريخ كله ـ من أيام أبي بكر وعمر ومن أيام عليّ؟ لقد كانت بعيدة كل البعد عن مظاهر الترف والنعيم واللذة، أما عصور

---

(١) سورة التوبة: آية ١٢٠.

الانحطاط في تاريخنا ـ عصور الاستبداد الداخلي والتراجع الخارجي ـ فقد كانت عصور البذخ والترف والاستغراق في فنون اللذائذ والشهوات .

ولقد عُرف العرب بالحياة المتقشفة حتى كانت الدعوة إلى الملذات والشهوات والسخرية من هذه الحياة المتقشفة من مظاهر الشعوبية والحقد على العرب، فقد قال الشاعر الفارسي الأصل أبو نواس :

اعدل عن الطلل المحيل وعن هوى
نعت الديار ووصف قدح الأزندا
ودع العريب وخلها مع بؤسها
لمحارف ألف الشقاء مزند

وقال مستهزئاً بعيش الصحراء وحياة العرب :

دع الأطلال تسقيها الجنوب
وتبكي عهدَ جِدتِها الخطوب
وخل لراكب الوجناء أرضاً
تحث بها النجيبة والنجيب
ولا تأخذ من الأعراب لهواً
ولا عيشاً فعيشهم جديب
ذرِ الألبان يشربها أناس
رقيق العيش عندهم غريب

إن الامتناع عن شهوات الجسد في هذا الشهر يجب أن يكون مظهر

وحدة بين أبناء الأمة العربية، وأن يكون ذلك ظاهراً في نظام حياة من مجتمعها في المدارس والثكنات، وفي المحاكم والأسواق، وفي المجالس ودور الحكومة، ويجب أن ينظر إلى المخترق لهذه الحرمة نظرة المنتهك لحرمة تاريخ أمته فضلاً عن أنه منتهك لأمر من أوامر ربه، وأما المضطرون للإفطار كالمرضى والعُجَّز فيجب أن يراعوا حرمة المجتمع، وأن يكون إفطارهم فيما بينهم وبين أنفسهم.

إن جميع الشعوب التي اتخذت الإسلام ديناً لها ونظاماً، ومكةَ قبلة لصلاتها، والقرآن دستوراً لحياتها ومصدراً لمفاهيمها وعقائدها تدخل في هذا الشهر مدرسة رمضان لتطهير الروح وإعلان سلطان الإرادة وقبول حكم الله، والتمرد على العادات اليومية المطردة المبتذلة، ولتصطنع حياة الصحراء التي كانت يعيش في جوها النضالي المسلمون الأولون من أصحاب محمد ﷺ وليرتفعوا إلى الله بأرواحهم ويستعينوا به في معارك جهادهم ويرتقوا في الحياة ما بعد الحياة في معارج الارتقاء، وينالوا مراتب الشهداء والصديقيين وحسن أولئك رفيقا(١).

(١) مجلة «حضارة الإسلام»: العدد ٩، رمضان سنة ١٣٨٠، ص ١٠٢٩ - ١٠٣٣.





الصحة الجسمية والنفسية



الصوم تمرين رياضي
للأستاذ أحمد حسن الزيات

قال الأستاذ:

يستقبل المؤمنون شهر رمضان، ربيع القلوب ونعيم الأنفس وصيام الجوارح عن الأذى، وفطام المشاعر عن الهوى، بعد أحد عشر شهراً قضوها في صراع المادة وجهاد العيش، تكدر فيه القلب، وتبلد الحس، وتلوث الضمير، فيجلو صدورهم بالذكر، ويطهر نفوسهم بالعبادة، ويزود قلوبهم من مذخور الخير بما يقويها على احتمال الفتن والمحن في دنيا الآمال والآلام بقية العام كله.

رمضان هو التمرين الرياضيّ السنويّ للنفس:

يشترك فيه المسلمون في جميع أقطار الأرض، يصومون في وقت واحد، ويفطرون في وقت واحد، وينصرفون عن اللذات الحسية والنفسية ليتجهوا بالتأمل والتعبد والخشوع إلى الله، فيغضوا أبصارهم عن المنكر، ويكفوا ألسنتهم عن الفحش، ويصموا آذانهم عن اللغو، ويغلّوا أيديهم عن السوء.

تلك هي العناصر الجوهرية لعقيدة الصوم، وهذه القيود والحدود التي تضمنها معنى الصوم هي المجاهدة التي تعود الإنسان ضبط

النفس، وقوة الإرادة، وضعف الإرادة إنما يقوى برياضة النفس على الحرمان المؤلم، كما يقوى الجسم برياضة البدن على الجهد العنيف، وكما يقوى العقل برياضة الذهن على التفكير العميق، والرياضة الروحية هي حكمة الصيام في الأديان كلها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[١].

فتقوى الله ومجاهدة النفس هما الغاية من هذه الحكمة، وقد اجتمعتا في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[٢].

فالخوف من الله هو التقوى، ونهي النفس عن الهوى هو المجاهدة.

أما قول من قال: إن حكمة الصوم هي أن يذوق الغني عذاب الجوع ليشفق على الجائع، ويرأف بالفقير، فقول سطحيّ توحي به النظرة العابرة والفكرة السريعة، فإن إجاعة الأغنياء ليشعروا بآلام الفقراء قد تكون معنى من معاني الصوم، ولكن حكمة الله من صوم رمضان أسمى وأجل وأبعد[٣].

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٣.
(٢) سورة النازعات: آية ٤٠ ـ ٤١.
(٣) مجلة «التمدن الإسلامي»: الأجزاء ٢١ ـ ٢٤، المجلد ٢٩، سنة ١٣٨٢، ص ٤٥٥ ـ ٤٥٦ نقلاً عن مجلة حياتك.

شهر الصيام
للأستاذ محمد فريد وجدي[1]

قال الأستاذ:

قد يصل هذا العدد إلى أيدي قرائنا وهم في أول يوم من شهر الصيام، وأول ما يشوقهم من العنوانات الماثلة في فهرست قد يكون الكلام عن الصيام الذي هم فيه، والكلام عن الصيام أصبح شائقاً حتى لدى غير المسلمين؛ لأنه أضحى عاملاً طبياً تعالج به أمراض خطيرة، لا يسد مسده فيها غيره، ومن يعلم أن أكثر الأمراض العضالة يأتي من طريق التغذي يدرك ما يبتني على الإمساك عنه من قيمة صحية.

وإنما كان التغذي سبباً للأمراض؛ لأن الناس لا يصدرون فيه عن علم، ولكن عن العادة والجهل والنهم. والقاعدة العامة عندهم أنه ما دام

(١) محمد فريد بن مصطفى وجدي مؤلف دائرة المعارف، ومن الكتاب الفضلاء الباحثين. ولد بالإسكندرية سنة ١٢٩٥ ونشأ بها وبدمياط وكان أبوه وكيل محافظ بها، وانتقل معه إلى السويس فأصدر بها مجلة الحياة ثم سكن القاهرة وعمل في وظيفة صغيرة بديوان الأوقاف، أنشأ بعدها مطبعة أصدر بها جريدة الدستور اليومية ثم مجلة الوجديات، ونشر كتابه دائرة معارف القرن الرابع عشر، العشرين، وعكف على المطالعة والتصنيف وتولى تحرير مجلة الأزهر. توفي بالقاهرة سنة ١٣٧٣ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٦/ ٣٢٩.

التغذي سبباً لاستدامة الحياة والقوة فالإكثار منه يعتبر استكثاراً من أسباب الحياة والقوة، إلا أن يصل إلى حد الإفراط، ولكن ليس للإفراط عندهم معيار غير ما ينتجه من أعراض الكِظة[١]، ويغيب عنهم أنه قد يكون إفراط ولا يكون شعور معجل بأعراض للكظة.

ونحن لأجل أن نأتي على أفضل ما نعلمه من حكمة فرض الصيام على المسلمين، لا نرى بداً من التوسع في فلسفة التغذي ؛ فإن هذه الحكمة ثاوية في أطوائها، فنقول:

الإنسان في حاجة إلى مقادير معينة من الأطعمة المختلفة، وهي على نوعين:

١ ـ أطعمة معوضة لما يدثر من مادة الجسم، كالعضلات والأعصاب والعظام والدم، وهي كالقمح والبقول والخضر والفاكهة.

٢ـ وأطعمة مولدة للحرارة الغريزية الضرورية للحياة، وهي السبب المباشر في دوامها كالسكر والدهنيات والنَشاء.

فإذا تغذى الإنسان ـ وهو عادة يجعل غذاءه خليطاً من هذه الصنوف ـ هُضمت هذه المواد في معدته وأمعائه، وانتقلت إلى الرئتين فالقلب، ومنه إلى الشرايين لتطوف بجميع أجزاء الجسم، وتعطي كل خلية فيه حظها منه.

فإذا كانت الأغذية بقدر حاجة الجسم استوعبتها الخلايا الجثمانية، وبقي الدم نقياً كما كان، وإن كانت تزيد عن حاجته بقيت في الدم، وكيف تستطيع البقاء فيه وهو ليس بحاجة إلى المزيد؟ فتتحول إلى مواد

---

(١) قال الأستاذ: الكظة: البطنة، وأعراض ثقيلة تعتري الإنسان من الامتلاء من الطعام.

سُمِّية يصيب الجسمَ منها بلاء عظيم، بعد أن تكد الأعضاء التي وظيفتها تخليصه من السموم في حمايته منها، وتضمحل من كثرة العمل، وتنضب عصاراتها، وتعجز عن أداء وظيفتها، فتتعرض الحياة للخطر، إما بطروء أدواء خطيرة على الأعضاء الرئيسية بسبب عجزها عن القيام بأعبائها، وتراكم السموم عليها وتصلبها، وإما بفساد الدم، وانشحانه بمواد غريبة عنه، وعدم صلاحيته لأداء مهمته.

هذه هي النظرية العلمية في تولد الأمراض وفساد الصحة، وهي تخالف النظرية العامية، فهم يتخيلون أن على الإنسان أن يأكل ما يشتهي، وعلى المعدة أن تهضم ما ينفعه، وأن تلفظ ما يضره، ورأي العامة في الأمراض أنها إما تصيبهم من برد أو من أسباب أخرى لا يعرفونها.

فإذا حدثتهم عن ضرر الإفراط في الغذاء ضربوا لك الأمثال بأفراد من المصابين بالنهم يعرفونهم وتعرفهم، ولفتوا نظرك لقوتهم وبدانتهم، وخلوهم من الأمراض، ويغيب عنهم أن هؤلاء معرضون للصعق من طريق الفجاءة، وخير منهم الذين أسرفوا على أنفسهم وجدوا جزاء إسرافهم معجلاً فيضطرون للاعتدال، فقد تبين أن الناس من هذه الناحية على ضربين: أحدهما يلاقي جزاء إفراطاته على الفور فيمرض ويشفى، ويتكرر عليه ذلك حتى يعتدل أو يموت، وثانيهما لا يحس من تجاوزه الحد بأذى، فيصر على ما هو عليه، حاصلاً على ظاهر من الصحة والضلاعة حتى يفاجئك نعيه، فتقول: كنت معه البارحة، وكان أحسن ما يكون صحة وقوة، فما الذي دهاه بعد أن افترقنا؟!

وليست تبعات الإفراط في الطعام بقاصرة على الناحية المادية من

الإنسان، ولكنها تقع عليه في ناحيته العقلية والنفسية أيضاً؛ فإن امتلاء المعدة بالأطعمة تستدعي قوة عصبية عظيمة تعين المعدة على هضمها، فتنصرف قوى أعصابه إلى معدته، فلا يكاد يصلح في أثناء الهضم لعمل عقلي، وقد يستمر الهضم أربع ساعات بعد كل وجبة فتضيع عليه اثنتا عشرة ساعة من يومه سدى، والإنسان عادة لا ينقطع في تلك الساعات عن العمل العقلي، ولكنه لا يتقنه، وقد عُرف ذلك منذ العهد الأقدم، فقالوا: إن البطنة تذهب الفطنة.

هذا غير ما تسببه البطنة وارتباكاتُها العقلية من سوء الخلق، وضيق الصدر، والتبرم بكل شيء، حتى يكاد أحدهم أن يمزق ثيابه لأقل بادرة، وإذا نام استيقظ ثقيل الأعضاء، متتابع النفَس، متكاسلاً، متثائباً، كأنه خارج من كابوس، لا من نوم مُجدِّد لما اضمحل من قوى بدنه.

لتخليص الإنسان من هذه الشرور الحائقة بالجسم والنفس كل يوم، نصح الله لعباده أن لا يسرفوا في التغذي، فقال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[1].

وقال النبي ﷺ: «**حَسْب الإنسان من الطعام لُقيمات يُقمن صلبه**».

وقال: «**ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه**».

ولذلك أيضاً فرض الله على عباده الصيام في كل سنة شهراً، والصيام واحد من الأسس الخمسة التي بني عليها الإسلام، وهو بهذا الاعتبار عبادة القصد منها تقريب الإنسان من بارئه كالصلاة والحج، فإن كانت الصلاة قد جُعلت لإحكام الصلة بينه وبين ربه، والحج لتحقيق

(١) سورة الأعراف: آية ٣١.

التجرد من جميع العلائق الدنيوية، واللَجَأ إلى الله خالصاً من جميع الاعتبارات والتعليقات، فإن الصيام قد شُرع لتصفية النفس من كدور المادة، وتنقيتها من أدرانها بالإقلال من تناولها إلا ما يقيم الحياة، والإخفاف من أعبائها إلا ما لا محيص عنه لانقاء الأعراض، فأين تكون أنت من هذا إذا قلبت حقيقته فجعلته وسيلة للإكثار مما يتعين الإقلال منه، وذريعة للوقوع في شرور التُخم والوَخَم التي تبعدك عن التمتع بصحة نفسك، بَلْهَ الزلفى[١] من ربك؟

ولا يجوز أن نغفل هنا القول أن لعدم التملؤ من الطعام فائدة روحية لها أكبر تأثير في أخلاق الإنسان وتعديل مزاجه، لا يمكن الحصول عليها بوسيلة أخرى من وسائل الترويض والتربية؛ ذلك أن المعدة إذا لم يلق إليها إلا القدر الضروري لحفظ الحياة قويت على هضمه بوسائلها الذاتية دون أن تضطر شطراً كبيراً من القوى العصبية للبدن أن يعينها على التخلص منه، فتتفرغ هذه القوى لأداء مهامها الفكرية والعقلية والشعورية، فيحصل صاحبها بسبب هذا التفرغ على ثمراتها الأدبية؛ فيفتح له التفكير مجالات للنظر والتأمل، ويجني العقل من هذه المجالات ما يزيد به مادته العلمية، ويستفيد الشعور الإنساني من هذه الأعمال ما يرفع به مستوى أدبه النفسي، واتزانه الخلقي، وما جُعلت كل هذه القوى عبثاً ولكن لتعمل فيه، ويتأدى هو تحت تأثيرها إلى درجات متتابعة من السمو الفكري والعقلي والأدبي، ولولا هذه القوى وفعلها فيه في خلال العصور لما ارتقى الإنسان عما كان عليه قيد أنملة.

---

(١) هي بمعنى فضلاً عن، وبَلْه اسم فعل أمر بمعنى دع واترك.

الآن يمكنك أن تقدر ما يجنيه الإنسان على نفسه وعلى بني نوعه بتعطيله القوى العصبية عن العمل فيه، بسبب صرفها إلى هضم ما يلقيه في معدته من المواد الغذائية التي تزيد عن حاجته.

إن انصراف هذه القوى الثمينة في الهضم يُضيع على الإنسان عملها الأدبي، ويتركه تحت تأثير غرائزه الحيوانية، فيعيش كما تمليه عليه من الميول التي لا تتفق وسموه الروحي، ولا تلتئم وكيانه العلوي، وتحرمه من الذخر الخلقي الذي يغالب به الحوادث ويتغلب عليها، ويصبر به على العوادي الطبيعية لا حتى تنجلي فحسب، ولكن حتى يستفيد من كَلَبها عليه دروساً يدفع بها أمثالها عن نفسه وبني نوعه؛ ويتأمل تحت ضوئها في كل ما يحيط به ليزيد به مادة علمه، وعدد وسائله.

أما المحروم من نعمة هذه القوى فييأس من كل بادرةِ فشل، ويضجر من كل سانحة خيبة، ويضيق ذرعاً بأصغر الحوادث، ويشعر بالخَوَر أمام أقل عقبة تلوح له، ويحس بالإعياء إزاء أدنى عمل عقلي فلا يهم بمحاولته، وهذه الحالات تضطره للتسلح بما يناسبها من الصخَب والجلَب، وقد تتضيق المنادح[1] أمام عينه فلا يفرج إلا عن مشادة أول محتك به، وإبلاغ النزاع إلى غاياته القصوى، حتى إذا استنفد بقية قواه العصبية سكن جَيَشان صدره وهمد أو نام، واستيقظ متأهباً لتمثيل أدوار أخرى!

في هذه الحالة لا يكون لصاحبنا نصيب من الحياة الإنسانية، وقد لا يُرزق بمن ينبهه إلى أن ما به ناشيء من ضعف قواه العصبية المعدلة

(١) جمع مَندوحة وهي ـ هنا ـ المخرج، وأصل المندوحة السَعة.

لمزاجه، وأقوى أسباب إضعاف هذه القوى التملؤ من الطعام بدون انقطاع.

فهل تستطيع أن تتخيل أن لهذه الحالة علاجاً خيراً من الصيام؟

وهناك أمر آخر أعظم شأناً من كل هذا، وهو حرمان الإنسان بواسطة التملؤ الغذائي من التعرض للنفحات الإلهية، والإلهامات العلوية، فإذا كان الإنسان بهذا التملؤ يكتسب من الرعونات الخلقية ما يكاد يخرجه عن دائرة الإنسانية، فكيف يُرجَى أن يتصل بالملأ الأعلى وهو على هذه الحالة، وتلك حضرة لا يقبل فيها إلا ذوو الهمم النزاعة إلى الكمال، والقلوب التواقة إلى عالم الجلال، ممن أدركوا أن الحياة إذا لم تكن غايتها هذه الرتبة العلية كانت عبئاً ثقيلاً على صاحبها، تنتهي كما بدأت في آلام وتباريح ليس لها حد تقف عنده: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾[1].

وهل يتأتى لمن وصفنا حالتهم أن يذكروا آيات الله ويعملوا بها، أو أن يؤمنوا بها ولا يسرفوا على أنفسهم؟

لتدارك الإنسان من الوقوع في هذه الحالة السيئة من الحياة البهيمية شرع الله الصيام، فالصيام رياضة نفسية، يتمكن بها الإنسان أن يستولي على زمام ميوله الجسدانية، فيعدل من تطرفها، ويقمع من تعسفها، ويوجهها إلى وجهة الصلاح، فيحيا حياة طيبة، ويعرُج بما يكتسبه فيها

---

(١) سورة طه: آية ١٢٤ ـ ١٢٧.

من القوى الروحية إلى عالم القدس، فيتعلق منه بسبب يرفعه من عالم الحيوانية، وهو لا يرفعه إليه حتى يصل به إلى أبعد غايات الإنسانية.

لبلوغ هذا الشأو البعيد(١) شُرع الصيام، لا ليكون سبباً في التوسع في المآكل، فيقتصر حكمته على أن يشعر الإنسان بألم الجوع بضع ساعات.

إن ما ذكرناه من الحكم البالغة للصيام قد أدركه الكَمَلة من رجال هذا الدين، فاتخذوه وسيلة للاتصال بالملأ الأعلى، فحصلوا من السعادات الروحية وهم أحياء ما لا يدرو في خلد المترفين الذين استعبدوا أنفسهم للملاذ، فجنت على عقولهم وأجسادهم شر الجنايات(٢).

---

(١) الشأو: المطلب.

(٢) مجلة «الأزهر»: الجزء ٩، المجلد ١١، رمضان سنة ١٣٥٩ ص ٥٥٢ ـ ٥٥٥.

رمضان شهر الصيام
للأستاذ محمد فريد وجدي

قال الأستاذ:

نحن اليوم في مستهل رمضان، وهو الشهر الذي أمرنا أن نقوم فيه بفريضة الصيام، وهي أحد أركان الإسلام الخمسة.

والصيام ـ كما يدل عليه اسمه وكما فهمه الذين فرض عليهم ـ رياضة دينية، لا متعة بدنية، وهي ككل العبادات الإسلامية قصد بها رفع الإنسان عن حضيض الحيوانية إلى المستوى الذي يليق بمواهبه الأدبية، فكل ما يبطل هذه الثمرة المرجوة منه، أو ينقص منها، يعتبر عملاً معاكساً للمرامي التي قُصدت من إيجابه.

ونحن إذا رجعنا إلى سيرة النبي ﷺ وسيرة أصحابه، تحققنا أنهم كانوا يعتبرون رمضان شهر إمساك عن الفضول من جميع الضروب، ومهلة تَطَهر وتنزه عن جميع الكدور الجسدية والنفسية.

لعل قائلاً يقول: ما للدين وأمر التغذي، وهو وضع طبيعيّ، القصد منه إمداد البدن بما يحتاج إليه من المواد التي تدثر فيه بسبب الجهود التي يبذلها في المحاولات المختلفة؟

نقول: إن حكمة تدخل الإسلام في أمر التغذي أن الجسم والروح مترابطان في هذه الحياة، والروح جوهر كريم لا تكدره الأعراض، ولكنه

مودع في هذا الغلاف الماديّ، وهو الجثمان، لا يسمح له أن يتصل بالوجود إلا من خلال الحواس التي جعلت فيه، ولا أن يدرك منه ما يدركه إلا بواسطة المادة المُخِية، التي جُعلت أداة للإدراك، ولما كان هذا الجثمان مخلوقاً من التراب فهو عرضة لكل ما يَعْتَوِر الأجساد[١] المادية من الآثار، وأشد ما يصيبها منها ما ينصبّ عليها من ناحية الغذاء، لذلك كانت حاجة الإنسان ماسة إلى تعهد جسده بالمطهرات والمزكيات، وليس منها ما هو أفعل فيه من الصيام، وتدبير ما يحتاج إليه من الطعام.

نعم الصيام، أما سمعت أنه قد تقرر علمياً أن الأجساد البشرية متى لم يُراعَ في تغذيتها الاعتدال، وتخيُّر ما يناسبها من المواد فسدت أعضاؤها، واستدت أوعيتها، وتصلبت شرايينها، وتضخمت أجهزتها، باكتسائها بالمواد الشحمية، وشحن دمها بالمواد الأجنبية عن البنية، وترسبت على جدران خلاياها، وسببت لها أعراضاً ثقيلة من الألم، والإعياء، والترهل، وضعف الذاكرة، وضلال المشاعر، وعدم الاحتمال؛ وتعدت هذه المواطن المادية إلى الصفات الأدبية فضيقت الخلق، وولد الضجر، وسببت المالنخوليا[٢] والحمق، وأغرقت فأحدثت اليأس، وقد تسوق إلى الانتحار؟

رأى العلماء أن الإنسان متى وصل إلى هذه الحالة أو بعضها، كان أحب ما يكون إليه الإمساك عن الطعام أياماً متوالية بل أسابيع، لتزايل أعضاءه هذه المواد الدخيلة، لأنه إذا لم يعامل علل هذه بالإمساك عن

(١) أي يخالطها ويصيبها.
(٢) أي البله والجنون.

الطعام، كان ما يتناوله من الطعام مدعاة لبقاء تلك المواد فيه، فلا يشفى مما يشعر به، ولو تعاطى كل عقاقير العالم، بل هي تزيده خبالاً على ما لديه من الخبال.

نعم إن السواد الأعظم لا يصلون إلى هذه الدَرَكة من الانحطاط البدنيّ، ولكنهم لا يخلون قط من الأمراض والأعراض التي تسببها لهم الأغذية، فهم في حاجة ماسة إلى الصيام وتدبير الغذاء.

وقد شرع الإسلام هذا الصيام لهذا الغرض، فهو رياضة جسدية، يقصد بها تطهيره من المتخلفات الغذائية، التي رانت على أعضائه الباطنة، فسببت لها أعراضاً ثقيلة يشعر بها ولا يعرف لها علة، وتقوم حجاباً بين روحه وما أُعدت له من الإشراقات العلوية، وهذا أكبر حرمان تُمنى به الحياة الإنسانية التي خلقت لتحقق موعود الله من الترقيات الصورية والمعنوية.

الصيام في الإسلام وإن لم يكن إمساكاً مطلقاً عن الطعام أياماً متوالية كما ينصح به العلم في الأحوال الثقيلة فإنه يهيء للبنية فترة طويلة من خلاء المعدة، تتمكن فيها حركة الحياة من تصريف جزء من المتخلفات الضارة للأغذية، وبتوالي هذا الإمساك ثلاثين يوماً متوالية، يتخلص الجثمان من جزء عظيم من تلك المتخلفات فيشعر بحياة جديدة.

هذا بشرط أن لا يُعَقب هذا الإمساك الطويل عن الطعام كل يوم بأكلتين ضخمتين يفتنُّ في تنويع ألوانها، ما يشاؤه له النهم الذي اعتاده في حياته العادية، فيصبح الصيام عليه شراً وبيلاً، ولا يجني منه ما يرجى أن يجنيه من الفوائد المادية والمعنوية.

نعم إن الناس اعتادوا متى جاعوا أن يتشهوا ضروب الأطعمة من

العجينات والحلوى والبقول والمتبلات والمخللات، وأن يندفعوا في التهامها متى غربت الشمس التهام من لا يحسب لتبعات الأغذية حساباً، حتى إذا انتهوا من الأكل أدركهم من الثقل، وتراخي الأعضاء، وخمود العقل ما يدرك المفرطين، وكان يجب أن يدركهم نقيض هذه الأحوال، من نشاط الجسم والعقل، وانبساط النفس، وبالإدمان على هذه الحالة ثلاثين يوماً متوالية يخرج الصائمون وهم في حاجة إلى اللجوء إلى المستشفيات، وكثير منهم يصاب بأمراض عضالة لم يكونوا يشعرون بها من قبل...

إن من الناس من يفرط في الأكل إلى حد التخم، وهو نحيل الجسم، قال الدكتور جاستون دورفيل في كتابه «صناعة إطالة الحياة»:

«إن جميع المفرطين في الأكل ليسوا ممتلئين شحماً، فمنهم من يكونون على العكس نحاف الأجسام، ولكن القسمان يستويان في الهلاك بسرعة، وإن جهل كل منهما ما يؤديه إليه سم الأغذية من سوء المصير.

ثم قال: من الناس من يفرط في الأكل ولا يصيبه أذى، بل تظهر عليه دلائل الصحة الكاملة، فترى وجهه مورداً، ومحياه مشرقاً، فيعيش السنين الطوال لا يشتكي أقل وجع، ثم لا يلبث أن تسمع بأنه قد مات وهو في عنفوان القوة، فتدهش لذلك ولا موجب للدهش، فإن هذا الأكول لم يكن في جسده مراقب عتيد يعاقبه على كل إفراط وتفريط، فتمادى في شأنه فتراكمت عليه السموم فقتلته ولا كرامة».

وبعد:

فنحن اليوم نؤدي فريضة الصيام، وقد جعله الله وسيلة لتزكية أجسامنا وعقولنا وقلوبنا من طريق الإمساك عن الأطعمة التي تهلكنا فإن

احتمال محتال على الإبقاء على العادة السيئة التي تسربت إلى المسلمين، فقلبت شهر الرياضة والنزاهة إلى شهر نهم وقصف[١] فزعم أننا أمرنا بالإمساك عن الطعام ساعات معينة ولم نؤمر بما يعدو ذلك من الإقلال منه قلنا له: إن الاعتدال في الطعام، وتحري القدر الضروريّ منه لحفظ الحياة، وعدم تعدي ذلك الحد إلى الإسراف أمر مأمور به في الإسلام في الشهور العادية، فوجوبه في شهر العبادة ألزم، ألم يقل الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[٢].

أولم يقل النبي ﷺ: «**حسب أحدكم من الطعام لقيمات يقمن صلبه**» أولم يقل أيضاً: «**ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه**»؟ أفكان الله ورسوله يأمراننا بالاعتدال في الطعام في الأيام العادية، ويبيحان لنا الإسراف فيه في شهر النسك والعبادة؟

فلننتهز هذه الفرصة السانحة لنا في هذا الشهر الكريم ونقفوا أثر النبي ﷺ، وأثر الصحابة، لنصل إلى بعض ما وصلوا إليه من كرامة الحياة، وعزة الوجود، وشرف البقاء، والله ولي المحسنين[٣].

---

(١) قال الأستاذ: القصف: اللهو واللعب والتوسع في الطعام والشراب.
(٢) سورة الأعراف: آية ٣١.
(٣) «مجلة الأزهر»: المجلد ١٠، رمضان سنة ١٣٥٨، ص ٦٩٠ ـ ٦٩٤، بتصرف كثير.

شهر الصيام
للأستاذ محمد فريد وجدي

قال الأستاذ:

في اليوم الخامس عشر من شهر نوفمبر الراهن ينير الآفاق هلال شهر رمضان الذي أكرمه الله بأن أنزل فيه القرآن، هذا الفيض الرباني الذي ملأ طباق الأرض علماً وحكمة، وعم العالم عدلاً ومساواة ورحمة.

فرض الله على المسلمين أن يصوموا هذا الشهر الكريم في آيات بينات من كتابه العزيز، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١].

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٣ ـ ١٨٥.

مهد الله تعالى لهذه الفريضة ـ تفضلاً منه وتطييباً للنفوس وترغيباً لها ـ بأن الصوم قد فرض على جميع الأمم من لدن آدم إلى خاتم النبيين ﷺ. وقرن ذلك بذكر الحكمة من إيجابه، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. وتقوى القلوب كما لا يخفى على مطلب عزيز، تحن النفوس إليه، فإنها رأس الحكمة، ومشكاة الحياة الفاضلة، وينبوع الإشراقات الإلهية، ومطمأن النفس البشرية، من وصل إليها فقد وصل إلى أصل كل خير، وسبب كل نعمة مادية وأدبية، فإذا كان الصوم من العوامل التي تؤدي إلى هذه الفضيلة السامية وهي التقوى، وجب أن يُعنى المؤمنون بشأنه، وأن يهتموا بأمره، وأن يقوموا بحقه، ويؤدوه على وجهه.

أما أن الصوم كان مفروضاً على جميع الأمم فقد أظهرته البحوث الاستقرائية للأديان في هذه العصور المتأخرة، وقد كان الناس عند نزول القرآن لا يعرفون من تأريخ العالم إلا ما كان بينهم وبينه اتصال وكانت أكثر أقطار الأرض مجهولة لديهم فتصريح القرآن بأن الصيام كان مفروضاً على الأمم السابقة كافة فيه إعجاز علمي ظاهر ليس يخفى على أحد.

فالمصريون القدماء ـ وهم والصينيون والهنود يعتبرون أقدم الأمم وجوداً ـ كانوا يصومون في جميع أعيادهم، وكان قساوستهم يصومون من سبعة أيام إلى ستة أسابيع.

والصينيون كانوا يقومون بالصيام تعبداً، ويوجبونه على أنفسهم تحفظاً من شرور الفتن.

وقد علم أن البراهمة كانوا ولا يزالون من أشد الأمم مراعاة للصيام.

أما اليونانيون القدماء والرومانيون فقد كانوا كغيرهم يعتدون بأمر

الصيام، ويأتونه دفعاً للنكبات الاجتماعية. . .

ومن يتتبع تاريخ الصيام لدى الأمم السابقة يعرف أن الإسلام قد خفف من الصيام إلى الحد الذي ليس بعده مرمى، فإنه حذف جميع ما لا فائدة فيه من التشديدات العقيمة، وحفظ ما لا بد من حفظه منه، بحيث يكون خيراً محضاً تأتيه النفوس مختارة، وتودعه آسفة، كما هو حال المسلمين في جميع أقطار الأرض.

أما ما روي عن بعض الأمم من التشديد فيه، فإنه يجعل الصيام منفراً للنفوس، ويقلبه ضاراً بصحة الجسم والعقل معاً، ولا نشك في أن كل ذلك من وضع رؤساء الأديان لا وحياً من الحق سبحانه وتعالى، فقد عُرف عن البراهمة أنهم لا يعفون من الصيام الشيوخ الفانين ولا المرضى أيضاً.

وفي الهند طائفة تدعى باليوغيين عرفوا بقمع النفس وكسر شهوتها بالأعمال الشاقة، وهؤلاء يصومون من عشرة أيام إلى خمسة عشر يوماً لا يذوقون في خلالها إلا صبابات من الماء.

وأهل التبت من الصينيين يمتنعون عن الطعام أربعاً وعشرين ساعة متوالية، لا يذوقون فيها شيئاً، حتى ولا يسمح لهم بابتلاع ريقهم فيها.

وقد يمد بعضهم هذا الصوم إلى ثلاثة أيام لا يفطرون فيها كل أربع وعشرين ساعة إلا على قدح من الشاي.

فهذه التشديدات لا يقرها الإسلام ولا يسمح بها، حتى ولو أوجبها إنسان على نفسه لسوء أثرها عليه وعلى غيره، لذلك اقتضت حكمته

عزوجل أن يجعل الإسلام يسراً كله، علماً منه أن أنجع وسائل التأثير في النفوس ما تقوم به عن رغبة واشتياق، وأن نتيجة الشدة عليها الانتهاء إلى عكس ما يراد منها. وقد أشار الله إلى ذلك بقوله: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[١].

ثمرة الصيام جسدياً وروحياً:

الإسلام في كل ما كلف به الإنسان جمع بين فائدتي جسمه وروحه معاً، فأما الروح من الصيام فمما لا يحتاج لبيان؛ فإن الصائم مكلف بمراعاة آداب عالية كغض البصر عن المذمومات والمكروهات، ومثيرات الشهوات، وكحفظ اللسان من اللغو والغيبة والمراء، وصرف السمع عن كل ما لا يليق أن يسمع من المكروهات، وكف سائر الجوارح عن كل ما هو حرام أو مذموم من الأحوال.

فهذه الحالة الفاضلة في سيرة الإنسان مدة شهر من الزمان تفتح للنفس منفذاً إلى عالم التقديس، وتعرضه للنفحات الإلهية، فيكتسب قوة على مقاومة دواعي الشهوات، ومكافحة عوامل المغريات، فلا يخرج من شهر رمضان إلا وقد اكتسب روحاً جديدة إذا كانت لا تكفي أن تقيمه على الصراط دفعت به إليه، وبتوالي السنين يستقيم عليه، ويصبح واحداً من أهل الاتجاه الصحيح للغايات البعيدة التي أعدها الله لهذا الإنسان.

أما فائدة الصيام الجسدية للإنسان فقد أصبحت من البداهات العلمية التي لا يختلف فيها عاقلان، ذلك أنه قد ثبت أن أكثر ما يؤتى

---

(١) سورة المائدة: آية ٦.

الإنسان في صحته يكون من ناحية التسممات الغذائية. . . فالإنسان العادي يسير في أمر تغذيته على ما نشأ عليه: يتعاطى كل ما يقدم إليه بدون أن يعين له مقداراً أو أن ينظر في نوعه. . . فتصيبه من جراء ذلك أمراض بُنْيِية شديدة الوطأة قد يلتوي علاج بعضها على الأطباء، فالمخلص من كل هذه الأخطار ينحصر في عدم الإفراط في التغذي، وفي إراحة المعدة مدة تستطيع فيها أن تستعيد قوتها ونشاطها في هضم الأغذية، وتجد البنية وقتاً لتصريف ما تراكم فيها من السموم.

فأما التوسط في الطعام، فقد أمر به الله تعالى في قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[1].

وأما إراحة المعدة، فأحسن ما يكون بالصوم، فإن الصائم مضطر أن يبقى نحو خمس عشرة ساعة متوالية ممتنعاً عن إلقاء شيء إلى معدته، فهذه الحمية في مدى ثلاثين يوماً تكفي لتصريف سموم البنية وإيتاء المعدة بفترة من الراحة هي في أشد الحاجة إليها، وإنما كانت أمراض القلب غير قابلة للشفاء لأنه لا سبيل له إلى الوقوف عن العمل مدة تكفي لإصلاح ما فسد منه.

كل هذه الفوائد يمكن الحصول عليها على شرط أن يتبع الإنسان في صيامه تعاليم الدين، من القيام على سَمت الأتقياء في أخلاقه وآدابه، وعدم الإسراف في مأكله ومشربه، واتباع فعل النبي ﷺ فيهما، وهو من صميم قانون الصحة؛ فقد سن أن يعجل الإفطار، وأن يتلطف فيه، وأن ينام في موعد النوم، ويؤخر السحور ما استطاع إلى قبيل الفجر.

---

(١) سورة الأعراف: آية ٣١.

وقد هُدي الأطباء أخيراً إلى ما في الصوم من فائدة عظيمة في دفع الأمراض، وإعادة توازن القوى الحيوية، فقرروا التعويل عليه في حالات لا يغني فيها سواه، وقد عملت في هذا الموضوع بحوث، ووضعت مؤلفات، وأسست لها مصحات في أكبر عواصم الأرض[١].

(١) مجلة «الأزهر»: المجلد السابع، رمضان، ص ٤٨٣ ـ ٤٨٦ بتصرف.

أثر الصيام على صحة الإنسان

بقلم م. ج. معظم، و ك.عبد الخالق

الأستاذان بهيئة تدريس كلية الطب، دكا ـ باكستان[١]

مقدمة:

يصوم المسلمون في شتى بقاع الأرض الشهر القمري التاسع ـ رمضان ـ كل عام حيث يحرم عليهم الأكل والشرب من طلوع الفجر أو ما يقرب من ساعة ونصف قبل شروق الشمس، حتى مغيبها، وما بين الإفطار والإمساك يسمح لهم الأكل والشرب في حدود طاقاتهم.

والصيام فرض على الأصحّاء من الرجال فوق سن الخامسة عشر عاماً والصحيحات من النساء فوق سن اثني عشرة عاماً. أما المرضى والمسافرون فغير ملزمين بالصيام كما تنص الآية: ﴿... وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ...﴾[٢]، ونسبة لتغير الدورة

(١) عرَّبه عن الإنكليزية السيِّد شيخ الدِّين محمد عبد الله، وراجعه وعلَّق عليه الدكتور: أ. أ.

(٢) سورة البقرة: آية ١٨٥.

القمرية فإن هنالك تحوُّلاً في عدة شهر رمضان من عام لآخر حيث يسبق الشهر القمري الشهر الميلادي بأحد عشر يوماً سنوياً.

ويتراوح الصيام اليومي بين اثني عشرة ساعة وتسعة عشر ساعة حسب اختلاف المواقع الجغرافية والمواسم المختلفة التي يحل فيها رمضان، ولهذا يأكل الصائم وجبة أو وجبتين أثناء الليل حسبما تقتضي حاجته وطول مدة الليل حتى مطلع الفجر.

ولقد طال الجدل العلمي حول مدى التأثير الفسيولوجي للصيام على جسم الإنسان، فبينما يرى البعض أنه ضار بالجسم يرى البعض الآخر أنه غير ضار ما دام التغير الوحيد هو في اختلاف موعد تناول وجبات الطعام، وهذا في حد ذاته لا يؤثر في مجموع الطاقة الحرارية (Calorie) التي يحتاجها الجسم طوال الأربعة وعشرين ساعة.

وفي الواقع إنَّ الجسم قد يستهلك كميات أكثر من البروتينات والنشويات والسكريات (Carbohydrate) في رمضان، ومعنى هذا أن يأخذ الجسم كميات أكثر من الطاقة الحرارية (Calorie).

بحث:

ولقد أُجري بحث طبي على ثلاثة عشر متطوع، من بينهم أنثى حامل في شهرها السادس؛ لمعرفة مدى تأثير صوم رمضان على جسم الإنسان، وللمقارنة أُجريت تجربة مماثلة على رجل مفطر عمره سبعة وعشرون عاماً في نفس الوقت وفي ظروف مشابهة، وقد تضمّنت تأثير الصوم في الوزن، والحرارة، والنبض، وضغط الدم،

ونسبة التمثيل الأساسي لخلايا الجسم وتوازن السوائل في الجسم، كما أجري بحث كيماوي على الدم والبول.

طريقة التجربة:

كان من بين الثلاثة عشر متطوعاً: ثلاث نساء أعمارهن على التوالي: ١٧ و ٢٧ و ٤٠ عاماً، وتتراوح أعمار الرجال بين ٢٢ و ٦٩ بمتوسط عمر ٣٣ عاماً، وجميع المتطوعين ينتمون للطبقة المتوسطة والتي يتراوح مقدار ما يحصل عليه كل منهم من الطاقة الحرارية بين ٢,٥٠٠ و ٣,٠٠٠ وحدة حرارية، وجميعهم بحالة صحية جيدة، وكلهم خالٍ من الأمراض العضوية والطفيليات.

وقد أجريت كل الأبحاث والتحاليل اللازمة على جميع المتطوعين قبل بدء رمضان بمدة أسبوع لإمكان المقارنة بين حالتهم قبل الصوم وبعده، وقد أخذت العينات التي أجري عليها البحث قبل تناول إفطار الصباح، أما في رمضان فقد أخذت العينات بعد أن يتناول كل منهم جرعة من الماء فقط عند موعد الإفطار، وقد أعيد إجراء هذه التجارب في اليوم الأول، في العاشر، والأخير من رمضان، وبعد شهر من انتهاء رمضان.

وقد أُجريت الأبحاث على أدق الطرق العلمية الحديثة.

وإليك أيها القارىء الكريم النتائج التي حصلنا عليها من هذه الأبحاث:

النتائج:

١ ـ الوزن:

كانت مآثر الصيام على وزن الجسم هي كما يرى من الجدول الموضح (جدول رقم ١).

١) جدول لبيان أثر الصوم على وزن الجسم «الأرطال»:

	قبل الصوم	رمضان			بعد الصوم
	أ	ب	ج	د	هـ
المقارن «المتطوع الفاطر»	١٤٢	١٤٠	١٤٠	١٤٢	١٤٢
متوسط وزن الصائمين	١٢٢	١٢٢	١٢١	١١٩	١٢١
وزن المرأة الحامل	١٠٦	١٠٦	١٠٨	١١٠	١٧

حيث: أ ـ تعني قبل رمضان.

ب ج، د ـ تعني اليوم الأول والعاشر والأخير من رمضان.

هـ ـ بعد مضي شهر من رمضان.

ويلاحظ من التجربة أنه لم يكن هناك تغيُّر ملحوظ في وزن الرجل المفطر، وباستثناء اثنين من المتطوعين فقد كان هناك نقص بسيط في وزن الصائمين أقصاه سبعة أرطال خلال رمضان، وفي حالة واحدة ظلَّ الوزن كما كان قبل الصيام، كما زاد وزن المرأة الحامل حوالي أربعة أرطال خلال فترة الصيام، وفي نصف العدد تقريباً

عـاد وزنهم كما كان قبل الصيام في التجربة التي أجريت بعـد شهر من انتهاء الصوم.

٢ ـ الجهاز الدموي:

لم يكن هناك تأثير ظاهر على نسبة النبض وحرارة الجسم من جرَّاء الصيام، وبقيت حالة الهيموجلوبين عادية، ويعتقد أنَّ السبب هو أنَّ وقت الصوم غير كاف لإحداث أي تركيز يذكر في الهيموجلوبين، كما لم يكن هنالك تغيير ملحوظ في ضغط الدم عند المتطوعين بصفة عامة وإن كان هناك هبوط بسيط في ضغط الدم في بعض الحالات في الفترة الأولى من رمضان.

ملاحظة: التمثيـل الحـراري هـو مقـدار مـا يـأخـذه الجسـم مـن الأكسجين وما يطرده من ثاني إكسيد الكربون ليتمكَّن من استمرار نشاطه، ووحدته السعر الحراري، والجسم يأخذ عادة ما يعادل حوالي ٣٠٠٠ سعر حراري.

٣ ـ نسبة التمثيل الحراري للخلايا (Basal Metabolic):

لم يكن هنالك تغيير ملحوظ في نسبة التمثيل الأساسي في خلال الجسم طوال فترة الصوم، غير أنه في حالة المرأة الحامل كان مرتفعاً ويتراوح بين + ١,١٥ سعراً ـ أكثر من المعتاد في أيام الصيام الأولى ـ و + ٢٦,١٥ سعراً بعد مضي شهر رمضان، وهذه النتيجة في حدود طاقة الجسم إذا ما أعطي اعتبار لكونها حامل.

٤ ـ نسبة السكّر في الدم:

(جدول رقم ٢) نرى في الجدول الموضح، مدى التغيير في مستويات كمية السكّر في الدم.

جدول يوضح أثر رمضان على سكر الدم:

(مليجرام ـ ١٠٠مم في الدم)

	قبل الصوم	رمضان			بعد الصوم
	أ	ب	ج	د	هـ
المقارن «المفطر»	٩٢	٨٧	٩٠	٨٨	٩٣
متوسط مستوى سكر الدم بالنسبة المئوية عند الصائمين	٨٤	٨٠	٨٠	٧٤	٨٦
المرأة الحامل	٨٨	٨٤	٧٣	٦٨	٨١

حيث: أ ـ قبل رمضان.

ب ج، د ـ اليوم الأول والعاشر والأخير من رمضان.

هـ ـ بعد مضي شهر من رمضان.

ومن هذا الجدول يلاحظ أنه كان هناك هبوط واضح في مستويات كمية السكر في الدم، وفي عشر حالات فردية للمتطوعين كانت النسبة أقل من ٧٠ مليجرام في المئة ويعتبر هذا الحد هو الحد الأدنى للحالة الطبيعية عند الإنسان، ولم يحدث إطلاقاً أن

ارتفعت نسبة سكر الدم أكثر من ١٠٤ مليجرام في المئة في كل حالات البحث.

٥ ـ درجة استهلاك السكر (Slucore Tul. Test):

كما أُجريت تجربة على أربعة من المتطوعين ـ من بينهم امرأة ـ قبل رمضان مرة، ثم في اليوم الأخير منه مرة أخرى لمعرفة مدى التغير في سرعة استهلاك السكر في الدم عند الصيام.

القلوكوز Glucose: ويلاحظ أنه لم يكن هنالك تغيُّر ملحوظ عن النسبة المعتادة عند المفطر، كما لوحظ أنَّ محتويات الدم وعناصره بقيت في الحدود العادية طوال مدة الصوم، كما لوحظ أنَّ وظيفة الكبد ظلَّت طبيعية.

٦ ـ توازن السوائل:

يلاحظ أنَّ كمية ما يأخذه المتطوع من السوائل كان كافياً للجسم عند معظمهم وكان عند البعض أعلا نسبيّاً بحيث يصل الجدول رقم ٣، وفي غضون الأربع وعشرين ساعة كانت بصفة عامة في الحدود العادية وإن سجّلت نسبة أقل من وقت لآخر بالنسبة للصائمين، كما سجّلت نفس النتيجة للرجل المفطر، وهي بلا شك نتيجة لتقلُّبات الطقس وتبخُّر الماء عن طريق مسام الجسم وليست نتيجة للصيام، والدليل على ذلك أنَّ نفس النتيجة وجدت عند الصائم والمفطر سواء بسواء.

(جدول رقم ٣) جدول يوضح أثر رمضان على كمية التبول.

(لترات ـ في اليوم)

	قبل الصوم	رمضان			بعد الصوم
	أ	ب	ج	د	هـ
المقارن «الرجل المفطر»	١٠٢	١٠١	٠٥	٠٤	٠
متوسط تبول الصائمين	١٠٤	١٠٧	١٠٢	١٠٢	١٠٤
المرأة الحامل	١٠٤	١٠٣	١٠٣	٠٨	١٠٤

حيث: أ ـ قبل رمضان.

ب ج، د ـ اليوم الأول والعاشر والأخير من رمضان.

هـ ـ بعد مضي شهر من رمضان.

ويستنتج من ذلك أنه لم يكن هنالك أي تغير في وظيفة الكليتين أثناء الصوم إذ لوحظ أنَّ مركبات البول كانت طبيعية في كل التجارب.

والنتيجة الواضحة لذلك: أثبتت الأبحاث الطبية السالفة بأنَّ الصيام ليس ذا أثر يذكر على تدهور صحة الإنسان ـ لو صح أنَّ هنالك تدهور على الإطلاق ـ وفي معظم الحالات يلاحظ نقصان بسيط في الوزن وانخفاض ضئيل في مستوى كمية سكر الدم عند الغروب نتيجة لطول اليوم ولكنه في حدود طاقة الجسم وفي المستوى الفسيولوجي الطبيعي.

ويجدر أن نذكر هنا أنَّ الملاحظات الآنفة الذكر انطبقت على أناس أصحَّاء، وليس معنى هذا أنها يمكن أن تنطبق على المرضى أو

ذوي العاهات، ومن المصلحة أن يعرف مدى تأثير رمضان على المصابين بالسكر أو أي أمراض مستعصية.

وقد لوحظ أنَّ هنالك فتوراً عاماً عند الصائمين خصوصاً في الساعات الأخيرة من اليوم، وربما كان ذلك نتيجة لانخفاض مستويات كمية السكر في الدم، ولكن سرعان ما يدب النشاط بعد تناول الإفطار.

تعليق للدكتور أ. أ. :

أثبت هذا البحث الحديث الذي أجراه عالمان مسلمان ـ على أسس علمية سليمة ـ أنَّ الصوم ليس له أي تأثير ضار بالجسم بل بالعكس أود أن أضيف إلى ذلك أنَّ للصوم فوائد أثبتها العلم أيضاً أهمها:

١ ـ راحة الجهاز الهضمي ساعات كل يوم، والمعروف عن الجهاز الهضمي كغيره من الأحشاء الداخلية أنه آلة تعمل بلا انقطاع من ساعة أن يرضع الطفل لأول مرة من ثدي أمه إلى أن يموت.

ومن الأمور الطبيعية في علاج كثير من المرضى الصوم عن الطعام لساعات معلومة وخاصة منها تحضير للعمليات الكبيرة إذ يشترط فيها خلو المعدة من الطعام خلوّاً تامّاً قبل إعطاء البنج، بل وفي العمليات المستعجلة ربما اضطر الجراح إلى تفريغ المعدة قبل إعطاء البنج.

٢ ـ المعروف علمياً أنَّ القليل من الطعام خير من الكثير، بل إنَّ الأكل في مواعيد ثابتة لا يتخللها أكلات خفيفة، مع أخذ الوجبات بحيث تكفي الطاقة اللازمة للجسم هو أفضل بكثير من ملء المعدة وحشوها بما يفيد وما لا يفيد، وهذه في ذاتها إحدى فضائل الصوم الجسمانية حيث يكتفي الصائم بالقليل من الطعام عند إفطاره وهذه هي سنَّة المصطفى ﷺ عند صومه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾(١).

٣ ـ ثابت علمياً أنَّ الإكثار من الطعام له مضار ظاهرة بل وأمراض محددة لها علاقة مباشرة بالإكثار من الطعام، كبعض الأمراض الروماتزمية وأمراض القلب وضغط الدم والبول السكري، فلا غرو أن كان في الصوم راحة للجسم لمدة كل عام هي ١/١٢ من عمر المريض، ويلاحظ انتشار مثل هذه الأمراض بنسبة أعلا منها في البلاد حيث الصوم مفروض ومؤدى.

وبعد، فهذه تجربة جزئية لكي يرى مَن لم يكن قد رأى أثر الصوم في المسلم وفي تعوُّده على الشدة وكبح جماح شهوة البطن وهي أقوى الشهوات، وفي تكوين الفرد الصلب الذي لا يلين، وأنَّ ثلاثة عشر قرناً أو تزيد لشاهدة على تكوين هذا المثل الدائم لأثر الصوم لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد(٢).

---

(١) سورة الحشر: آية ٧.
(٢) مجلة «المسلمون»: العدد ٦، رمضان سنة ١٣٨١هـ، ص ٥٥٣ ـ ٥٥٩.

من حديث الصوم ناحيته الصحية

للدكتور عبد الجليل شلبي

قال الدكتور:

الحديث عن الصوم حديث طريف غض على الرغم من تجدد موضوعه في كل عام وتكراره أكثر في جلّ المقامات، ولعل طرافة هذا الحديث هي الموضوع نفسه؛ فالناس يستقبلون هذا الشهر بشيء من المحبة والشوق يجعل الحديث عنه ـ أيضاً ـ شائقاً ومحبوباً.

ولقد تحدَّث العلماء كثيراً في هذا الموضوع، ونال من عناية الكاتبين دينيين وغير دينيين ما لم ينله موضوع آخر، ولكنا نجد أولئك الباحثين يعنون كثيراً بالنواحي الروحية المعنوية في هذا الموضوع أكثر مما يعنون بالناحية المادية الجسمية؛ فهم يتحدَّثون عن معاني إنكار الذات، وشيوع التعاون، والرفق بالضعاف، وتهذيب النفس البشرية. . . إلخ، والحق أنَّ هذه المزايا المعنوية أبرز ما نجد في مزايا الصوم، ومن حقها أن تنال من عناية الصائمين جميعاً ما نالت من عناية العلماء والكاتبين، ولكننا نقتصر على مزاياه الجسمية وحدها، وهي

مادية بحتة وليست أهم مراميه وأغراضه؛ ذلك لأننا نعيش في عصر مادي لا يلتفت الناس فيه إلى المعنويات حتى في بحوثهم الكلامية، فأَحْرِ بها أن تهمل عندهم فيما يزاولون من أعمال، وكأنما يتحدَّث الإنسان إلى نفسه حينما يطيل البحث في هذه المعنويات، خصوصاً في أمة يقل فيها المثقفون.

إنَّ في قول الرسول ﷺ: «**صوموا تصحوا**» إيذاناً بأن في الصوم فائدة طبية كبرى: هي صحة الجسم المريض مما أصابه، أو على الأقل بقاء الجسم الصحيح على صحته.

فهل يؤيد الطب الحديث هذا؟ هل كشف الأطباء أنَّ في الصوم علاجاً لبعض الأمراض أو وقاية منها؟ إنَّ الحديث نفسه لا يهمه أن يتفق معه العلم الحديث أو لا يتفق، وليس في مخالفة العلم الحديث للآثار النبوية ما يضعفها يغض من قيمتها. فهذا العلم إلى اليوم ـ مع ما أتى به من العجائب ـ لم يعرف الكلمة الأخيرة التي يقف عندها مطمئنّاً في أي موضوع بحثه، وكثيراً ما وقف الدين والعلم مختلفين ثم امتدَّ نظر العلم واتَّسعت كشوفه فتجلى له خطؤه، وأوقفته تجاربه على ما يؤيد رأي الدين، فنحن لا نستفتي العلم لنثبت للدين مفخرة وشرفاً، ولكن لنرى رأي العين إلى أي حد كان الرسول الذي لا ينطق عن الهوى حكيماً فيما دعا إليه، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ليطمئن الماديُّون الذين لا يطمئنون إلى الشيء إلاَّ إذا أيَّده بحث علمي، فهم يقيسون طول الحقائق في الآثار الدينية بما يتضافر معها من أدلَّة العلم، وحبيب لدينا أن نحتكم إلى بحوث

العلم ـ أيّاً كان نوعه ـ في كل مسألة من مسائل الدِّين لا في خصوص الصوم، وإن في احتكام القرآن إلى العقل وتحاكمه إلى المنطق في كل مسألة تثار احتكاماً أيضاً إلى العلم كهذا الاحتكام الذي ندعو إليه وإن اختلفت المظاهر وتنوَّعت الأساليب، ولعلنا لو فعلنا ذلك ما كان بيننا وبين المجادلين خلاف، ولكن الغرور طَوّح ببعض الأحداث الذين تثقَّفوا بقشور من الثقافة الغربية إلى مهاوٍ سحيقة من الضلال، فأصبحنا نجد بيننا شباباً متمرّداً على كثير من العبادات كأنما يرونها من عبث الأعمال!

ولنعد إلى الحديث من جديد: هناك ما يبدو متضارباً معه وهو ما يرى في مضرة الجوع الطويل بالأجسام مضرة تظهر في نحولها وشحوب ألوانها، وإنَّ البيئات الفقيرة التي يقسو عليها الإقلال والفاقة يرزح ذووها تحت عبء ثقيل من الأمراض الفتَّاكة الأليمة، ولكن الصوم لا يبلغ الجوع فيه هذه المنزلة ولا ما هو منها قريب، فهو انقطاع عن الطعام سحابة النهار، وللصائم أن يتمتع في ليله بما يشتهي من ألوان الطعام والشراب؛ وقد ظهر الشارع بمظهر الرفيق المشفق حين ندب السحور ودعا إلى تأخيره، وطلب تعجيل الإفطار، ثم تفضل فأسقط فريضة الصوم عمن يشق عليهم، فأباح الفطر للمريض والمسافر والمرضع والحامل والشيخ المسن، كل هذا رفقاً بالإنسان وحرصاً على سلامة كيانه وقوَّة بدنه، وإذن فليس في الصوم مضرَّة جسمية، فما هي الأمراض التي يمكن أن يكون وقاية منها؟

يقرر الطب الحديث أن فيه وقاية وعلاجاً لعدَّة أمراض، أهمها هذه[1]:

(أ) **اضطراب التمثيل الغذائي،** كما يحصل في حالات الروماتزم والنقرس المزمن والسمنة والبدانة الناشئة عن التخمة والإفراط في الطعام.

(ب) أمراض المعدة والكبد والأمعاء.

(جـ) التهابات الكلى وحصياتها.

وتعليل هذا ظاهر؛ فإنَّ استمرار الإنسان على طعامه وإفراطه فيه يجعل هذه الأعضاء في عمل مستمر، وإزاء هذا المجهود الدائم الذي تقوم به تفتر ويعتريها الكلال فلا تستطيع أداء أعمالها على وجه مفيد، فإذا لم تعط فترة تستجم فيها من هذا النصب زادت آلامها، وتولَّدت فيها هذه الأمراض.

(د) **أنواع كثيرة من الحميات،** منها «التيفوئيد» والنزلات المعوية والدوسنطاريا، تلك الأمراض التي يكون فيها الجهاز الهضمي مضطرباً، وكثيراً ما نرى الأطباء يسرعون في هذه الحالات بإخلاء أجواف المرضى ثم تركهم بدون طعام مدة تهدأ فيها أحشاؤهم وتستجم.

---

(١) قال الدكتور: انظر «تدبير الصحة» للدكتور محمد جعفر، أستاذ الصحة بكلية اللغة العربية، ففيه بحث واسع في هذا الموضوع استخلصنا منه هذا المقال.

(هـ) أمراض القلب والشرايين:

قال الدكتور جعفر وهو من هو بحثاً وعلماً:

«ولقد شوهد أنَّ الإفراط في الطعام والشراب يسبب تشحُّماً في القلب وضخامة به، كما يحدث تصلُّباً في الشرايين وارتفاعاً في ضغط الدم مما قد يؤدي إلى النزيف الدموي في المخ أو في جزء من أجزاء الجسم أو إلى هبوط القلب، لذلك كان الصيام أول وسيلة في علاج ارتفاع الضغط الذاتي، وكذلك في علاج هبوط القلب».

(و) البول السكري:

يدل على ذلك أيضاً شيوع هذا المرض بين الأغنياء والمترفين الذين يتمتعون بقسط كبير من الراحة ونوع ممتاز من الغذاء وفي الصوم نوع من الرياضة للأعضاء الداخلية من الجسم يكسبها قوة وخشونة.

كل هذا فضلاً عمَّا تناله الجهاز أعضاء الهضمي من الراحة التي تقوى بها على هضم الأغذية وتمثيلها، كما تستطيع بهذا الجِمام[1] أن تسعف الأطعمة بمقدار كاف من العصارات يجعل الغذاء أكثر فائدة للجسم وأيسر عليه هضماً، كذلك يستطيع الجسم أن يتخلص من كثير من السموم والفضلات الضارَّة به. فالصائم وإن بدت عليه سمات من

(١) أي الراحة.

النحول قد استفاد جسمه نقاء في دمه وقوة في أعضائه، وليست صحة الأجسام مما يقاس بالضخامة والنحول، ذلك كله مصداق لقول الرسول الكريم: «**صوموا تصحُّوا**»، وقول الحكيم: «المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء».

تلك كلمة موجزة في هذا الموضوع، وفي الكتب الطبية مطولات واسعة فيه وبحوث شائقة، فليرجع إليها من أراد دراسته بتوسعة[١].

(١) مجلة «الأزهر»: المجلد ١٣، الجزء ٩، رمضان ١٣٦١، ص ٤٢٥ ـ ٤٢٧.



العشر الأواخر والاعتكاف
وليلــة القــدر

هديه ﷺ في الاعتكاف
للإمام ابن القيم

قال الإمام:

لما كان صلاحُ القلبِ واستقامتُه على طريق سيره إلى الله تعالى متوقِّفاً على جمعيَّته على الله، ولمِّ شعثه بإقباله بالكلية على الله تعالى، فإنَّ شعث القلب لا يلمه إلاَّ الإقبال على الله تعالى، وكان فُضولُ الطعام والشراب، وفُضولُ مخالطة الأنام، وفضولُ الكلام، وفضولُ المنام مما يزيدُه شعثاً، ويُشتته في كل وادٍ، ويقطعه عن سيره إلى الله تعالى، أو يُضعِفه، أو يعوقه ويوقفه: اقتضت رحمة العزيز الرحيم بعباده أن شرع لهم من الصوم ما يُذهب فضول الطعام والشراب، ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات المعوقة له عن سيره إلى الله تعالى وشرعه بقدر المصلحة، بحيث ينتفعُ به العبد في دنياه وأخراه، ولا يضرُّه ولا يقطعه عن مصالحه العاجلة والآجلة، وشرع لهم الاعتكاف الذي مقصوده وروحه عكوف القلب على الله تعالى، وجمعيته عليه، والخلوة به، والانقطاع عن الاشتغال بالخلق والاشتغال به وحده سبحانه بحيث يصير ذكره وحبه، والإقبال عليه في محل هموم القلب وخطراته، فيستولي عليه بدلها، ويصير الهم كله به، والخطرات كلها

بذكره، والتفكُّر في تحصيل مراضيه وما يقرب منه، فيصيرُ أُنسه بالله بدلاً عن أُنسه بالخلق، فيعده بذلك لأنسه به يوم الوَحشة في القبور حين لا أنيس له، ولا ما يفرحُ به سواه، فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم.

ولما كان هذا المقصود إنما يتمُّ مع الصوم، شرع الاعتكاف في أفضل أيام الصوم، وهو العشر الأخير من رمضان، ولم يُنقل عن النبي ﷺ، أنه اعتكف مفطراً قطُّ، بل قد قالت عائشة: «لا اعتكاف إلاَّ بصوم».

ولم يذكر الله سبحانه الاعتكاف إلاَّ مع الصوم، ولا فعله رسول الله ﷺ إلاَّ مع الصوم.

فالقول الراجح في الدليل الذي عليه جمهورُ السلف: أنَّ الصوم شرطٌ في الاعتكاف، وهو الذي كان يُرجحه شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية:

وأما الكلامُ فإنه شُرع للأمة حبس اللسان عن كل ما لا ينفع في الآخرة.

وأما فضول المنام فإنه شرع لهم من قيام الليل ما هو من أفضل السهر وأحمده عاقبةً ، وهو السهر المتوسط الذي ينفع القلب والبدن، ولا يعوق عن مصلحة العبد، ومدار رياضة أرباب الرياضيات والسلوك علي هذه الأركان الأربعة، وأسعدُهم بها من سلك فيها المنهج النبوي

المحمدي، ولم ينحرف انحراف الغالين، ولا قصر تقصير المفرطين، وقد ذكرنا هديه ﷺ في صيامه وقيامه وكلامه، فلنذكر هديه في اعتكافه.

كان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان، حتى توفَّاه الله عزَّ وجلّ وتركه مرة، فقضاه في شوال.

واعتكف مرة في العشر الأُول، ثم الأوسط، ثم العشر الأخير، يلتمس ليلة القدر، ثم تبيَّن له أنها في العشر الأخير، فداوم على اعتكافه حتى لحق بربه عزَّ وجلّ.

وكان يأمر بخباءٍ فيُضرب له في المسجد يخلُو فيه بربه عزَّ وجلّ.

وكان إذا أراد الاعتكاف صلَّى الفجر ثم دخله فأمر به مرة فضرب، فأمر أزواجه بأخبيتهن فضربت، فلما صلَّى الفجر نظر فرأى تلك الأخبية، فأمر بخبائه فَقُوِّضَ، وترك الاعتكاف في شهر رمضان حتى اعتكف في العشر الأُول من شوال.

وكان يعتكف كل سنة عشرة أيام، فلما كان في العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يوماً، وكان يعارضه جبريل بالقرآن كل سنةٍ مرة، فلما كان ذلك العام عارضه به مرتين، وكان يعرض عليه القرآن أيضاً في كل سنة مرة فعرض عليه تلك السَّنة مرَّتين.

وكان إذا اعتكف دخل قُبَّته وحده، وكان لا يدخل بيته في حال اعتكافه إلاَّ لحاجة الإنسان، وكان يُخرجُ رأسه من المسجد إلى بيت

عائشة، فترجَّله، وتغسله وهو في المسجد وهي حائض، وكانت بعض أزواجه تزوره وهو معتكِف، فإذا قامت تذهبُ، قام معها يَقلبها، وكان ذلك ليلاً، ولم يُباشر امرأة من نساءه وهو معتكف لا بِقُبلة ولا غيرها، وكان إذا اعتكف طُرح له فراشه ووضع له سريره في معتكفه، وكان إذا خرج لحاجته مرَّ بالمريض وهو على طريقه، فلا يُعرج عليه ولا يسأل عنه، واعتكف مرة في قبة تُركية[(١)]، وجعل على سدَّتها حصيراً، كل هذا تحصيلاً لمقصود الاعتكاف وروحه، عكس ما يفعله الجهال من اتخاذ المعتكف موضع عشرة، ومجلبة للزائرين، وأخذهم بأطراف الأحاديث بينهم، فهذا لون، والاعتكاف النبوي لون، والله الموفق[(٢)].

---

(١) قال المحقق: قوله «قبة تركية»: أي قبة صغيرة من لبود.
(٢) «زاد المعاد»: ٢/٨٦ ـ ٩٠.

ذكر العشر الأواخر من رمضان
للإمام ابن رجب الحنبلي

قال الإمام:

في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: «**كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله**» هذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم: «**أحيا الليل وأيقظ أهله وشدَّ المئزر**»، وفي رواية لمسلم عنها قالت: «**كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره**».

كان النبي ﷺ يخص العشر الأواخر من رمضان بأعمال لا يعملها في بقية الشهر، فمنها إحياء الليل، فيحتمل أنَّ المراء إحياء الليل كله... وفي المسند من وجه آخر عنها قالت: كان النبي ﷺ يخلط العشرين بصلاة ونوم فإذا كان العشر يعني الأخير شمر وشد المئزر...

ويحتمل أن يريد بإحياء الليل إحياء غالبه... ويؤيده ما في صحيح مسلم عن عائشة قالت: «ما أعلمه ﷺ قام ليلة حتى الصباح»... وقد نقل الإمام الشافعي عن جماعة من خيار أهل المدينة ما يؤيِّده ونقل بعض أصحابهم عن ابن عباس أنَّ إحياءها يحصل بأن يصلِّي العشاء في جماعة ويعزم على أن يصلِّي الصبح في جماعة.

وقال مالك في «الموطأ»: بلغني أنَّ ابن المسيب قال: «من شهد

العشاء ليلة القدر ـ يعني في جماعة ـ فقد أخذ بحظّه منها» وكذا قال الشافعي في القديم: من شهد العشاء والصبح ليلة القدر فقد أخذ بحظّه منها. . .

ومنها أنَّ النبي ﷺ كان يوقظ أهله للصلاة في ليالي العشر دون غيره من الليالي. . .

قال سفيان الثوري: «أحب إليَّ إذا دخل العشر الأواخر أن يتهجَّد بالليل ويجتهد فيه، وينهض أهله وولده إلى الصلاة إن أطاقوا ذلك».

وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه كان يطرق فاطمة وعليّاً ليلاً فيقول لهما: ألا تقومان فتصلِّيان، وكان يوقظ عائشة بالليل إذا قضى تهجُّده وأراد أن يوتر وورد الترغيب في إيقاظ أحد الزوجين صاحبه للصلاة ونضح الماء في وجهه.

وفي الموطأ أنَّ عمر بن الخطَّاب كان يصلِّي من الليل ما شاء الله أن يصلِّي حتى إذا كان نصف الليل أيقظ أهله للصلاة يقول لهم: «**الصلاة الصلاة**»، ويتلو هذه الآية: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ الآية[1].

كانت امرأة حبيب أبي محمد تقول له بالليل: قد ذهب الليل، وبين أيدينا طريق بعيد وزاد قليل، وقوافل الصالحين قد سارت قدامنا ونحن قد بقينا:

يا نائم الليل كم ترقد ... قم يا حبيبي قد دنا الموعد
وخذ من الليل وأوقاته ... وردا إذا ما هجع الرُّقَّدُ
من نام حتى ينقضي ليله ... لم يبلغ المنزل أو يجهد

---

(١) سورة طه: آية ١٣٢.

قل لذوي الألباب أهل التقى   قنطرة العرض لكم موعد

ومنها أنَّ النبي ﷺ كان يشد المئزر، واختلفوا في تفسيره، فمنهم من قال هو كناية عن شدة جدِّه واجتهاده في العبادة؛ كما يقال فلان يشد وسطه ويسعى في كذا، وهذا فيه نظر؛ فإنها قالت: جد وشد المئزر فعطفت شد المئزر على جِدِّه، والصحيح أنَّ المراد اعتزاله النساء، وبذلك فسَّره السلف والأئمة المتقدِّمون منهم سفيان الثوري، وقد ورد ذلك صريحاً من حديث عائشة وأنس، وورد تفسيره بأنه لم يأوِ إلى فراشه حتى ينسلخ رمضان، وفي حديث أنس: «**وطوى فراشه واعتزل النساء**»، وقد كان النبي ﷺ غالباً يعتكف العشر الأواخر، والمعتكف ممنوع من قرب النساء بالنص والإجماع، وقد قالت طائفة من السلف في تفسيره قوله تعالى: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[1] أنه طلب ليلة القدر والمعنى في ذلك أنَّ الله تعالى لما أباح مباشرة النساء في ليالي الصيام إلى أن يتبيَّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود أمر مع ذلك بطلب ليلة القدر لئلا يشتغل المسلمون في طول ليالي الشهر بالاستمتاع المباح فيفوتهم طلب ليلة القدر، فأمر مع ذلك بطلب ليلة القدر بالتهجُّد من الليل خصوصاً في الليالي المرجو فيها ليلة القدر، فمن ههنا كان النبي ﷺ يصيب من أهله في العشرين من رمضان ثم يعتزل نساءه ويتفرَّغ لطلب ليلة القدر في العشر الأواخر.

ومنها تأخيره للفطور إلى السحور، روي عنه من حديث عائشة وأنس أنه ﷺ «**كان في ليالي العشر يجعل عشاءه سحوراً**»، ولفظ حديث

(١) سورة البقرة: آية ١٨٧.

عائشة: «**كان رسول الله ﷺ إذا كان رمضان قام ونام، فإذا دخل العشر شد المئزر واجتنب النساء واغتسل بين الأذانين وجعل العشاء سحوراً**» أخرجه ابن أبي عاصم وإسناده مقارب... وفي الصحيحين ما يشهد لهذه الروايات عن أبي هريرة قال: «**نهى رسول الله ﷺ عن الوصال في الصوم**»، فقال له رجل من المسلمين: إنك تواصل يا رسول الله، فقال: «**وأيكم مثلي إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني**»، فلما أبوا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يوماً ثم يوماً ثم رأوا الهلال فقال: «**لو تأخَّر لزدتكم**» كالتنكيل لهم حين أبوا أن ينتهوا، فهذا يدل على أنه واصل بالناس في آخر الشهر، وروى عاصم بن كليب عن أبيه عن أبي هريرة قال: «ما واصل النبي ﷺ وصالكم قط غير أنه قد أخَّر الفطر إلى السحور» وإسناده لا بأس به...

وزعم ابن جرير أنَّ النبي ﷺ لم يكن يواصل في صيامه إلاَّ إلى السَّحَر خاصة، وأنَّ ذلك لا يجوز لمن قوي عليه ويكره لغيره، وأنكر أن يكون استدامة الصيام في الليل كله طاعة عند أحد من العلماء، وقال: إنما كان يمسك بعضهم لمعنى آخر غير الصيام ما ليكون أنشط له على العبادة أو إيثاراً بطعامه على نفسه أو لخوف مقلق[1] منعه طعامه أو نحو ذلك، فمقتضى كلامه أنَّ من واصل ولم يفطر ليكون أنشط له على العبادة من غير أن يعتقد أنَّ إمساك الليل قربة أنه جائز وإن أمسك تعبُّداً بالمواصلة فإن كان إلى السحر وقوي عليه لم يكره وإلاَّ كره، ولذلك قال أحمد وإسحاق: لا يكره الوصال إلى السحر، وفي صحيح البخاري عن أبي

(١) أي لخوف من الآخرة.

سعيد البخدري عن النبي ﷺ قال: «**لا تواصلوا فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر**»، قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله، قال: «**إني لست كهيئتكم إني أبيت لي مطعم يطعمني وساقٍ يسقيني**»، وظاهر هذا يدل على أنه ﷺ كان يواصل الليل كله، وقد يكون ﷺ إنما فعل ذلك لأنه رآه أنشط له على الاجتهاد في ليالي العشر ولم يكن ذلك مضعفاً له عن العمل؛ فإن الله كان يطعمه ويسقيه.

واختلف في معنى إطعامه فقيل: إنه كان يُؤتى بطعام من الجنة يأكله؛ وفي هذا نظر؛ فإنه لو كان كذلك لم يكن مواصلاً، وقد أقرَّهم على قولهم له: إنك تواصل، لكن روى عبد الرزاق في كتابه عن ابن جريج: أخبرني عمرو بن دينار أنَّ النبي ﷺ نهى عن الوصال، قالوا: فإنك تواصل، قال: «**وما يدريكم لعلَّ ربي يطعمني ويسقيني**»، وهذا مرسل.

وفي رواية لمسلم من حديث أنس: «**إني أظل يطعمني ربي ويسقيني**»، وإنما يقال: ظل يفعل كذا إذا كان نهاراً ولو كان أكلاً حقيقيّاً لكان منافياً للصيام، والصحيح أنه إشارة إلى ما كان الله يفتحه عليه في صيامه وخلوته بربه لمناجاته وذكره من مواد أنسه ونفحات قدسه، فكان يرد بذلك على قلبه من المعارف الإلٰهية والمنح الربانية ما يغذيه ويغنيه عن الطعام والشراب كما قيل:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها
عن الطعام وتلهيها عن الزاد

لها بوجهك نور تستضيء به
وقت المسير وفي أعقابها حادي

إذا شكت من كلال السير أوعدها
روح القدوم فتحيا عند ميعاد

الذكر قوت قلوب العارفين يغنيهم عن الطعام والشراب كما قيل:

أنت ربي إذا ظمئت إلى الماء وقوتي إذا أردت الطعاما

لما جاع المجتهدون شبعوا من طعام المناجاة فأُفٍّ لمن باع لذَّة المناجاة بفضل لقمة...

ويتأكَّد تأخير الفطر في الليالي التي ترجى فيها ليلة القدر، قال زِرُّ ابن حبيش: في ليلة سبع وعشرين مَن استطاع منكم أن يؤخِّر فطره فليفعل، وليفطر على ضياح لبن... وضياح اللبنِ وروى «ضيح» بالضاد المعجمة والياء آخر الحروف هو اللبن الخاثر الممزوج بالماء ومنها اغتساله بين العشاءين، وقد تقدَّم من حديث عائشة واغتسل بين الأذانين والمراد أذان المغرب والعشاء...

وقال ابن جرير: كانوا يستحبون أن يغتسلوا كل ليلة من ليالي العشر الأواخر، وكان النَّخَعي يغتسل في العشر كل ليلة، ومنهم من كان يغتسل ويتطيَّب في الليالي التي تكون أرجى لليلة القدر، فأمر زِرّ بن حبيش بالاغتسال ليلة سبع وعشرين من رمضان، وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه إذا كان ليلة أربع وعشرين اغتسل وتطيَّب ولبس حلَّة إزار أو رداء، فإذا أصبح طواهما فلم يلبسهما إلى مثلها من قابل.

وكان أيوب السَّخْتياني يغتسل ليلة ثلاث وعشرين وأربع وعشرين ويلبس ثوبين جديدين ويستجمر ويقول ليلة ثلاث وعشرين هي ليلة أهل المدينة والتي تليها ليلتنا، يعني البصريين.

وقال حماد بن سلمة: كان ثابت البناني وحُمَيْد الطويل يلبسان أحسن ثيابهما ويتطيَّبان ويطيِّبون المسجد بالنضوح والدخنة في الليلة التي ترجى فيها ليلة القدر.

وقال ثابت: كان لتميم الداري حلَّة اشتراها بألف درهم وكان يلبسها في الليلة التي ترجى فيها ليلة القدر فتبيَّن بهذا أنه يستحب في الليالي التي ترجى فيها ليلة القدر التنظُّف والتزيُّن والتطيُّب بالغسل والطيب واللباس الحسن، كما يشرع ذلك في الجمع والأعياد، وكذلك يشرع أخذ الزينة بالثياب في سائر الصلوات كما قال تعالى: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[1]، وقال ابن عمر: «الله أحق أن يُتزين له» وروى عنه مرفوعاً، ولا يكمل التزيُّن الظاهر إلاَّ بتزيُّن الباطن بالتوبة والإنابة إلى الله تعالى وتطهيره من أدناس الذنوب وأوضارها، فإنَّ زينة الظاهر مع خراب الباطن لا تغني شيئاً، قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[2].

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى
تقلب عُرياناً وإن كان كاسياً

لا يصلح لمتناجاة الملك في الخلوات إلاَّ من زيَّن ظاهره وباطنه وطهَّرهما خصوصاً لملك الملوك الذي يعلم السر وأخفى، وهو لا ينظر إلى صوركم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، فمن وقف بين يديه فليزين له ظاهره باللباس وباطنه بلباس التقوى . . .

---

(١) سورة الأعراف: آية ٣١.
(٢) سورة الأعراف: آية ٢٦.

ومنها الاعتكاف، ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى، وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين» وإنما كان يعتكف النبي ﷺ في هذا العشر التي يطلب فيها ليلة القدر قطعاً لأشغاله وتفريغاً لباله وتخلِّياً لمناجاة ربه وذكره ودعائه، وكان يحتجر حصيراً يتخلَّى فيها عن الناس فلا يخالطهم ولا يشتغل بهم، ولهذا ذهب الإمام أحمد إلى أنَّ المعتكف لا يستحب له مخالطة الناس حتى ولا لتعليم علم وإقراء قرآن؛ بل الأفضل له الانفراد بنفسه والتخلِّي بمناجاة ربه وذكره ودعائه، وهذا الاعتكاف هو الخلوة الشرعية، وإنما يكون في المساجد لئلا يترك به الجمع والجماعات؛ فإنَّ الخلوة القاطعة عن الجمع والجماعات منهي عنها: سئل ابن عباس عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل ولا يشهد الجمعة والجماعة، قال: هو في النار؛ فالخلوة المشروعة لهذه الأمة هي الاعتكاف في المساجد خصوصاً في شهر رمضان خصوصاً في العشر الأواخر منه كما كان النبي ﷺ يفعله، فالمعتكف قد حبس نفسه على طاعة الله وذكره وقطع عن نفسه كل شاغل يشغله عنه وعكف بقلبه وقالبه على ربه وما يقربه منه، فما بقي له هم سوى الله وما يرضيه عنه كما كان داود الطائي يقول في ليله: هَمُّك عَطَّل علي الهموم، وحال بيني وبين السُّهاد[1]، وشوقي إلى النظر إليك أوثق مني اللذات وحال بيني وبين الشهوات. . .

---

(١) الأرق والسهر.

فمعنى الاعتكاف وحقيقته قطع العلائق عن الخلائق للاتصال بخدمة الخالق وكلما قويت المعرفة بالله والمحبة له والأنس به أورثت صاحبها الانقطاع إلى الله تعالى بالكلية على كل حال، كان بعضهم لا يزال منفرداً في بيته خالياً بربه فقيل له: أما تستوحش، قال: كيف أستوحش وهو يقول: أنا جليس من ذكرني. . .

يا ليلة القدر للعابدين اشهدي، يا أقدام القانتين اركعي لربك واسجدي، يا ألسنة السائلين جدي في المسألة واجتهدي:

يا رجال الليل جدّوا ... رب داع لا يرد
ما يقوم الليل إلاَّ ... مَن له عزم وجد

ليلة القدر عند المحبين ليلة الحظوة بأنس مولاهم وقربه، وإنما يفرون من ليالي البعد والهجر. كان ببغداد موضعان يقال لأحدهما دار الملك، والأخرى القطيعة، فجاز بعض العارفين بملاح في سفينة فقال له: احملني معك إلى دار الملك. فقال الملاح: ما أقصد إلاَّ القطيعة، فصاح العارف بالله لا بالله، منها أفر. . .

يا من ضاع عمره في لا شيء استدرك ما فاتك في ليلة القدر فإنها تحسب بالعمر. . .

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[1] واختلف في ليلة القدر، والحكمة في نزول الملائكة في هذه الليلة أنَّ الملوك والسادات لا يحبون أن يدخل دارهم أحد حتى يزينون دارهم بالفرش والبسط ويزيّنوا عبيدهم بالثياب

(١) سورة القدر: آية ١ ـ ٣.

والأسلحة، فإذا كان ليلة القدر أمر الرب تبارك وتعالى الملائكة بالنزول إلى الأرض؛ لأنَّ العباد زيَّنوا أنفسهم بالطاعات بالصوم والصلاة في ليالي رمضان ومساجدهم بالقناديل والمصابيح، فيقول الرب تعالى أنتم طعنتم في بني آدم وقلتم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ الآية[١]، فقلت لكم: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢] اذهبوا إليهم في هذه الليلة حتى تروهم قائمين ساجدين راكعين لتعلموا أني اخترتهم على علم على العالمين، قال مالك: بلغني أنَّ رسول الله ﷺ أُري أعمار الناس قبله أو ما شاء الله من ذلك فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل الذي بلغه غيرهم في طول العمر فأعطاه الله ليلة القدر خيراً من ألف شهر، وروي عن مجاهد أنَّ النبي ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح ألف شهر فعجب المسلمون من ذلك فأنزل الله هذه السورة ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ الذي لبس فيها ذلك الرجل السلاح في سبيل الله ألف شهر، وقال النخعي: العمل فيها من العمل في ألف شهر.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**».

وفي المسند عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «**مَن قامها ابتغاءها ثم وقعت له غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخَّر**».

وفي المسند والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال في شهر رمضان: أرأيت النفساء والحائض والمسافر والنائم لهم في

---

(١) سورة البقرة: آية ٣٠.
(٢) سورة البقرة: آية ٣٠.

ليلة القدر نصيب؟ قال: «**نعم كل من تقبل الله عمله سيعطيه نصيبه من ليلة القدر**».

إخواني: المعول على القَبول لا على الاجتهاد، والاعتبار ببر القلوب لا بعمل الأبدان، رب قائم حظه من قيامه السهر، كم من قائم محروم وكم من نائم مرحوم، هذا نام وقلبه ذاك وهذا قام وقلبه فاجر:

إنَّ المقادير إذا ساعدت ... ألحقت النائم بالقائم

لكن العبد مأمور بالسعي في اكتساب الخيرات والاجتهاد في الأعمال الصالحات، وكلٌّ ميسَّر لما خُلِق له: أما أهل السعادة فييسَّرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسَّرون لعمل أهل الشقاوة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾[1]، فالمبادرةَ المبادرةَ إلى اغتنام العمل فيما بقي من الشهر فعسى أن يستدرك به ما فات من ضياع العمر.

تولى العمر في سهو ... وفي لهو وفي خسر
فيا ضيعة ما أنفقت ... في الأيام من عمري
ومالي في الذي ضيَّعت ... من عمري مِن عذر
فما أغفلنا عن وا ... جبات الحمد والشكر
أما قد خصَّنا الله ... بشهر أيما شهر
بشهر أنزل الرحمن ... فيه أشرف الذكر
وهل يشبهه شهر ... وفيه ليلة القدر

---

(١) سورة الليل: آية ٥ ـ ١٠.

فكــم مــن خبـر صـح — بمــا فيهــا مــن الخيــر
روينــا عــن ثقــات أنهــا — تطلــب فــي الــوتــر
فطـــوبـــى لامـــرىء يطلـ — ـبهــا فــي هـــذه العشــر
ففيهـــا تنـــزل الأمـــلا — ك بـــالأنـــوار والبــر
قـــد قـــال ﴿ســـلام هـــي — حتـــى مطلـــع الفجـــر﴾
ألا فـــادَّخـــروهـــا إنـ — ـهـــا مـــن أنفـــس الـــذخـــر
فكـــم مـــن معتـــق فيهـــا — مـــن النـــار ولا يـــدري

ذكر العشر الأواخر من رمضان:

في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أُروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر، فقال رسول الله ﷺ: «**أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر، فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر**».

وفي صحيح مسلم عنه عن النبي ﷺ قال: «**التمسوها في العشر الأواخر، فإنَّ ضعف أحدكم أو عجز فلا يُغلبن على السبع البواقي**» قد ذكرنا فيما تقدَّم أنَّ النبي ﷺ كان يجتهد في شهر رمضان على طلب ليلة القدر، وأنه اعتكف مرة العشر الأوائل منه، ثم طلبها فاعتكف بعد ذلك العشر الأوسط في طلبها، وإن ذلك تكرر منه غير مرة، ثم استقرَّ أمره على اعتكاف العشر الأواخر في طلبها، وأمر بطلبها فيه؛ ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنَّ النبي ﷺ قال: «**تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان**»، وفي رواية للبخاري: «**في الوتر من العشر الأواخر من رمضان**»، وله من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**التمسوها في العشر الأواخر الغوابر من رمضان**»، ولمسلم من حديث أبي هريرة عن

النبي ﷺ قال: «**التمسوها في العشر الغوابر**».

والأحاديث في المعنى كثيرة، وكان يأمر بالتماسها في أوتار الأواخر؛ ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**التمسوا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان، في تاسعة تبقى في سابعة تبقى في خامسة تبقى**»، وفي رواية له: «**هي في العشر في سبع تمضين أو سبع يبقين**» وخرج الإمام أحمد والنسائي والترمذي من حديث أبي بكرة قال: ما أنا بملتمسها لشيء سمعته من رسول الله ﷺ إلاَّ في العشر الأواخر فإني سمعته يقول: «**التمسوها في تسع يبقين وسبع يبقين أو خمس يبقين أو ثلاث يبقين أو آخر ليلة**»، وكان أبو بكر يصلِّي في العشرين من رمضان كصلاته في سائر السن، فإذا دخل العشر اجتهد، ثم بعد ذلك أمر بطلبها في السبع الأواخر.

وفي المسند وكتاب النسائي عن أبي ذر قال: كنت أسأل الناس عنها ـ يعني ليلة القدر ـ فقلت: يا رسول الله أخبرني عن ليلة القدر أفي رمضان هي أو في غيره؟ قال: «**بلى هي في رمضان**»، قلت: تكون مع الأنبياء ما كانوا فإذا قبضوا رفعت أم هي إلى يوم القيامة؟ قال: «**بل هي إلى يوم القيامة**»، قلت: في أي رمضان هي؟ قال: «**التمسوها في العشر الأول والعشر الأواخر**»، قلت: في أي العشرين هي؟ قال: «**في العشر الأواخر، لا تسألني عن شيء بعدها**»، ثم حدث رسول الله ﷺ ثم اهتبلت غفلته فقلت: يا رسول الله أقسمت بحقِّي لما أخبرتني في أي العشر هي، فغضب عليَّ غضباً لم يغضب مثله منذ صحبته، وقال: «**التمسوها في السبع الأواخر، لا تسألني عن شيء بعدها**»، وخرَّجه ابن حبان في صحيحه والحاكم، وفي رواية لهما أنه قال: «**ألم أنهك أن تسألني عنها،**

إنَّ الله لو أذن لي أن أخبركم بها لأخبرتكم، لا آمن أن تكون في السبع الأواخر»، ففي هذه الرواية أنَّ بيان النبي ﷺ لليلة القدر انتهى إلى أنها في السبع الأواخر ولم يزد على ذلك شيئاً.

وهذا مما يستدل به من رجح ليلة ثلاث وعشرين وخمس وعشرين، على ليلة إحدى وعشرين، فإنَّ ليلة إحدى وعشرين ليست من السبع الأواخر بلا تردُّد، وقد روي عن النبي ﷺ من وجوه أُخر بين أنها ليلة سبع وعشرين كما سيأتي إن شاء الله تعالى، واختلف في أول السبع الأواخر فمنهم من قال: أول السبع ليلة ثلاث وعشرين على حساب نقصان الشهر دون تمامه لأنه المتيقن، وروي هذا عن ابن عباس وسيأتي كلامه فيما بعد - إن شاء الله تعالى - وفي صحيح البخاري عن بلال قال: «إنها أول السبع من العشر الأواخر»، وخرَّجه ابن أبي شيبة وعنده قال: «ليلة ثلاث وعشرين» وهذا قول مالك قال: «أرى والله أعلم أنَّ التاسعة ليلة إحدى وعشرين، والسابعة ليلة ثلاث وعشرين والخامسة ليلة خمس وعشرين»، وتأوَّله عبد الملك بن حبيب على أنه إنما يحسب كذلك إذا كان الشهر ناقصاً وليس هذا بشيء فإنه إنما أمر بالاجتهاد في هذه الليالي على هذا الحساب، وهذا لا يمكن أن يكون مراعىً بنقصان الشهر في آخره، وكان أيوب السَّخْتِياني يغتسل ليلة ثلاث وعشرين ويمس طيباً، وليلة أربع وعشرين ويقول: ليلة ثلاث وعشرين ليلة أهل المدينة وليلة أربع وعشرين ليلتنا - يعني أهل البصرة - وكذلك كان ثابت وحُمَيْد يفعلان، وكانت طائفة تجتهد ليلة أربع وعشرين، روي عن أنس والحسن، وروي عنه قال: رقبت الشمس عشرين سنة ليلة أربع وعشرين فكانت تطلع لا شعاع لها، وروي عن ابن عباس ذكره البخاري عنه وقيل: إنَّ المحفوظ عنه أنها

ليلة ثلاث وعشرين ـ كما سبق ـ وقد تقدَّم حديث إنزال القرآن في ليلة أربع وعشرين وكذلك أبو سعيد الخدري وأبو ذر حسبا الشهر تامّاً فيكون عندهما أول السبع الأواخر ليلة أربع وعشرين، وممن اختار هذا القول ابن عبد البر واستدلَّ بأنَّ الأصل تمام الشهر ولهذا أمر النبي ﷺ بإكماله إذا غم مع احتمال نقصانه، وكذلك رجحه بعض أصحابنا. . .

وعلى قياس من حسب الليالي الباقية من الشهر على تقدير نقصان الشهر فينبغي أن يكون عنده أول العشر الأواخر ليلة العشرين لاحتمال أن يكون الشهر ناقصاً فلا يتحقق كونها عشر ليال بدون إدخال ليلة العشرين فيها، وقد يقال: بل العشر الأواخر عبارة عمَّا بعد انقضاء العشرين الماضية من الشهر، وسواء كانت تامة أو ناقصة فهي المعبر عنها بالعشر الأواخر وقيامها هو قيام العشر الأواخر، وهذا كما يقال: صام عشر ذي الحجة وإنما صام منه تسعة أيام، ولهذا كان ابن سيرين يكره أن يقال: صام عشر ذي الحجة وقال: إنما يقال: صام التسع، ومن لم يكرهه ـ وهم الجمهور ـ فقد يقولون: الصيام المضاف إلى العشر هو صيام ما يمكن منه وهو ما عدا يوم النحر، ويطلق على ذلك العشر لأنه أكثر العشر، والله أعلم.

وقد اختلف الناس في ليلة القدر اختلافاً كثيراً. . وقال الجمهور هي في رمضان كل سنة وهي منحصرة في العشر الأواخر، واختلفوا في أي ليالي العشر أرجى، فحكى عن الحسن ومالك أنها تطلب في جميع ليالي العشر أشفاعه وأوتاره، ورجحه بعض أصحابنا وقال: لأنَّ قول النبي ﷺ التمسوها في تاسعة تبقى أو سابعة تبقى أو خامسة تبقى إن حملناه على تقدير كمال الشهر كانت أشفاعاً وإن حملناه على ما بقي منه حقيقة كان

الأمر موقوفاً على كمال الشهر فلا يعلم قبله، فإن كان تماماً كانت الليالي المأمور بها بطلبها أشفاعاً، وإن كان ناقصاً كانت أوتاراً، فيوجب ذلك الاجتهاد في القيام في كلا الليلتين الشفع منها والوتر، وقال الأكثرون: بل بعض لياليه أرجى من بعض، وقالوا: الأوتار أرجى في الجملة، ثم اختلفوا أي أوتاره أرجى فمنهم من قال: ليلة إحدى وعشرين، وهو المشهور عن الشافعي . . .

وحُكي للشافعي قول آخر: إنَّ أرجاها ليلة ثلاث وعشرين، وهذا قول أهل المدينة، وحكاه سفيان الثوري عن أهل مكة والمدينة، وممن روى عنه أنه كان يوقظ أهلها فيها ابن عباس وعائشة وهو قول مكحول، وروى رِشْدَينِ بن سعد عن زهرة بن معبد قال: أصابني احتلام في أرض العدو وأنا في البحر ليلة ثلاث وعشرين في رمضان، فذهبت لأغتسل فسقطت في الماء فإذا الماء عذب فناديت أصحابي أعلمهم أني في ماء عذب.

قال ابن عبد البر: هذه الليلة تُعرف بليلة الجهني بالمدينة يعني عبد الله بن أُنيس، وقد رُوي عنه أن النبي ﷺ أمره بقيامها، وفي صحيح مسلم عنه أن النبي ﷺ قال في ليلة القدر: «**أُريت أني أسجد صبيحتها في ماء وطين**» فانصرف النبي ﷺ من صلاة الصبح يوم ثلاث وعشرين وعلى جبهته أثر الماء والطين. . .

ورجحت طائفة ليلة أربع وعشرين وهم الحسن وأهل البصرة: وقد روي عن أنس، وكان حُميد وأيوب وثابت يحتاطون فيجمعون بين الليلتين أعني ليلة ثلاث وأربع.

ورجحت طائفة ليلة سبع وعشرين، وحكاه الثوري عن أهل الكوفة،

وقال: نحن نقول هي ليلة سبع وعشرين؛ لما جاءنا عن أُبَيّ بن كعب.

ومن قال بهذا أُبَيّ بن كعب ـ وكان يحلف عنه ولا يستثني[(١)] ـ وزِرّ بن حُبَيْش وعبدة بن أبي لبابة، وروي عن قنان بن عبد الله النهسي قال: سألت زرّاً عن ليلة القدر فقال: كان عمر وحذيفة وأناس من أصحاب النبي ﷺ لا يشكّون أنها ليلة سبع وعشرين. خرجه ابن أبي شيبة، وهو قول أحمد وإسحاق.

وذهب أبو قِلابة وطائفة إلى أنها تنتقل في ليالي العشر، ورُوِي عنه أنها تنتقل في أوتاره خاصة، ومن قال بانتقالها في ليالي العشر المُزَني وابن خزيمة. . .

واختلفوا في أرجى لياليه ـ كما سبق ـ واستدل من رجح ليلة سبع وعشرين بأنَّ أُبَيّ بن كعب كان يحلف على ذلك ويقول بالآية أو بالعلامة التي أخبرنا بها رسول الله ﷺ أن الشمس تطلع في صبيحتها لا شعاع لها، خرجه مسلم، وخرجه ـ أيضاً ـ بلفظ آخر عن أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه قال: «والله إني لأعلم أي ليلة هي، هي الليلة التي أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها، هي ليلة سبع وعشرين».

وفي مسند الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله: إني شيخ كبير عليل يشق علي القيام فمرني بليلة يوفقني الله فيها لليلة القدر قال: «**علي بالسابعة**» وإسناده على شرط البخاري.

وروى الإمام أحمد ـ أيضاً ـ قال: حدثنا يزيد بن هارون: أنبأنا شعبة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال

(١) أي لا يقول: إن شاء الله.

رسول الله ﷺ: «**من كان منكم متحريها فليتحرها ليلةَ سبع وعشرين أو** قال: **تحروها ليلة سبع وعشرين**» يعني ليلة القدر. . .

عن ابن عمر قال: كانوا لا يزالون يقصون على النبي ﷺ أنها الليلة السابعة من العشر الأواخر، فقال رسول الله ﷺ: «**أرى رؤياكم أنها قد تواطأت أنها ليلة السابعة في العشر الأواخر، فمن كان متحريها فليتحرها ليلة السابعة من العشر الأواخر. . .**» ورواه البخاري في صحيحه إلاَّ أنه لم يذكر لفظة ليلة السابعة بل قال: «**من كان متحريها فليتحرها في العشر الأواخر**». . .

وفي سنن أبي داود بإسناد رجاله كلهم رجال الصحيح عن معاوية عن النبي ﷺ في ليلة القدر ليلة سبع وعشرين، وخرجه ابن حبان في صحيحه وصححه ابن عبد البر وله علة وهي وقفة على معاوية وهو أصح عند الإمام أحمد والدارقطني وقد اختلف ـ أيضاً ـ عليه في لفظه.

ومما يرجح أنَّ ليلة القدر ليلة سبع وعشرين أنها من السبع الأواخر التي أمر النبي ﷺ بالتماسها فيها بالاتفاق، وفي دخول الثالثة والعشرين في السبع اختلاف سبق ذكره، ولا خلاف أنها آكد من الخامسة والعشرين.

ومما يدل على ذلك ـ أيضاً ـ حديث أبي ذرّ في قيام النبي ﷺ بهم في أفراد السبع الأواخر، وأنه قام بهم في الثالثة والعشرين إلى ثلث الليل وفي الخامسة إلى نصف الليل وفي السابعة إلى آخر الليل حتى خشوا أن يفوتهم الفلاح[1]، وجمع أهله ليلتئذ وجمع الناس، وهذا كله يدل على

(١) أي السحور.

تأكيدها على سائر أفراد السبع والعشر.

ومما يدل على ذلك ما استشهد به ابن عباس رضي الله عنه بحضرة عمر رضي الله عنه والصحابة معه واستحسنه عمر، رضي الله عنه، وقد رُوي من وجوه متعددة فروى عبد الرزاق في كتابه عن معمر عن قتادة وعاصم أنهما سمعا عكرمة يقول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: دعا عمر بن الخطاب أصحاب محمد ﷺ فسألهم عن ليلة القدر فأجمعوا أنها في العشر الأواخر، قال ابن عباس: فقلت لعمر رضي الله عنه: إني لأعلم أو إني لأظن أي ليلة هي، قال عمر رضي الله عنه: وأي ليلة هي؟ قلت: سابعة تمضي أو سابعة تبقى من العشر الأواخر، فقال عمر رضي الله عنه: ومن أين علمت ذلك؟ قال: فقلت: إن الله خلق سبع سموات، وسبع أرضين، وسبعة أيام، وأن الدهر يدور على سبع، وخلق الله الإنسان من سبع، ويأكل من سبع، ويسجد على سبع، والطواف بالبيت سبع، ورمي الجمار سبع، لأشياء ذكرها، فقال عمر رضي الله عنه: لقد فطنت لأمر ما فطنا له. وكان قتادة يزيد على ابن عباس في قوله: يأكل من سبع، قال: هو قول الله عزَّ وجلّ: ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾[1]، ولكن في هذه الرواية أنها في سبع تمضي أو تبقى بالترديد في ذلك...

روى ابن عبد البر بإسناد صحيح من طريق سعيد بن جبير قال: كان ناس من المهاجرين وجدوا على عمر في إدنائه ابنَ عباس فجمعهم ثم سألهم عن ليلة القدر، فأكثروا فيها فقال بعضهم: كنا نراها في العشر

---

(١) سورة عبس: آية ٢٧ ـ ٣١.

الأوسط ثم بلغنا أنها في العشر الأواخر، فأكثروا فيها فقال بعضهم: ليلة إحدى وعشرين، وقال بعضهم: ليلة ثلاث وعشرين، وقال بعضهم: ليلة سبع وعشرين، فقال عمر رضي الله عنه: يا ابن عباس، تكلم، فقال: الله أعلم، قال عمر: قد نعلم أنَّ الله يعلم، وإنما نسألك عن علمك، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنَّ الله وتر يحب الوتر، خلق من خلقه سبع سموات فاستوى عليهم، وخلق الأرض سبعاً، وجعل عدة الأيام سبعاً، ورمي الجمار سبعاً، وخلق الإنسان من سبع، وجعل رزقه من سبع، فقال عمر: خلق الإنسان من سبع، وجعل رزقه من سبع، هذا أمر ما فهمته، فقال: إنَّ الله تعالى يقول: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ حتى بلغ آخر الآيات[1] وقرأ: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ﴾[2]، ثم قال: والأب للدواب...

ورُوي بإسناد فيه ضعف عن محمد بن كعب عن ابن عباس أنَّ عمر رضي الله عنه جلس في رهط من أصحاب النبي ﷺ فتذاكروا ليلة القدر فذكر معنى ما تقدم وزاد فيه عن ابن عباس أنه قال: وأعطي من المثاني سبعاً ونهى في كتابه عن نكاح الأقربين عن سبع، وقسم الميراث في كتابه على سبع، ونقع في السجود من أجسادنا على سبع، وقال: فأراها في السبع الأواخر من رمضان.

---

(١) سورة المؤمنون: آية ١٢ ـ ١٣.
(٢) سورة عبس: آية ٢٥ ـ ٣٢.

وليس في شيء من هذه الروايات أنها ليلة سبع وعشرين جزماً بل في بعضها الترديد بين ثلاث وسبع، وفي بعضها أنها ليلة ثلاث وعشرين لأنها أول السبع الأواخر على رأيه، وقد صحَّ عن ابن عباس أنه كان ينضح على أهله الماء ليلة ثلاث وعشرين خرجه عبد الرزاق وخرجه ابن أبي عاصم مرفوعاً، والموقوف أصح.

وقد استنبط طائفة من المتأخرين من القرآن أنها ليلة سبع وعشرين من موضعين: أحدهما أنَّ الله تعالى كرر ذكر ليلة القدر في سورة القدر في ثلاثة مواضعَ منها، وليلة القدر حروفها تسع حروف والتسع إذا ضربت في ثلاثة فهي سبع وعشرون.

والثاني أنه قال: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ فكلمة ﴿هِيَ﴾ هي الكلمة السابعة والعشرون من السورة فإنَّ كلماتها كلها ثلاثون كلمة، قال ابن عطية: هذا من مُلَح التفسير لا من متين العلم، وهو كما قال.

ومما استدل به مَن رجح ليلة سبع وعشرين بالآيات والعلامات التي رويت فيها قديماً وحديثاً، وبما وقع فيها من إجابة الدعوات فقد تقدم عن أُبَيّ بن كعب أنه استدل على ذلك بطلوع الشمس في صبيحتها لا شعاع لها.

وكان عبدة ابن أبي لبابة يقول: هي ليلة سبع وعشرين، ويستدل على ذلك فإنه قد جرب ذلك بأشياء وبالنجوم خرجه عبد الرزاق.

وروي عن عبدة أنه ذاق ماء البحر ليلة سبع وعشرين فإذا هو عذب ذكره الإمام أحمد بإسناده.

وطاف بعض السلف ليلة سبع وعشرين بالبيت الحرام فرأى الملائكة

في الهواء طائفين فوق رؤوس الناس. . .

وذكر أبو موسى بأسانيدَ له أنَّ رجلاً مقعداً دعا الله ليلة سبع وعشرين فأطلقه، وعن امرأة مقعدة كذلك، وعن رجل بالبصرة كان أخرس ثلاثين سنة فدعا الله ليلة القدر ليلة سبع وعشرين فأطلق لسانه فتكلم.

وذكر الوزير أبو المظفر ابن هبيرة أنه رأى ليلة سبع وعشرين ـ وكانت ليلة جمعة ـ باباً في السماء مفتوحاً شاميَّ الكعبة قال: فظننته حيال الحجرة النبوية المقدَّسة، قال: ولم يزل كذلك إلى أن التفتُّ إلى المشرق لأنظر طلوع الفجر ثم التفت إليه فوجدته قد غاب، قال: وإن وقع في ليلة من أوتار العشر ليلة جمعة فهي أرجى من غيرها.

واعلم أنَّ جميع هذه العلامات لا توجب القطع بليلة القدر. . .

وأما العمل في ليلة القدر فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**» وقيامها إنما هو إحياؤها بالتهجد فيها والصلاة، وقد أمر عائشة بالدعاء فيها ـ أيضاً ـ .

قال سفيان الثوري: الدعاء في تلك الليلة أحب إليَّ من الصلاة، قال: وإذا كان يقرأ وهو يدعو ويرغب إلى الله في الدعاء والمسألة لعله يوافق، انتهى، ومراده أنَّ كثرة الدعاء أفضل من الصلاة التي لا يكثر فيها الدعاء، وإن قرأ ودعا كان حسناً.

وقد كان النبي ﷺ يتهجَّد في ليالي رمضان ويقرأ قراءة مرتلة لا يمر بآية فيها رحمة إلاَّ سأل ولا بآية فيها عذاب إلاَّ تعوَّذ فيجمع بين الصلاة والقراءة والدعاء والتفكُّر، وهذا أفضل الأعمال وأكملها في ليالي العشر وغيرها، والله أعلم.

وقد قال الشعبي في ليلة القدر: ليلها كنهارها[١]، وقال الشافعي في القديم: استحب أن يكون اجتهاده في نهارها كاجتهاده في ليلها، وهذا يقتضي استحباب الاجتهاد في جميع زمان العشر الأواخر ليله ونهاره، والله أعلم.

المحبون تطول عليهم الليالي فيعدونها عد الانتظار ليالي العشر في كل عام فإذا ظفروا بها نالوا مطلوبهم وخدموا محبوبهم...

رياح هذه الأسحار تحمل أنين المذنبين، وأنفاس المحبين، وقصص التائبين، ثم تعود برد الجواب بلا كتاب...

فإذا ورد بريد بردّ السحر يحمل ملطفات الألطاف لم يفهمها غير من كتبت إليه:

نسيم صبا نجد جئت حاملاً تحيتهم فاطوا الحديث عن الركب
ولا تذع السر المصون فإنني أغار على ذكر الأحبّة من صحبي

يا يعقوب الهجر قد هبت ريح يوسف الوصل، فلو استنشقت لعدت بعد العمى بصيراً، ولوجدت ما كنت لفقده فقيراً:

كان لي قلب أعيش به ضاع مني في تقلُّبه
رب فاردده عليَّ فقد عِيل صبري في تطلُّبه
وأغثني ما دام بي رمق يا غياث المستغيث به

لو قام المذنبون في هذه الأسحار على أقدام الانكسار ورفعوا قصص الاعتذار مضمونها ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ

(١) أي في الاجتهاد، وسيأتي توضيحه من كلام الشافعي.

لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾[(١)] لبرز لهم التوقيع عليها ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[(٢)].

أشكو إلى الله كما قد شكى ... أولاد يعقوب إلى يوسف

قد مسَّني الضر وأنت الذي ... تعلم حالي وترى موقفي

بضاعتي المزجاة محتاجة ... إلى سماحٍ من كريم وفي

فقد أتى المسكين مستمطراً ... جودك فارحم ذُلَّه واعطفِ

فأوف كيلي وتصدَّق علي ... هذا المُقِلِّ البائس الأضعف

قالت عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ: أرأيت إن وافقت ليلة القدر ما أقول فيها: قال: «**قولي: اللَّهُمَّ إنك عفو تحب العفو فاعف عني**».

العفو من أسماء الله تعالى وهو يتجاوز عن سيئات عباده الماحي لآثارها عنهم، وهو يحب العفو فيحب أن يعفو عن عباده ويحب من عباده أن يعفو بعضهم عن بعض، فإذا عفا بعضهم عن بعض عاملهم بعفوه، وعفوه أحب إليه من عقوبته، وكان النبي ﷺ يقول: «**أعوذ برضاك من سخط، وعفوك من عقوبتك**».

قال يحيى بن معاذ: لو لم يكن العفو أحبَّ الأشياء إليه لم يبتل بالذنب أكرم الناس عليه، يشير إلى أنه ابتلى كثيراً من أوليائه وأحبابه بشيء من الذنوب ليعاملهم بالعفو فإنه يحب العفو.

وقال بعض السلف الصالح: لو علمت أحب الأعمال إلى الله

---

(١) سورة يوسف: آية ٨٨.

(٢) سورة يوسف: آية ٩٢.

لأجهدت نفسي فيه، فرأى قائلاً يقول له في منامه: إنك تريد ما لا يكون، إنَّ الله يحب أن يعفو ويغفر.

وإنما أحب أن يعفو ليكون العباد كلهم تحت عفوه، ولا يُدِلّ عليه أحد منهم بعمل...

لما عرف العارفون بجلاله خضعوا، ولما سمع المذنبون بعفوه طمعوا، ما ثمّ إلاَّ عفو الله أو النار، لولا طمع المذنبين في العفو لاحترقت قلوبهم باليأس من الرحمة، ولكن إذا ذكرت عفو الله استروحت إلى برد عفوه.

كان بعض المتقدِّمين يقول في دعائه: اللَّهُمَّ إنَّ ذنوبي قد عظمت فجلت عن الصفة، وإنها صغيرة في جنب عفوك فاعف عني.

وقال آخر منهم: جُرمي عظيم، وعفوك كثير، فاجمع بين جُرمي وعفوك يا كريم.

يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر، أكبر الأوزار في جنب عفو الله يصغر.

وإنما أمر بسؤال العفو في ليلة القدر بعد الاجتهاد في الأعمال فيها وفي ليالي العشر لأنَّ العارفيتن يجتهدون في الأعمال ثم لا يرون لأنفسهم عملاً صالحاً ولا حالاً ولا مقالاً فيرجعون إلى سؤال العفو كحال المذنب المقصر. قال يحيى بن معاذ: ليس بعارف مَن لم يكن غاية أمله من الله العفو:

إن كنت لا أصلح للقرب فشأنكم عفوٌ عن الذنب

كان مُطَرِّف يقول في دعائه: اللَّهُمَّ ارض عنا، فإن لم ترض عنا فاعف عنا.

مَنْ عظمت ذنوبه في نفسه لم يطمع في الرضا، وكان غاية أمله أن يطمع في العفو، ومن كملت معرفته لم ير نفسه إلاَّ في هذه المنزلة:

يا ربِّ عبدك قد أتاك وقد أساء وقد هفا
يكفيه منك حياؤه من سوى ما قد أسلفا
حمل الذنوب على الذنوب الموبقات وأسرافا
وقد استجار بذيل عفوك من عقابك مُلْحِفا
ربِّ اعف عنه وعافه فلأنت أولى من عفا[1]

---

(١) «لطائف المعارف»: ١٩٦ ـ ٢٢٠ بتصرف.

تحقيق القول في ليلة القدر
للشيخ عبد الرحمن تاج[١]

قال الشيخ:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فهذه كلمات قصدت بها تحرير القول في معنى ليلة القدر وبيان المراد بها أخذاً مما تفيده الآيات القرآن والأحاديث النبوية التي تتحدث عن هذه الليلة في معرض حديثها عن نزول القرآن الكريم.

والذي دعاني للكتابة في هذا الموضوع أن كثيراً من الكتاب والخطاب في أوقاتنا الحاضرة قد انتحوا بهذه الليلة في مقالاتهم وخطبهم ناحية قد تعتبر ـ في بادىء الرأي ـ من التجديد الشائق في تفسير آيات الكتاب العزيز.

فأردت بهذه الكلمات أن أبين أن هذا الذي ذهبوا إليه في تفسير سورة القدر، وفي تعيين المعنى الذي اختاروه لليلة القدر ليس جديداً، وإنما هو رأي قديم غير مشهور، وأن السر في أنه لم يُسعد بالشهرة عند العلماء ومن يعنيهم أمر القرآن ممن تخصصوا في تفسيره وكانوا أهدى من

(١) الشيخ عبد الرحمن تاج، من شيوخ الأزهر المشهورين، ومن العلماء الكبار، حصل على شهادة العالمية من الأزهر والدكتوراة من فرنسا وله بعض المصنفات.

غيرهم في فهم نصوصه هو أنه رأي ضعيف لا تنهض به حجة قوية، ولا يساعد عليه أسلوب الآيات القرآن نفسها في حديثها عن هذه الليلة.

وقد ضمنت هذه الكلمات الأبحاث الآتية:

معنى ليلة القدر، ليلة القدر ونزول القرآن ـ شرف ليلة القدر وجلالة شأنها ـ هل هي ليلة واحدة في عمر الدنيا أو تتكرر بتكرر الأعوام؟ موقعها من ليالي السنة، والله الموفق والهادي إلى الصواب وحسن السداد.

«ليلة القدر»:

جاء في القاموس ولسان العرب وغيرهما من كتب اللغة: «القَدْر».

بسكون الدال يطلق على معان:

منها الشرف وعظم الشأن ورفعة المكانة.

ومنها التعظيم والتبجيل ورفع المكانة.

ومنها تقدير الشيء وتحديده وضبط صفاته وأحواله.

فمن الأول قولك: فلان له قَدْر أي له شرف وعلو شأن.

ويصح أن يكونه منه ومن الثاني قولك: المسلمون يقدرون الرسول قدره، أي يعرفون له سمو المكانة أو يعظمونه حق التعظيم، ومن ذلك ـ أيضاً ـ قوله تعالى في المشركين: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[1]، أي ما عظموه وما قدسوه حق تقديسه.

ومن الثالث قولك: قدَّر الله الآجال، والأرزاق قدراً، بمعنى كتبها وحددها وضبط مقاديرها ومواقيتها وسائر أحوالها، ومن هذا القبيل

---

(١) سورة الأنعام: آية ٩١.

قولك: قدر فلان القذة بالقذة إذ ضبط الأولى بالثانية وحدد بها مقدارها فأتت على وفقها مساوية لها.

وبسبب اختلاف معنى القدر لغة وتنوعه على النحو الذي ذكرناه قد اختلف علماء السلف في معنى القدر الذي نسبت إليه الليلة في كلمة «ليلة القدر».

فمنهم من قال: إن الشرف والسمو وعظم الشأن ورفعة المكانة، فليلة القدر هي ليلة الشرف والشأن العظيم، وهي ليلة البر والخير والسلام والبركة.

ومنهم من قال: إن القَدْر معناه تقدير الأشياء وتدبيرها وضبط صفاتها وأحوالها.

فهذان قولان يدور عليهما الاختبار في تحديد معنى ليلة القدر، ولا حاجة بنا للتعرض لغيرهما من الأقوال فإنه مما لا يكاد يُعَوْل عليه.

غير أنه ينبغي أن يوقف عند كل من هذين القولين ليسأل:

أولاً: إذا كان القدر معناه الشرف والعظم ورفعة الشأن فبماذا كان شرف ليلة القدر؟ وهل هي ليلة لها معينات سابقة على الرسالة وعلى نزول القرآن، ولها وجود يمكن أن تميز معه باسم «ليلة القدر» حتى مع عدم مراعاة أنها الليلة التي نزل فيها القرآن؟

وثانياً: إذا كان القَدْر معناه التقدير فما المراد بهذا التقدير؟ وما هي الأشياء التي تقدر في تلك الليلة؟ هل هي في خصوص أحكام الشريعة وقواعد الدين أو هي جميع ما أراد الله أن يجريه على العباد والأكوان مما سبق به علمه المحيط؟

أما عن الأول: فقد صرح القرآن في سورة القدر تصريحاً لا يقبل الشك أن القرآن أنزل في هذه الليلة، وأنها ليلة كلها خير وسلام من أولها حتى مطلع الفجر، وأنها خيرَ من ألف شهر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾[١].

وقال تعالى في سورة: الدخان: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾[٢].

ولكن هل ما امتازت به هذه الليلة من الخبر والبركة والسلام والأمن، وما وصفت به من الشرف والسمو ورفعة الشأن قد اكتسبته من نزول القرآن فيها فحسب، وأنه لولا ذلك ما كان ليثبت لها شيء من هذه المزايا، وما كان يطلق عليها اسم «ليلة القدر»؟ أنها ليلة قدر وشرف، لها من قبل الرسالة ونزول القرآن خصائصها وميزاتها، ولها اسمها وسمو مكانتها، وأنها من أجل فضلها وشرفها اختارها من بين الليالي لينزل فيها ما نزل من القرآن.

قد مال إلى الوجه الأول الشيخ محمد عبده عليه سحائب الرحمة، ولم ير أن لليلة القدر فضلاً ولا شرفاً ومزية إلاَّ من أجل أن الله تعالى «قد أعلى فيها منزلة نبيه، وشرفه وعظمه بالرسالة، وأوحى إليه بما أوحى من القرآن الذي هو كتاب الهداية والسعادة والخير والبر والبركة».

اختار رحمه الله هذا الوجه متابعاً فيه بعض من تقدم من العلماء ثم تبعه عليه كثير من أهل العلم في عصرنا الحاضر.

---

(١) سورة القدر: آية ١ ـ ٥.

(٢) سورة الدخان: آية ١ ـ ٣.

وقد يكون لهذا الوجه ـ في بادي النظر ـ شيء من الوجاهة، ولكنا نرى في الوجه الثاني ـ عند التحقيق ـ أجود الرأي وأوجهه وأحقه بالنصرة والتأييد، وذلك المعاني التالية:

الأول: أن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ إعلام من الله سبحانه لنبيه ـ بعد ما أوحي إليه في تلك الليلة بما أوحى من القرآن الكريم ـ أنه كرمه بهذا الوحي في ليلة القدر والشرف العظيم، وأن هذه الليلة لها من الخصائص والمزايا ما جلاه الله لنبيه ـ في هذه السورة وفي مفتتح سورة الدخان، ولا يستقيم أن يكون ما لليلة القدر من المزايا وخصائص الشرف التي أريد إعلام النبي بها مقصوراً على ما كان في ليلة الوحي، فإنه عليه الصلاة والسلام يعلم حق العلم أنه قد أكرم فيها بنزول القرآن، وأنها من أجل ذلك لليلة مباركة كلها خير وسلام، ويعلم حق العلم أنه قد جاء فيها الروح الأمين أمين الوحي؛ ولا بد أن يكون له علم كذلك بمن تنزل فيها من ملائكة الله، وعلى هذا يكون بعيداً جداً أن يكون المقصود إعلامه بشيء من ذلك الذي هو به جد عليم، وهل يكون مستقيماً ـ بعدما عرف فضل هذه الليلة بنزول القرآن، وعرف تنزل الملائكة فيها ورأى الروح الأمين رؤية العيان ـ أن يقال له: إنا أنزلنا القرآن في الليلة التي اكتسبت الفضل والشرف بنزوله وبما تنزل فيها من الروح والملائكة؟ أليس يكون ذلك إعلاماً بما هو معلوم؟

ومهما بذلت الجهود في تلمس الوجوه لاستقامة هذا الإخبار فإنه على ذلك المعنى الأول الذي سار عليه الشيخ محمد عبده غير مستقيم.

والذي نراه أن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ ظاهر جداً في أن القدر والشرف وجلالة الشأن ثابتة لليلة القدر من قبل أن ينزل القرآن،

وأنها ليلة معروفة بذلك الاسم عند الله وعند من أطلعهم الله عليه من عباده وصفوة خلقه، وأن هذا التعبير ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ من قبيل قولك: قدم فلان في ليلة العبد أو ليلة الصوم أو ليلة كذا وكذا من الليالي المشهورة بمعنى من المعاني، فليلة القدر معروفة ـ كما قدمنا ـ بذلك الاسم الذي صار علماً عليها لما اختصت به من المزية والشرف، وهذه الليلة المعروفة بذلك الاسم والمخصوصة بتلك المزية وذلك الشرف من بين ليالي السنة أراد الله أن يعلم نبيه أنها هي الليلة التي اختارها لينزل فيها أول ما نزل من القرآن فيتناسب بذلك شرف الكتاب العظيم مع شرف الزمن الذي نزل فيه.

الثاني: أن قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ ظاهر في أن ليلة القدر يتكرر كونها، ويتجدد مجيئها، فليست ليلةً واحدة في الدهر كله كما يقتضيه القول بأنها خصوص الليلة التي بدء فيها بإنزل القرآن، فإنه الأصل في صيغة المضارع أنها تدل على حصول معناها في المستقبل؛ ولو كانت هي الليلة التي نزل فيها القرآن وحدها لقيل: ﴿تَنَزَّلَت المَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾، من حيث إن الحديث عنها حديث عن أمر وقع في الماضي، وهذا شيء معلوم يعرفه جميع أهل العربية.

فإذا راعينا ـ مع ما تدل عليه صيغة المضارعة من معنى الاستقبال ـ أن الليلة التي أنزل فيه القرآن وفيها تنزلت الملائكة والروح معها قد أطلق عليها اسم ليلة القدر علمنا أن تنزل الملائكة والروح الأمين من خصائص هذه الليلة وأنه يتكرر بتكررها، ويتجدد كلما تجددت.

غير أنه قد يقال: إنه كثيراً ما يعبر في القرآن عن الأمر الماضي بصيغة المضارعة لاعتبارات تختلف وتتنوع باختلاف المواطن وتنوعها،

والاعتبار في الموطن الذي نحن بصدده قد يكون إرادة استحضاراً صورة ذلك الماضي وافتراضه حاصلاً ساعة الحديث عنه قصداً إلى كشف المعنى للسامع وتجليته أقوى تجلية، وذلك من المقاصد البلاغية الرائعة التي يعرفها ـ أيضاً ـ أهل العربية؛ فإن الحديث عن الشيء ساعة حصوله أقوى وآكد وأوقع في النفس من الإخبار بعد ما يحصل ويمر زمنه.

والجواب: أن ذلك لا يقدح فيما قلنا من أن الأصل في المضارع هو دلالته على الشيء يكون في المستقبل، فإطلاقه على ما كان في الماضي خلاف الأصل، لا يصار إليه ولا يدعى أنه المراء إلاَّ إذا كان هناك دليل يصرفه عن ذلك الأصل، ثم يجيء الاعتبار البلاغي كالاستحضار ونحوه مصححاً ومسوغاً إطلاقَ المضارع على المعنى الماضي.

ولا يصلح الاعتبار وحده دليلاً على أن المراد من المضارع هو المعنى الماضي؛ اللَّهم إلاَّ إذا ثبت أن المتكلم أراد ذلك الاعتبار، وقصد ـ في مثل مسألتنا ـ إلى معنى الاستحضار، وهذا ما لا سبيل إليه، وليس الكلام قاطعاً ولا ظاهراً فيه؛ بل اللجأ إلى دعواه هو عين ما يسمى بالمصادرة، كما يعرف ذلك أهل العلم.

وبعد: فأنت ترى أننا ـ في هذا الوجه الثاني من الاستدلال ـ قد اقتصرنا على ما تفيده صيغة المضارع، ولم تتعلق بما تدل عليه صيغة (التفصيل) من معنى التكرار والتجدد؛ فإنه إذا كانت هذه الصيغة التي جاءت على نهجها كلمة ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ تدل على تجدد نزول الملائكة وحصوله مرة بعد مرة فليست نصًّا في أن ذلك التجدد يحصل في أكثر من ليلة؛ لأنه يصح أن يكون نزول الملائكة متتابعاً وعلى دفعات كثيرة في ليلة واحدة، تنزل طائفة منهم وتتبعها طائفة وطائفة، وهكذا حتى مطلع

الفجر، وحينئذٍ لا يكون في التعلق بحديث التجدد وتكرر الحصول الذي تدل عليه صيغة ﴿ تَنَزَّلُ﴾ إثبات للمطلوب الذي هو تجدد الليلة وتكررها بتكرر الأعوام.

الثالث: أن قوله تعالى في سورة الدخان: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ يدل على أن ليلة القدر تتكرر وتتجدد، وليست ليلة واحدة على ما يقضي به القول أنها الليلة الماضية التي نزل فيها القرآن، وذلك لمجيء ﴿ يُفْرَقُ﴾ . بصيغة المضارعة التي تدل بأصلها على أن فرق الأمر الحكيم وبيانه وتفضيله يكون في المستقبل كما قدمنا الكلام على ذلك في قوله تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾، وأنه إذا كانت ليلة نزول القرآن التي سميت ليلة القدر قد فرق فيها الأمر الحكيم فذلك لأن شأن ليلة القدر ذلك: فُرق فيها دائماً كلُّ أمر حكيم، فيكون الحديث عن ذلك مقصوداً به الإعلام بأن نزول القرآن قد كان في الليلة التي من خواصها أنه يفرق فيها أمر حكيم.

الرابع: أن قوله تعالى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ معناه أنه يبين في الليلة المباركة ويفصل كل أمر موافق للحكمة والصواب متفق لا خلل فيه ولا اضطراب؛ وذلك يفيد أنها ليلة تتكرر وتتجدد، وليست هي خصوصَ الليلة التي بدأ فيها الوحي بشيء من آيات القرآن، فإن ما نزل في تلك الليلة ـ وإن كان أمراً حكيماً من غير شك ولا امتراء ـ لا يمكن أن يقال فيه إنه كل أمر حكيم، وسنعود قريباً إلى هذا بمزيد من التفصيل.

الخامس: ما ورد في صحاح الأحاديث من أن رسول الله ﷺ كان يتحرى ليلة القدر، وأنه أمر الناس بالتماسها وتحريها في العشر الأواخر من رمضان:

١ ـ فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «**كان رسول الله ﷺ يجاور في العشر الأواخر من رمضان ويقول: تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان**».

٢ ـ وروى البخاري ـ أيضاً ـ عن عائشة قالت: «**كان النبي ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله**».

٣ ـ وروى كذلك عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان**».

٤ ـ وعن ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه البخاري أن النبي ﷺ قال: «**التمسوها في العشر الأواخر من رمضان: ليلة القدر؛ في تاسعة تبقى؛ في سابعة تبقى، في خامسة تبقى**».

٥ ـ وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يجاور في رمضان العشر التي في وسط الشهر، فإذا كان حين يمسي من عشرين ليلة تمضي ويستقبل إحدى وعشرين رجع إلى مسكنه ورجع من كان يجاور معه، وأنه أقام في شهر جاور فيه الليلة التي كان يرجع فيها، فخطب الناس فأمرهم ما شاء الله، ثم قال: «**كنت أجاور هذه العشر، ثم قد بدا لي أن أجاور هذه العشر الأواخر[1] فمن كان اعتكف معي فليثبت في معتكفه، وقد أُريت هذه الليلة ثم أُنسيتها فابتغوها في العشر الأواخر، وابتغوها في كل وتر، وقد رأيتني أسجد في ماء وطين**»، فاستهلت السماء في تلك الليلة فأمطرت فوَكَف المسجد في مصلى النبي ﷺ ليلة إحدى وعشرين فبصرت عيني رسول الله ﷺ ونظرت

---

(١) قال الشيخ: وقد ورد فيما روي عن أبي سعيد الخدري أن جبريل قال للنبي ﷺ لما اعتكف العشر الأوسط إن الذي تطلب أمامك، يريد ليلة القدر.

إليه انصرف من الصبح ووجه ممتلىء طيناً وماء.

٦ ـ وروى البخاري عن عبادة بن الصامت قال: خرج النبي ﷺ ليخبرنا بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين فقال: «**خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة**».

ففي هذا كله دلالات واضحة على أن ليلة القدر لها فضلها وشرفها، ولها مزيتها وراء ما ثبت لها بنزول القرآن فيها، وأنها تتكرر وتتجدد، وأن مظنة موافقتها هي العشر الأواخر من شهر رمضان؛ فإنها لو كانت خصوصَ الليلة التي نزل فيها القرآن لما كان هناك معنى لتحريها ولا الأمر به بعدما انقضت تلك الليلة ومرت.

ولا يصح أن يقال: إن النبي ﷺ لم يقصد بأمره بتحري ليلة القدر ولا باعتكافه العشر الأوسط أو الأخير إلاَّ إحياء ذكرى الليلة التي نزل عليه فيها القرآن وتكريمها؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لم يكن لتخفى عليه هذه الليلة العظيمة فيجهل موقعها من الشهر الذي كانت هي إحدى لياليه حتى يتحراها باعتكاف العشر الأخير من رمضان ويأمر بتحريها في ذلك من يريد إحياء ذكراها في كل عام، هذا بعيد غاية البعد؛ وإذاً لا يستقيم ما يقوله بعض الناس اليوم ارتكاناً إلى ما اختاره المرحوم الشيخ محمد عبده من أنه ليست هناك ليلة تسمى ليلة القدر غير تلك الليلة التي نزل فيها القرآن، وهي ليلة واحدة لا تتكرر، وأنه لا معنى للاحتفال بها في كل سنة إلاَّ أن يكون المقصود من ذلك إحياء ذكرى تلك الليلة كما نحيي ذكر العظماء وذكرى الليالي والأيام التي اشتهرت بوقائع وحوادث لها خطر وشأن.

وإذا لم يكن لاحتفال الناس بليلة القدر معنى سوى إحياء ذكراها فماذا يقال في تحري رسول الله ﷺ هذه الليلة وأمره الناس بتحريها؟

هنا نجد الأستاذ الإمام عليه الرحمة يعمد إلى الأحاديث الواردة في ذلك فيضرب عليها بكلمة ويرى أنه بذلك قد خلص منها:

يقول: إن تلك الأحاديث رواياتها مضطربة، وأغلبها ضعيف، والكثير منها موضوع، ومثل ذلك لا يصح الأخذ به في باب العقائد.

ولكنه رحمه الله لم يبين لنا أي هذه الأحاديث موضوع وأيها ضعيف وبماذا كان ضعف هذا الضعيف؟ ولم يكشف كذلك عن الاضطراب الذي يصح معه أن يُضرب صفحاً عن أحاديث أخرجها البخاري وغيره عن جماع من الصحابة يروي أحدهم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان**»، ويروي آخر أنه قال: «**تحروا ليلة القدر في الوتر في العشر الأواخر من رمضان**»، ويروي ثالث قوله عليه الصلاة والسلام: «**التمسوها في العشر الأواخر من رمضان ليلة القدر في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى في خامسة تبقى**»؟

فهل هذا هو الاضطراب الذي يأبى معه قبول الأحاديث؟

نحن لا نجد بين ما أوردناه من أحاديث الأمر بالتحري شيئاً من الاضطراب في السند أو المتن بحيث يقدح في صحتها ويوجب طرحها؛ وكل ما فيها إنما هو اختلاف بالإجماع والتفصيل أو بوضع لفظ مكان مرادفه، وإذا كان جميع الناس ـ إلاَّ من لا يعتد برأيه في هذا المقام ـ على أنه يجوز رواية الأحاديث بالمعنى ما دام ذلك لا يخل بما قصد الرسول ﷺ إفادته من المعنى فالاختلاف الذي أشرنا إليه لا يضر في شيء، ولا يصح معه دعوى الاضطراب الذي تُطرح من أجله الأحاديث.

وبعد: فقد تبين مما قدمناه من الكلام على المعنى الأول لكلمة «القَدْر» أنه الفضل والشرف وعلو المنزلة، وأن ليلة القدر لها شرف وفضل بنزول القرآن فيها من غير شك، لكن لها ـ وراء ذلك ـ شرفاً وفضلاً بما خصها الله به مما سنعرض للكلام عنه فيما يلي، وأنه من أجل ذلك قد اختارها الله تعالى لتكون ليلة افتتاح الوحي ونزول أول ما أنزل من القرآن.

وأما عن المعنى الثاني ـ وهو التقدير ـ فقد اختار الشيخ الإمام فيه أيضاً خلاف ما جرى عليه جمهور المتقدمين من العلماء.

قال رحمة الله عليه: «سميت الليلة ليلة القدر إما بمعنى ليلة التقدير، لأن الله ابتدأ فيها تقدير دينه وتحديد الخطة لنبيه في دعوة الناس إلى ما ينقذهم مما كانوا فيه».

فهو يحمل التقدير على خصوص ما يكون بالقرآن من الإرشاد والبيان وتحديد طريق السعادة والفضل بينها وبين طرائق الشقاوة والضلال، ويقول إن هذا هو المراد مما ورد في سورة الدخان من فرق الأمر الحكيم في تلك الليلة «فالأمر الحكيم إنما هو أمر الرسالة والأوامر والأحكام لا شيء آخر سواها» هذا هو ما يرتضيه من معنى التقدير ومعنى فرق الأمر الحكيم.

وغريب جداً أن يحمل التقدير على ذلك المعنى الذي لا يخرج عما يتعلق بالوحي والرسالة وتحديد الدين أحكام الشريعة.

ونحن إذا كنا نتساهل فنقبل تأويل المرحوم الشيخ محمد عبده لهذا التقدير والتحديد ونقول إنه ليس بلازم في تسمية الليلة ليلة التقدير أن

تقدر فيه جميع أصول الدين وتحدد جميع أحكام الشريعة بل يكفي أن يكون بدء ذلك كله في تلك الليلة، إذ كنا نتساهل فنقبل هذا التأويل فليس من السهل أن يقبل ما يؤدي إليه مما يضيع معه معنى الإخبار في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ أليس يكون معناه حينئذٍ: «إنا أنزلنا القرآن - أي ابتدأنا إنزاله في الليلة التي بدأنا فيها بإرسال الوحي بالرسالة وبتحديد الشريعة وأحكام الدين؟ وإذ يكون حاصل المعنى: إنا ابتدأنا إنزال القرآن في الليلة التي ابتدأنا فيها بإنزال القرآن، وهذا شيء لا يقبله عاقل ولا يصح أن يُنَزَّل على مثله كلام عوام الناس فما بالك بكلام رب العالمين؟

وكذلك الحال في آية الدخان: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾؛ فإنه متى كان هذا الأمر الحكيم هو يختص بالرسالة والوحي والأوامر والأحكام - كما يقول الأستاذ الإمام - كان المعنى أنه يفرق ويبين ويفصل في تلك الليلة الوحيدة التي لا تتكرر ولا تتجدد على مر الدهور والأعوام كل أمر حكيم من أمور الدين وأحكام الشريعة، وإذا كان معلوماً بالضرورة أن تلك الليلة التي نزل فيها ما نزل من القرآن لم يبين فيها كل أمر حكيم من أمور الشريعة والدين فكيف يكون تأويل آية الدخان التي تنطق بأن الليلة المباركة وهي ليلة القدر يفرق فيها كل أمر حكيم؟

نحن نوقن أن الأستاذ الإمام - عليه سحائب الرحمة - شعر ببعض الحرج في تأويل الآية على النحو الذي يوافق ما يرمي إليه من المعنى فأراد أن يخلص من هذا الحرج بتقرير «أن ابتداء نزول القرآن كان فرقاً بين الحق والباطل، وكل ما جاءنا منه كان كذلك، ثم توالى النزول بعد الليلة الأولى بما هو من نوع ما نزل فيها كما قال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن

رَبِّكَ﴾[١]؛ فصح أن يُنسب إليها أنه يفرق فيها كل أمر حكيم، لأن كل ما جاء فيها كان أمراً فرق به بين الحق والباطل وبداية لما يكون بعده من مثله، كما صدق قوله: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[٢]، مع أنه لا يكون بينة وفارقاً بين الحق والباطل إلاَّ ما ظهر للناس منه وهو ما نزل وبلغ إليهم بالفعل أو كان بسبيل أن يبلغ، فليس الأمر الحكيم الذي يفرق في الليلة المباركة إلاَّ أمر الدين والأحكام». اهـ.

فهو يقول: إن ما نزل من القرآن في الليلة الأولى التي جاء فيها الوحي أمر حكيم فرق به بين الحق والباطل، وهو بداية لكل أمر حكيم جاء به القرآن بعد ذلك وفرق به بين الحق والباطل، فكأن كل أمر حكيم جاء به القرآن من أوله إلى آخره قد كان في ليلة الوحي الأولى.

ونحن نقول إن هذا شيء في غاية التكلف لا ينبغي أن يلجأ إليه في تفهم آيات القرآن الكريم:

يقرر الأستاذ الإمام: إن كل ما جاء في تلك الليلة كان أمراً حكيماً، وهذا حق لا مرية فيه.

ويقرر أن ما جاء فيها كان بداية لما جاء بعده من الأمر الحكيم، وذلك حق ـ أيضاً ـ لا ينازع فيه منازع.

ولكن ذلك كله لا يسوغ أن يقول إن بيان كل أمر حكيم قد كان في تلك الليلة.

---

(١) سورة الدخان: آية ٥ ـ ٦.

(٢) سورة البقرة: آية ١٨٥.

وليس من هذا القبيل قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ ﴾؛ فإنه إذا كان القرآن ـ كما يقول الأستاذ الإمام ـ يطلق على جميع الكتاب العزيز وعلى أية جملة منه، وكان كله هداية وفي كل جملة منه هداية صح أن يقال: إن القرآن نزل في شهر رمضان ما دام قد نزل جزء منه في هذا الشهر، ولا سيما أن هذه الآية لم تقل إن شهر رمضان قد أنزل فيه القرآن كله كما جاء في آية الدخان: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾.

ثم إن فرقاً كبيراً بين أن يقال: إن ما نزل في تلك الليلة كان كله أمراً حكيماً وأن يقال: إن كل أمر حكيم نزل في تلك الليلة، فلا يصح الخلط بين هاتين القضيتين ولا التخطي من إحداهما إلى الأخرى بدون وسيلة صالحة.

ولهذا لا يسعنا إلاَّ أن نسير في معنى «ليلة القدر والتقدير» على ما جرى عليه المتقدمون من العلماء.

فليلة القدر على هذا هي الليلة التي تقدر فيها الآجال والأرزاق والأقوات، وتضبط فيها شؤون سائر الكائنات وتحدد صفاتها وأحوالها.

غير أنه ينبغي أن يعلم أنه ليس المراد من تقدير هذه الأشياء في ليلة القدر بدء تقديرها وإنشاء تحديد مواقيتها وضبط شؤونها وأحوالها؛ فإن ذلك أزلي سبق به علم الله وإرادته منذ القدم، وإنما معنى ذلك إظهار هذه الأمور للملائكة وكشفها لهم ليضبطوها في صحفهم ويقوموا فيها بما أمرهم الله، وهذا هو ما اختاره ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري» وحرر القول فيه قبله الإمام النووي الذي اعتمد فيه على ما قرره الأئمة الأعلام، قال النووي:

«قال العلماء: سميت ليلة القدر لما تكتب فيها الملائكة من الأقدار لقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، ورواه عبد الرزاق وغيره من المفسرين بأسانيد صحيحة عن مجاهد وعكرمة وقتادة وغيرهم، وقال التوريشتي: إنما جاء القَدْر بسكون الدال وإن كان الشائع في القدر الذي هو مؤاخي القضاء فتحَ الدال ليعلم أنه لم يرد به ذلك: وإنما أريد به تفصيل ما جرى به القضاء وإظهاره وتحديده في تلك السنة لتحصيل ما يلقى إليهم فيها مقداراً بمقدار». اهـ.

أي فالقدر بفتح الدال هو تقدير الأشياء وتحديدها في الأزل؛ وهذا ليس الكلام فيه، وأما القدر بسكون الدال فهو تحديد ذلك للملائكة وضبطه لهم في الليلة التي تسمى ليلة القدر من ليالي كل سنة.

وخلاصة القول في هذا أنه إذا أخذت كلمة «القدر» بمعنى التقدير فلا يصح أن يقصر هذا التقدير على تقدير أمر الرسالة وتحديد أحكام الشريعة وإنما هو تقدير كل شيء أراد الله إعلام الملائكة به وإطلاعهم عليه ليقوم كل منهم بما وكل إليه من ذلك، وهذا هو معنى فرق الأمر الحكيم، فالأمر الحكيم ليس هو خصوصَ أمر الرسالة والقرآن؛ وإنما هو كل أمر اشتمل على الحكمة ووافق الواقع واقتضت الإرادة الإلـٰهية نفاذه في الكون من شؤون الدين والدنيا؛ يَطّلع الملائكة منه في ليلة القدر كل سنة على ما أراد كونه فيها.

وهذا هو الشرف وعظم الشأن الذي خص الله به ليلة القدر.

ويتلخص مما قدمناه أن ليلة القدر هي ليلة من كل سنة، فتتكرر بتكرر الأعوام، وإن الأحاديث الصحيحة قد طلبت تحريها والتماسها رجاء موافقتها بالعبادة وعمل الخير، فإن الجزاء على ما يكون من ذلك

في ليلة القدر خير من الجزاء على ما يكون منه في ألف شهر.

ولكن أي ليلة هي من ليالي السنة؟ وهل هي ليلة معينة في ذاتها لا تتنقل في أشهر السنة أو أنها تتنقل فيها، أو في شهر رمضان خاصة في لياليه كلها، أو في العشر منه أو في العشر الأواخر؟

قد اختلف العلماء في ذلك اختلافاً كبيراً، والذي رجحه ابن رشد في مقدمات «المدونة» أنها تتنقل باختلاف الأعوام، ولكن في شهر رمضان خاصة، قال: وهذا هو الذي ذهب إليه مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأكثر أهل العلم[١]، وهو أصح الأقاويل، وأولاها بالصواب.

ويرى ابن رشد أنها تختص في تنقلها ـ في الأغلب من حالها ـ بالعشر الوسط وبالعشر الأواخر من رمضان، وأن هذا القول هو الذي يتمشى مع جميع الأحاديث الصحيحة الواردة في هذا الشأن.

ويقول: إن الأغلب أنها تكون من العشر الوسط ليلة سبع عشرة وليلة تسع عشرة ومن العشر الأواخر في الأوتار منها.

ويقرر ابن حجر في «فتح الباري» أن أرجح أقوال العلماء في ليلة القدر أنها في وتر من العشر الأخير، وأنها تتنقل في أوتار هذا العشر.

وقال ابن القيم في «زاد المعاد» في بيان هدى الرسول ﷺ في اعتكافه أنه عليه الصلاة والسلام كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عزَّ وجلّ واعتكف مرة في العشر الأُول ثم الأوسط ثم

(١) رد ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى نسبة هذا القول لأولئك الأعلام، وانظر كلامه في مقالته في ليلة القدر في هذا الكتاب.

العشرة الأخيرة يتلمس ليلة القدر، ثم تبين له أنها في العشر الأخير فداوم على اعتكافه حتى لحق بربه عزَّ وجلّ. اهـ.

ويمكن أن يستخلص من هذا كله أن أرجح الأقوال في ليلة القدر أنها تتنقل في أوتار الثلث الأخير من رمضان.

وكذلك اختلف العلماء في أنه هل لليلة القدر علامات تظهر لمن وفقت له؟

والذي اختاره الطبري أنه ليس لها شيء من العلامات، وأنه لا يلزم فيها رؤية شيء أو سماعه، أما العلامة التي حدث عنها رسول الله ﷺ ـ فيما رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري ـ أنه عليه الصلاة والسلام رأى في منامه أنه يسجد في ماء وطين، وأن ذلك قد تحقق صبيحة ليلة إحدى وعشرين من رمضان فهي لا تدل على أن علامة ليلة القدر في كل سنة أن ينزل فيها المطر أو يشتد؛ كما لا يدل ذلك على أن ليلة القدر تكون دائماً ليلة إحدى وعشرين من رمضان، وإنما كان ذلك علامة على ليلة القدر في تلك السنة لا غير، قال ابن جرير: وذلك أنا شهدنا سنين كثيرة ينقضي فيها رمضان دون مطر مع اعتقادنا أنه لا يخلو رمضان من ليلة القدر[1].

---

(١) مجلة «الأزهر»: المجلد ٢٤، الجزء ٩، رمضان سنة ١٣٧٢، ص ١١٧٥ ـ ١١٨٧.

ليلة خير من ألف شهر

للأستاذ يوسف عبد الهادي الشال

قال الأستاذ:

إنها ليلة القدر إحدى ليالي شهر رمضان، تحدثت عنها سورتان من سور القرآن الكريم.

ففي سورة الدخان وصفها الله تعالى بأنها مباركة وأنها يفرق فيها كل أمر حكيم فقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[١].

وفي سورة القدر وصفها الله بما يفوق حدود الإدراك وأنها خير من ألف شهر، وأنَّ الملائكة تتنزل فيها وأنها سلام فقال عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾[٢].

---

(١) سورة الدخان: آية ٣ ـ ٦.

(٢) سورة القدر: آية ١ ـ ٥.

وقد جاء في سورة البقرة ما يشير إلى السبب الذي من أجله كان لهذه الليلة تلك المنزلة التي لا تطاول: قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾(١).

وقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن ابتداء نزول القرآن كان في رمضان، وفي إحدى لياليه في لحظة شدت انتباه التاريخ وسجلها الوجود جذلان مغتبطاً بالحديث الفذّ في حياة البشرية إذ كان أول آياته تنبيهاً للعقل أن يصحو من غفلة طال فيها رقاده، وإشارة بدء للفكر الإنساني أن يأخذ طريقه الصحيح عبر رحلة الحياة، وكان ذلك في كلمات قصيرات وفد بها الروح الأمين إلى خاتم المرسلين مبلغاً قول العلي الأعلى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(٢).

وتتابع اتصال السماء بالأرض على مدى ثلاثة وعشرين عاماً هي عمر الدعوة في حياة صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه فكانت فترة حافلة أفاضت من روح الله في الضمير البشري في أرض الله الرحيبة، أفاضت بما تضمنه القرآن الكريم والسُّنَّة المطهَّرة من عقيدة تقوم على منطق العقل، وشريعة تصلح عليها الدنيا، وآداب تشيع الخير والسلام بين الناس.

وقد كان للحظات الاتصال هذه مذاقها عند الذين عاصروها،

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٥.
(٢) سورة العلق: آية ١ ـ ٥.

أولئك الذين أدركوا فأحسنوا الإدراك.

روى أنس رضي الله عنه قال: «قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما بعد وفاة الرسول ﷺ: انطلق بنا إلى أم أيمن رضي الله عنها نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما أتيا إليها بكت فقالا لها: ما يبكيك؟ أتعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ؟ قالت: بلى، إني لأعلم أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ، ولكني أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان».

وطبيعي أن يكون للاتصال الأول مذاق خاص ومنزلة فريدة.

ونحن حين ننظر من وراء الأجيال المتطاولة إلى تلك الليلة المجيدة ونتصوَّر ذلك المهرجان الذي شهدته الأرض في هذه الليلة المباركة ونتأمل آثارها الباهرة في واقع الناس المشهود ندرك طرفاً من مغزى الإشارة القرآنية إلى تلك الليلة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾.

لقد بدأت بها حياة الإنسان الجديرة بأن يضفي عليه وصف الحياة فكانت خيراً من ألف شهر كما قال تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾.

وكيف لا يكون لها هذا الفضل، وقد ابتدأ بها تصحيح القيم وتحقيق العدالة، وإعلان حقوق الإنسان، فتغير وجه الدنيا وشهد التاريخ عجباً وسجل في صفحاته من محامدَ لم يتح له تسجيلها من قبل، فأشرق في صفحاته لفت الإنسان إلى قيمته في قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدۡ

كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾[١] ولم يخص بالتكريم لوناً دون لون ولا طبقة دون طبقة، وإنما وضع المقياس السليم للتفاضل في قوله: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[٢]، وأقام ميزان العدالة وأمر بتحريها مهما كانت الظروف والملابسات إذ قال: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾[٣]، وأعلن المساواة بين البشر في قوله الجلي: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾[٤].

ولم يلبث نور الله في تلك الليلة المباركة أن غمر الدنيا فتفتحت عليه الأعين، ولم يلبث وحي الله أن جلجل في جنبات الأرض فأرهف الناس إليه أسماعهم، ومَن حرمه الله نعمة الاستجابة إليه لم يحرمه فضل الاستمتاع بما أنشأ من ثقافة وما أقام من حضارة يعترف بقيمتها مَن لا يدينون بالإسلام، ولا يصمد أمام منطق واقعها المكابرون.

ويرى المتأمل أثر الشريعة الإسلامية والفكر الإسلامي لدى الأمم والشعوب مشرقاً ومغرباً، ونلمسه في مبادىء المساواة ونزعات الاحترام للمرأة وحقوقها، وما امتاز به الفقه الإسلامي من قواعد واتجاهات، ولا تستطيع المدنية المعاصرة أن تدَّعي أنها الابن الشرعية للإسلام وأفكار المسلمين.

---

(١) سورة الإسراء: آية ٧٠.
(٢) سورة الحجرات: آية ١٣.
(٣) سورة المائدة: آية ٨.
(٤) سورة الحجرات: آية ١٣.

كل ذلك لم يكن يستطيع أن يبرز إلى الوجود لو لم تكن هذه الليلة التي باركها الله مبدأ المسيرة الموفقة، وحسبها أنَّ الله تعالى سماها ليلة القدر، وحسبها أنها احتلت من الزمن أسمى منزلاً ومن الأحداث أعلى ذروة.

وقد قال الإمام محمد عبده في «القدر» إما أنه بمعنى التقدير؛ لأنَّ الله ابتدأ في هذه الليلة تقدير دينه وتحديد الخطة لنبيّه في دعوة الناس إلى ما ينقذهم مما كانوا فيه، وإما بمعنى العظمة والشرف لأنَّ الله تعالى قد أعلى فيها منزلة نبيّه وشرفه وعظمه بالرسالة، وقد جاء بما فيه الإشارة بل التصريح بأنها ليلة جليلة بجلال ما وقع فيها من إنزال القرآن فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾، فكرر ذكرها ثلاث مرات ثم أتى بالاستفهام الدال على أنَّ شرفها ليس مما يسهل إحاطة العلم به.

وقال الإمام القرطبي في تحديد هذه الليلة: إنَّ الذي عليه المعظم أنها ليلة سبع وعشرين.

ولعلَّ ما يقوّي هذا الرأيَ طائفةٌ من الأحاديث الصحيحة التي ترجح أنها في العشر الأواخر من رمضان، ففي حديث معاذ عن أبي سلمة قال: «سألت أبا سعيد ـ وكان صديقاً لي ـ فقال: اعتكفنا مع النبي ﷺ العشر الأوسط من رمضان، فخرج صبيحة عشرين فخطبنا وقال: **إني أُريت ليلة القدر، ثم أُنسيتها أو نسيتها، فالتمسوها في العشر الأواخر في الوتر، وإني أُريت أني أسجد في ماء وطين فمن كان**

اعتكف مع رسول الله ﷺ فليرجع. فرجعنا وما نرى في السماء قَزْعة[1]، فجاءت سحابة فمطرت حتى سال سقف المسجد وكان من جريد النخل وأقيمت الصلاة ورأيت رسول الله ﷺ يسجد في الماء والطين حتى رأيت أثر الطين في جبهته».

قال الإمام ابن حجر: إنَّ النسيان جائز على النبي ﷺ ولا نقص عليه في ذلك لا سيَّما بما لم يؤذن في تبليغه، وقد يكون ذلك مصلحة تتعلق بالتشريع كما هو السهو في الصلاة أو بالاجتهاد في العبادة كما في هذه القصة؛ لأن ليلة القدر لو حددت في ليلة بعينها حصل الاقتصار عليه ففاتت العبادة في غيرها.

وقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان**»، وقد روي مثل هذا الحديث عنها بأسانيد متعددة.

وقال القرطبي في علاماتها: منها أنَّ الشمس تطلع صبيحتها بيضاء لا شعاع لها...

وقد ورد في الصحاح ما يحفز على النشاط لهذه الليلة والجد في العبادة، ففي الصحيحين: «**من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**».

وكان صلوات الله وسلامه عليه وهو خير قدوة يولي العشر الأواخر

(١) قطعة من غيم أو سحاب، «لسان العرب»: ق ز ع.

من رمضان عنايته، ويخصها بالاجتهاد في العبادة، قالت عائشة رضي الله عنها: «**كان النبي ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله**» وشد المِئْزَر كناية عن اعتزال النساء، أو التشمير والجد في الأمر المطلوب.

وعمل الرسول الكريم ووصاياه كان باعثَ المسلمين على النشاط في العبادة والتسابق في عمل الخير وبسط اليد بالمساعدات السخية...

فالحقيقة التي لا يحوم حولها شك أنَّ مياسر المسلمين كانوا ينتهزون رمضان فرصة التسابق في سد الخلات وإعانة المُعْوِزين وإغاثة الملهوفين استجابة لنداء الإسلام واقتداء برسول الله ﷺ، فقد كان جواداً، وكان أجود ما يكون في رمضان، كما كانوا يطبقون وصايا الرسول الكريم في الصدقة وإنفاقها بحيث تكون مستورة على نحو مبالغ فيه: «**حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**».

وامتداداً لهذا الواقع الإسلامي كان بعض المياسير ينتهز فرصة ليلة القدر التي يضاعف فيها ثواب الأعمال فيحمل على دابته فيما يطلق عليه العامة اسم «الخرج» ما شاء الله له أن يحمل: أكسية وأطعمة ونقوداً، ويجتهد في إخفاء شخصيته ويتخيَّر جهد الاستطاعة أسرة فقيرة أو من أَخْنى عليهم الدهر، وفي سكون الليل يطرق الباب فيفتح له، فيفرغ أهل الدار وعاء الطارق دون حديث ويضعون في الوعاء شيئاً، أي شيء، ويرجع «الرجل» ولا يعلم أهل الدار من هو.

والذي لا شكَّ فيه أنَّ ذلك أدب رفيع من آداب الإسلام العالية، يتصدَّق المتصدِّق دون أن تكون ردود فعل نفسية لدى آخذ الصدقة.

ونحن المسلمين ينبغي ـ بل يتحتَّم ـ علينا ألا ننسى هذه الذكرى وألَّا نغفلها، وقد جعل نبيّنا الكريم الطريق إلى ذلك سهلاً لنظل موصولين بها ولتبقى هي موصولة بنا لنفيد مما بعثته من حياة وحركة في عالم القلب والضمير وعالم السلوك والعلاقات[1].

(١) مجلة «الأزهر»: السنة ٤١، الجزء ٧، رمضان سنة ١٣٨٩، ص ٤٩٢ ـ ٤٩٦.

ليلة القدر
للأستاذ مصطفى الطير

قال الأستاذ:

هي ليلة من ليالي الله تعالى خصها بمزيد من القدر والشرف، فأنزل فيها القرآن، ورفعها بذلك فوق أقدار الزمان، وجعلها موسماً للعبادات، وميقاتاً للبر والخيرات، ينتظرها الصائمون كل عام، يمجدون فيها القرآن الذي شرفت بنزوله فيها، ويستكثرون من الدعاء والطاعات في زُلَفٍ منها، ويرجون من الله أن يتقبل منهم، ويجعلها خيراً وبركة عليهم.

وفيها يقول الله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[١].

فشرف هذه الليلة ناشيء عن نزول القرآن العظيم فيها، ولولاه لكانت مثل سائر الليالي، فالزمان في ذاته عند الله سواء، وكيف لا تشرف به ليلة القدر وهو أغلى كلام من أجل متكلم، نزل على أكرم رسول، ليبلغه خير أمة أخرجت للناس.

وقد فخم الله القرآن بالإضمار إليه بقوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ من غير سابق

---

(١) سورة القدر: آية ١ ـ ٣.

تصريح باسمه إيذاناً بحضوره في الأذهان لجلال منزلته، وزاده تفخيماً بتفخيم ليلة إنزاله في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ فإنه مشير إلى أنها من الفخامة في درجة فاقت دراية كل من يصلح للخطاب من المخلوقين، وفي قوله: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ ولا شك أن عظمة هذه الليلة ليست ذاتية، بل بسبب نزول القرآن فيها، وحسبك في الدلالة على قدر القرآن فيها، وحسبك في الدلالة على قدر القرآن الذي عظم به قدر هذه الليلة أن الله تعالى قال في شأنه ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾[1]، وقد بقي هذا التحدي إلى يومنا هذا ولم يستطع معارضوه أن يأتوا بمثله ولا بأقصر سورة منه، وسيبقى العجز أمامه إلى يوم القيامة، وذلك خير دليل على أنه من عند الله وأنه حجة الله على صدق نبيه محمد في دعواه الرسالة عنه تعالى.

والمراد بإنزال القرآن ليلة القدر إنزاله كله فيها إلى السماء الدنيا في العام الأول للبعثة لكنه نزل بعد ذلك منجماً حسب الوقائع في مدى ثلاث وعشرين سنة، وقيل إنه لم ينزل دفعة واحدة، بل ابتدأ نزوله ليلة القدر، وتتابع نزوله بعد ذلك طول مدة البعثة النبوية.

موعد ليلة القدر:

أكثر العلماء على أنها في أوتار العشر الأخير من رمضان، وأكثر هؤلاء على أنها ليلة السابع والعشرين منه، ودليلهم في ذلك ما رواه

---

(١) سورة الإسراء: آية ٨٨.

مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كان متحريها فليتحرها ليلة سبع وعشرين**».

ومن طرائف الاستنباط أن عدد كلمات السورة ثلاثون، وأن كلمة «هي» الراجعة إلى ليلة القدر هي السابعة والعشرون، وذلك يشير إلى أنها ليلة السابع والعشرين.

وقد كان ﷺ يستعد لها فيعتكف بالمسجد في العشر الأخير من رمضان قالت عائشة: «**كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأخير شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله**» والمئزر ما يستر العورة، وشده كناية عن الجد في العمل، وقد ورد في تحديد وقتها روايات مختلفة غير ما ذكر، وأقواها في أوتار العشر الأخير من رمضان، ولعل اختلاف الروايات ليتعدد طلب العبد لها بالعبادة في الليالي التي وردت فيها.

سبب تسميتها:

القدر: الشرف، فتسميتها بليلة القدر لشرفها بأنزال القرآن العظيم فيها، وقيل سميت بذلك لأن الله ينزل مقادير الأمور في العام المقبل ليلتها، فينزل فيها آجال العباد وأرزاقهم ومقادير الرياح والأمطار والحروب والسحاب ورحلات الطيور والحيوانات والمواليد والوفيات وغير ذلك ليقوم مدبرات الأمور من الملائكة بتنفيذها في حينها.

وفي ذلك يقول الله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾[1]. وقيل للحسين بن الفضيل: أليس الله قدر

---

(١) سورة الدخان: آية ٣ ـ ٤.

المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض قال: بلى، قيل: فما معنى ليلة القدر؟ قال: سوق المقادير إلى المواقيت وتنفيذ القضاء المقدر.

وقيل: سميت بذلك لأن الطاعة فيها لها قدر عظيم وجزاء كبير.

﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ . . .

والذي أفهمه أن هذه الليلة وإن كان يعظم فيها قدر الأعمال لقوله ﷺ: «**من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**» رواه البخاري ومسلم، لكن كونها خيراً من ألف شهر جاءها من أن القرآن العظيم نزل فيها، فهي خير من ألف شهر، فإنك إذا قارنت بين هذه الليلة وبين العصر الجاهلي قبلها وجدت ذلك حقيقياً لا مبالغة فيه، فقد كان الناس يعيشون في حروب متتابعة ووثنية هزيلة، وانحراف في السلوك وإهدار للأعراض وجهالة ضافية الذيول، فلما جاءت ليلة القدر المباركة نزل فيها القرآن الذي فتح أبواب الاستقرار والتعايش السلمي على أساس من وحدة العقيدة وتبادل النفع والخير والمحبة والسلام، إلى غير ذلك مما جاء به القرآن العظيم، فكيف لا تفضل به ألف شهر ليست فيها وأمرها ما ذكرنا، أفليست ليلة الشقاء خيراً من ألف شهر يقضيه الإنسان عليلاً مهدماً؟! لذلك كان العمل الصالح فيها خيراً منه في ألف شهر ليست فيها ليلة القدر.

تنزل الملائكة والروح:

يقول الله تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ والروح هو جبريل رئيس الملائكة وأمين الوحي، ويدل لذلك قوله

تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ الآية[1]، وقيل إنه صنف أعلى من الملائكة وهم حفظة عليهم، كما أن الملائكة حفظة علينا، ومعنى الآية: تتنزل الملائكة على دفعات بأمر ربهم من أجل كل أمر قضاه الله لينفذوه في حينه بعد أن تلقوه من ربهم سبحانه.

﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾:

يعني أن هذه الليلة هي ليلة السلام، ففيها يسلم الملائكة على مؤمني أهل الأرض تحية لهم، أو يسلم الله عليهم، والسلام من الله الرحمة ومن الملائكة استغفار أو دعاء بالسلام، ويجوز أن يكون المعنى أن الله يسالم في هذه الليلة عباده ويتجاوز عن هفواتهم السابقة إذا أحيوها بالطاعة.

ويبقى كلٌ مِن تنزل الملائكة والسلام حتى مطلع الفجر.

من يحرز فضلها؟

يحرز فضلها من أحياها بالقيام لقوله ﷺ: «**من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**» من حديث رواه البخاري ومسلم.

ولما كان مختلفاً في أي ليالي عشر رمضان تكون ليلة القدر فلهذا يستحب قيام هذا العشرة الأخيرة ـ كما قاله المتولي ـ حتى يحرز المسلم فضلها على اليقين، أقول: ولعل النبي ﷺ كان يعتكف فيها لذلك.

---

(١) سورة الشعراء: آية ١٩٣ ـ ١٩٤.

وإحياء هذه الليلة يكون بالصلاة والدعاء في وقت منها، فلا ينام الليل كله، وروي مرفوعاً من طريق أبي هريرة أن من صلَّى العشاء الأخيرة في جماعة فقد أدرك ليلة القدر، أي أخذ حظاً منها.

والإمام النووي يرى أن من أحياها لا يحرز فضلها بمجرد إحيائها بل بأن يطلعه الله عليه ـ أي يريه بعض ملكوته ـ فلو لم يشعر بها لم ينل فضلها، وخالفه الأوزاعي والمتولي حيث قالا: إن فضلها يناله من قامها بإخلاص لله تعالى.

وفق الله جميع المسلمين لإحيائها وأنالهم من بركاتها[١].

---

(١) مجلة «الأزهر»: السنة ٤٠، الجزء ٧، رمضان سنة ١٣٨٨، ص ٥٣٤ ـ ٥٣٩.

ليلة القدر في جامع قرطبة الأعظم
للأستاذ عبد المجيد وافي

قال الأستاذ:

منذ أن هدى الله العالم ببعثة خاتم المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وانتشرت أضواء رسالته فعمت الأرجاء، وطبقت الآفاق، وشهر رمضان المبارك من كل عام، موسم من مواسم الخير والهدى، لا يخلو قطر إسلامي من احتفاء به، ولا تجد مدينة صغيرة أو كبيرة تفترش بقعة من آفاق العالم الإسلامي الرحيبة إلاَّ وقد غمرتها بركات الشهر العظيم ونفحاته.

وما دخل الإسلام أرضاً دون أن يكون لذكرى نزول القرآن احتفال بها واحتفاء، صيام نهار وقيام ليل، وما شذ عن ذلك بلد ولا أفق، حتى دخل الإسلام ـ أوروبا ـ من غربها، وعمر بالأندلس قروناً ثمانية، نشر بها الهدى، ورفع لواء الحضارة، وأخرج الغرب من بداوته، وأحرجه في جهالته.

وكان للدولة الإسلامية بالأندلس أكثر من حاضرة، عمرت جميعها بالمساجد الجامعة، ومن فوق صوامعها ارتفعت أصوات المؤذنين مجلجلة بذكر الله وتكبيره كما امتلأت رحابها بحلقات الدرس، وخلوات العبادة على طول أيام السنة.

فإذا ما أهل رمضان المعظم، ازدحمت تلك المساجد بالذاكرين والقائمين، وزاد القَوَمة على أمرها من عنايتهم، وأعطى أصحاب النفقة لاجتلاب زيوت الإضاءة والشموع، وفاضت أضواؤها حتى قارب ليلها نهارها في ضوئه ولألائه.

ولقد ظلت قرطبة عاصمة الإسلام بالأندلس ما يقرب من خمسة قرون ينتشر منها الضياء، ويرتفع عليها اللواء، وإليها يقدم طلاب المعرفة، ورواد العلم والحضارة.

كما ظل مسجدها الجامع ـ الجامع الأعظم ـ كما لقبه جميع مؤرخي الأندلس لؤلؤة المساجد ودرة الخلافة، ومنار العلم، ومقصد حجاج المغرب إلى أرض الفردوس.

بدأ عمارته عبد الرحمن الداخل عام **١٦٩هـ** قبيل وفاته حيث مات عام **١٧١هـ** قبل أن تتم اللمسات الأخيرة لمظهره العظيم، وزاد في عمارته حفيده وسميه عبد الرحمن الأوسط زيادتين، الأولى من جانبيه عام **٢١٨هـ ـ ٨٣٣م**، والثانية في العمق من جهة المحراب عام **٢٣٤ ـ ٨٤٨م** أتمها من بعده ابن الأمير محمد بن عبد الرحمن.

وكانت ذروة التوسعات وأروعها جمالاً وفخامة ـ رغم روعة الأصل والزيادتين ـ ما قام به الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الثالث على مدى السنوات **٣٥٤هـ ٣٥٥هـ، ٣٥٦هـ**، ثم ما زاد في صحنه، وإعادة بناء منارته «صومعته»، وأجرى الماء في صحنه للوضوء بالقنوات من الجبال إلى المسجد، وجاء من بعد هؤلاء الأمراء الأمويين الوزير الحاجب ـ المنصور بن أبي عامر ـ أو محمد بن أبي عامر الذي

تخرج في رحاب المسجد الجامع، وتدرج في حلقات علمه، حتى عرف بالفقه والكتابة.

فلما صارت الوزارة إليه، وقام بالوصاية على ولي عهد الحكم بدأ زيادة في شرقي المسجد تساوي مساحة العمارات الأموية الثلاث في سنة ٣٧٧هـ ـ ٩٨٧م.

وما كانت عمارة المسجد أصلاً إلاَّ بعد ضيق المسجد العتيق الذي أسسه التابعي حنش الصنعاني عقب الفتح أيام موسى بن نصر عام ٩٥هـ.

وبدأ الداخل عمارته، وكانت الزيادات جميعاً لنفس سبب بناء المسجد العظيم ـ ضيق بيت الصلاة برواد المسجد، حتى بلغت سواريه بعد زيادة المنصور، ما يقرب من ألف وأربعمائة سارية، غير الأكتاف والدعامات.

وظل للمسجد رواؤه، وطبقت في الآفاق شهرته وأخباره حتى سقطت قرطبة على يد القشتاليين عام ٦٣٦هـ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، وبقي بعدها المسجد مسجداً قرابة خمسين عاماً يؤمه المسلمون بالصلاة تحت الحكم الأسباني إلى أن غلب التعصب الحضارة، وأقيمت في قلبه الصلوات المسيحية قبل أن يقتطع من قلبه لبناء كاتدرائية.

وإذا كانت كتب الرحلات وأخبار الرواة تذكر وتفيض في وصف هذا الجامع الأعظم فإن الوصف يقصر عن الحقيقة، وليس السماع كالعيان حتى بعد انقضاء ألف ومائتي عام على بدء عمارته ومرور سبع مائة عام

على وقوعه أسيراً بين يدي القشتاليين، فإنه ما زال المسجد الجامع الأعظم.

كيف كان الجامع الأعظم ـ جامع قرطبة ـ في رمضان أيام أهله وأوليائه، كان عامرَ النهار بالحلقات والدروس، مضيءَ الليل بالثريات الكبرى والتنانير والسُرُج والشموع، يؤمه القوم ـ قوام الليل ـ وقراء القرآن، وما تكاد الحركة تهدأ بُعَيْد صلاة الفجر، حتى تبدأ من جديد حلقات الفقه والتفسير والحديث دورانها، وينتهي ليله الساهر ويخفت صوت القراء والمبتهلين قُوَّام الليل، ليبدأ نهاره تتردد في جنباته الفسيحة أصوات العلماء، وهمسات الطلاب بالأسئلة، حياة العلم مدارسته، وحياة الجامع عمرانه بالعبادة والدرس.

يروي مؤرخ الأندلس المَقّري ـ صاحب نفح الطيب ـ في عباب ما يروي من أخبار المسجد صورة حية لليلة من ليالي رمضان المعظم في أيام المسجد الأخيرة.

ولم يكن صاحب الصورة يدري أن الزمن قد دار دورته، وآذن مجد قرطبة بالزوال عما قريب، الصورة يصورها أبو محمد إبراهيم بن الولبني، فقيه وكاتب من عصر الموحدين آخر موجة إسلامية أدركت روابي الأندلس الأوسط، هبت عالية فأوقفت زحف القشتاليين إلى حين، وانحسرت بعدها ليقف حكم المسلمين على مشارف غرناطة مدة قرنين ونصف قرن قبل غروب شمس الإسلام من أفق الأندلس الحزين.

صورة حية تمتلىء بالوصف المتحرك، تجتلي المحاسن،

وتحكي مشاعر الحس، وعواطف النفس، وتعكس الوميض المتلألىء في ليلة القدر من الشهر المبارك، لا يشوب جمالها إلَّا إغراق صاحبها في استعمال لوازم العصر - الأدبية - من جناس وطباق وسجع ومقابلة.

خرج الكاتب إلى قرطبة العامرة - كعادة السراة والسادة - من الحج إلى قرطبة الحاضرة في المواسم، لحضور ليلة القدر.

«. . . وإني شخصت إلى حضرة قرطبة - حرسها الله تعالى - منشرح الصدر، لحضور ليلة القدر، والجامع - قدس الله تعالى بقعته ومكانه، وثبت أساسه وأركانه - قد كُسي ببردة الازدهاء، وجُلِّي في معرض البهاء، كأن شرفاته فلول في سنان، أو أشر في أسنان[١]، وكأنما ضربت على سمائه كلل، أو خلعت على أرجائه حُلل، وكأن الشمس قد خلفت فيه ضياءها، ونسجت على أقطاره أفياءها، فنرى نهاراً قد أحدق به ليل[٢]، كما أحدق بربوة سيل، ليل دامس، ونهار شامس».

«وللذبال تألق كنضنضة الحيات[٣]، أو إشارة السبابات في التحيات، قد أترعت من السليط كؤوسها[٤]، ووصلت بمحاجن الحديد رؤوسها[٥]، ونيطت بسلاسل كالجذوع القائمة، أو كالثعابين العائمة،

---

(١) قال الأستاذ: الشرفات في المساجد ما يكون من زخارف حجرية على أطراف الجدرات الخارجية، معانقة السماء بأطرافها الممتدة، والأشر ما يُرى في أسنان الصغار كمثل شرشرة المناسير.

(٢) قال الأستاذ: النهار هو الضوء الشديد داخل المسجد والليل خارجه.

(٣) قال الأستاذ: ضوء الفتيل المشتعل كحركة ألسنة الحيات في أفواهها.

(٤) قال الأستاذ: السليط زيت الإضاءة في الكؤوس.

(٥) قال الأستاذ: العلاقات في رؤوس المصابيح.

عصبت بها تفح من الصغر[١]، كاللقاح الصفر، بولغ في صقلها وجلائها، حتى بهرت بحسنها ولألائها، كأنها جُليت باللهب، وأشربت ماء الذهب».

«. . . إن سمتها[٢] طولاً رأيت منها سبائك عسجد، أو قلائد زبرجد، وإن أتيتها عرضاً رأيت منها أفلاكاً ولكنها غير دائرة، ونجوماً ولكنها ليست بسائرة تتعلق تعلق القرط من الذفرى[٣]، وتبسط شعاعها بسط الأديم حين يُفرى[٤]».

«والشمع قد رفعت على المنار رفع البنود، وعرضت عليها عرض الجنود، ليجتلي طلاقة روائها القريب والبعيد، ويستوي في هداية ضيائها الشقي والسعيد، وقد قوبل منها مبيض بمحمر، وعورض مخضر بمصفر، تضحك ببكائها وتبكي بضحكها، وتهلك بحياتها وتحيى بهلكها[٥]».

«والطيب تضغم أفواخه[٦]، وتتنسم أرواحه، وقتار الألنجوج والنَد يسترجع من روح الحياة ما ند[٧]، وكلما تصاعد وهو محاصر،

---

(١) قال الأستاذ: كرات النحاس الأصغر تجمع أطراف السلاسل.
(٢) قال الأستاذ: نظرت إليها بطول أروقة المسجد.
(٣) قال الأستاذ: تعلق القرط في طرف الأذن.
(٤) قال الأستاذ: مثل بسط الجلد حين يشق.
(٥) قال الأستاذ: صورة تشكيلية زخرفية من ترتيب الشموع وألوانها المختلفة في جوانب المنارة.
(٦) قال الأستاذ: رائحته الفواحة تملأ الخياشيم.
(٧) قال الأستاذ: الألنجوج والند نوعان من البخور، والقتار بضم القاف ريحه المختلط بدخان احتراقه.

أطال من العمر ما كان قد تقاصر، في صفوف مجامر ككعوب مقامر[١]».

«وظهور القباب مؤللة وبطونها مهللة[٢]، كأنها تيجان، رصع فيها قوت ومرجان[٣]».

«قد قوس محرابها أحكم تقويس، ووشم بمثل ريش الطواويس، حتى كأنه بالمجرة مقرطق، وبقوس قزح ممنطق، وكأن اللازورد حول وشومه، وبين رسومه نتف من قوادم الحمام، أو كسف من ظلل الغمام[٤]».

«والناس أخياف في دواعيهم، وأوزاع في أغراضهم ومراميهم، بين ركع وسجد، وأيقاظ ومُجّد، ومزدحم على الرقاب يتخطاها، ومقتحم على الظهور يتمطاها كأنهم بَرَد خلال قَطْر، أو حروف على عرض سطر».

«حتى إذا قرعت أسماعَهم روعة التسليم، تبادروا بالتكليم، وتجاذبوا بالأثواب، وتساقوا بالأكواب، كأنهم حضور طال عليهم غياب، أو سَفْر أتيح لهم إياب، وصفيك مع إخوان صدق، تنسكب العلوم بينهم انسكاب الوَدْق[٥]، في مكان كوكر العصفور ـ استغفر الله ـ أو ككُناس اليَعْفور[٦]».

---

(١) قال الأستاذ: المجامر المباخر وكعوب المقامر فصوص النرْد.
(٢) قال الأستاذ: وصف القباب من الداخل والخارج، مستديرة كالأهلة من داخلها محددة التحديد من الخارج.
(٣) قال الأستاذ: هذا وصف فسيفساء القبة وفصوصها ذات الألوان الرائعة.
(٤) قال الأستاذ: هذا أصدق وصف لفسيفساء المحراب وألوانها وزخارفها التي جلبت خصيصاً من بيزنطة أيام الحَكَم المستنصر، والقرطق الثوب القصير، وفسيفساء المحراب تقف في وشمها عند خواصر العقد.
(٥) الوَدْق: المطر.
(٦) قال الأستاذ: بيت الظبي، وذلك كناية عن ضيق المكان بمن فيه.

«كَأن إقليدس قد قسم بيننا مساحته بالموازين، وارتبطنا فيه ارتباط البياذق بالفرازين، حتى صار عقدنا لا يحل، وحدنا لا يفل[١]».

«بحيث نسمع سور التنزيل كيف تتلى، ونتطلع صور التفصيل كيف تجلى والقَوَمة من حوالينا يجهدون في رفع الضرر، ويعمدون إلى قرع العمد بالدرر، فإذا سمع بها الصبيان قد طبقت الخافقين، وسرت نحوهم سري القين، توهموا أنها إلى أعطافهم واصلة، وفي أقحافهم حاصلة[٢]، ففروا بين الأساطين، كما تفر من النجوم الشياطين، كأنما ضربهم أبو جهم بعصاه[٣]، أو حصبهم عمير بن ضابىء بحصاه»[٤].

«فأكرم بها من مساع تسوق إلى جنة الخلد، وتهون في السعي إليها الطوارف والتُلْد تعظيماً لشعائر الله، وتنبيهاً لكل ساه ولاه، حكمة تشهد لله بالربوبية وطاعة تدل بها كل نفس أبية»[٥].

وهكذا ينتهي هذا الوصف الرائق لاحتفال ليلة القدر المباركة بالجامع الأعظم، وهي عبارات صادقة، رائعة التصوير، تناولت النظر والحس والعواطف المرهفة لقُصاد الساحة المقدسة في ليلة عزيزة على أهل الإيمان عمرها الناس بالضراعة، ومهد لها أصحاب الخدمة بالمسجد بما يشع عليها من جو الحفاوة والضياء.

---

(١) قال الأستاذ: إقليدس عالم الهندسة اليوناني، والبياذق والفرازين من أدوات الشطرنج.

(٢) الأقحاف مؤخرة الرؤوس.

(٣) قال الأستاذ: أبو جهم بن حنيفة صحابي قرشي كان مهاباً في قومه.

(٤) قال الأستاذ: عمير بن ضابىء حاول أن يحصب الحجاج لما طال سكوته على المنبر.

(٥) قال الأستاذ: «نفح الطيب» للمقرىء ج٥، دار المأمون، ص ٢١ ـ ٣١.

ولا عجب أن يروي أن عدد ثرياته بين كبير وصغير كانت تقرب من الثلاثمائة، هذا غير صغار كؤوس الزيت في مصابيحها، كانت تسع زيتاً بالأرباع[١] في رمضان وحده مائتين وخمسين، ومثل ذلك بقية ليالي السنة، هذا غير الشمع الكبير الذي كان وزنه في رمضان وحده ثلاثة قناطير، وثلاثة أرباع القنطار من الكتان والقطن فتيلاً للشمع المذكور.

وكان وزن الشمعة الكبيرة التي توضع بجوار الإمام بين خمسين وستين رطلاً، بينما يقوم على الخدمة في المسجد، ويتصرف فيه من أئمة ومقرئين وأمناء ومؤذنين وسدنة ووقادين، قريب من مائة وستين فرداً، يحرقون في الليلة الختامية وحدها أربع أواق من العنبر الأشهب، وثماني أواق من العود الرطب[٢].

وتمر الأيام وما يزال الصرح شامخاً، يزوره السواح الغربيون بين مبهور وحاقد، ويؤمه زواره من المسلمين حزاني، يهرعون إلى السجود في رواق محربه، على بلاط الرخام الذي قد عرى عن فرشه، يؤدون حق المسجد من تحية، ويخرجون من رحابه وقد تركوا قلوبهم وأكبادهم أسيرة الأسير في أرض المنفى.

لقد شاهدت عيناي هذا الصرح، وشاهدت عبر الشرق والغرب مساجد فارهة، ولكني لم أشاهد فناً مثل ما رأيت فيه، أصيلاً وقوراً، وجواً خاشعاً وعمارة شامخة، وهندسة رائعة رفيعة، حسب فيه حساب الضوء والظل، وارتفاع السقف وخشوع الساجد، في تكامل رهيب،

---

(١) قال الأستاذ: نوع من المكاييل.
(٢) قال الأستاذ: المرجع السابق.

امتص ما أقيم فيه بعد الأسر من صلوات مسيحية وكنائس، تتضاءل في رحابه الواسع، حتى لا تكاد تبين.

فسلام على المسجد الجامع الأعظم، وسلام على رمضان وليلة القدر[1].

(١) مجلة «الوعي الإسلامي»: السنة ٧، العدد واحد وثمانون، رمضان سنة ١٣٩١، ص ٥٥ _ ٦٤.

ليلة القدر
للدكتور عزت علي عطية

قال الدكتور:

إنَّ مقارنة الآيات القرآنية التي لها علاقة بهذه الليلة الكريمة هو أول ما ينبغي أن نبدأ به حديثنا عن تلك الليلة الجليلة.

لقد أنزل الله سورة باسمها، وصدَّر هذه السورة بتقرير إنزال القرآن فيها، وفخم شأن القرآن بتفخيم هذه الليلة، وبيان ما اشتملت عليه من مظاهر الرضوان الإلـٰهي، والسلام العام.

ويتحدَّث القرآن مرة ثانية عن نزول القرآن مقرراً نزوله في ليلة لها سمات خاصة، وملامح معينة، لا تكاد تختلف عن صفات ليلة القدر، فيقول: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾(١).

وفي مرحلة ثالثة يحدد القرآن الشهر الذي تحقق فيه نزوله، وسرى في أرجاء العالم على مر الزمان سناؤه ونوره، فيقول: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ﴾(٢).

الليلة التي نزل فيها القرآن ليلة القدر والشهر الذي نزل فيه القرآن

---

(١) سورة الدخان: آية ٢ ـ ٤.

(٢) سورة البقرة: آية ١٨٥.

شهر رمضان لقد نزل القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان.

أما عن تحديد هذه الليلة تحديداً لا لبس فيه من شهر رمضان فذلك موضوع له مجالاته الفسيحة أمام الباحثين.

إنَّ تعيين وقتها لم يُرفع كلية بحيث تصبح غير واضحة المعالم من بين سائر أيام الشهر، لقد انحصر تعيينها في دائرة الأيام العشرة الأخيرة من شهر رمضان، وعلى ذلك تدل الأحاديث الصحيحة، فبدلاً من أن يطلب التماسها في ليلة طلب التماسها في عشر من الليالي ليتمكَّن المؤمن من التماسها والاستعداد لاغتنامها فترة معقولة من الزمان، كافية لتمرسه بالعبادة وتذوُّقه حلاوة الطاعة، وترقيه في مجالات السباق.

لقد أخفى الله رضاه في الطاعات ليرغب العباد في كل طاعة، وأخفى غضبه في المعاصي ليحترزوا عن كل معصية.

وأخفى وليه بين عباده ليحفظوا حُرمة كل مؤمن.

وأخفى ساعة الإجابة يوم الجمعة ليتحفظوا على اليوم كله.

وأخفى الاسم الأعظم من بين أسمائه ليعظموا كل الأسماء.

وأخفى الصلاة الوسطى لئلا يتهاونوا بأي صلاة.

وأخفى وقت الموت ليخافوا في كل الأوقات.

أما عن ليلة القدر فقد أخفاها الله تعالى ليقوم العباد كلَّ ما يظن وجودها فيه من الليالي.

ومن الأحاديث التي تشير إلى زمان ليلة القدر، وتحدد المدة التي توجد هذه الليلة بين ثناياها ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان**».

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ قال: «**التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، ليلة القدر في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى**».

وروى البخاري بسنده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**هي في العشر الأواخر، هي في تسع يمضين، أو في سبع يبقين**».

وحدث مالك عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أُروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر، فقال رسول الله ﷺ: «**أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر، فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر**».

والمنهج الأمثل ـ فيما نرى ـ فيما يتصل بالتماس ليلة القدر ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يجاور في العشر الأواخر من رمضان ويقول: **تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان**».

إنها تكون لمن جدَّ في طلبها، واعتكف من أجل تحصيلها، وفرَّغ نفسه للعبادة في الفترة التي يغلب على الظن وقوعها فيها.

ولقد كان الرسول ﷺ المثل الأعلى في هذا المجال، وكان القدوة في سلوكه لمن أراد التأهُّل لهذا الاستقبال، روى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: «**كان النبي ﷺ إذا دخل العشر شد مِئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله**».

لقد كان يبدأ حركة إيمانية قوية لا تقتصر على شخصه الشريف، وإنما تتعدَّى إلى من يساكنه من أهله، فكان يعتزل النساء، ويشمر عن ساعد الجد في العبادة، ويجتهد في هذه الليالي ـ وهو الذي كان يقوم من

الليل حتى تفطَّرت قدماه ـ أكثر من اجتهاده في غيره من الليالي.

وبعد هذا التحديد التقريبي لزمان ليلة القدر نحاول التعرُّف على السمات الخاصة التي جعلت لهذه الليلة هذا الفضل الكبير.

إنَّ أهم هذه السمات هي نزول القرآن في هذه الليلة، سواء أكان نزوله إلى السماء الدنيا أم ابتداء نزوله.

والواقع أنَّ ما ترجِّحه الأحاديث هو أنَّ المراد بإنزال القرآن فيها ابتداء نزوله على الرسول ﷺ، وهي في ذلك تلتقي مع نصوص القرآن في ابتداء نزول الوحي على الرسول ﷺ كان في ليلة من ليالي رمضان؛ ففي حديث بدء الوحي الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت:

«أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلَّا جاءته مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنَّث به ـ وهو التعبُّد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ليتزوَّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1]» الحديث.

وكان ذلك في رمضان فيما رواه ابن إسحاق، وفي ليلة أربع

---

(١) سورة العلق: آية ١ ـ ٥.

وعشرين منه، وهو ما يشير إليه ما رواه أحمد بسند عن واثلة بن الأسقع أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لستٍّ مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان**».

لقد كان رمضان هو الشهر الذي نزلت فيه هذه الكتب المقدسة التي تشمل أهم الرسالات الإلٰهية إلى العالم ولعل ذلك هو السر في اختصاصه بوجوب الصوم فيه، والإكثار من العبادة في أثنائه، وتمييزه على غيره من الشهور.

وإنَّ ليلة القدر هي الليلة الكريمة من هذا الشهر المبارك التي اختصَّت بنزول القرآن فيها، والتي تتكرَّر ذكراها، ويتكرَّر فضلها في كل رمضان فهي أفضل ليلة في أفضل شهر، تتنزَّل فيها الملائكة بالخير، وينتشر فيها السلام والأمان لأهل الأمان.

وإذا كان بعض العلماء قد حاول قصر تفضيل ليلة القدر على أول ليلة نزل فيها الوحي دون غيرها من ليالي رمضان في كل عام؛ فإننا لا نرى ما يدعو لهذا القصر لما قدمناه من عدم وجود ما يمنع من تفضيل الله ما يشاء بما يشاء.

لقد شُرِّفت ليلة القدر بنزول القرآن فيها، وشُرِّفت كل ليلة توافق ذكرى هذه الليلة بمثل ما شُرِّفت به هذه الليلة تشريفاً للقرآن، وتذكيراً به، وتوجيهاً للناس إلى الانتفاع بآياته.

ولعلَّ تراوح هذه الليلة بين العشر الأواخر من رمضان أو بين أيام الشهر كله ـ على ما قيل ـ راجع لتراوح الشهور العربية بين الزيادة

والنقص، فما يقابل ليلة القدر من عام لاحق لا يلزم منه أن يكون في نفس تاريخ هذه الليلة السابقة، ومن هنا فإنَّ رفع تعيينها بسبب تلاحي الرجلين كان رفعاً ـ لتعيين ليلة القدر ـ مطلوباً في كل عام.

وإذا تيسَّر ذلك في عهد الرسول ﷺ بإخباره بهذا التعيين فكيف الحال بعده؟ من الذي سيخبر ولا وحيَ، ومن الذي سيبلغ ولا رسالة، ولذلك كان رفعها خيراً؛ لأنه حصر المدة التي يحتمل وجود هذه الليلة بين ثناياها.

وبعد فقد روى أحمد وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن علمت أي ليلة القدر ما أقول فيها؟

قال: «قولي: **اللَّهُمَّ إنك عفو تحب العفو فاعف عني**»[1].

---

(١) مجلة «الأزهر»: السنة ٤٥، الجزء ٧، رمضان سنة ١٣٩٣، ص ٦٣٨ ـ ٦٤١، ٦٤٦.

وداع رمضان

وداع رمضان
للإمام ابن رجب الحنبلي

قال الإمام:

في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له من ذنبه**» وفيهما ـ أيضاً ـ من حديث أبي هريرة ـ أيضاً ـ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**» وللنسائي في رواية: «**من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**».

قال الزهري:

إذا كان يوم الفطر خرج الناس إلى الجبار اطلع الله عليهم فقال: عبادي لي صمتم ولي قمتم، ارجعوا مغفوراً لكم.

قال مُوَرِّق العِجْليّ لبعض إخوانه في المصلى يوم الفطر: يرجع هذا اليوم قوم كما ولدتهم أمهاتهم.

من وفى ما عليه من العمل كاملاً وُفي له الأجر كاملاً، ومن سلم ما عليه موفراً تسلم ماله نقداً لا مؤخراً:

مـــا يعتكـــم مهجتـــي إلاَّ بـــوصلكـــم
ولا أسلمهـــــــا إلاَّ يـــــــداً بيـــــــد

فـإن وفيتـم بمـا قلتـم وفيـت أنـا
وإن أبيتـم يكـون الـرهـن تحـت يـدي

ومن نقص من العمل الذي عليه نقص من الأجر بحسب نقصه فلا يلم إلاَّ نفسه، قال سلمان: الصلاة مكيال فمن وفى وفي له، ومن طفف فقد علمتم ما قيل في المطففين. فالصيام وسائر الأعمال على هذا المنوال من وفاها فهو من خيار عباد الله الموفين، ومن طفف فيها فويل للمطففين، أما يستحي من يستوفي مكيال شهواته ويطفف في مكيال صيامه وصلاته. . .

في الحديث: «**أسوأ الناس سرقة الذي يسرق صلاته**» إذا كان الويل لمن طفف مكيال الدنيا فكيف حال من طفف مكيال الدين ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾[1].

غـداً تـوفـى النفـوس مـا كسبـت ... ويحصـد الـزارعـون مـا زرعـوا
إن أحسنـوا أحسنـوا لأنفسهـم ... وإن أسـاؤا فبئـس مـا صنعـوا

كان السلف الصالح يجتهدون في إتمام العمل، وإكماله وإتقانه ثم يهتمون بعد ذلك بقبوله ويخافون من رده وهؤلاء الذين: ﴿يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾[2].

---

(١) سورة الماعون: آية ٤ ـ ٥.
(٢) سورة المؤمنون: آية ٦٠.

روي عن علي رضي الله عنه قال: كونوا لقبول العمل أشدَّ اهتماماً منكم بالعمل، ألم تسمعوا الله عزَّ وجلّ يقول: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1]؟.

وعن فضالة بن عبيد قال: لأن أكون أعلم أن الله قد تقبل مني مثقال حبة من خردل أحب إلي من الدنيا وما فيها لأن الله يقول: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

قال ابن دينار: الخوف على العمل أن لا يتقبل أشدُّ من العمل.

وقال عطاء السُلميّ: الحذر الاتقاء على العمل أن لا يكون له.

وقال عبد العزيز بن أبي رواد: أدركتهم يجتهدون في العمل الصالح، فإذا فعلوه وقع عليه الهم، أيقبل منهم أم لا؟

قال بعض السلف: كانوا يدعون الله ستة أشهر أن يبلغهم شهر رمضان، ثم يدعون الله ستة أشهر أن يتقبله منهم.

خرج عمر بن عبد العزيز رحمه الله في يوم عيد فطر فقال في خطبته: أيها الناس: إنكم صمتم لله ثلاثين يوماً وقمتم ثلاثين ليلة، وخرجتم اليوم تطلبون من الله يتقبل منكم.

كان بعض السلف يظهر عليه الحزن يوم عيد الفطر فيقال له: إنه يوم فرح وسرور، فيقول: صدقتم، ولكني عبد أمرني مولاي أن أعمل له عملاً فلا أدري أيقبله منِّي أم لا؟

رأى وُهَيب[2] ابن الورد قوماً يضحكون في يوم عيد فقال: إن كان

---

(١) سورة المائدة: آية ٢٧.

(٢) في الأصل وهب، والصحيح ما أثبته، ولعله خطأ من الناسخ أو الطباعة.

هؤلاء تقبل منهم صيامهم فما هذا فعل الشاكرين، وإن كان لم يتقبَّل منهم صيامهم فما هذا فعل الخائفين.

وعن الحسن قال: إنَّ الله جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته فسبق قوم ففازوا، وتخلَّف آخرون فخافوا، فالعجب من اللاعب الضاحك في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون ويخسر فيه المبطلون.

لعلك غضبان وقلبي غافل
سلام على الدارين إن كنت راضياً

روي عن علي رضي الله عنه أنه كان ينادي في آخر ليلة من شهر رمضان: يا ليت شعري مَن هذا المقبول فنهنيه، ومن هذا المحروم فنعزيه.

وعن ابن مسعود أنه كان يقول: مَن هذا المقبول منا فنهنيه، ومن هذا المحروم منا فنعزيه، أيها المقبول هنيئاً لك، أيها المردود جبر الله مصيبتك.

ليت شعري من فيه يقبل منا ... فيهنأ يا خيبة المردود
من تولى عنه بغير قبول ... أرغم الله أنفه بخزي شديد

ماذا فات من فاته خير رمضان، وأي شيء أدرك من أدركه فيه الحرمان؟

كم بين مَن حظه فيه القَبول والغفران ومَن كان حظه فيه الخيبة والخسران؟

رب قائم حظه من قيامه السهر، وصائم حظه من صيامه الجوع والعطش.

ما أصنع هكذا جرى المقدور   الجبر لغيري وأنا المكسور
أسير ذنب مقيد مهجور   هل يمكن أن يغير المقدور

غيره:

سار القوم والشقا يقعدني   حازوا القرب والجفا يبعدني
حسبي حسبي إلى متى تطردني   أعداي دائي وكلهم يقصدني

غيره:

أسباب هواك أوهنت أسبابي
من بعد جفاك فالضنى أولى بي
ضاقت حيلي وأنت تدري ما بي
فارحم فالعبد واقف بالباب

شهر رمضان تكثر فيه أسباب الغفران، فمن أسباب المغفرة فيه صيامه وقيامه، وقيام ليلة القدر فيه...

ومنها الذكر...

ومنها الاستغفار، والاستغفار طلب المغفرة، ودعا الصائم مستجاب في صيامه وعند فطره، ولهذا كان ابن عمر إذا أفطر يقول: اللَّـٰهُمَّ يا واسع المغفرة اغفر لي.

ومنها استغفار الملائكة للصائمين حتى يفطروا.

فلما كثرت أسباب المغفرة في رمضان كان الذي تفوته المغفرة فيه محروماً غاية الحرمان، في صحيح ابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه

أنَّ النبي ﷺ صعد المنبر فقال: «آمين آمين آمين. قيل يا رسول الله: إنك صعدت المنبر فقلت: آمين آمين آمين؟ فقال: إنَّ جبريل أتاني فقال: من أدرك شهر رمضان فلم يغفر له فدخل النار فأبعده الله قل: آمين، فقلت: آمين، ومن أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما فمات دخل النار فأبعده الله قل: آمين، فقلت: آمين، ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده الله قل: آمين، فقلت: آمين» وخرَّجه الإمام أحمد والترمذيّ وابن حبان أيضاً من وجه آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «رغم أنفه» وحسَّنه الترمذي.

وقال سعيد عن قتادة: كان يقال: من لم يُغفر له في رمضان فلن يغفر له فيما سواه...

من يقبل مَن رُدّ في ليلة القدر؟ متى يصلح من لا يصلح في رمضان؟ متى يصلح من كان به فيه من داء الجهالة والغفلة مرضان، كل ما لا يثمر من الأشجار في أوان الثمار فإنه يقطع ثم يوقد في النار؟ مَن فرط في الزرع في وقت البذار لم يحصد يوم الحصاد غير الندم والخسار:

ترحّل شهر الصبر والهفاه وانصرما
واختصَّ بالفوز في الجنات من خدما
وأصبح الغافل المسكين منكسراً
مثلي فيا ويحه يا عظم ما حرما
من فاته الزرع في وقت البذار فما
تراه يحصد إلاَّ الهمّ والنَّدما

شهر رمضان شهر أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من

النار، روي عن النبي ﷺ من حديث سلمان الفارسيّ، خرَّجه ابن خزيمة في صحيحه. . .

والشهر كله شهر رحمة ومغفرة وعتق ولهذا في الحديث الصحيح أنه تفتح فيه أبواب الرحمة، وفي الترمذي وغيره إن لله عتقاء من النار وذلك كل ليلة، ولكن الأغلب على أوله الرحمة، وهي للمحسنين المتَّقين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(١)، وقال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾(٢). فيفاض على المتقين في أول الشهر خِلَع الرحمة والرضوان، ويعامل أهل الإحسان بالفضل والإحسان.

وأما أوسط الشهر فالأغلب عليه المغفرة فيغفر فيه للصائمين وإن ارتكبوا بعض الذنوب الصغائر، فلا يمنعهم من المغفرة كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾(٣).

وأما آخر الشهر فيعتق فيه من النار مَن أوبقته الأوزار واستوجب النار بالذنوب الكبار. . .

وإنما كان يوم الفطر من رمضان عيداً لجميع الأمة لأنه تعتق فيه أهل الكبائر من الصائمين من النار فيلتحق فيه المذنبون بالأبرار، كما أنَّ يوم النحر هو العيد الأكبر لأنَّ قبله يوم عرفة وهو اليوم الذي لا يرى في يوم من الدنيا أكثر عتقاً من النار منه، فمن أعتق من النار في اليومين

(١) سورة الأعراف: آية ٥٦.
(٢) سورة الأعراف: آية ١٥٦.
(٣) سورة الرعد: آية ٦.

فله يوم عيد، ومن فاته العتق في اليومين فله يوم وعيد:

ليس عيد المحب قصد المصلى
وانتظار الأمير والسلطان

إنما العيد أن تكون لدى الله
كريماً مقرباً في أمان

ورؤى بعض العارفين ليلة عيد في فلاة يبكي على نفسه وينشد:

بحرمة غربتي كم ذا الصدود … إلا تعطف علي ألا تجود
سرور العيد قد عم النواحي … وحزني في ازدياد لا يبيد
فإن كنت اقترفت خلال سوء … فعذري في الهوى أن لا أعود

لما كانت المغفرة والعتق كل منهما مرتباً على صيام رمضان وقيامه أمر الله سبحانه وتعالى عند إكمال العدة بتكبيرة وشكره فقال: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[(١)]. فشكر من أنعم على عباده بتوفيقهم للصيام وإعانتهم عليه ومغفرته لهم به وعتقهم من النار أن يذكروه ويشكروه ويتَّقوه حقَّ تقاته، وقد فسَّر ابن مسعود رضي الله عنه تقواه حقَّ تقاته بأن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر، فيا أرباب الذنوب العظيمة: الغنيمةَ الغنيمةَ في هذه الأيام الكريمة، فما منها عِوض ولا لها قيمة، فمن يعتق فيها من النار فقد فاز بالجائزة العظيمة، والمنحة الجسيمة، يا من أعتقه مولاه من النار إياك أن تعود بعد أن صرت حرّاً إلى رق الأوزار، أيبعدك مولاك من النار

(١) سورة البقرة: آية ١٨٥.

وتتقرَّب منها؟ وينقذك منها وأنت توقع نفسك فيها ولا تحيد عنها؟

وإن امــرءاً ينجــو مــن النــار بعــدمــا
تــزود مــن أعمــالهــا لسعيــد

إن كانت الرحمة للمحسنين فالمسيء لا ييأس منها وإن تكن المغفرة مكتوبة للمتقين فالظالم لنفسه غير محجوب عنها:

إن كــان عفــوك لا يــرجــوه ذو خَطــا
فمــن يجــود علــى العــاصيــن بــالكــرم

غيره:

إن كــان لا يــرجــوك إلاَّ محســن
فمــن الــذي يــرجــو ويــدعــو المــذنــب

لم لا يرجى العفو من ربنا وكيف لا يطمع في حلمه، وفي الصحيح أنه بعبده أرحم من أمه ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾(١).

فيا أيها العاصي ـ وكلنا ذلك ـ لا تقنط من رحمة الله بسوء أعمالك، فكم يعتق من النار في هذه الأيام من أمثالك، فأحسن الظن بمولاك وتب إليه فإنه لا يهلك على الله هالك:

إذا أوجعتــك الــذنــوب فــداوهــا
بــرفــع يــد الليــل والليــل مظلــم

---

(١) سورة الزمر: آية ٥٣.

ولا تقنطـــن مـــن رحمـــة الله إنمـــا
قنـوطـك منهـا مـن ذنـوبـك أعظـم
فـــرحمتـــه للمحسنيـــن كـــرامـــة
ورحمتـــه للمـــذنبيـــن تكـــرم

ينبغي لمن يرجو العتق في شهر رمضان من النار أن يأتي بأسباب توجب العتق من النار، وهي متيسرة في هذا الشهر، وكان أبو قلابة يعتق في آخر الشهر جارية حسناء مزينة يرجو بعتقها العتق من النار.

وفي حديث سلمان الفارسي المرفوع الذي في صحيح ابن خزيمة: «**من فطر صائماً كان عتقاً له من النار ومن خفف فيه عن مملوكه كان له عتقاً من النار**». وفيه ـ أيضاً ـ: «**فاستكثروا فيه من أربع خصال: خصلتين ترضون بها ربكم وخصلتين لا غناء لكم عنهما، فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم شهادة أن لا إله إلاَّ الله والاستغفار، وأما اللتان لا غناء لكم عنهما فتسألون الله الجنة وتستعيذون به من النار**». فهذه الخصال الأربعة المذكورة في الحديث كل منها سبب العتق والمغفرة، فأما كلمة التوحيد فإنها تهدم الذنوب وتمحوها محواً ولا تبقي ذنباً ولا يسبقها عمل، وهي تعدل عتق الرقاب الذي يوجب العتق من النار... ومن قالها مخلصاً من قلبه حرمه الله على النار.

وأما كلمة الاستغفار فمن أعظم أسباب المغفرة؛ فإنَّ الاستغفار دعاء بالمغفرة ودعاء الصائم مستجاب في حال صيامه وعند فطره... قال الحسن: أكثروا من الاستغفار فإنكم لا تدرون متى تنزل الرحمة.

وقال لقمان لابنه: يا بني، عوِّد لسانك الاستغفار فإنَّ لله ساعات لا يرد فيهن سائلاً.

وقد جمع الله بين التوحيد والاستغفار في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾[١]. وفي بعض الآثار أنَّ إبليس قال: أهلكت الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلاَّ الله والاستغفار.

والاستغفار ختام الأعمال الصالحة كلها فيختم به الصلاة والحج وقيام الليل، ويختم به المجالس، فإن كانت ذاكراً كان كالطابع عليها وإن كانت لغواً كان كفارة لها، فكذلك ينبغي أن تختم صيام رمضان بالاستغفار.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار يأمرهم بختم رمضان بالاستغفار وصدقة الفطر؛ فإنَّ صدقة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، والاستغفار يرقع ما تخرق من الصيام باللغو والرفث، ولهذا قال بعض العلماء المتقدِّمين: إن صدقة الفطر للصائم كسجدتي السهو للصلاة.

وقال عمر بن عبد العزيز في كتابه: قولوا كما قال أبوكم آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[٢]. وقولوا كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[٣]. وقولوا كما قال موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي﴾[٤]. وقولوا كما قال ذو النون عليه السلام: ﴿سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٥].

---

(١) سورة محمد: آية ١٩.
(٢) سورة الأعراف: آية ٢٣.
(٣) سورة هود: آية ٤٧.
(٤) سورة القصص: آية ١٦.
(٥) سورة الأنبياء: آية ٨٧.

ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: الغيبة تخرق الصيام. والاستغفار يرقعه فمن استطاع منكم أن يجيء بصوم مرقع فليفعل.

وعن ابن المنكدر معنى ذلك: الصيام جُنة من النار ما لم يخرقها، والكلام السيِّء يخرق هذه الجُنَّة، والاستغفار يرقع ما تخرق منها.

فصيامنا هذا يحتاج إلى استغفار نافع وعمل صالح له شافع، كم نخرق صيامنا بسهام الكلام ثم نرقعه وقد اتسع الخرق على الراقع، كم نرفو[١] خروقه بمخيط الحسنات ثم نقطعه بحسام السيئات القاطع.

كان بعض السلف إذا صلَّى الصلاة استغفر من تقصيره فيها كما يستغفر المذنب من ذنبه، إذا كان هذا حال المحسنين في عباداتهم فكيف حال المسيئين مثلنا في عباداتهم، ارحموا مَن حسناته كلها سيئات وطاعاته كلها غفلات:

أستغفر الله من صيامي ... طولَ زماني ومن صلاتي

صوم يرى كله خروق ... وصلاة أيما صلاتي

مستيقظ في الدجى ولكن ... أحسنُ مِن يقظتي سُبَاتي

وقريب من هذا أمر النبي عليه السلام لعائشة رضي الله عنها في ليلة القدر بسؤال العفو؛ فإنَّ المؤمن يجتهد في شهر رمضان في صيامه وقيامه فإذا قرب فراغه وصادف ليلة القدر لم يسأل الله تعالى إلاَّ العفوكالمسيء المقصر. كان صِلة بن أَشْيَمَ يُحيي الليل ثم يقول في دعائه عند السحر: اللَّهُمَّ إني أسألك أن تجيرني من النار ومثلي يجترىء أن يسألك الجنة.

---

(١) أي نسد ونخيط.

كان مُطَرِّف يقول: اللّٰهُمَّ ارض عنّا، فإن لم ترض عنّا فاعف عنّا.

قال يحيى بن معاذ: ليس بعارف من لم يكن غاية أمله من الله العفو:

إن كنت لا أصلح للقرب فشأنكم عفو عن الذنب

أنفع الاستغفار ما قارنته التوبة وهي حل عقدة الإصرار، فمن استغفر بلسانه وقلبه على المعصية معقود، وعزمه أن يرجع إلى المعاصي بعد الشهر ويعود، فصومه عليه مردود، وباب القَبول عنه مسدود. قال كعب: من صام رمضان وهو يحدِّث نفسه أنه إذا أفطر بعد رمضان أنه لا يعصي الله دخل الجنة بغير مسئلة ولا حساب، ومن صام رمضان وهو يحدِّث نفسه إذا أفطر بعد رمضان عصى ربه فصيامه عليه مردود. . .

وفي سنن أبي داود وغيره عن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يقولن أحدكم: صمت رمضان كله، ولا قمت رمضان كله**» قال أبو بكرة: فلا أدري أكره التزكية أم لا بدَّ من غفلة.

أين من كان إذا صام صان الصيام، وإذا قام استقام في القيام؟ أحسنوا الإسلام ثم رحلوا بسلام، ما بقي إلاَّ من إذا صام افتخر بصيامه وصال، وإذا قام عجب بقيامه وقال: كم بين خَلِيّ وشَجِيّ[1]، وواجد وفاقد، وكاتم ومُبْدي.

وأما سؤال الجنة والاستعاذة من النار فمن أهم الدعاء، وقال النبي ﷺ: «**حولهما ندندن**». فالصائم يُرجى استجابة دعائه فينبغي أن لا يدعو إلاَّ بأهم الأمور، قال أبو مسلم: ما عرضت لي دعوة إلاَّ صرفتها إلى

---

(١) الشجيّ هو: المشغول بهمه وحزنه، وانظر «لسان العرب» ش ج ي.

الاستعاذة من النار، وقال: ﴿ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[١]. . .

عباد الله:

إنَّ شهر رمضان قد عزم على الرحيل ولم يبق منه إلاَّ القليل، فمن منكم أحسن فيه فعليه التمام، ومن فرط فليختمه بالحسنى والعملُ بالختام، فاستغنموا منه ما بقي من الليالي اليسيرة والأيام، واستودعوه عملاً صالحاً يشهد لكم به عند الملك العلاَّم، وودِّعوه عند فراقه بأزكى تحية وسلام:

سلام من الرحمن كل أوان
على خير شهر قد مضى وزمان
سلام على شهر الصيام فإنه
أمان من الرحمن كل أمان
لئن فَنِيَتْ أيام الغرّ بغتة
فما الحزن من قلبي عليك بفان

لقد ذهبت أيامه وما أطعتم، وكتبت عليكم فيه آثامه وما أضعتم، وكأنكم بالمشمرين فيه وقد وصلوا وانقطعتم، أترى ما هذا التوبيخ لكم أوما سمعتم:

ما ضاع من أيامنا هل يغرم
هيهات ولأزمان كيف تُقَوَّمُ

---

(١) سورة الحشر: آية ٢٠.

يـــوم بـــأرواح تبـــاع وتشتـــرى
وأخـــوه ليـــس يســـام فيـــه درهـــم

قلوب المتَّقين إلى هذا الشهر تحن، ومن ألم فراقه تئن:

دهـــاك الفـــراق فمـــا تصنـــع
أتصبـــر للبَيْـــن[1] أم تجـــزع
إذا كنـــت تبكـــي وهـــم جيـــرة
فكيـــف تكـــون إذا ودعـــوا

كيف لا تجري للمؤمن على فراقه دموع، وهو لا يدري هل بقي له في عمره إليه رجوع؟:

تـذكـرت أيـامـاً مضـت وليـاليـا
خلـت فجّـرت مـن ذكـرهـن دمـوع
ألا هـل لهـا يـومـاً مـن الـدهـر عـودة
وهـل لـي إلـى يـوم الـوصـال رجـوع
وهـل بعـد إعـراض الحبيـب تـواصـل
وهـل لبـدور قـد أَفَلْـنَ طلـوع

أين حرق المجتهدين في نهاره؟ أين قلق المتهجدين في أسحاره؟ فكيف حال من خسر في أيامه ولياليه؟ ماذا ينفع المفرط فيه بكاؤه، وقد عظمت في مصيبته وجل عزاؤه؟ كم نُصح المسكين فما قبل النصح؟ كم دُعي إلى المصالحة فما أجاب إلى الصلح؟ كم شاهد الواصلين فيه وهو

---

(١) البَيْن: الفراق.

متباعد؟ كم مرت به زُمَرُ السائرين وهو قاعد؟ حتى إذا ضاق به الوقت وخاف المقت وندم على التفريط حين لا ينفع الندم، وطلب الاستدراك في وقت العدم:

أتترك من تحب وأنت جار ... وتطلبهم وقد بعد المزار
وتبكي بعد نأيهم اشتياقاً ... وتسأل في المنزل أين ساروا[١]
تركت سؤالهم وهم حضور ... وترجو أن تخبرك الديار
فنفسك لُمْ ولا تلمِ المطايا ... ومُت كَداً فليس لك اعتذار

يا شهر رمضان ترفق، دموح المحبِّين تدفق، قلوبهم من ألم الفراق تشقق، عسى وقفة للوداع تطفىء من نار الشوق ما أحرق، عسى ساعة توبة وإقلاع ترفو من الصيام كلما تخرق، عسى منقطع عن ركب المقبولين يلحق، عسى أسير الأوزار يُطلق، عسى من استوجب النار يُعتق:

عسى وعسى من قبل وقت التفرُّق ... إلى كل ما ترجو من الخير تلتقي
فيجبر مكسور ويقبل تائب ... ويعتق خَطَّاء ويسعد من شقي[٢]

(١) النَّأْي: البُعد.
(٢) «لطائف المعارف»: ٢٢٠ ـ ٢٣٢ بتصرف.

المعنى السياسي في العيد
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال الأستاذ:

ما أشد حاجتنا ـ نحن المسلمين ـ إلى أن نفهم أعيادنا فهماً جديداً، نتلقاها به ونأخذُها من ناحيته، فتجيء أياماً سعيدة عاملةً، تنبّه فينا أوصافَها القوية، وتجدّد نفوسَنا بمعانيها، لا كما تجيء الآن كالِحةً عاطلةً ممسوحةً من المعنى، أكبرُ عملها تجديدُ الثياب، وتحديدُ الفراغ، وزيادةُ ابتسامةٍ على النفاق.

فالعيدُ إنما هو المعنى الذي يكون في اليوم لا اليومُ نفسُه، وكما يفهمُ الناسُ هذا المعنى يتلقون هذا اليوم؛ وكان العيدُ في الإسلام هو عيد الفكرة العابدة، فأصبحَ عيدَ الفكرة العابثة؛ وكانت عبادةُ الفكر جمْعَها الأمةَ على تقليدٍ بغير حقيقة له مظهرُ المنفعة وليس له معناها.

كان العيدُ إثباتُ الأمة وجودها الروحانيّ في أجمل معانيه، فأصبح إثباتَ الأمة وجودها الحيوانيَّ في أكثر معانيه؛ وكان يومَ استرواح القوة من جِدّها، فعاد يومَ استراحةِ الضعفِ من ذُلّه؛ وكان يومَ المبدأ، فرجع يوم المادة!

ليس العيدُ إلاَّ إشعارَ هذه الأمة بأنَّ فيها قوةَ تغيير الأيام، لا إشعارها بأنَّ الأيام تتغيَّر؛ وليس العيدُ للأمة إلاَّ يوماً تَعرض فيه جمالَ نظامها الاجتماعيّ، فيكون يوم الشعور الواحد في نفوس الجميع والكلمة الواحدة في ألسنة الجميع؛ يومَ الشعور بالقدرة على تغيير الأيام، لا القدرةِ على تغيير الثياب، كأنما العيدُ هو استراحةُ الأسلحة يوماً في شعبها الحربـيّ.

وليس العيدُ إلاَّ تعليمَ الأمة كيف تتسع روحُ الجِوار وتمتدّ، حتى يرجعَ البلدُ العظيمُ وكأنه لأهله دارٌ واحدة يتحقق فيها الإِخاء بمعناه العَمليّ، وتظهرُ فضيلة الإِخلاص مُسْتَعْلِنةً للجميع، ويُهدي الناسُ بعضُهم إلى بعض هدايا القلوب المخلصة المحبة؛ وكأنما العيدُ هو إطلاق روح الأسرةِ الواحدة في الأمة كلها.

وليس العيدُ إلاَّ إظهار الذاتية الجميلة للشعب مهزوزةً من نشاط الحياة؛ ولا ذاتيةَ للأمم الضعيفة؛ ولا نشاطَ للأمم المستَعبدة، فالعيد صوتُ القوة يهتف بالأمة: اخرجي يومَ أفراحك، اخرجي يوماً كأيام النصر!

وليس العيدُ إلاَّ إبراز الكُتلة الاجتماعية للأمة متميزة بطابعها الشَّعبيّ، مفصولةً من الأجانب، لابسةً من عمل أيديها، معلنةً بعيدها استقلالين في وجودها وصناعتها، ظاهرةً بقوتين في إيمانها وطبيعتها، مبتهجة بفرحين في دُورها وأسواقها؛ فكأنَّ العيدَ يومٌ يفرح الشعب كله بخصائصه.

وليس العيد إلاَّ التقاء الكبار والصغار في معنى الفرح بالحياة الناجحة المتقدمة في طريقها، وتركَ الصغار يلقون درسهم الطبيعيَّ في حماسة الفرح والبهجة، ويعلِّمون كبارهم كيف تُوضع المعاني في بعض الألفاظ التي فَرَغَتْ عندهم من معانيها، ويُبَصِّرُونهم كيف ينبغي أن تعملَ الصفاتُ الإنسانيةُ في الجموع عملَ الحَلِيف لحليفه، لا عمل المُنابِذ لمُنابِذه؛ فالعيدُ يومُ تسلُّط العنصر الحيّ على نفسية الشعب.

وليس العيدُ إلاَّ تعليمَ الأمة كيف توجِّه بقوتها حركةَ الزمن إلى معنى واحد كلما شاءت؛ فقد وضع لها الدينُ هذه القاعدة لتُخَرّج عليها الأمثلة، فتجعلَ للوطن عيداً ماليّاً اقتصاديّاً تبتسم فيه الدراهم بعضُها إلى بعض، وتخترع للصناعة عيدَها، وتوجد للعلم عيدَه، وتبتدع للفن مَجَالَي زينته؛ وبالجملة تُنشىء لنفسها أياماً تعمل عمل القُوَّاد العسكريِّين في قيادة الشعب، يقوده كلّ يوم منها إلى معنى من معاني النصر.

هذه المعاني السياسية القوية هي التي من أجلها فُرض العيدَ ميراثاً دهريّاً في الإسلام، ليستخرجَ أهلُ كل زمن من معاني زمنهم فيضيفوا إلى المِثال أمثلة مما يبدعه نشاطُ الأمة، ويحققه خيالُها، وتقتضيه مصالحُها.

وما أحسب الجمعةَ قد فُرِضت على المسلمين عيداً أسبوعيّاً يُشترط في الخطيبُ والمنبر والمسجدُ الجامع إلاَّ تهيئةٍ لذلك المعنى

وإعداداً له؛ ففي كل سبعة أيام مسلمة يومٌ يجيء فيُشْعِرُ الناسَ معنى القائد الحربـيّ للشعب كله.

ألا ليت المنابر الإسلامية لا يخطب عليها إلاَّ رجالٌ فيهم أرواحُ المدافع، لا رجالٌ في أيديهم سيوف من خشب(١) (٢).

---

(١) وذلك أنَّ خطباء زمانه كانوا يخطبون وبأيديهم سيوف من خشب.
(٢) «وحي القلم»: ١/ ٣٤ ـ ٣٥.

هلال العيد

للشيخ الأستاذ محمد عبد العظيم الزرقاني

قال الأستاذ:

هلَّ هلال العيد السعيد يشع على العالم الإسلامي إشعاع السرور والغبطة، ويبعث فيه روح البشر والبهجة، ويحمل إليه رسالة التهنئة، مكتوبة على جبين السماء بحروف من نور، فيها إمتاع للنفوس وشفاء لما في الصدور، وإنها لتهنئة كريمة من وافد كريم لشعب كريم، ولكن... ولكن على أمل أن يكون هذا الشعب الكريم قد خرج من مستشفى رمضان سليماً معافى، وصحيحاً قويّاً، يواجه الحياة بنفوس غير الأولى، ويحل مشاكلها بعزائم سوى الغابرة: بعزائم جديدة فتية قد صهرها الصيام، وصقلها القيام، وصنعها على عينه رمضان، فإذا هي من سلالة تلك العَزَمات الإسلامية الصادقة، وعلى غرار تلك الهمم الوثابة، التي أنجبها الإسلام في عصوره الأولى لحماية عرين الإنسانية، ولحراسة محراب الفضيلة.

فينا اليوم أمراض متشابهة: من رخاوة وانحلال، وبخل وشح، وجبن ووهن، وذلة وخنوع، وكان حظ الصيام منَّا أو كان حظنا منه أن تتبدَّل رخاوتنا صلابة، وانحلالنا تماسكاً، وبخلنا بذلاً، وشحّنا

تضحية، وجبننا شجاعة، ووهننا قوة، وذلّتنا عزَّة، وخنوعنا طموحاً، فهل ظفرنا بما أردنا أو بما أراد الصوم منا؟ إذا كان ذلك فقل: يا بهجة العيد، ويا سعادة الحظ، ويا أمنية النفس وإذاً يجب أن نحافظ على هذا الانتصار فلا نتقهقر إلى الوراء، ولا نتردَّى مرة ثانية في هاوية ذلك الداء؛ إن عاد كان أوجع، والمريض إن انتكس صار في خطر.

أما إن كنا قد خرجنا من رمضان بخفَّي حنين نشعر بتعذيب الجوع ولم نصل إلى تهذيبه إذاً فقل: يا خيبة الأمل، ويا ضيعة العمر، ويا فجيعة الرجاء!

وإذاً يجب أن نلتمس العلاج لأنفسنا من جديد، وأن نصلح ما أفسدنا، وأن نصدق الله فيما نقول ونعمل، وأن نعتبر العيد خالصة لأولئك الذين تمتَّعوا بصحة أرواحهم وشفائها، دون غيرهم من المستهترين والمفتونين.

العيد في الحقيقة إنما هو للذي عاوده صفاؤه، وقوَّى إيمانه، وازداد يقينه، وشب عزمه، والتهبت غيرته، وعلت همته، وأصبح سيِّداً على نفسه، حاكماً لأمياله[١] وأهوائه، ضابطاً لعواطفه وشهواته، مُوَطِّناً نفسه على خوض غمار الحياة برجولة كاملة، وما أدراك ما الرجولة الكاملة؟ إنها الأمل المنشود، والرجاء المفقود، في هذا الجيل المنكود.

ألهمنا الله رشدنا أجمعين، وغفر لنا الماضي، وأصلح الحاضر،

---

(١) جمع مَيْل.

وأحسن المستقبل، حتى نعود كما كنا سادة الأمم، وأصحاب العلم، وأرباب السيف والقلم.

وأما أنت ـ يا هلال العيد ـ فإنا نبادلك تهنئة بتهنئة، ونقارضك تبريكاً بتبريك، ونسأل الذي أجلسك على عرشك أن يرد إلى الإسلام عرشه وهيبته، وإلى العالم الإسلامي عزَّته وشوكته.

لي فيك حين بدا سناك وأشراقا
أملٌ سألت الله أن يتحقَّقا[1]

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية»: المجلد ٦، الجزء ٤، شوال سنة ١٣٥٢، ص ١٦٩ ـ ١٧٠.

مضى ربيع القلوب: فهل ترك فيها أثره؟

للأستاذ أحمد حسن الزيّات

قال الأستاذ:

مضى ربيع القلوب كما يمضي نيسان[1] ربيع الطبيعة. وإذا كان نيسان يخلف ورائه في الأرض الخصب والنماء والكلأ والنضارة فيرتع في خيره الإنسان والحيوان سائر العام كله، فهل يعيش المسلمون بعد رمضان على زاد من تقواه وعدة من قواه وذخيرة من بره تعصمهم من نزوات النفس وشهوات الجسد بقية عامهم إلى أن يعود؟

المفهوم من حكمة الصوم في شريعة الله أن يكون هذا، ولكن الواقع أنَّ رمضان كان في حياة أكثر الناس ثلاثين عيداً تبتدىء بليلة الهلال وتنتهي بيوم الفطر، تمتعوا فيها بملذَّات الحس ومسرَّات النفس؛ فتفننوا في الطعام والشراب، وتدفَّقوا في اللهو والأنس، حتى إذا خرجوا منه إلى شوال خرجوا من الواحة إلى الصحراء، ومن الهداية إلى التيه، لا يملكون الزاد الذي يبلغهم الأمن، ولا يجدون الدليل الذي يجنِّبهم الضلال.

لذلك كان المسلمون في توديع رمضان جد مختلفين: فمنهم

---

(١) أي شهر إبريل.

المتَّقون والقرويون والذي لم تَقْسُ قلوبهم على جفاف المادية وكَلَب العيش، وهؤلاء يودِّعونه وعلى وجوههم غشاوة من الأسى على بركات تريد أن تنقضي، وخيرات توشك أن تنقطع، كأنما يعتقدون أنَّ باب السماء في غيره مغلق، وأنَّ وجه الأرض من بعد ربيعه جديب، فإذا بدأ الربع الأخير منه ظهر الحزن عليه صادقاً في الوجه ناطقاً على الأفواه؛ إذ يتمثَّلونه محتضراً يقاصي غصص الموت، فيتفجَّع عليه الصائمون في البيوت، والمصلُّون في المساجد، والمؤذِّنون فوق المآذن، والمسحِّرون على الأبواب، وكلهم يقولون سرّاً وجهراً: لا أوحش الله منك يا شهر البر والذكر والفكر والرجاء.

ومنهم الخلعاء والمُجّان والذين في قلوبهم مرض وفي إيمانهم ضعف، وهؤلاء يودعون في رمضان قيداً ثقيلاً غلهم عن الشهوات الخسيسة، فهم يفرحون لوداعه فرح السجين إذا أطلق والمحروم إذا نال، ومن هؤلاء أكثر الشعراء، وتمرُّدهم على رمضان معروف، وابتهاجهم بشوال مأثور، فمن قول الفرزدق:

فإن شال شوال نشل في أكفّنا
كؤوساً تعادي العقل حين تسالمه

إلى قول ابن المعتز:

أهلاً بفطر قد أتاك هلاله
فالآن فاغد إلى المُدام وبَكِّرِ[1]

---

(١) أي الخمر.

إلى قول شوقي:

رمضــان ولّــى، هــاتهــا يــا ســاقــي
مشتــاقــة تسعــى إلــى مشتــاق

ولا أحب أن أخوض في حماقات هؤلاء المجّان فإنهم ليسوا من رمضان ولا من أهله، إنما أسوق حديثي إليكم أيها الذين صاموه بالتقوى، وقاموه بالإخلاص، وودَّعوه بالحسرات، وشيَّعوه بالدموع، وأبدأه بهذه الأسئلة: هل أنتم يوم ودعتموه خير منكم يوم استقبلتموه؟ هل تشعرون بعد أن أدَّيتم فريضة هذا الركن الشديد من أركان الإسلام أنَّ نفوسكم أصبحت أطهر، وأنَّ أخلاقكم صارت أكرم، وأنَّ أهواءكم غدت أرفع؟ وهل تحسون أثر أولئك كله في دنياكم الخاصة والعامة، فأنتم اليوم أشد قرباً من الله وأوثق صلة بالناس وأطيب نفساً بالحياة؟

اسألوا أنفسكم هذه الأسئلة ثم أجيبوا عنها وأنا واثق من أنَّ أجوبتكم ستكون بالإيجاب وإلاَّ لما حزنتم على انقضاء رمضان، وأسفتم لانقطاع الخير فيه؛ فإنَّ المرء لا يحزن إلاَّ على عزيز، ولا يأسف إلاَّ على نافع.

فلماذا إذن لا تجعلون سائر الأشهر كشهر رمضان؟ لماذا لا تستمرُّون في الصيام عن ظاهر الإثم وباطنه. فتغلوا أيديكم عن الأذى، وتصونوا ألسنتكم عن الكذب، وتطهَّروا أفئدتكم من الفحش، وتنزهوا مكاسبكم عن الحرام، وتبرِّئوا أعمالكم من الغش، وقد جربتم ذلك في رمضان فنفعت التجربة وحسنت العاقبة؟

لماذا لا تضيقون الكلفة في القهوة لتوسعوا النفقة في البيت، وتقتصدون قليلاً في الأنس بالأصدقاء، لتوفِّروا كثيراً من الأنس بالأسرة، وقد فعلتم ذلك في رمضان فاعتدلت الحال وطابت المعيشة؟

هذا السكير الذي استطاع أن يهجر الخمر ثلاثين يوماً وثلاثين ليلة فزكا قلبه، وامتلأ جيبه، وصحَّ بدنه، لماذا لا يواصل العيش بعد رمضان على هذا المنهاج، وقد علم بالاختبار أنَّ هذا الهجر قد نفعه ولم يضره، وتيسر له ولم يتعسَّر عليه؟

وهذا المدخِّن الذي ترك التدخين ثلاثين يوماً فأراح صدره، وسكَّن أعصابه، وقوَّى شهيَّته، لماذا لا يستمر صائماً عنه ليله ونهاره، وقد رأى أنَّ في طاقته الاستغناء عنه والحياة بدونه؟

وهذا القوي الذي كان وهو صائم يمرّ باللغو كريماً، فيقابل الذنب بالمغفرة، والسيئة بالحسنة، والقطيعة بالصلة، فوصل السلام بين قلبه والأمن، وقرب الوئام بين نفسه والسعادة، لماذا لا يحرص على هذا الخلق وهو مفطر بعد ما جنى من خيره في أربعة أسابيع ما لم يجنه من غيره في العام كله؟

وهذا التاجر الذي راضه الصوم على أن يقف نفسه عند حدود الله في التجارة، فلم يطفف الكيل ولم يخسر الميزان ولم يقارف الاحتكار ولم يغش البضاعة ولم يرفع السعر، ثم تحقق من جدوى ذلك عليه في رضا ربه وراحة ضميره ومصلحة وطنه، لماذا لا يلزم نفسه ذلك في كل وقت بعد أن استمرأ طعم الحلال وأدرك لذَّة الحق؟

وهذا الغني الذي ذاق في رمضان ألم الجوع، وكابد مشقَّة الحرمان، ثم استطاع بالصدقة أن يخفِّف عناء الفقر عن فقير، ويدفع شرّ الحاجة عن محتاج، لماذا لا يشعر دائماً أنَّ الجوع بعد رمضان باق، وأنَّ العِوَز في أكثر الناس قائم، وأنَّ للسائل والمحروم حقّاً لا يتقيَّد أداؤه بيوم، ولا يتخصَّص قضاؤه بصوم؟

وهذا الموظف الذي عوَّد أنامله طوال رمضان أن تساقط حبات المسبحة ليسبح، وأن تبسط سجادة الصلاة في أوقاتها ليصلِّي، فنسي أن يمد عينيه إلى جيب المواطن ليرتشي، أو يديه إلى خزانة الدولة ليختلس، وذكر أنه إنسان كمَّله الله بالعقل وجمَّله بالخلق وهذبه بالضمير، لم لا يذكر في شوال أنَّ أنامله التي تمسك القلم وهو مفطر كانت تمسك المسبحة وهو صائم، وأنَّ ربه الذي كان يخشاه في رمضان لا تأخذه سنة ولا نوم في سائر الأشهر؟

إنَّ رمضان سنة لا شهر، وذخيرة لا نفقة، ومصحة لا ملهى، ورياضة لا متاع، نروِّض فيه أنفسنا على الخير لتمرن عليه، ونعالجها به من الشر لتبرأ منه، وليس الغرض من علاج النفس والجسم فيه أن ينقضي أثره الطيِّب بانقضائه؛ فإنَّ ذلك يخالف حكمة الشارع من الصوم، ويناقض منطق الأشياء في الواقع؛ فإنَّ المريض الذي يطلب العافية من مدينة من مدن المياه الطبية لا يطلبها للمدة التي يقضيها في المصحة، وإنما يطلبها لتكون عماداً قويّاً لما وهن من جسمه، وزاداً صحِّيّاً لما بقي من عمره، وما أبعد المسلم عن الإسلام إذا اعتقد أنَّ الصلاة لا تنهاه عن الفحشاء والمنكر إلاَّ وهو في المسجد، وأنَّ الصوم

لا يعصمه من اللغو والأذى إلاَّ وهو في رمضان، وأنَّ الصدقة لا تطهِّره ولا تزكيه إلاَّ وهو في العيد.

خذوا إذن من ربيع القلب ما تأخذه الأرض من ربيع الطبيعة، خذوا لعبوس حياتكم من طلاقته، ولسموم طبيعتكم من طراءته، ولجدب دنياكم من خصوبته، ولاضطراب عيشكم من سكينته، ولاعوجاج سلوككم من استقامته، ولميوعة مجتمعكم من صلابته، ولشتات كلمتكم من وحدته، وذلكم هو الزاد الإِلٰهي الذي تخرجون به من رمضان لغذاء القلب والروح، وخدمة الوطن والأمة، وعدة العمل والجهاد، وبهذه النية وهذه العزيمة تكونون خُلَقاء أن تهنئوا بحزنكم في وداع شهر رمضان تقوِّي وبرّ؛ لأنه حزن على خير مضى وأنس فات؛ وإنَّ الفرح بالعيد عبادة وشكر، لأنه فرح ببشرى نزول الوحي وذكرى يوم بدر(١).

---

(١) مجلة «الأزهر»: المجلد ٣٩، الجزء ١٠، شوال سنة ١٣٨٧، ص ٦٤٢ ـ ٦٤٤.

المحافظة على الصيام

للشيخ عبد الله القلقيلي

قال الشيخ:

إن الصيام عبادة شاقة، وعلى النفوس صعبة ثقيلة، وذلك لأنها فطام النفوس عن مألوفاتها وحبسها عن شهواتها، ومنعا من لذاتها، وإنك لترى الذي يصوم قبل أن يصوم إذا تأخر عن طعامه وشرابه مدة يسيرة يضيق صدره ويحمى غضبه ويشتد ألمه، فكيف يحبس النفس عن الطعام والشراب وسائر اللذات يوماً كاملاً.

وفي الصيام أجر عظيم، وعليه من الله ثواب جزيل وفيه من الحكم والمنافع ما لا يعد ولا يحصى، ومن المصالح والفوائد ما لا يُستقصى.

وإنما قيمة العمل بما يجده الإنسان من المشقة والعناء في مزاولته وعلى ذلك قيل: الأجر على قدر المشقة، وإنما تعرف منزلة العمل في الدين ومقدار الأجر عليه من كتاب الله وما يروى عن رسول الله ﷺ ونورد في حديثنا في بيان فضل هذه العبادة ما يدل على منزلتها وما

يدخر القائم بها لنفسه عند الله في دار الخلود من الثواب عليها، فمن ذلك قوله ﷺ في حديث صحيح: «**الصوم جُنَّة**» يعني أن الصوم بمنزلة الترس الذي يقي صاحبه في الحرب من الطعن والضرب؛ فالصوم يقي من عذاب يوم القيامة، كما أنه يحفظ به نفسه من المعاصي التي تستوجب مقت الله وغضبه، وإنما يحفظ الصوم من المعاصي لأنه يكسر شهوة النفس ويطفىء نارها، ولهذا وصفه النبي ﷺ دواءً لمن لم يستطيع الزواج من الشباب.

وفي حديث صحيح: «**والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**»، وخلوف فم الصائم تغير رائحته لخلو معدته، فهذا التغير الناشىء عن الصيام هو أطيب ريحاً من المسك.

وفي الحديث على لسان الله عزَّ وجل: «**يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، الصيام لي وأنا أجزي به، والحسنة بعشر أمثالها**».

وفي حديث آخر صحيح: «**للصائم فرحتان: فرحة حين يفطر وفرحة حين يلقى ربه**»، وفي هذه الفرحة التي تكون حين يلقى ربه بما يلقاه مما أعد له من أفانين النعيم جزاءً وثواباً من رب كريم، فإذا كانت هذه منزلة الصيام وكان لمن يقوم به حق القيام ما دلت عليه الأحاديث من جليل المنافع وعظيم الفوائد، أفلا يكون من الحماقة ألا يحافظ الصائم على صيامه من الحُبوط وألا يتجنب ما يبطله ويذهب به أدراج

الرياح كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف؟ بلى إنه لمن الحماقة وهو في ذلك كالتي ضُرب بها المثل في الحق ونهى الله المؤمنين عن أن يكونوا مثلها في قوله في محكم كتابه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾[١] وساء هذا مثلاً.

وقد نهانا الله عن إحباط أعمالنا الصالحة في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾[٢]، وقال: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[٣] فهذا نهي عن أن يبطل كل عامل عمله من صيام أو صدقة أو نسك، ذلك أنه ليس من العقل ولا صواب الرأي أن يعمل الإنسان عملاً يدني منه خيراً ويفيد فائدة فيبطله بشيء لا يعود عليه إلاَّ بالشر، وأن من يتعب نفسه بالصيام ثم يفعل في أثنائه ما يحبطه ويذهب بتعبه لا يكون إلاَّ أحمق أو غبياً على ما بيَّنا.

فعلى من أجهد نفسه بصوم رمضان وفطمها عن الرذيلة وكبح جماحها من الخصال الذميمة وملك زمامها وعودها الأعمال الصالحة والخصال الكريمة أن يحافظ على ذلك وأن لا يضيع ما كسبه من الغنيمة.

إن من صام رمضان حق الصوم فقد أصاب من مكاسب صومه كسر شِرة نفسه واستئصال خلق الشر منها، وتهذيبها وتطهيرها من مساوىء

(١) سورة النحل: آية ٩٢.
(٢) سورة البقرة: آية ٢٦٤.
(٣) سورة محمد: آية ٣٣.

الأخلاق وذميم الخصال كمثل البذاءة والفجور والكذب وقول الزور، وهو ما أراد الدين أن نصيبه من الصيام الذي فرضه علينا فنسأل الله سبحانه أن لا يضيع ما جنيناه من رمضان من سيطرتنا على نفوسنا وتطهير أخلاقنا وأن يصون أعمالنا من الحبوط، وأن يقينا من الزلل والسقوط إنه البر الرحيم[١].

---

(١) مجلة «هدى الإسلام»: ص ٥٧٤٤ ـ ٥٧٤٥ بتصرف يسير.

رمضان منطلق وتجسيد لكل معاني الإسلام

للدكتور وهبة الزحيلي

قال الدكتور:

لقد ثبت لي بالتجربة والبرهان القاطع أن النظرة إلى الحياة من زاوية واحدة ولفترة محدودة وإهمال التخطيط الشامل وعدم الاعتبار العام بالماضي، وترك العمل الكلي للمستقبل هو آفة تخلف المسلمين وضعضعة وجودهم في الوقت الحاضر، مع أن الإسلام وبقية الأديان الحقة هي أدل شيء للإنسان على أهمية التخطيط في الحياة كلها، حياة الفرد والجماعة، حياة الدنيا والآخرة، لوجود عقيدة البعث والحساب والمسئولية فيها.

وإن أغلب ما نشاهد من وقائع التعثر والاضطراب والفشل والخيبة في مشاريع الإنسان مرجعه النظرة الجزئية للواقع، والاهتمام بشؤون العيش المؤقت، وعدم التدبر والتقدير لمستقبل الأيام الحوالك.

لذا كان لزاماً على كل مسلم أن ينظر إلى الحياة نظرة شاملة لأن حياة الإنسان كل لا يتجزأ، ووسائل إسعاد الحياة ومن أخصها الدين كل لا يتجزأ أيضاً، ومن الضروري أن تتلاحم الجهود المادية لاكتساب

سبل المعيشة مع نواميس الأخلاق والفضائل ومتطلبات الدين الخالد والاعتبار بما في عالم الآخرة من أهوال ومسؤوليات عديدة.

وإذا توفرت مثل هذه النظرة الكلية إلى الإنسان والكون والحياة وعالم الشهادة والغيب توفر بالتأكيد شطر الجهد الإنساني، وهانت الحياة، وزالت العقد المستعصية لدى الكثيرين، وتبددت كل المشاكل الشخصية والاجتماعية، واستؤصلت الأمراض العصبية، واتصلت آفاق السعادة، وتعاقدت سحب الخير على الإدراك، ودام العطاء الإلهي الذي لا ينضب بحره ولا تفنى مدخراته، مع أسبابه ووسائله.

وهكذا الأمر بالنسبة لرمضان بين الشهور، وبما فيه من تكاليف شخصية واجتماعية بين فرائض الإسلام، فرمضان سيد الشهور، ولكنه لا ينقطع عن بقية أجزاء العام بل الحياة كلها، والصوم لا ينفصل عن سائر مطالب الإسلام، وإن كان ذا دلالة موجهة نحو الخير، أو هو في الواقع جامع لكل معاني الإسلام.

فمن فضائل رمضان أنه محرك للهمم، مثير للبواعث الإنسانية الشريفة، شاحذ للعزائم نحو الطاعة بدليل ما نلاحظ من كثرة وفود المصلين إلى المساجد، والإقبال على مدارسة القرآن، وحضور مجالس العلم، والتطوع بالقربات البدنية والمالية، وسخاء النفس وسماحة اليد وبسط الوجه ونحو ذلك مما للصوم من تأثير في إثارة المشاعر الخيرة، والعواطف الصادقة والأحاسيس النبيلة، وتذكير الإنسان بواجبات مختلفة، بسبب حرمان النفس طيبات الحياة وملاذ

المعيشة وأهواء النفس، فهذا الحرمان المادي من الطعام والشرب والمتع المباحة يرشد إلى معانٍ عميقة، إذ أن المحسوس يدل على المعقول كما يقول المناطقة.

إلاَّ أن أزمة تحصل وعقدة تبرز بعد انتهاء صوم رمضان، فتقع مشكلة خطيرة تتجلى في التخلي عن مكاسب رمضان ومعطياته، وإهمال الواجبات الدينية، والتقصير في أداء كثير من تكاليف الإسلام الضرورية، مع أن الدواعي قائمة، والحاجة متوفرة، والثمرة لا تحلو تماماً إذا تعجل الإنسان قطافها، وقطعها عن إكمال نضجها، وإعطاء فوائدها المرجوة في مسيرة الزمن الطويلة، وإن الله تعالى يحب أن يُعبد في رمضان وفي غير رمضان، وهو حي باق دائم يراقب تصرفات عباده في كل زمان ومكان، حتى تؤدى رسالة الله في الخلق من دون قطيعة أو هجران أو سأم، ولكي تحصل المصالح للإنسان على وجه أتم، قال عليه السلام: «**حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**»، ولقد أعد الله تعالى للطائعين إطاعة كاملة في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام «سبحان من لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين، وإنما نفع الطاعات لأربابها، وسوء المخالفات لأصحابها، والقلوب معادن الخواطر والكفر والإيمان، والعزوم والإرادات، والبغض والحب، والطواعية والإباء، والمعارف والأقوال، وكذلك استحسان الحسن، واستقباح القبيح، وكذلك الظنون الصادقة والكاذبة».

فبالصيام يتزود الصائم المؤمن من الحصانات المانعة عن محارم الله، والتزام حدود الله وأحكام شرعه زاداً كافياً ينفعه في بقية السنة كلها، فترغب نفسه في الطاعة، وتعرض عن المعصية، لذا قال تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1]. وعلل سبحانه الأمر بفرضية الصيام بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2]. قال في تفسير المنار: هذا تعليل لكتابة الصيام ببيان فائدته الكبرى وحكمته العليا، وهو أنه يعد نفس الصائم لتقوى الله تعالى بترك شهواته الطبيعية المباحة الميسورة امتثالاً لأمره، واحتساباً للأجر عنده، فتتربى بذلك إرادته على ملكة ترك الشهوات المحرمة والصبر عنها، فيكون اجتنابها أيسر عليه، وتقوى على النهوض بالطاعات والمصالح والاصطبار عليها، فيكون الثبات عليها أهون عليه، ولذلك قال ﷺ: «**الصيام نصف الصبر**» رواه ابن ماجه. وقال الشيخ محمد عبده: إن معنى «لعل» الإعداد والتهيئة.

فغاية الصوم إذاً إعداد نفوس الصائمين لتقوى الله تعالى طيلة العام والعمر كله بتكرر وجوده سنوياً، وتحصين النفس بخشية الله عزَّ وجلّ في السر والعلن، وهذا يعود بأطيب الثمرات اليانعة على النفس الإنسانية وحدها، وأما مشرِّع الصوم فهو غني عن العالمين، ولا تعود العبادة عليه بأي مردود نفعي كما أبنا.

ويمكن أن تنحل عقدة النقص والتقصير في القيام بواجب الصوم

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٤.
(٢) سورة البقرة: آية ١٨٣.

وبقية فرائض الإسلام بإدراك الهدف العام من الدين وبتمثل معاني رمضان التي ترمز لكل معاني الإسلام، وبتقدير سماحة الإسلام ويسر أحكامه وتجاوز المشاق التي يتضرر بها الإنسان.

أما الدين فليس غِلاًّ أو قيداً مضروباً على الأعناق أو الأيدي، وإنما هو قانون منظم لعلاقات الناس الاجتماعية، وواسطة فعالة لتقويم الطباع وتهذيب النفوس، وتطهيرها من أدران النقائص والرذائل والشذوذات، وحثها على التحلي بالآداب العالية والخلال الحسنة، بل هو الوسيلة الناجعة لتأمين مصالح الدنيا والآخرة، وفض المنازعات والخصومات الناشئة بأعدل المبادىء، وأحق الأحكام، لأنه صراط الله المستقيم ومنهجه القويم، من تمسك به فاز، ومن انحرف عنه خسر الدنيا والآخرة.

وأما أن الصوم يرمز لمحتوى الإسلام كله، في شهره المبارك نزل القرآن العظيم الذي يسعد البشرية جمعاء، لأن فيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، كما أنه شهر الخير والتوبة والرحمة والمغفرة وزيادة الأجر والثواب، وشهر الإيمان والإحسان، فيه تفتح أبواب الجنان، وتغلق أبواب الجحيم، وتصفد الشياطين، أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا جاء رمضان فتَّحت أبواب الجنة، وغُلِّقت أبواب النار، وصفدت الشياطين**»، وفي حديث سلمان عند ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والبيهقي قال: **خطبنا رسول الله ﷺ في آخر يوم من شعبان قال**: «**يا أيها الناس، قد أظلكم شهر عظيم مبارك، وهو شهر أوله**

رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار. . .» الحديث.

ومن أبرز صفات صوم رمضان وأخطرها أنه جهاد صامت متروك لنفس الصائم لا رقيب عليه فيه إلاَّ الله تعالى، وسر بين العبد وربه لا يطلع عليه أحد غيره سبحانه مما يشحن النفس بطاقة داخلية قوية جداً من مراقبة الله تعالى والإعداد لتقوى الله التي تنفع المرء طيلة العام، كما أشرنا، لذا كان الثواب عليه مفتوح الباب بقدر رحمة الله وقبوله، وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال الله عزَّ وجلّ: «**كل عمل ابن آدم له إلاَّ الصوم؛ فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنَّة ـ أي وقاية من المعاصي ـ**» الحديث. . . وفي حديث لأبي أمامة عند النسائي وغيره قال: «**أتيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، مُرْني بأمرٍ ينفعني الله به؟ قال: عليك بالصيام، فإنه لا مثل له**»، فالصيام إذاً أقوم طريق لتقوية الإرادة، وكبح جماح الأهواء والشهوات، وضبط النفس، وتعود الصبر، قال عليه السلام في حديث سلمان السابق: «**وهو شهر الصبر والصبر ثوابه الجنة**»، وهذه المقومات تبرز أهم صفة في العبادة وهي الإخلاص الذي لا يشوبه الرياء، وقصد وجه الله تعالى بالذات.

وكذلك كان شهر الصوم لدى أسلافنا العظام شهر الجهاد المسلم ضد الظلم والطغيان، ففيه وقعت أكبر حوادث الإسلام الفاصلة مع الأعداء، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**غزونا مع رسول الله ﷺ في رمضان غزوتين: يوم بدر والفتح، فأفطرنا فيهما**»، ففي رمضان حدثت معركة بدر الكبرى التي فرقت بين الحق والباطل في السنة الثانية

من الهجرة، وحدث فتح مكة المكرمة الذي علا فيه مجد الإسلام وأفلت فيه نجوم الشرك في الجزيرة في السنة الثامنة من الهجرة، كما حدثت فيه معارك حربية أخرى حاسمة مثل موقعة عين جالوت التي قضت على أطماع التتر والمغول، وخلصت العرب من شر مستطير سنة ٦٥٨هـ.

وتتجلى صفة الإعداد والتهيئة في رمضان للعام والعمر كله أنه يقوي الصحة ويخلص الجسد من كل عوامل الضعف الطبيعية، روى الطبراني في الأوسط من حديث أبـي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اغزوا تغتنموا، وصوموا تصحوا، وسافروا تستغنوا**».

ومن إعداد الصيام للأمة وثمراته الاجتماعية تحقيق المساواة فعلاً بين جميع الناس أغنيائهم وفقرائهم، وتوحيد مشاعرهم، وإحساسهم بالرباط الأخوي الخالد فيما بين المؤمنين، وتعود النظام في المعيشة، وضرورة الاشتراك في السراء والضراء، مما يفهم أن القوة مع الاتحاد والتعاون، وأن النصر حليف الصبر، وأن العزة والكرامة أساسهما التضحية والإيثار والرحمة والمحبة، وأن غلبة الحق الإسلامي واندحار الباطل وتطهير المقدسات الإسلامية من رِجْس اليهود الأوغاد مرهون بالتزام طاعة الله، واحترام حدوده، واجتناب نواهيه، والتخلق بأخلاق الصائمين الحقيقيين التي مِن أخصها حفظ اللسان وغض البصر وتجنب الزور والبعد عن الخصومات والشحناء التي تضعف الأمر وتفرق الجماعات، روى أحمد والبخاري وأصحاب السنن إلاَّ النسائي مرفوعاً من حديث أبـي هريرة: «**من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله**

حاجة في أن يدع طعامه وشرابه من أجلي» أي من أجل الله تعالى، وروى النسائي وابن ماجه: **«كم من صائم ليس له من صومه إلاَّ الجوع والعطش»**.

وفي الجملة إن للصوم فوائد كثيرة صحية وأخلاقية واجتماعية ودينية معروفة يهمنا منها ما أشرنا إليه مما فيه صفة الإعداد والرمزية لمعاني الإسلام المنوه عنها بوصف رمضان بصفة (الخير) الجامعة لمقومات الإسلام... وعندها يدرك المقصرون المسلمون مدى الخطر الأعظم الذي يصيبهم بالتهاون في أداء الصيام الذي تنطلق منه أو تتجسد في عبادته أهداف الإسلام وغاياته الكبرى لترسيخ دعائم الحق والمحبة والخير والتسامح والجهاد والتضحية، وإقامة صرح الإيمان الذي هو مجمع الفضائل، وقوام الضمائر، وعماد الحياة السوية، وتبديد معالم الكفر الذي هو وكر الاضطرابات والفوضى، ومنشأ الانحراف، وسبب الحيرة واليأس والقلق والشقاء.

وأما ما قد يتذرع به المقصرون من وجدان المشقة في الصيام، فهو عذر مرفوض، لأن دين الله وأحكامه كلها يسر لا عسر، وسهلة لا صعبة على من صحت عزيمته وصدقت نيته، وحزم أمره، وما قد يوجد من مشقة لا سيما وقت الحر، فهو أمر محتمل يقيناً ككل ضروريات الحياة وكل الأعمال المعتادة التي لا تخلو من مشقة مألوفة تطيقها النفوس وتتحملها الأجساد، ومثلها لا أثر له في إسقاط العبادات والطاعات ولا في تخفيفها لأنها لو أثرت لفاتت مصالح العبادات والطاعات في جميع الأوقات، أو في غالب الأوقات، ولفات ما رتب

عليها من المثوبات الباقيات ما دامت الأرض والسموات، على حد قول العز بن عبد السلام.

فالمصلحة كلها في اتباع شرعة الله، والخير كله في التزام أوامر الله، والرباط الجامع بين الإنسانية ومثلها العليا في هدى الإسلام الذي يمثل هداية السماء وإرادة الخير للبشرية في صورته الأخيرة التي استوعبت خير ما في الأديان السابقة، وأنهت ما سوى ذلك مما لم يعد ملائماً لتطور المدنية والحياة، قال سبحانه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[1] [2].

---

(١) سورة طه: آية ١٢٣.

(٢) مجلة «الوعي الإسلامي»: السنة ٧، العدد ٨١، رمضان سنة ١٣٩١، ص ٢٢_٢٥ بتصرف.

ختام رمضان وبهجة العيد
للدكتور صالح بن حميد

قال الدكتور:

فحصيلة المؤمن في دنياه عمر محدود بالساعات والثواني، وكسبه المبذول رصيد مدخر بالأعمال المنجزات من غير كسل أو تواني، يتقلب في عمر الحياة بقدر ما كتب له من فسحة، ويكدح فيها لينال أكبر المغانم، ومدار السعادة في طول العمر وحسن العمل.

ومن كانت حصيلته ملأى بالخير من مختلف صنوفه فليهنأ وليستمسك ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[١].

وأما من كان غارقاً في الشهوات والنزوات فقد طال عناؤه وعظم شقاؤه ومن نوقش الحساب هلك.

ولقد كان من وافر حظ أمة الإسلام وعنوان سعادتها وكرامة الله لها تهيئة فرص الكسب المبرور لصرف لحظات العمر وسويعات الحياة في دروب الطاعات ومسالك الخيرات، سعي حثيث للتزود من الباقيات الصالحات، ذلكم هو شهر الخير والبر شهر رمضان شهر هذه الأمة،

---

(١) سورة يونس: آية ٥٨.

نزل فيه كتابها وتحقق فيه كثير من انتصاراتها، قطع الله فيه دابر الوثنية وقَوَّض بنيانها، شهر صيام وقيام وذكر وتبتل، شهر عمل وجهاد وجد واجتهاد، زادٌ لما بعده من الشهور وأخْذٌ للعدة في مستقبل الأيام، يجتهد فيه أقوام جعلوا رضا الله فوق أهوائهم وطاعته فوق رغباتهم، أذعنوا لربهم في كل صغير وكبير يتوقّون الذنوب ويخافونها كما يخافون ألد الأعداء.

من صام نهار هذا الشهر وصلَّى ورداً من ليله، وقام بما افترض الله عليه، وغض بصره وحفظ سائر جوارحه، وحافظ على الجمعة والجماعة فقد صام الشهر وعظم رجاؤه بالفوز بجائزة الرب.

أي عقل أو حزم عند من يدرك مواسم الفضل ثم لا ينافس فيها.

مسكين كل المسكنة من أدرك هذا الموسم العظيم ثم لم يظفر من مغانمه بشيء، ما حجبه إلاَّ الإهمال والكسل والتسويف وطول الأمل.

والأدهى من ذلك والأمرّ أن يوفق أناس لعمل الطاعات والتزوُّد في فرص الخيرات حتى ما إذا انتهى الموسم نقضوا ما أبرموا وعلى أعقابهم نكصوا، واستدبروا الطاعات بالمعاصي واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، تلك هي النكسة المردية والخسارة الفادحة.

أين دروس الصلاح والطهر والاستقامة والتقى من هذا الشهر الكريم؟

إنَّ استدامة العبد على النهج المستقيم والمداومة على الطاعة من غير قصر على وقت معين أو شهر مخصوص أو مكان فاضل من أعظم

البراهين على القبول ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[(١)] ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾[(٢)].

نعم ـ أيها المؤمنون ـ هل رأيتم أعظم مقتاً من الكسل بعد الجد والتواني بعد العزم، ولكن أشد منه مَن تنكب السبيل فعاد إلى حمأة الصبوات والهفوات ومقارفة الآثام بعد إذ نجَّاه الله منها، فيدخل في غمرة السهو ولجَّة اللهو، ويغدو بعد الحزم والعزم متردِّياً في مهاوي الردى، وكأنك منفك من أسر أو منطلق من عقال.

ألا فاتقوا الله عباد الله، وأروه من أنفسكم خيراً، فمن كان مجدّاً فليزدد، ومن كان مقصراً فليقصر، مَن غلبه هوى أو تشاغل بلهو فليبادر بالتوبة النصوح وليعظم رجاؤه بربه فأبواب التوبة مشرعة ومولاه يناديه ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[(٣)].

وإنَّ من مظاهر الإحسان في خواتيم هذا الشهر الكريم وتوديعه بحسن الختام إخراجَ زكاة الفطر حيث تأتلف القلوب ويتعاطف الغني مع الفقير، فرضت طهرة للصائم وطعمة للمساكين، وما اشتكى فقير إلَّا بقدر ما قصَّر غني، ومقدارها صاع من طعام من غالب قوت البلد كالأرز والبر والتمر عن كل مسلم.

---

(١) سورة الحجر: آية ٩٩.
(٢) سورة الأحزاب: آية ٢٣.
(٣) سورة الزمر: آية ٥٣.

ووقت إخراجها الفاضل يوم العيد قبل الصلاة ويجوز تقديمها قبل ذلك بيوم أو يومين.

فأخرجوها ـ رحمكم الله ـ طيبة في نفوسكم تُكَفُّ بها يدُ المسكين عن الطلب ويستغني بها من غير مسألة، ويشارك إخوانه بهجة العيد فالعيد موسم بهجة بعد أداء الفريضة، ابتهاج بالتوفيق لأداء شهر الصوم.

وقد قيل: من أراد معرفة أخلاق الأمة فليراقبها في أعيادها إذ تنطلق فيه السجايا على فطرتها وتبرز العواطف والميول والعادات على حقيقتها، والمجتمع السعيد الصالح هو الذي تسمو أخلاقه في العيد إلى أرفع ذروة، وتمتد فيه مشاعر الإخاء إلى أبعد مدى حيث يبدو في العيد متماسكاً متعاوناً متراحماً تخفق فيه القلوب بالحب والود والبر والصفاء.

إنَّ العيد في الإسلام ـ أيها الأخوة ـ غِبطة في الدين والطاعة وبهجة في الدنيا والحياة ومظهر القوة والإخاء، إنه فرحة بانتصار الإرادة الخيرة على الأهواء والشهوات، وبالخلاص من إغواءات شياطين الإنس والجن والرضا بطاعة المولى، والوعد الكريم بالفردوس والنجاة من النار.

في الناس ـ أيها الأخوة ـ مَن طغت عليه فرحة العيد فتستبد بمشاعره ووجدانه لدرجة تنسيه واجب الشكر والاعتراف بالنعم، وتدفعه إلى الزهو بالجديد والإعجاب بالنفس حتى يبلغ درجة المَخِيلة

والتباهي والكبر والتعالي، وما علم هذا أنَّ العيد قد يأتي على أناس قد ذلوا من بعد عزّ فتهيج في نفوسهم الأشجان وتتحرك في صدورهم كثير من الأحزان، ذاقوا من البؤس ألواناً بعد رغد العيش، وتجرَّعوا من العلقم كيزاناً بعد وفرة النعيم، فاعتاضوا عن الفرحة بالبكاء، وحل محل البهجة الأنين والعناء.

كم من يتيم ينشد عطف الأبوة الحانية ويلتمس حنان الأم الرؤوم يرنو إلى من يمسح رأسه ويخفف بؤسه، كم من أرملة توالت عليها المحن فقد عشيرها تذكرت بالعيد عزّاً قد مضى تحت كنف زوج عطوف، كل أولئك وأمثالهم قد استبدلوا بعد العزِّ ذلًّا وبعد الرخاء والهناء فاقة وفقراً.

فحقٌّ على كل ذي نعمة ممن صام وقام أن يتذكَّر هؤلاء فيرعى اليتامى ويواسي الأيامى ويرحم أعزَّاء قوم قد ذلّوا، كم هو جميل أن تظهر أعياد الأمة بمظهر الواعي لأحوالها وقضاياها فلا تحول بهجتها بالعيد دون الشعور بمصائبها التي يرزح تحتها فِئامٌ[1] من أبنائها حيث يجب أن يطغى الشعور بالإخاء قويّاً فلا تنسى أفغانستان ولا فلسطين وأراضي في المسلمين أخرى منكوبة بمجاهديها وشهدائها بيتاماها وأراملها بأطفالها وأسرها يستجدون أمم الأرض لقمة أو كساء وخيمة وغطاء وفي المسلمين أغنياء وموسرون.

وكم هو جميل كذلك أن يقارن الاستعدادَ للعيد لفرحته وبهجته

---

(١) أي جماعات.

استعدادٌ لتفريج كربة وملاطفة يتيم ومواساة ثكلى، يقارنه تفتيش عن أصحاب الحوائج فإن لم تستطع خيراً ولا مالاً فأسعفهم بكلمة طيبة وابتسامة حانية ولفتة طاهرة من قلب مؤمن.

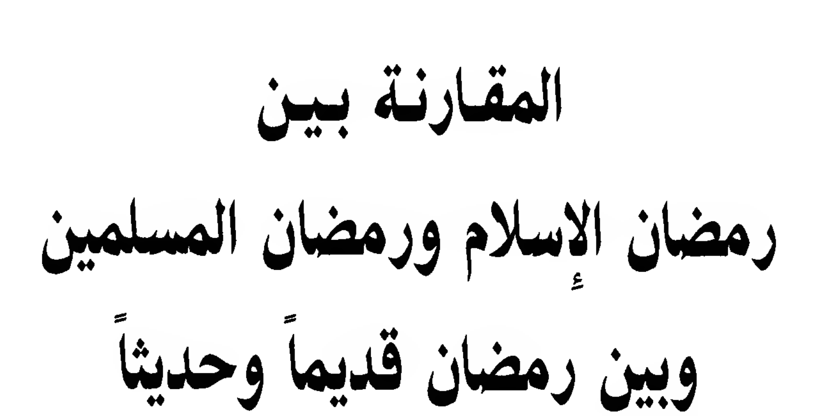
إنك حين تأسو جراح إخوانك إنما تأسو جراحك، وحين تسد حاجة جيرانك إنما تسد حاجة نفسك ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾(١) ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾(٢).

أيها الأخوة في الله:

إنَّ الابتهاج بالعيد نعمة لا يستحقها إلاَّ الشاكرون، وما الشكر عليها إلاَّ صمود لنوائب الدهر ويقظة لدسائس العدو وعمارة للأرض بنشر دين الله(٣).

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٧٢.
(٢) سورة فصلت: آية ٤٦.
(٣) «توجيهات وذكرى»: ١/ ٢٦٩ ـ ٢٧٤.



المقارنة بين
رمضان الإسلام ورمضان المسلمين
وبين رمضان قديماً وحديثاً



رمضان
للأستاذ أبو الوفا المراغي

قال الأستاذ:

كان الكُتَّاب حين يكتبون عن رمضان يديرون أحاديثهم ـ في الكثير الغالب ـ حول ناحيته الدينية، فيتحدثون عنه لماذا فرض، ومتى فرض، وهل كتب صيامه على المسلمين خاصة، أو كتب عليهم كما كتب على الذين من قبلهم؛ وهل كان افتراضه لمجرد الإمساك عن الطعام والشراب ونحوهما، أو أن هناك غايات سامية وراء ذلك، كتطهير النفس وتهذيب الروح وعلاج البدن مما عساه يُلِمّ بالنفس والروح والبدن من أوزار وأقذار، وأمراض وأوضار.

كانوا يديرون أحاديثهم حول هذه الناحية ثم يفيضون فيها، ويغفلون ناحية من نواحي الحديث في رمضان كانت جديرة بأن تتناولها أقلامهم، ليس لما فيها من طرافة فحسب، بل لما فيها من مغزى سام، وتقدير لطيف لشهر رمضان ومكانته في نفوس المسلمين: تلك هي ناحية العادات الاجتماعية التي أحدثها رمضان بين العادات الحسنة للمسلمين، ويؤسفني أن أقول «المسلمين السابقين» لأنهم أصحاب الفضل في غرسها، والعناية بها، والمحافظة عليها؛ أما مسلمو اليوم فهيهات من كلف نفسه إحداث عادة حسنة، بل هيهات من كلف نفسه الإبقاء على

عادة من تلك العادات التي عُنِي بها أسلافه تقديراً لهذا الشهر وإكراماً له .

ولعل من أحسن العادات الحسنة أو أحسنها عادة العناية بالفقراء والترفيه عنهم، والاحتفال بهم في هذا الشهر، فكنت ترى قصور الأغنياء ـ بل بيوت المتوسطين ـ تغص بالفقراء رمضان كله، يشركونهم في فضل الله عليهم، طيبة بذلك نفوس الأغنياء، مبتهجة قلوبهم، يفطر الفقراء من فطورهم، ويتسحرون من سحورهم، لا يستأثر الأغنياء دونهم بطيب، ولا يتمتعون بشهيّ، ولقد بلغ من عناية المسلمين الأولين بتلك العادة والاهتمام بشأنها في ذريتهم وأهليهم أن وقفوا ضياعهم ودورهم على الإنفاق على الفقراء في شهر رمضان، وقلما تجد بين الواقفين المسلمين من فاته هذا الغرْض.

لهذا كنت تجد بين الفقراء والأغنياء ما تجده اليوم من غل وحقد وحسد وبغضاء، ينظر كل منهم إلى الآخر نظره إلى العدو، ينتظر عليه الفرص، ويتربص به الدوائر، بل كنت تجد بينهم التواد والتراحم، والتعاطف والتواصل، يتمنى الفقير للغني المزيد من فضل الله، ويتمنى الغني للفقير اللطف والعون من الله.

ولقد كان من العادات الحسنة أيضاً إحياء ليالي رمضان بتلاوة القرآن، وتلك العادة التي كانت شائعة في سائر الأسر تقريباً، حتى لقد كان من العار أن يخلو قصر أو دار من فقيه لهذا الغرض، وكانت الأسر تتنافس في اختيار الفقهاء ممن حسن صوته وذاع صيته، ولا زلنا نذكر مما كان يقال أن فلاناً الفقيه أحيا رمضان في أسرة فلان بكذا جنيهاً، وخِلعة من جيد «الجوخ والشاهي» وأن فلاناً الفقيه اختص بأسرة فلان،

وما إلى ذلك من حديث الفقهاء، وليس من التكرار أن أقول: إن من أوقاف الأغنياء أوقافاً خاصة بالفقهاء في شهر رمضان.

هذا وإن من العادات الاجتماعية ذات الأثر البعيد بين المسلمين عادة التزاور في شهر رمضان، فكنت تجد الدور تعمر بزوارها، تخالطهم البشاشة، ويعلوهم البشر، ويسودهم الصفاء، يتذاكرون فيما بينهم شؤون دينهم، ولا ينسون شؤون دنياهم، يحاولون تفسير آية مما يسمعون، ويتساءلون عن حكم فقهيّ لما يعرض في رمضان من حوادث، كحوادث الإفطار والإمساك، والصلاة وزكاة الفطر، ونحو ذلك ـ وما أكثر ما يعرض في رمضان من حوادث ـ ويتشاورون في حل مشكلة من المشكلات التي تعترض أفرادهم، يتحققون بقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى**»؛ يحرمون ما حرم الله من ورق ونرد ونحوهما مما ابتدع واتبع؛ يظلون كذلك رمضان كله، حتى إذا أقبل العيد حددوا زياراتهم مسلمين، مهنئين.

هـذه بعض عادات السلف الصالـح، فأين أنتم يا شباب الجيل؟! يـا مثقفي العصر! يـا حاملي لواء المدنية! أيـن أنتم من تلك العادات، وأين ما ابتدعتم منها؟! والله إن الحديث عنكم لَمُشج ومخز، وإن المقارنة بينكم يـا مثقفين وبيـن أسلافكم ـ الجهـلاء كمـا تـزعمـون ـ لتنجلي بالحكم عليكم بما لا يسركم ولا يرضيكم.

يا شباب الجيل! نبئوني كيف استقبالكم لرمضان، وكيف معاملتكم للفقراء، وما هي عنايتكم بالقرآن، وكيف تقضون لياليه

وأيامه؟ أتسمحون بالجواب؟ ألا فاسمعوا قول الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾(١).

يا شباب الجيل: لطالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال! فهل فيما يجري في العالم من خطوب وأهوال نذير لكم، فتقلعوا عما أنتم فيه، وتحاسبوا أنفسكم، وتتدبروا أعمالهم، وتشتغلوا بالجد من أموركم، وتحاولو أن تعيدوا سير أسلافكم في برهم وتقواهم، وتوازنوا بين أعمالكم وأعمالهم، لتعلموا أيكم خير لنفسه وأسرته ووطنه؟!

إن في رمضان لفرصة للتوبة والإنابة، وإنه خير الأوقات لاستجابة الدعاء واستنزال الرحمة، فطهروا أنفسكم فيه بالأعمال الصالحة، ثم ادعوه مخلصين أن يصلح أحوالكم ويجنبكم وأمتكم غضب الله وسخطه، ويباعد بينكم وبين ما ينزل بغيركم من دمار وبوار، ويحفظ على أمتكم أمنها وسلامتها، ويرد عنها كيد الكائدين، وطمع الطامعين(٢).

---

(١) سورة مريم: آية ٥٩ ـ ٦٠.

(٢) مجلة «الأزهر»: الجزء ٩، المجلد ١١، رمضان سنة ١٣٥٩، ص ٥٢٤ ـ ٥٢٥.

رمضان بين الحاضر والماضي

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد خليفة

قال الأستاذ:

شهد ماضي رمضان نهاراً عامراً بالإيمان والإحسان، وليلاً زاخراً بالذكر والقرآن.

ويشهد حاضره نهاراً مفتوناً بشهوة البطون، وليلاً صاخباً بالخلاعة والمجون.

شهد ماضيه عُبَّاداً في الأسحار يتلون قرآن الفجر وقد أمسكوا عن شهوات الدنيا وسجدوا لربهم في المحاريب خاشعين متضرعين يبكون من خشية الله، ويرجون أن يتقبل الله، حتى إذا صلوا الفجرراحوايشهدون رزق ربهم ويجاهدون في سبيل العيش بعد أن أشبعوا الروح من زاد الآخرة.

ويشهد حاضره في مصر الإسلامية ألواناً متنافرة: عبّاداً وأشباه عباد وأنصاف عباد ولا عباد، بل تشهد أسماره سكاره عجَّت بهم مجالس السَّمر العابث بين الغِيد والكاس، لا يصيخون لمؤذِّن الصباح بل لمؤذِّن الصَّبوح[1]، ولا يرعشهم قرآن بل ترقصهم الألحان، حتى إذا امتدَّت في

(١) الصَّبوح: كل ما أُكل وشرب غدوة خلاف الغَبوق.

الأفق خيوط الفجر امتد النوم إلى جفونهم فاستلذّوا المخادع، واطمأنّوا في المضاجع حتى الأصيل، ليستقبلوا ليلة أخرى حمراء، وهكذا ينقضي شهر العبادات والطيبات وهم في لهو صارخ واستهتار بالدين والأخلاق.

لم يشهد ماضيه في الضحى مطاعم ولا مقاهي مفتحة الأبواب، يختلف إليها أولئك الذين فقدوا الحياء وقد راحوا يلتهمون الطعام ويستعذبون الشراب.

أما حاضره فيشهد في كل شبر صوراً مختلفة الأشكال من المخازي في مصر الإسلامية، فالمطاعم والمقاهي في ضحى رمضان غاصة بالطاعمين الشاربين الذين لا يستحون من الله ولا من الناس.

ومكاتب الوزارات والمصانع والمجتمعات العامة والسيارات كل هاتيك النواحي يشهد فيها رمضان أفواجاً من المسلمين يأكلون ويشربون ولا يتوارون عن العيون.

والمنازل يشهد فيها رمضان أوانس وسيِّدات خفن أن يضعضع الصوم قوتهن أو يذهب نضارتهن فأفطرن صوناً للجمال أن يذبل.

وويل لهؤلاء وأولئك يوم ينادي الله: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾[1].

شهد ماضيه في الأصائل[2] قصور الأغنياء ودور العظماء يهرع إليها المحتاجون والأرامل والمساكين واليتامى حتى إذا امتلأت بهم الساحات شعَّت عليهم بسمات المحسنين فأنستهم قسوة الحرمان وامتدَّت إليهم

---

(١) سورة النساء: آية ٥٦.
(٢) جمع أصيل وهو العشي: آخر النهار.

الأيدي بالطعام فأنستهم مرارة الجوع، وانطلقت حناجرهم بصادق الدعاء يشق الفضاء إلى السماء.

ويشهد حاضره في الأصائل قصور الأغنياء ساكنة كأنها المقابر لا تسمع حولها دعاء محسن، ولا دعوة يائس، ولا تمتد يد محجبة من وراء الستائر بلقمة من العيش ترد جوعة صائم، أو تحقق أمنية حالم، وحسب البائس أن تثير رائحة الشواء أمعاءه، وتسيل جفاف لعابه، ليعود إلى بنيه الجياع، أو زوجته المنطوية على نفسها بالدمع بين جفنيه، والحسرة والحرمان بين جنبيه.

لم يشهد رمضان في الماضي المرأة المسلمة إلَّا راعية في بيتها تقوم على شؤونها وترعى حقوق زوجها وبنيها، وتضحي براحتها في سبيل هناءة أسرتها.

ويشهد اليوم رمضان المرأة المسلمة وقد تنكَّرت لبيتها، وأنكرت زوجها وأبناءها، وافتتنت بزينتها عن غيرها، وجرها شيطان الهوى إلى التنكُّر لكل ما له صلفة بالدِّين والأخلاق، وليتها نسيت أنوثتها وعواطفها، وخافت وعيد ربها، وذكرت قول محمد صلوات الله عليه: «**نظرت إلى النار فإذا أكثر أهلها النساء**» فما ينجيها يومئذ من عذاب الله جمال ولا مال ولا جاه.

لقد شهد رمضان في الماضي نفوساً هذَّبها الإسلام وربطت بينها أخلاق الإسلام بوشائج من الأخوة وأسباب من التراحم والتواد والتعاطف فهي قلوب لا تعرف الشحناء ولا تثيرها البغضاء في رمضان لغير شيء، ويشهد رمضان الآن منذ الصباح الباكر في مصر صوراً من

المعارك لا تنقطع بين الصائمين، ومشاحنات لا ينطفىء لها أُوار[١] حتى كأنَّ الصوم قد كهرب الناس فأجسامهم لا تطيق المساس، فكم نرى في الأسواق بائعاً يثور ومشترياً يفور، وفي الوزارات كم نرى رئيساً يرغى ويزبد، ومرؤوساً يحنق ويعربد، فلم صام هؤلاء وأولئك، وليس لله حاجة في أن يَدَعوا الطعام والشراب؟ إنَّ الصوم الذي لم يهذب النفوس يعذب المجتمع، فليفطر هؤلاء وليرحموا المجتمع إذا ضعفوا عن جهاد أنفسهم.

ولكم شهد رمضان في الماضي ساعة الإفطار مساجد تموج بالأغنياء والفقراء جلسوا جنباً إلى جنب ينتظرون الإفطار ليعلنوا أنهم سواء في طاعة الله سواء أمام أوامر الله، سواء في الوقوف بين يدي الله أمسكوا معاً وأفطروا معاً وسيصلون معاً ثم ينصرف كلٌّ إلى ما يسر الله له من طعام راضياً شاكراً، ويشهد رمضان الآن مساجد الله ساعة الإفطار وقد خلت إلَّا من فقير أو غريب، أما صوام الأغنياء فإنهم يستقبلون الموائد عند دوي المدافع ليتخموا بطونهم بلذائذ الطعام ثم يأخذهم الدوار العنيف لكثرة ما قذفوا في معداتهم من أطعمة يثور تفاعلها حتى ينهك المعدة فتكسل ويمتد كسلها إلى الجسم فلا ينهض إلى صلاة إلَّا بعد ساعات طوال.

وأما عن ليالي رمضان في الماضي فكم كانت تزدهر فيها قصور العظماء بالأضواء، وتفتح أبوابها لكل وافد يسمع آيات الله يرتلها الفقهاء، وكم كانت تعج القاهرة بالأفواج المتلاحقة من الطرق الصوفية

---

(١) شدة.

يرددون ذكر الله وهم في طريقهم إلى بيت من بيوت الله تفيض قلوبهم بحب الله وتدوي أصداء أصواتهم فتهتز قلوب الناس[١]، إنهم كانوا يعتقدون أنَّ ليالي رمضان أعياد لأنها تجمعهم في عبادة الله.

ويشهد حاضره قصور العظماء تضج بالحفلات العابثة فهي ليست بالقصور وإنما هي مذابح تنحر فيها الفضائل، وتسفك فيها الأخلاق، وتذبح فيها النخوة، وتموت الكرامة، وقد يجر كل ذلك إلى فقدان الشرف وهو أعز ما يملك الإنسان.

إنَّ ماضي رمضان قد شهد ألواناً من العبادة والبر، وإنَّ حاضره ليشهد صوراً من الفجور والشر، فهل أوشكت القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش.

أيها الصائمون:

اذكروا أنَّ محمداً صلوات الله عليه كان يصوم في جو الصحراء اللافح، فلا تتأثر أحاسيسه بحرارة جوها فيثور ويغضب بشيء، أو بغير شيء، وأنه كان يفطر على تمرات لا تقيم صلباً ولكن القناعة كانت تشبعه، فهل لكم في رسول الله أُسوة حسنة تَأْتَسُون بها؟

إنَّ مصر التي تفخر بماضيها وتذكر مجدها خليق بها أن تنزع إلى الدين وتعود لتجدد ما يلي من أخلاق، فإنَّ المجد المنشود لن نصل إليه إلاَّ إذا أضأنا سبيله بأخلاقنا، وإنَّ نفوسنا المظلمة وأخلاقنا المظلمة لن نصل بهما إلى عزَّة نريدها أو آمال نبتغيها.

---

(١) قد ذكر الكاتب جانباً حسناً من جوانب الصوفية لكن مساوئها ـ في الأعصر الأخيرة ـ أكثر من محاسنها وغلب عليها الابتداع، والله تعالى أعلم.

إنَّ آلاف المحرومين تغلي صدورهم، وتتصاعد زفراتهم إلى السماء تشكو إلى الله بخلكم، فاتقوا شكاياتهم فليس بينها وبين الله حجاب.

لكأني بالساعة وقد قامت، ونصبت الموازين فرحتهم تنقبون بين أعمالكم عن صومكم فلم تجدوه؛ لأنَّ ربكم لم يتقبَّل عمل المتبرم الساخط، أفهل حسبتم أنَّ ربكم في حاجة إلى عبادتكم؟ إنَّ الإنس والجن لو صاموا الدهر كله ما زاد ذلك من جلال الله شيئاً، وإنَّ الإنس والجن لو كفروا بالله وبرسالات الرسل جميعاً واتخذوا آلاف الأرباب ما نقص ذلك من عزَّة الله شيئاً.

حساب الله عسير فاتقوا الله[١].

---

(١) مجلة «الأزهر»: المجلد ٢٢، الجزء ٩، رمضان سنة ١٣٧٠، ص ٨٤٤ ـ ٨٤٧.

الصيام بين عهدين
للأستاذ أحمد حسن الزيات

قال الأستاذ:

والتجدد أو التطور يصيب كل شيء فيجعله أعلى عالٍ أو يردُّه أسفلَ سافل!

كان عهدنا بالصوم قبل اليوم أن يكون عصياناً للنفس في طاعة الله، وحرماناً للجسم في مَبَرَّة الروح، ونكراناً للذات في معرفة الناس؛ فالجوارح مغلولة عن الأذى، والمشاعر مكفوفة عن الشهوة، والخواطر مستغرقة في الدعاء، بين نهار كله إحسان وتأمل وتصدُّق، وليلٍ كله قرآن وتواصل وتهجُّد؛ فلا الغنيُّ يهيج به البَطَر، ولا القويّ تفرط عليه القدرة، ولا الفقير يتهجم له الحرمان، وكأنما زالت الفروق بين الناس فأصبحوا سواسية في نعمة الدين وسعادة الدنيا!

كان الرجل الدنيوي الشهوان إذ أقبل عليه رمضان تاب وتطهر، فلا يفتح فمه لِهُجر، ولا عينه لفحش، ولا أذنَه للغو، ولا قلبَه لخطيئة، يقضي يومه مضطرباً في المعاش على أفضل ما يكون الخلق، فإذا كان تاجراً لا يدلِّس، أو صانعاً لا يزوِّر، أو عاملاً لا يُفرط، أو معاملاً لا يخون، ويحيي ليله في استماع القرآن ومواصلة الإخوان ومُوادَّة ذوي القربى، فإذا ما انقضى بعض الشهر بدا عليه شحوب الصوم وذبول الصلاة وكلال السهر وخشوع الورع.

فلو كنت حاضرَ ذلك العهد لرأيت رمضان عيداً قومياً ودينياً يؤكد أسباب القرب بين الله وعبادة، ويوثق عرى الحب بين الشعب وأفراده.

ذلك عهدنا برمضان الأمس؛ أما رمضان اليوم فبحسبك أن أصف لك حياة من حيوات القاهرة فيه؛ وتستطيع أنت أن تصور لنفسك الطور العجيب الذي آل شهر القرآن والعبادة:

هي أسرة لا أقول إنها مثال لكل الأسر؛ ولكنها استجابت لنوازع التجديد الأبله استجابة الإِمَّعَة فأصبحت تمثل ما عسى أن يكون بين التقاليد والتقليد من التناقض المضحك.

ميم باشا يتبوأ منصباً من مناصب الدولة الرفيعة، بلغه بعد حياة طويلة كادحة، تبتدىء من القرية الحقيرة والأسرة الفقيرة والوظيفة الخاملة، وتنتهي إلى هذا الجاه العريض والثراء الضخم والمنزل المروق، فهو وزوجه في عهد، وابناه وبناته الثلاث من عهد؛ والتفاعل بين هذين العهدين هو الذي أحدث هذه الظاهرة التي تجدها اليوم في أكثر بيوت القاهرة، لا بد لهذه الأسرة أن تصوم، ذلك حكم النشأة وسلطان العادة. ولا بد كذلك لهذا الصوم المتزمت الجافي أن يتسع باله وترق حواشيه إذا ما استضاف هذه الأسرة، فهو يسبل جناحيه الرؤومين على أَسِرَّتها الوردية الوثيرة من طلوع الفجر إلى متورع النهار؛ ثم يمس بريشهما الناعم خدود الأوانس النواعس فينتبهن؛ ويهبُّ الوالدان على زقزقتهن في غرف الزينة وطُنُف القصر؛ ثم يجتمع بعد قليل مجلس الأسرة لينظر في مقترحات البطون على إدارة المطبخ. فهذه تقترح، وتلك تعترض، وهذا يطلب لوناً، وذاك يطلب آخر، والباشا يدير هذا الشهي إدارة موفقة، فيعدِّل أو يكمل أو يؤجل، حتى ينتهي النقاش بثبَت

حافل بالمشهيات والمقليات والمشويات والمحشوات والفطائر لا تجد بعضه في مطعم كبير.

يتغير هذا الثبت كل يوم فيطول أو يقصر، ولكن لونين فيه لا ينالهما تغير ولا يمسهما نقص: لوناً من الأرانب مطبوخة في النبيذ يحبه الباشا، ولوناً من الشرائح الوردية مطعمة بفصوص من شحم الخنزير تحبه الأنسة الكبرى سين!

ها هو ذا الباشا البطين يتذبذب وئيداً المطبخ والمائدة كأنه رقاص الساعة، في يده مسبحته الكهرمانات الصغيرة يهش بها على الطهاة والخدم، وشفتاه تختلجان من غير كلام، وعيناه تتحركان من غير نظر، حتى إذا دنت المغرب خفت حركته واحتد نشاطه فأقبل على المائدة ينسق الآنية، وينضد الأكواب، ويسكب أمام كل آكل الشرب الذي تعوده، فهنا قمر الدين، وهنا منقوع التين، وهنا الكينا، وهناك الفرمود، وهنالك إفيان، وأمامه هو شراب صحي فاخر من صيدلية (يني)؛ ثم يدبج الخوان المخملي بنوافل المائدة من السلطات والكوامخ، ويرتب الألوان مع النادل على أصول مقررة في الفن، ثم يسرح بعد ذلك بصره في السماط المكتظ فيرتد إليه ملآن بالرضا والعجب؛ فيخرج إلى الردهة، ومن الردهة إلى الشرفة، فيلقي النظرة الأخيرة على الشمس الغارية، ثم يعود فيرى الأسرة بجنسيها لم تفرغ بعد من إعداد الأهَب للسهرة الراقصة؛ فالحلل تُنتقى، والحلى تُختار، والشعور ترتجل وتموج، والأظفار تدرَّم وتصبغ، والحواجب تدقق وتخطط، والخطوات واللفتات والبسمات تتكرر أمام المرايا لتراض وتُتقن. حتى إذا انطلق مدفع الإفطار من الراديو أهرعوا إلى المائدة إهراع جنود الإطفاء إلى السيارة؛ ثم يجلس الباشا بين

بنيه ويضع المسبحة المعلومة مكان القدح المجهول، ثم يرفعه إلى فيه وهو يقول: «اللّٰهم لك صمت، وعلى رزقك أفطرت، وبك آمنت، وعليك توكلت» ثم يقبلون على هذه الآكال وهذه الأشربة إقبال الشره الفاره! فلو رأيتهم حسبتهم صاموا العام كله ليفطروا في رمضان!

أذنت العشاء فصلاها الباشا الصالح، ولم يكد ينفلت منها حتى أخذ يُعد مقصف الليلة من النقول المختلفة، والأشربة الهاضمة، والأزهار الجنية. وأخذت الأسرة زينتها النمامة الكاشفة واجتمعت في البهو الفسيح الفخم تستقبل أسراب السيدات والأوانس ومعهم أبناؤهم وإخوتهن من الأيفاع والشباب؛ فيعزف البيان، ويخفق العود، وتشدو الكواعب، ويهزج الحاكي، ويدور الرقص على نمطيه الشرقي والغربي، فتلتف الأيدي على الخصور، وتلتصق الصدور بالصدور، وتمتزج أنفاس الكحول بأنفاس العطور، ويقف رمضان المسكين من هذه المناظر المريبة وقفة شيخ من شيوخ الدين دفعت به الأقدار إلى ماخور!

هذه والله صورة ناطقة لأسرة أعرفها ويعرف أمثالها الناس.

فمن عرفها فسيقول قصَّر، ومن جهلها فسيقول بالغ؛ والحق أنها الواقع لا تنقصه إلَّا تسمية الأسماء وتعيين المنزل[1].

---

(١) مجلة «الرسالة»: العدد ٢٢٨، السنة الخامسة، ١٢، رمضان سنة ١٣٥٦، ص ١٨٤١ ـ ١٨٤٢.

رمضان

للأستاذ أحمد حسن الزيات

قال الأستاذ:

نعم رمضان! ولا بد من رمضان بعد أحد عشر شهراً قضاها المرء في جهاد العيش، مستكلِب النفس، ومستأسِد الهوى، متنمر الشهوة، ليوقظ رواقد الخير في قلبه، ويرهف أحاسيس البِر في شعوره، ويُرجع روحه إلى منبعها الأزلي الأقدس فتبرأ من أوزار الحياة، وتطهر من أوضار المادة، وتتزود من قوى الجمال والحق ما يُمسكها العامَ كله على فتنة الدنيا ومحنة الناس.

فرمضان رياضة للنفس بالتجرد، وثقافة للروح بالتأمل، وتوثيق لما وهَى بين القلب والدين، وتقريب لما بعد بين الرافه والمسكين، وتأليف لما نفر من الشمل الجميع، وتنديةٌ لما يبس من الرحم القريبة، ونفحة من نفحات السماء تفعِم دنيا المسلمين بعبير الخلد وأنفاس الملائكة!

ورمضان كله عيد وطني شامل، تفيض بالسرور أنهاره، وتغرق في النور لياليه، وتفْتَرُّ بالأنس مجالسه، فالرجال يحيون أماسيه في محافل القرآن أو منازل اللهو النزيهة، والنساء يوزعن الوداد والأنس على

الأبهاء الكثيرة، والأطفال الهازجون يزينون الطرقات بفوانيسهم الملونة الصغيرة، والبيوت الباقية على العهد تتقرب إلى الله بالذكر والصدقات، والمساجد المقفرة طول العام تعج بالوعظ والصلوات، والمآذن الحالية بالمصابيح، الشادية بالتسابيح، ترسل في أعماق الأبد نور الله وكلمته!

وكل شيء في رمضان جذلان مغتبط، ما عدا الرومي في الحان، والشيطان في كل مكان!

ورمضان مظهر قومي رائع، يعيد إلى القاهرة عز القرون المواضي، فيصبغ لونها الأروبي الحائل بصبغة الشرق الجميلة، ويرفع صوتها الخافت بشعائر الصوم الجليلة، ويبرز شخصيتها الضائعة في زحمة الأجانب بالمظاهر الرسمية للحكومة، والتقاليد العرفية للشعب، وما أروع القاهرة في سكتتها عند الإفطار، وجَلَبتها عند السحور، وهزتها ساعة انطلاق المدفع!

ورمضان بعد ذلك كله رباط اجتماعيّ وثيق، يؤكد أسباب المودة بين أعضاء الأسرة بالتواصل والتعاطف، وبين أفراد الأمة بالتزوار والتآلف، وبين أهل الملة بذلك الشعور السامي الذي يغمرهم في جميع بقاع الأرض بأنهم يسيرون إلى غاية الوجود قافلة واحدة، ممتزجة الروح، متحدة العقيدة، متفقة الفكرة، متشابهة النظام، متماثلة المعيشة.

ولكن رمضاننا الأول وأسفاه لم يخفَّ على طبع المدنية الحديثة! فرمَتْه بقلة الإنتاج وكثرة الإهلاك وشل الحركة وقتل الصحة، ونفته إلى

أحياء العمال وقرى الفلاحين، واتخذت لنفسها من بقاياه رمضان آخر رقيق الدين، خفيف الظل، باريسي الشمال، يبيح النظرة المريبة والكلمة العارية والأكلة الدسمة والسيجار الغليظ، ولا يسألهم من ظرفه إلَّا أن يجعلوا العشاء عند الغروب وبعد طلقة المدفع! وإذا كان في بيوت المحافظين قارىء يقرأ القرآن، وذاكر يذكر الله، فليكن في بيوت المتجددين (راديو) يرجِّع أصوات الغناء، وحاك يردد أهازيج الرقص!

وهكذا تُجِدُّ الليالي ونحن نلعب! كأنما كتب علينا أن نأخذ الحياة من جانبها الفضولي العابث فنتأثر بها ولا تؤثر فيها، وكأنما همنا أن نعيش صعاليك على تقاليد الأمم دون أن تميزنا خصيصة من قومية، ولا شعيرة من عقيدة! وكأنما الشعائر التلمودية القاسية عاقت اليهود عن المغامرة والنبوغ والتقدم!

أما رمضان القرية فلا يزال يحل من أهلها محل النور من العين والمهجة من القلب! تجسمت في خواطرهم صورته حتى جعلوه رجلاً له حياته وعمره وأجله، يذكرونه على شهرين من مقدمه، فيحسبون حسابه! ويهيئون أسبابه، حتى إذا دب إليهم من غيوب الآباد دبيب الهرم سُلْسِلت الشياطين، وأُرسلت الأملاك، وهبطت الأرواح، ودرَّت أخلاف الخير، واغدودقت أصول النعم! هنالك يملك القرية شعورٌ تقي هادىء خاشع، فلا تعود تسمع لغواً في حديث، ولا عنفاً في جدل، ولا بغياً في خصومة؛ فإذا أذهل أحدهم الغضب فرفع صوته ندم عجلان واستغفر ثم قال: اللَّـٰهُمَّ إني صائم! ذلك لأن رمضان يُرجع الفلاح نقيّاً كقطرة المُزن، طاهراً كفطرة الوليد، فلا يقتل ولا يسرق ولا

يشهد الزور ولا يقول الهُجْر ولا يأتي المنكر، وما أجمل أن ترى فاتك الأمس ناسك اليوم! يمشي من البيت إلى المسجد في ثوبه النظيف وئيد الخطو، غضيض الطرف، لا تترك المسبحة يده، ولا يَفْتُرُ عن التسبيح لسانه، فإذا قابل القروية الجميلة وعلى رأسها الجرة، اتحد جمالها في نظره بجمال الخير في نفسه، فأمعن في التسبيح واستغرق في الله؛ لأن إبليس في رمضان سجين، وباب الغواية مغلق!

يقضون صدر النهار في تصريف أمور العيش، ثم يجلسون على المصاطب في أشعة الأصيل الفاترة يستمعون القَصص أو الوعظ، حتى إذا تضيَّفت الشمس جلسوا في الطريق أمام بيوتهم فمدوا الموائد على الأرض، ودعوا إليها عابري السبيل وطالبي الصدقة، ثم لا يلبث الإخاء المحصن أن يجعل الموائد المتعددة مائدة واحدة، يصيب منها من يشاء ما يشاء!

أما ليلهم فاستماع للقرآن، واستقبال للإخوان، ومسامرة مشتركة ساذجة تجمع أفناناً شتى من شهِيّ الحديث.

وكلما انقضى نهار من رمضان تَغَضَّن سَرار[١] من وجوه القوم، حتى إذا لم يبق إلاَّ ربعه الأخير تمثلوه محتضَراً يكابد غصص الموت، فندبوه في البيوت والمساجد، ورثوه على السطوح والمآذن، وبكوه يوم «الجمعة اليتيمة»[٢] أحرَّ بكاء.

---

(١) أي تثنت خطوط الجبين مزناً، والغَضن: التثني.
(٢) أي آخر جمعة من رمضان.

فإذا كان المغرب الأخير ولم يبق من رمضان إلاَّ بقية روح، خامرهم الخوف من انطلاق الشياطين السجينة، فجلس الصبيان على أبواب الغرف يكررون البسملة ويضربون حديداً، ليحفظوا البيت من دخول شيطانَ مريد!

ذلك رمضان كما تدركه الفطر السليمة والقلوب المؤمنة، وهو وحده الباقي لفلاحنا من غفلات العيش ولحظات السعادة! ولكن وا أسفاه! لقد أفسدت الأزمة رمضان القرية، كما أفسدت المدينة رمضان المدينة[1].

(١) مجلة «الرسالة»: السنة الأولى، العدد ٢٥، ٨ رمضان، سنة ١٣٥٢، ص٣ ـ ٤.

بعض الكلام في شهر الصيام
للأستاذ أحمد حسن الزيّات

قال الأستاذ:

قال الناس وقلنا في شهر رمضان ما هو أهله، ولكن القول فيه مهما يكثر يقل في جانب أثره الروحي والنفسي والاجتماعي والقومي، ما في ذلك شك.

ولو أنك تدبَّرت أركان الإسلام الخمسة في طبيعتها وشريعتها لتبيَّن لك أنَّ الصوم أشدها اتِّصالاً بالله وأقواها انفعالاً بالضمير؛ فإذا كانت الشهادتان إسلاماً لأنهما ذكر، والصلاة والزكاة والحج إيماناً لأنها تصديق، فإنَّ الصوم وحده إسلام وإيمان وتقوى؛ ذلك لأنَّ الرجل قد يشهد بوحدانية الله وبنبوة محمد، ولكنه لا يقيم صلاة ولا يؤتي زكاة ولا يؤدي حجة، وقد يقيم هذه الأركان الثلاثة كلها أو بعضها رياء وسمعة، أو اضطراراً وعادة، ولكنه لا يصوم رمضان إلَّا إذا أراد مخلصاً أن يجلو صدره بالذكر، ويطهر نفسه بالعبادة، ويزوِّد قلبه من مذخور الخير بما يقويه على احتمال الفتن والمحن في دنيا الآمال والآلام بقية العام كله، وإلَّا كان له مندوحة عنه بإسرار الإفطار إذا لم يخش الله وخشي الناس[1].

---

(١) كثير من الناس لا يصوم رمضان لأجل هذين المعنيين لكن عادة فقط.

فالتقوى إذن هي العنصر الجوهري لعقيدة الصوم، هي سرّه ورقيبه وغايته، وذلك هو المفهوم من قول الرسول صلوات الله عليه، «**قال الله: كل عمل ابن آدم له إلاَّ الصيام فإنه لي وأنا أجزي له**» وهو المعلوم من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[1].

والتقوى كلمة تجمع الحدود والقيود التي تضمنها معنى الصوم، وجماعها مجاهدة النفس ومخافة الله، وقد اجتمعا في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾[2] ومن مجاهدة النفس فطامها عن اللذَّة واللهو، وكفها عن الأذى واللغو، وفي ذلك تقوية للإرادة؛ لأنَّ الإرادة إنما تقوى برياضة النفس على الحرمان المؤلم كما يقوى الجسم برياضة البدن بالجهد العنيف، إنَّ مظهر الخوف الخشوع، وإنَّ مظهر المجاهدة الجوع، وإنَّ للجوع أثراً شديداً في تصفية النفوس وتلطيف الطباع؛ لأنَّ كدر النفس يكون في الأكثر من كدر الجسد، فقد قالوا إنَّ البطنة تذهب الفطنة، لذلك اتخذ كثير من أئمة الدين وأقطاب التصوُّف الجوع سبيلاً إلى تهذيب النفس وتقوية العقل وإذكاء الروح، قال الإمام علي رضي الله عنه يصف العارف بالله: «قد أحيا عقله وأمات نفسه حتى دق جليله ورق غليظه» يريد بجليله بدنه الضخم وبغليظه طبعه الكثيف، وقال إبراهيم بن أدهم: «لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يغلق عن نفسه باب الرخاء ويفتح عليها باب الشدة» وقال يحيى بن معاذ: «الجوع للمريدين رياضة،

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٣.

(٢) سورة النازعات: آية ٤٠ ـ ٤١.

وللتائبين تجربة، وللزاهدين سياسة، وللعارفين تكرمة».

ولكن بعض المتصوفين غالوا تعذيب الجسم لتهذيب الروح فكان منهم من لا يأكل في أربعين يوماً إلاَّ أكلة واحدة، وهذا أشبه بما يفعل اليوم زهَّاد الهنود، والإسلام يسر لا عسر، والفضيلة هي الطريق الوسط، وقد قال الرسول الكريم لرجل أكثر الصيام والقيام حتى غارت عيناه: «**إنَّ هذا الدِّين متين فأوغل فيه برفق، إنَّ المُنبتَّ[1] لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى**».

على أنَّ هؤلاء القوَّامين الصوَّامين قد انقرضوا فلم يعد مستقبل رمضان منهم أحد، إنما يستقبله اليوم أقوام بعد عهدهم عن الإسلام الصحيح فعادوا أشبه بذلك الأعرابيّ الذي أسلم في أول الإسلام ثم قدم على ابن عم له في بعض المدن قبل أن يذوق حلاوة الإيمان ويستشعر لباس التقوى ويستبطن حقيقة الدين فأدركه شهر رمضان، فقيل له: يا أبا عمرو: لقد أتاك شهر رمضان، فقال: وما شهر رمضان؟ قالوا: الإمساك عن الطعام. فقال: أبالليل أم بالنهار؟ قالوا: بالنهار. قال: أفيرضون بدلاً من هذا الشهر؟ قالوا: لا. قال: وإن لم أصم فعلوا ماذا؟ قالوا: تضرب وتحبس، فصام يوماً ثم لم يستطع، فتحول عنهم وجعل يقول:

يقول بنو عمي وقد زرت مصرهم
تهيَّأ أبا عمرو لشهر الصيام
فقلت لهم هاتوا جرابي ومِزْودي
سلام عليكم فامكثوا بسلام

(١) أي المنطق الذي لا يلوي على شيء.

وبــادرت أرضــاً ليــس فيهــا مسيطــر
علــــيَّ ولا منَّـــاعُ أكـــل طعــــام

نعم يستقبل رمضان اليوم أكثر الناس بعقلية هذا الأعرابي فيستقبلونه لا باعتباره ركناً من أركان الدين يقيمه من أقامه ويهدمه من هدمه، ولا باعتباره طهوراً للنفس ونوراً للقلب وجلاء للمشاعر، إنما يستقبلونه باعتباره تقليداً من التقاليد الموروثة وعيداً من الأعياد المقررة يُرخون لأنفسهم فيه الأَعِنَّة فيفتنون في اللذَّة ويندفقون في اللهو، ويقضون الليل على الموائد والنهار على الأسرَّة، وبين الإفراط في اللهو والأكل والنوم تضيع حكمة الإسلام من فريضة الصوم.

إنَّ رمضان اليوم أصبح ثلاثين عيداً للفطر لا ثلاثين يوماً للصوم، فهو لفـظ ضـاع معنـاه، واسـم فقـد مسمَّـاه، ورسـم محيـل[١] مـن رسـوم الفاطميين، تجد فيه المسابح في أيدي الرجال، والمصابح في أنامل الأطفال، والمآذن تتألَّق بالنور، والمنازل تتقلَّب في الأنس، والحوانيت ساهرة الليل والبيوت نائمة النهار؛ ولكنك لا تجد اليوم ما كنت تجده بالأمس من التقوى التي تعمر القلب والخشوع الذي يغمر المشاعر.

لا أزال أذكر رمضان القرية وأنا في الكتَّاب، كان كل شيء وكل شخص فيها لرمضان: فالنساء قبل الظهر يخبزن الفطائر للسحور، وقبل العصر يطهون الطعام للفطور، والرجال ينامون من بعد صلاة الفجر إلى متوع الضحى ثم يمشون الهوينى بين الحقول خاشعي الأبصار والأصوات

---

(١) أي أثر متغير من آثار الفاطميين.

لا يزيطون ولا يعيطون[١] ولا يسعى أحدهم بالأذى إلى أخيه، حتى إذا دنا الأصيل تجمَّعوا في المساجد أو على المصاطب يستمعون في سكون إلى موعظة أو قصة، فإذا دخلت الشمس في المِطْفل[٢] فرشوا الحصائر أمام بيوتهم وجلسوا عليها تحت الجدران وأمامهم الصواني موقرة بطيبات الرزق يدعون إليها عابري السبيل وطالبي الصدقة، ثم لا يلبث الإخاء المحض والقرابة الواشجة أن يجعلا الصواني المتعددة صينية واحدة يصيب منها من يشاء ما يشاء، ثم تدور عليهم فناجين القهوة كل ليلة من بيت، فإذا فرغوا من الطعام والشراب فضلوا أن يغسلوا أيديهم وأفواههم بالوضوء في المسجد، ثم يبدأون ليلهم بعد صلاة العشاء والتراويح، ثم ينصرفون إلى استماع القرآن واستقبال الإخوان ومسامرة ساذجة مشتركة تجمع أفناناً من شهي الحديث.

كان في كل بيت قارىء مجوِّد يقرأ القرآن، وساقٍ نشيط يوزع الحلوى، ومتكلم لبق يروي أحاديث المدينة وأخبار الأهرام وحوادث القرية، فكان الرجال بلحاهم المرسلة وعمائمهم الضخمة وزعابيطهم الفضفاضة ينتقلون من دار إلى دار، وينتقلون على الخشاف بالنقل والأسمار، وقد طووا أحناء صدورهم على مؤاخاة بعضهم لبعض في الله فلا تنافس ولا تحاسد.

وكلما انقضى نهار من رمضان تغضن سرار[٣] من وجوه القوم، حتى إذا لم يبق إلاَّ ربعه الأخير تمثلوه محتضراً يكابد غصص الموت فندبوه في

(١) أي لا يصيحون.
(٢) الطَّفل: غروب الشمس، والمطفل: موضع غروبها: «لسان العرب» ط ف ل.
(٣) السرار: الخطوط الثني في الجباه، والمعنى قطبوا جباههم حزناً.

البيوت والمساجد، ونعوه على الأسطح والمآذن، وبكوه يوم الجمعة اليتيمة[١] أحرَّ بكاء.

كذلك كان رمضان القرويين في زماننا الأول، كان وحده هو الباقي لهم من غفلات العيش ولحظات السعادة، فلما انتقلت إليهم عدوة المادية من مرضى المدينة انطفأت في قلوبهم التقوى، وفشا في شبابهم الإفطار، وأوشك رمضان أن يصبح غريباً في القرية كما أصبح غريباً في المدينة، ولا يدري إلاَّ الله ماذا تدخر مدنية المال ومادية العلم لهذه الروحية التي تتجلَّى في الصوم، ولهذه الغيرية التي تتمثَّل في الصائم[٢].

---

(١) أي آخر جمعة من رمضان.

(٢) مجلة «الأزهر»: المجلد ٣٤، الجزء ٧، رمضان سنة ١٣٨٢، ص ٧٥٨ ـ ٧٦٠.

رمضان الإسلام ورمضان المسلمين
للأستاذ محمد بخات

قال الأستاذ:

يخطىء خطأً فادحاً من يفسر الإسلام بالواقع السيِّء للمسلمين في القرن العشرين؛ لأن حقيقة هذا الدين تؤكد عكس هذا التفسير الخاطىء الذي ورد علينا بواسطة المستشرقين الذين كانوا ـ على العموم ـ وسيلة من وسائل الاستعمار والتبشير.

وإذا كان الحقيقة بنت البحث فسنجد ضالتنا المنشورة في استعراضنا لتاريخ الإسلام من مصادره الأصيلة التي تكمن فيها روائع الحضارة الإسلامية التي بَذَّت[1] كل حضارة سابقة أو لاحقة.

إن الجواب نجده بسهولة في السجل الخالد لتاريخ المسلمين لما كانوا يتصفون بالمثالية المتحققة والإيجابية الدافعة في كل لحظات حياتهم نتيجة تفهمهم لروح الإسلام، وبذلك كانوا منفذين لوسطية الإسلام التي تدعو لكل فضيلة.

هذه الوسطية التي جعلتهم مسلمين واقعين بالاقتناع إيجابيين باتباع تعاليم الإسلام التي كونت منهم الأمثلة الحية لإنسان الإسلام والنماذج الدالة على سواء السبيل، فهم الجديرون بقول الله:

---

(١) أي فاقت.

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[١].

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾[٢].

إذن فالتفسير الصحيح لتدهور المسلمين هو الإعراض عن المفاهيم الإسلامية الصميمة، والبعد عن روح الإسلام...

ولهذا فإننا نلاحظ أن من قواعد الإسلام ما لا تعمل عملها في المسلمين، إنهم يصلون ويحجون ويصومون ولكن يؤدون فقط صورة الصلاة وصورة الحج وصورة الصوم لا حقيقة هذه الفرائض الثلاث.

هذه الفرائض الثلاث شُرعت لتؤدي عن فهخم لروحها ومعرفة لأسرارها حتى تكون بحق وسائل الاتصال برب العالمين كما شاءت حكمته وأرادت شريعته.

لن نكون مغالين ونحن نستقبل شهر القرآن إذا قلنا بوجود رمضانين لا رمضان واحد من حيث المفهوم الصحيح وغير الصحيح لهذا الشهر العظيم:

رمضان الإسلام يطور الإنسان المتفهملمغازيهوالمتمعن في معانيه من حسن إلى أحسن.

ورمضان المسلمين يحل بين ظهرانيهم ليمضي بدون اهتمام به فلا يُقَوِّم أخلاقاً ولا يحسن أحوالاً.

رمضان الإسلام جعلت أيامه المعدودة للاغتنام في أفعال الخير التي

---

(١) سورة آل عمران: آية ١١٠.
(٢) سورة البقرة: آية ١٤٣.

هي من مميزات رمضان شهر الرحمة والمغفرة الجائزتين اللتين يفوز بهما كل مسلم صامه إيماناً واحتساباً.

رمضان الإسلام موسم للنفحات الربانية والتجليات الإلـهية التي يحظى بها من التمسها في مظانها واجتهد في سبيلها بلا كسل وبدون ملل اقتداء ببرنامج رسول الله الرمضانيّ عليه الصلاة والسلام.

هذا الموسم الكريم في هذ الشهر العظيم لا يجوز إضاعة لحظة من لحظاته فيما لا يفيد، بل يجب قضاؤه في أعمال البر الكثير الأنواع من قراءة الذكر الحكيم يتدبر وفهم عملاً بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[1].

إلى عيش في ظلال السيرة النبوية الذخيرة الإنسانية بدراسة عميقة تحفز إلى التأسي بصاحبها صلوات الله وسلامه عليه الذي كانت إرشاداته الهادفة وتوجيهاته الهادية وقاية من كل ضرر، وعلاجاً لكل مشكل تطبيقاً للقول القرآني: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾[2].

إلى فقه الدين لكي يعبد الله بعلم لا بجهل وحتى نذوق طعم الإيمان الفريد ونستشعر جماله المستحوذ على الفؤاد لينطبق علينا قول رسول الله: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**».

إلى مبادرة مستمرة لكل عمل في الطاعات لتغشانا رحمة الله وتحفنا أجنحة ملائكته رسل السلام الحافظين للمؤمنين.

---

(١) سورة النساء: آية ٨٢.
(٢) سورة الأحزاب: آية ٢١.

رمضان الإسلام مرحلة جديدة من عمر الإنسان للإقبال على طاعة الله والحياة في إنابة شاملة إليه كلها حسنات تقرب منه، فلا يقارف سيئات ويظل عزوفاً عن كل التفاهات ومعرضاً عن كل الانحرافات لأنه يؤدي الصيام الحقيقي لا الصيام الصوري كما تدعو إليه الآية الكريمة:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(١).

وتلك المرحلة يصل إليها من صام رمضان مؤمناً بأفضليته مقدراً لحقيقته التي توصله إلى درجة التقوى التي هي خير زاد فيحيا في شهر الصبر وفي غيره من شهور السنة مطيعاً للجليل، عاملاً بالتنزيل، قانعاً بالقليل، مستعداً ليوم الرحيل عاملاً بمبدأ «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» فهو لا يخشى إلاَّ الخالق الذي قال في وجوب خشيته: ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ﴾(٢).

رمضان الإسلام يهذب النفوس، ويطهر القلوب، ويحسن العادات، ويقوم الأخلاق، ويحث على العبادات، ويُعود الإخلاص في كل الأعمال والصدق في كل الأقوال، ويحدو صائميه ـ إن نشر المحبة بينهم ـ لتشملهم حقيقة الأخوة الصادقة التي تدعو إليها الآية التالي: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾(٣).

رمضان الإسلام تتجلى فيه معاني الحرية الحقة المنبثقة من المبادىء الإسلامية، فالمسلم فيه عبد لله لا عبد لهواه، يعيش في عبودية شرفية لله

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٣.
(٢) سورة المائدة: آية ٣.
(٣) سورة الحجرات: آية ١٠.

كلها تَطَلُّع إلى معالي الأمور وإعراض عن سفاسفها، وما دام على هذه الحال فهو كامل الإيمان سعيد في كل الأحيان.

وهذه السعادة المضمونة في ظلال التعاليم الإلـٰهية لا تتحقق إلاَّ لإنسان الإسلام الحر الذي تجعله حقيقة العبودية ينعم بحياة من الحرية الفريدة كلها لذة نفسية ونعمة روحية لا يعرف قدرها سوى من ذاق طعمها وتعمق في مغازيها وتفهم معانيها، ويرحم الله ابن خضرويه فقوله عن الحرية جميل، وكم هو مصيب فيه لأنه صادر عن عارف بالله عائش في حقيقة العبودية فهو القائل: «في الحرية تمام العبودية، وفي تحقيق العبودية تمام الحرية!».

ذلك قليل من كثير عن رمضان الإسلام الذي يودعه المسلم المحتفل به بالعبرات متمنياً لو كانت كل شهور السنة رمضانات.

ورمضان المسلمين تخصص له احتفالات كلها بدع، وتقام فيه مهرجانات جُلّها منكرات، فأوقاته تقضي فيما يغضب الرب في الاستماع إلى أنواع الطرب وقضاء الساعات في صنوف اللهو غير المباح، وإمضاء الليلي في سهرات كلها قيل وقال وإفساد للأحوال، وتبذير للأموال.

رمضان المسلمين موسم للمآكل المتنوعة الخاصة عندهم بشهر الصوم، فإن جاعوا طول يومهم عرضوا جوعهم بأكلات رمضانية في أوقات الإفطار والسحور إلى حد التخمة فيضيع منهم تحقيق الهدف من الحكمة النبوية الطبية القائلة: «**صوموا تصحوا**» فلا يستفيدون من صيامهم ألبتة، لأنهم بصومهم الصوريّ لا تتأكد لهم حِكم الصيام المقصودة، ولا تتحقق لهم أسراره المتجلية.

رمضان المسلمين لا يُعرف فيه معنى لروح المشاركة الوجدانية التي

هي من صفات المسلم الحق الذي يشارك أخاه في أفراحه ويواسيه في أتراحه، ثم إن مشاطرة المؤمن لأخيه سراءه وضراءه من نتائج الإيمان المستفادة من الحديث الشريف: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**».

ومجمل القول أن كل معاني الصوم المطلوبة للصائمين لا تتوفر إلَّا لدى المهتمين به، أما الذين انعدمت عندهم فليس لهم من صيام شهر رمضان إلَّا الجوع والعطش، وتلك أحوال كل مسلم يجهل ـ عن بخل على نفسه، أو يتجاهل عن تعمد غير معذور عليه ـ كل مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية.

ألهمنا الله السداد في أعمالنا، واجعلنا على الدوام من الذين هُدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد[1].

---

(١) مجلة «جوهر الإسلام»: السنة ٢، العدد الثالث، رمضان سنة ١٣٨٩، ص ٣٢ ـ ٣٥ بتصرف يسير.

رمضان بين الأمس واليوم

للدكتور محمد غلاب

قال الدكتور:

كان رمضان في ربيع الدعوة الإسلامية الباهرة ـ بما فيه من صوم حقيقي وعبادة مخلصة، وصفاء تام ـ عملاقاً نورانياً هائلاً يتحدى أرواح الشر وشياطين الإثم، ولا يزال يدعوهم إلى المنازلة حتى يشتبك معهم في حرب طاحنة يقضي عليهم فيها قضاءه الأخير، فلا يحل بالأمة الإسلامية شهر شوال حتى يكون جيش الآثام والسيئات قد انهزم هزيمة منكرة لا يسترد منها قوته إلَّا بعد لاي وعناء شديدين، ولا يكاد يستخدم هذه القوة الشريرة التي استردها حتى يباغته رمضان من جديد فيعيده إلى هزيمته الأولى أو إلى ما هو أشد منها نكراً ونكالاً.

ولم يكن رمضان يقتصر على ذلك الموقف السلبي بما اشتمل عليه من ألوان الكفاح المعنوي وعدده الروحية، وإعداد المؤمنين للانتصار على جيوش الإثم والفساد وتمزق كتائبها شر ممزق، وإنما يقوم بدور إيجابي فعال، وهو أن يقدم ـ بصفائه ونقائه ـ أعظم مأوى للقلوب الطاهرة، وأقوى ملجأ للعقول المتأملة في ملكوت السماوات

والأرض وما بينهما من آيات بينات، وعير نَيِّرات، ولا ريب أن هذه التأملات دائماً تنتهي بأولئك المؤمنين إلى نتيجة واحدة لا تختلف ولا تتخلف وهي اليقين بأن وجدان العالم الإسلامي يعتمد على الدين، وبأن الإيمان المستنير النقي المخلص هو الذي يكيف هذا الوجدان ويكون له بمثابة المنبع الذي تنبجس منه درجات سموه وسيره نحو الكمال.

هذا هو هدف الدعوة العظمى التي أشرقت على حنادس(١) العالم فأحالته نوراً وبهاء، وفاضت على كل ما كان يكتنفه من ضلال وشك فصيرته هدى ويقيناً، وانبثقت في وسط الهمجية المطبقة فجعلتها نظاماً وانسجاماً.

هذا هو الذي كان في عهد النبي ﷺ وخلفائه الأماجد رضوان الله عليهم أيام أن كان عشرة من المؤمنين يغلبون مائة من الأعداء الأقوياء، وعشرون يغلبون مائتين، لا لشيء سوى أن عقيدتهم كانت أرسخ من الطود، وإيمانهم أنقى من الثلج، وأنهم انصرفوا تماماً عن الاعتماد على أهل الأرض واتجهوا بكل كينونتهم نحو الواحد الأحد الذي يملك وحده دون غيره أن يعز من يشاء ويذل من يشاء.

كان هذا أيام فهم المسلمون دينهم حق الفهم وترفعوا بالتشريع الإلـٰهي الحكيم عن أن يفترض الصيام ليمنع الناس من تناول الطعام والشراب ردحاً من الزمن ينتهي كل يوم بغروب الشمس، فيعود بهم إلى

---

(١) ظلام.

إباحة ما حرمه عليهم منذ ساعات، أو أن يفرض الصلاة ليكره الناس على إتيان حركات رياضية معينة لا روح فيها ولا حياة، وليس وراءها هدف سام ولا غاية نبيلة.

ولقد ترفع المسلمون الأولون عن هذا السخف في الفهم وسموا بدينهم عن هذه الدَرَكة التي لا يقرها العقل المستقيم، ولا يستسيغها الذوق السليم فاستوحوا كتابهم، واستلهموا سنة نبيهم فألْفَوْا لديهما حكمة هذين الركنين من أركان الإسلام واضحة جلية؛ وهي أن الصلاة إنما شرعت لتحرج الآثم وتجلله بالخجل كلما وقف بين يدي ربه ملوثاً بالرذائل والسيئات، فلا يسعه إلاَّ العدول عنها ذهاباً بنفسه عن مواطن العار الذي يلحقه خمس مرات في اليوم والليلة، وإلاَّ لهوى في حضيض السخط الإلـهي لصفاقته وفقدانه معنى الحياء الإنساني، واستخفافه بتكرار مواجهة ذي القوة والجبروت متلبساً بالإثم، متشبثاً به، مصراً عليه، فينطبق عليه قول النبي الجليل: «**من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلاَّ بعداً**»، وإنما أيقنوا أن الله قد شرع الصوم لحكم خلقية واجتماعية شتى: منها أن يشعر الصائم بأن هناك سلطاناً قوياً يمنعه من لذائذه فيمتنع عنها حتى في الخفاء، فيحول ذلك الشعور بينه وبين الطغيان النفسي البغيض الذي هو أولى دركات الغرور المهلك.

فحدثني بربك ـ أيها القارىء ـ أمتحققة الآن من صيام المسلمين تلك الأهداف العالية التي قصد إليها الشارع والتي كانت متحققة في

صدر الإسلام بقَضّها وقضيضها[١]؟

فهل يعتبر الآن صائماً ذلك الذي يمتنع عن الطعام والشراب ثم يوغل في الكذب والخيانة والغدر والدس والمَلَق والرياء والغيبة والنميمة والغمز واللمز، وتتضاعف عنده شدة الغضب في رمضان، وتتعدد لديه أحداث التهور إلى حد لا عهد للناس به في غيره من الشهور، كأن رمضان شهر شر وغضب وحمق وجهل، لا شهر حلم وتسامح وسماحة وصفح وصفاء للنفس وتهذيب للخلق، كما قصد منه المشرع الحكيم.

وهل يعتبر من الصائمين هؤلاء الرؤساء الذين يحابون ويجورون، وأولئك الأثرياء وأصحاب الأعمال الذين يأكلون حقوق العمال بعد أن يستوفوا أعمالهم ويستنفدوا قواهم؟ وهؤلاء العمال الذين يتقاضون أجورهم ويلحفون في الزيد منها دون أن يؤدوا الأعمال بإتقان وإخلاص.

على أن الذي زاد الخطب فداحة والجو ظلاماً أن أذناب الاستعمار وسماسرته ـ الذين كان سادتهم من المحتلين في ذلك العهد المشئوم يعدون لهم ميزانية خاصة ينفقونها في إفساد عقائد الشباب وتربيتهم وعقولهم ـ قد نجحوا في النصف الأول من القرن العشرين في أن ينقشوا في أذهان أنصاف المثقفين من المواطنين أن أداء الفروض

---

(١) أصل القض والقضيض: الحجارة الصغار والكبار، ثم صار هذا التعبير يطلق على الشمول والاستغراق.

الدينية من صوم وصلاة وما إلى ذلك من التكاليف من شأنه أن يجلب إلى أصحابه الاستهانة والاستهزاء، ولقد خلقت هذه المحاولة الاستعمارية الخطيرة في نفوس الكثير من المسلمين عقدة نفسية كان من نتائجها أن دعتهم إلى التهاون في الشعائر الدينية التي هي مناط التماسك والترابط، وتلك هي الغاية الجهنمية التي رمى إليها المحتلون؛ لأنهم يعلمون تمام العلم أنه متى عم الاستهتار بالعقيدة، ساد الانحلال، ومتى ساد الانحلال إنهار الكيان من أساسه، ومتى انهار الكيان تثبتت أقدام الاحتلال.

ولقد تنبه إلى هذه الحقيقة فريق من المستشرقين الذين درسوا الإسلام دراسة عميقة وتبينوا مبادئه الأساسية وعناصره الأولية فأسروا إلى مواطنيهم أن الإسلام دين خطير؛ لأنه اشتمل على مبادىءَ يمكن أن تقيم الدنيا وتقعدها، وإذا تحقق تطبيقها ساد أهل هذا الدين الكرة الأرضية كلها، فمن هذه المبادىء مثلاً: الترابط والتماسك والاتحاد:

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[١]، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[٢].

ومنها الاستقامة والقناعة وحسن معاملة الجار وحب الخير للناس **«قل آمنت بالله ثم استقم»**.

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٠٣.
(٢) سورة الأنفال: آية ٤٦.

ومنها التعاون على الخير والتحذير من التعاون على الشر: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[١].

ومنها ذم الغيبة والنميمة والحسد والاعتداء والغمز واللمز والتنابز بالألقاب: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ﴾[٢]، ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[٣]. ، ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾[٤] **«إياكم والحسد، فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»**.

ومنها الصدق والأمانة والعدل والوفاء بالعهد، واستيفاء الأجير أجره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[٥]، ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾[٦]، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾[٧]، ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[٨]. **«قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره»**. «آية

---

(١) سورة المائدة: آية ٢.
(٢) سورة الحجرات: آية ١٢.
(٣) سورة الهمزة: آية ١.
(٤) سورة القلم: آية ١٠ ـ ١٢.
(٥) سورة التوبة: آية ١١٩.
(٦) سورة النساء: آية ٥٨.
(٧) سورة المائدة: آية ٨.
(٨) سورة الإسراء: آية ٣٤.

المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان، وإذا وعد أخلف».

وأيًّا ما كان فإن هذا الفريق الأخير من المستشرقين يعلق على هذه المبادىء القرآنية بعبارات مختلفة، مؤداها كلها أن المسلمين إذا عرفوا كتابهم حق المعرفة وطبقوه أكمل تطبيق فالويل كل الويل للاستعمار؛ إذ أنه لن تقوم له قائمة بعد الساعة التي تتم فيها هذه المعرفة، ويتحقق فيها ذلك التطبيق.

ومن ثم يتبين ذلك المجهود الذي يبذله المستعمرون في أن يبقى الإسلام مجهولاً، وأن تظل مبادئه مهجورة بعيدة عن التنفيذ.

غير أننا نأمل أن نفوت على المستعمرين وناصحيهم من بني جلدتهم هذه الفرصة الخطيرة حتى لا يظفروا بهذه البغية التي طالما عملوا لها في عصور الخمول والظلام. ونرجو أن تستيقظ الأمة الإسلامية من نومها الذي طال مداه، وأن تنفض عن كواهلها غبار الركود، وأن تتخلص من مركب النقص الذي طالما أرهق نفوس الكثيرين من بنيها، وهصر قلوبهم وسوَّل لهم أن مناصرة الدين نوع من التأخر، وتأييده لون من الرجعية، وأن يتحرر منذ الآن أولئك الضعفاء الذين يضطربون فَرَقاً[1] أمام المتحللين من دينهم وأخلاقهم فيجارونهم في التحلل، بل يسبقونهم إليه، وما أساس هذا كله سوى الجهل وضعف النفسية والجبن والانمياع.

---

(١) خوفاً.

وأخيراً ـ وإلى أن يتحقق هذا الاستيقاظ المرموق ـ هل ينبغي الصمت بإزاء هذا كله حتى نهوي أكثر مما هوينا، ونتقهقر إلى الوراء أكثر مما تقهقرنا؟ وأن نبقى كما نحن معتمدين على أن الله غفور رحيم، ناسين أو متناسين أن عذابه هو العذاب الأليم؟ وأن نظل مكتفين بالقشور دون اللباب كأننا لسنا من ذوي الألباب؟ قانعين من الشعائر بالأعراض والأشباح دون الجواهر والأرواح؟ كلا، لا ينبغي أن نُغْضي عن هذه الحالة ولا أن نمد في عمر هذا النوم الذي طال مداه، ولا أن نتابع ذلك الخمول الذي اشتد ظلامه، وران على قلوب المسلمين قتامه، بل يجب أن ينهض الإسلام بالعالم من جديد كما نهض به منذ أربعة عشر قرناً، فالنفوس معدة، والقلوب مستعدة، إذ أننا الآن نحيا في عالم قد أصبح ـ بسبب هذه المدنية المادية التي تسوده وتقوده ـ يسخر من المبادىء ويهزأ بالفضائل، ولا يمجد إلاَّ حكم القوة، وأمست مقاييسه محصورة في النجاح ولو على حساب الفضائل والأخلاق، وأوشكت القيم الخلقية فيه أن تنهار، وأضحت مقدسات الإنسانية معرضة للإهانة والدوس بالأقدام.

ولما كان خروج كل شيء عن حده يؤذن بالانقلاب إلى ضده فإنه لا بد أن تبدأ هذه المادية البغيضة في الانهيار، وتصير الكلمة الأخيرة الحاسمة للروحية المشرقة.

نعم إن كثيراً من المعاصرين الذين بهرتهم هذه المدنية المادية يبسمون سخرية من هذا الرأي، ذلك لأنهم اعتادوا على أن يرجعوا كل عمل إنساني إلى بواعث نفعية وغايات شخصية ومع ذلك فإنه ـ رغم

مبادئهم المادية ـ لا ينبغي لهم سوى قليل من الشجاعة وحسن النية، لكي يعترفوا معنا بأن الفضائل ليست منسجمة مع التعاليم الدينية، والفطرة الإنسانية المستقيمة فحسب بل هي متفقة مع الضرورات الأولية لجميع المشروعات الاجتماعية الأساسية في الحياة؛ وذلك لأنه إذا كان تعريف الفضيلة هو «كل ما لو عَمّ لأصلح الحياة» وتعريف الرذيلة هو «كل ما لو عَمَّ لأفسد الحياة» فقد وجب الجزم بأن من المستحيل إقامة بناء أي مشروع متين ثابت مفيد للإنسانية دون أن يؤسس على دعائم الفضيلة والأخلاق، كما أن من أسباب الفشل الجوهرية أن ينسى وُضاع المشروعات الاجتماعية أن البشرية إذا لم تكن كلها متمتعة بحياة عقلية، فإنها جميعها مفتقرة إلى حياة روحية ترشدها أثناء اجتيازها دياجير[1] الوجود، ومحتاجة ـ في تنظيم معاشها وعلائقها ـ إلى قواعد ثابتة، ومناهج مقررة تسد حاجاتها وتحقق سعادتها ولا يتيسر هذا إلاَّ في قوانين الأخلاق الخالدة، وتعاليم الدين الحكيم الذي هبط من لدن المستغني الذي لا يناله شيء، لأنه فوق كل شيء، وإنما شرع ما شرع لنفع الإنسانية، وإسعادها وتطهيرها ومنحها النصيبَ الميسور لها من درجات الكمال.

وإذا كان كل ذلك ثابتاً مقرراً فإن الإسلام يجب أن يتزعم الآن ثورة التجديديْن الخلقيّ والاجتماعيّ كما تزعم من قبل ثورة التوحيد النقي الذي قلب كيان الوثنية رأساً على عقب، وأن ينهض بهذه الأمة

(١) ظلمات.

من كبوتها ويقيلها من عثرتها، وهذا أعون عليه؛ فقد خلق الإسلام قبل ذلك من الفوضى والهمجية والجهل أمة عز سلطانها، وعلا صولجانها ورفرفت أعلامها، وتغلغلت تعاليمها وسادت قوانينها رقعة من الكرة الأرضية بعيدة المدى، مترامية الأطراف، والسبب الأول والأخير لهذه العزة العظمى هو فهم المسلمين دينهم على حقيقته، وتطبيقهم روحه دون الاكتفاء بحرفيته، والعمل على تحقيق هدفه وغايته، وهذا هو ما نريد أن يكون عليه المسلمون حتى لا تفوقهم القافلة التي نرجو لهم أن يكونوا قادتها الأولين[١].

(١) مجلة «الأزهر»: المجلد ٣١، الجزء ٩، رمضان سنة ١٣٨١، ص ١٠٩٣ ــ ١٠٩٧.

تأديب المفطرين

للأستاذ علي الجندي

قال الأستاذ:

هناك أسباب مسوغة للإفطار فصلها الفقهاء في مظانها[١]، لأن الدين يسر لا عسر، وصحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان، كما تقضي الأحكام الشرعية.

ولكن مما يملأ النفس أسى ولوعة أن نرى بعض الشباب القوي المملوء صحة وعافية، القادر على الصوم يفطر جهاراً نهاراً بلا حياء ولا خجل في شهر رمضان، ويتحدى الصائمين المخبتين، ينفث الدخان في وجوههم بالأماكن الضيقة، وفي المجالس والسيارات الحافلة! فكأنه لا يكفيهم أن يظهروا في صورة الخارج على الدين، الفاسق عن أمر ربه حتى يضموا إلى ذلك التجرد من الحياء، والتخلق بأخلاق المجان والخلفاء! السادرين في الغواية والضلال! وليتهم إذ أفطروا تستروا على أنفسهم تصوناً من القِحة والسفه، عملاً بالأثر: «رحم الله امرأ ذب الغيبة عن نفسه».

ومثل هذا قل في بعض الشواب اللاتي يزدن على ذلك التبرجَ

---

(١) أي في أماكنها التي يُظن وجودها فيها.

المقيت في المعارض القصيرة المبتذلة، الكاشفة عن الظهور والبطون، والسيقان بل وبعض الأفخاذ!

وقد كان أبناء الأديان الأخرى في الزمن السالف وإلى وقت قريب يوقرون شعور إخوانهم المسلمين، فلا يطعمون ولا يشربون أمامهم!

ويروي بعض المؤرخين: أن أحد المجوس رأى ابنه يأكل في رمضان فضربه، وقال له: هلا حفظت حرمة المسلمين في رمضان؟!

وبعض هؤلاء كان يصوم رمضان بالفعل، كالأديب العظيم أبي إسحاق الصابي مجاملة للمسلمين، كما كان يحفظ القرآن أحسن حفظ!

ولم يتطرق الانحلال إلى هذه العادة النبيلة إلَّا بعد أن رأى غيرُ المسلمين أن المسلمين أنفسهم، لا يرعون حرمة الصيام! فكيف يرجون لهم وقاراً؟! وصدق الشاعر حيث يقول:

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها
هواناً بها كانت على الناس أهونا

ولم يكن أسلافنا رضوان الله عليهم يسكتون عن مثل هذه الجرأة الصارخة على انتهاك رمضان!

يحدث الكلبي عن عوانه: قال خرج النجاشي الشاعر في أول يوم من شهر رمضان، فمر بأبي سمال الأسدي ـ وهو قاعد بفناء داره ـ فقال له: أين تريد؟ قال: أردت الكناسة[(١)].

قال: هل لك في رؤوس وأَلَيَات[(٢)] قد وضعت في التنور من أول

(١) قال الأستاذ: الكُناسة: بضم الكاف: موضع بالكوفة.

(٢) قال الأستاذ: الأليات: بفتح الهمزة واللام والياء ـ جمع أَلْيه ـ بفتح فسكون ـ وهو العجيزة، أو ما حمل العجز من لحم وشحم، ولا تقل: إلية ـ بكسر الهمزة ـ ولا لية. =

الليل، فأصبحت قد أينعت وتهرأت!

قال: ويحك! أفي أول يوم من رمضان؟

قال: دعنا مما لا نعرف!

قال: مه!

قال: أسقيك شراباً كالوَرْس[١]، يطيب النفس، ويجري في العرق، ويزيد في الطَرْق[٢]، ويهضم الطعام، ويسهل للقَدْم[٣] الكلام.

فنزل فتغديا! ثم أتاه بنبيذ فشربا!

فلما كان آخر النهار، فضحهما الله تعالى فعلت أصواتهما.

وكان لهما جار من شيعة الإمام علي كرَّم الله وجهه فأتاه بخبرهما.

فأرسل الإمام إليهما قوماً أحاطوا بالدار، فأما أبو سمال فوثب على دار من دور بني أسد فأفلت! وأُخذ النجاشيّ.

وفي الصباح أقامه الإمام في سراويل، وضربه ثمانين سوطاً ثم زاده عشرين.

ونقل ابن حزم: أنه أحضره ثاني يوم، وجلده عشرين سوطاً.

فقال النجاشي: يا أمير المؤمنين: أما الحد فقد عرفته، فما هذه العلاوة ـ يعني العشرين ـ؟

---

(١) قال الأستاذ: الوَرْس: ـ كورد ـ: نبات كالسمسم لا يزرع إلاَّ باليمن، تصبغ به الثياب، ومنه ثوب مُوَرَّس ـ بالتشديد ـ.

(٢) قال الأستاذ: الطرْق ـ كفرق ـ: الوقاع.

(٣) قال الأستاذ: القَدْم: العيـي عن الكلام في ثقل ورخاوة وقلة فهم، والأحمق الغليظ المجافي.

فقال الإمام: لجرأتك على الله، وإفطارك في شهر رمضان.

ثم أقامه في سراويل للناس فجعل الصبيان يصيحون به: خزى النجاشيّ! خزى النجاشيّ!

وأتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه برجل شرب الخمر في رمضان فلما رفع إليه عثر الرجل، فقال عمر: على وجهك ويحك! وصبياننا صيام! ثم أمر به فضرب ثمانين سوطاً، ثم سيره إلى الشام.

وكان رضي الله عنه إذا غضب على إنسان سيره إلى الشام.

وفي عهد الملك الكامل الأيوبي، كان يأمر في رمضان بأغلاق محلات الخمور في القاهرة، وجميع أنحاء البلاد، وإغلاق المطاعم والمقاهي نهاراً، وإمساك البغايا والقيان!

وكان يذيع هذا النداء: يا أهل مصر، قد أظلكم شهر مبارك، مَن لم يصمه بغير عذر شرعي فقد باء بغضب الله عليه واستحق أشد أنواع العقاب، واستهدف لغضبنا عليه وإنزال أشد عقوبتنا به.

وكان عند ثبوت الرؤية ينزل بنفسه في أول يوم من رمضان لمباشرة الأسواق! وتفقد أحوال الرعية، فإذا صادف مفطراً، وتبين أنه أفطر تهاوناً بحرمة الشهر أمر بطرحه، وضربه ضرباً مبرحاً.

وقد نص العلماء: على أن المفطر عمداً من غير عذر مع اعترافه بأن الصوم فرض حكمه أن يحبس حتى يتوب ويظهر من آثار التوبة ما يعرف عنه: أن توبته توبة نصوح.

ونصو كذلك: على أن المصر على ترك الصوم يقتل، وإن كان مَنَعَتُه[١] لا يسلمونه للحبس يقاتلون، كما في ترك الصلاة.

---

(١) قال الأستاذ: مَنَعة الرجل ـ بفتح الميم والنون والعين: عشيرته.

ولو أكل عمداً شهرة بلا عذر يقتل.

قال الشرنباليّ: «تعمد من لا عذر له الأكل جهاراً يقتل، لأنه مستهزىء بالدين أو منكر لما ثبت منه بالضرورة، ولا خلاف في حل قتله والأمر به»، «كما جاء في شرح الدر على المذهب الحنفيّ».

ويقول الصفوري من الشافعية: لو امتنع إنسان من الصوم لغير حاجة حبس ومنع من المفطرات.

وكان سعيد بن المسيب يوجب في قضاء رمضان صوم شهر عن كل يوم ونقل عن الأوزاعيّ الشام أنه يجب في قضاء رمضان ثلاثة آلاف يوم.

وهذا كله من التغليظ على منتهك حرمة هذا الشهر الكريم بلا مقتض، وإلاَّ فالكفارة الشرعية على من له عذر معروفة.

والحق أنه مع ضعف الوازع الدينيّ في العصور المتأخرة، ومجاهرة بعض الناس بالإفطار صفاقةً ووقاحة، وهم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ «**كل أمتي معافى إلاَّ المجاهرين**»، الحق أنه مع ذلك لا يزال كثير من العامة يعد الصيام أهم فرائض الدين، فتراه يترك الصلاة كلها أو بعضها، أو يؤديها في غير وقتها، ولكنه لا يفرط في صيام رمضان!

بل منهم من يترك نفسه ترعى حيث تحب، وترتع كما تشاء، حتى إذا بزغ هلال رمضان انقلب من شيطان رجيم، إلى ملك كريم! وأقبل على العبادة بنفس لوامة.

والله المرجو أن يديمه على طريق الهداية والرشاد، فلا يعود إلى مآل لذاته، ومعاهد شهواته.

ولا نزال نسمع في القرى وفي رمضان بعض الأحياء من المدن

صبياناً يصيحون هذه الصيحة المدوية الزاجرة، التي تقرع أسماء المفطرين بغير حق:

يا فاطر رمضان يا خاسر دينك
كلبتنا السودة تقطع مصارينك

والحق أيضاً: أن صيام رمضان المفروض على المسلمين لا يعد صياماً قاسياً ولا ضاراً، بل ولا يوصف: بأنه شاق! لأن المنان الرحمن لا يكلف عباده ما لا يطيقون!

وقد دلت النظريات الطبية على أن الجوع الذي يحس الصائم به إذا كان وقت طعامه المعتاد إنما هو جوع كاذب أو محتمل سببه العادة؛ لأن المعدة ألف أن يلقى إليها بالطعام في هذا الوقت! ولهذا لا نسمع صوت المعدة ولا نحس وجودها إذا احتضرنا الهم، أو شغلتنا الشواغل، واضطرابنا في خِضَم الحياة.

وهناك ما هو أدل على أن جوع الصائم مرده أكثر ما يرد إلى حكم العادة أننا لا نشعر بلذع الجوع إلاَّ في الأيام الأولى من رمضان، حتى إذا مضت منه أيام، مَرَّنا على الصوم، وألفناه وحمدنا، وسكنا إليه، وأصبح هو القاعدة، فإذا ما نقضى رمضان وعدنا إلى عاداتنا المعهودة من قبل وجدنا في أنفسنا انقباضاً عن الطعام والشراب، وأحسسنا أن الفطر الفطر ثقيل ومتعب ومضيع للوقت.

وأذكر أنني التقيت مرة بالصديق التقي الورع خادم القرآن، المرحوم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، فعرفت أنه يصوم صيام داود عليه السلام فقلت له: وهل تستطيع أن تقوم بهذه الأعمال الفكرية الشاقة مع هذا الصوم المتواصل؟

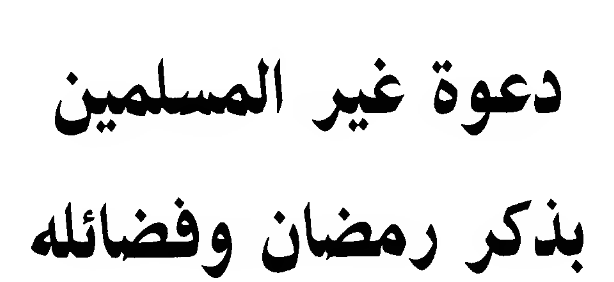
فكان جوابه: لولا هذا الصيام لم أستطع أن أقوم بأي عمل، وإن هذه الأعمال من ثمرات هذا الصيام!

هذا هو الحق لا شك فيه، فليس لهؤلاء الشبان الأقوياء العتاة عذر في الإفطار، وحتى لو كان لبعضهم عذر؛ لكان من الحياء والتذمم، والبعد عن الشبهات أن يعملوا بالأثر الشريف: «**إذا بليتم فاستتروا**».

والله ولي التوفيق، والهادي إلى أقوم طريق[1].

---

(١) مجلة «الوعي الإسلامي» السنة ٤، العدد ٤٥، رمضان سنة ١٣٨٨، ص ٥٢ ـ ٥٥.



دعوة غير المسلمين
بذكر رمضان وفضائله

حديث رمضان

للأستاذ علي الطنطاوي

قال الأستاذ[١]:

«أهديه إلى روح شاعر الروح، وأديب الشرق محمد إقبال».

صدقوني أني لم أجد أشق علي من هذا الحديث.

كيف أشق بصوتي عجيج المعامل، وضجيج المصافق[٢]، وصياح الملاهي والحانات؟

كيف أخاطب الروح من لا يعيش إلاَّ للجسد، وأحدث حديث الآخرة من لا يؤمن إلاَّ بالدنيا؟ كيف يذكر أنه جاء من التراب، وسيعود إلى التراب، مَن نَقَر الصخر، ونقل البحر، وخرق الأرض، وركب الهواء، وفجر الذرة، وأنطق الجماد فامتلأ كبراً وغروراً حتى نسي من خلقه فقال: أنا ربكم الأعلى؟!

ومن جعل من الحديد والنحاس آلات لها لسان، فيه أجلى البيان،

---

(١) هذا الحديث أذاعه الأستاذ علي الطنطاوي من إذاعة صوت أمريكا.
(٢) قال الأستاذ الطنطاوي: أعني البورصات.

وأذنان تسمعان، ما لا تسمع الآذان، وعقل يحسب ما يعجز عن حسابه عقل الإنسان؟

نعم، إنكم تستطيعون أن تصنعوا من المادة تمثالاً على صورة الحبيبة، له لونها ولينها، وله رائحتها وحرارتها، وأن تلمسوه بأيديكم، وتسمعوا معه صوتها من الراد، وتروا صورتها في الرائي[1]، فتشغلوا حواسكم الثلاث بها، ولسانكم بمناجاتها، وعقلكم بتصورها، ولكن هل يغنيكم ذلك عن جسدها النابض بالحياة؟ هل تجدون في ذلك لذة الوصال؟ كلا، إنكم صنعتم الجسد، ولكنه كان جسداً بلا روح، وكذلك كانت حضارتكم.

لقد ملكتم عالم المادة، ولكنكم خسرتم عالم الروح تقولون: ما عالم الروح؟

أما قمتم مرة في هدأة الليل فتأملتم صفاء السماء ولمعة النجم، فأحسستم في قلوبكم بعظمة السكون؟

أما سمعتم مرة نغمة عذبة تسرى في جنبات الليل سريان الصحة في الأجسام، فحملتكم نبراتها إلى أودية الأحلام؟

أما قرأتم مرة قصة فوجدتم لما ختمتموها أنكم فقدتم شيئاً، وأحسستم في نفوسكم فراغاً، وأنكم هبطتم من الفضاء الواسع إلى أرض الواقع؟

---

(١) قال الطنطاوي: أعني التلفزيون ـ اصطلاح على طريق المجاز المرسل ـ أما الراد فقد وضعتها للراديو واستعملها الناس.

أما تركتم مرة زحمة الناس وضجة الحياة، ودخلتم بيتاً من بيوت الله ساكناً، فشعرتم بهوان الدنيا، وصغر الأرض، في جنب الله الجبار، ووجدتم حلاوة الإيمان ولذة الاستغراق في العبادة.

هذه لمحات من عالم الروح.

وما لمعات العبقرية المبدعة إلاَّ لمحات أخرى: يد تستطيع أن تحرك الستار، فتبدو من خلاله خطفات من مشاهد ذلك العالم تظهر في اللحن الخالد أو القصة أو القصيدة أو في هجمة ذهن جبار على الشاطىء القريب من بحار المجهول.

ولكنكم حبستم نفوسكم من كثافة المادة في غار مغلق فلا ترون من بياض النهار إلاَّ هذه الومضات تلمع من شقوق الصخر ثم تختفي.

إنكم غارقون في لُج المادة، فمن أين يتنفس الغريق في البحر نسمات الأسحار؟

إنكم تركضون في حلقة مفرغة، تسيرون سير السواني، تفيقون فتسرعون إلى الطعام تبتلعونه ابتلاعاً، والجريدة تلتهمونها التهاماً، فإذا لبستم ثيابكم أسرعتم إلى العمل فانغمستم فيه، فإذا كان الظهر عدتم مسرعين إلى الدار فأكلتم وأسرعتم إلى الخروج، ثم عدتم مسرعين إلى المنام.

ثم بدأتم من غد من حيث أنهيتم اليوم! ركضٌ أبداً، وإسراع دائماً، ولا تعرفون إلى أين المسير!

قد غفلتم عن جمال الطبيعة من حولكم، فأنتم تقطعون أجمل مراحل الطريق مرحلة السَحَر وأنتم نيام، لا تقفون على الروض تجتلون جمال الروض، ولا ترفعون أبصاركم إلى السماء، تفكرون في عظمة السماء، وغفلتم عن نفوسكم فلا تخلون بها ساعة كل يوم تسألونها. وتتعرفون أسرارها، وتغوصون على جواهرها.

حياتكم كلها سرعة وسباق! سباق في الخير والشر، إسراع إلى الشر والخير.

تسابقتم في قطع المسافات، فصرنا نطير من دمشق إلى بغداد في ثلاث ساعات، وكنا نبلغها في ثلاثة أشهر، فهل ربحنا؟ ربحنا الزمن، ولكن خسرنا العواطف والشعور، وكان الطريق يثير في نفوسنا ألف عاطفة، ويبقى فيها ألف ذكرى، تعيش بها دهراً، فصرنا نقطعه في غمضة واحدة!

وتسابقتم في العلم والفن، وفي القتل والتخريب، تهدمون في ساعة، ما تبنونه في سنين، فعل الأطفال والمجرمين والمجانين!

وها أنتم هؤلاء تتسابقون، أيكم يكون أسرع إلى إهلاك البشر، بحرب شيطانية مدمرة لا تبقي ولا تذر؟ فمتى يستريح هذا الركب المجنون، الراكض المسرع، الذي يقفز كأنه يدوس على ظهور العقارب، ويجري كأن شياطين الجحيم جميعاً تطارده؟

متى يسأل نفسه: ما الغاية، وما المصير؟

متى يقف لينظر إلى أين بلغ، وإلى أين المسير؟

أين يلقى المحطة في هذا السفر الطويل الذي لا غاية له، ولا أول ولا نهاية في رمضان!

في رمضان يا أيها القارىء.

هذه هي المحطة التي أقامها الإسلام في طريق البشرية لتقف عليها وقفة كل عام، تفرغ فيها من هم البطن، وهو ما تحت البطن ليسأل كل نفسه: من أنا؟ من أين جئت وإلى أين المصير؟

من أنا؟ أنا خط طويل، أقله في النور، وسائره في الظلام.

لقد كنت قبل أن أعرف نفسي، وسأبقى بعد ما يذهب عقلي وحسي، ولو حُق لي أن أنكر مصيري بعد الموت لأني لا أراه لحق لي أن أنكر ماضي قبل الولادة لأني ما رأيته.

وما أحوج أبناء هذه الحضارة اليوم إلى مثل هذه المحطة في طريق الحياة!

ما أحوجكم إلى من يذكركم بأن في الوجود ربًّا، وأن بعد الدنيا آخرة، وأن الله ما خلق الناس عبثاً، ولا تركهم سدى.

إنكم أغنى منا مالاً، وأقوى قوة، وأكثر عمراناً، وأعرف منا بأسرار المادة وسنن الكون، ولكنا أغنى منكم بكنوز الروحيات، فتعالوا خذوا منا، فإن الإنسان قد عاش بلا علم ولا مال، ولكنه لا يعيش بلا روح.

ولقد جعل الإسلام الصلوات الخمس كل يوم، لتعود الروح في

هذه اللحظات إلى عالم الروح، وجعل الصيام شهراً في العام لينطلق الإنسان من إسار المادة شهراً في العام، ويحس اللذائذ العليا ويتصل بالله، لذاك كان رمضان.

فيا من لهم رمضان لا تظنوا رمضان شهر جوع وعطش، إن رمضان شهر صفاء وحب وتأمل وترفع عن المادة وأوضارها، وعن شهوات النفس وأوزارها، وإعراض عن مشاهد الطريق للتفكر في غاية الطريق.

ويا من ليس لهم رمضان اجعلوا لنفوسكم رمضان مثلنا تعودون فيه إلى نفوسكم التي نسيتموها وإلى إنسانيتكم وإلى ربكم.

ويا أيها القراء من إخواننا العرب في العالم الجديد ترجموا هذا الكلام لإخوانكم الأميركان ليعرفوا ما هو رمضان[١].

---

(١) مجلة «الرسالة»: العدد ٩٨٨، السنة ٢٠، ١٦، رمضان سنة ١٣٧١.

رمضان والتاريخ

مُسحِّر رمضان والسحور بمكة
للأستاذ أحمد عبد الغفور عطار(١)

قال الأستاذ:

كانوا يقولون في مكة المكرمة ـ حرسها الله ـ وفي مدن الحجاز الأخرى المُسَحِّر ـ بصيغة اسم الفاعل ـ وفي مصر: المُسَحِّراتي، ويجوز أن يقال مثل ذلك في أقطار العروبة، ويقصدون بالمسحر أو المسحراتي: الرجل الذي يطوف بالبيوت في المدن والقرى في ليالي رمضان في موعد السحور يوقظ النائمين ليتناولوا السحور، وهو الطعام الذي يأكلونه قبيل الفجر ثم يمسكون عن كل طعام وشراب حتى تغرب الشمس.

وكان لكل حي بمكة المكرمة مسحره، فإذا كان الحي كبيراً مثل حي المسْفلة كان له غير واحد من المسحرين.

---

(١) أحمد بن عبد الغفور عطار، مفكر، باحث، أديب إسلامي كبير صاحب مصنفات كثيرة، ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٣٧، ودرس في كلية الآداب بجامعة القاهرة لكنه لم يكمل دراسته، أسس جريدة عكاظ سنة ١٣٧٩ وتولى رئاسة تحريرها مرتين، كما أصدر في مكة مجلة كلمة الحق سنة ١٣٨٧ لكنها توقفت، نال جائزة الدولة التقديرية في الأدب سنة ١٤٠٥ وأهدى مكتبته قبل وفاته إلى مكتبة الحرم المكي الشريف وكانت تحوي خمسة وعشرين ألف مجلد، توفي سنة ١٤١١ رحمه الله تعالى. انظر «تتمة الأعلام»: ١/ ٤١ ـ ٤٤.

وكان المسحر يعرف أسماء أرباب الأسر وأسماء أطفال الأسرة الكبيرة الموسرة المشهورة، وينادي رب كل أسرة باسمه أو كنيته، وما كان في عصر أبـي وأيامنا الأولى أحد ينادي الآخر بلقبه، بل كان أدب اللياقة في المجتمع كله يقضي بألا يُنادَى أحدٌ باسمه مجرداً، بل لا بد أن يسبق الاسم عند النداء بألقاب التشريف والتكريم أو بالكنية التي تُشعِر بالمديح.

وكان المسحر ينادي الناس بكناهم أو بها وبالأسماء مسبوقة بلقب كريم، ولا يقتصر الأمر على النداء، وإنما يتغنى المسحر باسم المنادى وكنيته ولقبه، مضفياً في غنائه على المنادى صفات حميدة كريمة.

ولم يكن المسحر يغفل الأطفال، بل كان يحتفي بهم، ويذكرهم بأسمائهم موصوفة بما يسرهم ويسر والديهم، ويجيبونه بأنهم صحوا للسحور.

ومما أذكره من أناشيد المسحر الذي كان يوقظ أبـي قوله: يا بو الحسنين يا شيخ عبد الغفور عطار يا اللي بيتك كله عطر وأنوار إصْح يا نايم، واذكر ربك الدائم.

وقصد المسحر بالكنية «يا بو الحسنين» أن لأبـي ابنين أكبر أبنائه هما: الحسن والحسين، ولم يكن يقتصر على هذا «التسحير» بل يقول من الكلم الطيب ما يعنُّ له، ويبدأ في التهنئة بصوته الجميل منذ ليلة السابع والعشرين.

ويحمل المسحر طبلاً يقرعه فيساوق غناءه صوتُ طبله، ومنذ نهار

السابع والعشرين وما يبقى من ليالي رمضان وأنهره يجمع «العيدية» من الناس، إما أن يراجعهم في أماكن أعمالهم أو بيوتهم، يعطيه كل بيت بحسب قدرته المالية ومكانته الاجتماعية، كما كان بعض الناس يعطيه زكاة الفطر قبيل فجر يوم العيد.

وأذكر المسحر في أواخر عهد الشريف الملك الحسين بن علي ملك الحجاز الأسبق وكنت طفلاً صغيراً، كما أذكره في أوائل حكم الملك عبد العزيز آل سعود بعد افتتاحه الحجاز، وبقي التسحير حتى سنة ١٣٦٠هـ في الشارع الذي كنت أسكنه بحينا حيِّ المِسْفلة، ثم لم أعد أسمع المسحر.

ولم تمنعه السلطة أو هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع أنها كانت تمنع الطبل إلاَّ طبل المسحرين فقد سكتت عنه، وأخذ المسحرون يختفون من أحيائهم بالتدريج حتى كان مُسحِّرو حي المسفلة آخرهم اختفاء، وكان سببه الموت؛ إذ كانوا من الشيوخ.

وكان من الناس في مكة والمدينة ـ حرسهما الله ـ وفي مدن الحجاز من يؤخرون السحور إلى أن يزاحموا به ما قبيل الفجر بقليل تأسياً بصحابة رسول الله ﷺ.

في صحيح الإمام البخاري رحمه الله عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: «**كنت أتسَحَّر في أهلي ثم تكون سرعتي أن أدرك السجود مع رسول الله ﷺ**».

ولا يكادون يؤخرون السحور بَتَّةً عن وقت الإمساك الرسمي الذي

يسبق أذان الفجر بعشر دقائق، بل ينتهون من السحور قبل مدفع الإمساك بدقائق أو معه، ومن يأخذه النوم إلى وقت الإمساك تناول بعض الطعام بسرعة وبادر إلى الماء ثم يمسك، وممن يأخذهم النوم فلا يصحو للسحور يصوم بلا سحور.

وينتظر أكثر المتسحرين أذان الفجر ليؤدوا صلاته جماعة إما في بيوتهم أو في مساجد الحي أو في المسجد الحرام، ثم يعودون إلى النوم حتى يحين وقت الخروج إلى العمل.

وكان أهل مكة المكرمة يحرصون على أداء صلواتهم بالمسجد الحرام وبخاصة صلاة الفجر في رمضان أو أيام الجُمَع إلى ما قبل توسعة مكة.

أما في هذه الأيام ـ أي بعد التوسعة ـ فلا يقصد أهل مكة جميعاً كما كانوا، لأن شرطة المرور يشتدون مع الراغبين في الصلاة بين يدي الكعبة المشرفة، ولا يسمحون لهم بوقف سياراتهم حوالي الحرم الشريف، بل كثير من الناس يعدلون عن أداء صلاة الجمعة فيه للسبب نفسه، وما أكثر ما حُرِمْتُ هذه الفضيلة في هذه الأيام، فأنا منذ العاشرة من عمري كنت أصلي في المسجد الحرام أكثر صلواتي، وكان لداتي[1] مثلي.

ومنذ أن أسرفنا في إدخال السيارات إلى مكة، ووسعنا الحرم نفسه وهُدِّمت آلاف البيوت بوسط مكة بسبب توسعتها وقسوة رجال المرور

(١) أي أقراني.

انقطع الآلاف عن الحرم اكتفاء بمساجد الأحياء، وكنت من هؤلاء.

وذات مرة في شهر شعبان من سنتنا هذه (سنة ١٤٠١هـ) بلغ الحنين والشوق لصلاة الفجر بالحرم الشريف فنزلت بفندق يبعد عنه خطوات حتى حققت مأملي.

وأما السحور فكان أهل مكة جميعاً يُعْنَوْنَ به فيعدِّدون ألوانه، فتحوي مائدته لحماً وأرزاً وخبزاً وخضراوات وفاكهة وحلوى، وكنا نسرف في اختزان الطعام والماء حتى نستطيع مقاومة الجوع والعطش[1].

---

(١) «من نفحات رمضان»: ٢٢٨ ـ ٢٣٢.

رمضان في مكة المكرمة

للأستاذ أحمد عبد الغفور عطار

قال الأستاذ:

كل أتباع الديانات المعاصرة كاليهودية والمسيحية يصومون كما نصوم نحن المسلمون، وإن كان صيامنا مختلفاً عن صيام الآخرين.

ولا يُرى أي أثر في صيام غير المسلمين على المجتمع، فأيام الصيام وغيرها سواء عندهم، أما في مجتمع الإسلام فأثر الصيام بارز فيه، فلا ترى في النهار مطاعم ومقاهي مفتوحة تستقبل أحداً، بل لا تجد في كل الشوارع والأسواق من يأكل أو يدخن، كل الناس ممسك عن الطعام والشراب حتى الأطفال.

وأظهر ما يكون من أثر الصوم في مجتمعات الإسلام من أثر على المجتمع المكي والمجتمع المدني، لأنهما يقعان في بلد حرام، ففي مكةَ بيتُ الله، وفي المدينة مسجد رسول الله ﷺ، وما كانت الدكاكين فيهما تفتح في الصباح إلاَّ قرب الظهر، إلاَّ دكاكين اللحوم والخضراوات فكانت تفتح بعد مضي ثلث النهار.

وعندما كانت المدارس في الحجاز على فترتين: فترة الصباح إلى الظهر، وينصرف التلامذة إلى الغداء ـ بالدال المهملة ـ ثم يعودون

لينصرفوا إلى بيوتهم بعد صلاة العصر كانت الدراسة في رمضان تختلف عن شهور الفطر، فقد كانت الدراسة من الساعة الثالثة صباحاً إلى الساعة الثامنة بعد الظهر ـ بالتوقيت الغروبـي فما كنا نعرف غيره ـ وهذا بسبب الصوم تخفيفاً على المدرسين والتلامذة البالغين.

وإكراماً لرمضان ما كان باعة اللوز والحمص والبليلة والمقلية يحضرون إلى المدارس ليبيعوا التلامذة ما لديهم من هذه الأصناف، فكان الأطفال من التلامذة يُحْرَمُونَها في الفُسَحِ، وما كانوا بساخطين، بل كانوا راضين، بل كانوا سعداء بهذا المنع؛ لأنهم يرون أنفسهم أكفاء الكبار، وأهلاً للصبر والاحتمال.

وكانت أسواق اللحم والخضراوات مزدحمة يستعدون لمائدة الإفطار بما لذ وطاب من الأشربة والأطعمة.

وقسم أهل مدن الحجاز شهر رمضان أثلاثاً: الثلث الأول للجزارين، والثلث الثاني للقماشين، والثلث الثالث للخياطين، وإن كانت سوق الجزارين رائجة طول الشهر كله. وحقًّا كان الثلث الثاني لباعة الأقمشة، فتبدأ سوقهم من اليوم السابع لرمضان، فإذا جاءت ليلة الخامس والعشرين بدأت من جديد سوق القماشين وباعة «الكوافي» و «الأحاريم»[1] وباعة «العُقُل».

والكوافي، جمع كُفِيَّة، وأصلها كوفية، أسقطوا في النطق حرف

---

(١) قال الأستاذ أحمد: الأحاريم، جمع إحرام، وهو قطعة مربعة من نسيج يختلف مقاس كل إحرام بالنسبة لمراحل العمر، ويطوى طية واحدة فيتحول على شكل مثلث، ويوضع على الرأس، ويسدل على جانبيه.

المد، فصارت كُفِيَّة (بضم الكاف وكسر الفاء وتشديد الياء المفتوحة) وهي غطاء الرأس على أنواع.

نوع يصنعه الجاويون (الأندنوسيون) وهو «قماش» أبيض ناصع على شكل دائرة عليه ما يشبه القبة، وتغسل بالنشا ثم تكوى لتبقى قائمة على الرأس.

فلابسها من الشبان يحمل على كتفيه قطعة قماش مربعة مطوية على شكل مستطيل، يسبل نصفه إلى الخلف على الظهر، ونصفه الآخر إلى الأمام على الصدر، وهذه القطعة تسمى الإحرام، ويكون مطرزاً تارة، وأبيض بدون تطريز، فإذا كان مطرزاً كان من حرير طبيعي أو صناعي، وأما غير المطرز فيكون من حرير أو من قطن، ومن الرجال من كان يعتم بالإحرام المطرز.

وهناك نوع من الكْفِيَّة يصنعه نساء مكة تعلمنه من نساء بخارى، وهو خيوط مبرومة متشابكة طولاً وعرضاً، وتوضع هذه الكُفِيَّة على الرأس، ويبسط عليها الإحرام الأبيض الناصع المَكوي.

والنوع الآخر يسمى الكُفِيَّة المقصصة، وهي غطاء الرأس مكون من ألف قطعة صغيرة يخاط بعضها إلى بعض، ويتكون من قطعتين: قطعة دائرية تسمى «الدائرة» والأخرى قرص دائري كالبدر، إلاَّ أنه مفرغ الوسط على شكل دائرة يختلف قطرها، ويوضع على قالب من الصفيح مستدير، وينسج على هذه الدائرة التي بوسط القرص بالحرير الطبيعي الأبيض قرصاً آخر مزخرفاً رائع المنظر، ويكون القرص الأكبر هالة على القرص الأبيض الناصع، ويخاط القرص على الدائر ثم

يوضع الدائر وقرصه على قالب متقن الصنع من القش مستورد من بلاد جاوا «إندنوسيا» بعد أن يلطخ بالغرا أو الصمغ، ثم توضع الكفية على هذا القالب فتثبت عليه، فإذا جف الغرا خيطت بداخله بطانة من نسج الحرير الطبيعي أو الصناعي ثم يخاط من البطانة شريحة طويلة من جلد لئلا يصيب البطانة العرقُ، ثم يلف على الدائر عمامة من نسج خفيف يقال له: الشاش.

وكان من مكة أناس متخصصون برعوا في لف هذه العمامة وفيهم أربعة ملوك هم: الملك الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز الأسبق، وابنه الملك الشريف علي بن الحسين الذي تولى ملك الحجاز بعد أبيه ثم «تنازل»، والشريف الملك عبد الله بن الحسين ملك شرقي الأردن، والشريف الملك فيصل بن الحسين ملك العراق رحمهم الله جميعاً.

والكُفِيَّة «المقصصة» التي تتكون من ألف قطعة صغيرة، لم تكن هذه القطع من لون واحد، بل كانت تتكون من أربعة ألوان، هي الأحمر والأصفر والأخضر والأسود، وكان هناك نوع تتكون قطعة الألف من لونين: أبيض وأسود.

وكانت الكُفِيَّة نفسها نوعين بالنسبة للنسج المقصوص، نوع من نسج الطبيعي، وآخر من القطن، وطبيعي أن يكون ما صنع من الحرير أغلى.

وما كانت هذه العمامة الألفية لتلبس إلاَّ على جبة، وكانت زي الحكام والمفتين والقضاة وعِلْية الأمة.

وأما في الأعياد في أيام حكم الهاشميين وأوائل حكم الملك عبد العزيز بن سعود فكان الناس حتى الأطفال يلبسون العمائم الألفية حتى زالت هي والجبة من المجتمع السعودي، وإن كانت الحرفة باقية للحجاج، إذ ما يزال كثير من حجاج إندنوسيا ونيجيريا والسنغال يرون الحصول على عمامة ألفية أمارة على أداء مناسك الحج والعمرة والزيارة، يلبسونها في بلادهم في صلاة الجمعة والعيدين.

وبعد أن دالت دولة العمامة وسادت دولة العباءة في هذه الأيام تغيرت عادات في مجتمع الحجاز، إلاَّ أن عادات كثيرة ما تزال كما كانت، وتبع العباءة العقالُ، وهو حبل من الحرير أو القطن وأغلبه من الصوف، يوضع على «الإحرام» الذي يغطي الرأس ويسبل على جانبيه ليثبته، ولعله مأخوذ من عقال البعير حتى تطور فصار عقالاً يأخذ مكانه من رأس الرجال.

وكان سكان مدن الحجاز مترفين يتفاوتون في الترف، وهو تفاوت يقع بين الأغنياء والفقراء، وإن كان فقراء مدن الحجاز مترفين، فأكمام الثياب والسراويل مطرزة بالحرير، وكذلك «تكك» السراويل.

وكانت ليالي رمضان وهاجة ساطعة بالأنوار مع أنه في تلك الأيام لم تكن كهرباء، ومع هذا كانت المصابيح قوية وهاجة.

وإذا كان أثر رمضان بارزاً في مجتمع مكة وكل مدن الحجاز نهاراً حيث لا تشتغل المطاعم والمقاهي، ولا يغادر الناس بيوتهم لشراء حاجات المطبخ من لحوم وخضراوات وفواكه إلاَّ بعد أن يمضي من النهار ثلثه، لأنهم يسهرون حتى يَسَّحَروا ثم ينتظرون أذان الفجر ثم

يؤدون صلاته، ثم ينامون، ثم يستيقظون لشراء حاجات بيوتهم، ثم يمضي أصحاب الوظائف والأعمال إلى أعمالهم فإن هذا الأثر مشهود في كل أقطار المسلمين، فلا ترى بها مطاعم ومقاهي مفتوحة نهاراً، وإن كانت مدن الحجاز تسهر ليلاً.

ويختلف وقت العمل في البلدان الإسلامية، فيحضر الموظفون والعمال إلى أعمالهم متأخرين صباحاً، ويغادرونها مبكرين.

أما في المملكة السعودية فيختلف وقت العمل في رمضان عن غيره، فإذا كانت الإدارات مما تعمل نهاراً فيبدأ في الساعة الرابعة صباحاً وينتهي الساعة الثامنة بعد الظهر بالتوقيت العربي أي الغروبي، ثم يعودون إلى بيوتهم ليهجعوا ساعة أو أكثر ثم يستيقظون.

وكل الناس ببلادنا يقضون فترة ما قبل المغرب في قراءة القرآن، ثم يمضي مَن لديهم حاجة في السوق إليها لشراء بعض الأطعمة الجاهزة كالفول وغيره.

أما ربات البيوت فيمضين بعد الظهر إلى المطبخ يُعْدِدْن مائدة رمضان الحافلة بنعيم الله.

وأهل مدن الحجاز يفطرون على التمر والماء ـ إلاَّ أهل مكة فمع تمرهم ماء زمزم ـ ثم ينهضون إلى الصلاة، يؤم الأسرة كبيرها، ثم ينفتلون إلى المائدة ثم إلى الشاي.

وأهل المملكة السعودية يختلفون عن كل البلدان في توقيت صلاة العشاء، إذ يؤذن لها بعد أذان المغرب بساعتين، أما في غير رمضان فبين أذان المغرب وأذان العشاء ساعة ونصف، وتأخير أذان العشاء في

رمضان نصف ساعة إعطاء الصائمين فرصة للراحة بعد الإفطار والتهيؤ في طمأنينة لصلاة العشاء فريضة وسنة فالتراويح فالوتر.

وأكرم الله أهل مكة المكرمة والمدينة المنورة حرسهما الله وزادهما شرفاً وتعظيماً وحرس أهلهما بما لم يكرم أهل بلد غيرهم، فأهل مكة يمضون إلى المسجد الحرام قبيل المغرب يطوفون ويقرأون منتظرين أذان المغرب ليفطروا بين يدي الكعبة المشرفة.

وأهل مدينة الرسول ﷺ يصنعون ما يصنع أهل مكة إلاَّ الطواف، ويفطرون بين يدي الرسول ﷺ، وبعضهم في الروضة المشرفة بين المنبر العظيم وقبره الشريف.

وصلاة بمسجد الرسول عليه الصلاة والسلام بألف صلاة في غيره إلاَّ المسجد الحرام فالصلاة فيه بمئة ألف صلاة في غيره، وهنيئاً لأهل هـذين البلدين المقدسين بهـذه المكرمة الإلـهية، ولعلهـم يصلحون أنفسهم ليكونوا أهلاً لهذه المكرمة الفريدة العظيمة[1].

---

(١) «من نفحات رمضان» ٢١٩ ـ ٢٢٧.

قاعة رمضان بقلعة الجبل

للدكتور عبّاس حلمي إسماعيل

قال الدكتور:

حرص الأيوبيون كما حرص الفاطميون من قبلهم على إحياء ليالي رمضان، وبلغ من حرص السلطان الكامل الأيوبـي على إحيائها أن شيد قاعة بقلعة الجبل بالقاهرة سماها قاعة رمضان، منذ أن انتقل مقر الحكم إلى القلعة سنة ٦٠٤هـ (١٢٠٨م).

وجلس الكامل مع الفقهاء والقراء في تلك القاعة في هذا الشهر الكريم، ليحيوا ليالي رمضان على المذهب السني، ومن أئمة القراء الذين أجادوا فن تجويد القرآن في تلك القاعة على عهد الكامل المقرىء الشهير الشيخ: زيادة بن عمران، والشيخ: عبد الظاهر بن نشوان الذي انتهت إليه مشيخة القراء ورياسة فن القراءة في ذلك الزمان، وهو فضلاً عن ذلك أبو الكاتب النحرير: محي الدين بن عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشاء بدولة المماليك الأولى المعروفة بدولة المماليك البحرية.

واهتم الكامل بقاعة رمضان، لأنها كانت مجمعاً لأصدقائه العلماء، وبل من اطمئنانه إلى أحدهم هو زين الدين بن البياع، أن ولاه الخطابة بقلعة الجبل، فضلاً عن نيابة الحكم ببعض البلاد وكثيراً من الوظائف الديوانية، كذلك وصل حب الكامل «للصلاح الإربلي» أن اتخذه أحد

ندمائه، وتولى الإنفاق على أقاربه ومماليكه، وأقطع ولده بساتين قليوب.

والواقع أن بيت الكامل بالقلعة كان بمثابة مدرسة؛ إذ كان يبيت عنده كل ليلة جمعة على سرر متقابلة صفوة من العلماء أمثال: الجمال اليمني، وعمر بن دحية، فيعرض الكامل عليهم الموضوعات الدينية والمسائل العلمية ويشاركهم في مباحثاتهم، وأثار الكامل مرة مناقشة حول الطريقة الصحية لأكل الخيار، ولعله أراد بهذه المناقشة أن يتسلى قبل الإفطار ليملأ وقت الفراغ، واشترك في المناقشة الفيلسوف: أفضل الدين الخونجي والطيب رشيد الدين أبو حليقة، وأشار الخونجي بأكله بقشره لما عسى أن يكون به من عناصر غذائية وألياف مفيدة، ونصح أبو حليقة بأكله دون قشر لأنه غليظ عسر الهضم، وعندئذٍ استحسن الكامل إجابة أبي حليقة، فقرر له جامكية كبيرة[١].

والواقع أن الكامل حرص على أن يكون عالماً من الطراز الأول بالبحث والمناقشة والمجادلة ليثبت للفقهاء والعلماء والأدباء أنه جدير بالسلطنة لقوة علمه فضلاً من براعته السياسة الحربية، فكان له أراء شخصية في النحو ومسائل في الفقه بسطها على علمائه، وكافأ من حلها منهم بأكبر «المعاليم»[٢]، وساعده على ذلك نشأته الأولى؛ فقد تعلم منذ نعومة أظافره الأحاديث النبوية، وأجازه العلاَّمة أبو محمد بن بري وأبو القاسم البوصيري وابن صدقة الحراني، فنشأ على حبها، وحرص على

---

(١) الجامكية: الراتب.
(٢) أي المكافآت المعلومة القدر.

حفظها ونقلها، وتكلم على صحيح مسلم بكلام مليح، ولذا شيد سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٧م) دار الحديث الكاملية بين القصرين بالقاهرة.

وقيل إنه عندما حفر العمال أساسها وجدوا تمثالاً كبيراً من الذهب، فأمر الكامل بأن يسبك وينفق على بنائها الذي وقفه على المشتغلين بالحديث من الفقهاء الشافعية.

وأول من تولى مشيخة هذه الدار الشيخ أبو الخطاب عمر بن دحية، وبقيت هذه المشيخة في بيته زمناً طويلاً، ثم تولاها الحافظ عبد العظيم المنذريّ الذي قيل عنه: «ما على وجه الأرض منّ مجلس في الحديث أبهى من مجلس الشيخ زكي الدين عبد العظيم».

ولم ينس الكامل أن يدعم مكانة المدرسة الصلاحية بقبة الإمام الشافعيّ بالقاهرة، فعين لها الفقهاء والمدرسين بعد أن كان يعلم بها المعيدون فقط، وأسند مشيختها لشيخ الشيوخ كمال الدين أحمد بن حموية ثم لنقيب الأشراف شمس الدين الأرموي، حتى جاء وقت سميت فيه بالمدرسة الشريفية، وفتحت هذه المدرسة أبوابها للطلبة الغرباء، فوجدوا مساكن مريحة، وحمامات مزودة بالماء الساخن، وأطباء يتفقدون أحوالهم الصحية، ومعاليم ينفقون منها، هذا عدا ما لشيخ المدرسة كل يوم من راتب الخبز وراويتين[1] من ماء النيل، وشجع الكامل بناء المدارس بالصعيد، ليتيسر على أبنائه التعليم ببلادهم، وليقضي على المذهب الشيعي الذي ظل متفشياً في قوص وطود وقفط وإسنا وأسوان، بفضل معاضدة عرب بني عبد القوي وبني الكنز لبقايا

---

(١) الراوية: الإبل أو الحمير التي يُستقى عليها، أو هي القربة التي تملأ.

الفاطميين المشردين الذين هاجروا إلى أقاصي الصعيد ليكونوا في مأمن من ضربات السلطان، وليدبروا خطط قلب الحكم السني وقتل دعائه، ومنهم ابن سيد الكل الذي نشر المذهب السني بإسناد، وصنف كتاب «النصائح المفترضة في فضائح الرفضة».

وبلغ من حب الكامل للآداب والعلوم أن استولى على مكتبة القاضي الفاضل وزير صلاح الدين، وكان بها آلاف كثيرة من الكتب، منها كتاب «الآيك والغصون» لأبـي العلاء المعري في ستين مجلداً.

ومن دور العلم والعبادة التي أسهمت في إحياء ليالي رمضان جامع عمرو بن العاص بالفسطاط فكان يتسع لأربعين حلقة علمية صباحاً ومساء يوماً بعد يوم، ويضاء كل ليلة بالقناديل، وينفق عليه من أوقاف ببلاد المنوفية الخصبة، وولى الكامل خطابة الجامع الشيخ أبـي الطاهر المحلي... وهو الذي اقترح على الكامل ضرب عملات صغيرة، فعمل الكامل باقتراحه تبركاً، وسك الفلوس ليسهل شراء الحاجيات الصغيرة التي يكثر الإقبال عليها في شهر رمضان... هكذا أسهمت قاعة رمضان بالقلعة في إحياء ليالي رمضان مع غيرها من دور العلم والعبادة بمدارسة القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، من أجل إقامة مجتمع تسوده المودة والمحبة، مصفى من التبعية والعبودية، وهو في نفس الوقت يعمل على تحرير كل شبر من أراضيه من أدناس الصليبيين وأطماع التتر[١].

---

(١) مجلة «الأزهر»: المجلد ٣٨، الجزء السابع، رمضان سنة ١٣٨٦، ص ٦٨٨ ـ ٦٩٠ تصرف.



رمضان والأدب

رمضان في وجدان المفكرين والشعراء

للأستاذ محمود رداوي

قال الأستاذ:

تعددت مواقف الشعراء والأدباء والمفكرين حيال هذا الشهر الفضيل، وتباينت الرؤي، واختلفت المعاني والاتجاهات، فمن يسير في فلك عريض واسع عن الإيمان والاحتساب، ومن يسير في فلك ضيق من الشهوة والمادية، ومن ينهج أسلوب السخرية، ومن ينحو للموعظة، ومن يتجه اتجاهاً فلسفياً وفكرياً إلى تلك العبادة الدينية التي تختلف عن غيرها من العبادات الإسلامية، وسننظر فيما قاله أولئك الأعلام عن رمضان نثراً وشعراً، وسنبدأ بأعلام النثر في الفكر والأدب.

أعلام النثر:

لقد قيل وكتب الكثير من النثر في أمر رمضان، وسوف لا نقف إلَّا عند النصوص النثرية التي قد لا تقترب من الشؤون الدينية، والفقهية ـ لأن هذه مجالها تخصص آخر ـ تلك النصوص الأدبية والفكرة فقط.

ففي أحد أدعية الإمام زين العابدين ـ المتوفى ٩٥هـ ـ نسمع نصًّا

بليغاً عن رمضان، لا يخلو من الحكمة والفلسفة، ومن خلال أسلوب رصين، يجمع المعاني العميقة والمحسنات اللفظية البديعية يقول بأن الله «أبان فضيلته على سائر الشهور بما جعل له من الحرمات الموفورة، والفضائل المشهورة، فحرَّم فيها ما أحلّ في غيره إعظاماً، وحجز فيه المطاعم والمشارب إكراماً، وجعل له وقتاً بيِّناً لا يجيز جل وعز أن يقدم قبله، ولا يقبل أن يؤخر عنه، لا نصغي بأسماعنا إلى لغو، ولا نسرع بأبصارنا إلى لهو، وحتى لا نبسط أيدينا إلى محظور، ولا نخطو بأقدامنا إلى محجوز، وحتى لا تعي بطوننا إلى ما أحللت، وحتى لا تنطق ألسنتنا إلاَّ بما قُلت...».

أما الإمام الغزالي ففي كلامه عن رمضان نظرة روحية، وتحليل نفسي، لا يخلوان من الحقائق العلمية والفيزيولوجية والفطرية، كما أن مفهومه لرمضان ذو قيمة فردية وجماعية وذهنية ونفسية وحسية.

«الصيام زكاة للنفس، ورياضة للجسم، وداعٍ للبر، فهو للإنسان وقاية، وللجماعة صيانة، في جوع الجسم صفاء القلب، وإيقاد القريحة، وإنفاذ البصيرة؛ لأن الشِبَع يورث البلادة، ويعمي القلب، ويكثر الشجار في الدماغ، فيتبلد الذهن، والصبي إذا ما أكثر أكله، بطل حفظه، وفسد ذهنه.

أحيوا قلوبكم بقلة الضحك، وقلة الشبع، وطهروها بالجوع تصفُ وترق».

ويلخص ابن القيم في النص التالي معنى رمضان، وقيمته

وفائدته، وأبعاد فضائله، ومرامي حكمته الربانية؛ ويستبطن أسرار النفس الإنسانية وهي حيال المادة والروح، والشهوة والإيمان، كل ذلك بفن أدبـي، وبلاغه رائعة:

«المقصود من الصيام حبس النفس عن الشهوات وفطامها عن المألوف، وتعديل قوتها الشهوانية، لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها، وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية، ويكسر الجوع والظمأ من حدتها وسَوْرتها[1]، ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين، وتضييق مجاري الشيطان من العبد بتضييق مجاري الطعام والشراب، وتحبس قوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها في معاشها، ويسكن كل عضو فيها، وكل قوة عن جماحه، وتلجم بلجامه، فهو لجام المتقين، وجنة المتحابين، ورياضة الأبرار المقربين».

وقد يجيء كلام بعضهم ـ كالأحنف بن قيس ـ جواباً لسؤال فيه خدش لكبريائه الذاتي والإسلامي، فحين قيل له: «إنك شيخ كبير، وإن الصوم يضعفك» كان ردَّه تعبيراً عن موقف ووعي وحكمة ورؤية بعيدة صائبة لا تُعْوِزُها العمق الديني:

«إني أعدَّه لسفر طويل، والصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذابه».

---

(١) أي شدتها.

وقول الجيلاني: «السنة شجرة، ورجب أيام إيراقها، وشعبان أيام ثمارها، ورمضان أيام قطافها».

وكلام القدامى من علماء المسلمين ومفكريهم عن رمضان، وبمثل هذه العبارات والصياغات الأدبية، كثير، وإذا كان مثل هذه المعاني البليغة وردت في كلام أعلامنا القدامى، فإن مثله نجده في وجدان أعلامنا المحدثين والمعاصرين.

فهذا الشاعر أحمد شوقي يعبر فيه عن رمضان نثراً، إذ أبرز فضائله الروحية والدينية والإنسانية والشخصية:

«الصيام حرمان مشروع، وتأديب بالجوع، وخشوع لله وخضوع، ولكل فريضة حكمة، وهذا الحكم ظاهره العذاب، وباطنه الرحمة، ويستثير الشفقة، ويحض على الصدقة، ويكسر الكِبْر، ويعلم الصبر، ويسن خلال البر، حتى إذا جاع من ألف الشِبَع، وحرم المترف أسباب المتع، عرف الحرمان كيف يقع، والجوع كيف ألمه إذا لذع».

ويقول مصطفى صادق الرافعي كلاماً طويلاً عن رمضان، يظهر معجزته الإصلاحية، وحكمته الأدبية ومنه:

«أية معجزة إصلاحية أعجب من هذه المعجزة الإسلامية التي تقضي أن يحذف من الإنسانية كلها تاريخ البطن ثلاثين يوماً في كل سنة، ليحل في محله تاريخ النفس».

أما العقاد فقد نظر إلى رمضان من خلال قيمه الاجتماعية، ونظامه الذي يفرض قواعد ثابتة في السلوك ونمطاً في الحياة، وخروجاً على

العادات المألوفة، وقد اعتبره فريضة اجتماعية، فقال:

«فهو موعد معلوم من العام لترويض الجماعة على نظام واحد من المعيشة، وعلى نمط واحد من تغير العادات، وليس أصلح لتربية الأمة من تعويدها هذه الأهبة للنظام، ولتغيير العادات شهراً في كل سنة، تتلاقى فيه على سن واحد في الطعام واليقظة والرقاد، وما يستتبع ذلك من أهبة الجماعة كلها لهذا الشهر خلال العام».

وحاول سيد قطب أن يوازن بين قيمة رمضان الروحية الدينية، وقيمته العلمية الحسية فقال:

«ومع أنني لا أميل إلى تعليق الفرائض والتوجيهات الإلهية ـ في العبادات بصفة خاصة ـ بما يظهر للعين من فوائد حسية فإنني لا أحب أن أنفي ما تكشف عنه الملاحظة، أو يكشف عنه العلم من فوائد لهذه الفرائض والتوجيهات، ولكن في غير تعليق لحكمة التكليف الإلـٰهي بهذا الذي يكشف عنه العلم البشري».

وحلل خالد محمد خالد تحليلاً آخر لفضيلة هذا الشهر الكريم، إذ ركَّز على قيمته الذاتية والشخصية، وعلى تكريس مفهوم الإرادة من خلال هذه العبادة:

«إذا كانت إرادة الإنسان أهم عناصر شخصيته، فالصوم أستاذ قدير في تلقين الصائمين فن الإرادة، وذلك برغبتهم المقتدرة في تعظيم أمر الله وحرماته، وفي إقبالهم على الصوم مهما تكن مشقته، عزيمة لا تعرف الوهن، وإصرار لا يعرف النكوص».

وإذا كان رمضان شهر الامتناع عن الطعام والشراب والشهوات الجسدية والغريزية، فإن الشريعة الإسلامية وتراثنا العربي والإسلامي الفكري والعلمي يحدد ويقنن من قضية الطعام والاعتدال، وأثرها على الصحة العامة. فالقرآن الكريم دعانا إلى تلك الحكمة في الاعتدال:

﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾(١).

وجاء في الحكمة: «إن المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء».

وجاء في الحديث «**نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع**».

وذكر أن عمر بن الخطاب قال: «إياكم والبطنة فإنها ثقل في الحياة ونتن في الممات».

ومما جاء في آداب الطعام عن الغزالي «من آداب الطعام ألا يمد الإنسان يده إليه وهو جائع، ثم ينبغي أن يرفع إليه قبل الشِبَع، ومن فعل ذلك استغنى عن الطبيب».

وكذلك يوصي لقمان ابنه بقوله: «يا بني، إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة».

ولقد ذم العرب الأكولين، وأظهروا الكثير من عيوبهم، وقدموا لهم وصايا في آداب الطعام وردت في كتبهم.

---

(١) سورة الأعراف: آية ٣١.

أعلام الشعر:

وإذا كان هذا حال رمضان وفضائله مع أعلام النثر والفكر، فإن حاله سيتخذ وجهة أخرى مع أعلام الشعر، تجمع الإشادة بقيمه الدينية، واستخلاص معانيه الإنسانية والاجتماعية، وبأساليب متعددة، ورؤى مختلفة، وقد لا تخلو من تهكم وسخرية أحياناً، ويكاد يكون غالبية شعراء العرب في القديم والحديث، لهم نظرات ومواقف ونصوص وأخبار عن رمضان على نحو ما، وفيها من الاتفاق على توارد المعاني والرؤى الشيء الكثير كما سنرى، وسنقف عند بعضهم قدر ما يتسع له مجال هذا المقام.

للشاعر السعودي محمد حسن فقي قصيدة طويلة تجاوزت مائة وخمسين بيتاً، منها هذه الأبيات التي يصور فيها رمضان على نفسه، وإحساسه العميق بفحواه وإيحائه، وغبطته وسروره بمقدمه:

رمضان في قلبي هماهم نشوة ... من قبل رؤية وجهك الوضاء
وعلى فمي طعم أحس بأنه ... من طعم تلك الجنة الخضراء
ما ذقت قط ولا شعرت بمثله ... أفلا أكون به من السعداء
وتطلعت نحو السماء نواظر ... لهلال شهر نضارة ورواء
قالوا بأنك قادم فتهللت ... بالبشر أوجهنا وبالخيلاء
رمضان ما أدري ونورك غامر ... قلبي فصبحي مشرق ومساء

وإذا كان الفقي صور إحساسه الذاتي وانفعاله الوجداني وهو إزاء

رمضان، فإن الشاعر حسين عرب يشرك الكون والعالم والدنيا قاطبة بفرحتها بإطلالة رمضان، هذا الشهر الكريم، ولتحل تلك الفرحة في أعماق الآخرين، ولقد خرج الشاعر من عالمه الذاتي ليستقر في الدائرة الرحبة العامة:

بشـرى العـوالـم، أنـت يـا رمضـان
هتفـــت بـــك الأرجـــاء والأكـــوان

لـــك فـــي السمـــاء كـــواكـــب وضـــاءة
ولـــك فـــي النفـــوس المـــؤمنـــات مكـــان

سعـــدتْ بلقيـــاك الحيـــاة وأشـــرقـــتْ
وانهـــل منـــك جمـــالهـــا الفتـــان

وتـــذكـــرت فيـــك العـــروبـــة مجـــدهـــا
هـــل مجـــدهـــا إلاَّ الـــذِمـــار يصـــان[1]

ومحـــرر الأخـــلاق مـــن قيـــد الهـــوى
إن عمهـــا مـــن زيفـــه طـــوفـــان

بشـــراك تَفْتَـــرُّ الثغـــور لـــوقعهـــا
جـــزلاً ويخفـــق خـــاطـــر وجنـــان

---

(١) الذِمار: ما يلزمك حفظه وحمايته: «ترتيب القاموس المحيط»: ذ م ر.

ولشوقي شعر كثير في رمضان، منه هذان البيتان، وهم أشبه بالأوامر الوعظية، يقول في الأول:

يـا مُـديـم الصـوم فـي الشهـر الكـريـم
صـــم عـــن الغيبـــة يـــومـــاً والنميـــم

وفي الثاني:

وصـــل صـــلاة مـــن يـــرجـــو ويخشـــى
وقبـــل الصـــوم صـــم عـــن كـــل فَحْشَـــا

أما إحساس الرافعي برمضان فيشوبه حب وشوق كبيران، ليس وحده بل إحساس الناس جميعاً به ولذلك يحييه قائلاً:

فـــديتـــك زائـــراً فـــي كـــل عـــام
تحيـــا بـــالســـلامـــة والســـلام
وتقبـــل كـــالغمـــام يفيـــض حينـــاً
ويبقـــى بعـــده أثـــر الغمـــام
وكـــم فـــي النـــاس مـــن كَلِـــف مشـــوق
إليـــك وكـــم شجـــي مستهـــام

وأورد الشعراء الإسلاميون، قديماً وحديثاً، نصوصاً عديدة عن رمضان، وبخاصة ذكر ليلة القدر والعشر الأواخر، والوقوف عند ما يذكر فيها من ابتهالات، وتسابيح، وتبتل، وأدعية، وذكر وحمد،

وخصُّوها بما فيها من معان وفضائل وحقائق دينية سماوية.

فهذا الشاعر عمر بهاء الدين الأميري في ديوانه «مع الله» يلهج بشعر إسلامي أصيل، وفيها تسبيحات عن ليلة القدر، ويلتقط فيها الجزئيات الدقيقة من مشاعره الدينية في تلك الليلة المتألقة المتوهجة التي تملأ دنياه ووجوده وذاته، ولم يجد في تلك الليلة غير الإحساس بالأنسام والروائح التي تفوح بها:

يا رؤى الإشراق في الليل المنير   يا شذا الرضوان في الخلد النظير
هـل لنفسـي أمـل فـي نفحـة   مـن فيـوض الله إن لـجّ ميسيـري؟
هـذه روحـي حـامـت ولَهـا   وسمـت فـوق أجـواء الأثيـر
تبتغـي مـن ليلـة القـدر سَنَـاً   ليتهـا تنعـم منهـا بعبيـر

ومع العشر الأواخر من رمضان يصل بالشاعر الأميري الحس الرباني إلى درجة سامية من الصفاء والخلاص والتحرر من كل ذنوبه، والتوبة الصادقة، ومجابهة الشيطان وحربه ومقاومة سلطانه:

حذار يا شيطان جسمي حذار   فهـذه أيـام شـد الإزار
يـدنـو بهـا المـذنـب مـن ربـه   فـي غمـرة مـن خشيـة وادِّكـار
يعتـزم التـوبـة مـن ذنبـه   مستنفـراً فـي ذلـة وانكسـار

وقد يذكر بعض الشعراء المعاصرين ما كان ينشده القدامى وقت السحور، فهذا أبو تراب الظاهري يرى أن المصريين كانوا يرددون

مقاطع أربعة تذكيراً بالسحور، منها هذان المقطعان:

من كان يشكو عظم داء ذنوبه
فليأت من رمضان باب طبيبه

ويفوز من عرف الصيام بطيبه
أو ليس قول الله في ترغيبه

«الصوم لي وأنا الذي أجزي به»

يا صائمي رمضان فوزوا بالمنى
وتحققوا نيل السعادة والغنى

وثقوا بوعد الله إذ فيه الهنا
أو ليس هذا القول قول إلٰهنا

«الصوم لي وأنا الذي أجزي به»

ولقد عرف الشعراء الإسلاميون قدر الصيام، ومنحوه حقه من التبتل والعبادة، واغتنام الفرص لتأدية الفروض الدينية قبل فوات الأوان:

أدم الصيام مع القيام تعبداً
فكلاهما عملان مقبولان

قم في الدجى واتل الكتاب ولا تنم
إلَّا كنومة حائر ولهان

فلــــربمــــا تــــأتـــي المنيـــة بغتـــةً
فتســـاق مـــن فُــرُش إلـــى أكفـــان

واستحال شعرهم إلى نصائح ودروس وعظية يخاطبون به العباد كي يصلحوا من شأن دنياهم، ويأخذوا بأسباب الدين، ويتجنبوا المحارم والمنكرات قبل أن يوافيهم أجلهم كما رأينا.

وهـذا شاعر تونسي «محمـد الناصر» يـوظِّف هـذا الشهر في نَفَس وطني واجتماعي وعربـي تفـوح مـنـه معانـي الأصالـة والـروعة والشاعـرية، والتي تتجلـى كاملة عبـر ابتهـالاته الرمضـانية المتـوهجة بتلك القيم:

شهـــر أزاح عـــن الــدنيـا ديــاجيهــا
فـــأشـــرقـــت بعـــد إظـــلام ليـــاليهـــا

شهـــر بـــه لاح نـــور الحـــق منبلجـــاً
فـــاهتـــزت الأرض إجـــلالاً وتنـــويهـــاً

لله كـــم أبـــرزت أحـــداثـــه قيمـــاً
سمـــت ولمَّـــا تـــزل تسمـــو معـــانيهـــا

فيـــه تنـــزلـــت الآيـــات محكمـــة
تنهـــى عـــن الشـــرر والبغضـــا نـــواهيهـــا

إن الشعـــوب إذا أبنـــاؤهـــا صلحـــوا
لبّـــوا إلـــى صـــالـــح الأعمـــال داعيهـــا

وفي الشعر السوداني أنفاس رمضانية جليلة، فنجد مثلاً عند الشاعر أحمد علي طه في إحدى قصائده صورة دقيقة لبعض الصائمين الذين ينسون فضائل رمضان الروحية والصحية، فينقلب صومهم إلى ارتقاب وتحفز لساعة الإفطار، لالتهام ما تحفل به موائدهم، وإملاء كروشهم:

دعوا الإسراف في أكل الفطور ... ولا تحشوا ببهتان وزور
فشهر الصوم بالخيرات يأتي ... دواماً كان من خير الشهور
فصونوا للصيام بكل حرص ... ولا تسعوا لأسباب الشرور
ولا تهنوا فإن الضعف خزي ... وأدّوا للفريضة في سرور
فكم من «مكرش» تلقاه يمشي ... «بكرش» شاله في شكل زير
يصوم اليوم في قلق وجوع ... ويحسب للدقائق في فتور
ويصغي للأذان بكل جرح ... ليلقف ما أمامه من فطير
وينسى للصلاة ولا يبالي ... بما يلقاه من لؤم مرير
فصوم الشهر إمساكٌ لديه ... من الرمرام في الثلث الأخير

ومن الشعراء المعاصرين الذين أجادوا تصوير مشاعرهم وانطباعاتهم عن رمضان الشاعر محمد الأسمر، وقد منحنا في إحدى قصائده صورة واقعية عن شهر رمضان في نهاره وليله، وحال الصائمين معه عقب الإفطار وقبله:

رعـى الله شهـر الصـوم أمـا نهـاره
ففـانٍ وأمـا ليلـه فهـو سـاهـر
وحيـا رجـالاً حيـن لاح هـلالـه
مشـت بينهـم مشـي النسيـم البشـائـر
بطـان إذا مـا الشمـس أزخـت قنـاعهـا
خمـاص إذا مـا أقبلـت وهـي سـافـر

ويتمنى الشعراء أحياناً ـ ولا سيما شعراء البادية ـ أن يحل رمضان على ربوعهم في فصل الربيع، فهو الفصل المناسب لحياتهم وبيئتهم الصحراوية القاسية:

وإذا كانت أيام رمضان الصيفية محرقة مهلكة في رمضان فإنها في أيامها الربيعية حلية جميلة وبرد وسلام على الصائمين، ولهذا يقول أبو عون الكاتب:

جاءنا الصوم في الربيع فهلا ... اختار ربعاً من سائر الأرباع
وتـولـى شعبـان إلاَّ بقـايـا ... كـالعقـابيـل مـن دم المـرتـاع
فكـأن الـربيـع فـي الصـوم عقـد ... فـوق نحـر غطـاه فضـل قنـاع

وإذا قدر أحياناً للشاعر الإسلامي ألا يقوى على متابعة الصوم لمرض أو علة قاهرة، فإنه يصوغ شعره الذي يعبر به عن عذابه بالإفطار المنغص، والمرغم عليه، ولم يجد غير التوسل والدعاء وطلب

الغفران، فهذا شاعرنا السابق محمد الأسمر يفصح عما انتابه من شعور وإحساس ساعة إفطاره لمرض أصابه:

يـا رب صـام الشهـر مـن صـامـه	فمــن لهــذا العــاجــز المفطــر؟
يـــا رب لا عـــذبتنـــي بـــالـــذي	يفعــل بـــي أفعــالــه فــاغفــر
غفــرانـــه اللهـــم إنـــي امـــرؤ	صمــت إلــى العصــر فلــم أقــدر

وأخيراً: فإن أدبيات رمضان غزيرة، ومن أراد أن يستطيل بفيئها، وتقر عينه بأطايبها ومجالسها فعليه ببستان رمضان لمحمد مبارك، وقرة العين في رمضان والعيدين لأحمد الجنوبي، ومجالس رمضان لمحمد بن صالح بن عثيمين، وعقود اللؤلؤ والمرجان في وظائف شهر رمضان لإبراهيم بن عبيد آل عبد المحسن، وغيرها كثير[1].

---

(١) مجلة «الفيصل»: العدد ١٨٣، رمضان سنة ١٤١٢، ص ٨٤ ـ ٨٨.

رمضان عند الأدباء

للأستاذ محمد رجب البيومي

قال الأستاذ:

يتمتع شهر رمضان المبارك بمنزلة طيبة في نفوس الكثرة الغالبة من المسلمين، فأنت تراه ضيفاً محبوباً يُستقبل حين قدومه بشتى مظاهر المحبة والابتهاج، ويُودَّع حين رحيله بدموع الحسرة والالتياع، وإذا كنا نسمع في أخبار الماضين من رجال السلف الصالح رضي الله عنهم أنهم كانوا يعزون أنفسهم في الليالي الأخيرة من رمضان، فإننا لا نزال نرى بأعيننا الفسقة والعصاة من المؤمنين يجترحون السيئات ويقترفون الموبقات، حتى إذا وجدوا أنفسهم في حرم رمضان ضجت ألسنتهم بالتهليل والتكبير، وارتعدت فرائصهم من خشية الله، ولزموا حلقات الدروس في المساجد يستنشقون روائح الجنة من نسمات هذا الشهر المبارك!

لكن فريقاً من الأدباء ـ عفا الله عنهم ـ قد أخذوا يغازلون شهر الصيام مغازلة شكا منهم إلى ربه، ثم تحولت المغازلة على مر الأيام إلى عداء مستحكم، فبعد أن كان الشاعر لا يزيد على قوله:

نُبئتُ أن فتاة جئت أخطبها
عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول

أو قوله:

أتـأمـرنـي بـالصـوم لا دَرَّ دَرُّهـا
وفـي القبـر صـوم يـا أُميـم طـويـل

بعد أن كان لا يزيد على ذلك وجدنا الأمر قد استحال فجأة إلى هجو لاذع، وسب مبرح، لا نظن إلاَّ أن الله عز وجل سينتقم للمظلوم فيه من الظالم يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وأول من أعلن هذه الحرب الظالمة ـ فيما نعلم ـ هو هذا الأعرابي الفَدْم[1] الذي يروي ابن قتيبة في عيون الأخبار قصته فيقول:

«قدم أعرابي على ابن عم له بالحضر، فأدركه شهر رمضان، فقيل له: يا أبا عمرو، لقد أتاك شهر رمضان! قال: وما شهر رمضان؟ قالوا: الإمساك عن الطعام! قال: أبالليل أم بالنهار؟ قالوا: بل بالنهار قال: أفيرضون بدلاً من الشهر؟ قالوا: لا؛ قال: فإن لم أصم فعلوا ماذا؟ قالوا: تُضرب وتحبس، فصام أياماً فلم يصبر، فارتحل عنهم إلى غيرهم وجعل ينشد:

يقـول بنـو عمـي وقـد زرتُ مصـرهـم
تهيـأ أبـا عمـرو لشهـر صيـام

فقلـت لهـم هـاتـوا جـرابـي ومِـزْودي
سـلام عليكـم فـاذهبـوا بسـلام

فبـادرت أرضـاً ليـس فيهـا مسيطـرٌ
علـيَّ ولا منَّـاع أكـل طعـام

كانت هذه القصة بذرة سيئة تولدت منها تلك الحملة الطائشة التي شنها الأدباء على رمضان، ومهما يكن من شيء، فقد حركت ما سكن في

---

(١) الغليظ الجافي: انظر «ترتيب القاموس»: ف د م.

النفوس، وأطلقتْ ما حبس في الصدور، فخرج الأدب بصفقة رابحة كان ضحيتها رمضان المسكين! ولعل عزاءه في ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾[١]!

على أن كثيراً من الأدباء كانوا أقدر على ضبط ألسنتهم من إخوانهم الذين تورطوا في معاداة هذا الشهر العظيم، فنحن نقرأ في تاريخ البحتريّ مثلاً أنه كان ضائق الصدر برمضان، متبرم النفس بطوله، ونتلمس ذلك في شعره، فلا نجد إلاَّ متفرقات يسيرة لا تطفىء أُواما[٢]، ولا تبل غليلاً، كأن يقول:

فتـــروّ مـــن شعبـــان إن وراءه شهراً سيمنعك الرحيق السلسلا

ثم يكرر هذا المعنى مرة ثانية وثالثة، فإذا هاج صبره بعد مرور سبعة وعشرين من عمر رمضان لم يزد على أن يطلب من الله عزَّ وجلّ أن يجعل الشهر كله ليلاً حتى لا يجد النهار الذي يصوم فيه عن الطعام والشراب، وفي ذلك يقول:

قـد مضـت سبعـة وعشـر وعشـر مـا نـذوق اللـذات إلاَّ لمـامـا
مـا علـى الليـل لـو أقـام علينـا أو يـرانـا مـن الصيـام صيـامـاً

أما ابن الرومي فقد أطلق العنان لقريحته الوقادة، وانهال على رمضان بسياطه المحرقة حتى مزَّقَ جلده، وشوه أديمه، وتعليل ذلك واضح يسير، فالبحتريّ على رغم ما له من جاه عريض لدى الخلفاء والرؤساء كان نِكْساً[٣] رعديداً يقول الهجاء، فيقبض بيده على قلبه

---

(١) سورة الشعراء: آية ٢٢٤.
(٢) الأُوام: العطش: المصدر السابق: أوم.
(٣) النِكْس: الضعيف: المصدر السابق: ن ك س.

ويُرسل وراء شعره العيون والأرصاد يتجسسون لدى المهجوّ، ويخبرونه بموقع هجائه من نفسه، فإن لم يُلق له بالاً حمد الله على السلامة، وإن كانت الأخرى أخذ يتزلف ويتوسل ويُحبر النابغيات الطويلة في الاعتذار، وحسبك أن تعلم أنه حين قال في قصيدته القافية:

ولم أر كالدنيا حليلة صاحب ... محب متى تحسن بعينيه تطلق

تراها عياناً وهي صنعة واحد ... فتحسبها صنعى حكيم وأخرق

حين قال ذلك شنع عليه أحد العامة بأنه ثنوي[1] فخاف على نفسه وقال لابنه أبي الغوث:

قم بنا نخرج من بغداد خروجاً نأمن على أنفسنا فيه، ثم خرج ولم يعد، فشخصٌ نفسيتُه ضعيفة خائرة كالبحتريّ لا يجد الشجاعة الكافية التي يذم بها رمضان على رؤوس الأشهاد، ولا كذلك ابن الروميّ، فقد كان جسور القلب حاد اللسان يسوق الهجاء في الوزراء وذوي الشأن في الدولة، ثم يتزايد ويتسع فيه دون مبالاة أو اكتراث مما أدى إلى حتفه في النهاية، فمات ولم يستمتع بخاطره، ولم ينزح رَكِيّة[2] فكره ـ كما قال الصُوليّ ـ فإذا كان هذا شأنه، فغير كثير عليه أن يسلط لسانه على رمضان معبراً عما يختلج في نفسه أصدق تعبير، والحق أن هذه ميزة ابن الرومي يصدر عن طبعه وينقل عن خاطره مهما جلب عليه ذلك من الشرور والويلات، والجنون فنون.

بدأ ابن الرومي حملته بتأدب ملموس، فلم يشأ أن يهجم بادىء ذي

(١) يعني أنه يعتقد بإلـٰهين للعالم.
(٢) الركية: البئر، وفي الكلام مجاز.

بدء بما هجم به أخيراً من الذم والقدح، بل اكتفى بإعلان تبرمه بطوله الممتد، وود له مر كالسحاب، وكان جميعه كيوم أو بعض يوم، وقصارى حيلته أن يدعو عليه، وأن يرحب بأيام الفطر اللذيذة فيقول:

إذ بــرّكــت فــي صــومٍ لقــوم ... دعــوت لهــم بتطــويــل العــذاب
ومــا التبــرك فــي شهــر طــويــل ... يطــاول يــومــه يــوم الحســاب
فليــت الشهــر فيــه كــان يــومــاً ... ومــــر نهــــاره مــــر السحــــاب
فــلا أهــلاً بمــانــع كــلِّ خيــر ... وأهــلاً بــالطعــام وبــالشــراب

ويظهر أن ابن الرومي قد وجد أبياته صادفتْ رواجاً محموداً لدى من يشاركونه عواطفه وميوله ـ وكثير ما هم ـ فهجم على شهر الصيام مرة أخرى ولكن بلسان أحد، ولهجة أعنف، وقسوة أشد، فود بجدع الأنف لو انتهى قبل أن يبدأ، وأعلم أن بركة هذا الشهر في طوله لا في خيره، وزاد بأن تنازل عن الأجر الذي أعده الله جزاء صومه؛ فهو يقول:

شهــــر الصيــــام مبــــارك لكمــــا
جعلــت لنــا بــركــاتــه فــي طــولــه
مــن كــان يــألفــه فليــت خــروجــه
منــي ـ بجــع الأنــف ـ قبــل دخــولــه
إنـــي ليعجبنـــي تمـــام هـــلالـــه
وأُســـر بعـــد تمـــامـــه بنحـــو لـــه
أستثيـــب علـــى قَبـــول صيـــامـــه
حسبـــي تَصَـــرُّمُـــه ثـــواب قبـــولـــه[1]

---

(١) التصرم: الانقضاء.

وجائز جداً أن يكون ابن الرومي قد عانى صوم رمضان في أوقات تلفحها حرارة الصيف كما نعانيه في أوقاتنا هذه، فهو لا يكتفي بما قدمنا بل يعيد الهجوم ثالثة ورابعة، غير تارك بعده مجالاً لقائل، وليت شعري ماذا ننتظر منه بعد أن يقول:

شهـر الصيـام وإن عظّمـتُ حـرمتـه
شهـر طـويـل ثقيـل الظـل والحـركـه
أذمــه غيــر وقــت فيــه أحمــده
منـذ العشـاء إلـى أن تصـدح الـديكـه
وكيــف أحمــد أوقــاتــاً مــذممــة
بيـن الـدءوب وبيـن الجـوع مشتـركـه
يـا صـدق مـن قـال أيـام مبـاركـة
إن كان يعني عن اسم الطول بالبركه
شهـر كـأن وقـوعـي فيـه مـن قلقـي
وسوء حالي وقوع الحوت في الشبكه
لـو كـان مـولـىً وكنـا كـالعبيـد لـه
لكـان مـولـى بخيـلاً سيِّـىء الملكـه
قــد كــان لــولا دفــاع الله يسلمنــا
إلـى الـردى ويـؤدينـا إلـى الهلكـه

على أن من التناقض الظاهر أن نرى ابن الروميّ في موضع آخر من ديوانه يهني أحد الرؤساء بشهر الصيام فينحي باللائمة على المستهترين به، وما درى أنه بشعره هذا قد فتح الباب لمن جاء بعده، ومهما يكن من شيء فقد ظهرت خفة روحه ظهوراً أكسبه ملاحة وظرفاً عند من يقدرون الأدب لذاته فهو على نقيض أبي العتاهية المسكين، فقد أوقعه حبه

رمضان وتعظيمه إياه في مأزق مضحك، قال ابن رشيق في الجزء الثاني من «العمدة» «لما مات المهدي قام أبو العتاهية يرثيه على ملأ من الناس فقال: «مات الخليفة أيها الثقلان».

فرفع الحاضرون رؤوسهم، وفتحوا أعينهم وقالوا: نعاه إلى الإنس والجن ثم أدركه اللين والفترة فقال:

«فكأنني أفطرت في رمضان».

يريد أني بمجاهرتي بهذا القول كأنما جاهرت بالإفطار نهاراً في رمضان، وهذا معنى جيد غريب في لفظ رديء غير معرب عما في النفس» ونحن نخالف صاحب العمدة فيما ذهب من جودة هذا المعنى ولو كان كما قال ما قابله الجمهور بالسخرية والاستهزاء.

وإذا كانت كتب الأدب تروى عن أبـي نُوَاس أنه قد حج حجاً غير مبرور حين جد في طلب «جنان» فلم يظفر بطائل، ثم علم أخيراً أنها ذهبت إلى مكة فسار وراءها متظاهراً بالخشوع والنسك وفي ذلك يقول:

ولمـا أن عييـت وضـاق صـدري
بمطلبهـا ومطلبهـا عسيـر
حججـت وقلـت قـد حجـت جنـان
فيجمعنـي وإيـاهـا المسيـر

إذا كانت كتب الأدب تروي ذلك، فإنها تروي عن ابن الراونديّ أنه قد صام صوماً غير مبرور ـ لو صح هذا التعبير ـ وذلك أنه كان سميناً بطيناً، فقالت له إحدى صواحبه: إن وراءك شهراً ثقيلاً فصمه ليذهب عنك هـذا السِمَن فأطـاعها تلبية لرغبتهـا لا امتثالاً لأمر ربه، وهو يعلن

هذا على العامة والخاصة فيقول في تبجح وعناد:

وقائلةٍ وقد جلست جواري سمنت وكنت قَبْلَئذٍ نحيفاً
وراءك في غدٍ شهر ثقيل فصمه لكي تكون فتى نحيفاً
لوجهك لا لوجه صَوْمي ولو أني لقيت به الحُتُوفا[1]

وغير غريب من ابن الراوندي أن يقول ذلك فقد كان خبيث العقيدة سيِّىء الطَوِيَّة، يعترض على كل شيء حتى على ربه فيعجب من مجرى الرزق في أسلوب وقح، ويهاجم الأديان في تمرد سافل فكيف تستكثر عليه ما قاله في رمضان؟ إننا نستكثر ذلك على رئيس فاضل كابن العميد مثلاً فقد كان جليلَ الخطر في عصره، مطاع الكلمة في دولته، ثاقبَ العقل، وضيء التفكير، ومع ذلك فقد تورط فيما تورط فيه غيره حين هاجم هذا الشهر مهاجمة نكتفي بأن ننقل منها هذه الفقرات «أسأل الله أن يقرب على الفلك دوره، ويقصر سيره، ويخفف حركته، ويزيل بركة الطول عن ساعاته، ويرد على غرة شوال، فهي أسنى الغرر عندي وأقرها لعيني، ويطلع بدره، ويسمعنى النعي لشهر رمضان، ويعرض عليّ هلاله أخفى من السِحْر، وأظلم من الكفر، وأنحف من مجنون بني عامر» إلى آخر ما جاء في الجزء الثاني من «زهر الآداب».

وكيفما كان الحال فقد فتح ابن العميد بذلك على رمضان ثغرة واسعة، جعلته يستمع هجاءه شعراً ونثراً بعد أن كان يأمن على نفسه من ناحية النثر ويجيء بديع الزمان الهمذاني بعد ابن العميد وهو ـ كما نعلم بتقليده ـ مُقتف أثره، فلا يفوته أن يهجو رمضانَ، فيكتب إلى أخد

---

(١) الحتوف: الموت.

رؤسائه قائلا: «خصك الله بتقصير أيامه، فهو وإن عظمت بركته ثقيلة حركته، وإن جل قدره بعيد قعره، فإن حَسُنَ وجهه فسوف يقبح قفاه، وما أحسنه في القَذال[١] وأشبه إدباره بالإقبال، جعل الله قدومه سبب ترحاله، وبدره فداء هلاله، وأمد فلكه تحريكاً، بتقضي مدته وشيكاً، وأظهر هلاله نحيفاً، لنُزف إلى اللذات زفيفاً» ونحن لا نستكثر ذلك من الهَمَذانيّ كما استنكرناه من ابن العميد، فقد كان بديع الزمان طويل اللسان، حاد القذف، متطاولاً على غيره جاحداً حقوق أولي العلم والفضل، فكيف يعترف بشهر رمضان وقد فتح له ابن العميد الباب على مصراعيه فقال ما قال!

وإذا كان نستثقل الآن صوم رمضان في وقدة القيظ وحرارة الصيف فقد وجدنا ابن عون الكاتب يستثقله في فصل الربيع إذ يرى أنه زمان البهجة، وأوان المتعة واللذاذة، فلا ينبغي أن يكدر بالصوم، وفي ذلك يقول:

جاءنا الصوم في الربيع فهلاَّ اخـ
ـتار ربعاً من سائر الأرباع
وكأن الربيع في الصوم عِقد
فوق نحر غَطَّاه فضل قناع

وإذن فالصوم عنده في الربيع قناع أسدل على نحو مضيء فمنع إشراقه وحجب التمتع برؤيته.

أما القاضي الفاضل ـ وهو من المولعين أيضاً بمحاكاة ابن العميد ـ

---

(١) القذال: جماع مؤخرة الرأس، والمراد آخر رمضان.

فقد نظم قصيدة خمرية طويلة جرى فيها مع اللذات إلى أبعد شوط، وقد حرص على أن يهاجم في مبدئها شهر رمضان ـ تقليداً لأستاذه ـ فقال:

قضى نحبَه الشهر بعد المطال ... وأطلق من قيد فتر الهلال
وروَّض كاتبَ جنبي اليمين ... وأتعب كاتب جنبي الشمال
فدع ضيقه مثل شد الإسار ... إلى فرجة مثل حل العقال

وهو بذلك قد وجه نظر أمير الشعراء رحمه الله إلى هذا المعنى بذاته فقال ولكن في أسلوب أروع ونسج أحكم:

رمضان ولَّى هاتها يا ساقي ... مشتاقة تسعى إلى مشتاق
ما كان أكثره على أُلافها ... وأقله في طاعة الخَلَّاق
بالأمس قد كنا سجيني طاعة ... واليوم منّ العيد بالإطلاق

ولا أدري كيف وقع شوقي في هذا وهو الذي باهى بنسكه وتبتله حين قال:

وأشهد ما آذيت نفساً ولم أَضِرْ
ولم أبغ في جهري وفي خطراتي
ولابت إلاَّ كابن مريم مشفقاً
على حسدي مستغفراً لعداتي

وعلى كل فإن هذه الحملة الظالمة التي قام بها الأدباء على رمضان لم تستطع أن تزحزح مكانته ـ ولو قليلاً ـ في النفوس، بل زادتها رسوخاً وثباتاً، وخرج المجانين من المعركة يجُرُّون أذيال الخيبة والهزيمة، وكل امرىء بما كسب رهين.

وبعد فما أردت بهذا العرض الموجز أن أتزيد على رمضان، فيعلم الله أني أول الناس تفانياً في محبته وإجلاله، ولكني قصدت الترفيه عن

القراء في وقت اندلعت فيه ألسنة الهجير فأحرقت الأفئدة وألهبت الجلود، ومن يدري لعل هؤلاء الأدباء يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فرب متظاهر بالصوم والعبادة وبين جنبيه قلب مدنس بالمعاصي مثقل بالآثام، ومن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها.

خليلـي، قُطَّـاع الفيـافـي إلـى الحمـى
كثيـــر، وإن الـــواصليـــن قليـــل[1]

(١) مجلة «الرسالة»: السنة ١٤، العدد ٦٨٤، رمضان سنة ١٣٦٥، ص ٨٨٥ ـ ٨٨٨.

رمضان والفكاهة

شهر الكنافة والقطايف
للأستاذ محمد سيد كيلاني

قال الأستاذ:

الكنافة أحب شيء عند الشرقيين، وبخاصة في شهر رمضان؛ إذ يتسابق الناس في شرائها والتفنن في إعدادها وحشوها بالزبيب والصنوبر والجوز والفستق، وإذا أقيمت وليمة في هذا الشهر المبارك فإن الكنافة ـ من غير شك ـ تحتل مكان الصدارة على المائدة، ولذلك يسمى شهر رمضان «شهر الكنافة والقطايف».

أما لفظ كنافة فلم يذكره أحد من أئمة اللغة، ولا نجد في الألفاظ اللغوية ما يصلح أن يكون مادة لها، فلعلها كلمة يونانية.

روى السيوطيّ عن ابن فضل الله العمري صاحب «مسالك الأبصار» أنه قال «كان معاوية يجوع في رمضان جوعاً شديداً، فشكا ذلك إلى محمد بن آثال الطبيب فاتخذ له الكنافة، فكان يأكلها في السحر، فهو أول من اتخذها».

وهذا الخبر يشك في صحته، لأن المؤرخين المتقدمين لم يشيروا إليه، ولم يذكر لنا ابن فضل الله المصدر الذي نقل عنه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الكنافة ليست الطعام الوحيد الذي يدفع به

الجوع، وهي ليست علاجاً حتى يصفه الطبيب ابن آثال، وكان من الممكن أن يقوم الرقاق مقامها ويسد مسدها، فما رواه ابن فضل الله في هذا الموضوع يجب أن يوضع موضع الشك.

ولو عُرفت الكنافة منذ عصر معاوية لذكرها الشعراء فيما ذكروا من أطعمة؛ فقد رأينا الشعراء حتى العصر العباسي الثاني يذكرون القطايف والخبيص والفالوذج وغيرها من أنواع الأطعمة، ولم نر في شعرهم أثراً للكنافة، وهذا دليل واضح على أنهم لم يعرفوها ولم يسمعوا بها.

وقد لاحظت أن الشعراء المصريين كانوا أول من لهج بذكر الكنافة في أشعارهم وأول من تغنى بها، ومن هؤلاء أبو الحسين الجزار المصري إذ يقول:

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر
وجاد عليها سكراً دائم الدر

وتبّاً لأوقات المخلل إنها
تَمُرّ بلا نفع وتحسب من عمري

ففي هذين البيتين نلمح نفسية الشاعر متبرمة ساخطة على أوقات الفقر والضيق التي لا يأكل فيها سوى المخلل، وفي ذكره كلمة «تبا» ما يدل على حالة نفسية خاصة، أما البيت الأول فهو دعاء للكنافة بالسقيا بماء الورد والسكر، وهو يدعو لها لأنه يحبها فهو في دعائه يعبر عن

شعور داخلي نستشف منه الجوع والحرمان.

وكان الفقراء من الشعراء يستهدون الكنافة من الأعيان والموسرين بشعر فيه إلحاح كبير ودعاية مضحكة وفكاهة مطربة، فمن ذلك قول الشاعر المتقدم وهو:

أيا شرف الدين الذي فيض جوده
بـراحتـه قـد أخجـل الغيـث والبحـرا
لئـن أمحلـت أرض الكنـافـة إننـي
لأرجـو لهـا مـن سحـب راحتـك القطـرا
فعجـل بهـا جـوداً فمـا لـي حـاجـة
سواها نباتاً فما يثمر الحمد والشكرا

والظاهر أن هذا الصنف من الطعام كان له عند هؤلاء الشعراء المحرومين مكانة لا تدانى، فالشاعر هنا يمهد لطلبه بوصف الممدوح بالكرم ثم يشكو فقره واشتياقه إلى الكنافة، وفي البيت الأخير تتجلى نفسيه هذا الشاعر المسكين؛ فهو يريد من الممدوح أن يعجل بإهدائه الكنافة، وقد يخشى أن يعطيه شيئاً سواها وهو لا يريد غيرها، لذلك قال بأن الكنافة وحدها هي التي تستوجب عنده جزيل الشكروعظيم الثناء.

وكان الشعراء يتغزلون في الكنافة ويصفون محاسنها وجمالها ويتمنون دوام وصالها ويتألمون لهجرها وفراقها ويشكون من صدها

وإعراضها، ونحن نقرأ ما قالوا في هذا الموضوع فنضحك، ومثال ذلك قول الجزاء المتقدم وهو:

ومـالـي أرى وجـه الكنـافـة مغضبـاً
ولـولا رضـاهـا لـم أرد رمضـانهـا

عجـب لهـا مـن رقـة كيـف أظهـرت
علـى جفـا قـد صـد عنـي جفـانهـا

تـرى اتهمتنـي بـالقطـايـف فـاعتـدت
تصـد اعتقـاداً أن قلبـي خَـانهـا

ومـذ قـاطعتنـي مـا سمعـت كـلامهـا
لأن لسـانـي لـم يخـالـط لسـانهـا

ألا خبـروهـا أننـي وحيـاتهـا
ومـن صـانهـا فـي كـل دُر وزانهـا

ليقبـح أنـي أجعـل الحشـو مـذهبـي
فـأفسـد شـأنـي حيـن يصلـح شـأنهـا

فالشاعر هنا يصور لنا افتقاره إلى هذا الصنف من الأطعمة في صورة مضحكة، فقد شخص الكنافة وهي معرضة عنه هاجرة له، ثم تساءل عن السر في هذه القطيعة وذلك الإعراض أكان ذلك لأنها اتهمته بحب القطايف والجري من ورائها فاعتبرته خائناً غادراً مجرداً من الوفاء؟ ثم أخذ ينفي عن نفسه هذه التهمة ويتبرأ منها، ويذكر أنه باق على عهده في حبه وإخلاصه لها، وأنه لا يفسد هذا الحب بوصل

القطايف، وفي البيت الأخير تورية لطيفة في كلمة «الحشو» فهو بمعنى التشبيه والتجسيم والنسبة إليها «حشوي» وهو الذي ينتمي إلى طائفة «الحشوية» المعروفة وهي تشير في نفس الوقت إلى القطايف لأنها تُحشى بالفستق والزبيب وغيره.

وهذا شاعر يتألم ويشكو لأنه لم يذق طعم الكنافة ولم ترها عينه إلاَّ عند البياع في الدكان، قال:

مـــا رأت عينـــي الكنـــافـــة إلاَّ
عنـــد بيـــاعهـــا علـــى الـــدكـــان

فمـا أتعـس هـذا الشـاعـر المسكيـن! ومـا أحـوجـه إلـى العطـف والرثاء!

وشاعر آخر يذكر ليالي الكنافة الخالدة في عمره فيقول:

ولـم أنـس ليـلات الكنـافـة، قطـرهـا
هـــو الحلـــو إلاَّ أنـــه السُحُـــب الغُـــرُّ
تجـــود علـــى كفـــي فـــأهتـــز فـــرحـــة
كمـــا انتفـــض العصفـــور بللـــه القطـــر

فهذه الليالي التي نعم الشاعر فيها بأكل الكنافة اللذيذة باقية في ذاكرته ولن تفارقه ما دام حيًّا، ففي تلك الليالي السعيدة في نظره كان حينما يمسك الكنافة بيده يكاد يجن من شدة الفرح ويهتز من فرط السرور كما يهتز العصفور الذي بلله القطر.

وانظر إلى قول هذا الشاعر:

وإليك اشتياقي يا كنافة زائد
فما لي غنى عنك؛ كلا ولا صبر
فما زلت أكلي كل يوم وليلة
ولا زال منهلاً بجرعائك القطر

فهذا تقديس للكنافة ليس بعده تقديس، ونوع من العبادة لهذا الصنف من الطعام[١]، فالشاعر يعبر عن شوقه الذي لا حد له للكنافة ويذكر أنه لا يطيق فراقها ولا يستطيع عنها صبراً.

فهي قبلته التي يتوجه إليها في الغدو والآصال لا يصرفه عنها طعام آخر ولا يلهيه عنها شيء مهما جل وعظم.

ومن الشعراء من وازن بينها وبين القطايف وفضل الكنافة عليها، ومنهم من أظهر الكنافة بمظهر الساخر من القطايف المحتقر لها، ومثال ذلك قول ابن عنين:

غدت الكنافة بالقطايف تسخر
وتقول إني بالفضيلة أجدر
طويت محاسنها لنشر محاسني
كم بين ما طوي وآخر ينشر
لحلاوتي تبدو، وتلك خفية
وكذا الحلاوة في البوادي أشهر

---

(١) لم ألمس عبادة هنا ولا تقديساً، لكنه بالغ في التعبير عن حبه لها.

ففي هذه الأبيات ترى الكنافة تزهو بنفسها وتشمخ بأنفها وتتيه كبراً ودلالاً، وتسخر من القطايف سخرية مرة، وتقول الكنافة هنا إنها أحق بالفضيلة من القطايف لأن محاسن القطايف مطوية وحلاوتها محشوة في جوفها، وهذا يغض من قدر القطايف في نظر الكنافة التي تمتاز منها بظهور محاسنها وجمالها، فالكنافة متبرجة سافرة تتصدى للناس وتلفت إليها الأنظار ببهائها وحسن روائها فيعرضون عن القطايف وينهالون عليها، فهي ناجحة في كسب الزبائن بما تثيره فيهم من كامن الشهوة، وهذه ميزات ليست للقطائف.

وكان الشعراء يتبادلون الألغاز في هذا الموضوع، ومثال ذلك ما كتبه أحد الشعراء إلى صديق له وهو:

يا واحداً في عصره بمصره
ومن له حسن الثناء والسنا

أتعرف اسما فيه ذوق وذكا
حلو المحيا والجنان والجنى

والحل والعقد له في دسته
ويجلس الصدر، وفي الصدر المنى

فأجابه بقوله:

عرفتني الاسم الذي عرفته
وكان يخفي سره لولا الكُنى

يقصد بالكُنا «الكنافة».

هكذا تناول الشعراء الكنافة، وكان شعراء مصر أكثر تناولاً لها من غيرهم، وقد أسبغوا على ما نظموه في هذا الموضوع الروح المصري الذي عرف بالخفة والمرح؛ وأولع بالدعابة والفكاهة.

أما القطايف فقد عرفت منذ العصر العباسي؛ وجاء ذكرها في شعر ابن الرومي وكشاجم وغيرهما، ومنهم من شبهها بحقاق مَن العاج، ومنهم من شبهها بوصائف قامت بجنب وصائف.

ومنهم من شبهها وقد رصت في الأطباق بالمصلين الذين يسجدون وراء الإمام، فالشاعر الذي يقول:

لله در قطائف محشوة
من فستق دعت النواظر واليدا

شبهتها لما بدت في صحنها
بحقاق عاج قد حُشِينَ زبرجدا

راعى المنظر العام لهذه القطايف ورأى أن كل واحدة منها تبدو في شكل حق له لون العاج بداخله حشو يشبه الذهب الخالص.

والشاعر الذي يقول:

وقطائف محشوة بلطائف
طافت بها أكرم بها من طائف

شبهتها نضدت على أطباقها
بوصائف قامت بجنب وصائف

لم ينظر إلى لون القطائف ولا إلى شكلها ولا إلى ما حشيت به بل نظر إلى الطريقة التي وضعت بها في الطبق ولذلك قال:

«شبهتها نضدت على أطباقها».

ومنهم من تناول القطايف ولا هم له إلاَّ التلاعب بالألفاظ وإظهار القدرة على استخدام المحسنات اللفظية والمعنوية، ومثال ذلك قول القائل:

وقطـائـف رقـت جسـومـاً مثـل مـا
غلظـت قلـوبـاً فهـي لـي أحسـاب

تحلـو فمـا تعلـو ويشهـد قطـرهـا الـ
ـفيـاض أن نـدى علـى سحـاب

ففي البيت الأول يصور القطائف رقيقة تكاد تشف عما تحتها، وقد بولغ في حشوها، والبيت الثاني قصد به المدح بالكرم لا أقل ولا أكثر.

ومنهم من جمع بين الكنافة والقطايف، ومن ذلك قول القائل:

وقطـائـف مقـرونـة بكنـافـة
مـن فـوقهـن السكـر المـذرور

هـاتيـك تطـربنـي بنظـم رائـق
ويـروقنـي مـن هـذه المنثـور

والظاهر أن المائدة التي جلس عليها هذا الشاعر كانت في منزل أحد الأغنياء لأنها جمعت بين الكنافة والقطائف، وهذا لم يكن متيسراً في ذلك الوقت إلاَّ للأعيان وأصحاب الجاه، وقد رقص الشاعر طرباً، وكاد يطير من الفرح والسرور حينما رأى الكنافة وبجانبها القطائف، فأخذ يمد يده إلى هذه مرة وإلى تلك أخرى حتى ملأ معدته[١].

---

(١) مجلة «الرسالة»: العدد ٨٨٨ السنة ١٨، ٢٥ رمضان سنة ١٣٦٩.

شهادة مردودة وفتوى مقبولة

للأستاذ أحمد عبد الغفور عطار

قال الأستاذ:

كنا نسمع ممن يكبرونا بمكة المكرمة ـ حرسها الله ـ أن الناس كانوا يَتَحَرَّوْنَ هلال رمضان بعد اليوم التاسع والعشرين من شعبان، فإذا رجل يقبل على قصر الشريف عون الرفيق أمير مكة في ذلك الزمان يريد أن يشهد أنه رأى الهلال، وبينا هو في طريقه إلى الشريف الذي كان يصدر المجلس عثر لشاهد بجرة كبيرة كانت فيه فسقط فسأله الشريف: أجئت تشهد أنك رأيت هلال رمضان قبل قليل حتى يصوم الناس غداً؟ فأجاب: نعم.

وهنا صاح الشريف في وجهه: ويلك! إذا كنت لم تر الجرة الكبيرة تحت عينيك وهي في حجم الهلال مئة مرة فتتعثر بها وتسقط على الأرض، أتستطيع أن ترى في السماء الهلال الذي لا يكاد يبين لأنه في حجم الإصبع وعلى هذا البعد! اغرب عن وجهي أيها الكذوب قبحك الله.

وهذه النادرة كانت شائعة في مكة وجدة والطائف يتناقلها الناس

في هذه المدن إلى ما قبل أربعين سنة، ويؤكدها بعض الرواة.

وسمعت نادرة أخرى ممن كانوا يكبروننا أن رجلاً من أهل جدة سأل مفتي مكة بمجلس الشريف عون قائلاً: ما قول مولانا دام فضله في الشمس تغرب في مدينة جدة فينطلق مدفع الإفطار إيذاناً بغروب الشمس فيفطر أهلها، ولكنهم لا يسمعون المؤذن إلاَّ بعد بضع دقائق، وذهب المؤذن إلى أن إفطار الناس على المدفع غير جائز، وإن إفطار من أفطروا عليه باطل، ويجب أن يقضوا هذا اليوم.

واختلف الناس وانقسموا فريقين، انضم إلى أحدهما المؤذن الذي قرر أن «الطوبجي» الذي أطلق المدفع كان على خطأ؛ لأنه لما كان على الأرض لم يرَ الشمس فأطلق المدفع فأفطر الناس على ذمته، والفريق الأكثر عدداً كان مع الطوبجي (وتنطلق في مدن الحجاز: الطُبَّجي، بضم الطاء، وتشديد الباء المفتوحة).

ويقال: إن المفتي أفتى بأن إفطار أهل جدة صحيح؛ لأن الشمس غربت عندهم، وأما الذي كان على المنارة فلا يصح أن يفطر، لأن الشمس لم تغرب عنده، فعليه ألا يفطر إلاَّ بعد غروبها وإن كان سمع مدفع الغروب، فالمطالع والمغارب تختلف، وكل قوم مقيدون بمطالعهم ومشارقهم.

وكنت أحسب أن النادرتين صحيحتا النسبة حتى قرأت في «يوميات» صديقنا الأستاذ عباس محمود العقاد التي تنشر في جريدة «أخبار اليوم» بأحد أعدادها الصادرة في ٨/ ٥/ ١٩٥٤م والمعاد نشرها

في الجـزء الثالث مـن «يوميات» بصفحـة ٦٢٠ ـ ٦٢٣ إذ ذكـر الأستاذ العقاد الحادثتين منسوبتين إلى غير الشريف عون ومفتي مكة.

يقول الأستاذ العقاد: «ونذكر لهذه المناسبة أن رئاسة القضاء الشرعي بمصر كانت موكولة إلى قاضٍ تركي من قِبَل الدولة العثمانية التي كانت صاحبة السيادة على مصر إلى أيام الحرب العالمية الأولى، وكان هذا القاضي يجلس في «بيت القاضي» عند نهاية شعبان لإثبات رؤية رمضان، وقيل له أن يستدعي رجلاً فلكياً ممن كانوا يصدرون التقاويم السنوية بالحساب القديم، وكان في الحساب ذلك الفرق اليسير الذي أشرنا إليه، فاستدعاه من باب التحقيق واستيفاء الشهادة، ولكنه كان لسوء الحظ ضعيف النظر، وكان قد دعي على عجل فأقبل مهرولاً في اللحظة الأخيرة، وهو لا يصدق أذنيه، ولم يكن في الواقع يصدق عينيه حين يزعم رؤية... بل كانت المسألة عنده مسألة تقدير وتقويم.

«واصطدم المسكين بالنارجيلة التي كان القاضي الكبير مولعاً بتدخينها، وأعجلها عن رؤيتها أنه أقبل على يد القاضي المهيب يصافحه ويحرص على تحيته فما راعه إلاَّ صيحة عالية من صاحبنا قبل أن يفتح فمه بتحية أو شهادة: أنت لم تبصر أمامك جذوة النار على مدى ذراع واحدة وتريد أن تشهد أمامنا برؤية الهلال في السماء!

وبطلت شهادة الفلكي الحسير قبل أن تسمع».

وليس بممتنع تكرار حادثة فتقع مرة هنا ومرة هناك.

كما أن الناس ينسبون إلى الحكام والمشاهير ما لم يقع منهم، وقد

نسبت إلى الشريف عون غرائب لم يكن مصدرَها، وإن كان ـ حقاً ـ صاحب غرائب كثيرة.

ويجوز أن تكون هذه الحادثة لم تقع منه، ولكنهم نسبوها إليه تندراً به، فقد كان صاحب مظالم كما ذكر إبراهيم رفعت باشا في كتابه «مرآة الحرمين» ومحمد لبيب البتانوني في كتابه «الرحلة الحجازية» وكما سمعنا من أناس عاصروه ورأوا كثيراً من غرائبه.

ومن نسبوا إليه حادثة شاهد إثبات هلال رمضان ذكروا أنه تعثر بجرة كبيرة كانت في مجلس الشريف، وما ضرورة وجودها فيه، بل لا ضرورة، وكان بوسع الرواة أن يذكروا «الشيشة» أو أي تحفة تأخذ مكان الجرة التي لا يليق وجودها بمجلس الشريف الأمير الحاكم.

وأما الفتوى فقد تكررت فذُكِرَت بالحجاز على أن سببها كان بجدة، وبمصر على أنه بالإسكندرية.

وها هي ذي الحادثة كما ذكرها الأستاذ العقاد في «يومياته» التي سبق الشاهد منها:

يقول الأستاذ العقاد: «ومن الفخر للإسلام أنه جعل للمسئولية الفردية حكمها القائم إلى جانب سلطان الإمام المطاع، فكلٌّ مسئول أمام ضميره عن صلاته وصيامه؛ وعن فرائضه وأحكامه، وبلغ من ذلك في رواية أبـي عبد الله بن أبـي موسى «أنه استفتى رجل إسكندري أن الشمس بها[1]، ومن كان على منارتها يراها طالعة، فقال: يحل لأهل

(١) كذا وردت ولعلها: غربت بها.

البلد الفطر، ولا يحل لمن على منارتها، فالحاصل لكل قوم مطلعه ومغربه وزواله» وهذه التبعات الفردية هي فخر الإسلام بين الأديان، فلا تلزم الفريضة بأمر الإمام إذا رأت عيناه غير ما رآه».

أما فتوى مفتي مكة المكرمة فغير مدونة في كتاب، ولم يوضح اسم المفتى وما نستطيع أن نجزم بوقوع الحادثة التي كان بسببها الاستفتاء، وإن كان تكرر الوقوع ليس بممتنع، فما أكثر ما تتكرر الحوادث كما تتداعى المعاني[١].

---

(١) «من نفحات رمضان»: ٢١٣ ـ ٢١٨

موائد رمضان

للأستاذ أحمد عبد الغفور عطار

قال الأستاذ:

رمضان شهر البركات والخير، يستعد له المسلمون في كل مكان قبل حلوله استعداداً ليوفوه حقه من النعمة والوفرة والخصب والثراء والتكريم، ويدخرون له المال بشتى الوسائل حتى تنبسط أياديهم بما يحقق الرغبة ويدني الثمر.

ومن أظهر مظاهر رمضان موائده الحافلة الشهية التي ترتفع عن الضرورة إلى الكمال والخلابة والسحر والفتنة والجمال.

ومن جمال موائده اجتماع الأُسرة حولها في ساعة الإفطار ينتظرون الأذان أو المدفع، فإذا سمعوه امتدت الأيدي في شوق إليها والألسنة الصالحة تهتف باسم الله.

إن رمضان يجعل من الشر خيراً، ومن أداة الهدم والتدمير بُشرى وعمراناً، فالمدفع الذي ينذر بالشر يصبح أداة بهجة وسرور للمسلم الصائم، والنفوس الشريرة التي أراد الله الخير لها تصبوا إليه في شهر

رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس ورحمة.

ورمضان شهر متفرد بين الشهور جميعها، له خصائصه، وله مظاهره التي لا يشركه فيها شهر سواه.

وهو الشهر الوحيد الذي ذكر في القرآن باسمه دون سائر الشهور، وكان في الجاهلية مقدساً مباركاً حتى سمي «الأصم» لأنه لا تسمع فيه قعقعة السلاح، فهو شهر السلام والمحبة والأمن، ومتى كان الناس في أمان وسلم ومودة كثر البر والخير.

فإذا كان المسلمون جميعاً ـ أغنياء وفقراء ـ يفرحون بلقائه لأنه يتيح لهم النعم جميعها فلهم الحق، فالأرواح تصفو، والنفوس تصحو، والأبدان تصح، والمسرات تكثر، ومطالب الروح والجسم تيسر.

وما أكثر الصنوف التي تزدحم بها مائدة شهر رمضان، كالكنافة والقطائف والسمبوسك والفلة والجبنية وأنواع الحساء والكماج والكَيْك والفالوذج والمكرونة وغيرها من الأطايب.

وما تحفل مائدة كحفول مائدة رمضان، ففيها من المطعوم والمشروب والفواكه والخضراوات ما تضيق به الموائد على سعتها.

ولو أن غريباً غير مسلم حضر مائدة رمضان في بيت فقير لظن أن الرجل يحتفي بأمير، ولو علم أن مائدته كل يوم هكذا لأدركه العجب من هذا الترف والثراء.

وهذا ـ ولا شك ـ من بركات شهر رمضان المبارك، فموائد كل يوم من أيامه في كل بيت بمكة المكرمة ـ حرسها الله ـ والمدينة المنورة زادها الله شرفاً وتعظيماً وفي سائر المدن السعودية تشبه مائدة محمد بن سليمان عامل الرشيد التي وصفها الشاعر العماني في أرجوزته الرائعة إذ قال:

جاءوا بفُرْنيٍّ(١) لهم ملبون
بات يسقي خالص السمونِ(٢)
مصومع(٣) أكوم ذي غضونِ
قد حشيت بالسكر المطحونِ
ولونوا ما شئت من تلوينِ
من بارد الطعام والسخينِ
ومن شراسيف(٤) ومن طُرْدِينِ(٥)
ومن هلام(٦) ومصيص(٧) جونِ

(١) قال الأستاذ أحمد: الفُرني، واحدته فُرْنية: وهي خبزة... تسوى ثم تروى سمناً ولبناً وسكراً.
(٢) قال الأستاذ أحمد: السمون، جمع سمن.
(٣) قال الأستاذ أحمد: مصومع، كالصومعة.
(٤) قال الأستاذ أحمد: الشراسيف، قطع اللحم من القص.
(٥) قال الأستاذ أحمد: الطردين «بضم الطاء وإسكان الراء وكسر الدال»: طعام للأكراد.
(٦) قال الأستاذ أحمد: الهلام: مرق الكباج المبرد المصفى من الدهن، أو طعام من لحم عجل بجلده.
(٧) قال الأستاذ أحمد: المصيص: حساء الدجاج واللحم.

ومــــن أوز فـــائـــق سميـــنِ
ومـــن دجـــاج فُـــتَّ بـــالعجيـــنِ
فـــالشحـــم فـــي الظهـــور والبطـــونِ
وأتبعـــوا ذلـــك بـــالجـــوزيـــنِ[١]
وبـالخبيـص[٢] الـرطـب واللـوزيـنِ[٣]
وفكهـــوا بعنـــب وتيـــنِ
والـــرَّطْـــب الازدرادِ[٤] والهيـــرونِ[٥]

هذه المائدة الحافلة تشبه مائدة رمضان في كل بيت ـ والحمد لله على نعمائه وفضله ـ وتضاف إليها «السلطات» في لغتنا العامية أو «الكوامخ» المعربة، وهي في الفصحى: الجوارش والقميحة بأنواع مختلفة كما جاءت في وصف ابن المعتز:

أمْتِـع بسلـة قضبـان أتتـك وقـد
حفـت جـوانبهـا الجـامـات أسطـارُ
فيهـا سكـارج أنـواع مصففـة
حمـر وصفـر ومـا فيهـن إنكـارُ

---

(١) قال الأستاذ أحمد: الجوزين: نوع من الحلوى يعمل بالجوز.
(٢) قال الأستاذ أحمد: الخبيص: حلوى من السمن والتمر في البادية، أما في الحضر فمن الأرز والدبس.
(٣) قال الأستاذ أحمد: اللوزين: حلوى شبه القطائف تؤدم بدهن اللوز.
(٤) قال الأستاذ أحمد: الرطب الازدراد: الفالوذج.
(٥) قال الأستاذ أحمد: الهيرون: البَرِّيُّ من التمر والرطب.

فيهــن كــامــخ طــرخــون مبــوهــرة
وكـــامـــخ أحمـــرُ فيهـــا وتيـــارُ

فيهــن كــامــخ مــرزنجــوش قــابلــه
مـــن القـــرنفـــل نـــوع منـــه مختـــارُ

وكـــامـــخ الـــدار صينـــي فليـــس لـــه
فـــي الطعـــم شبـــه ولا فـــي لـــونـــه عـــارُ

وندر بمكة المكرمة ألا تجد بمائدة صائم «السمبوسك» وهو رقاق يحشى لحماً مفريًا (مفروماً) وبعض توابل وبعض أحرار البقول كالشبث والبقدونس، كما يضع بعضنا مع الحشو قطعاً صغيرة من البيض المسلوق والصنوبر.

وما أدري ما أصل «السمبوسك» لغوياً؟ ومن أين أخذناها؟ وما طريقة وضعها إذا كان وضعها من أهل هذا البلد؟ ولكن نجد في اللغة العربية كلمة استعملت فيما نسميه «السمبوسك» هي «المُيَسَّر» ومعناها في المعجنات التي ذكرته: «الرقاق الملفوف باللحم» قال شاعر:

أكْـلُ الميسَّـرِ مـن رأسيـن يـا سكنـي
لا يستطـــاع ولا سيفـــان فـــي غمـــد

و «السمبوسك» مثلث الشكل، وعلى أشكال أُخَرَ، وأحسب أن الميسر هو «السمبوسك» والدليل أن الشاعر يقول:

إن أكـــــــل الميســــــــر   مـن رأسيـن غيـر مستطـاعـا

وهناك كلمة معربة للسمبوسك ذكرتها المعاجم وهي «البزماورد» وذكر المنجد: السمبوسك والسمبومق.

و «المهلبية» و «الطَّطْلِيُّ» من أنواع الحلوى المحببة التي لا تخلو منها موائد الإفطار في رمضان، ويقول بعض الظرفاء: إن المهلبية منحوته من «مَهْلاً بِـيَّ» تقولها هذه الحلوى لآكليها لرقتها وحلاوتها وجمالها، ويزعم بعضهم أنها منسوبة إلى المهلب بن أبـي صفرة.

و «الططلي» تركية ـ كما أظن ـ وهي من فصيلة المهلبية وتزيد عليها أن المُحّ ـ وهو صفار البيض ـ يدخل فيها، وكلتاهما تصنع من «الحليب» والدقيق، إلاَّ «الطَطْلي» فدقيقها غير دقيق المهلبية الذي هو من الأرز المصري، أما دقيق الططلي فهو دقيق يرد من الخارج واسمه الإفرنجي «كستر بودر» أي دقيق الكستر.

والاسم العربـي الذي يصلح للمهلبية هو «الرغيدة» وهي في العربية: اللبن الحليب يذر عليه الدقيق بعدما يغلي فيختلط، إنه يصلح أن يطلق على المهلبية وإن كان حليبها لا يغلي، بل يخلط به الدقيق حتى يذوب فيه ثم يغلي على نار هادئة.

و «الكَيْكُ» ـ على وزن بَيْض ـ عربية لفظاً ومعنى، وإن كان أبناء هذا العصر زادوا في الإضافة إليه أشياء ما كانت تضاف في الزمن القديم و «البريك» هو من أنواع الكيك، وهو صنوف.

ويُعْنى الناس في مكة المكرمة ـ حرسها الله ـ بالحساء ويفتنون في صنعه وألوانه، فعندهم حساء الحنطة وحساء الخضراوات والدجاج.

ويتناوله الصائم بعد أن يفطر على التمر وزمزم، وإنهم ليفتنون في التمر ويختارون أطايبه، فيخلونه من النواة ويضعون بدلها لوزاً أو فستقاً أو غيره، وقد عرفه العرب فسموه «المُلوَّز» على وزن المعظم، وهو التمر المحشو لوزاً.

والحساء ضرورة للصائم في مكة ما تخلو منه مائدته ولو كان فقيراً، وكذلك الأمر بالنسبة لكل مدن الحجاز. . .

والحساء مشهور عند العرب قديماً وحديثاً، وعرفوا حساء الدجاج والطيور وسموه «المصوص».

ومن أعظم ما يحتفل به الصائمون في موائدهم: الألماسية والكنافة والقطايف.

والألماسية نسبة إلى «الألماس» الحجر الكريم النفيس، وسموا هذه الحلواء الألماسية لأنها مثل جوهر الألماس في الصفاء والنقاء.

وتسمى عند الحجازيين «الفالوذة» وهي فارسية اسماً ونسبة وصنعاً، وتنطق فيها «بالودة» ونطق الباء بين الباء والفاء، وزعم أبو علي الفارسي: أن معناها بالفارسية «الحافظ للدماغ» وعربه العرب فقالوا: فالوذج وفالوذق، ثم وضعوا له أسماء عربية منها: السرطراط، واللمص، والمزعزع، والملوص.

وكانت هذه الحلواء خاصة بموائد الملوك والأغنياء، وما كان

غيرهم يجد سبيلاً إليها إلاَّ إذا كان على تلك الموائد الغنية المترفة.

وجاء في «العقد الفريد» ٢/٣٠٧ أن أعرابياً كان على مائدة سليمان بن عبد الملك، فكان يأكل من الفالوذج بنهم وسرعة، فمازحه سليمان قائلاً: أأزيدك منه يا أعرابي فإنه يزيد في الدماغ؟! فرد عليه: كذبوك يا أمير المؤمنين، لو كان ذلك حقًّا لكان رأسك مثل رأس البغل.

وعرفته مكة ـ حرسها الله ـ في الجاهلية على يد عبد الله بن جُدْعان الملقب بحاسي الذهب، لأنه كان يشرب في إناء ذهبي، وهو الذي أطعمه الناس في مائدة عامة.

كان ابن جدعان على مائدة كسرى، فأعجبه الفالوذج فابتاع غلاماً فارسياً يحسن صنعه، واصطحبه معه عند عودته من فارس إلى الحجاز، واصطحب من «الفالوذج» كثيراً، فلما كان بمكة ـ شرفها الله ـ بسط الموائد بالأبطح، وأعلن في الناس: من يرد الفالوذج فليقبل، فأقبلوا أغنياء وفقراء وفيهم الشاعر أمية بن أبي الصلت، وطعم منه فأعجبه فقال قصيدته التي منها:

لكل قبيلة هاد ورأس وأنت الرأس تقدم كل هادِ

ومنها:

إلى ردح من الشيزي ملاء لباب البر يُلْبَك بالشهادِ[1]

---

(١) أي خالص البُر والعسل.

ولم يقبل في عهد الإسلام الصالحون الزاهدون عليه زهداً وورعاً، لأنه طعام لا يتاح إلاَّ للملوك والأغنياء، وكان يقدم رشوة كما قال السريُّ الرفَّاء يصف جام فالوذج ويعبث بأبـي بكر الخالدي:

إذا شئـت أن تجتـاح حقًّـا ببـاطـل
وتغـرق خصمـاً كـان غيـر غـريـقِ
فسـائـل أبـا بكـر تجـدْ منـه مسلكـاً
إلـى ظلمـات الظلـم كـل طـريـق
ولاطفـه بـالشهـد المخلـق وجهـه
وإن كـان بـالألطـاف غيـر حقيـقِ
بـأحمـر مبيـضِّ الـزجـاج كـأنـه
رداء عـروس مُشْـرَبٍ بخلـوقِ
لـه فـي الحشـا بـرد الـوصـال وطيبـه
وإن كـان يلقـاه بلـون حـريـقِ
كـأن بيـاض اللـوز فـي جنبـاتـه
كـواكـب لاحـت فـي سمـاء عقيـقِ

ولكن تطلع الفقراء إلى الفالوذج كان شديداً، فصنع الطهاة منه رخيصاً بثمن لا يعسر على الفقراء يبيعونه في الدكاكين والأسواق، وضرب به المثل في السوء فقيل: «فالوذج السوق» وهو ـ كما ذكر

الميداني - من أمثال المولدين، ونظم فيه ابن الحجاج الشاعر فقال:

أعْــزِزْ علــيَّ بــأخــلاق وسمــت بهــا
عنــد البــريــة فــالــوذج الســوق

ولكن أصبح الفالوذج في عصرنا سهلاً ميسوراً للفقراء فلا يجهد أحد نفسه في الحصول عليه، فكل بيت يحويه وكل أسرة مكية أو مدنية تتقن صنعه.

وأما القطايف فعرفت في العصر العباسي وقبله بقليل، وأشار إليها الشعراء مادحين أمثال ابن الرومي وكشاجم وغيرهم، وقال كشاجم يصف القطائف:

عندي لأضيافي إذا اشتد السَغَبْ[1]
قطــائــف مثــل قــراطيــس الكتــبْ
كــأنــه إذا ابتــدى مــن كثــبْ
كــوائــر النحــل بيــاضــاً وثقــبْ
قــد مَــجَّ دهــن اللــوز ممــا قــد شــربْ
وابتــل ممــا عــام فيــه ورســبْ
وجــاء مــاء الــورد فيــه وذهــبْ
وغــاب فــي السكــر عينــاً واحتجــبْ

---

(١) أي الجوع.

فهـــو عليـــه حبـــب فـــوق حببْ
إذا رآه والـــــه القلــــب طــــربْ

أطـــــرب منـــــه إن رآه ينتهــــبْ
كـــل امــرىء لــذتــه فيمــا يحــبْ

وتفننوا في وصف القطائف تفنن من يصنعونها في صناعتها، وتبارى الشعراء في مديحها والتغزل فيها فقال شاعر:

لله درُّ قطــــائــــف محشــــوة
مــن فستــق دعــت النــواظــر واليــدا

شبهتهــا لمــا بــدت فــي صحنهــا
بحقــاق عــاج قــد حشيــن زبَــرْجــدا

وقال آخر:

وقطـــائـــف محشـــوة بلطـــائـــف
طــافــت بهــا أكْــرِمْ بهــا مــن طــائـفِ

شبهتهــا نـضــدت علــى أطبــاقهــا
بــوصــائـف قــامــت بجنـب وصــائـفِ

وما أعظم بهجة الشاعر الذي جمع له في مائدة بين القطائف والكنافة فقال:

وقطـائـفٍ مقـرونـة بكنـافـة | مـن فـوقهـن السكـر المـذرورُ
هـاتيـك تطـربنـي بنظـم رائـق | ويـروقنـي مـن هـذه المنشـورُ

أما الكنافة فحدث عنها ولا حرج، فهي زينة موائد الملوك والسوقة، وكل إليها صابٍ وبها مفتون، ولعلها أجمل ما تتزين به موائد رمضان، ويتهادى به الأحباء، وإن الكنافة ليرحل إليها من بلد إلى بلد.

ومن نفاستها يدعى غير بلد أنه صاحبها الأصيل الأول، ولكن لا دليل عند أحد، وتاريخها غير معروف بالدقة، وما دام الأمر كذلك فلا جناح علي أن أزعم حتى يأتي من يستطيع أن يثبت غير ما أقول.

وأحسب أن الكنافة انبثاقة الحضارة الإسلامية عندما بلغت أوجها الرفيع، فما يسع غير مترف أن يبتكر هذه الحلوى التي تعد عروس الموائد الفاتنة الخلوب.

وما أجد حرجاً إن زعمت أن الكنافة من أصل عربيّ، وأقصد الاسم لا المسمى، فأصل اشتقاقها مكن مادة «كنف» وما أعظم توفيق من اختار لها هذا الاسم الجميل، ففي الكنافة كل معاني هذه المادة ومشتقاتها، فمن معانيها: الظل، والصون، والحفظ، والستر، والحضن، والحرز، والجانب، والرحمة... إلخ.

فكنف الله: حرزه ورحمته، وكلنا يدعو الله مخلصاً أن يكون في كنفه سبحانه وتعالى والكنافة من نعم الله، والنعمة رحمة وحرز.

ومَن أكل الكنافة خف ظله، وعذب منطقه، وكثر بهاؤه، وربا

لحمه، وصفا شحمه، وزال سقمه.

وأما الصون فالكنافة تصون قوى النفس وتحفظها، وتزيد فيها، وتصون الإنسان من المكاره، وتحفظ البيوت من الهدم، بل ما أكثر ما عمرت من بيوت مهدومة.

كان لنا صديق غضبت عليه زوجته فغادرت منزله إلى بيت أهلها، وبقيت فيه شهوراً سعى خلالها المصلحون فأخفقوا فدخل شهر رمضان المبارك، وذكر الزوج زوجته وكنافتها، وعلمت الزوجة وذكرت حب زوجها لها ولكنافتها، فبعثت إليه بصينية صنعت ما عجز المصلحون جميعاً، فما كاد الزوج يتلقاها حتى ابتهج، وحملها ومضى بها إلى بيت زوجته ليفطر معها، فما كادت تراه مقبلاً حتى هرعت إلى دهليز البيت تستقبله، وهنا كان مدفع الإفطار قد انطلق، فأفطرا باسم الله على قبلة جمعت بين الزوجين.

فلولا ـ بعد فضل الله ـ هذه الكنافة ما اجتمع شمل الزوجين وعمر بينهما.

وقصة «معروف الإسكافي» المشهورة المروية في كتاب «ألف ليلة وليلة» فلولا أن زوجته ألزمته بأن يحضر لها كنافة بعسل نحل لما صار من الأغنياء الكبار، ومن أراد القصة فعليه بألف ليلة وليلة.

وحشو الكنافة على أنواع، فأهل مكة المكرمة ـ حرسها ـ يحشونها جبناً لا ملح فيه، وكنافة الجبن آثر الأنواع عندهم، وأهل نابلس برعوا في كنافة الجبن حتى اشتهرت بالنسبة إليها، وعرفت بالنابلسية،

ويصنعها غير أهل مكة ونابلس، ولكن هؤلاء برعوا أكثر من غيرهم. وفي الشام ومصر ولبنان تحشى بالمكسرات: اللوز والفستق والبندق... إلخ.

وتحشى بالقشدة، وتسقى بعسل النحل، وبذائب السكر المغلي على النار.

وزعم الزبيدي في تاج العروس: أن الكنافة هي القطائف، وليس بصحيح، فهما اسمان على مسميين، وبينهما خصام صوره ابن عنين فقال:

غدت الكنافة بالقطائف تسخرُ
وتقول: إني بالفضيلة أجدرُ
طُوِيَتْ محاسنها لنشر محاسني
كم بين ما يطوى وآخر ينشرُ
فحلاوتي تبد وتلك خفية
وكذا الحلاوة في البوادي أشهرُ

وخصومة الكنافة للقطائف خصومة شريفة، لم تحملْها على الفحش من القول. وإنكار المزايا مثل أبناء آدم، يفجرون في الخصام، ويركب بعضهم بعضاً بالسخرية والنبز والهمز واللمز والشتم، ويجحد كل منهم مزية الآخر، أما الكنافة فتثبت لخصمها الحسن والحلاوة، فهل بين الناس مثل الكنافة براً وإنصافاً وعفة؟!

والكنافة ـ على هذا ـ غير القطايف وهناك أدلة كثيرة منها أن الشاعر المصري ابن رقاعة نائب الأمير ناصر الدولة يقول في الكنافة:

وافى الصيام فواقتنا كنافته كما تسنمت الكثبات من كثب

وفي القطائف:

أهلاً بشهر غدا فيه لنا خلف
أكْل القطائف عن شرب ابنة العنبِ
من كل ملفوفة بيض إلى آخر
حمر من القلي تشفى جِنة السَغِبِ(١)

ولو كانتا شيئاً واحداً ما فرق الشعراء بينهما، وبين أيدينا الآن ما يسمى كنافة وما يسمى قطائف، مما يثبت أن قول الشيخ الزبيدي ليس صحيحاً.

ويظهر أن الكنافة كانت قبل عصر «الديمقراطية» وقفاً على الأغنياء وحدهم، وفي هذا العصر أصبحت للأغنياء والفقراء.

ومن نفاستها وغلائها وندرتها استهداها الشاعر المصري الجزار من غني اسمه شرف الدين فقال:

أيا شرف الدين الذي فيض جوده
براحته قد أخجل الغيث والبحرا

---

(١) أي تشفي حنون الجائع.

لئـن أَمْحلـت[١] أرض الكنـافـة إننـي
لأرجـو لهـا مـن سحـب راحتـك القطـرا
فعجـل بهـا جـوداً فمـا لـي حـاجـة
سـواهـا نبـاتـاً يثمـر الحمـد والشكـرا

وما أكثر ما قيل في الكنافة من مديح، وذكرها الشعراء كما يذكرون معشوقاتهم:

ولـم أنـس ليـلات الكنـافـة قطـرهـا
هـو الحلـو إلاَّ أنـه السحـب الغـرُّ
تجـود علـى كفـي فـاهتـز فـرحـة
كمـا انتفـض العصفـور بللـه القطـرُ

ويقول آخر:

إليـك اشتيـاقـي يـا كنـافـة زائـد
فمـا لـي غنـاء عنـك كـلا ولا صبـرُ
فمـا زلـتِ أكلـي يـوم وليلـة
ولا زال مُنْهَـلاً بجْـرعـائـك القطـرُ

وما أكثر الذين حرموا الكنافة على شوق لا مزيد عليه عندما كانت

---

(١) المَحْل: الجَدْب.

عروس مائدة الملوك والموسرين، حتى قال الشاعر:

مــا رأت عينــي الكنــافــة إلاَّ ... عنــد بيــاعهــا علــى الــدكــان

ومن أحلى حلويات رمضان: «الكريما» وتصنع من الحليب والبيض المخفوق، وأول ما طعمتُها أنا وزملاء لي في بيت زميلنا صالح محضر، وكنا زملاء بالمعهد العلمي السعودي، كان أول ما ذقنا «الكريما» في منزل الشيخ صالح محضر في شهر رمضان المبارك سنة **١٣٥١هـ** وكنا حينئذٍ طلبة بالمعهد.

وقليل من البيوت في مكة من كانوا يعرفون صنع الكريما، ومع أن أمي كانت تحسن فنوناً في الطهي وصنوف الحلوى لم تكن تعرف صنع الكريما إلاَّ نقلاً من بيت المحضر المشهور في فن الطهي.

ولما كانت صناعة الكريما مما لا تحسنه البيوت ندر وجودها على الموائد[١].

ولكن نحمد الله في زماننا هذا كثيراً؛ فقد أصبحت مائدة الفقير تتزين بهذه الأطايب التي كانت وقفاً على الأغنياء.

وهنيئاً مريئاً للصائمين على ما أنعم الله به عليهم من صوم يجزى

(١) قاله الأستاذ أحمد: بقيت الكريما نادرة إلى ما بعد عشر سنوات على نشر هذا البحث على موائد الحجاز حتى جاءتنا الكريما «الجاهزة» فانتشرت حتى على أَخْوِنة البادية، ولكن الفارق كبير بين الجاهز وما يُبْذَل فيه الجهد وما يحتاج إلى براعة وفن.
كتبت هذه التعليقة في شهر رمضان المبارك سنة ١٤٠١هـ.

هو نفسه عليه، وبركات تفيض عليهم، ونعم لا تحصى، ومنها هذه «النعائم» التي يفطر عليها كل صائم، نعم، كل صائم بجوار بيت الله الحرام.

وموائد رمضان لا تكفيها هذه الصفحات، بل لا بد لها من أسفار ومجلدات، فلعل من الكتاب من يعني بهذه الموائد يتحف بها القراء، فيضيف إلى المكتبة العربية كتاباً رائعاً نفيساً يتفرَّد في بابه، ولوناً جديداً هي في حاجة إليه.

وليهنأ الصائمون، وليوفقنا الله لصيام هذا الشهر الكريم صياماً نظيفاً سليماً لا تجرحه قذيفة من لسان، أو «طلقة» من يد.

والله الموفق لما نصمد له، إنه سميع[(١)].

---

(١) «من نفحات رمضان»: ص ٢٣٣ ـ ٢٥٢، بتصرف يسير، وقال الأستاذ أحمد: نشر هذا البحث بمجلة «الجزيرة» التي كانت تصدر بمدينة الرياض عندما كانت ملكاً للأستاذ عبد الله بن خميس، وكان نشره بالعدد الحادي عشر، الصادر في شهر رمضان المبارك سنة ١٣٨١هـ ـ فبراير ١٩٦٢م.

مزعجات رمضان

للأستاذ علي الطنطاوي

قال الأستاذ:

لست أعني بالمزعجات الجوع والعطش واضطراب ميزان اليقظة والمنام فذلك شيء لا بد منه، ولولاه لم يكن لرمضان معنى، وأي معنى يبقى لـ«التدريب العسكري» إذا خلا من المشقة والتعب وبذل الجهد، وصار نوماً متصلاً وأكلاً وشرباً واسترخاء؟

ولكن أعني مزعجات الناس، وإذا كان قراء المجلة يعدونني بأن يكتموا ما أقول عن مدير الإذاعة، لقلت لهم إن شطر هذا الإزعاج من الإذاعة، والشطر من الناس.

إزعاج يستمر من الصباح إلى المساء، ولا ينقطع لحظة واحدة نرجع فيها إلى أنفسنا ونستطيع أن نستجلي فيها طلعة رمضان، أو نحس بوجوده، ورمضان أجمل مرحلة في طريق الزمان، يمر فيه ركب الإنسانية على الروض الأنيق، فيرى المشهد البارع، ويشم العطر العَبِق، ويسمع صدح البلابل وهديل الحمام، ما يرقص من الطرب القلوب.

ولكن كيف يرى المشهد من يزدحم عليه الناس حتى يسدوا في وجهه منافذ النظر؟ وكيف يشم الأريجَ مَن تهب حوله العواصف؟ وكيف يسمع الصوت الرقيق من تحف به ضجة تزلزل الأرض؟

إنها مائدة حافلة ولكنكم لا تدعونني أتناول لقمة منها حتى تصدوني عنها.

إنه شهر التأمل والعبادة، ولذة الروح، وأنس القلب، ولكنكم لا تتركون لي ساعة، ساعة واحدة أستمتع بهدأة التأمل، وذهلة الحلم، ونشوة المناجاة.

وهذا هو الموجز، وهاكم تفصيلَ الأنباء كما يقول المذيع:

أما الإذاعة فهي لا تسكت من صباح الله الباكر إلى نصف الليل ولا تستريح ولا تريح ولا تكف لسانها دقيقة، ولو كانت تذيع ما يعين على الخشوع والعبادة في رمضان وما يذكر بالله لهان الخطب، ولكنها تذيع الأغاني التي أجمعت كلمة الإنس والجن على استنكار أكثرها.

أما الناس فإزعاجهم أكبر وأنكر، وأنا أستطيع أن أسد الرادةّ[1] فلا أسمع ما تذيع الإذاعة، أو آخذ منه ما صفا وأدع ما كدر، ولكن ما أصنع بمن لا يطرب إلاَّ إن أشرك معه بسماع الأغنية مائة جارة وجار، من أمام ومن خلف وعن اليمين وعن اليسار؟ فكيف ننام، وكيف نشتغل، وكيف نخلص التوجه إلى الله، ومن كل جهة من حولنا، هذه

---

(١) أي الراديو.

المصائب الثقال، والضجة المروعة، وفريد الأطرش وهذا الآخر ـ والعياذ بالله ـ عبد الحليم حافظ!

فإذا سكت الراد في الساعة الثانية عشرة وحاولت أن تنام، لم تمر نصف ساعة حتى يجيء «أبو طبلة» هذه الآفة التي لا دافع لها، المسحر الذي ضاقت به الصناعات والمهن فلم يجد له صنعة إلاَّ أن يحمل طبلاً ثم يأتي نصف الليل ليقرع به رأسك، ويوقظك من منامك، وأعجب العجب أن يعترف المجتمع بهذه الصنعة ويعدها من الصناعات المقررة، ويوجب عليك أن تقول له: أشكرك، وأن تدفع له في آخر الشهر أجرته على أن حطم أعصابك، وكسر دماغك.

وأنا أفهم أن يكون للمسحر موضع في الماضي، أما اليوم وفي كل بيت ساعة، وفي كل حي منارة عليها مؤذن، وفي البلد مدفع يوقظ صوته أهل المقابر فليس للمسحر موضع فينا.

فإذا انقضى السحور وأردت أن تنام عادت أختنا الإذاعة إلى (وراك وراك) و (يا بياع الورد)، وعاد الجيران إلى تطبيق الجو بهذه الأصوات، وجاء بياع الحليب، وبياع الفول، ومصلح البوابير، و (الذي عنده خزانات للبيع والذي عنده كنبات للبيع) وزلزلت الأرض بأبواق السيارات، وصراخ الأولاد.

فإن هربت إلى المسجد الأموي لتأخذ منه موعظة أو تسمع درساً رأيت النائمين مصفوفين بالطول وبالعرض يشخرون ويتنفسون من كل منفذ، وحلقات المتحدثين يضحكون ويمزحون ويغتابون ويكذبون،

ووجدت العوام يُدرِّسون بلا رخصة ولا إذن لأن العلماء غائبون، ولم تجد في المسجد شيئاً مما يجب أن يكون فيه!

فإن سرت في الشوارع رأيت المطاعم مفتوحة، والمفطرين في كل مكان، وركب أمامك في الترام من يدخن وينفخ الدخان في وجهك، مع أن القانون والعرف يمنعان التدخين في الترام، والذوق ـ إن لم نقل الدين ـ يمنع إعلان الفطر في رمضان في البلد المسلم.

فمن أين مع هذه المزعجات، من أين «يا مجلة الإذاعة» أستطيع أن أنفذ إلى الموضوع الذي تريدون مني أن أكتب فيه؟![١].

---

(١) من كتاب الشيخ الطنطاويّ: «مع الناس».

آل عثمان والرشيد

للأستاذ عبد السلام حافظ[١]

قال الأستاذ:

لم يكن هناك ثمة صلة بين عهد كل من دولتي العثمانيين ودولة الرشيد، وإنما الذي حدث هو الطرائف اللطيفة مما كان يقع في مثل هذا الشهر، وآثرنا الجمع بين الطرفتين عبر مئات السنين بينهما.

ففي أيام حكم الخليفة هارون الرشيد كانت العادة تجري يوم الشك ـ اليوم الأخير من شهر شعبان ـ أن يجتمع الفقهاء، وقاضي المسلمين يومها شريك في مجلس الخليفة الرشيد، يرتقبون ما يصل إليهم من أخبار عن ثبوت رؤية هلال شهر رمضان من عدمها، ليعتمد المسلمون بدء صيامهم أو استكمال شعبان ثلاثين يوماً، وظلوا

(١) عبد السلام هاشم حافظ، أديب شاعر كاتب، ولد بالمدينة المنورة سنة ١٣٤٧، ودرس الابتدائية بها، وأكمل دراسته في المسجد النبوي الشريف، وأصيب في صغره وشبابه بأمراض، وعمل في بعض الوظائف الحكومية، فاز ببعض الجوائز العربية والعالمية ونشرت له وزارة الثقافة المصرية والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بعض الكتب، وله مصنفات عديدة، توفي رحمه الله تعالى سنة ١٤١٥.
انظر «تتمة الأعلام»: ١/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

ينتظرون حتى الظهر عندما وافتهم الأنباء بعدم رؤية الهلال الجديد في أي مكان.

وكان أمام الخليفة كوم من التفاح راح يلقي منه على الحضور الذين سارع كل منهم بالتهام تفاحته، إلاَّ القاضي شريك فإنه لم يتناول التفاحة، وكان يحدجه كبير الفقهاء أبو يوسف، فعن له التندر بما حدث والإيقاع بالقاضي عند الخليفة، فأشار إليه قائلاً: انظر يا أمير المؤمنين إلى قاضيك يخالفك إذ أنه أبـى أن يأكل ويريد أن يتم صيام اليوم.

وتنبه القاضي إلى تخلص ذكي من هذا المأزق في الوقت الذي يوقع فيه بأبـي يوسف ومن حوله، فاتجه إلى الرشيد يقول: لم أخالفك يا أمير المؤمنين بل هو الذي خالفك وأصحابه، إنما أنت إمام ونحن رعية لا نفطر حتى تفطر أنت وليس لنا أن نتقدمك، فسر الخليفة منه ورد عليه: صدقت وتناول التفاحة يقضم منها فتبعه القاضي شريك باسماً مرتاحاً.

أما ما حدث في قصر خلافة آل عثمان الذي كانت تقام فيه ولائم الإفطار طيلة شهر رمضان، ويحضر إليها كل من يشاء من الناس كبراؤهم وصغارهم وعامتهم.

من الطريف في طريقة الجود التي كانت تجري أن كل من تناول إفطاره يتسلم بعده بقشيشاً يسمى بالتركية «ديش كراسي» ومعناه «أجرة الأسنان» أي مقابل ما تكلفه المفطر في مضغ طعامه، وكان يوزع هذا البقشيش المختلف على جميع الطبقات حسب مستوياتها، فمثلاً إذا

كان الوزير يأخذ مائة ليرة فمن دونه يأخذ الأقل فالأقل وهكذا، حتى الناس، أما حراس القصر من الضباط والعسكر فإنهم يتلمسون مكافآتهم «ديش كراسي» في نهاية شهر رمضان، كل بمقدار راتبه الرسمي للشهر.

وظلت هذه العادة الإحسانية سنين طويلة. ثم ما لبثت أن اختص بها جواسيس السلطان المنتفعون كلما قدَّموا تقارير صالحة لقصر الخلافة.

وقبل أن نختم حديث اليوم نستذكر شكوى جمع من الشعراء رفعوها شعراً إلى المحتسب في أوائل القرن العاشر الهجري بمناسبة ارتفاع أسعار الحلوى في شهر رمضان، والقصيدة طويلة وبها مضامين جميلة ولكن نجتزىء منها بالأبيات الثلاثة التالية:

لقد جادَ بالبركات فصلُ زماننا
بأنواع حلوى نشرُها يتضوَّعُ

فلا عيبَ فيها غير أنَّ محبَّها
يبدِّد فيها ماله ويضيع

فيا قاضياً بالله محتسباً عسى
ترخَّص لنا الحلوى نَطيبُ ونرتع[1]

---

(١) «رمضان والناس»: ٥٧ ـ ٥٩.

فهرس الموضوعات



فهرس الموضوعات

• • •